

اتحاد المؤرخين العرب  
بالقاهرة

# مجلة المؤرخ العربي

تصدر عن  
اتحاد المؤرخين العرب  
بالقاهرة

---

العدد الخامس      المجلد الأول      مارس ١٩٩٧

---

اتحاد المؤرخين العرب  
بالقاهرة

# مجلة المؤرخ العربي

العدد الخامس - المجلد الأول

مارس ١٩٩٧

## هيئة التحرير

رئيس التحرير	أ. د. سعيد عبد الفتاح عاشور
نائب رئيس التحرير	أ. د. عبد المالك التميمي
عضوا	أ. د. سهيل زكار
عضوا	أ. د. عبد الرحمن الأنصاري
عضوا	أ. د. الحبيب الجنحاني
عضوا	أ. د. جمال زكريا قاسم
عضوا	أ. د. محمد رزوق

## هذه المجلة

- علمية تاريخية بحتة ، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ، تستهدف الحقيقة التاريخية صافية نقية بعيدة عن أى تيارات سياسة أو عقائدية .
- البحوث التى تنشر فيها محكمة ، تعبر عن وجهة نظر أصحابها ؛ وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد فيها من آراء علمية .
- تصدر مؤقتاً سنوية فى شهر مارس من كل عام ، على أن تصلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق .
- لا يزيد البحث المقدم للنشر عن أربعين صفحة منسوخة على الآلة الكاتبة ، ويكون البحث من نسختين : أصل وصورة .
- تخصص أقسام فى المجلة لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات .
- الأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها فى حالة عدم إجازتها للنشر بالمجلة .
- يأتى ترتيب البحوث المنشورة وفق أسبقية ورودها وإجازتها للنشر ولا علاقة إطلاقاً بين هذا الترتيب ومكانة الباحث أو درجته العلمية .
- جميع المراسلات تكون باسم الأستاذ الدكتور رئيس اتحاد المؤرخين العرب ( كلية الآداب - جامعة القاهرة - أورمان - جيزة - مصر ) .





## المؤرخ العربى

مجلة تاريخية علمية محكمة تصدر عن

اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد الخامس - المجلد الأول - مارس ١٩٩٧

### فى هذا العدد

- كلمة الافتتاح
- أحداث تاريخية فى الأدب المصرى القديم
- ظهور إمارة الحيرة فى التاريخ العربى
- الترتيبات المالية فى تاريخ غزوة خيبر
- وصية معاوية بن أبى سفيان لابنه يزيد
- الإسلام واللغة العربية فى دول الطراز الإسلامى
- علاقة الإمارة الصفارية بالدولة العباسية
- محاولة المهتدى بالله الإصلاحية
- العلاقة بين مغول فارس ومغول القفجاق
- حياة التسلية والترفيه فى المجتمع الأندلسى
- الصرب بين البيزنطيين والبلغار
- فئات القضاة فى الدولة العثمانية
- علاقات الدولة السعودية الأولى بولاية العراق والشام
- سياسة حكام مصر تجاه تجارة الرقيق
- أضواء على بعض التحف الفنية فى الحجرة النبوية
- آثار درب الهجرة النبوية فى عصر الدولة العثمانية
- رئيس التحرير
- د. علاء الدين عبد المحسن شاهين
- أ. إبراهيم إبراهيم عنانى
- د. صلاح التجانى محمد هودى
- د. يوسف بن أحمد حوالة
- د. غيثان بن على بن جريس
- د. عبد العزيز عبد الله السالم
- د. على بن صالح المحميد
- أ. د. محمود سعيد عمران
- د. سعد عبد الله البشرى
- د. عادل عبد الحافظ حمزة
- د. سعيد بن سعد سفر الغامدى
- د. عايض بن خزام الروقى
- د. عمر سالم عمر بابكور
- د. عائشة عبد العزيز محمد التهامى
- د. جمال محمود مرسى



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## كلمة الافتتاح :

### مدرسة التاريخ

لا نريد أن نبالغ فى تصوير الصعاب التى يمر بها عالمنا العربى اليوم ،  
فنحاكى البعض فى الحكم بأنها بلغت درجة من التفاقم لا مزيد عليها ، وبأن  
الأمـل فى إصلاحها غدا صعباً ...

وفى الوقت نفسه لا نريد أن نبالغ فى التستر على الأخطاء ، والعمل على  
إخفاء الجانب المظلم فى واقعنا المعاصر ، لنردد قول القائلين بأنه ليس فى الإمكان  
أحسن مما كان ؛ وبأن الأمة العربية اليوم تبدو فى أتم صحة وعافية ، لا يشوب  
واقعها شائبة ، ولا يعيب حاضرها معابة ...

إن العرب بشر. لهم فى تاريخهم الطويل حسناتهم كما أن لهم أخطاءهم . وأمة  
العرب ليست إلا واحدة بين آلاف الأمم التى يزخر بها التاريخ فى كل زمان  
ومكان ... لها إنجازاتها ومعطياتها الحضارية ، ولا تخلو مسيرتها من انحرافات وأخطاء.  
ومن ينشد الإصلاح والإصلاح ، عليه أن يراجع نفسه ليقف على ما قدمت  
يداه من صواب وخطأ . عليه ألا يتستر على خطأ وقع فيه ، فالرجوع إلى الحق هو  
أسلم الطرق للإصلاح ، ومراجعة النفس هى الخطوة الأولى على طريق الإصلاح .  
ولا عيب فى أن يخطأ الإنسان ، وإنما العيب هو أن يخفى الإنسان خطأه ،  
ولا يعترف به وبذلك يتفشى المرض ويصعب علاجه .

وفى ضوء هذه المبادئ علينا أن نسلم بأن هناك أخطاء يشكو منها واقعنا  
العربى . أخطاء على المستويات السياسية والاجتماعية والاقتصادية... أخطاء تركت

بصماتها فى المسيرة الحضارية لهذه الأمة ، التى قدمت للعالم فى مرحلة سابقة  
أزهى وأنقى ألوان الحضارة البشرية ... علينا أن نعتزف بأن أمة العرب اليوم فى  
حاجة إلى قدر من الإفافة واليقظة ... إن الانحراف والحمد لله ليس متعذر الإصلاح ،  
والمرض ليس مستعصى العلاج؛ فالجذور قوية ، والأصول ثابتة ، والعقيدة راسخة،  
والإيمان بالله متغلغل فى القلوب ، متمكن من الصدور والعقول .

\* \* \*

فإذا أخذنا بمبدأ الإصلاح فإنه ليس أمامنا إلا مدرسة التاريخ لتعلم ما لم  
نعلم ، ونعرف أين كنا وأين صرنا . علينا بالرجوع إلى التاريخ لنقف على أوجه  
الصواب والخطأ ، ونحاول الإفافة من دروس الماضى لنواجه أخطار الحاضر ونخطط  
لمستقبل أفضل .

وهنا نجد أنفسنا أمام عبارة ذكرها ابن خلدون - رحمه الله - فى مقدمته ،  
إذ يقول عن التاريخ إنه :

[ فن عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية . إذ هو يوقفنا على  
أحوال الماضين من الأمم فى أخلاقهم ، والأنبياء فى سيرهم ،  
والملوك فى دولهم وسياستهم ؛ حتى تتم فائدة الإقتداء فى ذلك لمن  
يرومه فى أحوال الدين والدنيا ... ] .

وفى هذا الإطار الذى رسمه ابن خلدون يتحرك اتحاد المؤرخين العرب  
مستهدفاً الإفافة من دروس الماضى لبناء حاضر سليم والتخطيط لمستقبل يتفق  
وأبجاد الأمة العربية .

والله ولى التوفيق ،،،

**رئيس التحرير**

# أحداث تاريخية في الأدب المصرى القديم<sup>(\*)</sup>

د. علاء الدين عبد المحسن شاهين<sup>(\*\*)</sup>

## ١ - تمهيد

تميز الأدب المصرى القديم بأصالته وبتعبيره عما كان يدور فى عقول المصريين القدماء . وقد تعددت أنماطه وأشكاله الأدبية من قصص ومغامرات وأساطير دينية ، وتنبؤات وحكم وأمثال - فيما عرف بأدب الحكمة - عكست خبرة كاتبها ، وما تضمنته من نصائح مفيدة ، يجب على سامعها إتباعها بغية الوصول إلى طريق الكمال . هذا فضلاً عن الرسائل الشخصية والقصائد الشعرية المتعددة الموضوعات ، والتراتيل الدينية لصالح آلهة مصرية متعددة . وقد دوّن الجزء الأكبر من الأدب الفرعونى بالخط الهيراطيقى والديموطيقى ، وذلك على ورق البردى أو قطع الأوستراكا ، وعكست تلك النصوص ملامح متعددة من جوانب الحياة اليومية للمصريين القدماء ، وملمحاً مختلفاً عما درج المرء على معرفته فيما يتعلق بحضارة مصر القديمة ، بما غلب عليها من طابع جنازى ، وما طُبعت عليه النظرة الأولى لتلك الحضارة على أنها مكرّسة لعالم ما بعد الموت<sup>(١)</sup> .

وقد عكست النصوص الأدبية فى مصر الفرعونية بعض الوقائع التاريخية فى ارتباط مع أوضاع مصر السياسية الداخلية منها أو الدولية ، وبالمثل العلاقات الاجتماعية المتشابكة أحياناً بين أفراد الأسرة الملكية ، وجهود بعض حكامها فى تأمين حدود مصر اتقاء لأخطار خارجية ، أو لإعادة السلطة المركزية على كامل

---

(\*) هذا البحث الموسع كان موضوع محاضرة عامة أُلقيت فى إطار الموسم الثقافى لرابطة أدباء

الكويت - الكويت ( إبريل ١٩٩٦ ) .

(\*\*) كلية الآثار جامعة القاهرة، ومعار حالياً بقسم التاريخ ، كلية الآداب - جامعة الكويت.



شطرى وادى النيل ( دلتا وصعيد مصر ) إلى نصابها ( انظر خريطة (١) ) . ومن أهم تلك النصوص الأدبية فى إطار ما عرف بالقصص المصرى قصة خوفو والسحرة ( بردية وستكار ) ، القروى ( الفلاح ) الفصيح ، سنوهى ، نجاة ( الملاح الغريق ) ، قصة أبوفيس وسقن رع ( بردية ساليه ) ، خطة تحوتى فى الاستيلاء على يافا وقصة ون آمون . ومن بين نماذج أدب الحكمة والنقد السياسى سنتناول تحذيرات إيورور ، نبوة نفرهرو ( نفرتى ) ، تعاليم خيتى إلى ابنه مريكار رع ، وتعاليم أمنمحات الأول . أما نصوص الرسائل فسنقصر حديثنا فيها على الرسالة الملكية إلى حرخوف ، رسائل حقاخت ، ومجموعة رسائل أواخر عصر الرعامسة . وسنتناول تلك النصوص الأدبية ليس بهذا التقسيم الأدبى الحرفى ، ولكن من منظور تاريخى عبر فترات الأحداث التاريخية لمصر الفرعونية منذ عصر الدولة القديمة ( ٢٦٨٦ - ٢١٨١ ق.م . ) إلى أواخر الحضارة المصرية فى بدء فترة الانتقال ( الإنهيار ) الثالث والآخر ( ١٠٨٥ - ٦٦٤ ق.م . ) .

## ٢ - من أدب الدولة القديمة ( ٢٦٨٦ - ٢١٨١ ق.م . ) :

لعل من أهم النماذج الدالة على ما يمكن استنباطه من النصوص الأدبية من فترة الدولة القديمة لفهم تلك التغيرات السياسية التى تمت أواخر الأسرة الرابعة وأوائل الأسرة الخامسة هو ما ورد ضمن النص الأدبى المعروف باسم " قصة خوفو والسحرة " أو " بردية وستكار " <sup>(٢)</sup> المحفوظة حالياً فى متحف برلين برقم ٣٠٣٣ والتى عكست نصوصها ما هدف إليه مؤلفها من أنصار آله الشمس " رع " من بحث عن أصول قدسية ، ومولد إلهى لأوائل ملوك الأسرة الخامسة ( ٢٤٩٤ - ٢٣٤٥ ق.م . ) كبرير لاغتصابهم العرش الملكى ، وبدء فرع جديد لأسرة حاكمة ، وكيف أن هؤلاء الملوك قد حملت بهم زوجة كبير كهنة رع ذاته :

" انظر إنها زوجة كاهن رع فى بلدة سخبو وهى التى حملت فى ثلاث أطفال لرع رب سخبو ، وقد أخبرها أنهم سيتولون هذه الوظيفة ( ملوكاً على

مصر) فى كل هذه البلاد ، وأن أكبرهم سيكون الكاهن الأعظم فى عين شمس<sup>(٣)</sup> " .

وتلقى نصوص هذه البردية الضوء على الأوضاع السياسية فى نهاية الأسرة الرابعة وما صاحبها من ازدياد النفوذ الدينى للعقيدة الشمسية . وقد ارتبط بفترة حكم ملوك هذه الأسرة الخامسة ازدياد نفوذ الديانة الشمسية ، وما ارتبط بها من إنشاءات خاصة لمعابد الإله رع كتقليد معمارى جديد ارتبط بفترة حكم هذه الأسرة ، وهو ما عرف باسم " معبد الشمس " <sup>(٤)</sup> ( انظر شكل ١١ - ب ) .

إضافة إلى ذلك فإن النقوش المصرية القديمة لبعض كبار رجال الحكم ، خلال فترة الدولة القديمة تعتبر فيما يعرف باسم " السير الذاتية " مصدراً أدبياً هاماً يمكن الاستفادة منه فى معرفة بعض الأحداث والوقائع الهامة - من وجهة نظر كاتبها - شارك فيها ، أو لعب دوراً بحكم منصبه فى تنفيذها من قتال دفاعاً عن مصر ، أو ملقياً الضوء على مؤثرات داخلية ومظاهر للتحلل والانحيار فى سياسة الدولة المركزية مما قد لا تعكسه المصادر التاريخية الرسمية للدولة ، أو ربما تعرض كشفاً جغرافياً هاماً بحثاً عن موارد اقتصادية مثلما يتضح بصفة خاصة من نصوص القائد المصرى " ونى " ، وحاكم أسوان " حرخوف " .

وقد أشارت نصوص الرسالة الملكية التى تلقاها " حرخوف " حاكم أسوان فى صعيد مصر من مليكه " مرن رع " والمدون على جدران مقبرته بأسوان<sup>(٥)</sup> مدى اهتمام حاكم مصر آنذاك من الأسرة السادسة بتكليف من يراه مناسباً لأعمال الكشف الجغرافى إلى جنوبى مصر بحثاً عن موارد اقتصادية مرغوب فيها<sup>(٦)</sup> وبدون الحاجة إلى وسيط تجارى ، وهو الدور الذى مارسته جماعات من أهل منطقة النوبة السفلى آنذاك . وبالإضافة إلى ذلك فإنه يمكن لنا من تلك النصوص استنباط وجود أول محاولة سياسية لتوحيد بعض المجموعات البشرية فى النوبة تحت إمرة حاكم واحد ، وهو الأمر الذى لم يرد له ذكر فى أى مصدر

تاريخي آخر . وأخيراً توضح لنا نصوص حرخوف مدى التداخل المصري جغرافياً إلى الجنوب من الجندل الثالث ، أو منطقة بوتانا ، أو إلى الجنوب الغربي من السودان باتجاه مناطق السافانا الأفريقية استناداً على التباين في تحديد الموقع الذي ذهب إليه حرخوف في منطقة ( إ ) يام في رحلاته الكشفية .

### ٣ - من أدب فترة الانتقال الأول ( ٢١٨١ - ٢٠٤٠ ق.م. ) :

حدث خلال فترة الانتقال الأول ( عصر اللامركزية الأولى ) ( ٢١٨١ - ٢٠٤٠ ق.م. ) أن انهارت السلطة المركزية ، وانقسمت مصر إدارياً إلى مقاطعات عديدة ، وضعفت أثناءها يدها القوية سياسياً وعسكرياً على حدودها الشرقية ، مما مكن بعض الجموع الآسيوية من التداخل إلى شرق دلتا وادي النيل حيث عاثت فساداً . وقد عكست لنا بعض النصوص الأدبية تصويراً لما حاق بمصر آنذاك من انهيار سياسي واقتصادي ، ومن خلل في الأمن الداخلي والخارجي . ومن أهمها نصوص بردتي إيبو - ور ونفرتي ، القروى الفصيح ، ونصائح الملك " خيتي " إلى ابنه مريكارع . وتتمثل أهمية تلك المصادر الأدبية في كونها المصدر الأساسي لفهم الأحداث التاريخية خلال تلك الفترة الزمنية لانهيار السلطة المركزية، الأمر الذي جاء مصحوباً بعدم توافر مصادر تاريخية رسمية ملكية الطابع ، أو ما يمكن نسبه إلى كبار رجال السلطة المركزية من جهة ، ولعدم توافر الآثار الملكية المدنية منها أو الجنازية من جهة أخرى .

وتوضح لنا نصوص بردية إيبور ( بردية ليدن رقم ٣٤٤ )<sup>(٧)</sup> مدى الفوضى السياسية التي حاقت بمصر في أوائل فترة الانتقال الأول والإشارة إلى التداخل الآسيوي في شرق دلتا وادي النيل ، ومدى ما أثارته تلك النصوص من جدل تاريخي حول الربط بين هؤلاء الآسيويين وبين ما يعتقد أنه اندفاع أموري ( شمال غرب آسيا ) ضد فلسطين<sup>(٨)</sup> ، مما أدى إلى اندفاع بعض المجموعات البشرية الآسيوية باتجاه مصر .



ودعمت تلك الآراء ما عُثر عليه من آثار أجنبية الأصل مشابهة لمثيلاتها فى غرب آسيا<sup>(٩)</sup> وقد عكست لنا نصوص " إيبو - ور " تلك الفوضى السياسية والتداخل لبعض العناصر الأجنبية لمصر :

" ما عاد أحد يحر اليوم نحو جيبيل ، فما الذى سوف نفعله بخصوص أخشاب الأرز ، التى اعتدنا أن نصنع منها تواييتنا ، والزيت التى يحنط الكبراء بها، وترد من هناك ، ومما يجاور كفتيو . ما عاد يأتى من ذلك شىء ، وانعدم الذهب ( فى الخزائن ) ، وقلّت موارد كل الأعمال حتى أصبح يجئ أهل الواحات بممتلكاتهم ( البسيطة ) شيئاً ذا بال " (١٠) .

إضافة إلى ذلك ، فإن نصوص " إيبو - ور " تتميز بمدى ملموس من الجرأة السياسية فى مخاطبة أحد أفراد الشعب لحاكمه ، بل وإلقاء اللوم عليه فيما ألم بالبلاد من انهيار سياسى ، وتداخل لعناصر أجنبية للمكان :

" إن أصدقاءك قد كذبوا عليك . البلاد تعمل ، والناس على شفاً الهلاك . ما هذا الذى حدث فى مصر ؟ لديك الحكمة والبصيرة ، ولكنك تترك الفساد ينهش البلاد ، الحقيقة أنك أوصلت البلاد إلى هذا الدمار ، الحقيقة أنك تنفوه كذباً (١١) " .

أما نصوص بردية " القروى ( الفلاح ) الفصيح " من الأسرة التاسعة الهناسية الأصل ( ٢١٦٠ - ٢١٣٠ ق. م . ) فقد ألفت ضوءاً هاماً على تصور إعادة هيكल الحكم المركزى للملك تلك الأسرة ، وما تلتها<sup>(١٢)</sup> . ويستنبط من هذا النص الأدبى الذى يعتبر نموذجاً لروح الفصاحة والبيان فى الأدب المصرى وجود مقر حكم ( عاصمة سياسية ) وحكم وزراء قائمين على تصريف شئون الحكم ، وسلطة أمن داخلية لمساعدة الحاكم ولتسيير أمور الدولة وفرض مفهوم العدل وتطبيقه على الجميع ، مما يوضح لنا أن مصر خلال فترة انهيارها السياسى (الانتقال الأول) بدأت تضع أولى لبنات العودة إلى مفهوم الحكم المركزى

وفرضت سلطتها السياسية على مقاطعات شمال صعيد مصر ووسطه وحتى حدود مناطق التماس مع مملكة طيبة فى منطقة العراة المدفونة . وبالمثل كشفت لنا تلك النصوص قدرة مصر على تنظيم أمورها الإدارية ، وإعادة تجهيش الأفراد للخدمة العسكرية ( الجيش المحلى ) مما مهد الطريق أمام ملوك أواخر فترة الانتقال الأول لتحقيق حلم الوحدة السياسية الشاملة لشطرى وادى النيل ، تحت إمرة حاكم واحد .

وتتضح تلك الملامح نحو إعادة هيكلة الدولة أيضاً فى النص الأدبى المعروف بنصائح نخيتى إلى ابنه مريكارع أحد ملوك الأسرة العاشرة الاهناسية الأصل (٢١٣٠-٢٠٤٠ ق.م.) والمحفوظ حالياً فى متحف ليننجراد برقم ١١١٦ أ. (١٣) ويستنبط من هذا النص الأدبى تمكن الحاكم المصرى من تأمين مقاطعات غرب الدلتا وحتى شاطئ البحر ، واستمرارية التواجد الآسيوى فقط فى شرق الدلتا ، وكذلك حث الملك لابنه على تنظيم نوع من الوجود العسكرى والبشرى يمتد من وادى الطميلات إلى القنطرة فى شرق الدلتا للتمكن من مواجهة وصد تسلات الآسيويين :

" إذا قامت بلادك من جهة الجنوب بشورة فإن ذلك يكون حافزاً لقيام الأجنب فى الشمال بحروب ضدك . فعليك إذن أن تقيم مدناً فى الدلتا . والبلد الآلهة بالسكان لا تمس بسوء ، فابن مدناً " (١٤) .

وأخيراً نستنبط من هذا النص الأدبى ملامح الصراع العسكرى بين مقاطعات صعيد مصر ممثلاً فى مملكتين : أهناسياً فى شمال ووسط الصعيد حتى إقليم " ننى " ( العراة المدفونة ) ، وطيبة ( الأقصر حالياً ) إلى الجنوب من ذلك وحتى أسوان ، كما نستنبط غلبه النصر التمهيدى لاهناسياً ، واندفاعها العسكرى ضد الجنوب (١٥) ، وتمكن المملكة الطيبية من فرض سيادتها العسكرية والسياسية آخر الأمر ضد المملكة الاهناسية ، وتمكنها فى مرحلة تالية من إكمال النفوذ

المصرى لمملكة الجنوب على كامل تراب مصر فى عهد الملك " نب حبت رع  
مونتو حتب " حوالى ٢٠٤٠ ق. م. (١٦) .

#### ٤ - من أدب الدولة الوسطى ( ٢١٣٣ - ١٧٨٦ ق. م. ) :

ومع إعادة كامل الوحدة السياسية لشطرى وادى النيل على يد " نب حبت  
رع مونتو حتب " من الأسرة الحادية عشر الطيبة الأصل ، ثم خلال فترة حكم  
ملوك الأسرة الثانية عشر فيما عُرف بعصر الدولة الوسطى ( ٢١٣٣ - ١٧٨٦  
ق. م. ) نجد العديد من المصادر الأدبية التى تلقى المزيد من الضوء - إلى جانب  
بعض المصادر الملكية والخاصة - على علو مكانة مصر السياسية والحضارية داخليًا  
وخارجيًا فى المنطقة الجغرافية إلى جنوب مصر : النوبة ، أو فى مناطق شرق  
حوض البحر المتوسط أيضًا ، أو انعكاسًا لمفهوم النبوءة السياسية للتمهيد لحكم  
ملك ما ، أو سرد لاغتيال سياسى . ولعل من أهم تلك النصوص ما يعرف ببردية  
تنبؤات نفرهرو ( نفرتى ) ، سنوهى ، نصائح الملك أمنمحات الأول إلى ابنه ،  
قصة نجاة الملاح ( الملاح الغريق ) ، وكذلك نصوص رسائل الكاهن المزارع حقًا  
نخت إلى ابنه .

وتوضح نصوص بردية " تنبؤات بردية " تنبؤات نفرهرو ( نفرتى ) المحفوظة  
حاليًا بمتحف ليننجراد برقم ١١١٦ ب (١٧) ملامح الضعف السياسى لمصر أثناء  
فترة الانتقال الأول ، وتداخل الآسيويين إلى مصر خلالها :

" ظهر الأعداء فى الشرق ( حرفيًا : الآسيويون على الأرض تواجدوا فى  
الشرق ) ، واقتحم القبليون ( الآسيويون ) مصر ( حرفيًا : لقد نزل العامر إلى  
مصر ) لقد أصبحت البلاد خرابًا فلا يوجد من يهتم بها ، ولا من يتكلم عنها ،  
ولا من يذرف الدمع ، فأية حال تلك التى عليها البلاد " (١٨) .

وتتمحور نصوص البردية بعد ذلك حول النبوءة التى تبشر بظهور المخلص  
( المنتد ) أميسى ( أمنمحات ) ، وقدرته على إعادة " لأمن والأمان لمصر كنوع من

الدعاية السياسية . إضافة إلى ذلك ، فإنه يمكن الاستنباط من نصوص هذه البردية قدرة أمنمحات الأول على تنفيذ سياسة " السلام المسلح " باهتمامه بحدود مصر الشرقية ، ودوره فى طرد بقايا فلول الآسيويين من شرق الدلتا ، وتشييده لسلسلة من الحصون على تلك الحدود .

" إن جدار الأمير ( حصن ) سوف يشيد ، وسيمنع الآسيويون من الدخول إلى مصر ، وأنهم سيستجدون الماء من مصر ثانية كمألف عادتهم ، لكى تردها أنعامهم(١٩) .

ولقد تردد صدى تلك التحصينات أيضاً فى النص الأدبى المعروف بقصة سنوهى ، وربما كان أكثرها فى مدخل وادى الطيملات ( فى محافظة الشرقية ) . وتعتبر البردية نموذجاً جيداً للدعاية السياسية قصد بها كاتبها تبرير استيلاء الملك على الحكم(٢٠) .

وتضيف لنا نصوص قصة سنوهى(٢١) مزيداً من المعلومات عن بعض أهم الأحداث التاريخية فى فترة حكم أول ملوك الأسرة الثانية عشر : الملك أمنمحات الأول ( ١٩٩١ - ١٩٦٢ ق.م ) ، وولى عهده سنوسرت الأول من مشاركة فى السلطة ، وفى اشرافه على نشاط مصر العسكرى ضد القاطنين على حدودها الغربية والذين ذكرتهم النصوص المصرية باسم التمحو والتحنو ( ليبيا ) .

" وكان قد أرسل جلالته جيشاً إلى أرض التمحو وكان بكر أولاده سنوسرت الطيب ، ضابطاً فيه ، وقد كان فى هذه الأثناء عائداً بعد أن استولى على أسرى من التحنو ، وكان أنواع الماشية التى يخطئها العد(٢٢) " .

وتعكس نصوص البردية فى معرض السرد صورة لهروب سنوهى من مصر شرقاً باتجاه سيناء ومنها إلى فلسطين واجتيازه لنقاط المراقبة والحصون المعروفة باسم " جدار ( سور ) الحاكم " الأمير " والمشييدة لصد البدو ساكنى الرمال : " لقد ربضت بين الأعشاب خوفاً من أن يرانى ذلك الحارس القائم بالعمل فوق الجدار . وفى الليل استأنفت السير(٢٣) " .

كذلك فإن نصوص سنوهى حال عودته إلى مصر بعد صدور العفو الملكى عنه تشير إلى استخدامه الطريق البرى الشهير باسم " طرق حورس " ، وهو نفسه الذى وردت إشارات عديدة إليه فى النصوص المصرية وخاصة من عصر الدولة الحديثة أثناء مجد مصر الامبراطورى (٢٤) ، وكذلك تشير إلى انتظار سنوهى عند إحدى تلك النقاط للمراقبة على الحدود لحين وصول الإذن الملكى للسماح له بالدخول إلى منطقة شرق دلتا النيل ، وهو ما تم بالفعل ، إضافة إلى سفينة خاصة أرسلت لنقله إلى البلاط الملكى :

" توقفت عند القنطرة . وأرسل الضابط المكلف بالحراسة هناك رسالة إلى القصر ليعلن حضورى . فعمل صاحب الجلالة الترتيبات اللازمة لمحى رسول خاص ، وتبع هذا الرسول عدة صنادل ( مراكب ) بالهدايا . للآسيويين المرافقين معى . بدأت رحلة العودة ، ورفعت الشراع . وقد أعدت لى كميات من الجعة الطازجة على ظهر السفينة حتى وصلت مساء العاصمة . " (٢٥)

ويذكرنا ما حدث لسنوهى ما أوردته نصوص الدولة الحديثة - والتى بلغت مصر خلالها قمة مجدها - من اضطراب مجموعة آسيوية قدمت إلى مصر إلى الانتظار عند إحدى نقاط المراقبة ( الحصون ) لحين إصدار الأمر الملكى بالسماح لها باجتياز المكان إلى داخل شرق الدلتا وذلك ضمن النص المعروف بتقرير موظف الحدود :

" تقرير آخر إلى سيدى نحيطه بأننا قد سمحنا لتلك القبائل البدوية القادمة من إدوم بالمرور عبر قلعة " مرنبتاح حتب حر ماعت " له الحياة والرخاء والصحة الموجودة فى تكو ( فى نهاية وادى الطميلات ) للابقاء أحياء عليهم ، وعلى قطعانهم بفضل " كا " جلالتة لها الحياة والرخاء والصحة " (٢٦) .

كذلك تعكس نصوص سنوهى بعد هروبه من مصر ، وإقامته فى آسيا ، تمتعه بمكانة اجتماعية مميزة بالمكان كيف أن ملامح الحضارة المصرية كانت سائدة



هناك ، وأن اللغة المصرية القديمة مألوفة ، وأن هناك حركة رسل ومراسلات قائمة بين مصر وموانئ الساحل الشرقى لحوض البحر المتوسط :

" كانت الرسل التى تذهب إلى الشمال أو تتجه إلى بلاد الملك فى الجنوب تنزل عندى إذ كنت أستضيف جميع الناس ، وأسقى الظمآن ، وأهدى الضال إلى الطريق وأحمى المحرومين(٢٧) " .

وأخيراً يتميز النص الأدبى لسنوهى بإشارته إلى تلك القبائل الآسيوية المعروفة باسم " حقا وخاسوت " التى أشاعت قلاقل بالمكان ، مما اضطر معه أمير " رتنو " إلى أن يعين سنوهى قائداً عاماً لجنوده لملاقاة هذا الخطر . وتمكن سنوهى من إنجاز ذلك ، والتغلب على قائد تلك المجموعات المسمى " عامونانشى " . ولعل هذه التسمية التى تعنى فى اللغة المصرية القديمة " حكام الأراضى الجبلية ( الصحراوية ) " . هى التى حرف عنها لفظ الهكسوس ، والذى عرفت به تلك المجموعة الآسيوية التى أقامت عنوة بمصر خلال فترة الانتقال الثانى .(٢٨) وأخيراً فإن من بين أهم ما يلفت النظر فى نص سنوهى أيضاً ما يتعلق بالنظرة المصرية إلى الأراضى الأجنبية ( خاصة كدمى ، الفنجو وفلسطين ) وبعض حكامها الموالين لمصر وحاكمها ، وتشبيه سنوهى لأرض فلسطين بأنها " ملك حاكم مصر(٢٩) " .

وبالإضافة إلى ما سبق ، فإن النص الأدبى المعروف بـ( نصائح الملك أمنمحات إلى ابنه " (٣٠) ) يلقى الضوء ، وبصورة أدبية مميزة - على أهم أحداث تلك الفترة التاريخية الخاصة بقصة الاغتيال السياسى لحاكم مصر ، بينما كان ابنه وولى عهدى سنوسرت منهمكاً فى حملة حربية على حدود مصر الغربية ضد التحنو - التمحو الليبيين ، وهو ما انعكس أيضاً من قبل فى نصوص سنوهى :

" بعد تناول العشاء وحلول الليل ، ذهبت للنوم لأنى كنت متعباً ، وفجأة سمعت قعقة الأسلحة ولقد كنت وحيداً ورأيت اشتباك الحراس مع الأعداء ، ولو أنى أسرعرت ويدي سلاحى لقاتلت هؤلاء الجبناء ، ولكن لا شجاع فى الليل

ولاقتال لمن كان وحده . فلقد حدث ما حدث وأنا وحيد بدونك ... إن الذى  
أكل طعامى هو الذى شجّع الثورة [ التمرد ] ضدى<sup>(٣١)</sup> " .

وبالإضافة إلى ما سبق من نصوص الدولة الوسطى الأدبية فإن قصة الملاح  
الغريق ( أو بالأحرى نجاة الملاح ) المحفوظة حالياً فى متحف ليننجراد برقم  
١١١٥<sup>(٣٢)</sup> برغم صورها المبالغية فى الخيال<sup>(٣٣)</sup> - توضح لنا معرفة أهل مصر  
باستخدام الطرق الملاحية عبر البحر الأحمر وتمكن بحارتها من الوصول إلى بونت  
وشبه جزيرة سيناء بغرض الحصول على ما ترغب فيه مصر من موارد اقتصادية  
" البخور واللبان ، والنحاس والفيروز على التوالى " <sup>(٣٤)</sup>

وأخيراً تجب الإشارة إلى رسائل الكاهن المزارع " حقا نخت " الذى عاش  
فى عهد المناخة ( الأسرة الحادية عشر ٢١٣٣ - ٢٠٤٠ ق.م ) وهو شيخ شحيح  
ماكر من صغار الملاك اضطر إلى السفر إلى الشمال ( الدلتا ) لإنجاز بعض  
الأعمال، وترك بقية أفراد عائلته فى طيبة تحت رعاية ابنه الأكبر " مرسو " وأرسل  
له عدة رسائل تصوّر لنا جوانب متعددة من الحياة الزراعية والعلاقات الاجتماعية  
ومدى التنافر أو المحبة بين أفراد هذه الأسرة ، ومدى العبء الأسرى الملقى على  
عاتق الابن الأكبر تجاه مراعاة مصالح أبيه الاقتصادية من جهة ، والتعامل باحترام ،  
أو خوفاً من انزال عقوبة به تجاه زوجة أبيه الجديدة ومحظيته<sup>(٣٥)</sup> . ولعل أهم ما  
تضمنته تلك النصوص الأدبية لرسائل حقا نخت من وقائع تاريخية ، الإشارة إلى  
انخفاض مستوى نهر النيل ، والشح الذى حاق بالبلاد :

" لماذا أخذوا يأكلون الرجال والنساء هنا [ الدلتا ] ، لا يوجد أحد فى أى  
مكان يحصل على مثل هذه المون ، يجب أن تدبروا أنفسكم حتى أصلكم ، فإننى  
سأقضى شهور الصيف هنا " <sup>(٣٦)</sup> .

ولعل هذا ارتبط مع ما سبقت الإشارة إليه من آراء للباحث " بوتزر " Butzer في الربط بين مستوى انخفاض فيضان نهر النيل أو ارتفاعه وبين إنهيار الحضارة المركزية المصرية أو قوتها .

## ٥ - من أدب فترة الانتقال الثاني ( ١٧٨٩ - ١٥٦٧ ق.م ) :

بدأت مصر دورة سياسية أخرى من التفكك السياسى ، وزاد عليها تمكّن بعض المجموعات البشرية من أصل أسيوى من التداخل إلى شرق الدلتا ، وتأسيس هيكل سياسى خاص بها ، وعرفت هذه المجموعات فى المصادر التاريخية باسم " الهكسوس " وذلك خلال فترة الانتقال الثانى ( اللامركزية الثانى ) ( ١٧٨٦ - ١٥٦٧ ق.م ) . وقد توزعت السلطة السياسية على مصر خلال تلك الفترة بين أسر حاكمة متعددة بين عواصم سياسية مختلفة . ومع أواخر فترة الانتقال الثانى تركزت أمور السلطة السياسية بين مملكتين أساسيتين : الهكسوس فى الدلتا وأسرة محلية مصرية تدين بالولاء الأسمى لحكم الهكسوس ، فى منطقة طيبة فى جنوب صعيد مصر وهى المعروفة بالأسرة السابعة عشر الطيبية . ولقد توفر لنا بعض المصادر التاريخية عن آخريات تلك الفترة الانتقالية حينما بدأت مصر تستعد لشن حملة معاكسة لتوحيد مصر سياسياً ، ولتحرير أرضها من موجود الهكسوس وخاصة من فترة حكم سفن رع أمير طيبة . ومن أهم النصوص الأدبية التى يستنبط منها بعض الأحداث التاريخية ما يعرف ببردية ساليبة (١) المدونة فى عصر الرعامسة نقلاً عن مصادر قديمة (٣٧) والتى تصور لنا ببلاغة مدى القلق الذى ساور حاكم الهكسوس " أبوفيس " فى شرق الدلتا فى مقر حكمه " حت وعرت " ( أواريس ) من بؤادر التمرد السياسى لحاكم طيبة " سفن رع " وكيف أن لا يستطيع النوم فى قصره بسبب أصوات فرس النهر فى طيبة ؟ بالرغم من أن بلد المكانى ( الجغرافى ) بين العاصمتين :



" لقد أرسل الملك " أبوفيس " يقول : مر بأن يهجر فرس النهر بحيرته التى فى ينبوع المدينة الجارى ( المدينة = طيبة ) لأنه ( فرس النهر ) لا يسمح للنوم أن يغشاني ليلاً أو نهاراً ، إذ أن أصواته المزعجة فى أذنى . (٣٨)

وبالرغم من عدم حفظ نصوص البردية لباقي الأحداث التاريخية إلا أن مومياء سقن رع المحفوظة بالمتحف المصرى خير دليل على إنشغال صاحبها بالكفاح المسلح ضد الهكسوس ، وعن استشهاده فى ميدان القتال متأثراً بجرح قاطع فى جمجمته . (٣٩)

٦ - من أدب عصر الدولة الحديثة " الامبراطورية " ( ١٥٦٧-١٠٨٥ ق.م. ) :

تمكن مصر خلال عصر الدولة الحديثة أو عصر الامبراطورية ( ١٥٦٧ - ١٠٨٥ ق.م. ) الذى انقسم إلى ما عرف باسم عصر التحامسة ( الأسرة الثامنة عشر ) ، وعصر الرعامسة ( الأسرتان : التاسعة عشر والعشرين ) تمكن من تشييد امبراطورية ضخمة لها شملت مناطق النوبة وحتى الجندل الرابع ( فى منطقة نباتا " جبل برقل " فى السودان ) والتى تم تمصيرها ، وضمها إلى وحدة الأراضي المصرية ذاتها ، والمناطق إلى الشمال الشرقى من مصر فى آسيا فيما يقابل الوحدات السياسية الحالية : فلسطين ، الأردن ، لبنان ، وجنوب سوريا ، والتى خضعت لسيادة مصر العسكرية والسياسية . كذلك دان لسيادة مصر الحضارية ، ورغبت فى التعايش السلمى معها مناطق وادى الرافدين ، وبلاد الأناضول وجزر البحر المتوسط . وقد تعددت المصادر التاريخية والخاصة عن أحداث تلك الفترة الهامة ، ولكن يظل لبعض المصادر الأدبية أهميتها لتضمنها بعض الأحداث التاريخية التى لم يشر إليها فى تلك الوثائق الملكية ، والتى تضيف عدداً تفصيلياً آخر عن بعض الوقائع الهامة . ومن أهمها ما تضمنته نصوص القائد الحربى " تحوتى " الذى شارك ملكية فرعون مصر الخالد " تحتمس الثالث " ( ١٥٠٤ - ١٤٥٠ ق.م. ) (انظر شكل ٢) فى حروبه الآسيوية ، وما نجم عنها من جزى وهدايا حملها أهل

تلك المناطق إلى مصر ( انظر شكل ٣ ) . وقد شارك " تحوتى " فى الاستيلاء على أحد الحصون المنيعه فيما يعرف بقصة الاستيلاء على يافا<sup>(١)</sup> ) والتي وردت فى بردية هاريس ٥٠٠ ، والمحفظة حاليًا فى المتحف البريطانى برقم ١٠٠٦٠ ، وبطريقة ذكية ماهرة تذكرنا بأحداث قصة على بابا والأربعين حرامى<sup>(٢)</sup> حيث تمكن من خداع حاكم الحصن الآسيوى بانفصاله عن خدمة مليكه تحتمس الثالث وأنه قادم إليه محملاً بالهدايا ( فى زكائب ) ، وهى فى واقع الأمر جنوده المحاربون. والجدير بالملاحظة أن أحداث هذه الخديعة الحربية لم يرد لها أى ذكر فى مجموعة تقارير حروب تحتمس الثالث المعروفة تاريخياً باسم " قوائم تحتمس الثالث " وهى تلك المدونة على جدران معبد الكرنك بالأقصر الحالية .

وخلال فترة حكم الأسرة العشرين ( ١٢٠٠ - ١٠٨٥ ق.م ) ، بدأت تظهر ملامح التصدع الداخلى ، وأثر الإنهاك العسكرى نتجية مشاركة مصر فى حروب متعددة وعلى جبهات متعددة : الشمالية الشرقية الآسيوية والغربية الليبية والسواحل الشمالية . وزاد على ذلك ما نستنبطه من نصوص بردية هاريس عن مؤامرة سياسية لاغتيال فرعون مصر " رمسيس الثالث " فيما عرف باسم " مؤامرة الحريم " بإشراف مجموعة من نساء القصر بقيادة الملكة " تتى " لتنصيب ابنها " بنتاؤور " على عرش مصر عنوة ، وتمكن رمسيس الثالث من القضاء على تلك المؤامرة ، وعلى من شارك فيها<sup>(٣)</sup> . كذلك أوضحت لنا مجموعة النصوص الأدبية المعروفة بمجموعة " رسائل أواخر عصر الرعامسة " من قرية عمال دير المدينة بغرب الأقصر ملامح الانهيار الاجتماعى ، وبدء القلاقل السياسية ، والضعف الاقتصادى الذى حاق بمصر مع نهاية فترة حكم رمسيس الرابع ومن تلاه من الملوك ، وحتى نهاية الأسرة العشرين ، وإنهاء مجد مصر السياسى والعسكرى ، وإنهيار مجدها الامبراطورى ، وتقوقع مصر ثانية داخل حدودها الطبيعية ، وفقدتها لممتلكاتها السياسية التاريخية<sup>(٤)</sup> . وتتكون هذه المجموعة من

الرسائل من خمسين رسالة تشير بعض نصوصها إلى الاضراب عن العمل ، وتنفيذ سياسة " العصيان المدني " :

" ساقنا إلى هنا الجوع والعطش ، فليس لدينا كساء ولا دهون ، ولا سمك ولا خضر ، فاحطروا مولانا الملك . اكتبوا إلى الوزير الذى يتولى أمرنا حتى يعطينا ما يقيم أودنا . "

كذلك تضمنت تلك الرسائل إشارات إلى أعمال شغب داخلية نفذها بعض الأفراد من جنود مصر من أصل أجنبى ( المرتزقة ) ، وخاصة من ذوى الأصول الليبية ( عنصر المشوش ) ، مما قد يعكس بداية لتسللات ليبية الأصل عبر صحراء مصر الغربية أيضاً ، انتظار لفرصة سانحة ، وهو ما تحقق بالفعل أثناء عصر الانتقال الثالث حال إنهيار سلطة مصر المركزية ، وتمكن العناصر الليبية من تأسيس أسرة حاكمة اعتلت عرش مصر . كذلك أوضحت نصوص تلك الرسائل إشارة إلى " قمع أمنحتب " وإلى الدور الذى لعبه " بانخسى " مما يعكس مدى التردى فى الأوضاع السياسية الداخلية فى مصر أثناء أواخر عصر الرعامسة . وبالمثل إشارة إلى نشاط عسكري محدود فى النوبة ربما نتيجة لضغط مجموعات بشرية خارج مناطق النفوذ التقليدى المصرى على النوبة .

## ٧ - من أدب فترة الانتقال الثالث ( ١٠٨٥ - ٦٦٤ ق.م ) :

يعكس النص الأدبى المعروف بقصة " ون - آمون " المحفوظ حالياً بموسكو برقم ١٢٠ ، والذى يرجع إلى أوائل فترة الانتقال الثالث ( ١٠٨٥ - ٦٦٤ ق.م ) مدى ما لحق بمصر من ضعف سياسى فى الخارج بلغ أقصى مداه بامتهان كرامة إلهها السياسى " آمون رع " فى منطقة لبنان ، وامتهان كرامة رسوله الكاهن ون - آمون وعدم تلبية احتياجاته التى سافر من أجلها إلى لبنان لاحتضار أخشاب الأرز اللازمة لمركب إلهه المقدس . كذلك تعرض ون آمون للسرقة والمهانة فى طريقه إلى لبنان على يد أحد البحارة من " الثكر " إحدى المجموعات البشرية لما

عرف تاريخياً باسم " شعوب البحر " ذات الأصول المينوية خلال عصر الرعامسة<sup>(٤٤)</sup> . وتضيف النصوص إلى أن ون - آمون لم يحصل على حقه حين تقدم بشكواه - حال وصوله إلى صور - إلى الأمير ذى الأصل المشترك مع البحار " الشكرى " وإدعاء هذا الأمير بعدم وجود سلطة له على السفن الأجنبية الموجودة فى مينائه . ولعل ما واجهه كاهن آمون من تهكم على يد أمير جبيل أيضاً ، يعكس مدى ما لحق بمصر وبسمعتها فى الخارج من تأكيد أمير جبيل أنه " ليس تابعا لمصر " ، وأنه ليس هناك ما يجبره على إرسال الأخشاب دون دفع ثمن لها ومقارنة ذلك بما عكسته نصوص ومناظر عصر الدولة الحديثة من تقبيل للتراب بين قدمى فرعون مصر طلبا لمنحهم " نسمة الحياة " . بالرغم من هذا الجانب المظلم للنص الأدبى لقصة " ون - آمون " فإنه يعكس أيضاً بين ثناياه الكثير من نفوذ مصر الأدبى فى لبنان برغم انقضاء السيادة المصرية عليها ، وأقول قوتها العسكرية حيث يتضح مدى المام أمير البلاد باللغة المصرية القديمة . كما توضح النصوص أن بعض القائمين على خدمة هذا الأمير ومن فى صحبته ، كانوا من المصريين . وأخيراً فإن هذا النص الأدبى يعكس وجود خط ملاحى منتظم بين جبيل (لبنان) وصان الحجر فى دلتا النيل أثناء تلك المرحلة ، ووجود تجار آسيويين مقيمين فى الموانئ المصرية<sup>(٤٥)</sup> . ولعل ما كشفت عنه النصوص المصرية من وجود جاليات من أصول أجنبية " لبحارة " فى منىء منف القديم ما يدعم ذلك .

\* \* \*

وخلاصة القول أنه يتضح مما سبق أن هناك العديد من الأحداث التاريخية عبر فترات متعددة من تاريخ مصر القديم تردد صداها ثانياً نصوص الأدب المصرى القديم بمختلف أنماطه ، وأن هذه النصوص أضافت أحياناً نقاطاً جديدة لم يرد لها ذكر فى المصادر النمطية الملكية ، أو أعطت تفاصيل أخرى ووجهات نظر توضيحية ساعدت فى استكمال صورة التاريخ المصرى القديم .

### هوامش البحث

- (١) بوزنر (ج) وآخرون ، معجم الحضارة المصرية القديمة ، القاهرة ١٩٩٢ ، ص ١٢ - ١٣ .
- (٢) تناول النص بالشرح والتعليق العديد من المؤلفين ومن بينهم :
- Erman. A. **The Literature of Ancient Egypt**. London: 1927, p. 86.; Lichtheim, M. **Ancient Egyptian Literature**, Vol., I, Berkely: 1973, pp. 215-160.
- حسن ( سليم ) الأدب القديم أو أدب الفراعنة . الجزء الأول : فى القصص والحكم والتأملات والرسائل . مطبوعات كتاب اليوم القاهرة : ١٩٩٠ ، ص ٨٤ - ٩٧ ، مهران ( محمد بيومى ) تاريخ مصر الفرعونية والشرق القديم ، القاهرة : ١٩٨٥ ، ص ٤٠ ، فخرى ( أحمد ) مصر الفرعونية ، الطبعة السابعة ، القاهرة : ١٩٩١ ، ص ١٣٠ .
- ( ٣ ) حسن سليم ، المرجع السابق ، ص ٩٣ ، مهران ( محمد بيومى ) ، الحضارة المصرية القديمة ، الجزء الأول : الأدب والعلوم ، الاسكندر ١٩٨٩ ، ص ٧٧ - ٧٨ .
- ( ٤ ) توفيق ( سيد ) ، معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية ، القاهرة : ١٩٧٨ ص ١٣١ ، حسن ( سليم ) ، مصر القديمة ، الجزء الأول : فى عصر ما قبل التاريخ إلى نهاية العصر اللاهناسى ، القاهرة : ١٩٩٢ ، ص ٣٧٢ .
- ( ٥ ) Erman, A. " Der brief des Konigs nefer- Ke- er " .  
ZÄS 31, pp.62 - 70, ٨٤ - ٣٨٢ ، حسن ، المرجع السابق ، ص ٣٨٢ - ٨٤ ، فخرى ، المرجع السابق ، ص ١٥٥ .
- ( ٦ ) O'Connor D. " Relations between the Sudan and Egypt, 3000-715B. C.  
Unpublished paper, pp. 14 - 16 .
- ( ٧ ) تناول البردية بالإشارة والتحليل :
- Gardiner, A. **The Admonitions, of an Egyptian Sage**, Leipzig: 1909; pp. 37-38; Breasted, J. H. **The Dawn of Conscience**, New York " 1933, pp. 193-200; Erman, **The Literature of Ancient Egyptians**, p. 92 ff.
- حسن ، الأدب المصرى القديم ، ص ٣٠٩ - ٣٣٢ ، فخرى المرجع السابق ، ص ١٦١



( ٨ ) صالح ( عبد العزيز ) ، حضارة مصر القديمة وآثارها ، الجزء الأول ، القاهرة : ١٩٦٢ ،

ص ٣٨٤-٨٥ ، جاردنر ( ألن ) ، مصر الفراعنة ، القاهرة : ١٩٧٣ ، ص ١١٦-١١٧

( ٩ ) Shaheen, A. " A Possible Synchronization of EB IVC  
Ceramic Ware in Syro - Palestinian and Egyptian Sites, GM 131  
( 1992 ) PP. 101-109.

( ١٠ ) حسن ، المرجع السابق ، ص ٦٤ ، ٦٥

( ١١ ) توفيق المرجع السابق ، ص ١٦٠ ، ص ٢٣٢

حاول البعض الربط بين انهيار السلطة السياسية أو قوتها وضعف مصر الاقتصادي أو قوتها مع ظاهرة انخفاض فيضان نهر النيل أو ارتفاعه ، وتتبع تلك الظاهرة عبر تاريخ مصر القديم ، وتزامن ذلك خلال عصور الانتقال الأول . الثالث وهي تلك التي انهارت بالفعل خلالها السلطة المركزية للدولة .

CF Butzer, K. Early Hydraulic Civilization in Egypt. Chicago and London, Chicago Univeristy press: 1976.

(12) Simpson, W K The Literature of Ancient Egypt.

London 1977, pp 16-30; Lichtheim, op. citl. p. p. 216-22.

حسن ( سليم ) ، مصر القديمة ، الجزء الثاني : في مدينة مصر وثقافتها في الدولة

القديمة والعهد الالهاسي ، القاهرة : ١٩٩٢ ن ص ٤٣٦ - ٤٤٨ ، بوليفر ( جوستاك ) .

روايات وقصص مصرية من العصر الفرعوني . القاهرة : ١٩٦٢ . ٣٩٤ . مهران ،

الحضارة المصرية ، ص ١٤٠ - ١٥٧ ، فخرى (أحمد) ، الأدب المصري القديم " ، تاريخ

الحضارة المصرية القديمة ، العصر الفرعوني ، القاهرة ، ص ٨٠ - ٩٣

(13) Golenischetf W LesPapyrus hieratiques nos.

1115, 11161 et 1116 B de l'Ermitage Imperiai á Saint

Petersburg, Petersburg 1913, Erman, Op. cit., p. 75 ff.

حسن ، الأدب المصري القديم ، ص ٢٠٠ - ٢٠٧ . مصر القديمة ، ١٠٠ .

ص ٤٢٠ - ٤٢١ .

( ١٤ ) حسن ، المرجع السابق ص ٤٢٧ .

( ١٥ ) حسن ، المرجع السابق ص ٤٢٢ - ٤٢٤ .

- (16) Hayes, W. " The Middle Kingdom in Egypt; CAH1, 2 Cambridge University Press: 1908, p. 465.
- (17) Wilson, J. A " Egyptian Prophecy of neferrohu, " ANET, I, Edited by H. Britchard Princeton University press: 1972, pp. 252-57; Erman, Op. cit., p. 110 ff;
- حسن ، الأدب المصرى ، ص ٣٣٣ - ٣٩ ، مهران ، تاريخ مصر الفرعونية ، ص ٧٥ .
- (١٨) شاهين ( علاء الدين ) شبه جزيرة سيناء : دراسة تاريخية وأثرية حتى نهاية الدولة الوسطى ، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآثار - جامعة القاهرة ١٩٨١ ، ص ٣١٧ - ٣٢٠ .
- (١٩) حسن ، مصر القديمة ح ٢ ، ص ٤٥٨ .
- (٢٠) توفيق ، المرجع السابق ، ص ٢٠٦ .
- (21) Willson, J. " Egyptian Myths and Tales: The Story of Sinuhe:, ANET I, Edited by J. Pritchard, Princeton University Press: 1975, pp. 5-11; Cardiner, A. Notes on the Story of Sinuhe, Paris: 1915.
- حسن ، الأدب المصرى ، ص ٤١ - ٥٦ ، فخرى ، مصر الفرعونية، ص ٢٢١ .
- (٢٢) حسن ، المرجع السابق ص ٤٤ .
- (٢٣) حسن ، المرجع السابق ص ٤٥ - ٤٦ ، توفيق ، المرجع السابق ص ٢٣٥ .
- (٢٤) مهران ، الحضارة المصرية ، ص ١٠٥ .
- (٢٥) بوزنر وآخرون ، المرجع السابق ، ص ٩٧ .
- (26) Willson, J. " Egyptian Historical Texts: The Report of a frontier official, " ANET I, Edited by J. Pritchard, Princeton University Press: 1975, pp. 183-84.
- (٢٧) فخرى ( أحمد ) ، دراسات فى تاريخ الشرق القديم ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص ٦٨ .
- (٢٨) فخرى ، المرجع السابق ، ص ٦٨ ، مهران ، الحضارة المصرية ، ص ١٠١ .
- (٢٩) حسن ، المرجع السابق ص ٥٣ .
- (٣٠) فخرى ن مصر الفرعونية ، ص ٢٢١ ، حسن ، المرجع السابق ، ص ٢٠٩ - ٢١٧ .
- (٣١) توفيق ، المرجع السابق ص ٢٠٧ - ٢٠٨ ، حسن ، المرجع السابق ص ٢١٠ ، فخرى ، المرجع السابق ص ٢٢٢ .

- (32) Gardiner, A. "Notes on the Tale of the Shipwrecked Sailor." ZÄS 14. P. 60 ff. Erman. Op. cit., p. 29 ff, Golenschiff, w, *Le Conte du Naufrage*, Le Caire: 1912 Simpson, Op. cit., pp. 50-56.

حسن ، المرجع السابق ص ٥٧ - ٦٤ .

(٣٣) بوزنر وآخرون ، المرجع السابق ص ٢٣٨ ، مهران الحضارة المصرية ، ص ١١٠ .

(٣٤) راجع علاء الدين شاهين ، شبه جزيرة سيناء ؛ لمزيد من المعلومات عن الطرق الملاحية المؤدية إلى سيناء .

(٣٦) توفيق ، المرجع السابق ص ٢٣٤ ، فخرى ، المرجع السابق ص ٢٠٩ .

(37) Erman, Op, cit. p. 165ff

(٣٨) حسن ، الأدب المصرى القديم ، ص ١١٥ - ١١٩ ، فخرى ، المرجع السابق ص ٢٦٢ ، حسن ، المرجع السابق ص ١١٨ .

(٣٩) توفيق ، المرجع السابق ص ٢٥٨ ، فخرى ، المرجع السابق ص ٢٦٣ ز

(40) Gardiner, A. Late Egyptian Stories, BA, I Brussels; 1932. pp. 82-85; Erman, Op, cit. p. 197 ff.

حسن ، المرجع السابق ص ١١٩ ، مهران ، الحضارة المصرية القديمة ص ١١٦-١١٩

فخرى " الأدب المصرى " ص ٤٠٨-٤٠٩ ، لوفيفر ، المرجع السابق ص ١٨٨-١٩٢

(٤١) بوزنر وآخرون ، المرجع السابق ص ٣٨ .

(٤٢) توفيق ، المرجع السابق ص ٣٣١ ، مصر الفرعونية ، ص ٣٩٦ - ٣٩٨ .

(٤٣) بوزنر وآخرون ، المرجع السابق ص ٢٢ ، فخرى ، المرجع السابق ص ٣٩٦ .

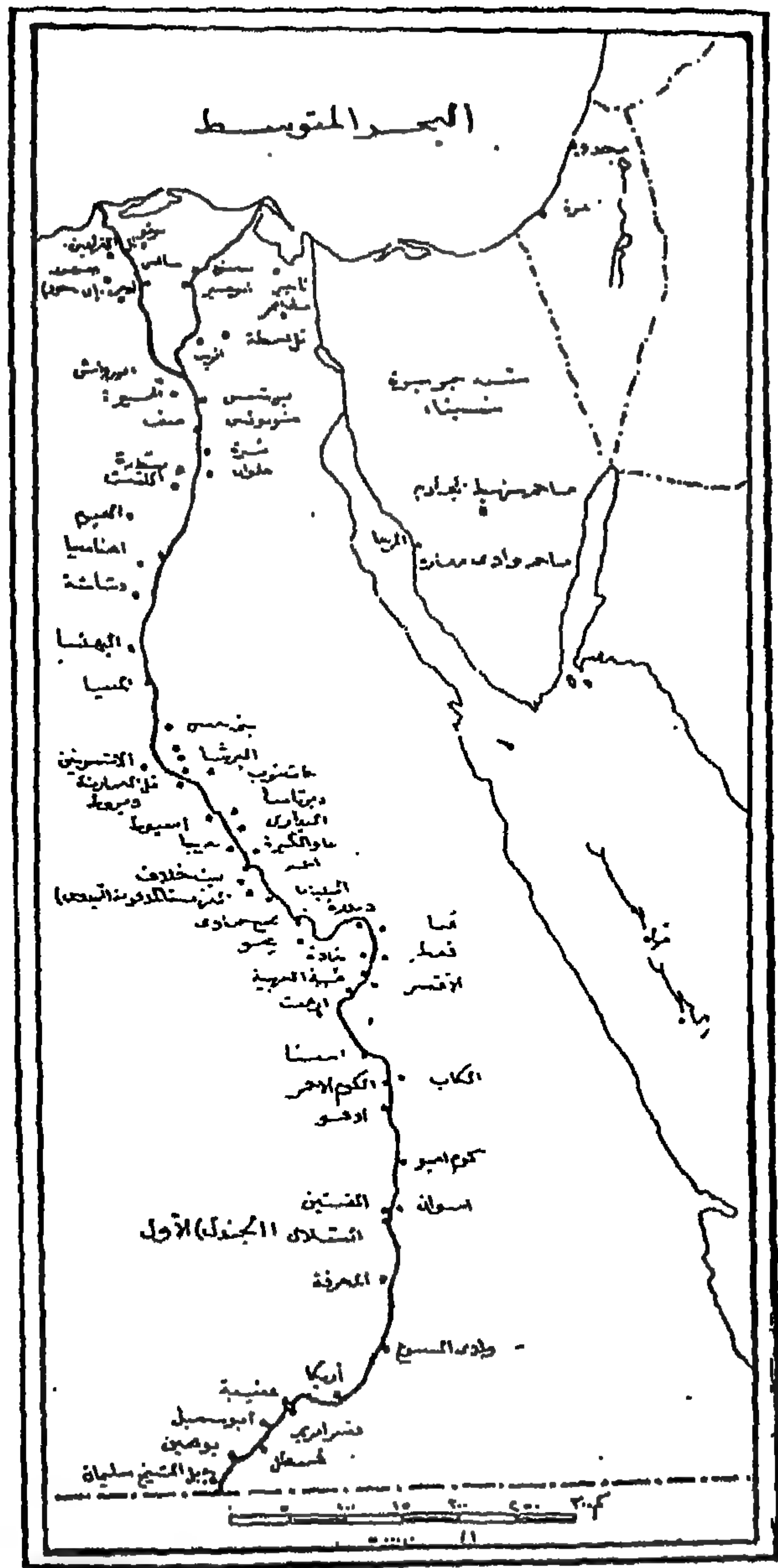
(٤٤) فخرى ، دراسات فى تاريخ الشرق القديم ن ص ٩١ - ١٠١ ، حسن ، المرجع السابق ص ١٧١ - ١٨٠ .

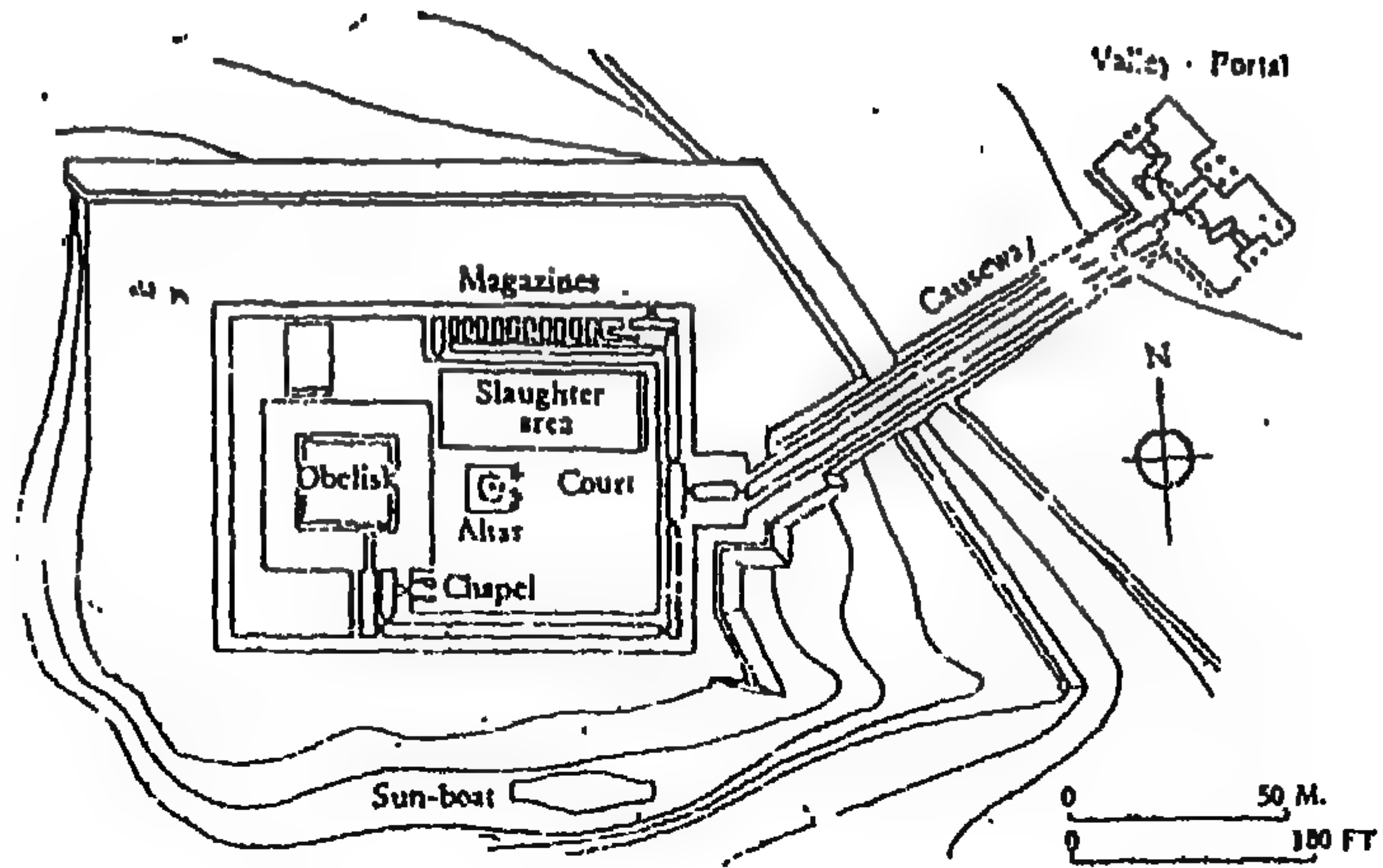
(٤٥) فخرى ، المرجع السابق ص ١٠٠ ، " الأدب المصرى القديم " ، ص ٤٠٢ - ٤٠٦ ،

جارنر ، المرجع السابق ص ٣٣٦ - ٣٤٢ .

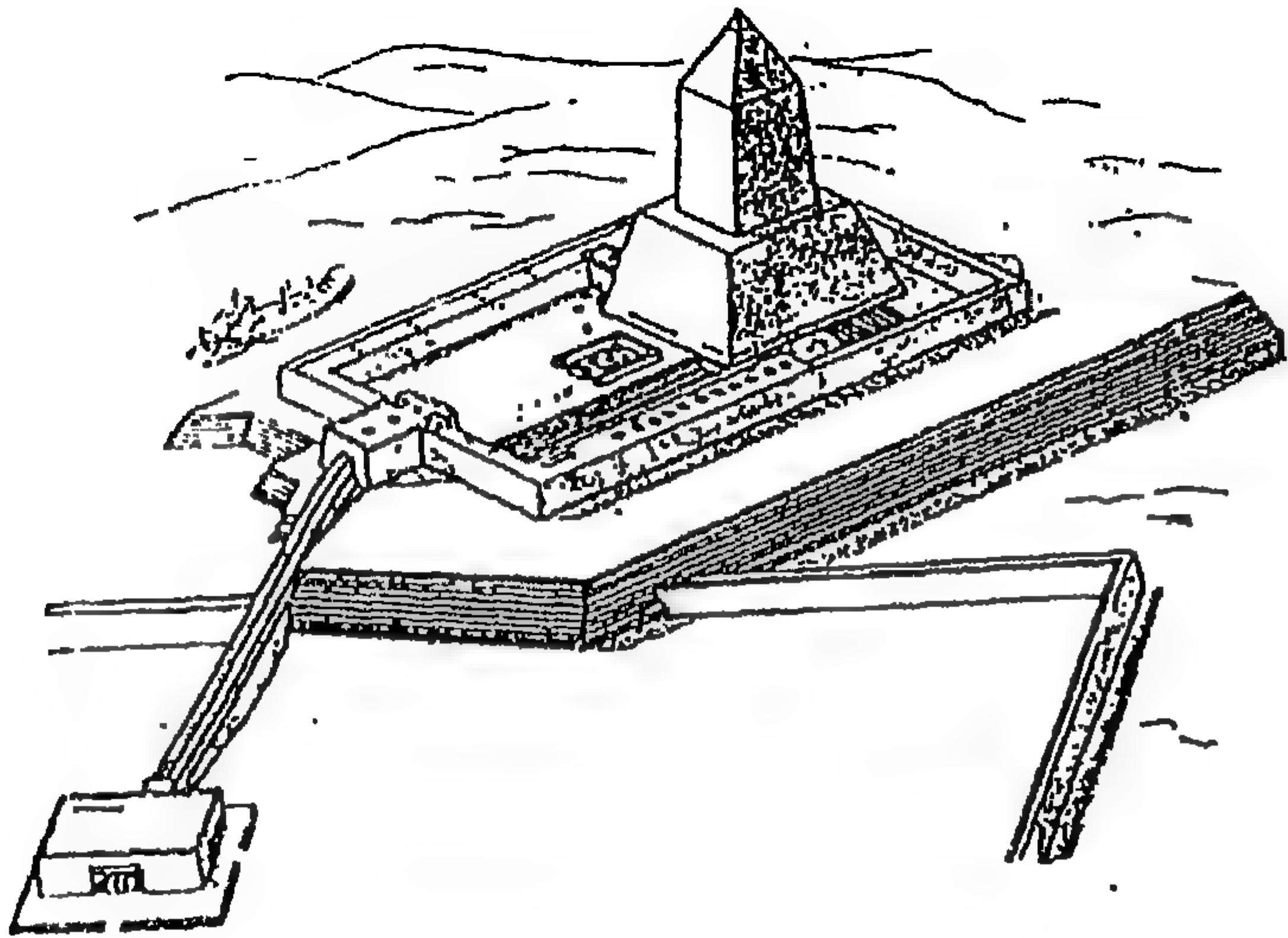
(٤٦) فخرى ، المرجع السابق ص ١٠٠ .







شكل ١ (أ) رسم تخطيطي لمعبد الشمس



شكل ١ (ب) رسم تصويري لمعبد الشمس



شكل ( ٢ ) ثوتيس الثالث



شكل ( ٣ )

بعض الزعماء السوريين وقد أتوا بهداياهم إلى مصر وبخاصة الأواني الذهبية الجميلة الصنع ،

وترى أحد الزعماء وقد اصطحب معه ابنته الصغيرة

من مقبرة رقم ٦٣ في طيبة ويرجع تاريخها إلى منتصف الألف الثاني قبل الميلاد



## ظهور إمارة الحيرة

فى التاريخ العربى ومجالها الحضارى

( العمران والثقافة )

### أ. إبراهيم عنانى \*

على بعد ثلاثة أميال جنوبى الكوفة ، وعلى مسيرة ساعة إلى الجنوب الشرقى من النجف الأشرف ( مشهد على رضى الله عنه ) ، وعلى ضفاف بحيرة نجف التى جفت أو كادت على تخوم الصحراء ، تقع هذه المدينة الجميلة ، قصبة الملوك اللخميّين التى سميت : ( الحيرة البيضاء ) لما شهدته من بناء وعمران ، ولما اشتهرت به من قصور أهمها : الخورنق ، والسدير<sup>(١)</sup> . والحيرة - هذه المدينة القديمة - طيبة التربة ، مفترشة البناء ، كبيرة ، هواؤها وترابها من الكوفة<sup>(٢)</sup> ، يروىها نهر الحيرة<sup>(٣)</sup> . وقد حاول القدماء اكتشاف السر فى تسمية هذه الإمارة ( بالحيرة ) وتوهم البعض أن اللفظ من ( حار ) و ( تحير ) بمعنى ضل الطريق . فابن الفقيه يرى أنها سميت الحيرة لأن كذلك تبعاً لما سار إلى موضع الحيرة أخطأ الطريق ، وتحير هو أصحابه فسميت الحيرة<sup>(٤)</sup> ويرى ياقوت الحموي أنها سميت لأن تبعاً الأكبر لما قصد خراسان خلف ضعفة جنده بذلك الموضع وقال لهم : ( حيروا به ) أى أقيموا به . وثمة وجهة نظر أخرى فى التسمية ينقلها لنا ياقوت فى معجمه ، إذ يقول : ( وقال الزجاجى )<sup>(٥)</sup> : كان أول من نزل بها مالك بن زهير بن عمرو بن فهم بن تيم الله بن أسد .. فلما نزلها جعلها حيراً واقطعه قومه ، فسميت الحيرة بذلك<sup>(٦)</sup> ، وقريب من ذلك ما يروى فى بعض أخبار أهل السير من أن أردشير سار إلى الأردوان ملك النبط ، وقد اختلفوا عليه ، وشاغبه ملك من ملوك النبط يقال له يابا ، فاستعان كل واحد منهما بمن يليه من العرب ليقاتل بهم الآخر، فبنى الأردوان .. حيراً فأنزله من أعانه من العرب ، فسمى ذلك الحير

---

\* باحث فى التاريخ . وعضو اتحاد المؤرخين العرب .

الحيرة ، كما تسمى القيعة من القاع<sup>(٧)</sup> . على أن الأرجح أن هذه التسمية :  
(بالحيرة) ، أرامية الأصل ، جاءت من الكلمة السريانية ( حرتا ) ( حيرتو )  
ومعناها المخيم والمعسكر وهى تقابل فى العبرية كلمة (حاصير) ، كما أن (حيرتا) ،  
(و حيرة ) فى التواريخ السريانية التى تحدثت عن الغساسنة تقابل مصطلح  
(عسكر) عند الإسلاميين<sup>(٨)</sup> .

وقد غلبت تسمية الحيرة على الحيرة والكوفة كليهما ، فقالوا : الحيرتان  
تثنية الحيرة والكوفة ، كقولهم القمران ، والعمران<sup>(٩)</sup> ولأهمية هذه المدينة فى  
تاريخ العرب ، فقد عرفت ( بالحيرة مدينة العرب )<sup>(١٠)</sup> كما اشتهرت أيضا بحيرة  
النعمان<sup>(١١)</sup> . وربما يرجع ذلك إلى أهمية الأحداث التاريخية والأعمال الحضارية  
التي تمت فى عهد ملوكها المسمين بالنعمان ، إذ من المعروف أن النعمان الأكبر -  
الذى تملك على الحيرة ثلاثين سنة هو باني قصر الخورنق<sup>(١٢)</sup> وقصته شهيرة فى  
التنسك والزهادة . أما النعمان بن المنذر الذى جاء على فترة بعد جده النعمان  
الأكبر هذا ، وهو الذى ينسب إليه الزهر المعروف : بشقائق النعمان<sup>(١٣)</sup> فقد  
كثرت عنه الأحاديث وشاعت الأساطير التى منها : نديما النعمان ويوما نعيمه  
وبؤسه . وشهير أيضاً وفود النابغة عليه بمدحه ، ويعتذر له . ويروى المؤرخون أن  
قتل النعمان عدى بن زيد العبادى الشاعر الحيرى - مترجم كسرى وكاتبه - وقد  
تسبب فى قتل كسرى النعمان بن المنذر ، ومن ثم فى وقوع حرب ذى قار بين  
العرب والفرس .

### الظروف التاريخية :

أما عن الظروف التاريخية التى احاطت بنشأة الحيرة فترتبط بإخطاط الدولة  
الفارسية على أثر الهزيمة التى أنزلها الأسكندر المقدونى بدارا ملك الفرس سنة  
٣٣٣ ق.م . وقد قسم الأسكندر بلاد الفرس إلى دويلات صغيرة يحكمها ملوك  
يعرفون بملوك الطوائف ، حتى لا يقروا على الإغارة على بلاد اليونان . واستمر  
ملوك الطوائف ، يتولون حكم بلاد الفرس إلى سنة ٢٢٦ م ، حين نبغ أردشير بن

بابك مؤسس الطبقة الرابعة من ملوك الفرس المعروفين بآل ساسان أو الأكاسرة<sup>(١٤)</sup> . واستمر أردشير في الحكم إلى السنة ٢٤١ م ، واستطاع أن يوحد كلمة الفرس من جديد ، كما أعاد إلى سلطنة الأراضى العربية المتاخمة لبلاده ومنها الحيرة والأنبار ومنحها الاستقلال ، ليمنع أهلها من الإغارة على تخوم بلاده، وليستعين بهم على الرومان وعلى العرب الذين يغيرون على بلاد الفرس<sup>(١٥)</sup> .

والواقع إن تاريخ الحيرة قبل الميلاد غامض لانكاد نعرف من أمره شيئاً ، فلم يرد خبرها في نص تاريخي مدون أو كتابة مدونة الميلاد<sup>(١٦)</sup> . غير أن ذلك يتخذ دليلاً على أنه لم يكن لها وجود قبل هذه العهد<sup>(١٧)</sup> . واقدم كتابة تتضمن اسم الحيرة ( حيرتا ) نص يرجع إلى سنة ١٣٢ من التاريخ الميلادى<sup>(١٨)</sup> . ونستدل من هذا النص على أن الحيرة اقيمت في عصر سابق للعصر الساسانى<sup>(١٩)</sup> .

ويختلف الإخباريون فيمن اسس الحيرة في التاريخ العربى القديم ، فمنهم من يرجع عهد هذه الإمارة إلى أيام ( مختصر )<sup>(٢٠)</sup> في حين يرى أهل اليمن أنها من بناء تبع الأكبر<sup>(٢١)</sup> .

### هجرة التنوخيين إلى العراق ، وظهور الحيرة في التاريخ العربى :

يرى بعض الباحثين المحدثين أن تاريخ إمارة الحيرة يرجع إلى القرن الثالث الميلادى ، واستمر إلى ظهور الإسلام<sup>(٢٢)</sup> . وعن هجرة التنوخيين إلى بادية العراق يحدثنا حمزة الاصفهانى بأنه لما حدث سيل العرم تمزقت عرب اليمن من مدينة مأرب إلى العراق والشام ، فكانت تنوخ - وهم حى من أحياء الأزد - ممن تمزق إلى العراق ، ذلك أنه اتفق بجى مالك بن فهم بن غنم بن دوس بن عدنان الازدى من بنى نصر بن الأزد فى جمهور من الأزد ، وبجى مالك بن فهم بن تيم الله بن أسد بن وبرة بن قضاة فى جمهور من قضاة ، لما افرقت قضاة عند تهامة إلى البحرين ؛ فقال مالك بن فهم الازدى لمالك القضاعى : نقيم بالبحرين ، ونتحالف على من نوانا ، فتحالفوا فسموا تنوخا ، وبذلك فى أيام ملوك الطوائف، فنظروا

إلى العراق وعليها طائفة من ملوكها وهي شاذرة ، فخرجوا عن البحرين وسارت  
الأزد إلى العراق مع مالك بن فهم الأزدي ، ثم سارت قضاة إلى الشام مع مالك  
بن فهم القضاة ، فملك القضاة طائفة من الشام ثم سار بن حلوان في  
قضاة فصار الملك فيها ، ثم منها في لضعامة فبقى الملك فيهم إلى أن أغلب  
على الملك بنو جفنة مالك بن فهم . وتملك على تنوخ العراق مالك بن فهم في  
زمان ملوك الطوائف . وكان منزله بالأنبار<sup>(٢٣)</sup> . تلك رواية حمزة الالفهاني عن  
هجرة العرب إلى الحيرة ، وهي أكثر دقة مما رواه الطبري<sup>(٢٤)</sup> وابن الأثير<sup>(٢٥)</sup> عن  
ابن الكلبي<sup>(٢٦)</sup> ، أنه لما مات بختنصر ، انضم الذين كان أسكنهم الحيرة من العرب  
إلى أهل الأنبار ، وبقيت الحيرة خراباً ، فغبروا بذلك زماناً طويلاً لا تطلع طاعة  
من بلاد العرب ولا يقدم عليهم قادم .

وبالأنبار أهلها ومن انضم إليهم من أهل الحيرة من قبائل العرب من بنى  
إسماعيل وبنى معد بن عدنان ، فلما كثر أولاد معد بن عدنان ومن كان معه من  
قبائل العرب ، وملووا بلادهم من تهامة وما يليها ، فرقتهم حروب وقعت بينهم  
وأحداث حدثت فيهم ، فتشتتوا . وأقبلت منهم قبائل حتى نزلوا البحرين وبها  
جماعة من الأزد كانوا نزلوها في دهر عمران بن عمرو من بقايا بنى عامر ، وهو  
ماء السماء بن حارثة وهو الفطريف بن ثعلبة بن امرئ القيس بن مازن ابن الأزد .  
وكان الذين أقبلوا من تهامة من العرب مالك وعمرو أبنا فهم بن تيم الله بن أسد  
بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاة ، ومالك بن زهير  
ابن عمرو بن فهم بن تيم الله بن أسد بن وبرة في جماعة من قومهم ، والحيقار بن  
الحيق بن عمير بن قنص بن معد بن عدنان في قنص كلها . ولحق بهم غطفان بن  
عمرو بن الطمثنان بن عوذ مائة بن يقوم بن أقصى بن دعمى بن أباد ابن بن نزار  
بن معد بن عدنان ، وزهر بن الحارث بن الشلل بن زهر بن أباد ، وصنح بن  
أقصى بن دعمى بن أباد . فاجتمع بالبحرين جماعة من قبائل العرب ، فتحالفوا



على التنوخ وهو المقام ، وتعاقدوا على التوازر والتناصر فصاروا يدا على الناس وضمهم اسم تنوخ<sup>(٢٦)</sup> . وتنخ على تنوخ بطون من ثمارة بن لخم . ودعا مالك بن زهير جذيمة الأبرش بن مالك بن فهم بن غانم بن دوس الأزدي إلى التنوخ معه ، وزوجة أخته لميس ابنة زهير ، فتنخ جذيمة ومن كان من الأزدي ، فصار مالك وعمرو ابنا فهم والأزدي خلفاء دون سائر تنوخ وكلمة تنوخ كلها واحدة .

أما اجتماع من اجتمع من قبائل العرب بالبحرين وتحالفهم وتعاقدهم ، فكان على حد قول ابن الكلبي في أزمان ملوك الطوائف الذين ملكهم الأسكندر وفرق البلدان بينهم عند قتله دارا بن دارا ملك فارس ، إلى أن ظهر أردشير بن بابك ملك فارس على ملوك الطوائف وقهرهم ، ودان له الناس . وفي هذا العهد - عهد ملوك الطوائف على حد قوله أيضاً - تطلعت انفس من كان بالبحرين من العرب إلى ريف العراق وطمعوا فيه واهتبلوا ما وقع بين ملوك الطوائف من الاختلاف فأجمعوا على السير إلى العراق . وكان أول من طلع منهم الحيقار بن الحيق في جماعة قومه واختلاط من الناس ، فوجدوا الأرمانيين ( بنى أرم ) ، وهم الذين بأرض بابل وما يليها إلى ناحية الموصل ، يقاتلون الأردوانيين ، وهم ملوك الطوائف ، فاستفادوا من ذلك وانتشروا في السواد . وسكن قسم منهم بين عرب الأنبار ، وسكن قسم آخر منهم بين عرب الحيرة .

ثم طلع مالك وعمرو ابنا فهم بن تميم الله ومالك بن زهير بن تميم الله ، وغطفان بن عمرو بن الطمشان وزهر بن الحارث ، وصنح بن صنح ، فيمن تنخ عليهم من عشائريهم وخلفائهم على الأنبار على ملك الأرمانيين . فطلع ثمارة بن قيس بن ثمارة والنجدة ، وهم قبيلة من العماليق ، يدعون إلى كندة ، وملككان بن كندة وملك وعمرو ابني فهم ومن حالفهم وتنخ معهم على ( نفر ) على ملك الأردوانيين ، فأنزلهم الحير ، أي الحيرة ، فلم تزل طالعة الأنبار وطالعه ( نفر ) على

ذلك لا يدينون للأعاجم ولا تدين لهم الأعاجم حتى قدمتها تبع وهو أسعد أبو كرب بن ملكي كرب ، فى جيوشة فاستولى عليها ، ونزل الحيرة فيمن معه<sup>(٢٧)</sup> .

روى ابن الكلبي أيضاً أن كثيراً من تنوخ نزلوا الأنبار والحيرة وما بين الحيرة وطف الفرات وغريبه إلى ناحية الأنبار وما والاها ... نزلوا فى المظال والأخبيسة لا يسكنون بيوت المدر ، ولا يزاوجون أهلها . وكانوا يسمون ( عرب الضاحية ) . فكان أول من ملك منهم فى زمان الطوائف مالك بن فهم وكان منزله مما يلى الأنبار . ثم مات مالك بن فهم ، فملك من بعده أخوه عمرو بن فهم ، فملك من بعده جذيمة الأبرش بن مالك بن فهم بن غانم بن دوس الأزدي<sup>(٢٨)</sup> .

وتختلف هذه الرواية التى رواها الطبرى عن ابن الكلبي ، بشأن كيفية مجئ العرب العراق ، وسكنى تنوخ الحيرة ، تختلف عما رواه ابن أسحق ، حيث ترجع مجئ ربيعة بن نصر اللخمي إلى العراق ، إلى الرؤيا التى رآها ، وتعبير سطيح فشق لها بغلبة الحبشة على اليمن فى المستقبل . فأمر عندئذ بنية على نحو ما تخبرنا الرواية بالذهاب إلى العراق ، وكتب لهم كتاباً إلى سابور بن خرزاذ فاسكنهم الحيرة<sup>(٢٩)</sup> .

هذه هى أقوال الإخباريين فى كيفية مجئ العرب إلى العراق وفى سكنا الحيرة والأنبار وما بين المكانين من أرضين . وهى أقوال فيها شئ من الحق الواقع لكن فيها أيضاً شيئاً من الخطأ . فنحن لا نريد أن ننكر هجرة القبائل العربية من الجزيرة إلى العراق . فهذا أمر ليس إلى أنكاره من سبيل ، ولكننا لا نستطيع إن نوافقهم على أقوالهم فى مبدأ تلك الهجرة وفى كيفيةها ، فتلك أمور لا يعرفها الأخباريون . كما أننا لا نستطيع أن نوافقهم فى زعمهم عن قواد تلك الهجرة أو الهجرات التى تلتها من رجال . فنحن نعلم حق العلم إن من تحدثوا عنهم وجعلوهم فى الدهر الداغر ، وفى العرب العاربة ، أو فى أيام ملوك الطوائف هم فى الأكثر أناس عاشوا بعد الميلاد ، وبينهم رجال لا تبعد أيامهم كثيراً عن الإسلام ، وبينهم أناس اخترعتهم مخيلة الإخباريين<sup>(٣٠)</sup> . ومن المعروف إن تنوخ اسم قبيلة

عربية يمنية ورد ذكرها فى جغرافية بطليموس (٣١) ، وكانت منازلهم فى الجنوب ... وهى السلسلة الجبلية التى رأى البعض أنها نفس جبال شمر (٣٢) ولكن الإخباريين يرجعون منازلهم إلى تهامة . ومدينة الأنبار التى هاجر إليها عرب تنوخ قديمة البنيان ، وقد تبين من دراسة إثارها إنها من المواقع السابقة على عصر الدولة الساسانية . وقد ازدهرت هذه المدينة وعمرت فى عصر شاپور الثانى (٣١٠ - ٣٧٩ م) الذى حصنها بالقلاع والأسوار ، لكى تسهم فى مقاومة غارات الروم على بلاده ، وحفر إلى الجنوب منها نهراً يصل الفرات بدجلة كان يعرف باسم نهر عيسى . واكتسبت الأنبار بفضل هذا النهر أهمية عظيمة ، إذا أصبحت مركزاً تجارياً هاماً ومخزناً للأموال . واسم الأنبار القديم بمعنى المخزن يعبر عن الشهرة التجارية التى أصابتها .

وقد أدرك القدماء هذا المعنى ، وفسروها به ، يقول الطبرى : " إنما سميت أنبار ، لأنها كانت تكون فيها أنابيب الطعام ، وكانت تسمى الأهراء ، لأن كسرى يرزق أصحابه رزقهم منها .

### العلاقة بين الحيرة والجزيرة العربية :

من المعروف إن الصراع بين الإمبراطوريتين الفارسية ، من جانب ، والبيزنطية من جانب آخر ، انسحب على المملكتين التابعتين لهما : المناذرة فى الحيرة ، والغساسنة فى الشام ، فاتخذتا موقفاً عملياً من هذا الصراع . وقد لاحظ البعض إن جهود الفرس للسيطرة على منطقة الحجاز كانت سبباً فى ضعف نفوذ تميم ، وارتفاع سلطان غطفان . وكان إن قامت مملكة لحم بتنفيذ هذه السياسة ، أعنى سياسة الأيقاع بين القبائل لأضعاف شأنها ، وذلك لكى يحصلوا على موطن قدم فى هذه المنطقة (٣٣) . وسياسة ( فرق تسد ) قديمة قدم الدول الكبرى ، إذ تقوى شوكتها بأضعاف الوحدات السياسية الصغيرة . وقد اصطنع الفرس هذه السياسة ، ونفذها لهم الأمراء اللخميون - فيما يرى روزشكا - فغدت وسيلتهم

فى الوصول إلى السيطرة والنفوذ . وربما كان أهل المدينة أحراراً لا سلطان للفرس أو الروم عليهم فيما يرى بعض المؤرخين الغربيين (٣٤) إلا إن البعض الآخر يرى إن عامل المدينة - يثرب - فى فترة من الفترات كان ممثلاً لملك الحيرة ، يناصره (ملوك) قريظة والنضير (٣٥) . ويميل كستر إلى هذا الفريق الثانى استناداً إلى رواية لابن سعيد فى كتابة : ( نشوة الطرب ) ، تعطى هذه الرواية تفاصيل مهمة حول سيطرة الساسانيين على المدينة بعد إن أوشكت سلطة اليهود على الانتهاء (٣٦) . ويروى ابن سعيد إن المعارك كانت دائماً تأخذ مكانها بين الفريقين المتخاصمين ( أى بين اليهود وبين الأوس والخزرج ) ولم يستقم لهم إن يستبد بهم ملك إلى إن دخل على النعمان بن المنذر ملك الحيرة - عمرو بن الاطنابة الخزرجى فملكه على المدينة . ويؤكد أبو عبيدة ، إن عمرو بن الاطنابة كان صديقاً لخالد ابن جعفر زعيم كلاب الذى كان على صلة وثيقة بأمر الحيرة ، والذى قتل من قبل الحارث بن ظالم فى بلاط النعمان . ويستدل كستر من أسماء الأشخاص المذكورين فى القصص حول عمرو بن الاطنابة مثل الحارث بن ظالم ، وزيد الخيل ، وخالد بن جعفر ، والنعمان بن المنذر ، على أن عمراً هذا عاش فى النصف الثانى من القرن السادس (٣٧) .

ويرجح كستر أيضاً صحة الرواية التى تقول بتعيين النعمان لعمرو بن الاطنابة الخزرجى ( ملكاً ) أو بالأحرى ممثلاً للحيرة ، وجابى ضرائب على المدينة ، مستنداً على رأيه ببيتى ثابت الخزرجى ، وهو ما يؤكد فى نظر كستر استمرار السيطرة الفارسية على المدينة خلال القسم الثانى من القرن السادس الميلادى (٣٨) .

يعنى هذا على أى الأحوال سيطرة الساسانيين على المدينة فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى الذى عاش خلاله النعمان بن المنذر الحيرى .

## الحيرة بعد ظهور الإسلام :

يحدثنا المؤرخون بأن شروع سعد بن أبي وقاص في إنشاء الكوفة سنة ١٧هـ (٦٣٨م) كان إيذاناً بتدهور الحيرة وتناقص عمرانها . ذلك إن انقراض قصورها استخدمت فيما يروى في بناء المسجد الجامع بالكوفة ، وحسبت لأهل الحيرة قيمة ذلك من جزيتهم . وكانت الحيرة قد فتحت صلحاً كما إن خبرات أهلها التجارية أتاحت لها مجالاً واسعاً للإفادة المادية من الفتوح الإسلامية . وهكذا ظلت الحيرة بأديرتها المعروفة مزاراً للمسحيين ، ومتنزهاً لغير المسحيين ، ينشدون فيها طيب الهواء وراحة المقام<sup>(٢٩)</sup> . كذلك ذاعت شهرة بعض الآلات الموسيقية في الحيرة ، مثل العود الحيرى والمزمار ، والدف . كما كان للحيرة دور هام في خدمة الفتوح الإسلامية الأولى في عهد أبى بكر رضى الله عنه فها هو ذا الدينورى<sup>(٣٠)</sup> يحدثنا في ( الأخبار الطوال ) ، بأن المثنى ابن حارثة الشيبانى ، وسويد بن قطبة العجلي ، كانا يغيران على أرض فارس ، وقد أفضى الملك إلى بوران بنت كسرى ، وإن المثنى كتب إلى أبى بكر رضى الله عنه يعلمه ضراوته بفارس ، ويعرفه مواضع الضعف منهم ، ويسأله إن يمدّه بجيش ، الأمر الذى جعل خليفة المسلمين يكتب إلى خالد بن الوليد - وكان قد فرغ من أهل الردة - إن يسير إلى الحيرة فيحارب الفرس ، ويضم إليه المثنى ومن معه . وقد تم ذلك فسار خالد والمثنى بأصحابهما حتى أناخا على الحيرة وتحصن أهلها فى القصور الثلاثة . ويروى الدينورى إنهم صالحوا خالداً وقد نزل إليه عمرو بن ببيعة من القصور الثلاثة على مائة ألف درهم يؤدونها فى كل عام إلى المسلمين<sup>(٣١)</sup> . وبينما خالد فى طريقة إلى الشام ليمد أبا عبيدة بن الجراح بمن معه من المسلمين ، تلبية لكتاب أبى بكر رضى الله عنه ، وبعد إن خلف خالد بالحيرة عمرو بن حزم الأنصارى مع المثنى ، أنحط على عين التمر ، وكان بها مسلحة لأهل فارس ، فحاصر أهلها حتى استنزلهم بغير أمان ، فضرب أعناقهم ، وسبى ذراريهم<sup>(٣٢)</sup> .



وقد ظلت الحيرة مدينة معمورة بالسكان في العصر الأموي ، إلا إنها في العصر العباسي أخذت في الاضمحلال <sup>(٤٣)</sup> . ويحدثنا المسعودي إن عمرائها لم يزل يتناقص في العصر العباسي إلى أيام المعتضد عندما حل بها الخراب <sup>(٤٤)</sup> ، بعد إن كان جماعة من خلفاء بني العباسي كالسفاح والمنصور والرشيد وغيرهم ينزلونها ، ويصلون المقام بها ، لطيب هوائها ، وصفاء جوهرها ، وصحة تربتها ، وصلابتها ، وقرب الخورنق والنجف منها <sup>(٤٥)</sup> . فالمسعودي <sup>(٤٦)</sup> يحدثنا إن المتوكل أحدث في أيامه بناء على النمط الحيري لم يكن الناس يعرفونه ، وهو المعروف بالحيري ، والكمين ، والأروقة . وذلك إن بعض ملوك الحيرة من النعمانية من بني نصر أحدث بنياناً في دار قراره ، وهي الحيرة ، على صورة الحرب وهيئتها ، فكان الرواق في مجلس الملك وهو الصدر والكمان ميمنة وميسره ، ويكون في البيتين اللذين هما الكمان من يقرب منه من خواصه وفي اليمين منهما خزانة الكسوة ، وفي الشمال ما احتيج إليه من الشراب والوراق . فسمى هذا البنيان إلى ذلك الوقت بالحيري والكمين ، إضافة إلى الحيرة . وأتبع الناس المتوكل في ذلك ائتماماً بفعله . وهكذا أعطت الحيرة المدينة الجاهلية أسلوباً في العمارة ونمطاً حضارياً في البناء ، ينشده خلفاء بني العباس بعد أمراء الحيرة بقرون ، ويحتذونه مثلاً وطريقة في التشييد .

### فن العمارة :

اشتهرت الحيرة بقصورها التي ضربت الأمثال في عظمتها ، مثل قصرى الخورنق والسدير - وقد سبق الحديث عنهما وعن سنمار : باني الخورنق . وكذلك اشتهرت باديرتها التي أقيمت بها منذ إن انتشرت المسيحية بين سكانها <sup>(٤٧)</sup> . وقد ذكر شعراء الحيرة الجاهليون القصرين في قصائدهم وظل الشعراء في الإسلام ، حتى العصر العباسي يتحدثون عنهما . ومن قصور الحيرة

كذلك : قصر سنداد ، وكان يقع فيما بين الحيرة والأبلة وذكر ابن الكلبي إن أيادا كانت تنزل فيه (٤٨) .

ومنها أيضاً قصرًا : العذيب والصنبر اللذان بناها أمرؤ القيس بن النعمان بالقرب من الفرات . وقصر الفرس ، وقصر الزوراء ، وقصر مقاتل (٤٩) . ومن هذه القصور قصر العدسين ، وكان يقع فى طرف الحيرة ، وهو أول القصور التى استولى عليها المسلمون . ومنها قصر بنى بقليلة الذى بناه عبد المسيح . وكان لتنصر المناذرة أثر فى تنشيط حركة بناء الأديرة والكنائس . ولقد حفظ لنا الأخباريون أسماء كثيرة من هذه المنشآت المسيحية ، التى أقيمت فى عصر المناذرة بعد إن أصبحت الحيرة أسقفية تابعة لكرسي جاثاليق المدائن . ومن بين كنائس الحيرة كنيسة تنسب إلى قوم من الازد ... من بنى عمرو بن مازن الغسانيين وتسمى بيعة بنى مازن ، ومنها بيعة بنى عدى التى تنسب إلى بنى عدى بن الذميل من لخم ، ومنها كنيسة الباغوة التى اعتبرها الهمداني إحدى مراكز سبعة للعبادة عند العرب ، ومنها بيعة دير اللج بظاهر الحيرة ، وغيرها من الكنائس (٥٠) إما الأديرة فبعضها ينسب إلى ملوك الحيرة وأمراءها والبعض الآخر ينسب لأفراد من العباد الإشراف (٥١) . وأهم أديرة الملوك والأمراء فيما يروى الكبرى ويقوت - دير اللج ، ودير مارة مريم ، ودير هند الكبرى ، ودير هند الصغرى .

## ١ - دير اللج (٥٢) :

بناه أبو قابوس النعمان بن المنذر ، أيام توليه إمارة الحيرة ، وهو أجمل ديارات الحيرة ، فلم يكن فى هذه الديارات أحسن منه بناء ولا أنزه موضعاً . كان النعمان يركب فى كل أحد إليه ، وفى كل عيد ، ومعه أهل بيته خاصة من آل المنذر ، عليهم حلل الديباج المذهبة ، وعلى رؤسهم أكاليل الذهب ، وفى أوساطهم الزنانير المقصصة بالجواهر ، وبين أيديهم إعلام فوقها صلبان . وإذا

قضوا صلاتهم انصرفوا إلى مستشفه على النجف ، فشرب النعمان وأصحابه فيه بقية يومه ، وخلع ووهب ، وحمل ووصل . وكان ذلك فيما يرى البكرى أحسن منظر وأجمله .

## ٢ - دير مارة مريم :

دير قديم ، بناه المنذر ، حسن الموضع ، حيث يقع بين الخورنق والسدير ، وبين قصر أبي الخصيب ، مشرفاً على النجف يروى البكرى عن أبي الفرج أنه كان فيه قس يقال له يحيى ، وله ابن يقال له : بوشع ، وكان الفتيان يألفون هذا الدير ، ويشربون عنده على قراءة النصارى ، وضرب بالنواقيس . وقد ظل الدير قائماً إلى زمن الواثق العباسى ، فزاره ومعه أسحق بن إبراهيم الموصلى وأعجب بموقعه وعمارته .

## ٣ - دير هند الكبرى :

بنته هند أم عمرو بن هند ، وهى هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر أكل المرار الكندى . وكان فى صدره مكتوب : بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الملكة بنت الأملاك ، وأم الملك عمرو بن المنذر ، أمة المسيح ، وأم عبده وبنت عبيده ، فى ملك ملك الأملاك : خسرو أنوشىروان ، فى زمن مار أفريم الأسقف ، فالإله الذى بنت له هذا الدير يغفر خطيئتها ، ويترحم عليها وعلى ولدها ، ويقبل بها ، ويقومها إلى إقامة الحق ، ويكون الله معها ومع ولدها الدهر الدهر . ويقع هذا الدير على طرف النجف فيما يذكر البكرى . وهذا يعنى إنه قريب فى موقعه من دير اللج . ويروى إن الرشيد كان قد خرج ومعه يحيى بن خالد البرمكى ، إلى الحيرة ، لمشاهدة إثار المنذر ، وللتنزه ، وإنه لدى زيارته هذا الدير تأثر من أبيات قرأها على أحد جدرانته .

#### ٤ - دير هند الصغرى :

بنته هند بنت النعمان بن المنذر ، وهى التى تعرف فيما يروى بحرقه ، أو الحرقه ، ويقال : حريقه . كان يقع هذا الدير فى موقع نزه ، قريباً من خطة بنى عبد الله بن دارم بالكوفة ، مما يلى خندق القادسية . ويذكر ياقوت إن هنداً إقامت فى هذا الدير ، إلى إن ماتت ودفنت فيه . ويروى شعراً انشدته فى حوار طويل ، زعم ياقوت إنه دار بينها وبين خالد بن الوليد - رضى الله عنه . وفى هذا الدير أكثر الشعراء من شعرهم الذى يذكرونه فيه ، ومن هؤلاء معن بن زائدة الشيبانى الأمير.

\* \* \*

وإما الأديرة التى بناها بعض العباد أو ...الإشراف ، فلعل أهمها : دير بنى مرينا ، ودير الجماجم ، ودير المسيح ، ودير قره ، ودير نجران ودير حنة ، الشهير ( بالاكيراح ) ودير ابن وضاح . وأغلب الظن إن هذه الأديرة على هذه النحو قد انتشرت وتعددت فى أنحاء أماره الحيرة ونحن إنما نكتفى بالإشارة السريعة إلى بعض منها.

#### ١ - دير بنى مرينا :

بظاهر الحيرة ، فى موضع يعرف بجفر الأملاك ، يقال إنه ضربت فيه أعناق بنى الملك حجر بن عمرو أكل المرار بأمر الملك المنذر بن النعمان .

## ٢ - دير الجماجم :

ويقع بظاهر الكوفة على سبعة فراسخ منها فى اتجاه البصرة . وأغلب الظن إنه سُمى كذلك ، لأن ... بلال الرماح بن محرز الأيادى قتل قومًا من الفرس ، ونصب رءوسهم عند الدير فسمى دير الجماجم (٣٠) .

## ٣ - دير حنة :

دير قديم ، بناه بالحيرة حتى من تنوخ ، يقال لهم بنو ساطع ، تحاذيه منارة عالية كالمرقب . وكان فتيان الحيرة يألّفونه ويشربون فيه .

## ٤ - دير حنة آخر بالأكيراح :

بناحية البليخ ، بلد كثير البساتين والرياض والمياه ، وبالحيرة أيضا موضع يقال له الأكيراح ، وفيه دير بناه عبد بن حنيف من بنى لحيان ، الذين كانوا مع لخم ، وملك الحيرة منهم ملكان (٣١) .

\* \* \*

ولا شك فى إن هذه النهضة فى مجال العمارة ، وإن هذه القصور الفخمة والأديرة الكبيرة التى شيدها الحيريون ، تجعلنا نعود من حيث بدأنا لكى نتذكر أوصاف الحيرة ، فقد وصفها الأخباريون بالبياض فقالوا : الحيرة البيضاء ، معبرين عن وضاعة مبانيها ، وبهائها . فقد أصبح البياض سمة لعمارة الحيرة . وكذلك وصفها الأخباريون ، فيما ذكرنا بالحيرة الروحاء دليلاً على الأمتداد ، والاتساع ، وحسن الجو ، وراحة المقام .

وكان عرب الحيرة أرقى عقلاً ومدنية من عرب الجزيرة لتحضرهم ولجاورتهم حضارة الفرس العظيمة واتصالهم بهم اتصالاً وثيقاً . وكان منهم من يعرف اللغة الفارسية ويجيدها . وجدير بالذكر إن عدى بن زيد ( الحيرى ) كان



من ترجمة أبرويز ( ملك الفرس ) وإن أباه زائداً كان شاعراً خطيباً وقارئاً كتاب العرب والفرس . ولا شك في إن معرفة بعض هؤلاء الحيريين للغة الفرس كانت واسطة شئ من حضارتهم وأدابهم إلى العرب (٥٥) . بل إن عرب الحيرة هؤلاء فيما يحدثنا الأستاذ / أحمد أمين تسرب إليهم شئ من علوم اليونان وأدابهم . ذلك إن الحكومة الفارسية في عهد هرمز الأول أنشأت مستعمرات كونتها من أسرى الحرب الرومانيين ، وكان من بين هؤلاء الأسرى من ثقف بالثقافة اليونانية، ومنهم من كل يفوق الفرس في الفن والهندسة والطب، فاستخدموه في مهام شتونها . ومن هؤلاء الأسرى من نزلوا الحيرة (٥٦) . وكانت الحيرة بالإضافة إلى ما ذكرنا سوقاً تجارياً كبيرة ، مما أعد لإن تتحضر وإن تتأثر بالثقافة الفارسية ، التي كانت تعم تلك الأنحاء (٥٧) . ومعروف ما كان لعرب الحيرة وأمرائهم وتاريخهم من أثر كبير في الأدب العربي والحياة العقلية للعرب عامة ، فأحاديث جذيمة الابرش وأساطير الزباء ، والتغنى بالخورنق والسدير ، والأقاصيص التي دارت حول سنمارباني الخورنق ، والأمثال التي ضربت فيه وفي غيره في غضون ما يحكى الأخباريون من الأساطير ، ويوماً النعمان اللذان وتحدثنا عنهما . كل ذلك مما شغل جزءاً كبيراً من الأدب العربي (٥٨) . وكان أمراء الحيرة مقصداً لشعراء الجزيرة ينفحونهم المال الكثير ليشعروا بهم بين البدو وفي أنحاء الجزيرة (٥٩) وكان هناك تبار بين أمراء كل من الحيرة وغساسنة الشام على احتواء الشعراء ، وجذبهم لمديحهم وبيان أفضلية الأمير الحيرى على نده الغساني ، والعكس . وقد سبق إن أشرنا إلى النابغة مثلاً على ما نقول . ومن ذلك أيضاً وفود حسان بن ثابت على الحارث الغساني يمدحه ، وكان من قبل يمدح النعمان بن المنذر .

وللشعراء الذين كانوا يحيون في البلاط الحيرى ، في كنف الأمراء ، ولقصائدهم ، قصص وأخبار مع بعض هؤلاء الأمراء أو زوجاتهم أو بعض بناتهم،

ترويهها كتب الأدب ، على نحو ما شهر عن المنخل وتشبيهه ، والنابعة وتشبيهه أيضاً.

وتحكى لنا هذه الكتب مناظرات بين كسرى والنعمان ابن المنذر وغيره ، هى من قبيل النثر الفنى الذى تحكمه خصائص قوامها الحاجة ، ومحاولة الإتيان بالدليل القوى ، والبرهان القاطع لبيان فضل العرب على غيرهم من الأمم . وقد مر بنا ما كانت عليه الحيرة من ازدهار أدبى فى عهد عمرو بن هند ووفود الشعراء عليه ، وعطاؤه الغامر لهم . وقصة مقتله على يد عمرو ابن كلثوم التغلبى الشاعر من القصص الشهيرة . والواقع إن أمارة الحيرة فى الجاهلية كانت أوفر البقاع العربية من العلم . وقد يكون الحاريون قد عرفوا الكتابة ، وهم عرفوها بغير شك . من ذلك ما يرويه صاحب الأغاني إن المرقش الأكبر وأخاه حرملة تعلمًا الكتابة فى الحيرة على أحد النصارى من أهلها (٦٠) . ومنه ما يرويه ( ابن رسته ) فى ( الأعلاق النفسية ) إن أهل الحيرة علموا قريشًا الزندقة فى الجاهلية ، والكتابة صدر الإسلام (٦١) . وكل هذا يعنى وجود الكتابة فى الحيرة فى الجاهلية وإتقان بعض أهل الحيرة للكتابة حتى لقد علموها بعض العرب ، فى الجاهلية والإسلام . ولكن هذا لا يعنى صحة ما يروى عن حماد الراوية من أن النعمان ابن المنذر " أمر فنسخت له أشعار العرب فى الطنوخ - الكراريس - ثم دفنها فى قصره الأبيض " وأنه " لما كان المختار بن أبى عبيد - حوالى سنة ٦٧ هـ - قيل له : إن تحت القصر كنزًا ، فاحتفراه ، فخرج تلك الأشعار " . وربما تسرب هذا الوهم إلى ابن سلام حيث تراه يقول . " وقد كان عند النعمان بن المنذر منه - من شعر العرب فى الجاهلية - ديوان فيه أشعار الفحول ، وما مدح هو وأهل بيته به ، فصار ذلك إلى بنى مروان ، أو صار منه " . ويكفى إن يكون أصل الخبر حمادًا المتهم فى روايته لنشك فيه (٦٢) . وإذا كان القرآن الكريم على قداسته لم يجمع فى مصحف واحد إلا بعد وفاة النبى عليه الصلاة والسلام ، وبعد مشاورة بين أبى بكر رضوان الله

عليه والصحابه ، فذلك وحده كاف لبيان إن العرب لم تنشأ عندهم فى الجاهلية فكرة جمع شعرهم أو أطراف منه فى كتاب ، إنما نشأ ذلك فى الإسلام ومرار الزمن . أما فى الجاهلية فكانوا يعتمدون على الرواية ، وكان الشاعر يقف فينشده قصيدته ، ويتلقاها عنه الناس ويروونها (١٢) . ويرجع بعض المؤرخين المسلمين إن الخط العربى منشأة الحيرة ، وإنه نقل منها إلى مكة والحجاز . غير إن النقوش الحجازية وغير الحجازية تصور انتقال الخط الآرامى إلى خط نبطى ثم انتقال هذا الخط إلى الخط العربى (١٣) .

وقد حملت النقوش إلى علماء الساميات الدليل القاطع الذى لا يطعن فيه على هذه الحقيقة ، إذ عثروا على نقوش فى شمالى الحجاز ، وعلى طول طريق القوافل إلى دمشق تثبت تطور الخط النبطى تطوراً سريعاً إلى الخط العربى . وأهم هذه النقوش على الترتيب نقش عثر عليه ليتمان فى قرية أم الجمال غربى حوران ، ويرجع تاريخه إلى سنة ٢٧٠م وهو لقهر بن سلى الذى كان مريباً لجذيمة ملك تنوخ ، وخطه نبطى ، إلا إنه يمتاز بظهور روابط بين الحروف . ويليه نقش النمارة الذى اكتشفه " دوسو " و " ماكلر " سنة ١٩٠١ على بعد ميل من النمارة القائمة على أطلال معبد رومانى شرقى جبل الدروز ، بالقرب من الأماكن التى عثر فيها على الكتابات الصفوية . وقد كتب شاهداً لقبر ملك الملوك اللخميين يسمى أمرؤ القيس بن عمرو (١٤) . وقد يكون مرجع هذا الظن فى روايات المؤرخين الإسلاميين إن الخط الكوفى نما وازدهر فى الكوفة ، فظنوا إن هذه البيئة هى التى ابتكرت الخط العربى ، وإنه نما وتطور فى الحيرة و الجدير بالذكر إن أهل الحيرة إما وثنيين يعبدون الأصنام ، أو صابئة يعبدون الكواكب ، أو مجوساً يعبدون النار أو نصارى ويهوداً (١٥) . ومن أصنامهم الصنمان الشهيران بالحيرة ، المعروفان ( بالضيذين ) ، كان جذيمة يستسقيهما ويستنصر بهما على العدو . وقد عرفت الحيرة عبادة القمر (١٦) . وانتقلت إلى الحيرة بغير شك تلك الديانات

المعروفة بالزرادشتية والمزدكية ومر بنا انتشار تلك الديانات الأخيرة لعهد قباد .  
ومن ثم كانت الحيرة مركزاً للزندقة في العصر الجاهلي وانتقلت منها إلى قريش .  
وعلى الرغم من أن ملوك الحيرة كانوا وثنيين ، إلا أن النصرانية تغلغلت في الحيرة ،  
فكان يعتنقها العباديون .

وأغلب الظن إنهم سموا بذلك تمييزاً لهم من جيرانهم الوثنيين (٦٧) . وقد  
تأخرت الهيئة الحاكمة من آل المنذر في اعتناق المسيحية (٦٨) . ويذكر ابن حزم إن  
تنوخ ، وكان كل من سكن الحيرة من تميم كانوا نصارى (٦٩) وهكذا كانت  
الحيرة مركزاً ثقافياً ودينياً أدبياً هاماً في الحياة العربية الجاهلية ، مما جعلها إحدى  
شهرات مدن الشرق لعهد المناذرة اللخمين . وكان تأثيرها ، وتأثير أهلها في  
مجال الموسيقى كبيراً حتى أصبح غناء أهل الحيرة وما له من سمات خاصة ، علامة  
بارزة في تاريخ الموسيقى العربية .

وهكذا اجتمع لهذه المدينة من مقومات الحضارة ما لم تشهد عاصمة عربية  
أخرى قبل الإسلام .

## الهوامش

- (١) " ياقوت - معجم البلدان مج " ( بيروت ١٩٥٦ ) وانظر ابن الفقيه - مختصر كتاب البلدان ١٨١ ، وجواد على - تاريخ العرب قبل الإسلام ٧/٤ - ٨ ودائرة المعارف الإسلامية ١٦١/٨ ، ١٦٢ ( الحيرة ) وانظر أيضًا ( الخورنق ) .
- (٢) الاصطخري - المسالك والممالك ٥٨ وابن حوقل - صورة الأرض ٢٣٩/١ ، ٢٤٠ ، وانظر المقدسي ( شمس الدين ) أحسن التقاسيم ١١٩ ، وجواد على ٧/٤ ، ٨ .
- (٣) انظر مقال الدكتور صالح أحمد العلي ( منطقة الحيرة دراسة طبوغرافية ) ، العدد الخامس من مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد - نيسان ١٩٦٢ م .
- (٤) نفس المصدر ١٨١ .
- (٥) معجم البلدان - مج ٢ مادة ( حيرة ) .
- (٦) نفس المصدر .
- (٧) في القاموس المحيط ( مادة حار ) : الحير شبه الحظيرة الحمى ، وقصر كان يسر من رأى ، وأصبحت الأرض .. حيرة أى مخضرة مبقلة . فالحير بفتح وسكون - المكان الأخضر الذى يعطى نباتاً وحياة .
- (٨) ياقوت / معجم البلدان / مادة ( حيرة ) .
- (٩) ياقوت - معجم البلدان ، وفي القاموس المحيط - مادة ( حار ) : أو الحيرتان : الحيرة والكوفة . وفي معجم البلدان : ( والحيرة أيضًا : محلة كبيرة مشهورة بنيسابور ، ينسب إليها كثير من المحدثين ، والحيرة أيضًا : قرية بأرض فارس فيما زعموا ) وهما بالطبع ليست حيرة العراق التى ندرسها .
- (١٠) جواد على : ٦/٤ .
- (١١) نفس المصدر .
- (١٢) القرماني : أخبار الدول وأثار الأول - بهامش الجزء الثالث من ابن الأثير ص ٥٢ .
- (١٣) نفس المصدر ص ٥٣ بهامش ابن الأثير .



(١٤) يحدثنا ابن الأثير عن طبقات ملوك الفرس فى كتابه : ( الكامل فى التاريخ ) فيذكر ملوك كل طبقة وسنى ملك كل منهم . هذه الطبقات الأربع هى - الطبقة الفيشداذية ، ثم الكيانية ، ثم الأشغانية ، ثم الطبقة الرابعة وهى الساسانية وأول ملوكها اردشير بن بابك وهو أول من أطلق عليه لقب ( شاهنشاه ) من ملوك الفرس وقد دانت له الكثير من البلدان كما دان له أهل الحيرة ، والأنبار - ابن الأثير ٣٧٧/١ - ٣٨٤ .

(١٥) ( حسن إبراهيم حسن ) : تاريخ الإسلام السياسى ٤٣/١ .

(١٦) جواد على ٩/٤ .

(١٧) نفس المصدر .

(١٨) جواد على ٨١/٣ ، ٦/٤ .

(١٩) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب فى الجاهلية ٢٤٤ .

(٢٠) حمزة ص ٨٦ والطبرى ٦٠٩/١ وما بعدها ، وانظر ابن الأثير ٢٧١/١ ، ٢٧٢ .

(٢١) ياقوت : معجم البلدان / مادة ( حيرة ) .

(٢٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ٤٣/١ .

(٢٣) حمزة ٨٣ ، ٨٤ .

(٢٤) الطبرى : ٦٠٩/١ وما بعدها .

(٢٥) ابن الأثير : مج ٣٤٠/١ وما بعدها .

(٢٦) جواد على : ١٧/٤ ، ١٨ ، ١٩ .

(٢٦) قال صاحب القاموس : تنخ بالمكان تنوخاً : أقام ... ومنه تنوخ قبيلة لأنهم اجتمعوا فأقاموا فى مواضعهم .

(٢٧) الطبرى : ٦٠٩/١ وما بعدها .

(٢٨) الطبرى : ٦١١/١

(٢٩) جواد على : ١٩/٤ - ٢٠ ، وانظر الطبرى ٦٢٨/١ .

(٣٠) جواد على : ٢٠/٤ .

(٣١) السيد عبد العزيز : تاريخ العرب فى الجاهلية ٢٤٣ ، وانظر جواد على ٤١١/٣ .

(٣٢) جواد على : ٣٦٩/٣ .

- (٣٣) نفس المرجع ص ١٠ .
- (٣٤) هو شبرع - كتابة ( اليهود في بلاد العرب ) ، انظر كستر ص ١٢ .
- (٣٥) المورخان : ألت هايم وشيتل - كستر ص ١٢ .
- (٣٦) نفس المرجع ص ١٢ ، ١٣ .
- (٣٧) كستر - الحيرة ومكة وصلتهما بالقبائل العربية ص ١٤ .
- (٣٨) نفس المرجع والصفحة .
- (٣٩) السيد عبد العزيز سالم ٢٩٣ - ٢٩٤ .
- (٤٠) انظر الخبر في الدينوري ١١١ - ١١٢ .
- ( باب حروب العرب مع العجم ) .
- (٤١) الدينوري - الأخبار الطوال ١١٢ .
- (٤٢) الأخبار الطوال ١١٢ .
- (٤٣) السيد عبد العزيز سالم ٢٩٤ .
- (٤٤) المسعودي - مروج الذهب ١٠٤/٢ .
- (٤٥) مروج الذهب ١٠٤/٢ .
- (٤٦) المسعودي - مروج الذهب ٨٧/٤ .
- (٤٧) السيد عبد العزيز سالم ٣٠٢ .
- (٤٨) ياقوت - معجم - مج ٢٦٦/٣ .
- (٤٩) السيد عبد العزيز سالم ٣٠٢ .
- (٥٠) السيد عبد العزيز سالم ٣٠٤ ، ٢٠٥ .
- (٥١) السيد عبد العزيز سالم ٣٠٥ .
- (٥٢) على لفظ لج البحر - البكري - معجم ما استعجم ص ٥٩٥ .
- (٥٣) ياقوت - معجم البلدان - مج ٢/٣٠٣ ، ٥٠٤ .
- وانظر البكري - معجم ما استعجم ٥٧٣ ، ٥٧٤ .
- (٥٤) المرجع السابق ص ٥٧٨ ، ص ٥٧٩ .
- (٥٥) أحمد أمين - فجر الإسلام ١٧ ، ١٨ .

- (٥٦) نفس المرجع ١٨ .
- (٥٧) شوقي ضيف - العصر الجاهلي ٤٧ .
- (٥٨) أحمد أمين - فجر الإسلام ١٨ .
- (٥٩) نفسه .
- (٦٠) الأغاني ٣٧٥/٥ .
- (٦١) أحمد أمين - فجر الإسلام ١٨ .
- (٦٢) شوقي ضيف - العصر الجاهلي ١٤١ .
- (٦٣) العصر الجاهلي ١٤١ .
- (٦٤) نفس المرجع السابق ٣٥ .
- (٦٥) شوقي ضيف - العصر الجاهلي ٣٤ .
- (٦٦) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب في عصر الجاهلية ٣١٠ .
- (٦٧) العصر الجاهلي ١٠٠ .
- (٦٨) نفسه .
- (٦٩) ابن حزم الأندلسي - جمهرة أنساب العرب ٤٥٧ .

# الترتيبات المالية فى تاريخ غزوة خيبر

## بواعثها ونتائجها

د. صلاح التجانى محمد حمودى (\*)

### الموضوع وأهميته التاريخية :

نخصص أصحاب السير والمغازى ، وبخاصة الواقدى<sup>(١)</sup> ، حيزاً كبيراً فى كتبهم للحديث عن غزوة خيبر<sup>(٢)</sup> التى وقعت فى السنة السابعة للهجرة ، مما يؤكد أهمية هذه الغزوة وأهمية النتائج التى ترتبت عليها .

وانطلاقاً من ذلك رأيت أن أقوم بالبحث فى هذا الموضوع ، لأن الترتيبات المالية التى نتجت عن هذه الغزوة تشكل ، فى رأى ، جزءاً هاماً من التاريخ الحضارى للأمم الإسلامية . أضف إلى ذلك أن هذه الترتيبات المالية انعكس تأثيرها على الحياة الاقتصادية فى عهد الرسول ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين .

وسنبداً حديثنا بالتعرض للأسباب والمبررات التى دفعت الرسول ﷺ والمسلمين لغزو خيبر .

### الأسباب والمبررات :

كانت خيبر إحدى مناطق الحجاز التى تسكنها مجموعات من اليهود مثلما كان عليه الحال فى يثرب ( المدينة ) وفدك وتيماء ووادى القرى<sup>(٣)</sup> وكان يهود المدينة أول من احتك بهم المسلمون . فعندما هاجر الرسول ﷺ إلى هناك ، وجد أعداداً من اليهود يقيمون فى المدينة ، كانت من أهمهم ثلاث مجموعات رئيسية هى بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة . وكان لا بد من توضيح وتنظيم

---

(\*) أستاذ مساعد - كلية الآداب - جامعة الملك عبد العزيز .

علاقات هؤلاء اليهود بالأمة الإسلامية الناشئة ، التي أصبحت تضم المهاجرين والأنصار ، فقام الرسول ﷺ بكتابة الصحيفة ، وهي كتاب حدد فيه علاقة الأمة الإسلامية باليهود وشرط لهم واشترط عليهم<sup>(١)</sup> فقال اليهود بمقتضى هذا الاتفاق حرية البقاء فى المدينة أو الخروج منها ، وحرية العمل الزراعى والتجارى وغيرهما من الأعمال ، فضلاً عن الحرية الدينية . وفى المقابل كان عليهم المحافظة على أمن واستقرار مجتمع المدينة وعدم تقديم المساعدة لأعداء الأمة الإسلامية ، والوقوف مع المسلمين فى الدفاع عن المدينة فى حالة تعرضها لغزو خارجى ، والمساهمة مع المسلمين فى نفقات الحرب .

كانت هذه هى السمات الرئيسية للاتفاق مع اليهود . غير أنهم لم يحافظوا طويلاً على عهدهم مع المسلمين ، إذ أدت النجاحات الحربية التى حققها المسلمون ضد أعدائهم فى الخارج ، وبخاصة ضد قريش فى غزوة بدر ، أدت إلى إثارة الحقد والحسد فى نفوس اليهود فى المدينة ، فسعوا إلى نقض عهدهم مع الرسول ﷺ . وكان أول من نقض عهده مع المسلمين هم يهود بنى قينقاع ، وذلك عقب غزوة بدر الكبرى فى السنة الثانية للهجرة . ولسنا هنا بحاجة إلى معرفة تفاصيل ما بدر من هؤلاء اليهود وأدى بالتالى إلى طردهم من المدينة ، بقدر ما نحن بحاجة لمعرفة ما ارتبط من أخبار يهود المدينة بغزوة خيبر . وفى السنة الرابعة للهجرة أعلن الرسول ﷺ الحرب ضد مجموعة أخرى من يهود المدينة ، هم بنى النضير ، بسبب نقضهم العهد مع الأمة الإسلامية ، فقد ذكر أن الرسول ﷺ توجه إليهم فى حصونهم ليطلب منهم المساعدة فى دفع دية قتيلين قتلتهما أحد المسلمين عن طريق الخطأ . وكان الرسول ﷺ فى قلة من أصحابه ، فأراد يهود بنى النضير الغدر به وإلقاء صخرة عليه من أعلى أحد حصونهم . ولكن الله كشف أمرهم لرسوله ﷺ ، ومن ثم أعلن عليهم الحرب وحاصرهم فى حصونهم . ولم يستمر حصارهم أكثر من ست ليال حتى قذف الله الرعب فى نفوسهم ، " فسألوا



الرسول ﷺ أن يجلبهم ويكف عن دمائهم ففعل ... فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام ، فكان أشرفهم من سار منهم إلى خيبر : سلام بن أبى الحقيق ، وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق ، وحى بن أخطب ، فلما نزلوها دان لهم أهلها" (٥) .

وكان خروج غالبية بنى النضير إلى خيبر ، وبخاصة زعمائهم ، بسب امتلاكهم لكثير من أراضى خيبر الزراعية<sup>(٦)</sup> . وقد اتضحت هذه القوة الاقتصادية والسياسية التى كان يتمتع بها بنو النضير ، فى أن يهود خيبر ، رغم كثرتهم ، دانوا لهم بالسيادة والزعامة .

غير أن يهود بنى النضير لم يكن غرضهم الوحيد من الذهاب إلى خيبر هو استغلال أراضيتهم الزراعية فيها والتعويض بها عما فقدوه من أراضى فى المدينة ، ومن ثم العيش فى سلام بعد الدرس الذى تلقوه من جراء نقضهم للعهد وطردهم من المدينة ، وإنما كانوا ينوون التآمر ضد المسلمين وتأليب أعدائهم ضدهم مستغلين فى ذلك كثافتهم العددية وكثرة أسلحتهم وأموالهم . وكانت أكبر مؤامراتهم فى السنة الخامسة للهجرة عندما خططوا لغزوة الخندق ، فقد روى ابن هشام<sup>(٧)</sup> أنه كان من حديث الخندق أن نفرًا من اليهود منهم : سلام بن أبى الحقيق النضرى ، وحى بن أخطب النضرى ، وكنانة بن أبى الحقيق النضرى ، وهوذة بن قيس الوائلى ، وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ ، خرجوا حتى قدموا على قريش مكة فدعواهم إلى حرب رسول الله ﷺ ، وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله ... ثم خرج أولئك نفر من اليهود حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان فدعواهم إلى حرب رسول الله ﷺ وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه ، وأن قريشًا قد تابعوهم على ذلك ، فاجتمعوا معهم فيه " .

ويبدو أن اليهود اكتفوا بالمساهمة المالية والمعنوية ، ولم يشترك رجالهم اشتراكًا فعليًا فى القتال فى غزوة الخندق ، حيث لم يذكرهم ابن هشام ضمن من

اشترك من الأحزاب<sup>(٨)</sup> ، ما عدا حبي بن أخطب الذى كانت له مهمة محددة ، هى تأليب يهود بنى قريظة ، آخر من تبقى من يهود فى المدينة ، وكانوا لا يزالون على عهدهم مع رسول الله ﷺ ، تأليهم لكى يطعنوا المسلمين من الخلف أثناء تعرضهم لهجمات الأحزاب من جهة الخندق . وقد نجح حبي فى مهمته واستطاع أن يقنع كعب بن أسد زعيم بنى قريظة لينقض عهده مع الرسول ﷺ<sup>(٩)</sup> ، ووعد حبي كعباً أن يدخل معهم فى حصونهم إن سارت الأمور على غير ما تشتهى أنفسهم . وبالفعل ، عندما انسحبت جنود الأحزاب بعد فشلهم فى اقتحام الخندق ودخول المدينة ، دخل حبي بن أخطب إلى حصون بنى قريظة ليواجه نفس المصير الذى واجهوه<sup>(١٠)</sup> . فبعد أن حاصر الرسول ﷺ بنى قريظة فى حصونهم لمعاقبتهم على نقضهم العهد، استسلموا بعد حصار دام خمساً وعشرين ليلة ، فقتل مقاتليهم وسبى ذراريهم ونساءهم ، وكان حبي من ضمن من ضربت أعناقهم .

ولا شك فى أن اندحار قريش والأحزاب فى غزوة الخندق ، ومقتل بنى قريظة ومعهم حبي بن أخطب ، قد أثار الرعب فى نفوس يهود خيبر وجعلهم يتوجسون خيفة من المسلمين . غير أن الرسول ﷺ رأى أن يصفى حسابات الأمة الإسلامية مع قريش أولاً ، قبل أن يلتفت إلى يهود خيبر .

لقد أحدثت غزوة الخندق تحولاً هاماً فى ميزان القوى بين المسلمين وقريش ، فبعد انسحاب قريش والأحزاب من الخندق قال الرسول ﷺ : " والله لا يغزوننا بعدها أبداً ، وإنما نغزوهم نحن "<sup>(١١)</sup> . غير أن الرسول ﷺ أراد لحملة الأولى على قريش أن تأخذ طابعاً سلمياً ، وذلك عندما أمر المسلمين فى شهر ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة بالاستعداد للخروج لأداء العمرة . وكان الرسول ﷺ يعلم أن قريشاً ستعترض طريقهم وتحاول منعهم من الدخول إلى مكة . ولكنه أراد أن يفرض على قريش أن تعترف بحق المسلمين فى زيارة البيت الحرام ، فتم له ما أراد ، وعُقدت اتفاقية الحديبية ، التى بمقتضاها وافقت قريش على السماح للمسلمين

بدخول مكة فى العام الذى يلى ذلك . وكان من ضمن شروط الاتفاق أن تكون هناك هدنة يتوقف فيها القتال بين الفريقين . وبذلك يكون الرسول ﷺ قد أمن جانب قريش وضمن حيادها فى أى نزاع قادم بينه وبين اليهود . ومن هناك ترتبط أحداث الحديبية بغزوة خيبر ، فتحديد قريش معناه عدم تقديمهم أى مساعدة لليهود خيبر ، وبالتالي فتح المجال أمام الرسول ﷺ والمسلمين لغزو خيبر وتأديب يهودها على تأمرهم ضد الأمة الإسلامية .

هناك سبب آخر من أسباب خروج الرسول ﷺ إلى خيبر ، وهو سبب يرتبط أيضاً بأحداث الحديبية ، فعندما عزم الرسول ﷺ على الخروج إلى مكة لأداء العمرة فى عام الحديبية ، دعا المسلمين فى المدينة ومن حولها من الأعراب للاستعداد للخروج معه ، فتباطأ الكثيرون من الأعراب حول المدينة من الخروج مع رسول الله ﷺ . ولذلك عندما خرج الرسول ﷺ عليه وسلم إلى خيبر أمر ألا يخرج معه إلا من اشترك فى الحديبية ، وكان عددهم حوالى ألف وأربعمائة . وكان يستهدف من وراء ذلك جعل خيبر غنيمة لأهل الحديبية مكافأة لهم دون سواهم من المسلمين ، أما من أراد أن يخرج للجهاد فقط دون أن يكون له نصيب فى الغنائم فلا بأس من خروجه<sup>(١٢)</sup> . ولو فتح باب الاشتراك فى غزوة خيبر لكل من رغب ، لصحب الرسول ﷺ عدة آلاف من الأعراب ، لمعرفة ما فى خيبر من أموال كثيرة وطعام وفير . وهناك تتأكد لنا حقيقة هامة ، هى أنه على الرغم من القوة العددية التى كانت فى خيبر من اليهود ، وقوة حصونهم وكثرة أسلحتهم ومائهم وطعامهم إلا أن الرسول ﷺ كان واثقاً من النصر . كذلك كان من خرج معه من المسلمين ، على قلتهم بالمقارنة لأعداد اليهود ، واثقين أيضاً من إحراز نتائج إيجابية . وهذا يقودنا الآن للحديث عن أوضاع خيبر الحربية والاقتصادية ، حيث إننا ، كما ذكرنا آنفاً ، يمكن أن نعتبر هذه الأوضاع من الأسباب المؤدية لغزوة خيبر .

### قوة خيبر :

أورد الواقدي<sup>(١٣)</sup> فى كتاب المغازى ما يعبر أصدق تعبير عن القوة العسكرية ليهود خيبر ، فقال : " وكانت يهود خيبر لا يظنون أن رسول الله ﷺ يغزوهم لمنعتهم وحصونهم وسلاحهم وعددهم ، كانوا يخرجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفاً ثم يقولون : محمد يغزونا ؟ هيهات ! هيهات ! وكان من كان بالمدينة من اليهود يقولون حين تجهز النبي ﷺ إلى خيبر : ما أمنع والله خيبر منكم ! لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالها لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم ، حصون شامخات فى ذرى الجبال ، والماء فيها واتن ( أى دائم لا ينقطع ) ، إن بخير لألف دارع ، ما كانت أسد وغطفان يمتنعون من العرب قاطبة إلا بهم ، فأنتم تطيقون خيبر ؟ فجعلوا يوحون بذلك إلى أصحاب النبي ﷺ ، فيقول أصحاب النبي ﷺ : قد وعدهم الله نبيه أن يغنمه إياها . "

من هذا يتضح مدى الخطر الذى أصبح يشكله يهود خيبر على الأمة الإسلامية . وقد رأينا من قبل تأمرهم مع قريش وغيرها من القبائل العربية ، وهجومهم على المدينة فى غزوة الأحزاب ، أو الخندق ، سنة ٥ هـ . ولا شك فى أن تدمير القوة العسكرية لليهود فى خيبر فيه إضعاف لقريش ولغيرها من القبائل العربية الموالية لها ولليهود والمعادية للمسلمين ، مثل قبيلتى غطفان وأسد<sup>(١٤)</sup> . وفى المقابل ، فإن تدمير هذه القوة العسكرية فيه تقوية للمسلمين ولقوتهم الحربية ، وذلك بما حصلوا عليه من سلاح وأموال غنيمة من خيبر ، كما سنرى .

أما القوة الاقتصادية لليهود فقد كانت تتمثل فى الأراضى الخصبة التى كانوا يمتلكونها هناك ، وفى الإنتاج الزراعى الوفير لهذه الأراضى . وقد عرفت خيبر بأنها ريف الحجاز طعاماً وودكاً وأموالاً<sup>(١٥)</sup> . وستوضح لنا كثرة ما فيها من هذه الأشياء مما غنمه المسلمون فيما بعد .

أما الأمر الهام الذى تجدر الإشارة إليه فهو أن استيلاء المسلمين على هذه الأراضى والأموال يعتبر تحولاً هاماً فى الحياة الاقتصادية والمعيشية للأمة الإسلامية فى ذلك الوقت ، كما أنه يعتبر من جهة أخرى ضربة شديدة وجهت لقريش ولمصالحها التجارية .

والآن بعد أن استعرضنا الأسباب والمبررات التى أدت إلى غزوة خيبر ، نتقل للحديث عن مسير الرسول ﷺ بجيشه إلى خيبر وموقف القوى المختلفة من هذه الغزوة .

\* \* \*

### المسير إلى خيبر ومواقف القوى المختلفة :

أدى قرار الرسول ﷺ الخروج إلى خيبر وغزوها إلى ردود فعل متباينة لدى جهات مختلفة . وأول رد فعل كان من بعض الأعراب المقيمين حول المدينة ، والذين انضموا للأمة الإسلامية دون أن يرسخ الإيمان فى قلوبهم بعد . وقد تبين هذا من موقفهم عندما أمر الرسول ﷺ أصحابه " بالتهيؤ للغزو فهم يجدون " ، كما يحدثنا الواقدى ، وتجلب من حوله من الأعراب يغزون معه ، وجاءه المخلفون يريدون أن يخرجوا معه رجاء الغنيمة ، فقالوا نخرج معك . وقد كانوا تخلفوا عنه فى غزوة الحديبية وأرجفوا بالنبي ﷺ وبالمسلمين ، فقالوا : نخرج معك إلى خيبر ، إنها ريف الحجاز طعاماً وودكاً وأموالاً ، فقال رسول الله ﷺ : لا تخرجوا معى إلا راغبين فى الجهاد ، فأما الغنيمة فلا . وبعث منادياً فنادى : " لا يخرجن معنا إلا راغب فى الجهاد ، فأما الغنيمة فلا " (١٦) .

فالرسول ﷺ ، إذا ، لم يمنع أحداً من المسلمين من الاشتراك معه فى هذه الغزوة إن كان راغباً فى الجهاد . أما ما يمكن أن يحصلوا عليه من غنائم فى هذه الغزوة فلا نصيب فيه لأحد لم يسبق له الاشتراك فى الحديبية . ولا أحسب أن



الاشتراك بهذه الصورة كان مغرياً لكثير من الأعراب الذين كانوا يطمعون فى غنائم خيبر .

أما رد الفعل الثانى فد كان يتمثل فى موقف اليهود الذين لازالوا يقيمون فى المدينة فى ذلك الوقت . تقول رواية الواقدى : " فلما تجهز الناس إلى خيبر شق ذلك على يهود المدينة الذين هم موادعون لرسول الله ﷺ ، وعرفوا أنهم إذا دخلوا خيبر أهلك الله خيبر كما أهلك بنى قينقاع والنضير وقريظة . قال : ( أى الراوى ) فلما تجهزنا لم يبق أحد من يهود المدينة له على أحد من المسلمين حق إلا لزمه " (١٧) .

وكان يهود المدينة يهدفون من وراء ذلك تعطيل أكبر عدد من المسلمين عن الاشتراك فى هذه الغزوة ، وذلك بإلزامهم بسداد ما عليهم من ديون قبل خروجهم إلى خيبر ، وكانوا يعلمون تمام العلم أن هؤلاء الذين استدانوا منهم لا يملكون شيئاً وغير قادرين آنئذ على سداد هذه الديون .

ولم يكتف يهود المدينة بذلك ، بل أنهم حاولوا أيضاً أن يضعفوا من معنويات المسلمين ، وذلك بإظهار يهود خيبر بمظهر القوة التى لا يمكن للمسلمين مجابهتها . فقال أحدهم ، ويدعى أبو الشَّحْم ، لأحد المسلمين : " تحسب أن قتال خيبر مثل قتال من تلقونه من الأعراب ؟ فيها والتوراة عشرة آلاف مقاتل " . كذلك كان من بالمدينة من اليهود يقولون حين تجهيز النبى ﷺ إلى خيبر : " ما أمتع والله خيبر منكم ! لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالها لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم ، حصون شائخات فى ذرى الجبال والماء فيها واتن ، إن بخير لألف دارع ، ما كانت أسد وعطفان يمتنعون من العرب قاطبة إلا بهم " فأنتم تطيقون خيبر ، فجعلوا يوحون بذلك إلى أصحاب النبى ﷺ " (١٨) .

كذلك حاول يهود المدينة من جهة أخرى مساعدة إخوانهم يهود خيبر ، وذلك بتشجيعهم ورفع روحهم المعنوية ، والتقليل من شأن المسلمين ، وإظهارهم

بمظهر الضعف . فبعثوا أحد الأعراب من بنى أشجع وجدوه بالمدينة قدم بسلعة يبيعها ، فبعثوه إلى كنانة بن أبي الحقيق ، زعيم يهود خيبر ، يخبرونه بقلعة المسلمين وقلة خيلهم وسلاحهم ويقولون لهم : فاصدقوهم الضرب ينصرفوا عنكم ، فإنه ( أى الرسول ﷺ ) لم يلق قومًا يحسنون القتال ، وقريش والعرب قد سروا بمسيره إليكم لما يعلمون من موادكم وكثرة عددكم وسلاحكم وجودة حصونكم" (١٩).

هذا هو إذا موقف يهود المدينة من غزوة خيبر ، محاولة لعرقلة خروج المسلمين وتثييط هممهم . وفى المقابل تشجيع يهود خيبر ورفع روحهم المعنوية ، فماذا كان موقف يهود خيبر ؟

أما يهود خيبر من جانبهم ، فإنهم كانوا " لا يظنون أن رسول الله ﷺ يغزوهم لمنعتهم وحصونهم وسلاحهم وعددهم . فكانوا يخرجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفًا ثم يقولون : محمد يغزونا ؟ هيهات ! هيهات ! " (٢٠) .

لا شك فى أنهم كانوا يهدفون من وراء ذلك إظهار قوتهم الزائفة ومحاولة تخويف المسلمين . ويقال إنهم بعثوا بأعرابي من بنى أشجع ( ولعله نفس الأعرابي الذى أرسله إليهم يهود المدينة ) ليعترض طريق جيش المسلمين وقالوا له : "أحرزهم لنا وادن منهم كالسائل لهم ما تقوى به ، ثم ألق إليهم كثرة عددنا ومادتنا ، فإنهم لن يدعوا سؤالك ، وعجل الرجعة إلينا بخبرهم" (٢١) وبالفعل أخذت طليعة المسلمين هذا الأشجعى ، وعندما سألوه عن يهود خيبر ، أخبرهم أن " كنانة بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس سارًا فى حلفائهم من غطفان فاستنفروهم وجعلوا لهم تمر خيبر سنة ، فجاءوا معدين مؤيدين بالكراع والسلاح يقودهم عتبة بن بدر ودخلوا معهم فى حصونهم ، وفيها عشرة آلاف مقاتل ، وهم أهل الحصون التى لا ترام وسلاح وطعام كثير لو حصروا لسنين لكفاهم ، وماء واتن يشربون فى حصونهم ، ما أرى لأحد بهم طاقة" (٢٢) .

وهكذا حاول هذا الأعرابي الذي بعثه يهود خيبر ، أن ينفذ ما طلب منه ،  
فهول قوة اليهود وأكد سلامة موقفهم ؛ بينما يهود خيبر فى واقع الأمر يرتعدون  
خوفاً من المسلمين ، وما لجوؤهم إلى غطفان لنصرتهم إلا لخوفهم ولا حساسهم  
بالضعف رغم كثرة عددهم وتوفر طعامهم ومائهم . أضف إلى ذلك أن الخوف  
أفقدتهم التفكير السليم فأصبحوا وهم مختلفون فيما بينهم ، فبعضهم يرى ضرورة  
الخروج لمواجهة الرسول ﷺ والمسلمين خارج حصونهم ، والبعض الآخر يرى أن  
البقاء فى الحصون والمدافعة عنها أجدى لهم<sup>(٢٣)</sup> . وقد ظهرت حقيقة يهود خيبر  
وزيف قوتهم بمجرد أن نزل الرسول ﷺ بساحتهم ، " فأصبحوا وأفئدتهم تخفق  
وفتحوا حصونهم معهم المساحى والكرازين والمكاتل ( وهى الآلات التى  
يستخدمونها فى زراعتهم ) فلما نظروا إلى رسول الله ﷺ قد نزل بساحتهم قالوا:  
" محمد والجيش ، فولوا هارين حتى رجعوا إلى حصونهم "<sup>(٢٤)</sup> .

\* \* \*

أما الغطفانيون فلم يتعظوا بالفشل الذى لاقته الأحزاب ( وكانوا هم أحد  
هذه الأحزاب ) ، فى غزوة الخندق . ففى تلك الغزوة نجد الرسول ﷺ حاول  
إبعادهم عن هذا التحالف بإعطائهم جزءاً من ثمر المدينة . غير أن الأنصار ، عندما  
استشارهم الرسول ﷺ ، رفضوا أن يطمعوا بنى غطفان فيهم وفى ثمارهم ، ورأوا  
تحمل مشاق الحصار والتضحية فى سبيل دينهم<sup>(٢٥)</sup> . فضاعت على بنى غطفان  
فرصة الحصول على ما كانوا يتطلعون إليه من كسب مادي ، فلا هم حصلوا عليه  
من حلفائهم اليهود ، ولا هم نالوا غرضهم من المسلمين .

ومرة أخرى ، وبعد حوالى عامين من إنتهاء غزوة الخندق ، نجد بنى غطفان  
أيضاً يراهنون على الفرس الخاسر ، وذلك بتحالفهم مع يهود خيبر . فعندما تنامى  
إلى سمع يهود خيبر أن الرسول ﷺ يستعد لغزو خيبر ، خرج زعمائهم ، وعلى رأسهم

كنانة بن أبي الحقيق وهودة بن قيس في أربعة عشر رجلاً من يهود يستنصرون بني غطفان ، ووعدهم بإعطائهم تمر خبير سنة ، جعلوا لهم نصف تمر خبير . (٢٦)

ويبدو أن الرسول ﷺ علم بتحركات يهود خبير واستنصارهم لبني غطفان ، ولذلك نجده عندما خرج من المدينة إلى خبير يتخذ طريقاً يجعله يحول بين بني غطفان وبين دخولهم خبير ، ولكنهم كانوا بالفعل قد خرجوا في أربعة آلاف رجل (٢٧) ودخلوا حصن ناعم بالنظاة قبل قدوم الرسول ﷺ إلى هناك بثلاثة أيام (٢٨) .

وكان الرسول ﷺ يعلم أن بني غطفان يسعون وراء الكسب المادي ، ولا يهمهم نصر اليهود بقدر ما يهمهم الحصول على غنائم . ولذلك نجده من جانبه يحاول أيضاً أن يغريهم ويجعلهم ينصرفون عن خبير ، فأرسل سعد بن عباد إلى عبيدة بن حصن زعيم غطفان ليعرض عليه نصف تمر خبير سنة ، وفي رواية أخرى ، تمر خبير سنة (٢٩) وقد أخبرهم الرسول ﷺ أنه وُعد خبير . ولكن عبيدة وقومه غرتهم أنفسهم وأعمامهم الطمع ، فتمسكوا بالعرض الذي قدمه لهم يهود خبير ، ورأوا ضمناً أكثر ، ظانين أن كثرة أعداد اليهود وكثرة سلاحهم وحصونهم المنيعة ستحقق لهم النصر على المسلمين .

ومن جهته أراد الرسول ﷺ أن يثبت لبني غطفان سوء اختيارهم ، وفي نفس الوقت أراد إضعاف معنوياتهم . لذلك نجده يأمر بأن يكون أول حصن يهجم عليه المسلمون هو حصن ناعم ، وهو الحصن الذي دخله الغطفانيون واحتموا به مع حلفائهم اليهود .

ثم كانت الضربة الثانية التي تلقاها الغطفانيون عندما سمعوا صائحاً يقول إن ديارهم وأهلهم قد هوجموا ، فخافوا خوفاً شديداً وظنوا أن المسلمين خالفوهم على بلادهم ، فلم يترددوا في الخروج مسرعين نحو ديارهم ، فسقط في أيدي

اليهود الذين خذلهم خلفاؤهم من الغطفانيين ، وبذلك حقق الرسول ﷺ هدفًا آخر بإضعاف معنويات يهود خيبر (٣٠) .

وكان أن وصل الغطفانيون إلى بلادهم بحيفاء (٣١) فوجدوا أهلهم آمنين مطمئنين لم يرعهم شيء ، فقال عبينه ، إنها مكيدة كادهم بها رسول ﷺ . وبعد أن مكث في أهله أيامًا راودته نفسه مرة أخرى بالخروج إلى خيبر ، مدعيًا أنه يريد نصرة حلفائه من يهود . ولكنه ما إن وصل إلى هناك حتى وجد المسلمين قد فتحوا بعض حصون خيبر ويحاصرون بعضها الآخر . وعندما شاهد عبينة المسلمين وهم يحملون الغنائم من الحصون التي فتحوها ، امتلأ قلبه حسرة وندمًا ، طلب منهم أن يعطوه ما يعلف به دوابه ، ولكنهم شتموه (٣٢) ، فذهب عبينة إلى الرسول ﷺ يسأله أن يعطيه شيئًا من الغنائم مدعيًا أنه انصرف عنه وعن قتاله وخذل حلفاءه من يهود عن قصد ، ولكن الرسول ﷺ كشف له عن كذبه وأخبره أنه إنما رجع إلى أهله بسبب ما سمعه من صياح بوقوع هجوم على بلادهم ( وكان هذا هاتفًا من السماء ) . وعندما ألح عبينة على الرسول ﷺ أن يعطيه شيئًا ، قال له : لك ذو الرقية ، وهو ما رآه عبينة في منامه أن الرسول ﷺ يعطيه له (٣٣) .

وهكذا يتضح لنا أن الظروف المعيشية القاسية التي كان يمر بها بنو غطفان هي التي دفعتهم لهذا التذبذب الذي أفقدهم الفرصة للحصول على جزء من غنائم خيبر إن هم قبلوا نصيح الرسول ﷺ .

\* \* \*

### موقف قريش :

ذكرنا من قبل أن الرسول ﷺ عقد اتفاقية الحديبية مع قريش في نهاية العام السادس للهجرة ، ثم خرج في مطلع العام السابع غازيًا خيبر . ويهمنا أيضًا أن نعرف موقف قريش من هذه الغزوة بسبب علاقاتهم باليهود ومصالحهم المشتركة.



الحقيقة إن أصدق ما يعبر عن موقف قريش من خروج الرسول ﷺ لغزو خيبر هذه القصة الطريقة التي كان بطلها أحد المسلمين ، ويدعى الحجاج بن علاط السلمى . تبدأ القصة عندما قدم شخص يدعى عباس بن مرداس السلمى إلى مكة فأخبر القرشيين " أن محمداً سار إلى خيابر ، وأن خيابر قد جمعت الجموع ، فمحمداً لا يفلت ، إلى أن قال عباس هذا : من شاء بايعته لا يفلت محمد فبدأت المراهنات ، وانقسم القرشيون إلى فريقين ، فريق يرى أن الرسول ﷺ سيظهر على اليهود ، وفريق آخر يرجح كفة اليهود وحلفائهم<sup>(٣٤)</sup> .

فى هذه الأثناء كان الحجاج بن علاط السلمى قد خرج ، كما تقول الرواية السابقة ، فى بعض غاراته ، فذكر له أن رسول الله ﷺ بخيبر ، فأسلم وحضر مع رسول الله ﷺ خيبر .. وكان الحجاج متزوجاً من امرأة تدعى أم شيبه بنت عمير بن هاشم ، وهى أخت الصحابى مصعب بن عمير . وكان الحجاج مكثرًا ، له مال كثير من معادن الذهب التى بأرض بنى سليم . فقال : يا رسول الله ائذن لى حتى أذهب فأخذ مالى عند امرأتى ، فإن علمت بإسلامى لم آخذ منه شيئاً . فإذن له رسول الله ﷺ ، وقال : لا بد لى يا رسول الله من أن أقول . فإذن له رسول الله ﷺ أن يقول ما شاء . قال الحجاج :

فخرجت فلما انتهيت إلى الحرم هبطت فوجدتهم بالثنية البيضاء<sup>(٣٥)</sup> ، وإذا بهم رجال من قريش يستمعون الأخبار ، قد بلغهم أن رسول الله ﷺ قد سار إلى خيبر ، وعرفوا أنها قرية الحجاز ريفاً ومنعة ورجالاً وسلاحاً ، فهم يتحسبون الأخبار مع ما كان بينهم من الرهان . فلما رأونى قالوا : الحجاج بن علاط عنده والله الخبر ! يا حجاج ، إنه قد بلغنا أن القاطع<sup>(٣٦)</sup> قد سار إلى خيبر بلد اليهود وريف الحجاز . فقلت : بلغنى أنه قد سار إليها وعسدى من الخبر ما يسركم . فالتبطوا<sup>(٣٧)</sup> بجانبى راحلتى يقولون : يا حجاج أخبرنا . فقلت : لم يلق محمد وأصحابه قومًا يحسنون القتال غير أهل خيبر . كانوا قد ساوروا فى العرب

يجمعون له الجموع وجمعوا له عشرة آلاف ، فهزم هزيمة لم يسمع قط بمثلها ، وأسر محمد أسراً ، فقالوا : لن نقتله حتى نبعث به إلى أهل مكة فنقتله بين أظهرهم بمن قتل منا ومنهم ! ولهذا فإنهم يرجعون إليكم يطلبون الأمان في عشائهم ويرجعون إلى ما كانوا عليه ، فلا تقبلوا منهم وقد صنعوا بكم ما صنعوا . قال : فصاحوا بمكة وقالوا : قد جاءكم الخبر ، هذا محمد إنما ينتظر أن يقدم به عليكم . فقلت : أعينوني على جمع مالي على غرمائي فأنا أريد أن أقدم فأصيب من محمد وأصحابه قبل أن تسبقني التجار إلى ما هناك . فقاموا فجمعوا إلى مالي كأحث جمع سمعت به ، وجئت صاحبتى ، وكان لى عندها مالي فقلت لها : مالي ، لعلى ألحق بخير فأصيب من البيع قبل أن يسبقني التجار إلى من انكسر هناك من المسلمين . وسمع ذلك العباس ( بن عبد المطلب ) فقام ، فأنخل ظهره فلم يستطع القيام ، فأشفق أن يدخل داره فيؤذى ، وعلم أن سيؤذى عند ذلك ، فأمر بباب داره يفتح وهو مستلق ، فدعا بابنه قثم ، وكان يشبه بالنبي ﷺ ، فجعل يرتجز ويرفع صوته ألا يشمت به الأعداء ، وحضر باب العباس بين مغيط محزون ، وبين شامت ، وبين مسلم ومسلمة ، مقهورين بظهور الكفر والبغى . فلما رأى المسلمون العباس طيبة نفسه طابت أنفسهم واشتدت منتهم<sup>(٣٨)</sup> ، ودعا غلاماً له يقال له أبو زينة فقال له : اذهب إلى الحجاج فقل ، يقول العباس : " الله أعلى وأجل من أن يكون الذى تخبر حقاً " . فجاءه فقال الحجاج : قل لأبى الفضل : أحلنى فى بعض بيوتك حتى آتيك ظهراً بعض ما تحب ، فاكتم عنى . فأقبل أبو زينة يبشر العباس " أبشر بالذى يبشرك " فكأنه لم يمسه ، ودخل عليه أبو زينة فاعتنقه العباس وأعتقه وأخبره بالذى قال ، قال العباس : لله على عتق عشر رقاب ! فلما كان ظهراً جاءه الحجاج فناشده الله : لتكتمن على ثلاثة أيام . فوثقه العباس على ذلك ، قال : فإننى قد أسلمت ولى مال عند امرأتى ودين على الناس ، ولو علموا بإسلامى لم يدفعوا إلى ، تركت رسول الله ﷺ قد فتح ، وجرت سهام الله ورسوله فيها وانتل<sup>(٣٩)</sup> ما فيها ، وتركته عروساً بابنة حى بن أخطب ، وقتل

ابن أبى الحقيق . قال : فلما أمسى الحجاج من يومه خرج ، وطال على العباس تلك الليالى ويقال : إنما استنظر العباس يوماً وليلة، وجعل العباس يقول : يا حجاج انظر ما تقول فإنى عارف بخير ، هى ريف الحجاز أجمع وأهل المنعة والعدة فى الرجال ، أحقاً ما تقول ؟ قال : إى والله فاكنتم عنى يوماً وليلة ، حتى إذا مضى الأجل ، والناس يموجون فى شأن ما تباعوا عليه ، عمد العباس إلى حلة فلبسها ، وتخلق الخلق وأخذ فى يده قضيباً ، ثم أقبل يخطر حتى وقف على باب الحجاج بن علاط ، فقرعه فقالت زوجته : لا تدخل ، أبا الفضل ! قال : فأين الحجاج ؟ قالت : انطلق إلى غنائم محمد ليشتري منها التى أصابت اليهود منهم قبل أن يسبقه التجار إليها . فقال لها العباس : فإن الرجل ليس لك بزواج إلا أن تتبعى دينه ، إنه قد أسلم وحضر الفتح مع رسول الله ﷺ ، وإنما ذهب بماله هارباً منك ومن أهلِكَ أن يأخذه . قال : أحقاً يا أبا الفضل ؟ قال : أى والله . قالت : والثواقب إنك لصادق . ثم قامت تخبر أهلها ، وانصرف العباس إلى المسجد وقريش يتحدثون بما كان من حديث الحجاج ، فلما نظروا إليه وإلى حاله تغامزوا وعجبوا من تجلده ، ثم دخل فى الطواف بالبيت ، فقالوا : يا أبا الفضل ، هذا والله التجلد لحر المصيبة أين كنت منذ ثلاث لا تطلع ؟ قال العباس : كلا والذى حلفتكم به ، لقد فتح خير وترك عروساً على ابنة ملكهم حى بن أخطب ، وضرب أعناق بنى أبى الحقيق البيض الجعاد الذين رأيتموهم سادة النضير من يثرب ، وهرب الحجاج بماله الذى عند امرأته . فقالوا : من خبرك بهذا ؟ قال العباس : الصادق فى نفسى ، الثقة فى صدرى ، فابعثوا إلى أهله ، فبعثوا فوجدوا الحجاج قد انطلق بماله واستكنتم أهله حتى يصبح ، فسألوا عن ذلك كله فوجدوه حقاً ، فكبت المشركون وفرح بذلك المسلمون ، ولم تلبث قريش خمسة أيام حتى جاءهم الخبر بذلك .

ونخلص من استعراضنا للمواقف المختلفة للقوى التي كان لها ارتباط بغزوة خيبر أن الوضع الاقتصادي الهام لمنطقة خيبر بأراضيها الخصبة ، لعب دوراً مهماً في تحديد موقف كل فئة من هذه الفئات التي أثرت فيها غزوة خيبر ، فالرسول ﷺ باستيلائه على خيبر يكون قد حقق هدفين مهمين ، أولهما القضاء على القوة الحربية والاقتصادية لليهود خيبر ، والتي كانت تستخدم في حرب المسلمين والأمة الإسلامية . وثانيهما وضع يد الأمة على مورد غذائي هام كانت في أشد الحاجة إليه(٤) .

أما اليهود فقد بذلوا كل ما في وسعهم للاحتفاظ بوضعهم العسكري والاقتصادي المتفوق فأخذوا يتحالفون مع بعض القبائل العربية في مقابل إعطائهم كل ما تتجه خيبر من ثمر سنة كاملة .

أما حلفاء يهود ، وبخاصة بنو غطفان وقائدهم عيينة بن حصن ، فقد أعماهم الطمع وغرتهم قوتهم وقوة اليهود الزائفة ، فرفضوا ما عرضه عليهم الرسول ﷺ الذي كان واثقاً من النصر ، فأضاعوا على أنفسهم فرصة ثمينة .

أما قريش فيتضح لنا من قصة الحجاج بن علاط السلمي التي ذكرناها ، أنها أصبحت في موقف ضعيف ومقيدة باتفاق الحديبية ، بحيث لا تستطيع أن تمد يد المساعدة لحلفاء الأمس ، يهود خيبر . وكان بإمكان قريش أن تنقض عهدها مع الرسول ﷺ وتهاجم المسلمين من الخلف أو تستغل فرصة خروج الرسول ﷺ من المدينة فتهجم عليها ، ولكن قريش كان قد أصابها ضرر شديد لحق بتجارتها من جراء الغزوات والسرايا العديدة التي وجهها الرسول ﷺ ضد قوافل تجارتها ، فأصبح لزاماً عليها التزام جانب الحياد ، وكانت تأمل أن يتمكن اليهود وحلفاؤهم من القضاء على المسلمين . غير أن انتصار الرسول ﷺ والمسلمين على يهود خيبر جاء ضربة أخرى مؤلمة وجهت لقريش . فاستيلاء الرسول ﷺ والمسلمين على خيبر وضع تحت أيديهم ، ولأول مرة منذ نشأة الأمة الإسلامية ، أراضى زراعية

خصبة ، وإنتاجاً زراعياً كافياً أمن لهم سبل عيشهم فى هذه المرحلة ، وجعلهم يتفرغون للمهمة الأساسية بنشر الدعوة الإسلامية . وفى نفس الوقت لم تعد قريش قادرة على الإنتفاع بما تنتجه خير التى أصبحت ملكاً للمسلمين .

والآن ، بعد أن استعرضنا الأسباب التى أدت إلى غزوة خيبر ، والظروف التى أحاطت بها ، وموقف كل فئة من الفئات التى كان لها ارتباط بهذه الغزوة ، نتقل للحديث عما حققه الرسول ﷺ والمسلمون من إنجازات حربية فى خيبر ، وما تمخص عن ذلك من ترتيبات مالية .

\* \* \*

### سقوط حصون خيبر فى أيدي المسلمين :

كانت حصون اليهود بخيبر تقع فى ثلاث مناطق ، هى الشق والنطاة والكتيبة ، وهى تقع بدورها فى وادين من أودية خيبر هما وادى السرير ووادى خاص<sup>(١)</sup> . كانت الشق والنطاة تقعان فى وادى السرير ، بينما تقع الكتيبة فى وادى خاص . وقد ذكرنا من قبل أن الرسول ﷺ أمر أن يكون أول حصن يهاجمه المسلمون هو حصن ناعم الذى نزل به الغطفانيون حلفاء اليهود ، مما أدخل الرعب والخوف فى نفوسهم . ثم كان أمر ما سمعوه من هجوم وقع على ديارهم وأهلهم ، فخرجوا مسرعين إلى هناك . ويقال إن كنانة بن أبى الحقيق ، الذى كان آنذاك فى الكتيبة ، عندما سمع بانصرافهم سقط فى يده وذل وأيقن بالهلكة<sup>(٢)</sup> .

أما الرسول ﷺ فإنه بمجرد أن خرج عبيدة والغطفانيون أمر المسلمين بالهجوم على الحصون ، إلى أن وصل جيشهم إلى حصن ناعم ، وكان عبارة عن مجموعة من الحصون . ورغم انسحاب بنى غطفان ، إلا أن اليهود دافعوا عن حصن ناعم دفاعاً مستميتاً بعد أن حشدوا فيه أشجع مقاتليهم ، غير أن المسلمين استطاعوا فى نهاية الأمر الاستيلاء على هذا الحصن .



وبعد سقوط حصن ناعم تحول المسلمون إلى حصن الصعب بن معاذ ، وقد حشد فيه اليهود خمسمائة مقاتل ، كما أن هذا الحصن كان يحوى الكثير من الطعام والودك والماشية والمتاع . وكان المسلمون بحاجة شديدة إلى هذه المواد الغذائية ، لأنهم كانوا يقاتلون منذ عشرة أيام ، حتى أصابهم الجهد والجوع ، فركزوا هجومهم على هذا الحصن وتمكنوا من فتحه بعد قتال شديد وقع بينهم وبين اليهود المدافعين عن الحصن<sup>(٤٣)</sup> .

وقد حصل المسلمون في حصن الصعب بن معاذ على الكثير من الطعام الذى لم يظنوا أن يكون هناك بهذه الكثرة . فقد وجدوا الشعير والتمر ، والسمن والعسل ، والزيت ، والودك . ووجدوا كذلك الكثير من الدواب والأنعام مثل الحمير والبقر والغنم ووجدوا الأعلاف ، وآنية كثيرة من نحاس وفخار كان اليهود يستخدمونها للأكل والشرب . ووجدوا من البز عشرين عكماً<sup>(٤٤)</sup> محزومة من غليظ متاع اليمن ، وألف وخمسمائة قطيفة ، ووجدوا عشرة أحمال من الخشب ، أمر به فأخرج من الحصن ثم أحرق ، كذلك وجد المسلمون خوابى السكر مليئة بالخمير فكسرت وأريق الخمر . أما آلة الحرب فقد وجدوا منها أيضاً الكثير ، مثل المنجنيق والدبابات<sup>(٤٥)</sup> .

وقد سمح الرسول ﷺ للمسلمين أن يأخذوا ما يكفيهم من الطعام والأعلاف لهم ولدوابهم دون أن ينقلوا منه شيئاً إلى بلادهم . وأصبح هذا الطعام مشاعاً للمسلمين لم يمنع منه أحد ، ولم يكن فيه خمس<sup>(٤٦)</sup> ، أى أن الرسول ﷺ لم يأخذ فيه خمساً كما كان يفعل فى غزواته الماضية .

وبعد أن استولى المسلمون على حصن الصعب بن معاذ أمروا أن يزحفوا نحو حصن آخر من حصون النطاة ، وهو المعروف باسم قلعة الزبير ، وكان حصناً منيعاً يقع فى رأس قلعة لا تقدر عليه الخيل ولا الرجال لصعوبته وامتناعه . وقد

أغلق اليهود أبواب الحصن عليهم . وبعد حصار استمر ثلاثة أيام جاء رجل من اليهود يقال له غزال إلى الرسول ﷺ فقال له :

أبا القاسم ، تؤمنى على أن أدلك على ما تستريح به من أهل النطاوة وتخرج إلى أهل الشق ، فإن أهل الشق قد هلكوا رعباً ؟ قال : فأمنه رسول الله ﷺ على أهله وماله . فقال اليهودى : إنك لو أقمت شهراً ما بالوا ، لهم دبول تحت الأرض ، يخرجون بالليل فيشربون بها ثم يرجعون إلى قلعته فيمتنعون منك ، وإن قطعت عليهم ضجوا . فسار رسول الله ﷺ إلى دبولهم فقطعها ، فلما قطع عليهم مشاربهم لم يطبقوا المقام على العطش ، فخرجوا فقاتلوا أشد القتال ، وقتل من المسلمين يومئذ نفر ، وأصيب من اليهود ذلك اليوم عشرة ، وافتتحه رسول الله ﷺ ، فكان آخر حصون النطاوة<sup>(٧٧)</sup> تحول بعده الرسول إلى الشق الذى كان يتكون أيضاً من عدة حصون .

وكان أول حصن بدأ به الرسول ﷺ من حصون الشق هو حصن أبى ، ولم يستغرق فتح هذا الحصن وقتاً طويلاً حيث اقتحمه المسلمون فهرب من كان فيه من اليهود إلى حصن آخر من حصون الشق يعرف بحصن النزار . غير أن معنويات اليهود كانت قد انهارت تماماً . ولم يلبث المسلمون أن دخلوا حصن النزار . فلما رأى أصحاب الحصون الباقية من الشق ما حدث من سرعة تداعى حصنى أبى والنزار حتى ولوا هاربين نحو حصون الكتيبة . وقد أدرك الرسول ﷺ أن حصن النزار سيشهد ، آخر مقاومة لليهود ، فبعد أن سقطت جميع حصون النطاوة وجميع حصون الشق ، لم تعد لأهالى حصون الكتيبة المقدرة على مواجهة المسلمين ، ولذلك فضلوا أن يصالحوا الرسول ﷺ ، فأمن الرجال والذرية ، وكان فى حصون الكتيبة أكثر من ألفين منهم<sup>(٧٨)</sup> .

وكانت ممن أخذ فى حصن النزار من النساء صفية بنت حى بن أخطب التى كانت زوجاً لكنانة بن أبى الحقيق ، ومعها ابنة عم لها وبعض من نساء

يهود. " ولم يسب في حصون النطا من النساء والذرية أحد ولا بالشق ، إلا في حصن النزار " (١) . وذلك أن اليهود فرغوا حصون النطا للمقاتلة ، وحولوا النساء والأطفال إلى حصون الكتيبة . وكان حصن سلام بالكتيبة هو حصن آل أبي الحقيق . غير أن كنانة بن أبي الحقيق رأى أن حصن النزار أحسن ما هنالك ، ولذلك حوّل إليه أهله بمن فيهم صفيّة في الليلة التي تحول فيها الرسول ﷺ إلى حصون الشق ، ولهذا السبب وجدت صفيّة في حصن النزار عندما فتحه المسلمون. والمعروف أن الرسول ﷺ تزوج صفيّة بنت حيى بن أخطب فيما بعد .

وعندما أكمل الرسول ﷺ والمسلمون فتح حصون الشق تحولوا إلى الكتيبة، كما ذكرنا ، والتي كان بها حصن سلام ، وهو حصن آل أبي الحقيق ، وحصن الوطيح ، وحصن القموص . وقد لجأ إلى هذه الحصون كل فل كان قد انهزم من النطا والشق ، وأغلقوا عليهم أبواب هذه الحصون لا يخرجون منها للقتال أو لمبارزة المسلمين كما كانوا يفعلون من قبل في الحصون التي سبق فتحها ، فحاصرهم الرسول ﷺ أربعة عشر يوماً فلما رأى أنهم لا يخرجون للقتال ، كما أنهم لم يتأثروا بطول الحصار ، هم أن ينصب عليهم المنجنيق ، فأصباهم الخوف وتملكهم الذعر وأيقنوا بالهكّة . فأرسل كنانة بن أبي الحقيق رجلاً من اليهود يقال له شماخ إلى النبي ﷺ يقول : " أنزل إليك أكلمك " ، فلما نزل شماخ أخذه المسلمون فأتى به النبي ﷺ فأخبره برسالة كنانة فقبل الرسول ﷺ ، فنزل كنانة في نفر من اليهود فتم الصلح بينه وبين الرسول ﷺ على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة وترك الذرية لهم ، ويخرجون من خير وأرضها بذرايرهم ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال أو أرض ، وعلى الصفراء والبيضاء والكراع والحلقة (٢) ، وعلى البز إلا ثوباً على ظهر إنسان ، وكان حصيلة

ما وجدته المسلمون من السلاح : مائة درع ، وأربعمائة سيف ، وألف رمح ،  
وخسمائة قوس عربية يجعابها .

كذلك كان لآل أبي الحقيق كنز وحلى كثيرة مشهورة ، فلما سأل الرسول  
ﷺ كنانة عنها أدعى أنهم انفقوه جميعاً في الحرب . ولكن الرسول ﷺ شك في  
كلامه ، ولذلك حذره من مغبة الكذب ، وأنه إن اتضح خلاف ذلك برئت منهم  
ذمة الله وذمة رسوله ، وتصبح أموالهم ودماؤهم حل له . ورغم هذا التحذير أصر  
كنانة على انكاره ، فأشهد الرسول ﷺ على قوله جماعة من الصحابة وعشرة من  
اليهود .

ولم يلبث أن فضح أمر كنانة عندما سأل الرسول ﷺ ثعلبة بن سلام بن أبي  
الحقيق ، وكان رجلاً ضعيفاً<sup>(١)</sup>، عن الكنز ، فأخبر الرسول ﷺ أنه لا يعلم شيئاً ،  
ولكنه رأى كنانة يطوف بخربة بجوار الحصن ، ولعله دفن فيها الكنز . فأرسل  
الرسول ﷺ نفرًا من المسلمين فحفروا في الخربة حيث أشار ثعلبة ، فأخرجوا  
الكنز . ونتج عن ذلك أن استحل دم كنانة واستحلت أموالهم وسبى ذراريهم .

أما الكنز المذكور فقد كان يتكون في معظمه من أسورة الذهب ، ودماج  
الذهب ، وخلخل الذهب وقرطة الذهب ، ونظم من جوهر وزمرد ، وخواتم  
ذهب ، وفتح يجزع ظفار مجزع بالذهب<sup>(٢)</sup> .

والآن بعد أن رأينا كيف سقطت جميع حصون اليهود في أيدي المسلمين ،  
ووقع في أيديهم الكثير من الغنائم المنقولة ، نتقل للحديث عن الكيفية التي تم بها  
التصرف في هذه الغنائم وطريقة توزيعها على المسلمين .

\* \* \*

## كيفية التصرف فى الغنائم :

حصل المسلمون نتيجة فتحهم حصون خيبر على الكثير من الغنائم التى تشمل الأثاث والبز والقطائف والسلاح والغنم والبقر ، وكميات ضخمة من الطعام والأدم وعلف الدواب . وقد جعل الرسول ﷺ الطعام وعلف الدواب حقاً مشاعاً لجميع المسلمين المشتركين فى الغزوة ، يأخذ كل منهم حاجته وما يكفيه أثناء وجوده بخيبر ، ولا يحق لأحد يحمل من الطعام والأعلاف شيئاً إلى بلاده .

كذلك أشاع الرسول استخدام السلاح الذى غنم لجميع المسلمين المقاتلين بخيبر ، ويحق لكل واحد أن يأخذ ما يحتاجه من السلاح ليقاتل به ، بشرط أن يرده بعد انتهاء القتال . ثم جمعت الغنائم المنقولة بما فيها السلاح ، وقسمت إلى خمسة أجزاء ، أخرج منها خمس للرسول ﷺ ، والأربعة أخماس الأخرى للمقاتلين . وبعد ذلك تم بيع جميع الغنائم بالمزايدة ، أى لمن يزيد ويدفع أعلى سعر ، وكان حق الشراء والبيع مفتوحاً للجميع ، مسلمين ويهود . وقد وكل الرسول ﷺ أمر بيع هذه المنقولات إلى فروة بن عمرو البياضى . ورغم كثرة الغنائم المنقولة إلا أنه تمكن من بيعها فى يومين فقط<sup>(٢)</sup> .

وكان الرسول ﷺ حريصاً على ألا يغفل أحد شيئاً من الغنائم ، أى يأخذه ويتنفع به دون سائر المسلمين ، مهما صغر هذا الشئ وقل ثمنه ، وذلك حتى يتحقق العدل والمساواة بين جميع المقاتلين .

أما الذين انتفعوا من غنائم خيبر فكانوا عدة فئات ، أولهم الذين شهدوا الحديبية مع الرسول ﷺ ، حتى الذين غابوا عن خيبر ولم يشهدوها لكنهم كانوا من أصحاب الحديبية ، كان لهم نصيب فى هذه الغنائم مثلهم مثل غيرهم من المقاتلين . وهناك من ماتوا فى الفترة ما بين الحديبية وخيبر ، وهؤلاء أعطى نصيبهم لورثتهم . كذلك الذين استشهدوا فى معارك خيبر نفسها حفظ لهم



حقهم فى الغنائم وأعطى لورثتهم . وهناك ثلاثة من الصحابة تخلفوا عن القتال بسبب المرض ، وهم سويد بن النعمان ، وعبد الله بن سعد بن خيثمة ، ورجل من بنى خطامة ، وهؤلاء أيضاً أعطاهم الرسول ﷺ نصيبهم<sup>(٥٤)</sup> .

وكان المجموع الكلى للمقاتلين فى خيبر الذين شملتهم الفئة ألفاً وأربعمائة رجل ، منهم مائتا فارس ، وقد تولى إحصاء هؤلاء المسلمين المشتركين فى خيبر الصحابى زيد بن ثابت<sup>(٥٥)</sup> ، وجعل الرسول ﷺ نصيب الفارس من مال الغنائم المنقولة ثلاثة أسهم ، سهم للفارس وسهمين لفرسه . ويبدو أن بعض الصحابة كان له أكثر من فرس بخير ، أحدهما قاتل عليه ، والآخر أو الأخرى أعطاهما لبعض المسلمين على أن يكون نصيب الفرس الزائد ، وهو سهمان ، لصاحب الفرس ، وهذا يعنى أن من كان له فرسان نال خمسة أسهم ، أربعة لفرسيه وسهم له . ويقال إن الرسول ﷺ لم يسهم لأكثر من فرسين ، ووفق رواية أخرى أنه لم يسهم إلا لفرس واحد<sup>(٥٦)</sup> .

أما الفئة الثانية التى جعل لها الرسول ﷺ نصيباً فى غنائم خيبر ، فكانوا عشرة من يهود المدينة غزا بهم الرسول ﷺ خيبر ، ويقال إنه أسهم لهم كسهمان المسلمين ، غير أن هناك رواية أخرى تقول إنه لم يسهم لهم وإنما أحذاهم ، ولعل المقصود بذلك أنهم نالوا مكافأة لمرة واحدة دون أن يتكرر إعطاؤهم ، وفى الغالب فإن هذا يتعلق بغلة الأرض التى أصبحت حقاً ثابتاً للمسلمين المشتركين فى خيبر ولأسرهم توزع عليهم سنوياً أو موسمياً . أما الغنائم المنقولة فقد وزع ريعها فى وقته ، ونال هؤلاء اليهود العشرة نصيبهم منها بحكم اشتراكهم فى الغزوة إلى جانب المسلمين .

كذلك كان مع هؤلاء اليهود العشرة بعض مماليكهم ، وقد أعطاهم الرسول ﷺ أيضاً شيئاً من مال الغنائم<sup>(٥٧)</sup> .

أما الفئة الثالثة التى أسهم لها الرسول ﷺ من غنائم خيبر دون أن يكونوا من أصحاب الحديبية ، فقد كانوا جماعة من المبعوثين على رأسهم عيص بن مسعود الحارثى ، أرسلهم الرسول ﷺ إلى فديك ليتفاوضوا مع يهودها على شروط الصلح الذى قبل يهود فديك إتمامه مع الرسول ﷺ (٥٨) .

وكان قد صحب الرسول ﷺ فى غزوته إلى خيبر عشرون امرأة من نساء المسلمين . وقد تطوعن لإغاثة المسلمين بتوفير السقاء لهم ومداوة الجرحى وغيرها من الأعمال . ولم يحرم الرسول ﷺ هؤلاء النسوة ثمرة جهودهن وحقهن فى غنائم خيبر . وتكاد جميع الروايات تجمع على أن الرسول ﷺ رضى هؤلاء النسوة ولم يسهم لهن (٥٩) أى إنه لم يجعل لهن أسهما أسوة بالرجال ، وإنما وزع عليهن بعض الغنائم . من ذلك مثلاً إنه رضى لكل امرأة خبزاً وأوصاح (٦٠) من فضة وقطيفة فدية وبرداً يمانياً وخمائل وقدرأ (إناء) من صفر (أى نحاس) . وفى رواية أخرى أن الرسول ﷺ قسم بينهن خبزاً وأعطى كل واحدة قطيفة وبرداً يمانياً ودينارين (٦١) .

وبخلاصة القول فإن الغنائم المنقولة وزع جزء منها ، وبخاصة الحلى ، على النساء اللاتى صحبن الرسول ﷺ فى غزوة خيبر ، وتم بيع ما تبقى فى مزايده مفتوحة لمن يريد أن يشتري ، ثم وزع ريعها من المال على المقاتلة وعشرة من يهود المدينة ، ومبعوثى الصلح إلى فديك .

أما الأرض الزراعية وما تحويه من نخل وزروع ، فهذه كان لها ترتيب آخر .

### توزيع غلة أراضى خيبر :

ذكر الواقدي أن الرسول ﷺ كلف زيداً بن ثابت بإحصاء المسلمين المقاتلين الذين اشتركوا فى غزوة خيبر ، فوجد أن عددهم يبلغ ألفاً وأربعمائة رجل ، ومعهم مائتا فرس . وكما ذكرنا من قبل ، ليس من الضرورى أن تكون هذه

الخيـل ملكاً لما تى مسلم ، لأن البعض كان له أكثر من فرس ، قاتل على واحد منها ، وأعطى الآخر لرجل آخر من المسلمين . فإذا أخذنا فى الاعتبار ضعف الرواية التى تقول إن الرسول ﷺ أسهم للرجل الذى له فرسان مثلاً ، خمسة أسهم ، أربعة لفرنسيه وسهم له ، فإن السؤال الذى يطرح نفسه هو : من الذى أخذ سهمى الفرس الآخر ، هل هو صاحب الفرس ، أم الشخص الذى قاتل عليه؟ ولا بد أولاً أن نثبت حقيقة هامة وهى أن الرسول ﷺ أسهم لمتى فرس ، إذ ذكر الواقدى أن الرسول ﷺ جعل السهمان ثمانية عشر سهمًا ، كل سهم منها مائة سهم ، ليصبح عددها ألفاً وثمانمائة سهم ، وكان نصيب المقاتلين من ذلك ألفاً وأربعمائة سهم بمعدل سهم لكل رجل ، بينما كان نصيب الخيل أربعمائة سهم بمعدل سهمين لكل فرس<sup>(٦٢)</sup> . غير أنه ليس واضحاً من الذى استفاد من سهمى الفرس الذى يقاتل عليه شخص غير صاحبه . ولعل الاتفاق كان يقضى بأن يتقاسم هذا الرجل وصاحب الفرس السهمين ، والله أعلم .

هذه الألف وثمانمائة سهم<sup>(٦٣)</sup> كانت فى أراضى النطاة والشق ، وكان لكل مائة شخص سهم كبير له رئيس يقسم على أصحابه ما خرج من غلة الأرض . وكان النطاة خمسة أسهم هى : سهم الزبير بن العوام ، سهم بياضة ، سهم أسيد بن حضير ، سهم بلحارث بن الخزرج ، سهم ناعم ( رجل يهودى ) .

أما الشق فقد كانت على ثلاثة عشر سهمًا على النحو التالى :

سهم عاصم بن عدى ، سهم على بن أبى طالب ، سهم عبد الرحمن بن عوف ، سهم طلحة بن عبيد الله ، سهم بنى ساعدة ، سهم بنى النجار ، سهم بنى حارثة بن الحارث ، سهم أسلم وغفار ، سهم سلمة ، سهم عبيد السَّهام ، سهم أوس ، سهم عبيد<sup>(٦٤)</sup> .

هذا وقد أوضحت عملية بيع وشراء الأسهم بين المسلمين ، فيقال مثلاً إن الرسول ﷺ اشترى من رجل من بنى خفار سهمه بخير بيعيرين بعد أن قال له :

"أعلم أن الذى آخذ منك خير من الذى أعطيك ، والذى أعطيك دون الذى آخذ منك " فقبل الرجل رغماً عن ذلك .

كذلك اشترى عمرو بن الخطاب من الرسول ﷺ فى سهم ، واشترى عمر أيضاً من أصحابه الذين يشتركون معه فى السهم الكبير ، وعددهم مائة ، حتى صار السهم كله لعمر . كذلك ابتاع محمد بن مسلمة من سهم أسلم سهمين<sup>(١٥)</sup> .

هذا فيما يتعلق بأراضى النطاة والشق ، أما أراضى الكتيبة فقد ورد فيها قولان مختلفان : فمن قائل إن الكتيبة كانت للنبي ﷺ خالصة ، ولم يوجف عليها المسلمون ( أى لم يقاتلوا عليها ) .<sup>(١٦)</sup>

أما القول الآخر ، وهو الأقرب للصواب والقول ، فهو أن الرسول عندما انتهى من فتح خيبر جزأ النطاة والشق والكتيبة جيمعها إلى خمسة أجزاء ، ثم جعل خمس بعرات ، وأعلم فى بعة منها وجعلها لله ، ثم قال : اللهم اجعل سهمك فى الكتيبة . فكان أول ما خرج منها الذى مكتوب فيه على الكتيبة ، فأصبحت الكتيبة نتيجة لهذا الخمس الخاص بالنبي ﷺ يتصرف فيه كيفما يشاء ، وأصبحت النطاة والشق هى أربعة الأخماس للمقاتلين بخيبر . ومما يدعم هذا القول ، أى أن الكتيبة صارت خمس رسول ﷺ ، أنه كان يطعم من أطعمهم فى الكتيبة وينفق على أهله منها ، كما أن الرسول ﷺ لم يطعم أحداً من الشق والنطاة التى جعلها سهماً للمسلمين<sup>(١٧)</sup> .

وهكذا أصبحت أراضى خيبر وما تنتجه من غلال وتمر ملكاً للمسلمين ، وهى أول أرض يمتلكها المسلمون خارج المدينة ، فكيف كان تصرفهم ازاءها ؟ هذا ما سنراه بعد قليل .

## الاتفاق مع يهود خيبر بشأن الأرض :

لم يكن من السهل على المسلمين فى هذه المرحلة من حياة الأمة الإسلامية التى تتطلب التفرغ للجهاد ونشر الدعوة الإسلامية ، أن ينصرفوا لفلاحة هذه الأراضى التى آلت ملكيتها لهم ، أو الإشراف عليها وعلى نخلها وزرعها إشرافاً مباشراً . ولهذا لم يرفض الرسول ﷺ العرض الذى تقدم به يهود خيبر ليركهم يعملون فى الأرض مقابل نصيب من إنتاجها . فوافق الرسول ﷺ على أن يقرهم فى أراضى خيبر مقابل حصولهم على نصف إنتاجها<sup>(٦٨)</sup> . وكان هذا الاتفاق يسرى على أراضى الشق والنطاة والكتيبة جميعها . واختار الرسول ﷺ أحد الصحابة من الأنصار ، وهو عبد الله بن رواحة ، ليحرص عليهم النخل ، ويقال إنه حرص عليهم أربعين ألف وسق<sup>(٦٩)</sup> . وعندما توفى عبد الله بن رواحة فى غزوة مؤتة سنة ٨ هـ بعث الرسول ﷺ أبا الهيثم بن التيهان خارصاً إلى خيبر . وفى رواية أخرى أنه بعث جبار بن صخر أو فروة بن عمرو ( البياضى )<sup>(٧٠)</sup> لهذه المهمة . والجدير بالذكر أن جميع هؤلاء الرجال الذين تولوا هذه الوظيفة كانوا من الأنصار من أهالى المدينة الذين كانت لهم خبرة بالنخل وإنتاجها من التمر .

## إنتاج الكتيبة وكيفية توزيعها :

لعل ما أورده بعض المصادر<sup>(٧١)</sup> عن إنتاج الكتيبة يعطينا فكرة عما كانت تنتجه أراضى خيبر من تمر ومحصولات زراعية أخرى . فقد ذكر أن الكتيبة ، وهى تشكل خمس الرسول ﷺ ( بمعنى آخر خمس خيبر ) كان إنتاجها كالاتى :

٨٠٠٠ وسق تمر لليهود نصفها ، أربعة آلاف .

٣٠٠٠ صاع شعير ، للرسول ﷺ ١٥٠٠ ولليهود ١٥٠٠ صاع .

١٠٠٠ صاع نوى تمر ، للرسول ﷺ نصفه .



ولعل هذا الإنتاج كان شبه ثابت ، أو ربما يمثل متوسط ما كانت تنتجه  
أراضي الكتيبة ، لأن الرسول ﷺ كان يطعم نساءه وأقرباءه وبعض الفقراء طعاماً  
على النحو التالي :

٨٠ وسق تمر و ٢٠ وسق شعير لكل زوجة من زوجاته .

٢٠٠ وسق للعباس .

٣٠٠ لفاطمة وعلى من الشعير والتمر ، منها ٨٥ وسق شعير ، لفاطمة من

ذلك ٢٠٠ وسق .

١٥٠ وسق لأسامة بن زيد ( ٤٠ شعير و ٥٠ نوى ) .

١٥ وسق شعير للمقداد بن عمرو .

٠٠٥ أوساق شعير لأم رمثة بنت عمر بن هاشم بن المطلب .

١٠٠ وسق لأبى بكر .

١٤٠ وسق لعقيل بن أبى طالب .

٥٠ وسق لبنى جعفر بن أبى طالب .

١٠٠ وسق لربيعة بن الحارث .

١٠٠ وسق لأبى سفيان بن الحارث بن المطلب .

٣٠ وسق للصلت بن مخزومة بن المطلب .

٥٠ وسق لأبى نبقة .

٥٠ وسق لركانة بن عبد يزيد .

٥٠ وسق للقاسم بن مخزومة بن المطلب .

- ٣٠ وسق لمسطح بن أثانة بن عباد وأخته هند .
- ٤٠ وسق صفية بنت عبد المطلب .
- ٣٠ وسق بجينة بنت الحارث بن المطلب .
- ٤٠ وسق ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب .
- ١٠٠ وسق الحصين وخديجة وهند بنت عبيدة بن الحارث .
- ٣٠ وسق أم الحكم بنت الزبير بن عبد المطلب
- ٤٠ وسق أم هانئ بنت أبي طالب .
- ٣٠ وسق جمانة بنت أبي طالب .
- ٣٠ وسق أم طالب بنت أبي طالب .
- ٥٠ وسق قيس بن مخزومة بن المطلب .
- ٥٠ وسق أبو أرقم .
- ٤٠ وسق عبد الرحمن بن أبي بكر .
- ٤٠ وسق أبي بصرة .
- ٣٠ وسق ابن أبي حبيش .
- ٥٠ وسق عبد الله بن وهب وإبنه ( ٤٠ لابنيه ) .
- ٥٠ وسق نميلة الكلبي من بني ليث .
- ٣٠ وسق أم حبيبة بنت جحش .
- ٣٠ وسق ملكان بن عبده .
- ٣٠ وسق مخيصة بن مسعود .

إذا أحصينا مجموع هذه الطعم المذكورة آنفاً نجده يقل كثيراً عن ثلاثة آلاف وسق ، بينما إنتاج الكتيبة كان يزيد كثيراً . ومن ناحية أخرى فإننا نلاحظ ليس واضحاً ما ناله كل شخص من الأنواع المختلفة من المحصول ، ما عدا في حالات قليلة . أما مابقى من إنتاج الكتيبة فلا بد أن الرسول ﷺ أطعم منه آخرين من فقراء المسلمين ، كما أنه كان يحمل منه في سبيل الله ، ويعطى منه من يآيته من وفود العرب ليتألفهم للإسلام . ومن هذه الفئات أناس صادف قدومهم إلى الرسول ﷺ عند فتح خيبر ، دون أن يشتركوا فيه ، فأطعمهم الرسول ﷺ من الخمس . ومن هؤلاء الرهاويون الذين أوصى لهم بجاد مائة وسق ( أى مما يجمع من ثمر ) والداريون ، - وكانوا عشرة قدموا من الشام إلى رسول الله ﷺ - فأوصى لهم بطعمة مائة وسق . كذلك أوصى للأشعرين بجاد مائة وسق . (٧٢)

وأصبحت كل هذه الطعم التى قسمها الرسول ﷺ من الخمس حقاً ثابتاً لكل من أعطاهم ، ينالونه فى حياة الرسول ﷺ وخلافة أبى بكر . أما من مات من المطعمين أو قتل فى حياة الرسول ﷺ وأبى بكر فإنه يرثه تلك الطعمة من ورث ماله . (٧٣) غير أن الخليفة عمر بن الخطاب عندما تولى الخلافة كان له رأى فى هذا الأمر . إذ يقال إنه قبض طعمة كل من مات ولم يورثه ، فقبض طعمة زيد بن حارثة ، وقبض طعمة جعفر بن أبى طالب ، وكلمة على بن أبى طالب فأبى ، وقبض طعمة صفية بنت عبد المطلب فكلمه الزبير ( بن العوام ، ابنها ) فى ذلك حتى غالظه فأبى عليه برده ، فلما ألح عليه قال : أعطيك بعضه . ولكن الزبير رفض وأصر على أخذها كلها . كذلك يقال إن عمر قبض طعمة فاطمة فكلم فيها فأبى أن يفعل (٧٤) .

غير أن الخليفة عمر استثنى من ذلك أزواج رسول ﷺ ، فكان يجيز ما صنعن ، فماتت زينب بنت جحش فى خلافته فخلى بين ورثتها وبين تلك الطعمة ، وأجاز ما صنعن فيه من بيع أو هبة . وورث ذلك كل من ورثهن ، ولم

يفعل بغيرهن ، وأبى أن يجيز بيع من باع الطعمة وقال : " هذا شيء لا يعرف إذا مات المطعم بطل حقه ، فكيف يجوز بيعه " (٧٥) .

غير أن هناك رواية أخرى تنفى استثناء عمر لأزواج الرسول ﷺ وعلى قول هذه الرواية فإن عمر قبض طعمة زينب حش زوج الرسول ﷺ التى توفيت سنة ٢٠ هـ فى خلافته وأبى أن يعطيها الورثة وقال : إنما كانت من النبى ﷺ طعمة ما كان المرء حيًا فإذا مات فلا حق لورثته (٧٦) .

وبغض النظر عن الروايتين المختلفتين ، فإن الخليفة عمر لابد أن تكون له أسباب دفعته لوقف وراثه الطعمة بعد أن استمر العمل بها فى عهدى الرسول ﷺ والخليفة أبى بكر . ولعل السبب فى ذلك هو تبدل الأحوال المعيشية للمسلمين وارتفاع مستواها بعد سنة ٢٠ هـ وبعد الفتوحات التى تمت وكثرة الأموال بأيدى الناس . أو ربما رأى عمر أن هذه الطعم من حق ولى الأمر بعد الرسول ﷺ أن يتصرف فيها بطريقته ، وأن بيت مال المسلمين أحق بها لينفق منها فى الجهاد وغيره من المصلحة العامة . لعل كل ذلك وغيره من الأسباب (٧٧) جعل عمر يرد هذه الطعم لبيت مال المسلمين ويوقف توارثها . والمعروف أن الخمس كان الرسول ﷺ ينفق منه على الفئات التى حددتها الآية الكريمة : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير ﴾ (٧٨) .

أما بعد أن أصبح ورثة ذوى القربى فى وضع معيشى مريح ، فإنه من الممكن توجيه هذا الخمس لمصلحة المسلمين العامة . والجدير بالذكر أن الخليفة عمر لم ينفرد بهذا رأى ، فقد تبعه على ذلك الخليفة عثمان بن عفان الذى رفض أيضًا نقض ما اتخذ عمر فى شأن الطعمة (٧٩) .

ومما يدعم قولنا أن إجراءات الخليفة عمر قد تمت فى الغالب فى أواخر عهده ، وأن عمر عندما عزم على إخراج اليهود من خيبر وفدك ، أثبت لأصحاب الطعم الآخرين ولبعض ورثة من توفى منهم حقهم فيها . وعلى ضوء ذلك فإنه من المؤكد أن الخليفة عمر لم يتعرض لما ناله المسلمون الآخرون الذين اشتركوا فى غزوة خيبر من أرض أو إنتاج ، لأن هذا أساساً حقهم ويختلف عن وضع الخمس . ولذلك لم نسمع أن الخليفة عمر منع أحداً من هؤلاء المسلمين من التصرف فى حقه ببيع أو شراء ، أو حال دونه ودون ورثته ، كما سنرى عندما نأتى للحديث عن الأسباب التى أدت لإخراج اليهود من الحجاز .

أما الآن فننتقل للحديث عن صلح فدك واتفاق الرسول ﷺ معهم ومع يهود تيماء ووادى القرى ، لأنها تمت أثناء غزوة خيبر أو عقبها مباشرة فاعتبرت مكملة لغزوة خيبر .

### أمر فدك ووادى القرى وتيماء :

جاء فى كتاب المغازى للواقدي أنه " لما أقبل رسول الله ﷺ إلى خيبر فدنا منها بعث محيصة بن مسعود إلى فدك يدعوهم إلى الإسلام ويخوفهم أن يغزوهم كما غزوا أهل خيبر ويحل بساحتهم " فذهب إليهم محيصة وأقام عندهم يومين لإقناعهم بقبول الصلح . ولكن يبدو أنهم كانوا يؤملون فى أن يفشل المسلمون فى فتح خيبر لما فيها من رجال وحصون وسلاح . غير أنهم لم يلبثوا أن عدلوا عن رأيهم بعد أن بدأت أخبار أولى الانتصارات التى حققها المسلمون فى خيبر تصل إلى مسامعهم . ففت ذلك فى أعضادهم ووافقوا على أن يبعثوا مع محيصة رجالاً منهم يأخذون لهم الصلح من الرسول ﷺ . فعرضوا على الرسول ﷺ أن يخرجوا من بلادهم ولا يكون للنبي ﷺ عليهم من الأموال شئ ، وإذا كان جذاذها جاءوا فجنوها . فأبى النبي ﷺ أن يقبل ذلك . وعرض عليهم من جانبه أن يحقن دماءهم ويجليهم ويخلو بينه وبين الأموال (٨٠) .



وقد لعب محيصة بن مسعود دوراً بارزاً في الوصول إلى حل وسط ، فنصح يهود فذك بقبول الصلح لأن وضعهم ضعيف وليست لهم منعة ولا رجال ولا حصون . وبالفعل تم الصلح بين الرسول ﷺ وبينهم أن لهم نصف الأرض بتربتها ، ولرسول الله ﷺ نصفها ، فأقرهم الرسول ﷺ على ذلك ولم يغزهم . وبقي هذا الاتفاق سارياً حتى خلافة عمر بن الخطاب . وسرى فيما بعد ما فعله الخليفة عمر مع يهود فذك وغيرهم من يهود الحجاز وأطراف الشام المتاخمة للحجاز .

وبعد أن فرغ الرسول ﷺ من فتح خير عزم على السير إلى وادى القرى التى كان بها أيضاً مجموعات من اليهود . فلما وصل هو والمسلمون إلى هناك أظهر اليهود المقاومة . وكان قد انضم إليهم أناس من العرب فبادروا برمى المسلمين بسهامهم . ولكن على الرغم من ذلك فإن الرسول ﷺ عرض عليهم الإسلام ، وأنهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم وحققوا دماءهم وحسابهم على الله . فرفضوا هذا العرض ، وخرج منهم رجال يدعون للمبارزة ، فتصدى لهم رجال من المسلمين وتغلبوا حتى قتل من اليهود أحد عشر رجلاً . ولم يطل القتال كثيراً ، ففى صبيحة اليوم التالى تمكن الرسول ﷺ والمسلمون من فتح وادى القرى عنوة ، وغنم منهم أموالاً وأثاثاً ومتاعاً كثيراً ، فقسم الغنائم على أصحابه ، وترك النخل والأرض بأيدي اليهود وعاملهم عليها<sup>(٨)</sup>

ومع أن الوقدي لم يوضح طبيعة الاتفاق بدقة ، إلا أنه فى الغالب كان شبيهاً باتفاق الرسول ﷺ مع يهود خير وفذك ، أى على المناصفة للمحصول ، وربما للأرض كذلك .

أما يهود تيماء فإنهم عندما بلغتهم أخبار انتصارات الرسول ﷺ على خير وفذك ووادى القرى ، فضلوا أن يصالحوه قبل أن يسير إليهم ، فصالحهم الرسول ﷺ على الجزية ، وهو مبلغ محدد من المال أو جزء متفق من محصولهم يؤدونه فى

مقابل احتفاظهم بأموالهم وأراضيهم . وظل اتفاقهم هذا سارى المفعول حتى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، كما سرى بعد قليل .

أما الآن ، وبعد أن رأينا ما حدث من غزو الرسول ﷺ لخير ووادي القرى وما نتج عنه من اتفاقات بينه وبين أهاليهما وأهالى فذك وتيماء من اليهود ، نتقل للحديث عن تعديات يهود خير على بعض المسلمين فى عهد الرسول ﷺ ثم فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وما نتج عنها .

### تعديات يهود خير على المسلمين ونتائجها :

#### ١ - فى عهد الرسول ﷺ :

كان أول اعتداء يقع من يهود خير على رجل من المسلمين بعد حوالى عشرة أشهر من غزوة خير ، لأن هذه الغزوة كانت فى مطلع عام ٧هـ وحدث الاعتداء عندما كان الرسول ﷺ يستعد لعمره القضية فى شهر ذى القعدة من نفس العام . والذى حدث هو أن بعض المسلمين ، وفيهم محيصة<sup>(٨٢)</sup> وعبد الله بن سهل خرجوا إلى خير بسبب ما أصابهم من جهد ومجاعة بالمدينة ، وأخذوا ينتقلون ما بين مزارع الشق والنطاة إلى أن استقر بهم المقام فى الكتيبة حيث وجدوها خيراً لهم قاموا بها أياماً<sup>(٨٣)</sup> . ثم عن لأحدهم ، وهو عبد الله بن سهل ، أن يذهب بمفرده إلى الشق رغم تحذير صاحب له من اليهود فلما استبطأ قدومه غدا فى أثره يسأل عنه حتى الشق فأخبره بعض أهلها أنه مر بهم حين غابت الشمس يريد النطاة ، فذهب إلى هناك ، ولكنه لم يجد له أثراً ، إلى أن دله غلام يهودى على مكانه ، فوجده وقد قتل وألقيت جثته فى جب . فاستعان ببعض اليهود على إخراجه من الجب ثم كفنه ودفنه ، وخرج سريعا إلى المدينة فأخبر قومه الخير . فخرج مع محيصة ثلاثون رجلاً منهم أخوه حويصة ، وعبد الرحمن بن سهل أخو القتيل ، وذهبوا إلى الرسول ﷺ . وكان الخير قد بلغه ، فأخبروه أنهم

يتهمون اليهود بقتل عبد الله بن سهل فكتب النبي ﷺ إليهم في ذلك ولكنهم انكروا التهمة ، فقال الرسول ﷺ لحويصة وعيصة وعبد الرحمن ولمن معهم : تحلفون خمسين رجلاً خمسين يميناً بالله أنهم قتلوا صاحبكم وتستحقوا الدم ، فقالوا: يا رسول الله لم نحضر ولم نشهد . فقال الرسول ﷺ لهم : تحلف لكم اليهود خمسين رجلاً خمسين يميناً بالله ما قتلوه . فقالوا : يا رسول الله كيف نقبل إيمان قوم كفار . ويقال إن الرسول ﷺ جعل دينه على اليهود لأنه قتل بحضرتهم ولكنه أعانهم ببضعة وثلاثين بعيراً<sup>(٨٤)</sup> .

فكان هذا أول اعتداء يحدث من اليهود بخير بعد الغزوة ، وقد استطاع الرسول ﷺ أن يجد حلاً للمشكلة وعالجها بطريقة حكيمة ، واعتبرها في الغالب حادثاً فردياً ، ولكن هل ارعوى اليهود واعتبروا بهذه المعاملة الكريمة ؟ الواقع أنهم لم يفعلوا .

## ٢ - في عهد الخليفة عمر بن الخطاب :

وقع الاعتداء الثاني على المسلمين في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وكان المعتدى عليه هذه المرة ابنه عبد الله بن عمر ، الذي كان قد خرج هو والزبير بن العوام ، والمقداد بن عمرو ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل إلى أموالهم بخير يتعاهدونها ، حيث اعتاد الخليفة أبو بكر ، ومن بعده عمر أن يبعثا إلى خير من يطلع على أراضيه وينظر في أمرها . فلما قدم عبد الله وصحبه إلى خير تفرقوا للقيام بهذه المهمة ، فوقع الاعتداء على عبد الله بن عمر ليلاً وهو نائم ، حيث صرعت يداه ، أى جذبتا جذباً عنيفاً إلى الخلف حتى أصبحتا وكأنهما موثقتان ، فأصلحهما أصحابه ، وقدم عبد الله المدينة وأخبر أباه بما صنع به<sup>(٨٥)</sup> والحقيقة أننا لا ندرى ماذا فعل عمر إزاء ذلك ولكنه في الغالب سكت عن هذا الحادث لأن أحداً لم يقتل .

غير أن اعتداء ثالثاً وقع على رجل مسلم يدعى مظهر بن رافع الحارثي ، وكان قد أقبل من الشام بعشرة أعلاج<sup>(٨٦)</sup> يعلمون له في أرضه ، فجاء بهم إلى خيبر . وبعد أن مكث ثلاثة أيام دخل عليهم رجل من اليهود فقال : " أنتم نصارى ونحن يهود وهؤلاء قوم عرب قد قهرونا بالسيف ، وأنتم عشرة رجال ، أقبل رجل واحد منهم يسوقكم من أرض الخمر والخير إلى الجهد والبؤس ، وتكونون في رق شديد ، فإذا خرجتم من قريتنا فاقتلوه . قالوا : ليس معنا سلاح . فدسوا إليهم سكينتين أو ثلاثة . قال : فخرجوا فلما كانوا بثبار<sup>(٨٧)</sup> قال لأحدهم ، وكان الذي يخدمه منهم : ناولني كذا وكذا . فأقبلوا إليه جميعاً وقد شربوا سكاكينهم ، فخرج مظهر يعدو إلى سيفه ، وكان في قراب راحته . فلما انتهى إلى القراب لم يفتحه حتى بعجوا بطنه ، ثم انصرفوا سراعاً حتى قدموا خيبر على اليهود فأوروهم وزودوهم وأعطوهم قوة فلحقوا بالشام<sup>(٨٨)</sup> .

وصلت أخبار هذا الاعتداء إلى الخليفة عمر فخطب في الناس وأخبرهم باعتداء اليهود على مظهر بن رافع وقتلهم إياه ، واعتدائهم من قبل على عبد الله ابن عمر ، كما أعاد إلى الأذهان الجريمة التي ارتكبوها في عهد الرسول ﷺ عندما قُتل عبد الله بن سهل في خيبر . وقال عمر إنه لا يشك في أن اليهود هم الفاعلون لأنه ليس للمسلمين هناك عدو غيرهم . وقد قرر عمر الخروج بنفسه إلى خيبر لإخراج اليهود منها وتقسيم أراضيها وتسليمها لأصحابها .

كان الخليفة عمر يعلم أن الرسول ﷺ عندما صالح يهود خيبر وترك لهم الأرض يزرعونها بالمنصفة ، قال لهم : أقركم ما أقركم الله ، ومعنى ذلك أنه قد يحين وقت يأمرهم فيه هو أو أحد خلفائه بالخروج من خيبر . وكان مما قوى من موقف الخليفة عمر أنه بلغه أن الرسول ﷺ قال في مرضه الذي توفي فيه : " لا يجتمع بجزيرة العرب دينان"<sup>(٨٩)</sup> ففحص عن ذلك عمر حتى وجد عليه الثبت من لايتهم، فأرسل إلى يهود الحجاز أن الله قد أذن في جلائهم ، فمن كان له منهم

عهد عند الرسول ﷺ فهو قاضيه له . وقد سرى قرار عمر بإخراج اليهود على يهود خيبر وفدك فقط، ولم يخرج يهود تيماء ووادي القرى لأنهما داخلتان في أرض الشام ، وكان عمر يرى أن ما دون وادي القرى إلى المدينة حجاز ، وأن ما وراء ذلك من الشام<sup>(٩٠)</sup> .

### إعادة تقسيم خيبر في عهد الخليفة عمر :

عندما اتخذ الخليفة عمر قراره بإخراج اليهود من خيبر ، كان لابد له من إعادة تقسيم الأنصبة فيها على أساس الاتفاق الذي عقده الرسول ﷺ مع اليهود هناك ، حيث أنه بخروج اليهود يصبح هذا الاتفاق لاغياً وتنتهي بذلك مسألة المناصفة التي كان اليهود بمقتضاها يحصلون على نصف إنتاج خيبر من المحاصيل الزراعية . فخرج عمر إلى خيبر مصطحباً معه أربعة قسّام ( أى الأشخاص الذين سيتولون التقسيم ) وهم فروة بن عمرو البياضى ، وحباب بن صخر السلمى ، أبو الهيثم بن التيهان ، وزيد بن ثابت . وفى رواية أخرى أن الخليفة عمر صاحب معه رجلين من القسام هما جبار بن صخر وزيد بن ثابت ، وهما قاسما المدينة وحاسباهما<sup>(٩١)</sup> .

وقد جاء تقسيم عمر متفقاً مع تقسيم الرسول ﷺ ، فجزأ أراضي الشق والنطاة على ثمانية عشر سهماً ، ثلاثة عشر سهماً منها فى الشق ، وخمسة أسهم فى النطاة ، وسمى رؤساء هذه الأسهم فجاءت على النحو الذى ذكرنا من قبل .

أما بالنسبة لكتيبة ، وهى خمس الرسول ﷺ ، فيقال إن الخليفة عمر خير أزواج النبی ﷺ فى طعمهن التى أطمعنهن الرسول ﷺ فى الكتيبة ، إن أحببن أن يقطع لهن من الأرض والماء طعمهن ، أو يمضى لهن الوسوق ( أى نصيبهن من المحصول ) وتكون مضمونة لهن ، فكانت عائشة وحفصة رضى الله عنهما ممن اختار الأرض والماء ، وكان سائرهن أخذن الوسوق مضمونة<sup>(٩٢)</sup> . ويظهر مما



روى عن السيدة عائشة أن من اختارت الأرض والماء كان اختيارها موفقاً أكثر  
من اختزن الطعام ، إذا يبدو أن مروان بن الحكم ، عندما أصبح والياً على المدينة  
من قبل معاوية بن أبى سفيان ، لم يلتزم إلزاماً تاماً بحق أصحاب الطعام ، فكان  
مرة يعطيهم ومرة ينقصهم ومرة لا يعطيهم شيئاً . (٩٣)

وهناك رواية أخرى تقول إن عمر خير الناس كلهم فمن شاء أخذ الطعمة  
كياً ومن شاء أخذ الماء والتراب ، كما أنه أذن لمن شاء أن يبيع نصيبه . وقد قام  
البعض بالفعل ببيع نصيبه ، ومن هؤلاء الأشعريون الذين باعوا نصيبهم ، وهو مائة  
وسق ، من عثمان بن عفان بخمسة آلاف دينار . كما باع الرهاويون نصيبهم من  
معاوية بن أبى سفيان بمثل ذلك (٩٤) ولكن فى الغالب أن البيع لعثمان ومعاوية تم  
أثناء خلافة كل منهما ، وبذلك يوحى الثمن الذى بيع به مائة وسق ، لأنه مهما  
عل السعر فإنه لن يبلغ هذا الحد فى خلافة عمر بن الخطاب .

### إعادة تقسيم وادى القرى :

وبعد أن فرغ الخليفة عمر من خير توجهه ومعه القسام الأربعة السابق  
ذكرهم إلى وادى القرى ، فقسموها على أعداد السهام . والحقيقة أن ما جاء فى  
المصادر عن وادى القرى والكيفية التى تعامل بها الرسول ﷺ مع أهله مقتضب  
جداً وليس واضحاً تماماً . وفى الوقت الذى ذكر ابن إسحاق أن الرسول ﷺ  
عندما فرغ من خير انصرف إلى وادى القرى فحاصر أهله ليالى ثم انصرف راجعاً  
المدينة دون أن يشير إلى أن الرسول ﷺ فتح وادى القرى أو اتفق مع أهله على  
العمل بالأرض نظير جزء من محصولها ، نجد الواقدي يقول إن الرسول ﷺ فتح  
وادى القرى عنوة فغنم الله أموالهم وأثاثاً ومتاعاً كثيراً ، فقسم الرسول ﷺ  
الغنائم بين أصحابه خلال الأيام الأربعة التى أقامتها بوادى القرى . أما النخل  
والأرض فتركها بأيدي اليهود وعاملهم عليها . (٩٥)

ومهما يكن من أمر فإن رواية الواقدي لا تعطينا تفصيلاً عن هذا الاتفاق، هل كان مثلاً بالمناصفة مثلما كان مع يهود خيبر ، أم كان شبيهاً بالاتفاق مع يهود فدك ، أم أنه غير ذلك . وماذا عن نصيب المسلمين في هذا الاتفاق ؟ هل تم توزيعه على المقاتلة مثلما حدث في خيبر ؟ وهل تم إخراج الخمس من ذلك ؟ هذه كلها أسئلة لا تجد لها إجابة ، وقد انعكس عدم الوضوح هذا على التقسيم الذي أجراه الخليفة عمر فيما بعد في وادي القرى . فهنا نجد الحديث عن تسمية جديدة ، فبدلاً عن طعمة ورد لفظ " خطر " الذي عرفه الواقدي بأنه يعنى السهم . أما ابن هشام فقد ذكر أيضاً هذه التقسيمات ، مع العلم بأنه لم يشر إليها من قبل في حديثه عن مسير الرسول ﷺ إلى وادي القرى ، أما الخطر فقد فسره ابن هشام بأنه النصيب. (١٦)

أضف إلى ذلك أنه مما يزيد في الغموض أن هذه التقسيمات شملت أفراداً بعضهم كان له نصيب في خيبر والبعض الآخر لم يرد له ذكر في قائمة أسهم خيبر . وكان عدد هذه الأخطار ( إن جازلنا أن نجمعها هكذا ) ثمانية وعشرين خطراً ، وزعت على ثلاث وثلاثين شخصاً ، حيث نال بعضهم نصف خطر بينما اشترك البعض ، كل اثنين منهم في خطر .

### الخاتمة :

كانت غزوة خيبر خاتمة لسلسلة من المعارك التي خاضتها الأمة الإسلامية ضد يهود الحجاز ، بدءاً بيهود المدينة ( بنى قينقاع وبنى النضير ، وبنى قريظة ) وانتهاء بيهود خيبر وفدك وتيماء ووادي القرى . فبعد أن أخرج الرسول ﷺ يهود بنى النضير من المدينة ، توجه معظمهم ، وعلى رأسهم زعمائهم ، إلى خيبر فدان لهم يهودها على كثرة أعدادهم وقلة بنى النضير ، فأصبحت خيبر ، بسكانها وحصونها وأراضيها الخصبة ومزارعها ، تشكل قوة حربية واقتصادية واضحة المعالم . ولت اليهود في خيبر انصرفوا لما فيه مصلحتهم ومصلحة جيرانهم ،

وبخاصة الأمة الإسلامية ، ولكنهم بدأوا يستغلون أموالهم فى محاربة الإسلام والمسلمين ، فكان تأليبهم للأحزاب فى غزوة الخندق .

وقد أدرك الرسول ﷺ مدى الخطر الذى أصبح يشكله يهود خيبر على الأمة الإسلامية الناشئة ، فكان هذا من أهم الأسباب المؤدية لغزوهم .

وكان توقيت غزوة خيبر أيضاً مناسباً جداً ، حيث أن الرسول ﷺ قبل ذلك بقليل كان قد عقد اتفاقية الحديبية مع قريش والتى اتفق فيها على هدنة بين الجانبين لمدة عشر سنوات . وبذلك أصبحت قريش مقيدة بتلك الاتفاقية ولا تستطيع أن تمد يد العون لحلفائها من اليهود .

ومن الأسباب لغزوة خيبر أيضاً أن الله وعد رسوله خيبر أن يغمها له لتكون مكافأة للمسلمين الذين خرجوا مع الرسول ﷺ إلى الحديبية وبايعوه بيعة الرضوان . وإنا لنجد فى انتصار الرسول ﷺ والمسلمين على اليهود فى خيبر تصديقاً لهذا الوعد . فإذا حكمنا العقل المنطق دون غيرهما وتساءلنا : كيف يمكن لنا أن نفسر انتصار ألف وأربعمائة رجل على عشرة آلاف رجل من اليهود مدججين بالسلاح فى حصون على ذرى الجبال يتوفر فيها الماء والطعام ، بخلاف أنه نصر من الله ؟ هذا هو تفسيرنا من وجهة نظر باحث مسلم ، فليُنظر من يرى غير هذا ليجد ما يبرر به هزيمة اليهود فى خيبر وهم بهذه الكثرة والقوة .

أما رأينا حول هزيمة اليهود فيتمثل أيضاً فيما وصفهم به القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ . (١٧)

والحقيقة أن ما جاء فى الآية الكريمة ينطبق تماماً على وضع وأحوال يهود خيبر . فبالإضافة إلى حصونهم واحتمائهم بها فهناك الكثير من قرائن الأحوال التى نستخلصها من أخبار غزوة خيبر ما يؤكد لنا ذلك :

١ - أولها أنه على الرغم من إظهار يهود المدينة تعاطفهم مع يهود خيبر إلا أن هناك عشرة من اليهود اشتركوا مع الرسول ﷺ في غزوة خيبر إلى جانب المسلمين ، مما يؤكد أن هناك فئة منهم لا تؤيد يهود خيبر .

٢ - أما يهود خيبر أنفسهم ، فرغم مظاهر القوى والحدة التي بدت منهم إلا أنهم كانوا من بداية أمرهم مختلفين ، فبعضهم كان يرى الخروج لمواجهة المسلمين بينما رأى البعض الآخر البقاء داخل حصونهم .

٣ - عندما وصل الرسول ﷺ إلى جهات خيبر خرج رجل من اليهود يدعى سماء وجاء إلى معسكر المسلمين وطلب من الرسول ﷺ أن يأمنه ، ففعل ، فأخبره بعورات اليهود وخوفهم منه ، وأطلعته على المكان الذى خبأوا فيه بعض سلاحهم . كما نقل إليه خبر انسحاب بنى غطفان من خيبر وتركهم مساعدة حلفائهم من اليهود . وعندما فتح الرسول ﷺ الحصن الذى فيه الذرية رد لهذا اليهودى زوجته ، وتدعى نفيلة .

٤ - رجل آخر من اليهود يدعى غزال خرج للرسول ﷺ وبعد أن أمنه على حياته كشف له ثغرة فى حصن الزبير مما مكان المسلمين من فتحه .

٥ - عندما تداعت معظم الحصون ولم يبق إلا حصن آل أبى الحقيق وأيقن كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق بالهكلة ، أرسل رجلاً إلى الرسول ﷺ ليصالحه ، فوافق الرسول ﷺ على ذلك ونزل إليه كنانة ، فكان من شروط صلحه ألا يخبئ عنه شيئاً خاصة فيما يتعلق بأموالهم وكنوزهم ، فادعى كنانة أنهم أنفقوها جميعاً فى حربهم ، فأشهد الرسول ﷺ جماعة من الصحابة وعشرة من اليهود على ذلك . ويقال إن أحد اليهود قام فقال لكنانة : إذا كان عندك ما يطلب منك محمد أو تعلم فأعلمه فإنك تأمن على دمك ، وإلا فوالله ليظهرن عليه ، قد أطلع على غير ذلك بما لم نعلمه ، فزبرة . ( أى زجرة ) ابن أبى الحقيق فتنحى اليهود فقعد .

٦ - وكانت المفاجأة أن الذى كشف للرسول ﷺ المكان الذى أخفى فيه كنانة الكنز هو ابن عمه ثعلبة بن سلام بن أبى الحقيق .

٧ - شئ آخر يشير إلى أن يهود خيبر لم يكونوا قلبًا وقلبًا خلف زعمائهم ، وهو أنه بمجرد أن انتهت المعارك وبدأت حركة بيع وشراء الغنائم نجد اليهود الذين آمنهم الرسول ﷺ يشتركون مع غيرهم من المسلمين فى بيع وشراء غنائم خيبر ، وكأنها لم تكن لهم ولقاداتهم .

من كل ذلك نستطيع أن نستشف أن يهود خيبر لم يكونوا على وفاق مع زعمائهم من بنى أبى الحقيق وبخاصة كنانة ، ولعلمهم كانوا يحقدون عليهم استئثارهم بالثروة ويحسدونهم على مكانتهم السياسية والاجتماعية . ولعل كنانة أيضًا لم يكن بالزعيم المحبوب ، وليس أدل على ذلك من موقفه مع زوجته ؛ فيقال إنه تزوج صفية بنت حى بن أخطب وأعرس بها قبل قدوم الرسول ﷺ بأيام وقد حكى أنها رأت فى النوم كأن قمرًا أقبل من يثرب يسير حتى وقع فى حجرها فلما ذكرت ذلك لكنانة لطم عينها حتى أخضرت وقال لها : ما هذا إنك تمنين ملك الحجاز محمدًا<sup>(٨)</sup> .

والمعروف أن الرسول ﷺ استصفى صفية لنفسه وتزوجها فأصبحت من أمهات المؤمنين .

\* \* \*

أما ما نستخلصه من نتائج عن الترتيبات المالية التى تمت نتيجة لغزوة خيبر فيمكن أن نصوغه على النحو التالى :

- كانت أراضى خيبر أول أرض يحصل عليها المسلمون خارج حدود المدينة لقد هيأت أراضى خيبر الزراعية الخصبة ومزارع نخيلها مصدرًا غذائيًا هامًا



للمسلمين فى هذه المرحلة من حياة الأمة الإسلامية بما تنتجه من ثمر ومحاصيل زراعية .

• نظراً لانشغال المسلمين بالجهاد ولعدم توفر العمال عند المسلمين فى ذلك الوقت ، فإن الرسول ﷺ وافق على أن يترك هذه الأراضى لليهود يزرعونها بالمناصفة ، أى أن يكون نصف إنتاجها للمسلمين ونصفه لليهود .

• من الواضح أن تقسيم الرسول ﷺ لخير كان يعنى تقسيم الإنتاج الزراعى وليس الأرض لأن التقسيم الذى أورده المؤرخون يتحدث عن أنصبة بالمكيال وليس عن مساحة أرض .

• استمر العمل بالترتيب الذى وضعه الرسول ﷺ حتى نهاية خلافة أبى بكر الصديق وصدر خلافة عمر بن الخطاب . وعندما عزم الخليفة عمر على إخراج اليهود قام بإعادة التقسيم . ويبدو أن عمر هذه المرة قسم الأرض لأنه اصطحب معه إلى خير قسّام المدينة وحاسبها وهم أشخاص مختصون فى هذه المسائل .

• هناك ما يشير إلى أن الخليفة عمر قسم الأرض بين مستحقيها وورثتهم ، لأنه خير نساء الرسول ﷺ بين الطعمة مضمونة وبين الأرض ، فاختار البعض منهن الطعمة ، والبعض الآخر اختار الأرض .

• عندما فتح المسلمون العراق والشام ومصر أراد الذين اشتركوا فى فتحها من الخليفة عمر بن الخطاب أن يقوم بتقسيم هذه الأراضى الزراعية عليهم كما قسم الرسول ﷺ خير ، حسب زعمهم . غير أن خليفة عمر لم يكن موافقاً على هذا الطلب ، وكان يرى أن تترك هذه الأراضى فى أيدي الفلاحين فى البلاد التى فتحها المسلمون يزرعونها ويؤدون عنها الخراج . وقد وافقه على

رأيه ذلك عدد من كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار مما قوى من موقفه  
وقرر عدم تقسيمها . (٩٩)

وهكذا فإن الترتيب الذى وضعه الرسول ﷺ فى خير أصبح نموذجاً يحتذى  
فى كيفية التعامل مع أراضى البلاد التى فتحها المسلمون فيما بعد ، لأن  
الرسول ﷺ فى واقع الأمر لم يقسم أرض خير وإنما قسم إنتاجها . وكان استعماله  
لليهود فيها بالمنصفة إجراءً مؤقتاً زال بزوال أسبابه ، فجاء الخليفة عمر فأخرج  
اليهود منها ، وكان عمر فى الحقيقة هو الذى قسم أراضى خير وحدد حدودها .  
ولعله أدرك أن هذا الإجراء لا يمكن أن يتبع فى الأراضى الشاسعة التى امتلكها  
المسلمون فى البلاد المفتوحة ، لأنه لو قسمها عليهم لما وجد من جاء بعدهم  
شيئاً ، فوق الله عمر لهذا رأى السديد .

ونختم حديثنا بتعليق للأستاذ الرئيس حول هذا الموضوع حيث يقول : "كان  
هذا قراراً بالغ الخطورة ، فيه أصبحت الأراضى التى فتحها المسلمون ، وكذلك ما  
يمكن أن يفتحوه بعد ، أصبحت شيئاً موقوفاً ، أى ملكاً عاماً للأمة الإسلامية  
كوحدة بجميع أجيالها بدل أن تكون ملكاً متقاسماً بين الأفراد يتداولونه ويرثه  
الأبناء عن الآباء " (١٠٠) .

## الهوامش

(١) الواقدي ، محمد بن عمر : " كتاب المغازي " ، ٣ أجزاء ، تحقيق مارسدن جونز ، أكسفورد (١٩٦٦) ، الجزء ٢ ، ص ٦٣٢ - ٧٢١ . ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك : " السيرة النبوية " ، الطبعة الثانية ، ٤ أجزاء ، بيروت ، دار الكتاب العربي ( ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م ) ، الجزء ٣ ، ص ٢٧٥ - ٣٠٦ . ابن سعد ، أبو عبد الله محمد : " كتاب الطبقات الكبرى " ٨ أجزاء ، بيروت ، دار صادر ( ١٩٦٠ ) الجزء ٢ ص ١٠٦ - ١١٧ . ابن كثير ، عماد الدين أبو الفدا إسماعيل : " السيرة النبوية " ٤ أجزاء ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، القاهرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ( ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ ) الجزء ٣ ص ٣٤٤ - ٤١٦ .

الحقيقة أن ما كتبه الواقدي عن غزوة خيبر لا يدانيه فيه أحد ممن كتب في السير والمغازي وإن الإنسان ليقف بكل فخر وإعجاب أمام ما أورده هذا المؤرخ الكبير من مادة غزيرة وتفاصيل دقيقة عن هذه الغزوة وغيرها من الغزوات .

(٢) خيبر : وهي ناحية على ثمانية برد من المدينة لمن يريد الشام . يطلق هذا الاسم على الولاية، وتشتمل هذه الولاية على سبعة حصون ومزارع ونخل كثير . أما لفظ خيبر فهو بلسان اليهود الحصن ، ولكون هذه البقعة تشتمل على هذه الحصون سميت خيابر ، وخابر جمع خيبر ، كأنها جمعت بما حولها . ( انظر : ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله : " معجم البلدان " ، ٥ أجزاء ، بيروت ، دار صادر ( ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ ) ، الجزء ٢ ، ص ٤٠٩ .

(٣) فذك : قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان وقيل ثلاثة ( ياقوت : معجم ، الجزء ٤ ، ص ٢٣٨ ) .

تيماء : بليد في أطراف الشام ، بين الشام ووادى القرى على طريق حاج الشام ودمشق ( ياقوت : معجم ، الجزء ٢ ، ص ٦٧ ) .

وادى القرى : وهو واد بين المدينة والشام من أعمال المدينة ( ياقوت : معجم ، الجزء ٥

ص ٣٤٥ ) .

(٤) ابن هشام : السيرة ، الجزء ٢ ، ص ص ١٤٣ - ١٤٦ . أورد نص الصحيفة أيضاً، مع الشرح والتعليق : أبو عبيد ، القاسم بن سلام : " كتاب الأموال " ، الطبعة الأولى ، تحقيق محمد خليل هراس ، القاهرة ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ( ١٣٨٨ - ١٩٦٨ ) ، ص ص ٩٠ - ٢٢٩٧ ، وكذلك أوردها ابن كثير : السيرة النبوية ، الجزء ٢ ، ص ص ٣٢٠ - ٢٣ .

(٥) ابن هشام : السيرة ، الجزء ٢ ، ص ص ١٤٤ - ١٤٥ .  
ابن كثير ، عماد الدين أبو الفدا اسماعيل : " البداية والنهاية " ، الطبعة الأولى ، ٢٤ جزءاً ، بيروت ، مكتبة المعارف ، الرياض ، مكتبة النصر ، (١٩٦٦) الجزء ٤ ، ص ٧٦ . ابن كثير : السيرة النبوية : الجزء ٣ ، ص ١٤٧ .

(٦) انظر ابن كثير : السيرة النبوية ، الجزء ٣ ، ص ٣٧١ .  
(٧) ابن هشام : السيرة ، الجزء ٣ ، ص ص ١٦٦ - ١٦٧ . ابن سعد : الطبقات ، الجزء ٢ ص ص ٦٥ - ٦٦ . ابن كثير : البداية والنهاية ، الجزء ٤ ، ص ٩٤ . كذلك ابن كثير : السيرة النبوية ، الجزء ٣ ، ص ١٨١ - ٨٢ .

(٨) ابن هشام السيرة ، الجزء ٣ ، ص ص ١٦٧ - ١٧١ - ٧٢ .  
(٩) ابن هشام السيرة ، الجزء ٣ ، ص ص ١٧٢ - ٧٣ .  
(١٠) ابن هشام السيرة ، الجزء ٣ ، ص ص ١٨٦ ، ١٩٠ - ٩١ .  
(١١) ابن هشام السيرة ، الجزء ٣ ، ص ٢٠٣ .  
(١٢) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٦٣٤ . ابن هشام السيرة ، الجزء ٣ ، ص ٢٧٩ .  
(١٣) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٦٣٧ .  
(١٤) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٦٣٧ . ابن هشام السيرة ، الجزء ٣ ، ص ٣٧٨ .  
(١٥) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٦٣٤ . الودك : الدسم معروف ، وقيل دسم اللحم . . . . . ودهنه الذي يستخرج منه ( ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم : " لسان العرب " ، ١٥ جزءاً/بيروت ، دار صادر (١٣٨٨ / ١٩٦٨) ، الجزء ١٠ ، ص ٥٠٩ .

(١٦) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٦٣٤ .

(١٧) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٦٣٤ .

- (١٨) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٣٤ ، ٦٣٧ .
- (١٩) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٦٤١ .
- (٢٠) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٦٣٧ .
- (٢١) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٦٤١ .
- (٢٢) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٦٤٠ .
- (٢٣) انظر الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٣٧ - ٣٨ .
- (٢٤) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٤٢ - ٤٣ ابن هشام : السيرة ، الجزء ٣ ، ص ٢٧٧ .
- (٢٥) ابن هشام : السيرة ، الجزء ٣ ، ص ص ١٧٤ - ٧٥
- غطفان بن سعد : بطن من حرام بن جذام ، من كهلان من القحطانية ، وهم بنو غطفان بن سعد بن مالك بن حرام بن جذام " انظر كحالة ، عمر رضا : " معجم قبائل العرب القديمة والحديثة " ، ٣ أجزاء ، بيروت ، دار للملايين ، ( ١٩٦٨ - ١٣٨٨ ) ، الجزء ٣ ، ص ٨٨٩ .
- (٢٦) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٤٠ ، ٦٤٢ .
- (٢٧) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٣٩ - ٦٥٠ .
- (٢٨) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٥٠ - ٥١ .
- النطاة : قيل : هو اسم لأرض نخير ، وقال الزمخشري : نطاة حصن بخير ، وقيل عين بها تسقى بعض نخيل قراها وهي وبئة ( انظر ياقوت : معجم ، الجزء ٥ ، ص ٢٩١ ) .
- (٢٩) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٦٥٠ .
- (٣٠) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٤٦ ، ٦٥١ . وكان الذي حمل خير خروج غطفان ورجوعهم إلى بلادهم للرسول ﷺ أحد اليهود .
- (٣١) حيفاء : موضع بالمدينة ، منه أجرى النبي ﷺ الخيل في المسابقة ( ياقوت : معجم ، الجزء ٢ ، ص ٣٣٢ ) .
- (٣٢) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٦٦٥ .
- (٣٣) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٧٥ - ٧٦ وذو الرقية جبل بخير .



(٣٤) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ص ٧٠١ ٢ . انظر الهامش رقم ( ٢ )  
لشرح خيابر .

(٣٥) الثنية البيضاء : عقبة قرب مكة تهبطك إلى فح وأنت مقبل من المدينة تريد مكة ،  
أسفل مكة من قبل ذي طول ( ياقوت : معجم الجزء ٢ ، ص ٨٥ ) .

(٣٦) يريدون بذلك ، لعنهم الله ، الرسول ﷺ .

(٣٧) اللبطة : أن يضرب البعير بيديه ، ولبطة البعير يلبطه لبطا : خبطه واللبط باليد  
كالخبط بالرجل ( ابن منظور : لسان ، الجزء ٧ ، ص ٣٨٨ ) .

(٣٨) المنة : بالضم ، القوة منظور : لسان ، الجزء ١٣ ، ص ٤١٥ ) .

(٣٩) انتل : أى استخرج ( ما فيها من أموال ) ( ابن منظور : لسان ، الجزء ١١ ،  
ص ٦٤٥ ) .

(٤٠) بطانية ، محمد ضيف الله : " فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، الجزء  
الثانى : الحياة الاقتصادية فى صدر الإسلام " عمان ، الأردن الفرقان ، ( ١٩٨٧/١٤٠٧ )  
ص ٥٩ . العمرى ، أكرم ضياء : بالمدينة المنورة المجلس العلمى ( ١٤٠٣ / ١٩٨٣ ) ، ص ١٧١  
(٤١) الشق : من حصون خيبر ( ياقوت ، الجزء ٣ ، ص ٣٥٥ ) .

الكتيبة : وهو حصن من حصون خيبر ( ياقوت : معجم ، الجزء ٤ ، ص ٤٣٧ )

وادی السرير : وادی خاص : ( وفق رواية ابن إسحاق ) وكان وادياً خيبر ، وادی  
السرير وادی خاص ، وهما اللذان قسمت عليهما خيبر ، وادی الكتيبة الذى خرج فى  
خمس الله ورسوله وذوى القربى وغيرهم ( ياقوت : معجم ، الجزء ٢ ، ص ٣٣٨ ) .

(٤٢) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٦٥١ .

(٤٣) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٥٦ - ٥٩ ، ٦٦٢ - ٦٤ .

(٤٤) العكم : عكم الثياب الذى تشد به العكمة . يقال : عكمت الثياب إذا شدت  
بعضها إلى بعض ( ابن منظور : لسان ، الجزء ١٢ ، ص ٤١٥ ) .

والبز : الثياب ، وقيل ضرب من الثياب ، وقيل البز من الثياب أمتعة البزاز ، وقيل البز  
متاع البيت من الثياب خاصة ( ابن منظور : لسان ، الجزء ٥ ، ص ٣١٢ ) .

(٤٥) الدبابة : آلة من جلود وخشب يدخل فيها الرجال ويقربونها من الحصن المحاصر لينقبوه، وتقيهم ما يرمون به من فوقهم ، وسميت بذلك لأنها تدفع فتدب ( ابن منظور : لسان، الجزء ١ ، ص ٣٧١ ) . أما المنجنيق فهو ما يعرف بالنار الإغريقية ، وهى عبارة عن حجارة مشتعلة تقذف من على بعد .

(٤٦) الواقدي : المغازي، الجزء ٢ ، ص ٦٦٥ .

(٤٧) الواقدي : المغازي، الجزء ٢ ، ص ٦٦٦ - ٦٧ .

(٤٨) الواقدي : المغازي، الجزء ٢ ، ص ٦٦٩ .

(٤٩) الواقدي : المغازي، الجزء ٢ ، ص ٦٦٩ .

(٥٠) فى الحديث أن الرسول ﷺ صالح أهل خيبر على الصفراء والبيضاء والحلقة ، فالصفراء : الذهب ، والبيضاء : الفضة ، والحلقة : الدرع ، أما الكراع فقد تعنى البقر والغنم، وقد تعنى الخيل والسلاح ، وقد تعنى السلاح ، ( انظر : ابن منظور : الجزء ٤ ، ص ٤٦٠ ن والجزء ٨ ، ص ٣٠٧ ) .

(٥١) الواقدي : المغازي، الجزء ٢ ، ص ٦٧٦ . ابن هشام السيرة ، الجزء ٣ ، ص ٢٨٦ .

(٥٢) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٦٧٣ .

الدملج والدملوج : المعضد من الحلى ( ابن منظور : لسان ، الجزء ٢ ن ص ٢٧٦ ) الفتحة والفتحة : خاتم يكون فى اليد والرجل بفص وغير رفص ، وقيل هى الخاتم أيا كان ، وقيل هى حلقة تلبس فى الأصبع كالخاتم ، وكانت نساء الجاهلية يتخذنها فى عشرهن ، والجمع فتح وفتوخ وفتحات ، وقيل الفتحة حلقة من فضة لا فص فيها ، فإذا كان فيها فص فهى الخاتم ( ابن منظور : لسان ، الجزء ٣ ، ص ٤٠ ) .

(٥٣) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٦٨٠ .

(٥٤) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٦٨٤ .

(٥٥) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٦٨٩ . هناك رواية أوردها الواقدي تقول أن

عدد الفرسان كان ثلثمائة فارس .

(٥٦) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٦٨٨-٤٣ . ابن هشام : السيرة ، الجزء ٣ ، ص ٢٩٨ . حول هذا الموضوع كتب أبو سيف ( يعقوب بن إبراهيم : " كتاب الخراج " الطبعة الخامسة ، القاهرة ، المطبعة السلفية ومكبتها ( ١٣٩٦ ) ، ص ٢٠ ) قال : " وكان الفقيه المقدم أبو حنيفة يقول : للرجل سهم وللفرس سهم ، وقال : لا أفضل بهيمة على رجل مسلم : " وما جاء من الأحاديث والآثار أن للفرس سهمين وللرجل سهم أكثر من ذلك وأوثق والعامه عليه ، ليس هذا على وجه التفضيل ... إنما هذا على أن يكون عدة الرجل أكثر من عدة الآخر وليرغب الناس في ارتباط الخيل في سبيل الله . ألا ترى أن سهم الفرس إنما يرد على صاحب الفرس فلا يكون للفرس دونه " ثم يضيف أبو سيف قائلاً : " في الرجل يكون في الغزو ومعه الأفراس ، قال : " لا يقسم له من الغنيمة لأكثر من فرسين " انظر أيضاً : القرشي ، يحيى بن آدم : " كتاب الخراج " صححه وشرحه ووضع فهرسه أحمد محمد شاكر ، الطبعة الثانية ، المطبعة السلفية ومكبتها ( ١٣٨٤ هـ ) ص ص ١٨ - ١٩ ) وأيضاً : البخاري ، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن إبراهيم : " صحيح البخاري " ثمانية أجزاء ، استنبول ، تركيا ، الكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع ، ( دون تاريخ ) ، الجزء ٥ ، ص ٧٩ .

(٥٧) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٦٨٤ .

(٥٨) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٦٨٤-٤٣ . ابن هشام : السيرة ، الجزء ٣ ، ص ٢٨٦ . الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير : " تاريخ الرسل والملوك " تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ، دار المعارف ( دون تاريخ ) ، الجزء ٣ ، ص ١٩ .

(٥٩) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٦٨٥ - ٨٧ . وفي راية أخرى للواقدين (ص ٨٧) ص ١٧ .

(٦٠) الأوضح : حلى من الدراهم الصحاح (ابن منظور: لسان ، الجزء ٢ ، ص ٦٣٥) .

(٦١) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٨٦ - ٨٧ ، ٦٨٨ .

(٦٣) هناك بعض الخلط وعدم الوضوح فيما أورده الواقدي عن هذه الأسهم ، فنجد في مكان من كتابه ( الجزء ٢ ، ص ٦٨٩ - ٩٠ ) يذكر أن الرسول ﷺ جعل النطاة والشق ثمانية عشر سهمًا فوضي ( أى بدون تحديد ) وكان كل سهم يضم مائة رجل وله رأس . ولكننا نجد في نفس المكان يقول : " فكانت سهمان المسلمين التي أسلمها رسول ﷺ في

النطاة أو فى الشق ثلاثة أسهم فوضى لم تعرف على عهد رسول الله ﷺ ولم تحج ولم تقسم " وليس واضحاً تماماً العلاقة بين الثمانية عشر سهماً التى ذكرها آنفاً وبين الثلاثة أسهم فى كل من النطاة والشق . أضف إلى ذلك إنه عندما عدد الأسهم وبعض رؤسائها ( الجزء ٢ ، ص ٦٨٩ - ٩٠ ) ذكر أربعة رؤساء سهمان . بينما نجده فى مكان آخر ( ص ص ٨١٧ - ١٩ ) يعدد مرة أخرى الأسهم ورؤسائها ، فنجد أن عددها هنا ثمانية عشر سهماً لسلمة وسهم لعبيد السهام ، الذى لم يذكره فى المرة الأولى . ولعل تفسير ذلك أن عبید هذا قد قام بشراء أسهم من كانوا يشتركون معه فى السهم الكبير بحيث أصبح كله باسمه ، وقد سمي عبید السهام لكثرة ما اشترى منها ( الواقدي ، الجزء ٢ ، ص ٧١٩ ) . أضف إلى هذا أن هناك بعض الخلط فى اسم الرجل اليهودي الذى كان له سهم فنجد مرة باسم عبيدة ( ص ٦٩٠ ) ومرة أخرى باسم عبید ( ص ٧١٩ ) .

(٦٤) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ص ٧١٨ - ١٩ . ابن هشام : السيرة ، الجزء ٣ ، ص ص ٢٩٧ - ٩٩ .

(٦٥) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٦٩٠ .

(٦٦) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٩١ - ٩٢ .

(٦٧) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٩٢ - ٩٣ .

(٦٨) قال أبو سيف ( الخراج ، ص ٥٤ ) أن الرسول ﷺ دفع خيبر إلى اليهود مساقاة بالنصف ، وكان يبعث إليهم عبد الله بن رواحة فيحرص عليهم ثم يخيرهم أى النصفين شاءوا أو يقول لهم : احرصوا أنتم وخيرونى . انظر كذلك : يحيى بن آدم : الخراج ، ص ٢١ وأبو عبید : الأموال ، ص ص ٧٩ - ٨٠ ، والبخارى : صحيح ، الجزء ٥ ، ص ٨٤ .

(٦٩) أصل الخرص : التظنى فيما لا تستيقنه ، ومنه خرص النخل والكرم إذا حرزت التمر لأن الحرز إنما هو تقدير بظن لا إحاطة ، والاسم الخرص بالكسر ، والخرص حرز ما على النخل من الرطب تمراً ( ابن منظور : لسان الجزء ٧ ، ص ٢١ ) . أما الوسق والوسق : مكيلة معلومة : وقيل هو حمل بعير وهو ستون صاعاً بصاع النبي ﷺ وهو خمسة أرتال وثلاث ( ابن

نظور : لسان ، الجزء ١٠ ، ص ٣٧٨ ) . انظر كذلك زلوم ، عبد القديم : " الأموال في دولة الخلافة " الطبعة الأولى ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ( ١٩٨٣-١٤٠٣ هـ ) ، ص ٦٣ .  
( ٧٠ ) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٦٩١ - ٩٢ . ابن هشام : السيرة ، الجزء ٣ ، ص ٣٠٢ ذكر ابن هشام أن جبار بن صخر هو الذي حرص عليهم بعد مقتل ابن رواحة .

( ٧١ ) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٦٩٣ - ٩٥ . ابن هشام : السيرة ، الجزء ٣ ، ص ٢٩٩ - ٣٠٠ . ابن كثير : البداية ، الجزء ٤ ، ص ٢٠٠ .  
( ٧٢ ) انظر الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٦٩٥ . في الغالب المقصود هنا " بجاد مائة وسق " أنه اعطاهم أو جاد عليهم بكذا .

أما الأشعر فهم من قبائل كهلان من القحطانية ... قدموا على النبي ﷺ فقال لهم : " نعم الحى ، والأشعريون لا يفرون في قتال ولا يغفلون ، هم منى وأنا منهم . وكانوا أول منتقض بعد انتقال النبي ﷺ سنة ١١ هـ بتهامة فقاتلهم أبو بكر فانهزموا ( كحالة : معجم ، الجزء ١ ، ص ٣٠ - ٣١ ) . أما الداريون فهم : الدار بن هاني ، بطن من لخم من القحطانية وهو بنو الدار بن هاني بن حبيب بن نمارة بن لخم ( كحالة : معجم ، الجزء ١ ، ص ٣٧٠ ) ، أما الرهاويون فهم رهاء بن منبه ، بطن من مذحج بن كهلان من القحطانية . ( كحالة : معجم ، الجزء ٢ ، ص ٤٤٨ ) .

( ٧٣ ) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٦٩٧ .

( ٧٤ ) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٦٩٧ - ٩٨ .

( ٧٥ ) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٦٩٨ .

( ٧٦ ) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٦٩٩ .

( ٧٧ ) لعل من الأسباب لذلك الديوان الذي وضعه الخليفة عمر بن الخطاب وأصبحت

الأموال بمقتضاه توزع على جميع المسلمين فعم الخير الكل .

حول وضع الخليفة عمر لديوان العطاء وتوزيع الأموال انظر : ابن سعد : الطبقات ،

الجزء ٣ ، ص ٢٩٦ - ٣٤٠ .



(٧٨) القرآن الكريم ، سورة الأنفال ، الآية ٤١ ، وقد ذكر ابن هشام ( السيرة ، الجزء ٢ ، ص ٢٤٧ ) أن العمل بالخمسة بدأ عقب سرية نخلة التي كانت في السنة الثانية للهجرة قبيل معركة بدر الكبرى . ولكن من الواضح أن آية الخمس المشار إليها نزلت بعد غزوة بدر .  
(٧٩) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٩٨ - ٩٩ .

(٨٠) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٠٧ - ٧ . ابن هشام : ( الجزء ٣ ، ص ٢٨٦ و ص ٣٠١ ) في خبر فذك أنه لما فرغ الرسول ﷺ من خير قذف الله الرعب في قلوب أهل فذك حين بلغهم ما أوقع الله تعالى بأهل خير ، فبثو إلى رسول الله ﷺ يصلحونه على النصف من فذك فقدمت عليه رسلهم بخير أو بالطائف ، أو بعد ما قدم المدينة ، فقبل ذلك منهم . انظر كذلك الطبري : تاريخ ، الجزء ٣ ، ص ٢٠ . أما أبو عبيد ( الأموال ، ص ١٦ ) فقد ذكر أن أهل فذك قد أرسلوا إلى رسول الله ﷺ فبايعوه على أن لهم رقابهم ونصف أراضيهم ونخلهم ولرسول الله ﷺ شطر أرضهم ونخلهم .

(٨١) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ص ٧١٠ - ١١ . ابن هشام : ( السيرة ، الجزء ٣ ، ص ٢٨٨ ) أن الرسول ﷺ لما فرغ من خير انصرف إلى وادي القرى فحاصر أهله ليالي ثم انصرف راجعاً إلى المدينة .

(٨٢) هو محبصة بن مسعود بعثه الرسول ﷺ في أمر الصلح ليهود فذك .

(٨٣) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٧١٣ .

(٨٤) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٧١٢ . تقول ثلاث روايات أوردها ابن هشام ( السيرة ، الجزء ٣ ، ص ٣٠٣ ) أن الرسول ﷺ هو الذي دفع دية هذا القتل من عنده .

(٨٥) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٧١٦ . من جهة أخرى ابن هشام ( السيرة الجزء ٣ ، ص ٣٠٥ ) ذكر ما يدعو للاعتقاد أن الخليفة عمر بن الخطاب اتخذ قراره بإخراج اليهود بعد حادثة ابنه عبد الله فذكر أن عمر قال ذلك للصحابه ، وأنه لا يشك أن اليهود هم الذين فعلوا ذلك ، وأنه مخرجهم ، فمن كان له مال بخير فيلحق به . انظر : الهمشري ،

مصطفى : " النظام الاقتصادي في الإسلام . من عهد بعثة الرسول ﷺ إلى نهاية عصر بني أمية " ، الطبعة الأولى ، الرياض ، دار العلوم للطباعة والنشر ( ١٤٠٥ / ١٩٨٥ ) ، ص ١٤٥ .

(٨٦) العليج : الرجل من كفار العجم ، والعلج الكافر ، ويقال للرجل القوى الضخم من الكفار عليج ( ابن منظور : لسان ، الجزء ٢ ص ٣٢٦ ) .

(٨٧) ثبار : بالكسر وآخره راء موضع على ستة أميال من خيبر ، وقد روى بالفتح ( ياقوت : معجم ، الجزء ٢ ، ص ٧٢ ) .

(٨٨) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٧١٦ .

(٨٩) ابن أنس ، مالك : " الموطأ " الطبعة الأولى ، قدم لها وراجعها ونسقها فاروق

سعد ، بيروت ، دار الأفاق الجديدة (١٩٧٩) ص ص ٧٨٠ - ٨١ . الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٧١٧ . ابن هشام : السيرة ، الجزء ٣ ، ص ٣٠٤ .

أبو داود ، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي : " سنن أبي داود " ، الطبعة الأولى ، خمسة أجزاء ، حمص ، دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع ( ١٣٨٨ / ١٩٦٩ ) الجزء ٣ ، ص ١٥٤ الطبري : تاريخ ، الجزء ٣ ، ص ٢١ .

(٩٠) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٧١١ .

(٩١) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ص ٧١٨ - ٢١ هناك اختلاف في الأسماء

فابن هشام ( السيرة ، الجزء ٣ ص ٣٠٥ ) ذكر حبار بن صخر بدلاً عن حباب بن صخر الذي ذكره الواقدي . أما الآخر فقال عنه ابن هشام أنه يزيد بن ثابت بينما ذكره الواقدي باسم زيد بن ثابت . الواقدي ذكر أيضاً أربعة أشخاص بينما ذكر ابن هشام اثنين فقط . أما الرواية الثانية فنجدتها تتفق مع رواية ابن هشام في ذكر اثنين فقط .

(٩٢) يحيى بن آدم الخراج ، ص ٣٧ . الواقدي ، المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٧١٩ - ٢٠

(٩٣) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٧٢٠ . يوحى هذا بأن مروان بن الحكم

استغل نفوذه عندما كان والياً على المدينة في عهد معاوية بن أبي سفيان ، وهناك ما يشهد على ذلك ، وهو أن معاوية عندما تولى الخلافة أقطع فداً لمروان فوهبها مروان لابنيه عبد العزيز وعبد الملك ( ويبدو أنه فعل هذا نكايه في آل علي بن أبي طالب الذين كانوا يتمتعون بجزء من إنتاج فداً منذ عهد الرسول ﷺ ثم جاء عمر بن عبد العزيز فردها إلى آل علي بن أبي طالب ( ياقوت : معجم ، الجزء ٤ ص ٢٤٠ ) .

(٩٤) الواقدي : المغازي ، الجزء ٢ ، ص ٧٢٠ .

(٩٥) الواقدي: المغازي، الجزء ٢، ص ٧١١. ابن هشام: السيرة، الجزء ٣ ص ٢٨٨

(٩٦) الواقدي: المغازي، الجزء ٢، ص ٧٢١. ابن هشام: السيرة، الجزء ٣ ص

ص ٣٠٥-٦

(٩٧) القرآن الكريم: سورة الحشر، الآية: ١٤.

(٩٨) الواقدي: المغازي، الجزء ٢، ص ٧٢١. ابن هشام: السيرة، الجزء ٣ ص

ص ٢٨٥-٨٦

(٩٩) يقول يحيى بن آدم (الخراج، ص ٢٠) قال بعض الفقهاء: الأرض لا تخمس

لأنها في وليست بغنيمة لأن الغنيمة لا تتوقف والأرض إن شاء الإمام وقفها وإن شاء قسمها

كما يقسم الفئ، فليس في الفئ خمس ولكنه لجميع المسلمين، كما قال الله عز وجل: ﴿

ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذو القربى واليتامى والمساكين وابن

السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا

واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ (القرآن الكريم: سورة الحشر، الآية: ٧) انظر كذلك

أبو يوسف: الخراج، ص ٢٨ - ٢٩. أبو عبيد: الأموال، ص ٨١، ٨٥. زلوم:

الأموال في دولة الخلافة، ص ٤٨.

(١٠٠) الرئيس، محمد ضياء الدين: "الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية"

الطبعة الثالثة، مصر، دار المعارف، (١٩٦٩) ص ١١٧.



# وصية معاوية بن أبي سفيان لابنه يزيد

## - دراسة نقدية تحليلية -

د/ يوسف بن أحمد حوالة\*

ترك الخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سفيان ، الذي اتصلت خلافته من سنة إحدى وأربعين للهجرة حتى سنة ستين منها ، وصية مهمة لابنه وولي عهده يزيد ، الذي كان قد جُعِلَ إليه أمر الخلافة من بعده . والوصية من الأهمية بمحل كبير في مسيرة الدراسات التاريخية كما يتراءى للباحث . ومن هنا استقر عزمه على إن يخضعها لدراسة تاريخية دقيقة ، راسماً لنفسه منهجاً يقوم على تقسيم هذه المعالجة التاريخية إلى قسمين اثنين : النقد ثم التحليل .

## - النقد -

لعل أول ما تقتضيه دواعي الدراسة النقدية وموجباتها ، التأكيد على إن الوصية التي وجهها الخليفة معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه لابنه يزيد ، هي وصية سياسية محضة . وليس فيها ما يشير إلى الجوانب الأخرى المعروفة عن الوصايا بشتى مناحيها ، أي الشرعية ، أو الأسرية ، أو الاجتماعية<sup>(١)</sup> . وثمة أمر ثان من موجبات الدراسة النقدية يفرض نفسه ، هو الأهمية التاريخية التي تكتسبها هذه الوصية السياسية ، فهي بادئ ذي بدء فاتحة هذا النوع من الوصايا التي يتركها الملوك لأبنائهم في تاريخ الإسلام ، حيث يرسمون خلالها النهج الذي يريدون لأبنائهم انتهاجه ، والسير بمقتضاه . والمعروف إن معاوية بن أبي سفيان ، هو أول ملوك الإسلام<sup>(٢)</sup> . نقول هذا تقريراً للحقيقة التاريخية ، ونقول معه كذلك إن علينا الاعتراف بأن ثمة وصايا سياسية عرفتھا الدولة الإسلامية في عهود

---

(\*) أستاذ التاريخ الإسلامى المشارك - كلية التربية - جامعة الملك عبد العزيز المدينة المنورة .



الخلفاء الراشدين . بيد إن الأمر مختلف هنا ، فما نقصده إن وصية معاوية رضى الله عنه ، هي فاتحة هذا النوع من الوصايا ، إنما نعنى به ذلك المتصل بوصايا الملكية الوراثية . ولذلك ترتدى الوصايا عند الحكام الملوك طابعاً أسرياً ، بجانب السمة السياسية لهذه الوصايا . وإلا فالحق إن عصر الراشدين عرف شيئاً من هذه الوصايا التي تركها الخلفاء الراشدون لمن ياتى بعدهم ، سواء نص على هذا الشخص أو لم ينص (٣) . ثم علينا ألا ننسى أخيراً إن الحكومة الراشدة لها بعض الشبه بالملوكية ، أعنى النظام الملكى ، إذا يلحظ على الخليفة كما يقول عبد الوهاب النجار فى كتابه : " الخلفاء الراشدون " (٤) عند حديثه عن نوع الحكم فى الخلافة الإسلامية ( يلحظ على الخليفة فى انتخابه الدوام دون إن يكون ذلك إلى زمن معين يكون معزولاً عن الخلافة بانقضائه ) (٥) .

والموجب الثالث الذى تفرضه دواعى الدراسة النقدية موجباتها هو المتضمن القول بأننا نجد أنفسنا مدفوعين دفعاً إلى الوقوف عند هذه الوصية بعينها - علاوة على ما سلف - فهى عدا إنها فى ذاتها تعد ذات قيمة ومضامين سياسية مهمة نحو كيفية التعامل مع المواقف والأزمات ، مما يجعلها معيناً أو مرتعاً مخصصاً للسياسة والقادة يجدون فيه أبعاداً سياسية وفنونها ، كما سيوضحه التحليل لاحقاً إن شاء الله - فهى تدل دلالة واضحة على شخصية الخليفة المؤسس معاوية ، الذى أشادت كثير من المصادر قديمها وحديثها ببراعته السياسية (٦) . نعم يمكننا القول إن الوصية هى الدليل أو النموذج الأوضح لمقدار ما تمتع به الخليفة معاوية من حصافة وكياسة وحنكة سياسية ، فلقد جاءت فقراتها جميعها لتؤكد على الحذق السياسى والسبل الناجعة الكفيلة بالتعامل مع الأزمات والمخاضمين . وفوق هذا وذاك لعلها تدل من نحو ثالث على موفور الخبرة النفسية بطباع الناس الذين خبرهم معاوية وعجم بهم ومعهم عود الحياة طوال فترة اضطلاله بالمسؤولية منذ بدء نجمه السياسى ييزغ : حاكماً أو والياً على دمشق بعد أخيه يزيد ابن أبى سفيان (٧) ، ثم

واليا على بلاد الشام كلها فى عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه (٨) ،  
ثم خليفة من بعده لمدة أكثر من تسعة عشر عامًا (٩) .

والموجب الرابع الذى تفرضه دواعى الدراسة النقدية ، إن الوصية وقد  
جاءت فى نصين لاثنتين من الإخباريين : هما أبو مخنف : لوط ابن يحيى الأزدي ،  
وعوانه بن الحكم الكلبي ، أقول إن الوصية وقد جاءت كذلك تمثل لنا واقعة  
تاريخية حية للوضع والإختلاق الذى رافق كماً غير يسير من الروايات التاريخية  
لأمة الإسلام التى فطن إليها مؤرخو الأمة الثقات وعلمائها ، وحسبنا بهذا  
التسطير كفاية هنا ، لأننا سنوسع هذا الأمر بحثاً ودراسة فى التحليل إن شاء الله .

وإذ استقام هذا فإن ثمة خطوات تتصل أوثق الاتصال بهذا القسم الأول من  
البحث ، أعنى النقد . أجل ثمة حديث لا بد منه عن التحديد الزمنى للوصية ، ثم  
المصادر التى أشارت إلى الوصية بنصيهامعاً أو أشارت إلى واحد من النصين فقط ،  
ثم نورد النصين معاً ، ثم الظروف المحيطة التى استدعت توجيه الوصية ، ثم نعقد  
مقارنة بين النصين من حيث الشكل ، ومن حيث المضمون ، ويلى ذلك مقتضيات  
رد أحد النصين سنداً وامتناً ، مع ما يستلزم ذلك من التعريف بأطراف رواة الوصية  
وأقوال العلماء فيهم .

### التحديد الزمنى للوصية :

بوسعنا القول عن التحديد الزمنى للوصية ، أى تحديد الزمن الذى وجه فيه  
معاوية رضى الله عنه الوصية لابنه يزيد إن الشئ القريب من الطبع يدل على إن  
توجيه هذا النوع من الوصايا ، يتم غالباً عندما يستشعر الشخص الموصى دنو أجله  
(١٠-١٢) .

ومع هذا فإن ما جاء من تأكيد على إن الخليفة معاوية لم يوجه وصيته لابنه  
يزيد مباشرة ، بل استودعها اثنين من أخلص رجاله ، هما الضحاك بن قيس

الفهرى الذى كان صاحب شرطته (١٣) ، ومسلم بن عقبة المرى (١٤) - أحد رجالات العرب اليمنية المشهورين فى الشام - على إن يبلغها ابنه يزيدًا الذى كان غائبًا وقتها خارج دمشق عندما مات والده معاوية ، يؤكد إن الخليفة قد فعل ذلك عندما استشعر دنو أجله فعلاً ، ومن هنا بعث فى الرجلين فأتياه ، فأبلغهما وصيته لابنه يزيد (١٥) . وبالفعل فما إن علم يزيد نبأ وفاة أبيه حتى عاد سراعاً إلى دمشق ، فتولى الخلافة على الفور بعد إن أدى إليه الضحاك بن قيس ومسلم بن عقبة وصية والده إليه . وفى هذا الصدد سنجد عند حديثنا عن القسم الآخر من هذه المعالجة ، أى التحليل ، إن ثمة قولاً آخر مفاده إن الخليفة معاوية بن أبى سفيان وجه وصيته لابنه يزيد مباشرة ، وهذا مبحث آخر يحتاج إلى توثيق ، ولعله بالتحليل الصق وأقرب .

### المصادر التى أشارت إلى الوصية :

الحق أننا مدينون للمؤرخ الكبير محمد بن جرير الطبرى - رحمه الله - الذى دلّنا على هذه الوصية بنصّها . ولقد جهدنا إن نجد لها أثراً عند المؤرخين الذين سبقوا الطبرى كخليفة بن خياط ، واليعقوبى فى كتابه المنسوب إليه كذلك، أى تاريخ اليعقوبى ، ثم صاحب الكتاب المنسوب خطأ للمحدث اللغوى: ابن قتيبة ، أعنى كتاب : الإمامة والسياسة (١٦) ، وهم ابرز الذين سبقوا الطبرى إلى التدوين التاريخى فى صورته الشمولية ، أى التى تؤرخ للأحداث والوقائع منذ بدء الخليقة، فتتناول التاريخ الإنسانى منذ آدم عليه السلام حتى عصر كل واحد منهم ، على نسق الحوليات ، أو تتناول التاريخ الإسلامى منذ بدايته . أقول جهدنا إن نجد للوصية أثراً عند هؤلاء المؤرخين المتقدمين عن الطبرى فلم نوفق (١٧) . نعم مدينون نحن إلى هذا المؤرخ العظيم - أى ابن جرير الطبرى - الذى بلغ به التدوين نهاية عمر التكوين والنشأة فى هذا النوع من الكتابة التاريخية الشاملة (١٨) ، ومن هنا سيكون اعتمادنا على ابن جرير الطبرى فى نقله للوصية بنصّها (١٩) معاً . أما من جاء بعد ابن جرير فمن أشار إلى الوصية ، فهو لاحق له ، وقد يكون عالمة

عليه، ولذا فلن نشير إلى روايته ، اللهم إلا عند توقفه - أى هذا المؤرخ - عند بعض نصوص الوصية مبدئياً رأياً ما ، كما فعل ابن كثير فى كتابه: البداية والنهاية، وهو الأمر الذى سننظر إليه بعين التجلّة والاحترام عند تحليل نصوص الوصية فى القسم الثانى ، وفق المنهج الذى رسمناه .

### الظروف المحيطة التى استدعت توجيه الوصية :

الحق إن الأمر بين يدل عليه العنوان ابتداءً ، ثم الموجبان الثانى والثالث من مقتضيات الدراسة النقدية . ولعلنا تفصل أكثر فنقول إنها - أى ظروف إملاء الوصية أو توجيهها - تعد إفرازاً طبيعياً لقضية أو مسألة ولاية العهد ليزيد ، القضية المشهورة التى يخيّل إلى الباحث إنها من القضايا التاريخية القليلة التى حظيت بأقوال وتعليقات وآراء ما انقطع سيلها منذ بدأت الكتابة التاريخية عن تلك الحقبة وحتى الآن .

زد على ذلك إنها من قضايا التاريخ الشامل للدولة الإسلامية ، إذ هى فاتحة هذا الشكل من أشكال الحكم فى الدولة الإسلامية كما لإخفاء (٢٠) .

أما موضوعها فلحمته وسداه : توضيح واقعى أو قل : تبصير واقعى بكيفية التعامل مع أولئك الذين خالفوا معاوية رضى الله عنه وعنهم فى رأيه فى تعيين ابنه يزيد ، أعنى أولئك نفر من أبناء الصحابة الذين كان لهم موقف من البيعة ليزيد، هو التأبى والإمتناع . وهذا التوضيح أو التبصير يكاد يشكل نصف مادة الوصية ، وينضاف إليه تحذير يمثل رؤية صائبة فى كيفية التعامل مع أهل بعض الأمصار فى خلافته أو إن شئت قلت : مملكته حسبما سنفصل لاحقاً فى التحليل إن شاء الله.

### نص الوصية عند أبى مخنف : لوط بن يحيى الأزدي :

قال الطبرى (٢١) : ( وفيها - أى سنة ستين - التى توفى فيها معاوية رضى الله عنه - عهد إلى ابنه يزيد حين مرض فيها ما عهد إليه فى نفر الذين امتنعوا عن البيعة ليزيد حين دعاهم إلى البيعة ، وكان عهده الذى عهده ما ذكره هشام بن محمد عن أبى مخنف ، قال : حدثنى عبد الملك بن نوفل بن مساحق بن مخرمة

إن معاوية لما مرض مرضته التي هلك فيها ، دعا يزيد ابنه فقال : يا بنى إنى قد كفيتك الرحلة والترحال ، ووطأت لك الأشياء ، وذلت لك الأعداء ، وأخضعتُ لك أعناق العرب ، وجمعت لك من جمع واحد ، وإنى لا أتخوف إن ينازعك هذا الأمر الذى استتب لك إلا أربعة نفر من قريش : الحسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبى بكر . فأما عبد الله بن عمر ، فرجل قد وقذته العبادة وإذا لم يبق غيره بايعك ، وأما الحسين بن على فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه ، فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه ، فإن له رحماً مأساةً وحقاً عظيماً ، وأما ابن أبى بكر فرجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم ليس له همّة إلا فى النساء واللهو . وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك الثعلب ، فإذا أمكنته فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير ، فإن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه إرباً إرباً .

### نص الوصية عند عوانة بن الحكم الكلبى :

قال الطبرى فى كتابه سالف الذكر ، أى تاريخ الأمم والملوك (٢٢) بعد إن أورد نص أبى مخنف مباشرة ، قال نقلاً عن هشام بن محمد نفسه ما نصه : "قال هشام قال عوانة : قد سمعنا فى حديث آخر أن معاوية لما حضره الموت ، وذلك فى سنة ٦٠ هجرية وكان يزيد غائباً ، فدعا الضحاك ابن قيس الفهرى وكان صاحب شرطته ، ومسلم بن عقبة المرى ، فأوصى إليهما فقال : بلغا يزيد وصيتى. انظر أهل الحجاز ، فإنهم أصلك فأكرم من قدم عليك منهم ، وتعاهد من غاب ، وانظر أهل العراق ، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل ، فإن عزل عامل أحبُّ إلى من إن تشهر عليك مائة ألف سيف ، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعييتك ، فإن نابك شئ من عدوك فانتصر بهم ، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم ، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم ، وإنى لست أخاف من قريش إلا ثلاثة : حسين بن على وعبد الله بن عمر ، وعبد



الله بن الزبير . فأما ابن عمر فرجل قد وقذه الدين فليس ملتمسًا شيئًا وأما الحسين ابن علي فإنه رجل خفيف وأرجو إن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه . وإن له رحمًا مأساةً وحقًا عظيمًا وقرابةً من محمد ﷺ . ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه ، فإن قدرت عليه فاصفح عنه ، فإنى لو أنى صاحبه عفوت عنه ، وأما ابن الزبير فإنه خب وضب فإذا شخص لك فالبد له إلا إن يلتمس منك صلحًا ، فإن فعل فأقبل ، وأحقن دماء قومك ما استطعت " .

### المقارنة بين النصين من حيث الشكل :

ها نحن أولاء إذن أمام روايتين للوصية اثنتين أشارا إلى الوصية وفق ما أرتاه أو صاغه كل واحد منهما ، ولا أريد إن أعجل بالقول - هنا على الأقل - : ووفق ميول كل واحد منهما كذلك ، فلعل الحديث عن هذه النقطة لما يحسن بعد . نلاحظ بادئ ذي بدء على الوصية بنصها أنها قصيرة موجزة ، وإن كان نص أبى مخنف : لوط بن يحيى أقصر من نص عوانة ، ويبدو لنا من خلال ما تميّزت به الوصايا كلون من ألوان النثر الأدبى (٢٣) إن الوصية إن تكون هكذا : قصيرة السطور ، وجيزة التعبير ، فذلك أدعى وأبلغ فى التأثير أو لنقل فى بث التأثير المطلوب .

وبالطبع فلا نستطيع أن نبني حكمًا على ذلك فنقول إن معاوية وهو يواجه الموت أراد لوصيته إن تكون هكذا ، إلا أن ما نريد قوله إن معاوية هُدى إلى هذا الأمر سليقةً وفطرةً كما يهتدى بعض الشعراء الذين لم يدسوا العروض أى الشعر الموزون المقفى : سليقةً وفطرةً .

وإذا ما تركنا الشكل الأدبى إلى الوصايا التاريخية التى نعرفها قبل عهد معاوية رضى الله عنه وبعده ، سنجد كذلك الطابع العام الذى يميزها هو : القصر . نحذا إليك مثلاً وصية الملك الفارسى أردشير إلى ابنه ، فهى وصية لم تزد عن بضعة



سطور (٢٤) ، ثم خذ إليك مثلاً وصية الخليفة أبى بكر الصديق رضى الله عنه  
لعمر بن الخطاب رضى الله عنه (٢٥) . وبعد معاوية خذ إليك مثلاً وصية الخليفة  
عبد الملك بن مروان إلى ابنه وولى عهده : الوليد ، إذ لم تزد عن بضعة سطور هى  
الأخرى (٢٦-٢٧) .

### المقارنة بين النصين من حيث المضمون :

على أننا نلاحظ بعد هذه الملاحظات الشكلية أن ثمة اختلافاً لا نقول يسيراً ،  
ينحصر فى الألفاظ والكلمات ، وإنما هو اختلاف جوهري فى المضمون بين  
النصين . فنص أبى مخنف فيه زيادة ونقص - معاً - عن نص عوانة بن الحكم . أما  
الزيادة فى نص أبى مخنف والتي خلا منها نص عوانة فهى المتمثلة فى الجزء الذى  
يشكل صدر الوصية ، أعنى تلك الأسطر التى ذكرها هشام بن محمد الذى أسند  
إليه الطبرى رواية الوصية بنصها حسبما هو واضح مما مر من إيراد النصين ، والتي  
قال فيها نقلاً عن أبى مخنف : " حدثنى عبد الملك بن نوفل بن مساحق بن عبد  
الله ابن مخزومة أن معاوية لما مرض مرضته التى هلك فيها ، دعا يزيد ابنه ، فقال :  
يا بنى إبنى قد كفيتك الرحلة والترحال ، ووطأت لك الأشياء ، وذلك لك  
الأعداء ، وأخضعت لك أعناق العرب ، وجمعت لك من جمع واحد " .

أما النقص فى النص أبى مخنف ، مقارنةً بنص عوانة ، فهو المتمثل فى ذلك  
الوصف الذى خص به معاوية رضى الله عنه أهل الحجاز والشام والعراق بما  
خصهم به ، إذا جاء النص الذى أسنده الطبرى إلى هشام بن محمد راوى نص  
عوانة حسبما مر من قبل على النحو التالى : " قال هشام ، قال عوانة : قد سمعنا  
فى حديث آخر أن معاوية لما حضره الموت وذلك فى سنة ٦٠ وكان يزيد غائباً ،  
فدعا الضحاك بن قيس الفهرى ، وكان صاحب شرطته ، ومسلم بن عقبة المرى  
فأوصى إليهما فقال : بلغا يزيد وصيتى ، انظر أهل الحجاز ، فإنهم أصلك فإكرم  
من قدم عليك منهم ، وتعاهد من غاب ، وانظر أهل العراق ، فإن سألوك أن

تعزل عنهم كل يوم عاملاً ، فافعل فإن عزل عامل أحب إلى من أن تشهر عليك  
مائة ألف سيف ، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعييتك ، فإن نابك شئ من  
عدوك ، فانتصر بهم ، فإذا أصبتهم ، فاردد أهل الشام إلى بلادهم ، فهم إن أقاموا  
بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم " .

يبقى بعد هذا إن نشير إلى موطن الاتفاق بين الرجلين ، فالحق إن الشبه جد  
واضح في الجزء المتصل بالتحذير أو التخويف الذي بثه معاوية روع ابنه يزيد من  
النفر الذين خالفوه من قريش في التأبى عن بيعة يزيد ، هذا الجزء الذي يحذر فيه  
معاوية ابنه من هؤلاء نفر الذين حددتهم وذكرهم له صراحة ، هو الذي التقى  
عنده الرجلان ، وهو الذي كان عرضة للدخل والاختلاق عند واحد من هذين  
الرجلين ، وقد تعمدا إرجاء ذكر اسمه حتى نأتى على تمام الملاحظات الأولية على  
النصين ، ثم نشرع في التحليل بعد . ولا تظل لنا وقفة بعد هذا الإطار إلا عند  
جزئيتين لانخال القارئ الكريم إلا قد فطن إليهما ، أولادهما تلك التي يمكن أن  
نُعبّر عنها بالقول : إنه مع الاتفاق بين الراويين على إن الوصية موجهة ليزيد وهو  
المعنى بها إلا إن الاختلاف وقع في هل وجهت ليزيد مباشرة أم نقلت إليه نقلاً ؟  
الثانية أننا نلاحظ إن راوياً واحداً أورد نصّ الوصيتين هو : هشام بن محمد الذي  
سنعرض له فيما بعد ، وبوسعنا أن نلاحظ إن ثمة اختلافاً يسيراً آخر في أن هناك  
شخصاً آخر أسند إليه أبو مخنف روايته فيما ذكره هشام بن محمد من حديث  
الوصية ، وهو عبد الملك ابن نوفل بن مساحق بن عبد الله بن مخزومة ، وسنقف  
عنده بعد إن شاء الله ، فيما خلت رواية عوانة من ذلك .

### مقتضيات رد أحد النصين سنداً :

وإذا استقام لنا الفراغ من حديث المقارنة بين النصين من حيث الشكل  
والمضمون علينا الشروع توجاً في حديث مقتضيات رد أحد النصين سنداً حسبما

ألزمتنا به أنفسنا ، على أن ذلك لا يستقيم له معنى ولا يطرد له قياس دون إن نقدم له بمحدث ضاف - بعض الشيء .

وقر في نفس الباحث شك مذ وقع بصره على نصيب الوصية في تاريخ الأمم والملوك للطبري مفاده إنَّ ثمة اختلافًا ووضعا داخل رواية أبي مخنف : لوط بن يحيى الأزدي ، فما يعرفه من أقوال علماء الجرح والتعديل والمؤرخين الثقات في أبي مخنف وإجماعهم على الرأي السئ فيه لا يفارق وعيه . هذا ، ومن نحو آخر فإن المادة التي أوردها أبو مخنف تبدو - فيما خلا صدر الوصية - مقززة منفرة فيها تطاول وقدح في حق الصحابة رضوان الله عليهم ، سواء أولئك الذين خالفوا معاوية في موضوع البيعة لابنه يزيد ، أو في حق معاوية رضى الله عنه نفسه - بيد إن الباحث وجد نفسه تجاه الراوى الآخر للوصية ، وهو : عوانة بن الحكم الكلبي ، في مأزق ، فرأى علماء الجرح والتعديل وأصحاب كتب التراجم والطبقات وبعض الفقهاء في عوانة غير بعيد عن رأيهم في أبي مخنف ، وإن لم يحكموا عليه تجريحا بمثل ما حكموا به على أبي مخنف ، ولكنه على كل حال متهم عندهم كذلك . ومن هنا بات الباحث في حيرة من الأمر ، أى النصين يعتمد في بحثه هذا ، أهو نص أبي مخنف أم هو نص عوانة ؟ ... نعم نستدرك هنا فنقول لما بقى من الصورة إن المادة التي أوردها عوانة عن النص لا يشتمل منها قدح أو مذمة في حق معاوية أو من خالفه من أبناء الصحابة ، وهذا أمر مهم للغاية ، كان الباحث وما يزال يضعه نصب عينه بل يسعى إليه .

على كل فلنعرض شخصية أبي مخنف بوصفه راويا وإخباريا على ميزان النقد العلمى ، وعلينا إن نعرض روايته على منهج المحدثين الذين حرروه لنا في منهجية علمية دقيقة رصينة ، خلص إلينا وفقها حديث رسول الله ﷺ صافيا نقيًا من شوائب الوضع والوضاعين ، أى منهج نقد الرواية سندًا ومتنًا . أقول فلنعرض شخصية أبي مخنف وروايته تلك على هذا المنهج الذى يقوم على نقد الرواية نقدًا

داخليًا ونقدًا خارجيًا أو ما يعرف بنقد السند والمتن (٢٨) ، وهو المنهج الذى غداً مطروحاً ومطلوباً من قبل فريق من المؤرخين والباحثين المحدثين فى تمحيص الرواية التاريخية ولاسيما فترة صدر الإسلام ، إلى التى تشمل العصر النبوى ، وعصر الراشدين والعصر الأموى ، وذلك من أجل تنقيح تاريخنا مما خالطه من الدخل والشوائب (٢٩) . أجل فلنعمل ذلك لنصل إلى الحقيقة - ما أمكننا الجهد وبلغتنا الطاقة - ثم نفعل الشئ ذاته مع عوانة ونصه ، ثم ننشئ فتعرض إلى هشام بن محمد ، وعبد الملك بن مساحق اللذين جاء ذكرهما فى النصين .

### التعريف بأطراف رواية الوصية :

قبل أن نعرض إلى أقوال العلماء فى أطراف رواية الوصية . علينا أن نعرف بأطراف الوصية الأربعة فى نصيها الواردين عند الطبرى . أمّا أبو مخنف : فهو لوط ابن يحيى بن سعيد بن مخنف بن سليم الأزدي ، المتوفى سنة سبع وخمسين ومائة للهجرة (٣٠) . يُعد أبو مخنف فى أوائل الإخباريين الذين اعتنوا بالرواية التاريخية تصنيفاً وتأليفاً ، ولقد تتبع أحد الباحثين مؤلفاته التى ألفها عن العراق بمخاطبة - وغيرها من الأقطار - بعامة كما تتبع جميع ما قيل عن أبى مخنف من حيث نشأته ومذهبه إلى غير ذلك (٣١) . ولعلنا هنا نكتفى بالإشارة إلى إنه شيعى المذهب بإجماع المؤرخين وعلماء الجرح والتعديل .

إما عوانة بن الحكم ، فهو عوانة بن الحكم بن عياض بن وزر الكلبي العلامة الإخباري ، أبو الحكم الكوفي الضرير ، أحد الفصحاء . له كتاب : التاريخ وكتاب سير معاوية وبنى أمية ، توفى سنة سبع وأربعين ومائة (٣٢) .

وأما هشام بن محمد ، فقد سرد لنا الذهبى ترجمته كذلك فى كتابه أنف الذكر أى : سير إعلام النبلاء (٣٣) ، فقال عنه : العلامة الإخباري النسابة الأوحى أبو المنذر : هشام بن الإخباري الباهر محمد بن السائب بن بشر الكوفي ، تصانيفه

جمّة ، توفى سنة أربع ومائتين على الصحيح . وأما عبد الملك بن نوفل الذى يصرح لوط بن يحيى بالقول أنه حدثه بخبر الوصية فهو : عبد الملك بن نوفل بن مساحق بن عبد الله بن مخزومة العامرى ، عامر قريش ، مدنى ، يكنى أبا نوفل (٣٤).

### أقوال العلماء فيهم :

وإذ فرغنا من التعريف بأطراف نقل خبر الوصية الأربعة فى نصيها معاً ، يحسن بنا إن نورد أقوال العلماء فى كل واحد منهم . أما أبو مخنف : لوط بن يحيى فقد قال عنه علماء الجرح والتعديل كلاماً مهماً فى تجريحه ، فهذا ابن أبى حاتم الرازى (٣٥) يقول عنه : متروك الحديث ، وهذا ابن عدى (٣٦) : - وهو رأس فى علم الجرح والتعديل - يقول عنه ما نصه : " حدث بإخبار من تقدم من السلف الصالحين . ولا يبعد منه إن يتناولهم وهو شيعى محترق صاحب أخبارهم ، وإنما وصفته للإستغناء عن ذكر حديثه " . وفى موضع آخر يقول (٣٧) : وله من الأخبار المكروه الذى لا استحباب ذكره ، ثم هذا الإمام المحقق الثبت شمس الدين الذهبى - وهو علم فى فن الجرح والتعديل - يقول عنه فى كتابه : ميزان الإعتدال (٣٨) : " إخبارى تالف لا يوثق به " . أما فى كتابه سير أعلام النبلاء (٣٩) فقد قال بعد إن ذكر عدداً من الذين سماهم ممن روا عنه ، قال ختماً لكلامه... وطائفة من المجهولين ، وهو من بابة (٤٠) سيف بن عمر التميمى (٤١) ، صاحب الردة ، وعبد الله بن عياش المنتوف (٤٢) وعوانة بن الحكم .

وإذ ما تركنا هذا نفر من علماء الجرح والتعديل الذين اكتفينا بهم من غيرهم من العلماء فى هذا الشأن إذا ما تركنا هؤلاء إلى الفقهاء ، لرأينا إن رأيهم فى أبى مخنف لا يقل جرحاً عن علماء الجرح والتعديل أولئك . فهذا ابن تيمية مثلاً يقول فى كتابه منهاج السنة (٤٣) فى معرض كتابه عن الشيعة : " وعلمائهم يعتمدون على نقل مثل أبى مخنف : لوط بن يحيى الأزدى ، هشام بن محمد



السائب وأمثاله من المعروفين بالكذب عن أهل العلم " . وفى كتابه الرد على البكرى (٤٤) يقول : " وأما جمهور المصنفين فى الأخبار والتواريخ والسير والفتن من رجال الجرح والتعديل ، فهم من هو فى نفسه متهم أو غير حافظ كأبى مخنف : لوط بن يحيى الأزدي ، وهشام بن محمد السائب الكلبي وإسحاق بن بشر (٤٥) وأمثاله من الكذابين " .

أما عوانة بن الحكم فلقد جهدت فى البحث عن ترجمة له فى مظانها المشهورة ، أى كتب الجرح والتعديل ، فلم أعثر على ترجمة له عندهم ، اللهم إلا ما سطره ابن حجر فى لسان الميزان (٤٦) من القول بأنه كان صدوقاً فى نقله . أما كتب التواريخ العامة وكتب التراجم فقد ترجم له ابن النديم فى الفهرست ، المقالة الثالثة ، الفن الأول (٤٧) ، وياقوت الخوى فى معجم الأدباء (٤٨) ، والذهبي فى سير إعلام النبلاء (٤٩) ، وكذلك كتابه العبر فى أخبار من غير (٥٠) ، ثم ابن العماد الحنبلى فى كتابه : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب (٥١) . وهذه التراجم جميعها متقاربة ، وبوسعنا إن نشير فقط إلى ترجمة الذهبى له فى كتابه آنف الذكر ، أى سير إعلام النبلاء (٥٢) ، ولا سيما وقد عُدنا إليه من قبل فى التعريف بعوانة ، فلقد قال بعد أن سرد لنا نسبه : ... أبو الحكم الكوفى الضرير ، أحد الفصحاء ، له كتاب سير معاوية وبنى أمية ، وغير ذلك . يروى عنه : هشام بن الكلبي ، وكان صدوقاً فى نقله قال محمد بن إسحاق النديم : توفى سنة سبع وأربعين ومئة وهناك قول بأن وفاته كانت سنة ثمان وخمسين ومائة حسبما ألمعنا إلى ذلك من قبل .

وأما هشام بن محمد السائب الكلبي فحسبنا إن نشير إلى ما ذكره الذهبى عنه فى ميزان الاعتدال (٥٣) ، فلقد قال عنه ما نصه : " قال أحمد بن حنبل : إنما كان صاحب سمر ونسب . ما ظننت إن أحداً يُحدّث عنه ، وقال الدار قطنى وغيره - متروك ، وقال ابن عساكر : رافضى ، وقال كذلك : وهشام لا يوثق به " .

وفى كتاب سير إعلام النبلاء (٥٤) ، قال الذهبى كذلك بعد أن ساق نسب هشام ، مما سبق لنا إن سردناه آنفاً ، قال : " ... أحد المتروكين كأبيه ... وتصانيفه جمعة بلغت مائة وخمسين مصنفاً ، وكان أبوه مفسراً ، ولكنه لا يوثق به أيضاً وفيه رفض كإبانه " .

وننتهى إلى الطرف الرابع فى الوصية ، أى عبد الملك بن مساحق لنقول إننا لم نوفق فى العثور على ترجمة له سوى التى أشرت إليها والتى أوردها ابن حجر العسقلانى فى كتابه : تقريب التهذيب (٥٥) التى أوردها فيها ذكر اسمه ونسبه . ونورد هنا قوله فيه : مقبول من الثالثة ، ويعنى بالثالثة الطبقة الثالثة من الرواة - بحسب ترتيبه هو للرواة - وهى الطبقة الوسطى من التابعين . وذكر إنه خرج له من أصحاب كتب الصحاح : أبو داود ، والنسائى . ويعنى ابن حجر بقوله مقبول ، أى من خلال المراتب التى عقدها للرواة ، يعنى تلك الطبقة التى ليس لها من الحديث إلا القليل ولم يثبت فيه ما يُترك حديثه من أجله فإليه الإشارة بلفظ مقبول " هى عبارة ابن حجر بنصها " حيث يتابع (٥٦) .

ونستدرك أخيراً فنقول إننا وجدنا اسمه ، أى عبد الملك بن نوفل بن مساحق فى الشجرة التى رسمها يحيى بن إبراهيم بن على اليمى فى كتابه : مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى - عصر الخلافة الراشدة - دراسة نقدية (٥٧) ، المار ذكره سابقاً . بيد أنه لم يشر إلى ترجمته .

وإذ فرغنا من حيث التعريف بأطراف رواية الوصية ثم أقوال العلماء فيهم ، علينا إن ننتهى تأسيساً على ما مر إلى القول بأن رواية أبى مخنف متهافئة واهية ساقطة سنداً ، إذ قد رأينا أى مكانة علمية لأبى مخنف : لوط بن يحيى ، وليس علينا من تثريب بعدئذ من القول إن أقوال العلماء أطبقت على تضعيفه فى الحديث وعلى تركه . وليست الروايات التاريخية بأفضل حالاً من الحديث . فلقد ناقش يحيى بن إبراهيم (٥٨) روايات أبى مخنف فى عصر الخلافة فقط ، حيث قُصر عليها

جهد فتبين له بعد مناقشة طويلة سقوطها وتهافتها . وللمناسبة فقد بلغت نحواً من أربعة وأربعين رواية . وهكذا فإن روايته لذلك النص ساقطة من حيث السند لا يعتد بها .

أما عوانة بن الحكم ، فإن حكم علماء الجرح والتعديل عليه وفيه لا يرقى إلى حكمهم على أبي مخنف . ولا بد إن أعيد هنا القول إننى لم أعتد له على ذكر فى كتب الضعفاء والمتروكين ، بل لقد رأينا ابن حجر يصفه بالصدوق فى كتابه لسان الميزان . ولئن كان الإمام شمس الدين الذهبى قد وضعه فى درجة مساوية لأبى مخنف وسيف بن عمر الصبى وعبد الله بن عياش المنترف . وذلك فى كتابه : سير إعلام النبلاء حسبما مر بنا سابقاً ، فإنه لم يفعل أو بمعنى أدق لم يترجم له فى كتابه النقدى الصارم : ميزان الاعتدال ، ثم إنه ذكر فى كتابه سير إعلام النبلاء نفسه فى سياق ترجمته لعوانة بأنه كان صدوقاً فى نقله (٥٩) .

ولئن قال ابن النديم (٦٠) وتابعه ياقوت الحموى فى معجم الأدباء (٦١) إنه كان عثمانياً يضع أخباراً لبنى أمية ، أى أنه كان ذا ميل للأمويين وأنه يتعصب لهم ولا سيما عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وهى قضية تدخل فى عداد قضية ميول الإخباريين وأهوائهم التى تعددت مشاربها بين مآرب نفسية طوراً ومآرب مذهبية طوراً ثانياً ومآرب إقليمية طوراً ثالثاً (٦٢) ، أقول لأن وصفه ابن النديم بما وصفه به ، فإننا نرى وجهة فى قول شاكر مصطفى (٦٣) فى مقارنته بين عوانة بن الحكم وبين أبى مخنف من حيث الرواية التاريخية ، إذ يرى إن عوانة روى وكتب كتباً عامة لا تتناول موضوعاً خاصاً ضيقاً ولكن أكثر سعة ، هى مطالعة التاريخ الإسلامى العام على خلاف أبى مخنف . ثم علل أسباب كتابته كتاباً عن بنى أمية عنوانه - سيرة معاوية وبنى أمية - بأن ذلك يعود إلى معرفة قوية بدخائل العهد الأموى بحكم كونه كلبياً أى من قبيلة كلب اليمنية التى ارتبطت بروابط متينة مع الأمويين فى أغلب فترات حكمهم (٦٤) . ولقد ذكر شاكر مصطفى - وليس ثمة

ما يدعو لمخالفته - إن ذلك لا يعنى أنه - أى عوانة - يتعصب للأمويين لذلك الارتباط ، بل لأنه لا يهمل الآراء المعارضة لهم ولا الروايات العراقية والمدينة فقد تبين له من التقصى فى بعض المصادر التاريخية وجود الكثير من النصوص لعوانة جاءت قوية مؤيدة للزبيريين(٦٥) وأخرى ضد الحجاج ، ونصوص أخرى مؤيدة للعلويين ، وأخرى ضد الكوفة .

يبقى أخيراً إن نؤكد هنا إن مقتضيات التحقيق هى وحدها التى فرضت علينا الإشارة إلى هشام بن محمد السائب الكلبي بوصفه الشخص الذى أسند إليه الطبرى رواية نصي الوصية عن أبى مخنف وعوانة ، وكذا الأمر فيما يتعلق بعبد الملك بن نوفل شيخ أبى مخنف . نقول هذا لحقيقة العلمية لتأخذ الدراسة النقدية حقها من الطرح ، دون إن ننحى عليهما بأى لائمة ، إذ يبدو إن التحريف والوضع - الذى ستكشفه الدراسة النقدية للمتن - يتحمل تبعته أبو مخنف : لسوط ابن يحيى الأزدي ، الذى أتضح للعلماء بجلاء تشيعه الشديد . هذا شئ والشئ الثانى إن تشيع هشام ابن محمد السائب الكلبي الذى أشار إليه عدد من علماء الجرح والتعديل حسبما مر بنا سابقاً ، لم يمنعه من رواية نص عوانة الذى يختلف عن نص أبى مخنف . والشئ الثالث إن عبد الملك بن نوفل بن مساحق وصفه ابن حجر - وهو رأس فى علم الجرح والتعديل - بأنه مقبول الرواية حسبما مر بنا سابقاً . هذا شئ ، والشئ الآخر أن عبد الملك بن نوفل كان معاصراً لمعاوية وروى عنه(٦٦) ، وليس يبعد إنه سمع خير الوصية أو رواها له أحد الرجلين : الضحاك أو مسلم بن عقبة المرى ، وقد توفيّا بعد معاوية بأربع سنوات، كما أن عبد الملك بن نوفل سليل بيت كانت له صلته الوثيقة بالبيت الأموى(٦٧) . ومن هنا لا نجد مبرراً لتقول عبد الملك على معاوية ، ولكن التحريف وقع من أبى مخنف ، فلا تثريب إذن من إسقاط رواية أبى مخنف سنداً .

## مقتضيات رد أحد النصين متناً :

الحقيقة إن المتن الذى سنفصل الحديث عنه وهو الذى يهدم - مع السند - رواية أبى مخنف ، يمثل الصورة الأوضح للتهافت والضعف والسقم الذى تميزت به بعض الروايات التاريخية التى لا كها نفر من الإخباريين الضعاف . ففى البدء يلتفت نظرنا خطأ أبى مخنف التاريخى المتمثل فى قوله : إن معاوية لما مرض مرضته التى هلك فيها ، دعا يزيد ابنه فقال : يا بنى ... إلخ . نقول خطأ تاريخياً ، لأننا وقد أجرينا استقصاءً واسعاً حول هذه النقطة تبين لنا خلالها إن يزيداً كان فى الوقت الذى اشتد المرض على معاوية وبات يتوقع حلول أجله المحتوم ، كان فى حوارين (٦٨) البعيدة عن دمشق ، ولقد نص على ذلك بعض ثقات المؤرخين من أمثال الذهبى وابن كثير وابن الأثير وغيرهم (٦٩) .

ثم إذا وقفنا عند الجزء الذى تشابه فيه النصان : نص أبى مخنف ونص عوانة ، وهو المتمثل فى التحذير من أولئك نفر من أبناء الصحابة رضى الله عنهم ، لرأينا أن ثمة خطأ تاريخياً ثانياً تميزت به رواية أبى مخنف . هذا الخطأ هو المتمثل فى قوله : إن معاوية رضى الله عنه حذر ابنه من أربعة نفر من قريش هم : عبد الله بن عمر ، الحسين بن على ، عبد الرحمن بن أبى بكر ، وأخيراً عبد الله بن الزبير . ومكان الخطأ يكمن فى ذكره لعبد الرحمن بن أبى بكر ضمن هؤلاء ، فالحقيقة أن الصواب هو ما ذكره عوانة بن الحكم فى روايته من أنهم ثلاثة نفر لا أربعة . وذلك لأن عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما - وهو ثالث الأربعة فى رواية أبى مخنف - كان قد توفى قبل معاوية بعامين ، أى أنه توفى على المشهور والأرجح سنة ٥٨ هـ . وهذا ما ذكره مؤرخو تراجم الصحابة رضى الله عنهم (٧٠) ، ثم هذا هو عينه ما لاحظته ابن كثير (٧١) الذى تدخل معلقاً بعد أن أورد نص أبى مخنف فبلغ فى الحديث هذه النقطة ، تدخل معلقاً فقال العبارة التالية: كذا قال ، يعنى كذا قال أبو مخنف ، ثم أردف قائلاً : والصحيح أن عبد



الرحمن كان قد توفى قبل موت معاوية بسنتين كما قدمنا . ويعنى ابن كثير بهذه العبارة ما كان قد تحدث عنه من ذكر وفيات بعض المشاهير سنة ٥٨ هـ ومنهم عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما .

ولسنا ندرى حقيقة سبب هذا الفعل من أبى مخنف ، لسنا ندرى هل يعود إلى غفلة غير مقصودة أوقعته فى هذا الخطأ التاريخى ، مع أنه شئ مثير للإستغراب أن يغيب عنه هذا ، والتدوين التاريخى كان آنذاك شديد الإهتمام بذكر وفيات الأعيان ؟ أم أن فى الأمر قصداً متعمداً لإظهار معاوية فى صورة تهيج عليه النفوس ، بالإشارة إلى أن ابن الخليفة الراشد الأول كان من الممتنعين على المعاوية . ولقد كان بالفعل من الممتنعين على معاوية مثل غيره من أبناء الصحابة رضى الله عنهم ، بل كان أكثرهم استياءً (٧٢) ، ولكن هذا لا يعنى أن يستغل أبو مخنف هذا لميوله المذهبية التى تدفعه إلى تهيج النفوس على معاوية وبنى أمية وأن يستغل هذه الواقعة التاريخية فىلوى ذراع الحقيقة ويحشر اسم رجل كان قد توفى قبل ظهور النص بعامين ، وهو الذى اقترن بوفاة معاوية .

وثمة خطأ تاريخى ثالث لا يقل فداحة عن هذا الخطأ بل يزيد عليه ، إذ نرى فيه صورة واضحة للإساءة للصحابة رضى الله عنهم . لقد تدخلت ميول أبى مخنف المذهبية فيه دون مراعاة ، إذ أن من الطبيعى أن يقف أبو مخنف موقف العداء من معاوية وإن يهيج النفوس عليه ، وإن تأتى عباراته ملتهبة قاسية مغلوطة لا تصيب معاوية وحده فحسب ، بل وبعض من جاء ذكرهم فى الوصية من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين . فأبو مخنف لم يكتف بالخطأ التاريخى الذى وقع فيه ، وهو جعله عبد الرحمن بن أبى بكر فى عداد النفر الذين حذر معاوية ابنه يزيد منهم ، ولكنه أورد قولاً على لسان معاوية فيه إساءة لمعاوية وعبد الرحمن معاً .

هذا القول هو الذى سبق لنا أن رأيناه فى نص أبى مخنف الذى يقول فيه معاوية : وأما ابن أبى بكر ، فهو رجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم ،

ليست له همه إلا في النساء واللهو . هنا نجد أبا مخنف يظهر عبد الرحمن بن أبي بكر رضى الله عنهما بمظهر الامعة الذى لا رأى له . ثم لم يكفه هذا ، بل زاد فوصفه بالمضياع المتلاف لهمته التى ما وسعت من الأمور إلا النساء واللهو .

ترى هل كان أبو مخنف وهو يورد هذه العبارة يريد أن يمرر هذا القول الظالم معتمداً على ما اشتهر من أمر تولع عبد الرحمن بن أبي بكر بابنة الجودى ، وهو الموضوع الذى أشار إليه بعض المؤرخين (٧٣) فظن أن ذلك ألزم لحجته ؟ الحقيقة أنه وإن تولع عبد الرحمن بن أبي بكر بابنة الجودى ، فقد انتهى به الأمر إلى النكاح الشرعى حيث كرمت عنده . ثم لم نعد نسمع شيئاً ما عن موضوع النساء . ثم لو كان على عبد الرحمن من لوم هنا لكان قد لامه عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ولكانت قد لامته أخته السيدة عائشة رضى الله عنها . لننظر ما قاله الذهبى (٧٤) هنا فى ترجمة عبد الرحمن بن أبي بكر : " كان أسن أولاد الصديق وكان من الرماة المذكورين الشجعان ، قتل يوم اليمامة سبعة من كبارهم ... وقد هوى ابنة الجودى وتغزل فيها بقوله ... فقال عمر لأمير عسكره إن ظفرت بهذه عنوة فادفعها إلى ابن أبي بكر ، فظفر بها فدفعها إليه ، فأعجب بها وآثرها على نسائه ... إلخ " .

ثم كيف يتهم عبد الرحمن بالأمعة ، بل كيف يتهم معاوية عبد الرحمن بالإمعة ، وهو الذى تصدى لمروان بن الحكم ، عامل معاوية على المدينة ، لما أخبره هو ونفر من أهل المدينة بعزم معاوية العهد لابنه يزيد تصدى له ، فقال معبراً عن استيائه : جعلتموها هرقليه أو قيصرية . كلما مات هرقل أو قيصر ، خلفه قيصر أو هرقل (٧٥) . وكرر هذا القول دون موارد لما جاء معاوية إلى الحجاز لأخذ البيعة لابنه يزيد ومقابلة نفر الذين امتنعوا عن البيعة له ، وفيهم عبد الرحمن ابن أبي بكر (٧٦) .

وننتقل إلى وصف معاوية الذى ذكره أبو مخنف أنه قاله فى حق الصحابى ابن الصحابى : عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما ، ثم تبدى فيه كما يتراءى لنا إساءة للرجلين معاً : معاوية وابن الزبير ، فى البداية لسنا نقصد عبارات : وأما الذى الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب ، وهما المعنيان اللذان درج العرب على أن يُشبهوا بعض الرجال بهاتين الصفتين المشهورتين عن الأسد والثعلب ، أى : الجثوم والمراوغة . الجثوم لزوم المكان وعدم مبارحته أو اللصوق بالأرض (٧٧) ، وهى ما اشتهر به الأسد (٧٨) ، والمراوغة : الاحتياذ بمنه ويسرة فى سرعة وخديعة (٧٩) ، وقد اشتهر بها بين الحيوانات الثعلب (٨٠) .

لسنا نقصد هذا ، ولكننا نقصد تلك العبارة التى يقول فيها معاوية ليزيد حسب رواية أبى مخنف : ... فإن فعلها بك أى خرج عليك فقطعه إرباً إرباً .

الإربُ فى اللغة : العضو ، وإرباً : قطع ، وإرباً إرباً : العضو قطعاً كاملاً كما الذبيحة التى تقطع إرباً إرباً : عضواً عضواً (٨١) . هذا من حيث اللغة ، ومن حيث المعنى السياسى لا يمكن لسياسى حصيف محنك مثل معاوية أن يطلب من ابنه مثل هذا المطلب . وهو الذى ما جُربَ عليه أن سفك دم أحد الصحابة قتلاً ، فقيما عدا حجر بن عدى (٨٢) وحادثته (٨٣) لا نملك دليلاً على قيام معاوية بالفتك بأحد الصحابة .

ثم أن معاوية رضى الله عنه مع معرفته بموقف عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما الراض لموضوع البيعة ليزيد بولاية العهد (٨٤) ، ومع إفصاحه عما يتميز به عبد الله بن الزبير من صفات سياسية (٨٥) لانظن أنه يحرض ابنه على قتل عبد الله بن الزبير ، حتى ولو امتنع عليه . ولعل الأولى أن يطلب منه تركه وشأنه - ما دام أن بيعته قد انعقدت شرعاً - كما فعل هو نفسه - أى معاوية - عندما ترك النفس الأربعة وشأنهم ، وإن كان قد أظهر للناس أنهم بايعوا (٨٦) . لقد كان فى وسع

معاوية أن ينصح ابنه باتخاذ نفس الموقف لو واجهه هؤلاء الصحابة رضى الله عنهم  
- ومنهم عبد الله بن الزبير - بموقفهم الراض .

ونخلص من هذا كله إلى القول بأننا سنعتمد رواية عوانة بن الحكم لملائمتها  
سندًا ومنتنا للواقع التاريخي من نحو ، ولما نعتقده يقينًا في الصحابة رضوان الله  
عليهم جميعًا من الخيرية والصلاح من نحو ثان (٨٧) ، ولما عرف عن معاوية رضى  
الله عنه من السجايا والخلال على رأسها الإغضاء والحلم والدهاء - التي دلت  
عليها سيرته وسلوكه من نحو ثالث ، فذلك " أدعى في حلس الخبر ومعرفة صحته  
من ضعفه " (٨٨) .

### التحليل

ولنمض الآن في تحليل وصية معاوية رضى الله عنه ، متحررين من تأثير أبى  
مخنف : لوط بن يحيى وروايته ، على أننا سنعود إليها بين الفينة والفينة للمقارنة  
بينها وبين نص عوانة ، ولكي يتأتى لنا ذلك يحسن بنا أن نجزئ نص عوانة إلى  
 فقرات عدة هي :

١ - قال هشام ، قال عوانة : قد سمعنا في حديث آخر أن معاوية لما حضره  
الموت وذلك في سنة ٦٠هـ ، وكان يزيد غائبًا .

٢ - فدعا الضحاك بن قيس الفهرى وكان صاحب شرطته ، ومسلم بن عقبة  
المرى ، فأوصى إليهما .

٣ - فقال : بلغا يزيد وصيتي : أنظر أهل الحجاز ، فإنهم أصلك فأكرم من قدم  
عليك منهم وتعاهد من غاب .

٤ - وانظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل فإن عزل  
عامل أحب إلى من تشهر عليك مائة ألف سيف .

٥ - وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعييتك فإن نابك شيء من عدوك فانتصر بهم ، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم .

٦ - وإنى لست أخاف من قريش إلا ثلاثة : حسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير .

٧ - فأما ابن عمر فرجل قد وقذه الدين ، فليس ملتصبا شيئا قبلك .

٨ - وأما الحسين بن على . فإنه رجل خفيف ، وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه ، وخذل أخاه ، وإن له رحما ماسة ، وحقا عظيما وقرابة من محمد ﷺ . ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه فإن قدرت عليه ، فاصفح عنه ، فإنى لو أنى صاحبه عفوت عنه .

٩ - وأما ابن الزبير ، فإنه خب وضب ، فإن شخص لك ، فالبدله ، إلا أن يلتمس منك صلحا ، فإن فعل فاقبل ، واحقن دماء قومك ما استطعت .

\* \* \*

ويخيل إلى أنه ليس هناك ما يقال بصدد الفقرة الأولى التى قال فيها الطبرى، قال هشام ، قال عوانة : قد سمعنا ... إلخ . أجل ليس هناك ما يقال عن هذه الفقرة ، فلقد سبق لنا التعريف بهشام بن محمد بن السائب الكلبي فى القسم الأول من الدراسة النقدية ، وكذا الشأن فيما يتصل بعوانة مما لا فائدة من إعادته . غير أن ما يلفت النظر هنا هو عبارة عوانة : قد سمعنا فى حديث آخر أن معاوية ... إلخ ، فهل هذا يعنى أن عوانة قد سبق له الإطلاع على نص أبى مخنف سابق الذكر ، فقال ما قال اعتمادا على مصدره الذى وثق فيه ؟ يتراءى لنا أن هذا هو ما توحى به هذه العبارة . على أننا نستغرب ألا يشير عوانة إلى الشخص الذى نقل عنه خير الوصية مثلما فعل أبو مخنف الذى اسند روايته لعبد الملك بن نوفل بن



مساحق . وبعيد جدًا أن يكون عوانة معاصرًا للأحداث وهو الذى توفى سنة ٤٧ هـ . فهاهنا انقطاع يصل إلى أكثر من قرن . ترى ما الذى يعنيه هذا . هل يعنى التقليل من قيمة الرواية لانقطاع السند مدة طويلة ولأن السند مجهول كذلك ، وهو الذى قل أن روى حديثًا مسندًا كما ذكر مؤرخو ترجمته (٨٩) ؟ ربما يكون الأمر كذلك ولكن هذا لا يقلل من روايته التى لها شاهد ، هو نص أبى مخنف نفسه . نرجو الا يبادر القارئ الاستغراب من قولنا هذا الذى ربما رأى فيه تناقضًا فالأمر ليس كذلك ، فنص أبى مخنف يؤكد فعلاً أن معاوية ترك وصية ، ولكن الاعتراض على أبى مخنف ينحصر فى التغيير والتبديل الذين أحدثتهما - مدفوعًا بميوله المذهبية كما يبدو - فى نص الوصية . ومن هنا شابه نص أبى مخنف عوانة فى عدة جوانب ، وخالفه فى جوانب أخرى . هذا هو كل شئ فيما يتراءى لنا .

وبعد هذا لا يبقى لنا ما نقوله عن هذه الفقرة سوى التذكير بأن سنة ٦٠ هـ ، هى السنة الى توفى فيها معاوية بإجماع مؤرخى ترجمته فى كتب التاريخ العام وكتب التراجم والطبقات ، ولم يشذ عنها مؤلف البتة بخلاف ذلك . وهذا القول يشمل كذلك عبارة : وكان يزيد غائبًا التى حققنا أمرها من قبل فى الدراسة النقدية ، تبين لنا أن هناك إجماعًا على أن يزيدًا كان غائبًا عن دمشق عند وفاة أبيه . وهذا هو نفسه ما عاد أبو مخنف فاشار إليه فى موضع آخر من روايته للأحداث التاريخية حسبما نقل عنه الطبرى ومن بعده ابن كثير (٩٠) .

ونمر بالفقرة الثانية مرورًا عابرًا وهى التى ذكر فيها عوانة أن معاوية دعا الضحاك بن قيس الفهرى صاحب شرطته ومسلم بن عقبة المرى فأوصى إليهما ، وذلك بالطبع لأنه قد سبق لنا التعريف بالضحاك ومسلم بن عقبة المرى فى الدراسة النقدية . هذا شئ والشئ الآخر أننا انتهينا بالأدلة والشواهد التاريخية إلى أن معاوية استودعهما الوصية مباشرة بخلاف ما جاء فى نص أبى مخنف من أن

معاوية بث الوصية روع ابنه يزيد مباشرة . وإذا استقام هذا فلنتقل إلى الفقرة الثالثة التى قال فيها عوانة عن معاوية للرجلين - الضحاك ومسلم - بلغا يزيد وصيتى : انظر أهل الحجاز فإنهم أصلك ، فأكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب .

إن هذه الفقرة - وماتبها من فقرات - لتؤكد دون ريب أى رجل كان معاوية . إنه وهو السياسى الذى عركته الأحداث والتجارب يعرف أن الحجاز مركز ثقل سياسى لا يُستهان به البتة ، كيف لا ، وهو موئل دولة النبوة والخلافة الراشدة ؟ كيف لا وهو : عش صحابة رسول الله ﷺ والتابعين لهم ، الذين ينظر إليهم أهل الأمصار الإسلامية الأخرى بالتجلة والاحترام ؟ . ثم إن معاوية يعرف ويدرك أنه ما وصل إلى ما وصل إليه من السلطان والنفوذ إلا بعراقتة الحجازية ، فهو القرشى المكى العبد منافى ، أى فى الذروة من بيوتات الحجاز . ومن هنا فليس فى الأمر غرابة أن يدل معاوية ابنه يزيد على البدهية ، وهى أن أهل الحجاز أصله ومعوله . ويزيد نفسه ليس فى حاجة إلى تذكيره بهذا . فهذه بدهية لا تستوقف أحداً ، ولكن الأب السياسى والأب الباحث عن الرحم ، والمقدر لها حق قدرها لا يرى من تثريب فى أن يؤكد على ابنه القول ، حتى وإن كان بدهياً مفروغاً منه . وللأمر اشباه ونظائر ، فالأب عندما يلح على إبنائه فى وصيته التى يتركها لهم على ضرورة التراحم وجمع الشمل ، مع أنه يعرف أن هذه أمور بدهية، فإنما يفعل ذلك زيادة فى التوثق(٩١) .

انظر أهل الحجاز ، فإنهم أصلك ، فأكرم من قدم عليك منهم ، وتعاهد من غاب . هذا هو ما كان يفعله معاوية مذ آلت إليه الخلافة أو إن شئت قلت الملك . لطالما كان يكرم من يقدم عليه من أهل الحجاز ، ولطالما بالغ فى ذلك مما كانت ألسنتهم تلهج به ، مما ذكرته لنا المصادر ورصدته ، ولطالما كان يتعاهد من غاب(٩٢) . وقصته مع عبد الله بن جعفر بن أبى طالب معروفة معلومة(٩٣) .

أجل هذا مايريده الأب من ابنه ، ثم إن شواهد التاريخ تدل على أن معاوية كان لا يسقط أهل الحجاز من حساباته السياسية بل كان حريصاً على ذلك . ومما يدل عليه أنه جاء بعد مضي سنوات من بدء خلافته التي نعرف أنها جاءت بعد أحداث عاصفة معروفة معلومة ، وفي وقت كانت الأمة ترى فيه أن هناك من هو أحق من معاوية بالأمر لمكانته وفضله وسابقته . جاء المدينة ليواجه الصحابة رضوان الله عليهم وأبناءهم بإلقاء بيان سياسى مهم جداً يوضح كل معطيات الموقف ، بل تضمن نظراته الإستشرافية للمستقبل (٩٤) .

دليل آخر أنه عندما عزم على الإعلان عن بيعته لإبنه يزيد ، حرص على أن يستمزج رأى أهل الحجاز ، وهم هنا - أهل المدينة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين ، فبعث إلى عامله مروان بن الحكم بذلك ، ودارت بينه وبين عامله الكتب عن مواقف أهل المدينة من البيعة . ولما تبين له أن ثمة ممانعة ، حرص على المجئ بنفسه إلى المدينة ، وهذا ما حدث فعلاً سنة ٥٦ هـ عندما جاء معتمراً ، فقابل النفر الذين امتنعوا عن البيعة ليزيد ، فناقشهم وناقشوه طويلاً (٩٥) .

ونلوى صعوداً نحو الفقرة الرابعة ، وهى التى يقول فيها معاوية ... وانظر أهل العراق ، فإن سألوكم إن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل ، فإن عزل عامل أحب إلى من أن تشهر ألف سيف .

رؤية أو فلسفة من فلسفات التاريخ السياسية عميقة أن تدع العاصفة تمر ، أو كما عبّر عنها معاوية بنفسه : طأطئ لها ثم فتجاوزك (٩٦) ، أجل لا تثريب من التراجع عندما يقتضى الأمر ذلك ، ولا غضاضة من مسaire الأحداث بحسب الواقع والزمان ، ولقد كان معاوية رضى الله عنه سيد هذه المواقف ، أليس هو صاحب المبدأ السياسى المشهور بشعرة معاوية (٩٧) ؟ وأليس هو نفسه الذى قال فيه وفى حقه الصحابى الجليل عبد الله بن عباس : قد عملت بم غلب معاوية الناس؟ كان إذا طاروا وقع وإذا وقعوا طار (٩٨) .

فمعاوية هنا يريد من ابنه أن يسمح للعاصفة أن تمر مادام أن هناك داعيًا لها. وملاحظة معاوية هذه لم تأت من فراغ ، فمعاوية الخبير بأحوال العراق ، القطر الهائج المائج آنذاك ، كان يقرأ الأحداث بعين يقظة مفتوحة . ينظر فيرى قطرًا هائجًا مائجًا على عمّاله . يرجع البصر كرة أخرى فيرى أن الخليفة العظيم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهو من هو ، يعزل عمالاً له في العراق لا لريبة فيهم ولا لشبهه . عمّال من أمثال سعد بن ابى وقاص الصحابى الجليل وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، أبى موسى الأشعرى وأبى هريرة ، يعزلهم ، وهو الخبير بهم وبعدهم ونزاهتهم . يفعل ذلك تهدئة للأحوال (٩٩) ، بل كان للفاروق عمر رضى الله عنه رأى مماثل فى عزل الولاة عن الكوفة بخاصة ، حتى لو اضطر الأمر إلى عزل عامل كل يوم (١٠٠) .

ومعاوية رضى الله عنه الذى وقف من الخليفة الراشدى الرابع على ابن أبى طالب رضى الله عنه وأرضاه ذلك الموقف الذى رصدته كتب التاريخ ، كان يعرف كم عانى رضى الله عنه من أهل العراق حتى ملّهم (١٠١) . ثم كم عانى هو نفسه - أعنى معاوية - وعمّاله من ثوارتهم من بعد في العراق كثيرًا (١٠٢) .

ثم إن معاوية الذى كان يحلم على الشخص يواجهه بكلام شديد لا يصمد له إلاّ الحليم من الرجال - وقد ذاع صيته بهذا ذبوعًا شديدًا (١٠٣) ، أليس بالحرى أن يكون حليمًا مع القطر ومع الرعية بصفة العموم ؟ .

هذه هى الرسالة التى أراد أن يوجهها لابنه ولولى العهد يزيد . أراد منه أن يكون سياسيًا ماهرًا لا يفلت الأمر من قبضته حتى لو استدعى الحال أن يعزل عن أهل العراق كل يوم عاملاً - وذلك بعيد - فليفعل ما دام الزمام بيديه . ثم تعال فانظر هذه العبارة ذات المغزى السياسى العميق : ... فإن عزل عامل أحب إلى من أن تشهر عليك مائة ألف سيف . حكمة بالغة . أن تعزل عاملاً هو بلاشك امر قد يوجد حالة من الاستقواء عند أهل ذلك القطر . فربما رأوا فيه دليل ضعف

النظام ولربما استمرعوا ذلك ، ولكن لأن الهدف أكبر والمضمون أعمق فلا ضير ان يلبي الحاكم الدعوة بعزل عامل (١٠٤) أو عاملين أو ثلاثة ، بل حتى كل يوم - وهو بعيد ، وإنما هو للمبالغة والتهويل ، إذا استدعى الأمر ذلك لئلا تعم الفوضى وتشيع البلبلة ، وترفع سيوف وتعلو رماح . فالعزل قضية فردية ، أما الشغب ، وأما الفوضى فجماعية ، ومن هنا لا ضير من فعل ذلك تهدئة للأحوال وسداً للذرائع .

وأخيراً يبدو أن عبارة : ... مائة ألف هذه حملت صيغة مبالغة . يبدو أنها كانت شائعة آنذاك في الشارع العام .. نطالع سيرة الأحنف بن قيس التميمي ، وقد اشتهر بالحلم هو الآخر ، فنجد في وصفه أنه إذا غضب غضب له مائة ألف لا يسألونه فيم غضب . ولعل المفارقة هنا أن قائل هذه العبارة هو معاوية بن أبي سفيان نفسه ، وقد قالها لخاصته من كبار رجال الدولة لما سأله عن هذا الرجل الذي يواجهه مواجهة شديدة ، فلا يملك معاوية إلا أن يدع العاصفة تمر (١٠٥) ، أوليس هو الذي يقول : إني لا أحول بين الناس وألستهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا (١٠٦) .

ويقودنا التحليل إلى الفقرة الخامسة التي يقول فيها معاوية لابنه يزيد : ... وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعييتك فإن نابك شئ من عدوك ، فانتصر بهم ، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم ، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم . هنا رؤية سياسية ثانية يهديها الأب إلى ابنه . على أننا قبل أن نتحدث عنها ، نود الوقوف عند المعنى اللغوي لكلمتي : البطانة والعيبة ، فالبطانة : أصفياء الرجل يكشف لهم أسرارهم (١٠٧) أما العيبة : فهي من الرجل موضع سره ، يقال فلان : عيبة فلان أي موضع سره (١٠٨) . إذن فالأب يطلب من ابنه أن يكون اعتماده على أهل الشام وحدهم ، لأنهم أثبتوا له طاعة عمياء ، وانقياداً تاماً . ولقد ذهبت الأمثلة بطاعة أهل الشام لمعاوية مذ جاءهم عاملاً على



بعض الشام ، حتى غدا خليفة أمضى معهم نحواً من أربعين سنة ألقوا إليه بعضا الطاعة وخبرهم : خبر نفسياتهم وعرف مدى إخلاصهم له ولأسرته (١٠٩) . من هنا يؤكد عل ابنه أن يجعل أهل الشام محل سره واهتمامه وأن يثق في وقوفهم إلى جانبه متى ما واجهه موقف ما ، وليثق بأنهم سيلبون نداءه ، فليوجههم إلى خصومه ، ثم يعيدهم إلى شامهم حتى لا تتغير أخلاقهم . ولسنا ندرى هل هناك حالات فردية أو جماعية دلت على ذلك ، أم هو التخمين والحدس فقط ؟ نقول هذا لأننا لم نعثر على دليل تاريخي يحدث فيه هذا الذي يخوف ابنه منه . لا ندرى ولكن ربما يكون الحس السياسى الرفيع عند معاوية هو الذى دفعه إلى هذا .

على أننا قبل أن نغادر الحديث عن هذه الفقرة نريد القول بأنه بنهايتها ينتهى المتن الذى اختلف فيه نص عوانة عن نص أبى مخنف . وهنا نريد أن نقف وقفة عند أبى مخنف لتساءل : لم أهمل أبو مخنف الوصف الذى وصف به معاوية أهل الأمصار الثلاثة : الحجاز والعراق والشام ، أهى رغبة فى بث صورة منفرة لمعاوية تهيج النفوس ضده فعمد إلى اظهار معاوية بمظهر العسوف المستبد ، ومن هنا أغفل هذه الرؤية السياسية الهادئة الصائبة ، وولج إلى وصف معاوية للرجال الذين خالفوه ، ثم سمح لنفسه بالتزيد هنا والتقصيص هناك ؟ لا ندرى ولكننا نجد قرينة ربما توضح ذلك ، هى التى جاءت فى صدر الوصية - برواية أبى مخنف بالطبع - أى تلك المتعلقة بالعبارات التى صدر بها أبو مخنف الوصية التى ساقها ، ربما للتدليل على عسف معاوية - من وجهة نظره هو - وهى : يا بنى إنى قد كنت إنى قد كفيتك الرحلة والترحال ووطأت لك الأشياء ، وذلت لك الأعداء ، وأخضعت لك أعناق العرب ، وجمعت لك من جمع واحد .

مع أننا لا ننكر أن فى بعض هذه الأسطر شيئا كبيرا من الصحة ، ولكن اعتراضنا على إهمال ذلك النص وإثبات هذه الأسطر وحدها . وننهى الحديث عن

هذه الفقرة بالتذكير بأن هذه الأسطر السالفة هي التي خلا منها نص عوانة بن الحكم حسبما ألمحنا إلى ذلك فى النقد .

ونسير مع الوصية فى فقرتها السادسة ، وهى التى يقول فيها معاوية لابنه : ... وإنى لست أخاف من قريش إلا ثلاثة : حسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير . الحقيقة أن هذه الفقرة لن تستوقفنا طويلاً ، فلقد سبق لنا القول بأن هذه الفقرة ، هى فاتحة التشابه بين نص عوانة ونص أبى مخنف ، ثم تليها الفقرات الثلاث الأخريات ، لكن ما لم نقله آنذاك أن الفقرات الأربع هذه وإن تشابهت فى النصين إلا إن التشابه ليس متطابقاً فيها جميعاً ، إذ ثمة اختلاف يسير بين رواية عوانة وأبى مخنف . وهكذا فإنه فيما يتصل بهذه الفقرة السادسة من نص عوانة نلاحظ أن ثمة اختلافاً بينها وبين الفقرة المماثلة فى نص أبى مخنف . فأبو مخنف يقول : ... وإنى لا أتحوف أن ينازعك هذا الأمر الذى استتب لك إلا أربعة نفر من قريش : الحسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبى بكر . وفى الحين الذى جاء نص عوانة يقول : إنى لست أخاف من قريش إلا ثلاثة ، جاء نص أبى مخنف بزيادة انحصرت فى أمرين هما : الإشارة بالقول إلى أنه لا يتخوف أن ينازعه الأمر الذى استتب له ، ثم الإشارة إلى أنهم أربعة نفر . ولقد أكدنا فى النقد أن الصواب أنهم ثلاثة لا أربعة كما زعم أبو مخنف .

وإذ وضح هذا فلنمض نحو الفقرة السابعة التى يقول فيها معاوية لابنه يزيد بعد أن ذكر له الثلاثة نفر الذين يخافهم عليه : ... فأما ابن عمر ، فرجل قد وقذه الدين فليس ملتصقاً قبلك . فى البدء لابد من الإشارة إلى أن ثمة اختلافاً يسيراً كذلك بين نص عوانة وهذا نص أبى مخنف . فأبو مخنف يقول : ... فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة ، وإذا لم يبق غيره بايعك .

وإذا تركنا هذا فلنمض في تحليل فقرة عوانة . المعروف فعلاً أن عبد الله بن عمر والحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر قد امتنعوا عن البيعة ليزيد في حياة أبيه معاوية ، ولئن غيب الموت عبد الرحمن بن أبي بكر قبل أن يصدر معاوية وصيته لابنه يزيد فإنه ما زال يستشعر الخطر على ابنه من مواقف هؤلاء الثلاثة النفر من سادة الصحابة . على أنه يطمئن ابنه يزيد من ابن عمر الصحابي ابن الصحابي ، وهو الرجل الذي وقذه الدين ، أي غلبه . وهو المعنى اللغوي لعبارة وقذه (١١٠) الدين ، وهذه حقيقة فلقد انصرف ابن عمر رضى الله عنهما إلى الدين والعبادة بكلية ، وكثيرة هي المواقف التي وضع فيها زهده رضى الله عنه في المناصب والسلطان (١١١) . ومعاوية بتفهمه لنفسيات الرجال إدرك أن ابن عمر الذي غلبه الدين والعبادة لن يكون له خطر على يزيد ، وربما يريد الأب من ابنه أن يحرص على عدم استعداد هذا الرجل كبير الشأن عند المسلمين (١١٢) .

وننتقل بعد هذا إلى الفقرة الثامنة من نص عوانة التي يقول فيها : وأما الحسين بن علي فإنه رجل خفيف ، فأرجو أن يكفيك الله بمن قتل أباه وخذل أخاه ، وإن له رحماً ماسة وحقاً عظيماً وقرباً من محمد ﷺ . ولا أظن أن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه ، فإنى لو أنى صاحبه عفوت عنه .

لا بد لنا من التذكير كذلك إلى أنه على تشابه هذه الفقرة مع الفقرة المماثلة من نص أبي مخنف إلا أن ثمة اختلافاً كذلك بينهما ، فقرة أبي مخنف : .. وأما الحسين بن علي فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه . يلاحظ هنا أنه على التطابق في ذكر حدس معاوية من تأثير أهل العراق في الحسين في موضوع الخروج ، فإن هذا الحدس جاء في صدر فقرة أبي مخنف ، في حين جاء عند عوانة في آخر الفقرة . هذا شيء والشئ الآخر أن هناك تطابقاً في موضوع الرحم والحق العظيم للحسين ، وكذلك موضوع الصفح . ويبقى بعد ذلك الإشارة إلى الزيادة

فى نص عوانة ، وهى المتمثلة فى قول معاوية عن الحسين ، فإنه رجل خفيف وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه ، ثم زيادة جملتين وهما ... وقرابة من محمد ﷺ ، وكذلك : فإنى لو أنى صاحبه عفوت عنه . هذا من ناحية الشكل ، فإذا دلفنا نحو تحليل فقرة عوانة ، لرأينا معاوية يخوف ابنه يزيد من خروج الحسين بن على رضى الله عنهما عليه ، ومامن شك إن الحسين رضى الله عنه لم يكن راضياً عن بيعة يزيد وترجم ذلك فى الموقف الذى وقفه هو وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن ابن أبى بكر من هذا الموضوع وجاهرُوا به معاوية (١١٣) .

ومعاوية هنا يرمى فنيين مخاوفه من أن الحسين رضى الله عنه ربما خالف يزيداً وخرج عليه ومع توقعه من أن شيئاً من ذلك قد يحدث إلا أنه يطمئن ابنه أن أهل العراق سوف لن يعضوا طويلاً فى تأييدهم للحسين . ولقد ساق إليه موقفين سابقين لأهل العراق مع على بن أبى طالب والد الحسين ، والحسن بن على أخيه ، وكلاهما يوضحان مواقف أهل العراق منهما (١١٤) . فمعاوية هنا يطمئن ابنه بأنه حتى لو حدث شئ من ذلك فلا يجزع . ولكن الأهم عند معاوية أن يرعى يزيد حق الحسين وصلته بالرسول الكريم محمد بن عبد الله ﷺ ثم يُشدّد عليه بأن يصفح لو حدث شئ مما يتخوفه ، ويؤكد عليه أنه لو حدث هذا فى أيامه هو ، فإنه سيبادر إلى الصفح إرعاء لحق الحسين ورحمه . ونختم بالقول إن هذا ليس بمستغرب من معاوية ، فالرجل يعرف من هو الحسين بن على ، ثم أنه يرى وهو السياسى المخنك إن الحكمة كل الحكمة والخنكة كل الخنكة تكمن فى تجاوز الأمر ، فباليت يزيداً فعل هذا فى تلك الأحداث المعروفة المعلومة .

ونخلص إلى الفقرة التاسعة والأخيرة التى يقول فيها معاوية لابنه يزيد : ... وأما ابن الزبير ، فإنه خب وضب ، فإذا شخص لك فالبدله إلا إن يلتمس منك صلحاً فإن فعل فأقل واحقن دماء قومك ما استطعت .

وقبل أن نمضى فى تحليل الفقرة لابد إقتضاء لما سرنا عليه - من ملاحظة الفروقات بين فقرة عوانة وفقرة أبى مخنف ... ففقرة أبى مخنف تقول فى موضوع عبد الله بن الزبير : ... وأما الذى يثبت لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فإذا أمكنته فرصة فذاك ابن الزبير ، فإن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه إرباً إرباً. يلاحظ فرقاً واضحاً من حيث الشكل ومن حيث المضمون ، وإذا كنا قد فندنا هذه الفقرة مضموناً فى النقد فإن مما لا فائدة منه إن نبحث عن التشابه بين الفقرتين من حيث الشكل ، فالفرق بينهما جد واضح . على كل حال فلندع هذا ولنمض فى تحليل فقرة عوانة . فى البدء يصف معاوية لابنه يزيد ، عبد الله بن الزبير بالخب والضب . أما الخب فى اللغة فهو خَبٌّ خَبًّا : خدع وغش ، فهو خَبٌّ (١١٥) . وأما الضب فإن من معانية : الحقد والغيط الكامن فى الصدر ، ويقال رجل خب ضب : مراوغ خداع (١١٦) . وإذا ما تركنا هذا المعنى اللغوى لكلمتى : الخب والضب إلى التحليل ، لقلنا إنه سبق لمعاوية أن وصف عبد الله بن الزبير بهذا الوصف (١١٧) وكأنه كان يتحسس إن ابن الزبير رضى الله عنه سيكون له موقف مشهود من يزيد ، لذا طلب منه أنه إذا شخص إليه ، أى خرج عليه كما هو معنى الكلمة اللغوى (١١٨) فاليلبد له أى : فاليلصق به إلصاقاً شديداً ، وهو المعنى اللغوى لكلمة : لَبَدَ (١١٩) .

إن معاوية يحذر ابنه من ابن الزبير تحذيراً واضحاً فيدعوه إلى عدم التهاون فى الأمر اللهم إلا إن ينجح إلى الصلح ، فإن فعل فليقبل منه ذلك وكأنه يشدد عليه فى هذا ، وهو ما تدل عليه عبارة : وأحقن دماء قومك ما استطعت . نعم إنه معاوية الذى نعرفه صاحب السياسة الهادئة وصاحب المواقف التى تتفاوت : رغبة ورهبة ، الميالة إلى الإغضاء والتسامح ، هذا هو الدرس الذى طلب من ابنه أن يعيه ويحتذيه مذكراً أياه بضرورة الحرص على الدماء من أن تسفك بكل ما



أوتى من سعة صدر ورحابه فؤاد ، وشتان بين فقرة عوانة وفقرة أبى مخنف القاسية الملتهبة .

\* \* \*

وبعد فهذه هى وصية معاوية لابنه وولى عهده يزيد ، وقد أخضعناها للدراسة النقدية والتحليلة . ولعل القارئ يلحظ أننا سرنا بحذر شديد - وهذا ما نحسبه إن شاء الله - فى كل ما يتعلق بأراء الصحابة : معاوية والنفر الذين امتنعوا عليه فى بعضهم بعضاً ، فعلنا ذلك لئلاً نزل قدم بعد ثبوتها . وهذا هو المطلوب من المسلم أن يمسك عما شجر بين الصحابة ، وعن آرائهم فى بعضهم ( ١٢٠ ) بعضاً . هذا شئ والشئ الآخر لعل القارئ لاحظ كذلك أننا ركزنا جهدنا على تحليل الوصية فى فقراتها المختلفة داخل إطار عهد معاوية وحده دون أن نقف عند عهد يزيد والأحداث التى وقعت خلاله ، والدور الذى اضطلع به كل من الحسين بن على رضى الله عنهما ، وعبد الله بن الزبير رضى الله عنهما فى تلك الأحداث . ذلك لأن الموضوع يخرج بنا عن الهدف الأساسى للدراسة النقدية لوصية معاوية .

## الهوامش والتعليقات

(١) تشكل الوصايا - جمع وصية - محوراً أو غرضاً مهماً من فنون الأدب وبحسب القارئ أن يلقي نظرة فاحصة على المؤلفات التي عاجلت قضايا الأدب وفنونه ليجد الوصايا تمثل مكاناً رفيعاً في تلك المؤلفات . وهي - أي الوصايا - بشتى نواحيها : الدينية والأسرية والسياسية ، تشكل هذا المحور ، أو اللون الأدبي . ولعل تعريفها الإصطلاحي الأدبي يشي بذلك ، فهي : قول يراد به الترغيب فيما ينفع وعما يضر ، وتكون لقوم معينين في زمن معين كوصية الرجل لأهله عند النقلة أو الموت .

انظر للدلالة على اندراج الوصايا ضمن قضايا الأدب أو فنونه مثلاً : أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربي ، منشورات دار نهضة مصر ، القاهرة ، الطبعة الخامسة والعشرون - الفهرس ، وعن التعريف الأدبي الإصطلاحي للوصايا ، انظر ص : ١٨ - ١٩ .  
صادر ، بيروت ، ١٩٥٥ م ، ١٥ مجلداً ، المجلد ١٥ ، ص : ٣٩٤ .

(٢) يقول ابن كثير (ت : ٧٧٤هـ) : البداية والنهاية ، منشورات دار الفكر ، طبعة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨ م ، ٧ مجلدات ، ١٤ جزءاً ثم مجلد للفهارس . المجلد الرابع ، الجزء الثامن ، ص : ١٦ - ١٧ ، ١٣٥ يقول : والسنة أن يقال لمعاوية رضي الله عنه : ملك ولا يقال له خليفة ، لحديث سفينه مولى رسول الله ﷺ الذي رواه عنه ﷺ وهو : خلافة النبوة ثلاثون سنة ، ثم يؤتى الله الملك من يشاء ، والمعلوم أن الرسول ﷺ توفي سنة إحدى عشرة من الهجرة في شهر ربيع الأول ، وتنازل الحسن بن علي لمعاوية عن الخلافة في شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين " الذي عُده عام الجماعة الأول " ، فكان ذلك كمال الثلاثين سنة لخلافة النبوة ، وهو من دلائل نبوته ﷺ .

(٣) عن وصايا الخلفاء الراشدين لمن سيخلفهم ، انظر مثلاً : رفيق العظم : كتاب أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة " سيرة الخلفاء الراشدين ومن اشتهر في دولتهم " منشورات دار الرائد العربي ، بيروت ، ط ٦ ، ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣ م ، مجلدان ، ٤ أجزاء ، الجزء الأول : ص ١٣٥ حيث الإشارة إلى وصية أبي بكر الصديق لعمر بن الخطاب خليفته من بعده ، الجزء الثاني ، ص : ٤٧٩ حيث الإشارة إلى وصية الصديق لمن يخلفه دون تحديد للاسم .

(٤) نشرته دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠ م ، والجملة المستقاة من الكتاب وردت في ص : ٢٨ .

(٥) ليس بإطلاق - كما لاختفاء - فقد يحل بالخليفة عارض من مرض أو موت ، أو يحدث فى الإسلام حدثاً يوجب خلعه أو عزله .

عن الخلافة وشروطها المعتبرة . والصفات المعتبرة واجبة التوفر فى الخليفة ، انظر الماوردى ( ت : ٤٥٠ هـ ) : الأحكام السلطانية ، عنى بتصحیح السيد محمد بدر الدين النعسانى الحلبي ، ط ١ ، ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ ، ص : ٦-٨ ، ١٨ ، ٢١ .

(٦) يكفى أن تقف عند مؤرخ قديم واحد هو الذهبى وباحث محدث هو : هو محمد منير الغصبان الذ كتب كتاباً بعنوان : معاوية بن أبى سفيان صحابى كبير وملك مجاهد ، سعى فيه إلى أن يسير على منهج المحدثين فى نقد الرواية سنداً ومتناً . أقول يكفى أن نشير إلى هذين المؤلفين لنرى كثرة النصوص الدالة على حنكة ودهاء معاوية من خلال أقواله وأفعاله .

(٧) ابن كثير : البداية والنهاية ، مجلد ٤ ، ج ٨ ، ص : ٢١ ، ١١٨ ، ١٢٤ حيث التأكيد على ولايته لدمشق فقط .

(٨) ابن كثير نفس المصدر والمجلد والجزء أعلاه ، ص : ١٢٤ ، حيث التأكيد على أنه تولى الشام كلها فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه .

(٩) ابن كثير : نفسه ، ص ٢١ حيث الإشارة إلى أن توليه الخلافة سنة ٤١ هـ ، ص : ١٣٦ ، ١٤٣ حيث الإشارة إلى وفاته سنة ٦٠ هـ .

(١٠-١٢) لاتنفرد الوصية السياسية بهذه الخصيصة ، بل تشترك معها الوصية الشرعية فى ذلك ، ومن المعروف أن الوصية مشروعة ابتداء ، ومشروعة أكثر فأكثر عند الموت ، وهناك نصوص قرآنية ونبوية طافحة بهذا النذب الشرعى ، المرجع السابق ، المجلد الثالث ، ص ٤١٤ - ٤٢٢ .

من ذلك الوصية التى وجهها الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور قبل وفاته لابنه وقد توفى المنصور سنة ١٥٨ هـ ، وهى السنة التى كان قد حج فيها ، وعن هذه الوصية وظروف توجيهها ، انظر الطبرى ( ت : ٣١٠ ) : تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، منشورات التراث العربى ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧ م ، ١٠ أجزاء ، الجزء الثامن ، ص ١٠٢ - ١٠٤ .

ومن ذلك أيضاً الوصية التى وجهها المنصور بن أبى عامر لابنه عبد الملك ، انظر ابن بسام الشنترينى ( ت : ٥٤٢ هـ ) : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس ، منشورات دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ط ١ ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ، ٤ أقسام ويقع فى كل قسم مجلدان ، القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص : ٧٦ - ٧٨ حيث الإشارة إلى الظروف المحيطة التى أملت على المنصور توجيه وصيته لابنه عبد الملك مباشرة .

(١٣) الضحاك بن قيس بن خالد الفهرى . قال البخارى : له صحبة ، وكان ذا خاصة بالخليفة معاوية بن أبى سفيان ، وتولى له ولاية بعض المدن بالإضافة للشرطة ، قتل فى موقعة مرج راهط التى حدثت سنة ٦٤ أو ٦٥ للهجرة بين أنصار عبد الله بن الزبير وأنصار مروان ابن الحكم .

راجع ابن حجر : الإصابة فى تمييز الصحابة ، القسم الثالث ، ص : ٤٧٩ . كذلك راجع ابن كثير : نفسه ، ص : ٢٤١ وما بعدها .

(١٤) مسلم بن عقبة بن رباح المرى " وعند ابن كثير : المزنى " أبو عقبة ، قائد من القادة القساة الفتاك فى عهد يزيد بن معاوية ، وكان مع معاوية من قبل فى معركة صفين ، عهد إليه يزيد بقيادة الجيش الأموى الذى وجهه لأهل المدينة الذين خرجوا عليه ، فجاء فخاض مع أهل المدينة الواقعة المشهورة المعروفة بموقعة الحرة سنة ثلاث وستين للهجرة . انظر الزركلى : الإعلام - تراجم الرجال النساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، منشورات دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٥ ، ١٩٨٠م ، ٨ مجلدات السابع ، ص : ٢٢٢ .

(١٥) انظر نص الوصية عند الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، الجزء الخامس ، ص : ٣٢٢ ، حيث الإشارة الصريحة إلى أن معاوية لما حضره الموت ، وجه وصيته لابنه يزيد ، الذى كان غائباً عن دمشق وقتها .

(١٦) أبو محمد : عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٨٦هـ ، عالم لغوى محدث فوق كونه مؤرخاً . له العديد من الكتب المهمة كعيون الأخبار ، والمعارف ، وأدب الكاتب ، ومشكل القرآن ، وكتاب مختلف الحديث انظر : عبد الحميد سندی الجندى : ابن قتيبة العالم الناقد الأديب ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومى للتأليف والترجمة والطباعة والنشر تحت إعلام العرب ( رقم ٢٢ ) القاهرة ، ١٩٦٣م ص ١٦٩ - ١٧٣ ، ثم انظر كذلك : عبد الله عبد الرحيم عسيلان : كتاب الإمامة والسياسة فى ميزان التحقيق العلمى ، منشورات مكتبة الدار ، المدينة المنورة ، ط ١ ، ١٤٠٥هـ .

(١٧) نستدرك هنا فنقول : نعم وجدت عند أبى حنيفة الدينورى ، صاحب الأخبار الطوال ، المتوفى سنة ٢٨٢هـ إلا أنه أوردها - أعنى الوصية - متداخلة فى نصيها ، أى نص أبى مخنف ، ونص عوانة بن الحكم مع إسقاط السند .

انظر الدينورى ( ت : ٢٨٢هـ ) : الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر وجمال الدين الشيال ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومى - الإدارة العامة للثقافة ، القاهرة ، ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م ، ص : ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(١٨) انظر ، شاكِر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون - دراسة فى تطور علم التاريخ ومعروفة رجاله فى الإسلام ، منشورات دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨٣ م جزءان ، الجزء الأول ، ص : ٧٤ وما بعدها وكذلك انظر محمد الزحيلي : الإمام الطبرى شيخ المفسرين وعمدة المؤرخين ومقدم الفقهاء المحدثين ، صاحب المذهب الجريرى ، منشورات دار القلم ، دمشق ، بحث فى سلسلة أعلام المسلمين ( رقم ٣٣ ) ط ١ ، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م .

(١٩) يورد الذهبى فى أعلام النبلاء ، ج ٣ ، ص ١٥٩ فى معرض سياق ترجمة معاوية رضى الله عنه يورد نصاً من ٣ أسطر ، عن وصية أخرى لمعاوية تختلف اختلافاً كبيراً عن الوصية التى نعينها بنصها معاً ، وذلك نقلاً عن الواقدى ، ولكن هذه الوصية لم يشر إليها أحد من المؤرخين الكبار على خلاف الوصية التى أخضعناها للدراسة النقدية والتحليلية التى أشار إليها عدد من كبار المؤرخين حسبما بيّنا فى المتن . أخيراً يورد الذهبى فى نفس ترجمته لمعاوية ، ص : ١٦٠ نصاً يفهم منه أن معاوية رفض أن يوصى . وهذا خلاف المشهور .

(٢٠) الواقع إننا لسنا معنيين هنا مباشرة بالحديث عن عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان لابنه يزيد بالخلافة . وهى القضية التى أفرزت مسألة ولاية العهد لأول مرة فى التاريخ الإسلامى ، كما أننا لسنا معنيين بمناقشة الأقوال التى دارت حول فعل معاوية رضى الله عنه ، والموقف منه ، ويكفى أن نشير إلى أن ثمة أقوالاً ، دارت حول هذه القضية بين معترض عليها وبين مؤيد لها ، وفريق - وهم علماء الأمة ومؤرخوها الثقات - ذكروا أن معاوية رضى الله عنه كان فيها مجتهداً . وللوقوف على هذه الأقوال يكفى أن نحيل القارئ إلى كتاب : تحذير العبقري من محاضرات الخضرى أو إفادة الأخبار ببراءة الأبرار لمحمد العربى التبانى الذى نشرته دار الكتب العلمية بيروت ط ٢ ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م فى جزئين ، الجزء الثانى ، ص : ١٨٩ - ٢٠٠ حيث الإشارة إلى التحقيق الأصولى لهذه القضية وكذلك راجع محمد منير الغضبان : معاوية بن أبى سفيان - صحابى كبير وملك مجاهد ، ص : ٣٠٨ - ٣٢٠ ، وفيها تحقيق تاريخى وأصولى جيد فى معظمها .

(٢١) تاريخ الأمم والملوك ، الجزء الخامس ، ص : ٣٢٢ .

(٢٢) نفسه ، ص : ٣٢٢ - ٣٢٣ .

(٢٣) راجع تعريف الوصية فى الأدب ، قبل ، ص : ٣٩ ، حاشية (١) .

(٢٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، المجلد الأول ، الجزء الأول ص : ١٧١ .

(٢٥) رفيق العظم : أشهر مشاهير الإسلام فى الحرب والسياسة ، ج ١ ، ص : ٨٣٥

ج ٤ ، ص : ٤٨٩ .



(٢٦) ابن كثير : نفسه ، ص : ٦٧ .

(٢٧) ابن كثير : نفسه ، ص : ١٨٢ .

(٢٨) عن الرضع والوضّاعين ، وعن هذه المنهجية العلمية الأصيلة التي أهداها المسلمون إلى مسيرة الحياة العلمية بخاصة ، والحضارية بعامة ، وما اقتضاه ذلك من نشوء علمي مصطلح الحديث ، والجرح والتعديل ، انظر مثلاً :

مصطفى السباعي : السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ، منشورات المكتب الإسلامي ، بيروت - دمشق . ط ٤ ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، الفصول ٢، ٣، ٤، ٥ ، ص : ٧٥ - ١٣٢ - صبحي الصالح : علوم الحديث ومصطلحه ، منشورات دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ١٥ ، ١٩٨٤ ، ص ٢٦٣ - ٢٧٣ - أحمد أسين : فجر الإسلام ، منشورات دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ١٠ ، ١٩٦٩ م ، ص : ٢٠٨ - ٢١٩ ، ٢٢١ - ٢٢٤ .

(٢٩) الدعوة إلى إعادة صياغة التاريخ الإسلامي وفق قواعد المحدثين - ما أمكن ذلك - انطلقت من فترة ليست بالطويلة من أناس غيورين ، ثم طرحت على هيئات وتنظيمات عالمية إسلامية ، وفي المملكة العربية السعودية أخذت الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة على عاتقها توجيه طلاب الدراسات العليا التاريخية بها ، إلى إجراء دراسات تاريخية تطبيقية وفق قواعد المحدثين لفترة صدر الإسلام .

وللتوسع والاستزادة عن هذا الموضوع راجع : محمد بن صامل العلياني السلمي : منهج كتابة التاريخ الإسلامي مع دراسة لتطور التدوين ومناهج المؤرخين ، منشورات دار طيبة للنشر والتوزيع ، الرياض ط ١ / ١٤٠٦ / ١٩٨٦ م ، ص : ٨ - ١٤ وراجع كذلك ، أكرم ضياء العمرى : المجتمع المدني في عهد النبوة : خصائصه وتنظيماته الأولى .. محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد الروايات التاريخية ، منشورات المجلس العلمي لإحياء التراث الإسلامي بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ط ١ ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ ، ص : ٩ - ٣١ .

(٣٠) ساق ابن النديم ( ت ٣٨٠ هـ ) : الفهرست ، منشورات دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، ص : ١٣٦ - ١٣٧ ترجمة طويلة مسهبة لأبي مخنف ، اكتفينا منها فقط بما تم إيراده في المتن .

(٣١) هذا الباحث هو : يحيى بن إبراهيم بن علي اليحيى الذي أعدّ رسالته للماجستير بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بعنوان : مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري - عصر الخلافة الراشدة - دراسة نقدية ، وقد نشرت هذه الرسالة بهذا العنوان ، دار العصمة ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٠ هـ .

(٣٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ٧ . بتحقيق علي أبي زيد ، ص : ٢٠١ ، هذا ما أشارت إليه أكثر مصادر التاريخ ، بيد أن ابن حجر العسقلاني يؤكد على أن وفاته كانت سنة ١٥٨ هـ . انظر ابن حجر ( ٨٥٢ هـ ) : لسان الميزان ، منشورات دار الأعلـمى للطبوعات ، بيروت ، ط ٢ ، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧١ م ، ٧ أجزاء ، ج ٤ ، ص : ٣٨٦ .

(٣٣) الجزء العاشر بتحقيق محمد نعيم العرقسوس ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٣٤) ابن حجر : تقريب التهذيب ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ، منشورات دار المعرفة ، بيروت ، جزءان ، دون سنة للطبع ، الجزء الأول ص : ٥٢٤ ، وفي كتابه تهذيب التهذيب تفصيل كبير في ترجمة عبد الملك ، ولعلنا نعود إليها فيما بعد ، انظر ابن حجر : تهذيب ، منشورات دار مطبعة مجلة دائرة المعارف النظامية في الهند ( حيدر آباد ) ط ١ ، ١٣٢٦ هـ ، ١٢ جزء ، ج ٦ ، ص : ٤٢٨ .

(٣٥) ابن أبي حاتم الرازي ( ت ٣٢٧ هـ ) : الجرح والتعديل ، منشورات مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ، الهند - ١٣٧١ هـ ، ٩ أجزاء ، الجزء السابع ، ص : ١٨٢ .

(٣٦) ابن عدي ( ت ٣٦٥ هـ ) : الكامل في ضعفاء الرجال ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م ، ٨ أجزاء ، الجزء السادس ، ص : ٩٣ .

(٣٧) نفس الجزء والصفحة أعلاه .

(٣٨) حققه على محمد البحوى ، ونشرته دار المعرفة ببيروت ، ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٣ م في ٤ أجزاء ، والعبارة المشار إليها في المتن وردت في الجزء الثالث ، ص : ٤٣٠ .

(٣٩) الجزء السابع ص : ٣٠١ - ٣٠٢ بتحقيق علي أبي زيد .

(٤٠) الباب : الوجه ، وقد علق محقق الجزء السابع من سير أعلام النبلاء على أبي زيد على الحاشية رقم ٢ ص : ٣٠٢ أن مراد الذهبي هنا أن أبا مخنف مساوٍ للثلاثة الذين ذكرهم في ترجمته لأبي مخنف في الضعف والمنزلة ، وقد عاد المحقق في تحقيق معنى الباب اللغوى لابن السكيت في كتابه : إصلاح المنطق .

(٤١) سيف بن عمر الضبى الأسدى ، ويقال التميمى البرجمى ، ويقال السعدى الكوفى مصنف الفتوح والردة ( أى أخبار الردة ) وغير ذلك .

للمزيد من الترجمة له وأقوال علماء الجرح والتعديل فيه ، انظر الذهبي ، ميزان الاعتدال ، ج ٢ ، ص : ٢٥٥ .

(٤٢) عبد الله بن عياش الهمداني المتوفى ، توفي سنة ثمان وخمسين ومائة ، إخباري صدوق كما قال الذهبي ، ميزان الاعتدال ، ج٢ ص : ٤٧٠ حيث نقلنا عنه .

(٤٣) منشورات المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق ، مصر المحمية ، ١٣٢١هـ ، جزءان وبهامشه الكتاب المسمى بيان موافقه صريح المعقول لصحيح النقل ، له نفسه أى لابن تيمية ، والنص المنقول فى المتن ورد فى الجزء الأول ص : ١٣ .

(٤٤) منشورات الدار العلمية ، دلهى ، ط٢ ، ١٤٠٥هـ ، ص : ١٧ وما بعدها .

(٤٥) إسحاق بن بشر ، أبو حذيفة البخارى صاحب كتاب المبتدأ . توفي سنة ٢٠٦هـ ، كما يقول الذهبي فى ميزان الاعتدال ، ج١ ص ١٨٤ - ١٨٦ حيث عقد له بجانب هذا التعريف ترجمة طويلة - إلى حد ما - حشاها بعبارات علماء الجرح والتعديل ، مثل : تركوه أى علماء الجرح والتعديل ، وكذبوه ، وكذلك ضعيف ... إلخ .

(٤٦) الجزء الرابع ، ص : ٣٨٦ .

(٤٧) ص ١٣٤ .

(٤٨) منشورات مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض ، ط٣ ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م منقحة ومصححة وفيها زيادات ، ١٠ مجلدات ، ٢٠ جزءاً ، مجلد ٨ ، الجزء ١٦ ، ص : ١٣٦ - ١٣٩ .

(٤٩) الجزء السابع ، ص : ٢٠١ .

(٥٠) حققه وضبطه على مخطوطتين أبو هاجر : محمد السعيد بن بسيونى زغلول ، منشورات دار الكتب العلمية . بيروت ، دون سنة للطبع - ٤ أجزاء ، الجزء الأول ، ص : ١٧٦ .

(٥١) منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٨م / ١٤٠٩هـ ، ٤ مجلدات ، المجلد الأول ص : ٢٤٣ .

(٥٢) الجزء السابع ص : ٢٠١ .

(٥٣) الجزء الرابع ، ص : ٣٠٤ - ٣٠٥ .

(٥٤) الجزء العاشر ، ص : ١٠١ - ١٠٣ .

(٥٥) الجزء الثانى ، ص : ٥٢٤ .

(٥٦) راجع مقدمة ابن حجر فى كتابه تقريب التهذيب ، ج١ ، ص : ٣ - ٧ حيث الإشارة إلى منهجه .

(٥٧) ص : ٨٨ أ .

(٥٨) المرجع السابق ، ص : ١٤٠ .

(٥٩) راجع الحاشية ص ٤٩ .

(٦٠) المصدر السابق ص : ١٣٤ .

(٦١) المجلد الثامن ، الجزء ١٦ ، ص : ١٣٨ .

(٦٢) عن الإخباريين وميولهم والتدوين التاريخي وما نتج عنه من نشأة المدارس التاريخية، راجع أحمد أمين: ضحى الإسلام ، منشورات دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ١٠ ، دون سنة للطبع ، ٣ أجزاء ، ج ٢ ص : ٣٣٨ - ٣٤٢ . شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون ، الجزء الأول ، الفصول ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ولا سيما الفصل الخامس. ص : ١٦٩ - ٢٠٠ .

(٦٣) المرجع السابق ، والجزء أعلاه ، ص : ١٨٠ .

(٦٤) كتب كثير من الباحثين المحدثين عن هذه العلاقة بين الأمويين وقبيلة كلب اليمنية منذ أن بدأت هذه العلاقة بزواج الخليفة الأموي المؤسس معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه من ميسون بنت بحدل الكلبية وهي أم ابنه يزيد .

للاستزادة عن هذا الموضوع راجع مثلاً ، محمد الطيّب النجار: الدولة الأموية في الشرق بين عوامل البناء ، ومعاول الفناء ، توزيع دار الاعتصام ، القاهرة . ط ٣ ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م ص: ١٣٨ - ١٤٠ ، يوسف العش . الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداءً من فتنة عثمان ، منشورات دار الفكر ، دمشق ، ط ٢ ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م ، ص : ١٨٤ - ١٩٢ .

(٦٥) أي أنصار عبد الله بن الزبير رضي الله عنه ، الذين روجوا لدعوته ، ثم أيّدوا مواقفه سواء بالتأييد الحسي أو بالتأييد المعنوي عن طريق كتابة الروايات عن أحقيته بالخلافة ، راجع محمد الطيّب النجار : المرجع السابق أعلاه ، ص : ٧٥ وما بعدها ، على حسن الخربوطلي : عبد الله بن الزبير ، منشورات المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والأنباء والنشر - الدار المصرية للتأليف والترجمة ، سلسلة أعلام العرب رقم ٤٣ ، القاهرة ، ١٩٦٤م ، ص : ٢٥٨ وما بعدها حيث الإشارة إلى التيار المؤيد لعبد الله بن الزبير رضي الله عنه من الأدباء وغيرهم .

(٦٦) ابن حجر : تهذيب التهذيب ، ج ٦ ، ص : ٤٢٨ .

(٦٧) ابن حجر : ابن حجر : نفس المصدر أعلاه ، ج ١٠ ، ص : ٤٩١ - ٤٩٢ .

(٦٨) حُؤَارِين : بالضم وتشديد الواو ، قرية من قرى حلب معروفة ، وحُؤَارِين : حصن من ناحية حمص .

ياقوت الحموى / معجم البلدان ، منشورات دار صادر بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، ٥ أجزاء ، الجزء الثانى ، ص : ٣١٥ - ٣١٦ . ويبدو أن حُؤَارِين الثانية ، أى الحصن الذى من ناحية حمص ، هو المقصود هنا ، على خلاف تلك القرية من نواحي حلب البعيدة عن دمشق كثيراً . وهى التى مات بها يزيد .

(٦٩) بجانب ما كتبه الذهبى : نفس المصدر أعلاه ، ج-٣ ، ص : ١٦١ - ١٦٢ فى ترجمته لمعاوية بن أبى سفيان من تأكيد على أن يزيداً كان خارج دمشق فى حُؤَارِين ، عاد فذكر الأمر نفسه فى الجزء الرابع ص : ١٣٦ فى ترجمته ليزيد ابن معاوية وقد أكد على ذلك أيضاً ابن الأثير ( ت ٦٣٠هـ ) : الكامل فى التاريخ ، عُنَى بمراجعة أصوله والتعليق عليه نخبة من العلماء ، منشورات دار الكتاب العربى بيروت ط ٢ ، ١٤٠٠ / ١٩٨٠م ، ١٠ أجزاء ، الجزء الثالث ، ص : ٢٦٠ حيث عبارات التأكيد التى ختمها بقوله : وهو الصحيح . ثم أكد ابن كثير كذلك عليه حسبما أكدنا فى المتن . فى المجلد الرابع ، الجزء الثامن من المصدر السابق ص : ١٤٣ وقال هو رأى الجمهور .

(٧٠) انظر ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، تحقيق وتعليق محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور ومحمود عبد الوهاب فايد ، منشورات مكتبة الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٠م ، ٧ أجزاء الجزء الثالث ، ص : ٤٦٦ - ٤٦٩ .

ابن حجر : الإصابة فى تمييز الصحابة ، القسم الرابع : ص ٣٢٥ - ٣٢٨ ، وانظر كذلك ابن عبد البر ( ت ٤٦٣ ) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، منشورات دار الكتاب العربى ، بيروت دون سنة للطبع ، ٤ أجزاء ، الجزء الثانى ، ص : ٣٩٤ .

(٧١) نفسه ، ص : ١١٥ .

(٧٢) ابن كثير : نفسه ، ص : ٧٩ .

(٧٣) انظر الذهبى : سير أعلام النبلاء ، الجزء الثانى ، ص : ٤٧١ - ٤٧٣ مع الحواشى ، ابن حجر : الإصابة ، القسم الرابع ، ص : ٣٢٨ ، ابن كثير : نفسه ، ص : ٩٠ .

(٧٤) نفس المصدر أعلاه والجزء ص : ٤٧٢ - ٤٧٣ .

(٧٥) انظر ابن حجر : نفسه ، ص : ٣٢٨ .



(٧٦) ابن كثير ، نفسه ، ص : ٧٩ - ٨٠ . وعنده أن عدد النفر الذين امتنعوا عن إعطاء البيعة ليزيد في حياة أبيه معاوية خمسة ، هم أولئك الذين ذكرناهم في المتن ، إضافة إلى عبد الله بن عباس . وهذا خلاف المشهور والراجح عند المؤرخين من أنهم أربعة .

(٧٧) انظر إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبد المجيد ومحمد علي النجار : المعجم الوسيط ، إشراف عبد السلام هارون ، منشورات دار إحياء التراث العربى ، المكتبة العلمية ، طهران ، دون سنة للطبع ن جزءان ، الجزء الأول ، ص : ١٠٧ .

(٧٨) انظر النويرى : نهاية الأرب ، ج ٩ ، ص : ٢٢٩ حيث الإشارة إلى عادات وصفات الأسود .

(٧٩) إبراهيم مصطفى وآخرون : المعجم الوسيط ج ١ ، ص : ٣٨٤ .

(٨٠) انظر النويرى : نفس المصدر السابق والجزء أعلاه ، ص : ٢٧٩ حيث الإشارة إلى صفات الثعالب .

(٨١) إبراهيم مصطفى وآخرون : نفس المعجم والجزء أعلاه ص : ١٢ .

(٨٢) حجر بن عدى بن معاوية بن جبلة الكندى ، يعرف بحجر بن الأدبر ، وحجر الخير ، اختلف في صحبته ، والأشهر أنه صحابى ، كان من كبار أشياع الخليفة على بن أبى طالب، قتل سنة ٥١ وقيل ٥٣ هـ، بأمر من معاوية. ابن حجر، نفسه ، القسم الثانى، ص: ١٦٨ .

(٨٣) مقتل حجر رضى الله عنه بأمر معاوية رضى الله عنه من القضايا التى يحسن بنا أن نمسك عنها ، إذ أننا لسنا معنيين بالتدخل فيما شجر بينهما - أى الصحابة - من الخلاف - ولقد لامت السيدة عائشة رضى الله عنها معاوية لفعله ذلك ، فوضّح لها أنه رأى فى ذلك إصلاحاً للأمة . انظر ابن كثير : نفسه ، ص : ٥٥ .

(٨٤) راجع خليفة بن خياط ( ت ٢٤٠ هـ ) : تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم ضياء العمرى، منشورات دا القلم ودار الرسالة ، بيروت ودمشق ، ط ٢ ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م، ص : ٢١٥ وما بعدها وإسنادها صحيح .

(٨٥) انظر ابن كثير : نفسه ، ص : ٨٥ .

(٨٦) راجع خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط ، ص : ٢١٧ .

(٨٧) كتب كثير من العلماء والمؤرخين الثقات عن فضل ومكانة الصحابة رضوان الله عليهم وما الموقف الذى يجب أن نقفه ثَمَّ شجر بينهم من خلاف كانوا فيه بين مجتهد مصيب ، ومجتهد مخطئ متأول وقد ألفت فى ذلك بعض الكتب .

للقوف على هذا الموضوع ، راجع محمد العربى التبانى : تحذير العبقري من محاضرات الخضرى ، ج ١ ، ص : ٣٦ - ٤٣ ، ١٧٨ - ٢١٨ ، ج ٢ ، ص : ٢٦ - ٢٨ ، ٥٦ - ٨٧ ، حيث فيه جماع أقوال علماء السلف فى ذلك . وانظر كذلك محمد صامل السلمى : منهج كتابة التاريخ الإسلامى ص : ١٨٩ - ٢٦٩ .

(٨٨) ابن العربى ( ت : ٥٤٣ هـ ) : العواصم من القواصم فى تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبى ﷺ ، خرّج أحاديث وعلّق عليه محمود مهدى الاستانبولى ، حقّقه وعلّق حواشيه محب الدين الخطيب ، ص : ١٣٩ حيث استلت هذه العبارة من تعليقه - أى محب الدين الخطيب - .

(٨٩) انظر مثلاً ابن حجر : لسان الميزان ، ج ٤ ، ص : ٣٨٦ .

(٩٠) نفسه ص : ١٤٣ .

(٩١) من أشهر الوصايا فى هذا الصدد وصية عبد الملك بن مروان لإبنائه ، عن هذه الوصية انظر ابن كثير ، نفسه ، ص : ٨٥ .

(٩٢) انظر هذه الحالات والمواقف عند ابن كثير : نفسه ، ص : ٣٧ ، ٤٢ ، ٩٤ ، ١٣٢ ، ١٣٧ - ١٣٨ . وقد ألّف أحد الباحثين المحدثين ، وهو محمد إبراهيم الشريف مؤلفاً بعنوان : دور الحجاز السياسى فى القرنين الأول والثانى الهجريين .

(٩٣) انظر ابن كثير : نفسه ، ص : ١٣٧ - ١٣٨ .

(٩٤) كان ذلك فى سنة ٤٤ هـ على الأرجح . راجع ابن كثير : نفسه ، ص ١٣١ - ١٣٢ .

(٩٥) خليفة بن خياط : المصدر السابق ، ص : ٢١٣ - ٢١٥ .

(٩٦) انظر ابن كثير ، نفسه ص : ١٣٥ .

(٩٧) قال معاوية : .. لو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت ، قيل كيف يا أمير المؤمنين ، قال : كانوا إذا مدّوها خليّتها ، وإذا خلّوها مدّتها .

راجع اليعقوبى ، ( ت : ٢٨٤ هـ ) تاريخ اليعقوبى ، منشورات دار صادر ، بيروت مجلدان ، دون سنة للطبع ، المجلد الثانى ، ص : ٢٣٨ .

(٩٨) انظر الذهبى : سير أعلام النبلاء ، ج ٣ ، ص : ١٥٤ .

(٩٩) انظر أمثلة ذلك والتحقيق الأصولى الجيّد فى توضيح أسباب ذلك لدى محمد العربى التبانى ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص : ٢٠٤ - ٢٠٨ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ - ٢٥٥ .

- (١٠٠) انظر محمد العربي التباني : نفس المرجع السابق ، ج ٢ ص : ٢٠٥ وما بعدها حيث توسع في هذا الجانب الذي عاد فيه إلى عدد كبير من المصادر والمراجع ذات الصلة .
- (١٠١) انظر الذهبي : نفس المصدر أعلاه ، ج ٣ ، ص : ١٢٤ ، ابن كثير : نفسه ، ص : ١٢٩ .
- (١٠٢) راجع ابن كثير : نفسه ، ص : ١٢٦ ، ١٣٥ - ١٣٧ .
- (١٠٣) انظر أمثلة هذا عند الذهبي : نفسه ، ج ٣ ص : ١٣٢ - ١٣٣ ، ابن كثير : نفسه ص : ١٢٦ ، ١٣٥ - ١٣٧ .
- (١٠٤) انظر الذهبي ، نفسه ، ج ٤ ، ص : ٩٥ حيث الإشارة إلى عزل معاوية عاملة على العراق عبيد الله بن زياد ، بطلب من أهل العراق ثم إعادته بعد ذلك .
- (١٠٥) انظر ابن خلكان ( ت ٦٨١ هـ ) : وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ، منشورات دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨ م ، ٨ أجزاء ، ج ٢ ، ص : ٥٠٠ .
- (١٠٦) ابن كثير : نفسه ص : ١٣٩ .
- (١٠٧) إبراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، ج ١ ، ص : ٦١ .
- (١٠٨) إبراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، ج ٢ ، ص : ٦٤٥ .
- (١٠٩) انظر الذهبي : نفسه ، ج ٣ ، ص : ١٢٨ ، ١٣٣ - ١٤١ ، ابن كثير ، نفسه ، ص : ٢١ ، ١٢١ ، ١٢٨ ، ١٢٩ . وانظر في هذا الصدد يوسف العش : الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداءً من فتنة عثمان ، ص : ١٥٦ - ١٦٢ حيث تحليل سياسي واسع لواقع بلاد الشام ونظرتها لمعاوية .
- (١١٠) انظر إبراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، ج ٢ ص : ١٦٠١ .
- (١١١) نُحيل القارئ إلى ترجمة ابن عمر لدى الذهبي : نفسه ، ج ٣ ، ص : ٢١٦ ، ٢١٩ ، ١٢٤ ، ٢٦٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٧ .
- (١١٢) يقول الذهبي : نفسه ، ص : ٢٢١ نقلاً عن الإمام مالك بن أنس إن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ظل إماماً للناس يفتيهم مدة ستين سنة .
- (١١٣) انظر قبل ، ص : ٢٢ - ٢٤ مع الحواشي .
- (١١٤) الحقيقة أن الموقف الذي ذكره معاوية رضي الله عنه عن خذلان أهل العراق للحسن بن علي رضي الله عنهما إنما هو حقيقة فعلاً وقد ذكرها المؤرخون ومعاوية يقصد هنا حادثة طعن أحد جنود معسكر الحسن له في الجيش الذي حيشه للقاء معاوية بقيادة قيس بن

سعد بن عباد ، ولقد نهب معسكره كذلك ، وهى الحادثة التى أصابت الحسن رضى الله عنه بالمرارة من أهل العراق . انظر ابن كثير : نفسه ، ص : ١٤ - ١٥ ، ١٧ .

لكن الواقع أن الموقف الأول الذى عبّر عنه معاوية رضى الله عنه بالقول إن أهل العراق قتلوا عليا بن أبى طالب ، يحتاج إلى توقّف فالمعلوم أن عليا رضى الله عنه قُتل على يد أحد أشقياء الخوارج الذين كان رأيهم فى على ومعاوية رضى الله عنهما معاً سيئاً .

(١١٥) إبراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، ج ١ ، ص : ٢١٢ .

(١١٦) إبراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، ج ١ ، ص : ٥٣٤ - ٥٣٥ .

(١١٧) ابن كثير ، نفسه ، ص : ١٣٧ .

(١١٨) إبراهيم مصطفى : نفسه ، ج ١ ، ص : ٤٨٧ .

(١١٩) إبراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، ج ٢ ، ص : ٨١٨ .

(١٢٠) راجع محمد بن صامل السلمى : المرجع السابق ، ص : ٢٠٩ - ٢٣٣ .

## قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

ابن الأثير ( ت ٦٣٠هـ ) :

١ - أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، تحقيق وتعليق محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور ومحمود عبد الوهاب فايد ، منشورات مكتبة الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٠م ، ٧ أجزاء .

٢ - الكامل فى التاريخ ، غنى بمراجعة أصوله والتعليق عليه نخبة من العلماء ، منشورات دار الكتاب العربى ، ط ٢ ، ١٤٠٠ - ١٩٨٠ ، ١٠ أجزاء .

ابن بسام الشنترنينى ( ت ٥٤٢هـ ) :

٣ - الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس ، منشورات دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط ١ . ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ٤ أقسام ويقع فى كل قسم مجلدان .

ابن تيمية ( ت ٧٢٨هـ ) :

٤ - الرد على البكرى ، منشورات الدار العلمية ، دلهى ، ط ٢ ، ١٤٠٥هـ .

٥ - منهاج السنة ، منشورات المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية ، القاهرة ، ١٣٢١هـ جزآن وبهامشه الكتاب المسمى ببيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول ، له نفسه .

ابن أبى حاتم الرازى ( ت ٣٢٧هـ ) :

٦ - كتاب الجرح والتعديل ، منشورات مجلس دائرة المعارف العثمانية بمحيدر آباد الدكن ، الهند ، ١٣٧١هـ ، ٩ أجزاء .

ابن حجر ( ت ٨٥٢هـ ) :

٧ - الإصابة فى تمييز الصحابة ، حقق أصوله وضبط أعلامه ، ووضع فهارسه على محمد البجاوى ، منشورات دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م ، ٨ أقسام .



- ٨ - تقريب التهذيب ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ، منشورات دار المعرفة ، بيروت ، دون سنة للطبع ، جزءان .
- ٩ - تهذيب التهذيب ، منشورات مطبعة مجلة دائرة المعارف النظامية بالهند ، ( حيدر آباد ) ، ط ١ ، ١٣٢٦ هـ ، ١٢ جزءاً .
- ١٠ - لسان الميزان ، منشورات دار الأعلـمى للمطبوعات ، بيروت ، ط ٢ ، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م ، ٧ أجزاء .
- ابن خلكان ( ت ٦٨١ هـ ) :
- ١١ - وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ، منشورات دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨ م ، ٨ أجزاء .
- خليفة بن خياط ( ت ٢٤٠ هـ ) :
- ١٢ - تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم ضياء العمرى ، منشورات دار القلم ودار الرسالة ، بيروت ، دمشق ، ط ٢ ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .
- أبو داود السجستاني ( ت ٣٧٥ هـ ) :
- ١٣ - سنن أبي داود ، راجعه على عدة نسخ وضبط أحاديثه وعلق حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد ، منشورات دار إحياء السنة النبوية ، القاهرة ، دون سنة للطبع ، ٤ أجزاء .
- الدينورى ( ت ٢٨٢ هـ ) :
- ١٤ - الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر وجمال الدين الشيال ، منشورات وزارة لثقافة والإرشاد القومى ، الإدارة العامة للثقافة ، القاهرة ، ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩ م .
- الذهبي ( ت ٧٤٨ هـ ) :
- ١٥ - سير النبلاء ، أشرف على تحقيق الكتاب وخرّج أحاديثه شعيب الأرناؤوط ، منشورات مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٥ هـ — ١٩٨٥ م ، ٢٥ جزءاً .

١٦ - العبر في أخبار من غير . حققه وضبطه على مخطوطتين أبو هاجر : محمد السعيد بن بسيوني زغلول ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٨م/١٤٠٩هـ ، ٤ مجلدات .

١٧ - ميزان الاعتدال ، حققه على محمد البجاوي ، نشرته دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م ، ٤ أجزاء .

الطبري ( ت ٣١٠هـ ) :

١٨ - تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، منشورات دار التراث ، بيروت ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م ، ١٠ أجزاء .

ابن عبد البر ( ت ٤٦٣هـ ) :

١٩ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، منشورات دار الكتاب العربي بيروت دون سنة للطبع ، ٤ أجزاء .

ابن عبد ربه ( ت ٣٢٨هـ ) :

٢٠ - العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، تقديم ممدوح حقي ، منشورات دار الفكر ، بيروت ، دون سنة للطبع ، ٤ مجلدات ، ٨ أجزاء .

ابن عدي ( ت ٣٦٥هـ ) :

٢١ - الكامل في ضعفاء الرجال ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م ، ٨ أجزاء .

ابن العربي ( ت ٥٤٣هـ ) :

٢٢ - العواصم من القواصم ، خرّج أحاديثه وعلّق عليه محمد مهدي الاستانبولي ، حققه وعلّق حواشيه محب الدين الخطيب ، منشورات مكتبة السنة ، القاهرة ، ط ٥ ، ١٤٠٨هـ .

ابن العماد الحنبلي ( ت ١٠٨٩هـ ) :

٢٣ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٨٨م/١٤٠٩هـ . ٤ مجلدات .

ابن كثير ( ت ٧٧٤هـ ) :

٢٤ - البداية والنهاية ، منشورات دار الفكر ، طبعة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م ، ٧ مجلدات ، ١٤ جزءًا ثم مجلد الفهارس .

الماوردي ( ت ٤٥٠هـ ) :

٢٥ - الأحكام السلطانية، غنى بتصحيحه السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي، ط ١، ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م .

ابن منظور ( ت ٧١١هـ ) :

٢٦ - لسان العرب، منشورات دار صادر، بيروت ، ١٩٥٥م ، ١٥ مجلدًا.

ابن النديم ( ت ٣٨٥هـ ) :

٢٧ - الفهرست ، منشورات دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

النويري ( ت ٧٢٣هـ ) :

٢٨ - نهاية الأرب في فنون الأدب ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر سلسلة من تراثنا ، القاهرة ، ٣٠ جزءًا .

ياقوت الحموي ( ت ٦٢٦هـ ) :

٢٩ - معجم الأدباء ، منشورات مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض ، ط ٣ ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ، منقحة ومصححة وفيها زيادات ، ١٠ مجلدات ٢٠ جزءًا .

٣٠ - معجم البلدان ، منشورات دار صادر ، ودار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، ٥ أجزاء .

اليقوي ( ت ٢٨٤هـ ) :

٣١ - تاريخ اليقوي ، منشورات دار صادر، بيروت ، دون سنة للطبع ، مجلدان.

## ثانيًا : المراجع

إبراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات ، وحامد عبد القادر ومحمد علي النجار:

١ - المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، جزءان ؛ ١٩٦٠ م .

أحمد أمين :

٢ - ضحى الإسلام ، منشورات دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ١٠ ، دون سنة للطبع ، ٣ أجزاء .

٣ - فجر الإسلام ، منشورات دار الكتاب العربي ، بيروت ط ١٠ ، ١٩٦٩ م .  
أحمد حسن الزيات :

٤ - تاريخ الأدب العربي ، منشورات دار نهضة مصر ، ط ٢٥ .  
أكرم ضياء العمرى :

٥ - المجتمع المدني في عهد النبوة - خصائصه وتنظيماته الأولى - محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد الروايات التاريخية ، منشورات المجلس العلمي لإحياء التراث الإسلامي بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ط ١ ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .  
رفيق العظيم :

٦ - أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة ( سيرة الخلفاء الراشدين ومن اشتهر في دولتهم ) منشورات دار الرائد العربي ، ط ٦ ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، مجلدان ، ٤ أجزاء .

الزركلي :

٧ - الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، منشورات دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٥ ، ١٩٨٠ ، ٨ مجلدات .

سيد سابق :

٨ - فقه السنة ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط ٤ ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، ٣ مجلدات .

شاكر مصطفى :

٩ - التاريخ العربى والمؤرخون ، دراسة فى تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله فى الإسلام ، منشورات دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨٣ ، جزءان .

صبحى الصالح :

١٠ - علوم الحديث ومصطلحه ، منشورات دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٥ ، ١٩٨٤ م .

عبد الله عبد الرحيم عسيلان :

١١ - كتاب الإمامة والسياسة فى ميزان التحقيق العلمى ، منشورات مكتبة الدار ، المدينة المنورة ، ط ١ ، ١٤٠٥ هـ .

عبد المجيد سندی الجندى :

١٢ - ابن قتيبة العالم الناقد الأديب ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومى للتأليف والترجمة والطباعة والنشر تحت سلسلة أعلام العرب رقم (٢) القاهرة ١٩٦٣ م .

عبد الوهاب النجار :

١٣ - الخلفاء الراشدون ، منشورات دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م .

على حسنى الخربوطلى .

١٤ - عبد الله بن الزبير ، منشورات المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، سلسلة أعلام العرب ، رقم ٤٣ ، القاهرة ، ١٩٦٤ م .

محمد الزحيلي :

١٥ - الإمام الطبرى ، شيخ المفسرين ، وعمدة المؤرخين ، ومقدم الفقهاء والمحدثين صاحب المذهب الجريرى ، منشورات دار القلم ، دمشق تحت سلسلة أعلام المسلمين رقم (٣٣) ، ط ١ ، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م .



محمد بن صامل العلياني السلمي :

١٦ - منهج كتابة التاريخ الإسلامى ، منشورات دار طيبة للنشر والتوزيع ،  
الرياض ، ط ١ ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

محمد الطيب النجار :

١٧ - الدولة الأموية فى الشرق بين عوامل البناء ومعاول الفناء ، توزيع دار  
الاعتصام ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .

محمد العربى التبانى :

١٨ - تحذير العبقري من محاضرات الخضرى أو إفادة الأخبار ببراءة الأبرار ،  
منشورات دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م . جزآن .

محمد منير الغضبان :

١٩ - معاوية بن أبى سفيان : صحابى كبير وملك مجاهد ، منشورات دار القلم ،  
دمشق ، وبيروت سلسلة أعلام المسلمين ، رقم (٢١) ، ط ١ ، ١٤٠٠ هـ /  
١٩٨٠ م .

مصطفى السباعى :

٢٠ - السنة ومكاتها فى التشريع الإسلامى ، منشورات المكتب الإسلامى ،  
بيروت ، دمشق ، ط ١٥ ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

يحيى بن إبراهيم بن على اليحيى :

٢١ - مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى - عصر الخلافة الراشدة - دراسة  
نقدية ، منشورات دار العاصمة ، الرياض ، ط ١٠ ، ١٤١٠ هـ .

يوسف العش :

٢٢ - الدولة الأموية والأحداث التى سبقتها ومهدت لها ابتداءً من فتنة عثمان ،  
منشورات دار الفكر ، دمشق ط ٢ ، ١٩٨٥ م .



# الإسلام واللغة العربية فى دول الطراز الإسلامى

## خلال العصور الوسطى

د/ غيثان بن على بن جويس\*

لعبت الهجرات العربية الإسلامية إلى شرق أفريقيا دوراً هاماً فى تشكيل تاريخ تلك المنطقة اقتصادياً وسياسياً ودينياً . ذلك أن الإمارات والمراكز التى أنشأها العرب المسلمون فى كل من بلاد الحبشة والصومال أسهمت إسهاماً إيجابياً فى نقل الحضارة والفكر الإسلامى إلى الساحل الأفريقى ، ومن ثم إلى الداخل (١).

ولم تكن سواحل الحبشة والصومال مجهولة لدى العالم الخارجى منذ أقدم العصور ، فقد كشفت البحوث التاريخية والأثرية عن صلات قديمة ومستمرة بين أهالى هذه السواحل وشعوب العالم الأخرى ، ليس فقط الشعوب القريبة جغرافياً، ولكن أيضاً الشعوب البعيدة مثل الهنود والصينيين . ومن خلال اشتغال العرب بالدراسات الجغرافية والفلكية والطبيعية والتجارية ، عرفوا الساحل الأفريقى . ومن أشهر الرواد العرب الذين تحدثوا عن الساحل الشرقى لأفريقية من الناحيتين العلمية والنظرية : المسعودى وابن حوقل والإدريسى وياقوت الحموى وابن بطوطة والقلقشندى والمقرئى وأبو الفداء وغيرهم (٢).

يضاف إلى ذلك تقدم العرب فى فنون الملاحة وما يقتضيه من معارف ، أهمها معرفة الطرق البحرية الآمنة ، ونظام سير الرياح ومواقيتها ومواقع البلاد والجزر ، ووقوفهم على الآلات التى ساعدتهم على الملاحة مثل البوصلة والإبرة المغناطيسية فضلاً عن رسم الخرائط ، وكل ذلك أدى إلى تسهيل الروابط مع شرق أفريقيا . والعرب الذين اشتهروا بصناعة السفن هم عرب الجنوب فى الجزيرة

---

(\*) أستاذ التاريخ الإسلامى المشارك - كلية التربية - جامعة الملك سعود - فرع أبها .

العربية ، ولا سيما عرب عمان . وقد عرف عرب عمان بمهارتهم فى صناعة السفن وتفوقهم فى أعمال الملاحة ، وسارت سفنهم فى المحيط الهندى حتى وصلت سواحل شرق أفريقية(٣) .

والثابت أن العرب كانوا أهم الشعوب التى اتصلت ببلاد الحبشة والصومال منذ القدم ، وأبقاهم أثراً فى تلك البقعة من القارة . وساعد على ذلك عامل القرب الجغرافى ، وقد نشطوا فى الاتصال بأثيوبيا والصومال منذ زمن دول معين وسبأ وحمير التى كان لها نشاط كبير فى الحركة التجارية البرية والبحرية ، وتمكنت من السيطرة على تجارة العالم القديم فى المحيط الهندى وسواحل أفريقية الشرقية . كذلك كان لعرب الحجاز دور كبير فى الاتصال والتجارة ، وقد سيطروا سيطرة تامة على التجارة وطرق القوافل بعد تدهور دول الجنوب منذ القرن السادس الميلادى(٤) .

ثم كان أن قامت الدعوة للدين الإسلامى فى أثيوبيا منذ ظهوره ، ويمكن أن يؤرخ لدخول الإسلام فى أثيوبيا بهجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة ، وخاصة بعد أن أظهر النجاشى أرماع (أصحمة) اعتناقه للإسلام . وقد تدفقت على أثر ذلك مجموعات ضخمة من دعاة الإسلام من عرب وغيرهم لإنشاء مراكز عربية ثابتة ، ونشر الإسلام بين القبائل التى كان من أهمها : الصوماليون والأحباش والدناقل والجالا والبجة والباتو ، فضلاً عن الاريتريين وغيرهم . وكثر توافد المسلمين بعد ذلك للأهداف التجارية بعد أن دانت لهم بلاد العرب ، وأصبحوا يتحكمون فى طرق القوافل داخل الجزيرة العربية ولا سيما بين عدن وصنعاء ، كما أسهموا بنشاط كبير فى التجارة الشرقية بين مصر والهند عن طريق البحر الأحمر . وعبرت مجموعات قليلة من تجار العرب إلى الساحل الغربى للبحر الأحمر ، كما اخترق عدد من هؤلاء الحدود الحبشية وأسسوا لهم مراكز استقرار بالتدريج .

بل إن العرب المسلمين استطاعوا بنشاطهم أن يتحكموا فى ميناء عدوليس ( Adulis ) وهو ثغر الحبشة ومينائها العظيم (٥) .

وكانت مملكة أكسوم الحبشية فى ذلك الوقت فى طريقها إلى الانحطاط . وفى الوقت نفسه كان الإسلام يتقدم بخطى واسعة من الساحل إلى الداخل ، حيث بدأ المسلمون فى الإمتزاج بالوطنيين وصاهروهم ، فأخذ الإسلام ينتشر تدريجياً ، فأعتنقته عناصر الساهو والعفر فى شرقى الحبشة ، كما أنه امتد إلى المناطق السيدامو وشوا الشرقية فى الجنوب من الحبشة (٦) .

كذلك انتشر المسلمون شمالاً فى ارتيريا ومنظمة البجة ، وشجعهم على ذلك غنى تلك المناطق بمعادن الذهب والزمرد والفضة والنحاس والرصاص والحديد . وقد تزايد عدد المسلمين فى الحبشة واريتريا ومنطقة البجة ، وأشهر القبائل العربية التى استقرت فى هذه المناطق قوم من ربيعة وقحطان ، إلا أن قبائل ربيعة كانت أقوى العناصر ، حتى سادت وغلبت على ما جاورها من العرب القحطانيين (٧) .

وهكذا امتدت الرقعة الإسلامية على طول منطقة القرن الأفريقى ، وفى داخلها حتى منطقة وادى النيل الجنوبى والأوسط ، حيث قامت مشيخات إسلامية فى فترة التوسع الإسلامى البارزة التى تقع ما بين القرنين الرابع والسادس الهجريين ( العاشر والثانى عشر الميلاديين ) ، وهى فترة التوسع المنظمة للإسلام ديناً ودولة ، من ناحية نشر العقيدة الإسلامية عن طريق الدعوة الهادئة بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتدعيم سلطان الممالك والمشيخات الإسلامية داخل البلاد ، على حساب مملكة أكسوم الحبشية المتداعية . وقد تحولت كل منطقة نهر جوبا للإسلام ، وامتدت الرقعة الإسلامية حتى منطقة البحيرات العظمى وذلك فى عام ( ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م ) (٨) .



وقد تلا ذلك قيام المشيخات الإسلامية التي سبقت الإشارة إليها مثل عدال وهرر وهوبات ، والتي لم تعمر طويلاً نظراً للخلافات التي قامت فيما بينها ، فضلاً عن أن عنايتها كانت منصبة على شئون التجارة ، ولا سيما تجارة الرقيق ، ثم تلا ذلك قيام ممالك إسلامية قوية ومزدهرة ، أصبحت تحيط بالحبشة من كل جانب ، وغدت هذه الممالك الإسلامية تسيطر على كل الرقعة الإسلامية الممتدة من سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندي ، وأجزاء من أفريقية الشرقية ممتدة على الساحل إلى الداخل الأفريقي . وبفضل هذا الوضع الجغرافي الممتاز أصبحت تحيط بالحبشة من الناحية الشرقية وتقابل اليمن في الجزيرة العربية ، ولذلك نعتها المؤرخون بمنطقة الطراز الإسلامى ، لأنها على جانب البحر كالطراز له (٩) .

وقد اشتهر في هذا الطراز إمارات سبع أو ممالك ، هي أوفات ، دوارو، أرابينى ، هدية ، شرخا ، بالى ، وداره (١٠) وهذا عدا مشيخات الساحل الصومالى التى امتدت على طول الساحل المعروف بساحل الزنج (١١) . وقد أفردنا لمملكة أوفات الإسلامية حيزاً خاصاً فى مقالين مختلفين (١٢) .

والملاحظ أن تكوين هذه الممالك اتسم بالطابع السلمى التجارى أو الاقتصادى بصفة عامة ، هذا فضلاً عن أن هذه الممالك ارتبطت بالعالم الإسلامى، وتوطدت صلتها به عن طريق التجارة والحج وانتقال طلاب العلم للدراسة فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ودمشق والقاهرة . وصار لرواد الثقافة الإسلامية أروقة خاصة بهذه المراكز ، فهناك رواق أهل الزيلع بالمسجد الأموى بدمشق ، وكذلك أفرد رواق لهؤلاء بالأزهر يعرف برواق الجبرتية (١٣) .

ثم إن هذه الممالك التى أمها المسلمون لقرون عديدة ظلت مراكز نشاط ومدنية ، وارتكزت شهرتها على أنها وسيطة بين عواصم العالم الإسلامى الكبرى وبقيّة أجزاء أفريقية المجاورة فى نقل الفكر والثقافة الإسلامية .

ومن ناحية أخرى فقد تطورت هذه الممالك الإسلامية بفضل تجمع العلماء والفقهاء الذين وفدوا إليها من مكة المكرمة والمدينة المنورة ودمشق وبغداد والقاهرة ، فظلت الصبغة العربية هي البارزة والمميزة في منطقة القرن الإفريقي خلال فترة العصور الوسطى . وأسهم العرب في هذه البلاد بالآداب والعادات التي اتصفوا بها ، وظلت الثقافة العربية تشع وتنتشر حتى بعد انكماش النفوذ العربي الإسلامي في القرن الثالث عشر الهجري (التاسع الميلادي) . وكان أعلام المسلمين في هذه البلاد يفكرون بالعقلية العربية الإسلامية ، ويكتبون باللغة العربية ، وهم في إنتاجهم ونشاطهم إنما يعبرون عن حضارة عربية إسلامية سادت منطقة الطراز الإسلامي ردحاً من الزمن (١٤) .

وعلى الرغم من أن المجتمع الإسلامي في بلاد القرن الإفريقي يتكون من أجناس متعددة ، وأمم مختلفة في صفاتها وعاداتها وثقافتها ، فإنها بعد إسلامها وبسببه أخذت تنصهر جميعاً في بوتقة الحضارة الإسلامية في ظل رعاية دول الطراز الإسلامي وكنفها ؛ لأن الدين الإسلامي عامل هام من عوامل الانسجام بين الشعوب التي تدين به ، والدين الإسلامي فضلاً عن أنه عقيدة ، فإنه كذلك نظام اجتماعي كامل ، ومجموعة من الأخلاق والقواعد والأنظمة التي يستطيع الناس أن يعيشوا بمقتضاها (١٥) .

## ١ - سلطنة أوفات :

كانت سلطنة أوفات أقوى سلطنة إسلامية قامت في الحبشة بسبب تحكمها في الطريق التجاري الذي يربط الداخل بميناء زيلع . وقد أسسها قوم من قريش من بني عبد الدار أو من بني هاشم من ولد عقيل بن أبي طالب ، قدم أولهم من الحجاز واستوطنوا مدينة أوفات . وقد اشتهرت جماعة منهم بالصلاح ، وظهر من بينهم رجل يسمى عمر ويلقب " ولشمع " حكم مدينة أوفات وأعمالها واعترف بسلطان النجاشي . ولم يتضح تاريخ أوفات إلا في حوالى (٧٠٠هـ / ١٣٠٠م)

حين أورث عمر هذه المملكة لأولاده الأربعة أو الخمسة الذين تولوا عرشها واحداً بعد آخر ، وذلك بموافقة ملك الحبشة . ومع ذلك فإن سلطنة أوفات هى التى تزعمت حركة الجهاد ضد الحبشة ، وقامت مع غيرها من دول الطراز الإسلامى بدور كبير فى نشر الإسلام والثقافة الإسلامية (١٦) .

## ٢ - سلطنة بالى :

تقع جنوبى سلطنة دارة ، ويحدها شمالاً نهر ويى ، ومن الجنوب نهر حرانا إلى دوريا ، وبهذا الوضع تتحكم فى وادى الصومال . والعنصر الغالب على سكانها عنصر السيداما ، ويسكن جنوبه فريق من عنصر الجالا . وتعتبر هذه السلطنة أكثر بلاد الزيلع خصوبة ، وتختلف عن شقيقاتها الإسلامية فى أن الملك لم يظل كغيرها ، محفوظاً فى أسرة معينة ، بل حدث فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) أن انتقل الحكم إلى رجل ليس من بيوت الملك ، وذلك بمساعدة ملك الحبشة (١٧) . وفى سائر المظاهر تقترب هذه السلطنة من بقية السلطنات وتسير المعاملة فيها بالتبادل ، وأهلها على المذهب الحنفى (١٨) .

## ٣ - سلطنة هدية :

تقع إلى الغرب من دول الطراز الإسلامى وتجاور أرابينى ، وتشغل مساحة واسعة بين نهري هواش وجيبي ، وليست حدودها معروفة بدقة شأنها شأن باقى الولايات الإسلامية وتتكون من (١٨) مقاطعات (١٩) ، وبرغم أنها دون أوفات فى المساحة والامكانيات ، فإنها أقوى الممالك السبع وأكثرها خيلاً ورجالاً ، ويقال إن عدد جنودها بلغ نحواً من (٤٠) ألف فارس سوى الرجال الذين يبلغون ضعف هذا العدد تقريباً . ومع أن الطبقة الحاكمة فيها إسلامية ، فإن أغلب رعاياها كانوا على الوثنية ، وهؤلاء الرعايا من السيداما والجوارجى والشابو ، وهذا الأخير خليط من العنصرين الأولين (٢٠) .

وتقترن شهرة هدية بتجارة الخصيان الذين يجلبون إليها وهؤلاء يعرفون في مصر باسم الطواشية . وقد حظر ملك الحبشة هذه العملية الوحشية ، غير أن اللصوص ما فتئوا يسطون على العبيد ويأتون بهم إلى بلدة وشلو القريبة من هدية . وسكان وشلو هذه همج متخلفون ، يخصى العبيد عندهم لدرايتهم بالخصى ، وهذا أمر يهتم به التجار النخاسة ، إذ إن الخصى أرفع ثمنًا من غيره . وبعد إتمام عملية الخصى يحمل هؤلاء إلى هدية حيث يعالجون مرة أخرى حتى يبرأوا من الجراحة التي أجريت لهم ، ولأهل هدية دراية بعملية العلاج والتطبيب . ومع ذلك فإن العدد الذي يموت من الخصيان بسبب هذه العملية أكثر من الذي تكتب له الحياة ليباع مصدرًا من هدية (٢١) .

#### ٤ - سلطنة داره :

تقع على حدود أوفات العربية وشمال شرقي هدية في منطقة السيداما . وتعد أضعف إخوانها حالاً ، وأقلها خيلاً ورجالاً ، ولكنها تستطيع أن تقيم جيشاً يعادل في قوته جيش أوفات إذ عنيت بهذه الناحية . ولا تختلف كثيراً عن غيرها من الإمارات الإسلامية ، فأهلها مسلمون على المذهب الحنفي ومعاملتها بالمبادلة (٢٢) .

#### ٥ - الإمارات الإسلامية الأخرى :

أما الإمارات الإسلامية الأخرى : دوارو وأرايينى وشرنخا ، فهي إمارات صغيرة قليلة الأهمية ، ولم يذكر عنها سوى أن أهلها مسلمون أحناف ، وأن عدة عساكر الأولى تقرب من قوة أوفات في الفارس والراجل ، وفرسان الثانية نحو عشرة آلاف غير الرجال ، بينما لا تتجاوز قوة الأخيرة ثلاثة آلاف فارس سوى الرجال (٢٣) .

\* \* \*

ولم تكن هناك سيادة عامة مستمرة لإحدى تلك الدول التي عرفت بالطراز ، وإنما وجدت سيادات مؤقتة في بعض الفترات ، تحققت عن طريق القوة

أو الدبلوماسية أو المصاهرات . وكانت فى معظم الأحيان مستقلة داخلياً وتدفع الجزية أحياناً كثيرة ، وذلك عندما تنضوى تحت لواء سلطنة أوفات أكبر دول الطراز الإسلامى فى منطقة القرن الأفريقى خلال فترة العصور الوسطى (٢٤) .

ويعيننا أنها أسهمت إسهاماً إيجابياً فى نقل الحضارة والفكر الإسلامى والعربى فى منطقة القرن الأفريقى وفى داخل بلاد أثيوبيا أو الحبشة . هذا بالإضافة إلى الدور الذى لعبته فى تاريخ المنطقة اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً ، فاستمر تيار الحضارة الإسلامية فى تلك المنطقة فى الانتشار والازدهار حتى بلغ أقصى مداه فى نهاية القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) ، وذلك فى زمن المجاهد الإسلامى الكبير أحمد الجران ( أحمد بن جرا ) ، عندما أشادت الدعوة لمناهضة النصرانية ونشر الإسلام واللغة العربية فى هذه البلاد (٢٥) .

ومن الثابت أن الدعوة الإسلامية فى بلاد الطراز الإسلامى والحبشة المسيحية ، كما فى غيرها من المناطق - ارتبطت باللغة العربية ، بوصفها لغة القرآن والعلوم الإسلامية . وسار الإسلام واللغة العربية جنباً إلى جنب مع الجهاد فى سبيل نشر الدين وتوسيع رقعة البلاد الإسلامية ، فضلاً عن تنشيط الحركة التجارية (٢٦) .

ومنذ فجر التاريخ والقلم العربى هو القلم المعروف فى شرق أفريقية دون غيره . وكانت هناك علاقة قديمة بين العرب وبين الحبشة والزنج ، ترجع إلى ما قبل القرن التاسع الميلادى ، أى قبل دخول الإسلام فى القارة الأفريقية . وقد اشتهرت عدة طرق للقوافل ، كانت تبدأ من زيلع وهرر وسواكن وأوفات ، فتجتاز هضاب الحبشة إلى الداخل حتى منطقة البحيرات . وقد تولى العرب أمر هذه التجارة منذ أزمان بعيدة ، حيث يجتازون الصعاب ، ويخترقون الهضاب والوديان التماساً للرزق . وكان العرب ينشدون الذهب والعاج والأبنوس والرقيق والبخور ، مقابل بضائعهم التى كانوا يحضرونها معهم والتى كانت تتمثل فى



الحرير والسروج والسيوف والنحاس والملح وأنواع شتى من المنسوجات ،  
فيبيعونها ويشترون الذهب والجلود والعاج والعبيد وغير ذلك (٢٧) .

ونستطيع القول إن هذه العلاقة التجارية بين العرب المسلمين ومنطقة القرن  
الأفريقي والحبشة التي بدأت في القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) وازدهرت  
بعد القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) أدت إلى انتشار اللغة العربية  
في تلك البلاد . ولقد نمت هذه العلاقة بطريقة سليمة طبيعية منذ ذلك التاريخ إلى  
أن تمت بانتشار الإسلام في كل بلاد أفريقية الشرقية . فالتجارة بطبيعة الحال  
تلزمها لغة التفاهم بين البائع والمشتري ، كما تولد الصلة بينهما ، وبما أن اللغة  
العربية كانت أرقى من اللغات المحلية ، فقد كان من الطبيعي أيضاً أن تكون هي  
المستعملة في تلك الجهات . ومن الطبيعي أيضاً أن يلتقطها التجار والأهالي  
المحليون من إخوانهم العرب وينشروها فيما بينهم . فهذه العلاقة التجارية إذن هي  
التي وضعت الحجر الأساسى للغة العربية في أفريقية الشرقية ، وبدأ أولئك التجار  
يدخلون كلمات وتعابير عربية في تلك المناطق ، فانتشرت تلك الكلمات والتعابير  
تدريجياً حتى توغلت في ربوع أفريقية ، واندمج بعضها في اللهجات المحلية ،  
وخاصة بعد انتشار الإسلام . ومما يؤكد هذا وجود كلمات عربية كثيرة في بعض  
اللغات الأفريقية مثل لغة السواحلي والأحباش ، وخاصة أسماء تلك البضائع التي  
كانت تصدر إليها من اليمن وعمان والحجاز في تلك القرون الماضية ، هذا فضلاً  
عن الكلمات والتعابير الإسلامية التي دخلت مع الإسلام . فنجد في اللغة  
السواحلية والأثيوبية مثلاً أن أسماء هذه البضائع عربية ، فكلمات السرج والحرير  
والزعفران واللجام والقلم والدواة وأمثالها ، كلها وافدة على اللغة السواحلية  
والأثيوبية ، وتنطق بتحريف بسيط (٢٨) . لذلك يمكن القول أن اللغة العربية قد  
تركت آثارها في عدد من اللغات المحلية لدرجة كبيرة . وظهر هذا الأثر واضحاً  
في لغة السواحلي وبعض اللهجات الأثيوبية والصومالية والأرتيرية إذ يوجد في  
هذه اللغات الكثير من الكلمات ذات الأصول العربية ، بل إن الحروف العربية



استخدمت فى كتابة اللغة العربية السواحيلية منذ زمن مبكر ، كما استخدمت فى اللغات الصومالية والأمهرية (٢٩) .

وقد ساعد على انتشار اللغة العربية والتمسك بها ، فضلاً عن الجانب الدينى المرتبط بها ، أن الكثير من الشعوب الأفريقية فى منطقة القرن الأفريقى وعلى طول الساحل الشرقى الممتد من زيلع شمالاً إلى سوفالا جنوباً ، ادعت الأصول الشرقية . لقد ادعى ملوك أوفات وهرر وزيلع ومقديشو وكلوه وغيرهم ، أنهم انحدروا من الشرق . كذلك من العوامل التى ساعدت على انتشار اللغة العربية فى أفريقية الشرقية الإسلامية هجرة القبائل العربية إلى تلك البلاد واستقرارها فيها . وهذه الهجرات - كما سبق القول - قديمة وسابقة على دخول الإسلام . وازدادت بانتشار الإسلام . ثم أن مصاهرة العرب مع القبائل الأفريقية ساعد على انتشار اللغة العربية بجانب الإسلام مثل قبائل الأمهرة والدناقل والاريتريين والأحباش والصوماليين . وهكذا ظفر الإسلام واللغة العربية بنجاح كبير فى هذه البلاد ، فأدى ذلك إلى تقدمها وتطورها ، وتطلعت إلى البلاد الإسلامية فى الشرق والشمال الشرقى من أجل العقيدة والمدنية ، ولم تحل صعاب البحر والمحيط دون الاجتياز (٣٠) .

ويقتزن العهد الزاهر للغة العربية والعلوم العربية الإسلامية فى منطقة القرن الأفريقى بصفة خاصة ، وبلاد شرق أفريقية بوجه عام ، بعهود الدول الإسلامية الكبرى ، أوفات ، زيلع ، هدية ، مقديشو وكلوة ، وبقية دول الطراز الإسلامى بصفة عامة . ذلك أن اللغة العربية صارت هى اللغة الرسمية السائدة فيها ، واستخدمت فى شتى الأغراض وأوفت بها ، كما استخدمت فى مجال الحكم والإدارة والقضاء ، ثم صارت لغة المكاتبات الرسمية بين هذه الدول والعالم الإسلامى الخارجى . ووجد فى الدواوين المصرية زمن المماليك صيغ عربية لمخاطبة ملوك تلك البلاد ، لابد من تصدير المكاتبات بها (٣١) .

يتضح من هذا العرض السريع أن اللغة العربية كانت اللغة السائدة فى العصور الوسطى فى تلك البلاد الإسلامية ، واستمرت كذلك حتى بداية التدخل الأوروبى فى شئون البلاد الأفريقية الإسلامية . فكانت اللغة العربية طيلة هذه القرون هى لغة الدين والثقافة والتجارة ، ثم إنها لغة الحكومة والإدارة والقضاء ، كما أصبحت لغة التفاهم فى كثير من بلاد الأحباش والصومال والسواحلى بصفة عامة (٣٢) مع وجود اللغات المحلية كلغة الأمهرا والتيجرى والبنى عامر والدناقل والصومال والسواحلى . هذا بالإضافة إلى بعض اللهجات الأفريقية القديمة كلغة البانتو والبوشمن والهوتنتوت . كذلك كانت اللغة العربية ، هى لغة المراسلات الدولية والوثائق والمعاهدات (٣٣) .

وقد مر ازدهار اللغة العربية الذى جاء مقرونًا بانتشار الإسلام فى إفريقية بوجه عام ، بمراحل عديدة :

ذلك المعروف أن الإسلام أخذ ينتشر فى تلك البلاد منذ ظهوره ، وساهم الأفريقيون مع العرب فى نشر الدعوة الإسلامية منذ مطلع القرن الأول الهجرى ، كما إن ازدياد الهجرات العربية والإسلامية أدت إلى ازدياد الداخلين فى الإسلام . كذلك ساعد على ذلك أن الصلة التجارية والثقافية قديمة منذ الأزمنة السحيقة بين بلاد القرن الأفريقى (الحبشة والصومال) وبلاد العرب . وتحت مظلة الإسلام كثرت هجرات المسلمين ، من العرب والفرس وغيرهم . واحتكر التجار المسلمون عملية الاتصال بهذه البلاد لأسباب دينية وتجارية ، واستقرت أعداد كبيرة منهم فى تلك البلاد ، يضاف إلى ذلك جهود دول الطراز الإسلامى ، (٣٤) التى تفانى ملوكها فى نشر الإسلام واللغة العربية بين سكان هذه البلاد من الأمهرا والتيجرى والصوماليين والأحباش والارتيريين . وقد بلغت هذه الدول ذروة قوتها وعظمتها خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين ( العاشر والحادى عشر الميلاديين ) ، فقامت بدور كبير فى نشر الإسلام والعلوم الإسلامية العربية (٣٥) .

ولا أدل على ذلك مما ذكره ابن بطوطة من أن ملوك هذه البلاد كانوا شديدي الحماسة لنشر الإسلام واللغة العربية بين قومهم وبين القبائل الأفريقية المجاورة من ناحيتي في الغرب والجنوب (٣٦). وكانت حماسة هؤلاء الملوك من العناصر الهامة التي أسهمت في ازدياد انتشار الإسلام ، كما أن الصلات المتنوعة والجهود البارزة لملوك دول الطراز الإسلامي أدت إلى اتساع رقعة البلاد الإسلامية في شرق أفريقيا . ولما كانت الحبشة جزءاً من شرق أفريقيا ، فلا ريب أن الإسلام داخلها وانتشر بين سكانها ، بدرجات متفاوتة ، وذلك بفضل جهود ملوك دول الطراز المجاورين لها ، أو الخاضعين لسيادتها في بعض الفترات . والراجح أن عددًا كبيراً من سكان الحبشة المسيحية قد اعتنق الإسلام ، وأن مظاهر هذا الدين من الشعائر والمساجد والثقافة واللغة العربية ، قد وجدت طريقها إلى بلاد الحبشة منذ زمن مبكر ، قبل قيام الطراز الإسلامي ، بدليل بروز آثار الطراز الإسلامي في بلاد الحبشة والقرن الأفريقي بوجه عام ، وبخاصة في هدية وأوفات ودوارو وأراييني وشرخا وبالي وهرر وزيلع . وقد ضمت أوفات وحدها نحو اثني عشر مسجداً ، وكذلك هدية وهرر ، وألحق بكل مسجد مدرسة لتعليم القرآن وقواعد الدين واللغة العربية . هذا إلى أن نواحى هذه البلاد كانت مملوءة بالعلماء والفقهاء والأئمة ، (٣٧) وأصبحت مدن هذه البلاد مثل أوفات وزيلع وهدية وشرخا وهرر مراكز ثقافية عربية إسلامية ، كما كانت مراكز لنشر الدعوة الإسلامية . وكانت اللغة العربية هي لغة العبادة والثقافة الوحيدة في البلاد ، هذا إلى جانب كونها لغة التجارة المستعملة في التبادل التجاري والمكاتبات . وتبوءت هذه اللغة في الحبشة والطراز الإسلامي المكانة التي تبوءتها اللغة اللاتينية في غرب أوروبا في العصور الوسطى ، بل زادت عليها ، إذ بقيت اللغة العربية بتلك البلاد لغة الدين والثقافة حتى في العهد الاستعماري في أفريقيا ، بينما زالت اللغة اللاتينية تدريجياً أمام زحف اللغات الجرمانية القومية بأوروبا بتلك العصور . وقد شهد بعض المكتشفين والمستعمرين في مطلع العصور الحديثة ، بأن إمام سكان شرق أفريقية باللغة العربية ، يفوق إمام أوروبا باللغة اللاتينية في العصر الوسيط (٣٨).

ومما يذكر أن ملوك دول الطراز الإسلامى كانوا يرسلون العلماء لبث العقيدة الصحيحة . وكان أن أقبل الأفريقيون المسلمون من سكان هذه البلاد على مناهل العلم العربية فى حماسة تلقائية ، بسبب ما اتصف به انتشار الإسلام ولغته من تسامح وفضائل ، وبفضل ما أمتاز به المسلمون الذين استقروا فى هذه البلاد ، والذين اتصلوا بتلك البلاد ، من كفاءة وخبرة وأمانة وصدق فى شتى الميادين الاقتصادية والإدارية فضلاً عن الجانب الثقافى ، ذلك أن المسلمين يمثلون حضارة رفيعة ومدنية سامية ، بدليل استعانة ملوك دول الطراز بهم فى أجل أعمالهم . والمسلمون فى بداية الأمر كانوا وحدهم هم الذين يعرفون القراءة والكتابة ، لذلك كانوا عوناً للملوك (٣٩) ، وهذا دليل على انتشار الثقافة الإسلامية التى توسعت وانتشرت مع ازدهار دول الطراز الإسلامى .

وبالإضافة إلى الدور الذى قام به التجار والدعاة فى نشر الإسلام فى بلاد القرن الأفريقى وما جاورها شمالاً وغرباً وجنوباً ، هناك عامل آخر ساعد على نشر الإسلام واللغة العربية فى تلك البلاد المجاورة من الحبشة وارتيريا حتى الصومال الشمالى وهضبة البحيرات وأعالى نهر النيل الأزرق ، وذلك بفضل الهجرة التى قام بها التجار المسلمون من مقديشو ومركه وبرأوة إلى مدن القرن الأفريقى ، وخاصة أثر غزو الشيرازيين الفرس لتلك البلاد والاستيلاء عليها ، فانتشر التجار فى هذه البلاد وأقاموا مراكز تجارية أصبح لبعضها أهمية عظيمة وأثر كبير فى نشر الدين والثقافة العربية فى شرق أفريقية (٤٠) .

وكان أن وجدت المدارس الكثيرة أيضاً فى جميع المدن المشهورة بمجوار المساجد ، مثل مدارس هدية وبالى وشرخا وأوفات . ويقول ابن بطوطه أن أهل مدينة زيلع قدماء فى الإسلام ولهم ديانة وطلب علم . وبجانب الاهتمام بالقرآن ، كما ذكر ابن بطوطه ، هناك الاهتمام بلغة القرآن ، وهى اللغة العربية التى

أكتسبت مساحة من التقديس عند مسلمى شرق أفريقية عامة (٤١). ولم تكف قبائل هذه الدول بدخول الإسلام ، بل طبعت بطابع عربى بسبب انتشار اللغة العربية فى تلك البلاد . وهناك خصائص معينة فى نطق الحروف العربية عند مسلمى شرق أفريقية ، أما طريقة الكتابة ، فهى طريقة الخط الكوفى .

وقد ساعد ازدهار دول الطراز الإسلامى ، واتساع رقعتها وعظمة ملوك المسلمين فيها وتفانيهم من أجل خدمة الإسلام والثقافة الإسلامية ، على أن تترك اللغة العربية أثراً قوياً فى اللغات المحلية ، ولا سيما لغات السواحلى والأمهرا والتيجرى ، فاستخدمت اللغة العربية منذ ذلك التاريخ فى كتابة اللغة السواحلية ولا تزال إلى اليوم .

كذلك كان العامل التجارى من عوامل ازدهار اللغة العربية وانتشارها على نطاق واسع حول هضبة الحبشة والبحيرات وما جاورها . وكانت طرق القوافل التجارية تبدأ من زيلع وأوفات وتتجه إلى الجنوب عن طريق هدية وبالى إلى أن تصل أكسوم وهرر إلى داخل أثيوبيا . وهذا مما سهل وصول التجار المسلمين إليها وبالتالي دخول الإسلام وتعلم اللغة العربية . ولا شك أن التجار هم الذين ادخلوا الإسلام فى تلك المنطقة (٤٢) .

لقد استطاع ملوك هدية وبالى وأوفات فى أيام ازدهار دولهم إيجاد علاقة سياسية وتجارية بين حكوماتهم والبلاد العربية الإسلامية ، وخاصة الحجاز واليمن ومصر . وبالطبع فهناك الكثير من المراسلات التى جرت بين هذه الدول وتلك البلاد العربية والظاهر أن العلاقة مع الحجاز كانت قوية بسبب الحج ، إذ إن من المعروف أن كثيراً من ملوك أوفات وهدية كانوا يؤدون تلك الفريضة (٤٣) .

ولا شك أن العلاقة التى كانت موجودة فى تلك القرون الغابرة قد ساعدت كثيراً فى نشر الثقافة العربية الإسلامية فى تلك المنطقة ، فقد انتشر فيها



التعليم وكثر من يتكلم باللغة العربية ، وكثر العلماء . ومما ساعد في نشر اللغة العربية وجود عدد كبير من العرب الوافدين إليها من اليمن ، ومن قبائل ربيعة التي استقرت بعض بطونها في بعض مدن هذه البلاد حتى ارتيريا (٤٤) .

ويضاف إلى هذه الأدوار ما قامت به بعض القبائل العربية مثل قحطان وربيعة وبعض القبائل اليمنية مثل الأزد وغيرهم ، وقد اشتدت حماسة هذه القبائل لنشر الإسلام في زمن ازدهار دول هدية وبالي وأرابيني ، فانتشرت الثقافة العربية الإسلامية بفضل جهود ملوكها الذين نشروا الإسلام والثقافة الإسلامية في مناطق عديدة يقع بعضها في الهضبة الحبشية وبعضها الآخر في منطقة البحيرات ، لذلك تمثل هذه الدول وقبائلها العربية العصر الذهبي لازدهار وانتشار اللغة العربية وتقدم العلوم والثقافة الإسلامية في بلاد شرق أفريقية (٤٥) .

وعندما قام الإمام أحمد ابن جرا بالجهاد ونشر الإسلام في القرن العاشر الهجري ، كان أكبر همه بعد تخطيط الوثنية والقضاء على الحركة الصليبية النصرانية، نشر مبادئ الإسلام الصحيحة والثقافة العربية . ولم يكن أيضاً حكام هذه البلاد الذين نظموا دولهم وإماراتهم حسب النظم الإسلامية يدعون أنفسهم أو يدعوهم الناس سلاطين أو أمراء ، إنما كانوا يدعون مؤدبين أو معلمين أو شيوخاً لعلمهم وورعهم بالإضافة إلى أهميتهم ومكانتهم .

إن هؤلاء الحكام هم الذين باشروا الحكم بين رعيتهم حسب الشريعة الإسلامية ، كما كانوا يباشرون الأمور السياسية ، ويؤمنونهم في الصلاة . وفضلاً عن ذلك فقد كانوا يقومون بتدريس العلوم الدينية في أوقات فراغهم، وكانوا مثلاً في التواضع والزهد . وعلى الرغم من أن دول الطراز الإسلامي لم تفتح مدارس رسمية نظامية على النظام المدرسي الحديث ، فإنها شجعت التعليم تشجيعاً بالغاً ، فكان معظم الملوك والحكام دعاة ومعلمين . كذلك كان الوزراء والقضاة ، وكانوا كلهم يجعلون بيوتهم مدارس ويفتحون أبوابهم على مصاريعها لطلاب



العلم ولغير الطلاب من كافة المسلمين ، وكان من الطبيعي أن يقلد الطلاب قاداتهم وأساتذتهم ، ومن ثم كثرت المدارس القرآنية ، وتعددت المجالس العلمية فى معظم مدن دول الطراز الإسلامى وانتشر التعليم الدينى ، وكثر التأليف ، فأصبح ذلك العصر عصر النهضة فى شتى العلوم النقلية وغيرها . ويمكن القول إن تعليم اللغة العربية نال أهمية كبيرة فى فترة ازدهار هذه الدول (٤٦) .

ولم تكن مناهج الدراسة فى تلك المدارس القرآنية منظمة تنظيمًا دقيقًا كالذى نعرفه الآن فى المدارس ، ولم تكن محدده . لكن يتنقل الصبى فى تلك المدارس الكثيرة من المرحلة الأولية وهى المدارس القرآنية ، حتى يصل إلى مستوى الكبار ، ثم يدخل فى سلك العلماء ويقتفى أثرهم فيدرس كما يدرسون . وكان الطلبة دائمًا يعتمدون على الكتب التى تدرس ، وعلى المدرس الذى يدرسها على طريقة الأزهر القديم ، حيث إن أساس التعليم مبنى على الشيخ والكتاب فقط . وكان الطالب ينتقل من مدرس إلى آخر ، وربما كان الانتقال فى بعض الأحيان من بلد إلى آخر التماسًا للعلم حتى يأخذ كفايته (٤٧) . لقد عكف العلماء على تعليم اللغة العربية وتعلموها لغة وأدبًا ، وألفوا بها كتبًا كثيرة فى شتى الفنون . وأنتج العلماء والأدباء فى تلك الفترة كثيرًا ، وألفوا كتبًا ورسائل عالجا فيها الكثير من المشكلات الدينية والاجتماعية والسياسية (٤٨) .

وقد أعطى المجتمع الإسلامى فى بلاد شرق أفريقية العلم منزلة عالية ، وتمنى كل طالب أن يكون عالمًا من علماء الدين ، واندفعوا إلى مجالس الفقهاء والعلماء للتزود من مناهلهم العلمية . وبذل العلماء مجهودات هائلة لأداء رسالتهم العلمية ، وساعد على ذلك قرب المنطقة من مواطن الحضارة الإسلامية فى مكة والمدينة والقاهرة ودمشق . ونزحت إلى هذه البلاد جميع الفرق والمذاهب المعروفة - آنذاك - فى العالم الإسلامى ، كما رحل كثير من أبنائها إلى تلك البلاد ، فتوحدت الحياة الثقافية . وركز سلاطين الطراز على الالتزام بخلق الإسلام فى المجتمع ، وفى الإدارة الحكومية ، كما اتخذوا ألقابًا متصلة بالدين كسعد الدين وجمال الدين

ومعز الدين وغيرها . كذلك أصبح العلماء مجموعة ذات وجود مؤثر فى البلاط السلطاني فى الحياة الثقافية والاجتماعية فى هدية وأوقات وهرر وزيلع واراينسى . وقاد العلماء حركات الجهاد كالشيخ محمد أبى عبد الله والشيخ حق الدين الثانى وأحمد بن إبراهيم الجران ، كما تولى بعضهم مهمة السفارات كالشيخ عبد الله الزيلعى (٤٩) .

ومهما يكن من أمر ، فقد ازدهرت الحركة العلمية ، وتعدد العلماء والفقهاء الذين يقومون بأمور الدولة ، ويتدريس الدين واللغة العربية التى تدون بها الدواوين على الطريقة الإسلامية . كما كان لدول الساحل الإسلامية مثل كلوه وأوقات وهدية وأراينسى قضاء ومحاكم شرعية وأئمة للمساجد وكتبة ، مما استدعى وجود طائفة متمكنة من الثقافة الإسلامية . كذلك ساعد ازدهار دول الطراز واتساع رقعتها ، وعظمة ملوكها ، وتقانيهم فى خدمة الإسلام والثقافة الإسلامية ، على استمرار هجرة العلماء فى أيام السلطان جمال الدين الثانى من سلاطين الطراز الإسلامى ، وقد نزل عدد من هؤلاء فى مدينة بركة عام (٨٣٤هـ/١٤٣٠م) ، ثم انتشروا فى مدن دول الطراز المختلفة (٥٠) .

وبفضل هجرة العلماء واستمرارها ظلت العقيدة والثقافة الإسلامية ثابتة ، حتى فى أصعب أوقات الشدة التى تعرضت لها هذه الدول فى نضالها المستمر ضد حملات الصليبيين عليها من وقت لآخر . وأدى ازدهار الحركة العلمية فى ربوع هذه البلاد إلى تعدد المؤلفات العلمية وكتب الفقه والحديث والتفسير . ومن أهم ما وصل إلينا منها كتاب " تاريخ عمر ولشمع وامبراطوريته " للشيخ أبى بكر باعلوى ، وفتوح الحبشة لشهاب الدين الجيزانى " عرب فقيه " (٥١) .

ومما ساعد على ازدهار الحركة العلمية ، وانتشار اللغة العربية فى بلاد الطراز ، انتشار الطرق الصوفية وظهورها فى شرق إفريقيا فى فترة العصور الوسطى . وكان أوسع تلك الطرق انتشاراً الطريقة القادرية والشاذلية ، بجانب

طرق أخرى مثل الرفاعية والأحمدية والإدريسية وغيرها . وكانت لكل طائفة زواياها الخاصة التي يجتمع فيها المريدون للذكر . وقد امتدت الطوائف على طول مدن الساحل وجزره ، بل لقد امتدت لتشمل الداخل أيضًا . وساهمت هذه الطرق بقدر وافر في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية في ربوع الطراز الإسلامي (٥٢) .

وفي ضوء ما تقدم ، يتضح أن حركة التعليم ونشر الثقافة العربية الإسلامية قد تطورت ووصلت منزلة رفيعة خلال فترة ازدهار دول الطراز الإسلامي في الحبشة؛ لأن هذه الدول قامت على أساس إسلامي خاضع لقوانين شرعية ونظم دقيقة لا بد من دراستها ومعرفتها قبل تطبيقها . ولما كانت هذه الدول تقوم على نظم إسلامية ، فقد كان من الطبيعي أن تدور فيها الدواوين على الطريقة الإسلامية ، وأن تكون فيها محاكم شرعية وقضاة . لذلك أدرك المستعمرون عند دخولهم هذه البلاد خطورة اللغة العربية حيث كانت اللغة الرسمية ولغة الثقافة ، فحاولوا بكل ما يستطيعون من قوة أن يزيلوا اللغة العربية من مكانها ، ليجعلوا اللغات الإنجليزية والإيطالية والفرنسية هي الرسمية في تلك البلاد ، وجعلوا هذه اللغات هي المستخدمة في الدواوين والمكاتب الحكومية . كذلك استبدلت الحروف العربية التي كانت تكتب بها اللغات واللهجات الأفريقية بالحروف اللاتينية في المدارس الحديثة التي أنشأوها ، وشجعوا الإرساليات والمنظمات المسيحية في هذه البلاد ، وسهلوا لها كل الطرق والوسائل لنشر الدين المسيحي والثقافة المسيحية . لكن برغم ذلك تركت اللغة العربية أثرها البارز في شعوب أفريقية المختلفة ، ويظهر ذلك واضحًا وجليًا في لغاتهم المحلية . ولا تزال إلى اليوم آلاف الكلمات العربية مستخدمة في شرق أفريقية في شتى مظاهر الحياة : الدينية والثقافية والاقتصادية، سواء في الحرب والسياسة ونظم الحكم والحياة الاجتماعية، وحتى في أسماء الأعلام والمدن والحيوانات والنباتات . ولا تزال اللغة العربية

متفوقة من حيث سعة الانتشار والبقاء بسبب مكانتها الدينية ؛ بوصفها لغة القرآن الكريم والعقيدة الإسلامية .

وبعد ، فإن شرق أفريقية كان وما زال جزءاً هاماً من دار الإسلام ، متميزاً في إطارها ، نابضاً بكل ما نبضت به الحضارة الإسلامية في أثناء القرون الوسطى من ألوان الحياة الفكرية والعلمية والنظم السياسية والاجتماعية وإبداعاتها الأدبية والفنية ، متفاعلة معطياتها في كل تلك الأبواب مع معطيات مثيلاتها من الشعوب الإسلامية وغير الإسلامية في القارتين الآسيوية والأفريقية .

## الهوامش والتعليقات

(١) للحصول على تفصيلات أكثر عن وصول ثم انتشار الإسلام في كل من بلاد الحبشة والصومال ، انظر . جلال الدين السيوطي . أزهار العروش في أخبار الحبوش . مخطوط مصور عن نسخة بالأرسكوريال ، ميكروفيلم رقم (٢٧) تاريخ ، دار الكتب بالقاهرة ؛ عبد الرحمن بن الجوزي . تنوير الغبش في فضل السودان والحبش .

مخطوط مصور عن نسخة بالأرسكوريال ، ميكروفيلم رقم (٢٩) تاريخ ، دار الكتب بالقاهرة ؛ أبو محمد عبد الملك ابن هشام . السيرة النبوية . تحقيق مصطفى السقا وآخرين (د.ت) ، ج١، ص ٣٢١-٣٢٢ ، ابن حجر العسقلاني . فتح الباري . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب (د.ت) ، ج٧، ص ١٨٨ ؛

غيثان بن علي بن جريس . بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية . ( الأسكندرية ، ١٩٩٤ م ) ج١، ص ١١-٣٧ ؛ للمؤلف نفسه " تطور العلاقات السياسية والتجارية بين الحبشة وبلاد النوبة وبين الحجاز في صدر الإسلام " . مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . العدد (٨) رجب ( ١٤١٣ هـ ) ص ٤١٢-٤٣٣ .

J . Spencer Trimingham . Islam in Ethiopia ( London, 1976 ) pp 46 ff.

(٢) للمزيد من التفصيلات ، انظر : أبو الحسن علي بن الحسن المسعودي . مروج الذهب ومعادن الجوهر . ( القاهرة ، ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م ) ج١، ص ١١٢ وما بعدها ؛ شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي . معجم البلدان ( بيروت ، ١٣٢٤ هـ / ١٩٠٦ م ) ج٣، ص ٣٤٣ وما بعدها ؛ فاضل حوراني . العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور الوسطى القديمة وأوائل القرون الوسطى .

ترجمة يعقوب بكر ( القاهرة ، ١٩٥٨ م ) ص ٥٢ وما بعدها ؛ غيثان بن علي بن جريس " العرب في مقدشو وأثرهم في الحياتين السياسية والثقافية في ظل الإسلام " مجلة المؤرخ العربي . العدد الأول ، المجلد (١) ( القاهرة ، ١٩٩٣ م ) ص ١٢٨-١٥٨ ؛ للمؤلف نفسه . الهجرات العربية إلى ساحل شرقي أفريقية في العصور الوسطى وآثارها الاجتماعية والثقافية والتجارية حتى القرن الرابع الهجري ( كتب نشر من مركز بحوث كلية التربية بفرع جامعة الملك سعود بأبها ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م ) ص ٥ وما بعدها .

G .S .P Freeman & Grenville The East African Coast ( Select Documents from the first to the earlier Nineteenth Century ( Clarendon Press , 1962 ) PP . 33 ff ; R.Reusch.History of East African ( Newyork , 1916 ) PP . 11 ff; R. Coupland . East Africa and its Invaders ( Oxford , 1938 ) pp . 15 ff .



(٣) محمد بن حبيب . كتاب المنق في أخبار قریش . تحقيق خورشيد أحمد فاروق (بيروت ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٥م) ص ٤٠١ وما بعدها ، غيثان أبو عثمان الجاحظ . التبصر بالتجارة . تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب (بيروت ، ١٩٦٦م) ص ٣٤ ؛ إبراهيم رزقانه ، ومحمد صفى الدين . الجغرافية الطبيعية (القاهرة ، ١٩٦٣م) ص ٢٩٢ وما بعدها .

M.J.Kister

. " Some Reports Concerning Mecca from Jahiliyya to Islam " **Studies in Jahiliyya and Early Islam** ( London , 1980 ) pp . 61 ff ; Patricia Crone . **Meccan Trade and the Rise of Islam** ( Oxford , 1987 ) pp . 23 ff ; Coupland , **East African its Invaders** , pp . 16 ff , Reusch , **History of East African** , pp . 12 ff.

(٤) للمزيد من التوضيحات انظر . ياقوت الحموى . معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٤٢ وما بعدها ؛ جواد على . المفضل على . الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ( بغداد ، ١٩٧٧م ) ج ١ ، ص ٤٤ وما بعدها ، أحمد فخرى . دراسات في تاريخ الشرق القديم ( القاهرة ، ١٩٦٣م ) ص ١٢٥ وما بعدها ؛ غيثان بن على بن حريس . الهجرات العربية إلى ساحل شرقى أفريقية فى العصور الوسطى وآثارها الاجتماعية والثقافية ... ص ٨ وما بعدها ، للمؤلف نفسه " العرب فى مقديشو ... " ، ص ١٢٨-١٣١ ؛ جورج حوارنى ، العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، ص وما بعدها .

Patricia Crone **Meccan Trade and the Rise of Islam** , pp . 20 ff , 124 ff .

(٥) وللإطلاع على تفصيلات أكثر حول علاقة العرب بالجزء الشرقى من أفريقية، وعن انتشار الإسلام فى تلك الأجزاء ، انظر . محمد بن عمر الواقدى . كتاب المغازى . تحقيق مارسدن جونز (بيروت ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ج ٣ ، ص ٩٨٣ وما بعدها ؛ محمد بن إسحاق الفاكهى . كتاب المتقى فى أخبار أم القرى ( نشرة وستفلد ) ج ٢ ، ( ليبزج ، ١٨٥٩م ) ص ٤٤ وما بعدها ؛ يوسف فضل حسن . دراسات فى تاريخ السودان ( جامعة الخرطوم ، ١٩٧٥م ) ج ١ ، ص ٣ وما بعدها ، غيثان بن على بن حريس . بحوث فى التاريخ والحضارة الإسلامية ، ج ١ ، ص ١١-٢٧ ، ٢٥٩-٢٧٣ ؛ للمؤلف نفسه " تطور العلاقات السياسية والتجارية بين الحبشة وبلاد النوبة وبين الحجاز " ، ص ٤١٤ وما بعدها ؛ السر سيد أحمد العراقى . " الإسلام ومراكز الثقافة الإسلامية فى أثيوبيا " ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم فى الحضارة العربية الإسلامية ، الخرطوم ٢٨/٣٠ يوليو م " (بغداد ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ص ١٦٤ وما بعدها .

Sir E.A.W. Budge. **Ahistory of Ethiopia & Abyssinia** ( London , 1928 ) VOL.I , pp . 120 ff ; Trimingham , **Islam in Ethiopia** pp . 44ff.

(٦) ابن هشام ، السيرة ، ج١، ص٣٢٨-٣٣٥ ، محمد بن جعفر بن جرير الطبري . تاريخ الرسل والملوك . تحقيق أبو الفضل إبراهيم (بيروت ، د.ت) ج٢ ص٣٢٨ وما بعدها ، عماد الدين ابن كثير . البداية والنهاية . (بيروت، ١٩٧٨م) ج٣ ، ص٦٦ ، ٧١ وما بعدها ، أحمد حفي القناني . الجواهر في تاريخ الحبشان ( القاهرة ، ١٣٢١هـ ) ص ، ج ؛ الشاطرة بوصيلي عبد الجليل . معالم تاريخ السودان ووادي النيل " ( القاهرة ، ١٩٧٥م ) ص ٩ وما بعدها ؛ عبد المجيد عابدين . بين الحبشة والعرب ( القاهرة ، ١٩٤٧م ) ص ١٦ وما بعدها . محمد محمد أمين . تطور العلاقات العربية الأفريقية في العصور الوسطى ( القاهرة ، ١٩٧٧م ) ص ٣٣ وما بعدها ، إبراهيم على طرخان . " الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة في العصور الوسطى " . المجلة التاريخية المصرية ( القاهرة ، ١٩٥٩م ) المجلد الثامن ، ص ٥ وما بعدها . عبد الشافي غنيم عبد القادر . " البحر الأحمر طريقاً للدعوة الإسلامية " البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة ، أبحاث الأسبوع العلمي ١٠-١٥ مارس ١٩٧٩م ( القاهرة ، ١٩٨٠م ) ص ٧٨ وما بعدها .

(٧) للمزيد من التفاصيل انظر . المسعودي ، مروج الذهب ، ج١، ص٥١-٥٢ ؛ أحمد بن علي المقرئ . الإمام بأخبار من بارض الحبشة من ملوك الإسلام ( القاهرة ، د.ت) ص ٢٢ وما بعدها ، أحمد حفي القناني . الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان ، ص ١٥-١٦ ، يوسف فضل " انتشار الإسلام في السودان وادي النيل " ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم في الحضارة الإسلامية ( الخرطوم ٢٨/٣٠ يوليو تموز ١٩٨٣م ) ( بغداد ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ) ص ٢٥ وما بعدها ، غيثان بن علي بن جريس . " الهجرات العربية وانتشار الإسلام في بلاد شرق أفريقية في العصور الوسطى . مجلة المؤرخ العربي . العدد الثالث ، المجلد (١) ( القاهرة ، ١٩٩٥م ) ص ٧٤-٧٧ ، للمؤلف نفسه . " سلطنة أوفات الإسلامية في العصور الوسطى ( ٦٠٠-٩٠٠هـ / ١٢٠٠-١٥٠٠م ) " مجلة المؤرخ المصري . العدد (١٦) ( يوليو / ١٩٩٦م )

Triminigham , Islam in Ethiopia , pp.5-7) C.N. Stigand . the Land of Zing ( London , 1913 ) pp . 104 ff , R.Reusch. History of East Africa pp.18-12; Yusuf Fadl Hassan . The Arabs and the Sudan (Khartoum , 1973) pp.59-66.

(٨) أبو العباس أحمد القلقشندي . صبح الأعشى في صناعة الإنشا ( القاهرة ، ١٩٠٦م ) ؛ حسن أحمد . الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ( القاهرة ، ١٩٦٣م ) ص ٤٣٥ وما بعدها ؛ جامع عمر عيسى ، مقديشو ماضيها وحاضرها ( مقديشو ، ١٩٧٩ ) ص ٣٣٢ وما بعدها ؛ غيثان بن علي بن جريس . بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية ، ج١، ص ١١ ، ٢٦٠ ؛ للمؤلف نفسه " العرب في مقديشو ... " ص ١٢٩ وما بعدها ؛ للمؤلف نفسه . " الهجرات العربية وانتشار الإسلام في بلاد وشرق أفريقية ... " ص ٧١-٧٢

Triminigham , Islam in Ethiopia, pp. 5,7,32-ff. Kameron, Abyssinie et la Mer.  
Rauge( Le Cairo, 1992) p.57ff.

- (٩) للمزيد عن تلك الدول الإسلامية التي ظهرت في القرن الأفريقي خلال العصر الإسلامي الوسيط ، انظر . المقریزی ، الإمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ، ص ٢١ وما بعدها ، إبراهيم طرخان "الإسلام والممالك بالحبشة ... " ص ٣٠ وما بعدها ؛ محمد المعتصم سيد . دول إسلامية شرق أفريقيا ( هرر والصومال ) ( القاهرة ، ١٩٦٤ م ) ص ٢٥ وما بعدها ؛ ترمينجهام . الإسلام في شرق أفريقيا - ترجمة محمد عاطف النداوى ( القاهرة ، ١٩٧٣ م ) ص ٣٢ وما بعدها . وغيثان بن على بن حريس " سلطنة أوفات الإسلامية في العصور الوسطى ... " ص ١٥٩ وما بعدها ، للمؤلف نفسه " سلطنة أوفات الإسلامية في منطقة القرن الأفريقي وعلاقتها مع العلم الإسلامي خلال العصر الإسلامي الوسيط " بحث مقبول للنشر في الجزء الأول من العدد التاسع عشر بحولية كلية البنات بجامعة عين شمس
- (١٠) للمزيد انظر ، أحمد القناني ، الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان ، ص ١٥ وما بعدها ، المقریزی ، الإمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ، ص ٢٣ وما بعدها ؛ إبراهيم طرخان " الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة " ، ص ٣٣ وما بعدها .
- (١١) حمدي السيد . الصومال قديماً وحديثاً ( مقديشو ، ١٩٦٥ م ) ج ١ ، ص ٢٧ وما بعدها ؛ إبراهيم طرخان ، الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة ، ص ٣٢ وما بعدها .
- (١٢) لقد أفردنا بحثين مستقلين عن مملكة أوفات الإسلامية ، أحدهما بعنوان : - " سلطنة أوفات الإسلامية في العصور الوسطى ( ٦٠٠ - ٩٠٠ هـ / ١٢٠٠ - ١٥٠٠ م ) ، وتم نشره في مجلة المؤرخ المصري ، وقد أشرنا لهذا البحث في ملاحظة (٧) من هذه الدراسة . أما البحث الثاني فهو بعنوان : - " سلطنة أوفات الإسلامية في منطقة القرن الأفريقي وعلاقتها مع العالم الإسلامي خلال العصر الإسلامي الوسيط " وسوف ينشر في حولية كلية البنات بجامعة عين شمس ، وقد أشرنا لهذه المعلومات في ملاحظة (٩) من هذه الدراسة أيضاً .
- (١٣) للمزيد انظر . محمد بن حبيب . كتاب المنق في أخبار قريش ، ص ٣٣ وما بعدها ، محمد ابن عبد الله اللواتي (ابن بطوطة) . رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . ( بيروت ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ) ج ١ ، ص ٢٦٩ وما بعدها ؛ حسن إبراهيم حسن . انتشار الإسلام في القارة الأفريقية ( القاهرة ، ١٩٦٣ م ) ص ٢٦ وما بعدها ؛ غيثان بن على بن حريس . " العرب قديشو ... " ص ١٣١ وما بعدها .
- (١٤) حسن أحمد محمود . الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، ص ٤٣١ ، سير توماس أرنولد . الدعوة إلى الإسلام . ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين ( القاهرة ،

١٩٧٠م) ص ٣٧٢ وما بعدها ، عبد القادر شيخ عبد الله . تاريخ التعليم فى الصومال (مقديشو ، ١٩٧٨م) ص ١١ وما بعدها .

(١٥) للإطلاع على تفصيلات أكثر عن انتشار الدين الإسلامى بين الشعوب الأفريقية، وذلك لما يتميز به الإسلام من محاسن ومناقب تختلف عن الأديان الأخرى . سيرتوماس أرنولد . الدعوة إلى الإسلام ، ص ٣٢٢ وما بعدها ، حسن إبراهيم . انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية ، ص ٢٤ وما بعدها .

(١٦) للمزيد من التفصيلات عن مملكة أوفات ، انظر . غيثان بن على بن حريس "سلطنة أوفات الإسلامية فى العصور الوسطى ( ٦٠٠-٩٠٠هـ ... " ص ١٥٣-١٨٩ ) للمؤلف نفسه " سلطنة أوفات الإسلامية فى منطقة القرن الأفريقى وعلاقاتها مع العالم الإسلامى خلال العصر الإسلامى الوسيط " بحث مقبول للنشر فى الجزء الأول من العدد (١٩) حولية كلية البنات بجامعة عين شمس ( أكتوبر/ ١٩٩٦م ) .

(١٧) انظر القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ٣٣٢ وما بعدها .

(١٨) عماد الدين أبو الفداء . كتاب تقويم البلدان (باريس ، ١٨٤٠م) ص ، ١٦٠-١٦١ ؛ القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ١٣٠ .  
(١٩) أبو الفداء ، كتاب تقويم البلدان ، ص ١٦٠ ، الشاطر بوصيلى عبد الجليل . معالم تاريخ السودان ووادى النيل ، ص ٦-٧ .

Trimingham , Islam in Ethiopia , pp.58-9.

(٢٠) للمزيد من التفصيلات عن مملكة هدية . انظر : أبو الفداء ، كتاب البلدان ، ص ١٦٠ وما بعدها ؛ زاهر رياض . الإسلام فى أثيوبيا فى العصور الوسطى (القاهرة ، ١٩٦٤م) ص ٩٥-٩٧ .

Trimingham , Islam in Ethiopia , pp . 60-2 .

(٢١) للمزيد انظر ، إبراهيم طرخان " الإسلام والممالك الإسلامية بالحشة " ص ٣٤-٣٧ .

(٢٢) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٣٤ وما بعدها ، إبراهيم طرخان " الإسلام والممالك الإسلامية بالحشة ... " ص ٣٣ وما بعدها .

(٢٣) انظر القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٣٥ وما بعدها ، إبراهيم طرخان " الإسلام والممالك الإسلامية بالحشة " ص ٣٦-٣٨ .



- (٢٤) حمدى السيد . الصومال قديماً وحديثاً ، ص ٣٩٤ وما بعدها ، غيثان بن على بن جريس " سلطنة أوفات الإسلامية فى العصور الوسطى ( ٦٠٠ - ٩٠٠ هـ ... ) ص ١٥٣ وما بعدها .
- (٢٥) لمزيد من التفصيلات ، انظر . شهاب الدين أحمد بن عبد القادر عرب فقيه . تحفة الزمان ( أو ) فتوح الحبشة . مخطوط نشره مع المقدمة بالفرنسية ، رينية باسيه ، وحققه فهيم محمد شلتوت ( القاهرة ، ١٣٩٤ م ) ص ٧٥-٧٩ ؛ فتحى غيث . الإسلام والحبشة عبر التاريخ ( القاهرة ، د.ت ) ص ٥٣ وما بعدها .
- (٢٦) انظر ، عبد الشافى عبد القادر " البحر الأحمر طريق للدعوة الإسلامية " ص ٧٩ وما بعدها ؛ يوسف فضل " انتشار الإسلام فى السودان وادى النيل " ، ص ٢٧ وما بعدها ؛ السر سيد أحمد العراقى " الإسلام ومراكز الثقافة الإسلامية فى أثيوبيا والصومال " ، ص ١٦٦ ما بعدها .
- (٢٧) الجاحظ ، التبصر بالتجارة ، ص ٣٣ وما بعدها ، شمس الدين المقدسى . أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . تحقيق دى غوى ( ليدن ، ١٨٧٧ م ) ص ٩٧، ٧٩ إبراهيم طرخان " الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة " ص ٣٨ وما بعدها .
- (٢٨) عبد الرحمن زكى . الإسلام والمسلمون فى شرق إفريقيا ( القاهرة ، ١٩٦٥ م ) ص ٧٧ وما بعدها ؛ سيرتوماس أرنولد . الدعوة إلى الإسلام ، ص ٢٧٨، ٣٦٩ وما بعدها .
- (٢٩) عبد الرحمن زكى ، الإسلام والمسلمون فى شرق إفريقيا ، ص ٧٦ وما بعدها ؛ السر سيد أحمد العراقى " الإسلام ومراكز الثقافة الإسلامية فى أثيوبيا والصومال " ص ١٦٨ وما بعدها .
- (٣٠) لمزيد من التفصيلات ، انظر ، حسن أحمد محمود . الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا ، ص ١٣٤ وما بعدها ، عبد الرحمن زكى . الإسلام والمسلمون فى شرق أفريقيا ، ص ٧٧ وما بعدها .
- (٣١) للمزيد انظر ، شهاب الدين بن فضل الله العمرى . مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار . تحقيق أحمد زكى باشا ( القاهرة ، ١٩٢٤ م ) ج ١، ص ١١-١٢ ؛ انظر كذلك الجزء الثانى من هذا الكتاب الذى لازال مخطوطاً بجامعة الأزهر تحت رقم ( ٤٤١ / ٦٧٣٥ ) ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥، ص ٣٢٣ وما بعدها .
- (٣٢) ابن بطوطة ، تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأمصار ، ج ١، ص ٦٨، وما بعدها .



(٣٣) ابن فضل الله العمرى / مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، ج-٢ ، ورقة ١٨٤ وما بعدها ، ابن بطوطة . تحفة النظار فى غرائب الأمصار ، ج-١ ، ص ٢٦٩ وما بعدها .  
(٣٤) لمزيد من التفاصيل انظر ، فاضلو حورانى . العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، ص ٥١ وما بعدها ؛ محمد محمد أمين . تطور العلاقات العربية الأفريقية فى العصور الوسطى ، ص ٣٢ وما بعدها ، غيثان بن على بن حريس . بحوث فى التاريخ والحضارة الإسلامية ، ج ١ ، ص ١١-٣٧ ، للمؤلف نفسه " الهجرات العربية وانتشار الإسلام فى بلاد شرق أفريقية " ص ٧١ وما بعدها ، للمؤلف نفسه " الهجرات العربية إلى ساحل شرقى أفريقية فى العصور الوسطى وآثارها الاجتماعية والثقافية ... " ص ٩ وما بعدها ، للمؤلف نفسه أيضاً " سلطنة أوفات الإسلامية فى العصور الوسطى ( ٦٠٠-٩٠٠ هـ / ١٢٠٠-١٥٠٠ م ) ص ١٥٣-١٨٩ .

(٣٥) ابن بطوطة . تحفة النظار فى غرائب الأمصار ، ج-١ ، ص ٢٦٨ ، المقرئى ، الإمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ، ص ٢٧ وما بعدها . محمد محمد أمين . تطور العلاقات العربية الأفريقية فى العصور الوسطى ، ص ٣١ وما بعدها ، غيثان بن على بن حريس " العرب فى مقدشو ... " ص ١٢٩ وما بعدها .

(٣٦) ابن بطوطة ، تحفة النظار فى غرائب الأمصار ، ج-١ ، ص ٢٦٩ وما بعدها .  
(٣٧) لمزيد من التفاصيل انظر ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج-٥ ، ص ٣٢٣-٣٢٧ ؛ العمرى ، مسالك الأبصار ، ج-١ ، ص ١٢-١٥ ؛ زاهر رياض . الإسلام فى أثيوبيا ، ص ٦٤ وما بعدها ؛ عبد المجيد عابدين . بين الحبشة والعرب ، ص ٢٤٢ وما بعدها .

(٣٨) توماس أرنولد ، الدعوة الإسلامية ، ص ٨٧ ، وللإطلاع على التفاصيل أكثر انظر ، محمد المعتصم سيد . دول إسلامية شرق أفريقيا ( هرر والصومال ) ، ص ٣٦ وما بعدها ، حسن أحمد محمود . الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا ، ص ٤٢٦ وما بعدها .  
(٣٩) انظر ، إبراهيم طرخان ، الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة فى العصور الوسطى ، ص ٣٧-٤٠ .

(٤٠) الشاطر بوصبلى . معالم تاريخ السودان ووادى النيل ، ص ٥٣-٥٥ ، غيثان بن على بن حريس " العرب فى مقدشو ... " ، ص ١٣٢ وما بعدها ؛ Trimingham , Islam pp . 18-21 .

(٤١) ابن بطوطة ، تحفة النظار فى غرائب الأمصار ، ج-١ ، ص ٢٧٩ وما بعدها .

(٤٢) لمزيد من التفصيلات ، انظر . عبد الرحمن بن خلدون . مقدمة ابن خلدون (القاهرة ، ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨ ) ج ٢ ، ص ٥٧١-٥٧٣ ؛ شهاب الدين عرب فقيه ، تحفة الزمان ( فتوح الحبشة ) ، ص ١٧-٢٣ .

(٤٣) حمدي السيد . الصومال قديماً وحديثاً ، ص ٣١٧ وما بعدها ؛ حسن إبراهيم حسن . انتشار الإسلام في القارة الأفريقية ، ص ٢٤٠-٢٤٢ ، صلاح العقاد . زنجبار (القاهرة ، ١٩٥٩ م) ص ٢١-٢٢ ؛ غيثان بن علي بن حريس " سلطنة أوفات الإسلامية في منطقة القرن الأفريقي وعلاقاتها مع العالم الإسلامي خلال العصر الإسلامي الوسيط ... " .

(٤٤) لمزيد من المعلومات ، انظر . شمس الدين الأنصاري الدمشقي . نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ( بطرسبورج ، ١٢٨١هـ / ١٨٦٥ ) ص ١٦٢-١٦٣ ؛ حمدي السيد . الصومال قديماً وحديثاً ، ص ٣٤٦ .

(٤٥) حسن إبراهيم حسن . انتشار الإسلام في القارة الأفريقية ، ص ٢٣٩-٢٤٢ .  
(٤٦) المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ٢ ، ص ٧-٩ ؛ المقرئ ، الإمام بأخبار من بارض الحبشة من ملوك الإسلام ، ص ١٣٣-١٣٥ .

(٤٧) عبد القادر شيخ عبد الله . تاريخ التعليم في الصومال ( مقدشور ، ١٩٧٨ م ) ، ص ١٤ وما بعدها

Freeman & Grenville , the East African Coast , pp.39-41

Reusch , History of East African , pp.154-41.

(٤٨) حسن إبراهيم حسن . انتشار الإسلام في القارة الأفريقية ، ص ٢٤٦ وما

بعدها . Marsh & Kingsnorth . An Introduction to the History of East Africa . (London , 1966) pp.31-4 .

(٤٩) لمزيد من التفصيلات ، انظر . ابن بطوطة . تحفة النظار ، ج ١ ، ص ٩٣-٩٤ ، ١٠٧ ، ٢٦٨ وما بعدها ؛ حسن إبراهيم حسن . انتشار الإسلام في القارة الأفريقية ، ص ٢٤١ وما بعدها .

(٥٠) حسن إبراهيم حسن . انتشار الإسلام في القارة الأفريقية ، ص ٢٤٤ وما

بعدها ، Freeman & Grenville The of East African Coast pp.172-3 ; History of East Africa pp.123-129 .

(٥١) شهاب الدين عرب فقيه . تحفة الزمان (فتوح الحبشة) ، ص ١٧-٢٥ .

Trimingham , Islam in Ethiopia pp . 135-7 (٥٢)

Marsh & Kingsnorth, An Introduction to the History of East African, pp . 23 ff.



# علاقة الإمارة الصفارية بالدولة العباسية

فى القرن الثالث الهجرى

د. عبد العزيز عبد الله السالم\*

المقدمة :

يتناول هذا البحث دراسة لطبيعة العلاقات التى ربطت الإمارة الصفارية والدولة العباسية خلال القرن الثالث الهجرى .

أما عن الإمارة الصفارية فهى إحدى الدويلات التى قامت على حساب الدولة العباسية عندما تعرضت للضعف والتمزق ، وكان قيامها فى إقليم سجستان الذى شهد كثيراً من الاضطرابات السياسية بسبب كثرة الخوارج فيه ، حتى قال عنه ياقوت الحموى : " وبسجستان كثير من الخوارج يظهرون مذهبهم ولا يتحاشون منه " .

وقد أدت الجهود والخدمات التى قدمها الصفاريون لولاية سجستان إلى تدعيم مكانة الإمارة الصفارية لأنها جاءت فى وقت كانت الخلافة العباسية تعاني من سيطرة الأتراك عليها إضافة إلى عجزها عن السيطرة على الثورات التى قام بها الخوارج فى سجستان .

واستطاع يعقوب بن الليث الصفار أن يقدم خدمات جليلة حيث قام بمحاربة الأتراك الدرارى وأفشل جميع مخططاتهم وحال دون تحقيق أطماعهم وتمكن من نشر الإسلام فى تلك البقاع الأمر الذى جعل عدداً من ملوك المناطق المجاورة يعترفون بسلطته بل ويعقدون معه معاهدات صداقة وتحالف ، ولم تعترض

---

(\*) أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد - جامعة الملك عبد العزيز .

الخلافة العباسية على ذلك لأن تلك الأعمال التي قام بها يعقوب بن الليث الصفار جاءت لصالح الدولة العباسية التي كانت في حاجة إلى قوة لحماية جناحها الشرقى من هجمات الترك وغيرهم من العناصر الأسيوية .

والواقع أنه يمكن اعتبار الإمارة الصفارية في كثير من فترات حكمها إمارة عسكرية إذ فرض الصفاريون أنفسهم في حكم ولاياتهم بقوة السلاح . ومع أنهم أنكروا عدة مرات سلطة الخليفة ، إلا أنهم وجدوا من الضروري الحصول على تأييد الخليفة ليكسبوا سلطتهم صبغة شرعية . ومن جهة أخرى اضطر الخليفة المعتز بالله ثم المهتدي بالله ثم المعتد بالله إلى إقرارهم في حكم ولاياتهم والاعتراف بسلطتهم وذلك دفعاً لشهرهم وحسماً لمخالفاتهم ، وحرصاً على اتحاد وترابط دولة الإسلام .

وفي الوقت نفسه اتجه يعقوب إلى المجتمع في " سجستان " فأخذ يصلح أحواله حتى استقر الوضع ، ثم اتجه إلى بلاد الترك المتاخمين لسجستان ودعاهم للإسلام .

ويبدو أن نشأة يعقوب في سجستان بين الخوارج كانت من العوامل القوية التي جعلته يتأثر ببعض أفكارهم السياسية ، وإن كانت المصادر التاريخية لم تبين مدى تأثير يعقوب بآراء الخوارج .

والواقع أننا لا نستطيع أن نطلق على " الإمارة الصفارية " لقب دولة كما يردد بعض الباحثين لأن الدولة عبارة مجموعة كبيرة من الناس تعيش على وجه الدوام على قطعة ثابتة من الأرض ، ويقوم على تنظيم هذه الجماعة وإدارة شئونها في أوقات السلم والحرب هيئة حاكمة وفق تنظيم سياسى معين (١) .

ومن هذا التعريف يتضح أنه لكي توجد الدولة يتعين أن تتوافر لها أركان ثلاث : شعب وإقليم ، وسلطة سياسية حاكمة ، فإذا توافر لأى مجتمع تلك الأركان الثلاثة فإن المجتمع يوصف بأنه دولة .



أما الإمارة الصفارية فإن تعريف الدولة بأركانها لا ينطبق عليها إلا في جوانب ضيقة فهي لا تمثل شعباً مستقراً وإنما هي عبارة عن جموع من البشر تحيا حياة مضطربة قلقه والأسرة الحاكمة فيها اعتمدت على القوى العسكرية واتخذت منها أسلوباً تحكم به البلاد والعباد ، ثم إنها لا تضم أرضاً ذات معالم وحدود واضحة باستثناء - سجستان - في بعض الفترات ، وإنما حكمت عدة أقاليم ، مما أدى إلى قصر عمرها وتقلص نفوذها حتى انزوت في جزء من سجستان .

\* \* \*

قامت الإمارة الصفارية في ولاية سجستان في الوقت الذي كانت هذه الولاية تابعة لآل طاهر في خراسان ، وكان الوضع السياسى فيها مضطرباً غير مستقر ، فضلاً عن أن سجستان في ذلك الوقت كانت مأوى للصوف والخوارج وقطاع الطرق (٢) ، ولذا كثرت فيها الاضطرابات والثورات ضد الحكم المحلى ، الأمر الذى جعل سيطرة الطاهريين عليها تضعف أمام نشاط حركة الخوارج . ولما رأى أهل سجستان أن الطاهريين عاجزون عن إقرار الأمن والنظام فى ولايتهم . قرروا تكوين فرق عسكرية متطوعة ، تكون مهمتها الأولى نشر الأمن والاستقرار فى بلادهم ، وتزعم هذه الحركة رجل من قريش يعرف باسم : صالح بن النضر الكنانى (٣) . وكان أن انضم إلى حركة المتطوعة كثير من المغامرين الذين وجدوا فيها خير وسيلة للارتقاء إلى مراكز اجتماعية وسياسية مرموقة فضلاً عن الحصول على مكاسب مادية . وكان من أبرز هؤلاء يعقوب بن الليث الصفار وأخوه عمرو . وكان يعقوب يشتغل فى إحدى الصناعات المحلية فى بلدته " قرنين " إحدى مدن سجستان ، حيث احترف العمل فى المعادن وبخاصة النحاس الأصفر ، ومن ذلك اشتق لقبه ، وكان يتقاضى عن عمله خمسة عشر درهماً فى الشهر مما جعله يعيش شارد الذهن كثير التفكير والتأمل (٤) لأن مهنته هذه كانت لا يمكن أن تحقق له مركزاً اجتماعياً ذا قيمة فى مجتمعه ، ولا تحقق له طموحه وآماله العريضة ، ولذا هجرها (٥) وانضم هو وأخوته إلى خاله كثير بن رفاق الذى جمع

حوله عددًا من وجوه الخوارج ، وقاد ثورة ضد السلطات المحلية المتمثلة فى عمال آل طاهر . ولكن هذه الثورة فشلت وأمكن القضاء عليها فى مهدها وإن كان آل الليث بزعامة أخيهم الأكبر يعقوب قد تمكنوا من الفرار إلى بست إحدى مدن سجستان الهامة (٦) .

وفى " بست " رأى يعقوب أن أفضل وسيلة للحصول على السلاح والخيـل والمال هى قطع الطريق ، لأن الظروف التى كانت تعيشها سجستان فى تلك الفترة تتيح لمن ينجح فى مثل هذه الأعمال أن يحقق لنفسه مركزاً اجتماعياً وسياسياً مرموقاً ، فجمع حوله عددًا من الناس وكون منهم عصابة لقطع الطريق . ونشط هو وأصحابه فى قطع الطرق ، حتى أصبحت الطرق التى تربط كرمان بسجستان وفارس بسجستان غير مأمونة . ولما وصل إليهم نبأ قدوم قافلة تجارية كبيرة من البصرة والأهواز فى طريقها إلى أصفهان خرج إليها يعقوب ورجاله وترصدوا لها وهاجموها ، واستولوا على الخيل والسلاح ، وبهذه الطريقة حصل يعقوب على ما يحتاج إليه من المال والسلاح لاستخدامه فى نشاطاته البعيدة المدى (٧) . وذلك أن يعقوب عاد إلى سجستان هو ورفاقه ومعهم أعداد كثيرة من الخيل والسلاح فاستقبلهم صالح بن النضر الكنانى (٨) ودعاهم للاشتراك معه فى المحافظة على الأمن ، والاستقرار فى ولايتهم ، ومطاردة الخوارج وغيرهم . وكان أن أظهر يعقوب بطولات نادرة فى مطاردة الخوارج ، والقضاء على كثير من زعمائهم المتطرفين ، وبعد أن استطاعت حركة المتطوعة بزعامة الكنانى ومساعدة يعقوب الصفار أن توفر الأمن والاستقرار فى ولاية سجستان أردت أن تتوج انتصاراتها على الخوارج بالحصول على مكاسب سياسية ، فأعلن قائدها الخروج على طاعة بنى طاهر والتغلب على ولاية سجستان ، ولكن طاهر بن عبد الله استطاع أن يقضى على حركة الكنانى سنة ٢٣٧ (٩) . وفى سنة ٢٤٣ هـ تزعم درهم بن الحسين حركة المتطوعة حينما عبث الخوارج بأمن واستقرار سجستان .

وكان يعقوب هو الموجه لهذه الحركة لما تمتع به من شخصية قوية ومهارات قتالية، ولما بذله من جهود كثيرة فى مطاردة الخوارج الذين رفضوا التعاون مع الحركة . وبعد أن ساد الأمن والاستقرار ولاية سجستان أعلنت الحركة التغلب عليها . ولكن أمير خراسان طاهر بن عبد الله استطاع أن يعمل الحيلة فى إبعاد درهم بن الحسين إلى بغداد، وكان ذلك حوالى سنة ٤٧ هـ (١٠) . وبذلك خلا الجو ليعقوب الصفار ، وأصبح قائداً عاماً للحركة دون منافس . وبعد أن توفى طاهر بن عبد الله سنة ٢٤٨ هـ استطاع يعقوب أن يستقل بولاية سجستان فى الوقت الذى كان الوضع فى خراسان مضطرباً بسبب حداثة سن محمد بن طاهر ( ٢٤٨ هـ - ٢٥٩ هـ ) الذى أسندت إليه ولاية خراسان . هذا بالإضافة إلى ضعف شخصيته وعدم قدرته القيادية والإدارية فقرر يعقوب سنة ٢٥٣ هـ أن يغزو هران وبوشنج . وبعد معركة حربية جرت بينه وبين محمد بن أوس الأنبارى عامل محمد بن طاهر ، استطاع يعقوب ضمهما إليه ، وقبض على عدد من بنى طاهر فى بوشنج فمعظم أمره ، وهابه أمير خراسان وغيره من الحكام (١١) .

وبعد أن استقرت الأحوال الأمنية والسياسية فى ولاية سجستان بفضل الجهود التى قام بها يعقوب بن الليث الصفار ، رأى أنه أحق بولاية سجستان من الطاهريين الذين بدت عليهم إمارات الضعف والعجز ، فأعلن نفسه حاكماً على ولاية سجستان ، دون أن يستند فى ذلك إلى تقليد شرعى من الخليفة العباسى (١٢) صاحب السلطة الشرعية . وكانت الخلافة العباسية فى تلك الفترة فى ظروف لا تمكنها من إقرار الوضع فى سجستان ، فترك ليعقوب مهمة إقرار الأمن والنظام بها .

ومما يكشف عن قيمة الجهود والخدمات التى قدمها الصفاريون لولاية سجستان أنها جاءت فى وقت كانت الحكومة العباسية عاجزة عن إقرار الأمن والنظام فى عاصمتها والمدن المجاورة لها . وقد زامن ضعف الحكومة العباسية فى

بغداد ضعف الإدارة الطاهرية في خراسان مما جعل الخوارج يرفعون راية الثورة والعصيان في سجستان . وشجعت هذه الظروف راتبيل سجستان (١٣) ، وغيره من ملوك وأمراء الترك الدراري الذين كانت تربطهم بالدول الإسلامية عقود ومعاهدات ، لأن يعلنوا خروجهم وتمردهم على السيادة العربية الإسلامية ، ويمتنعوا عن دفع الخراج (١٤) ، بل أنهم أخذوا يتهيثون لضرب الوجود الإسلامي في سجستان ، واستعاده نفوذهم عليها . ولكن قيام إدارة عسكرية قوية في ولاية سجستان في تلك الفترة أفشل مخططات الترك وحال دون تحقيق أطماعهم . ذلك أن يعقوب بن الليث الصفار لما نجح في تهدئة الأوضاع الداخلية في سجستان وقضى على شوكة الخوارج فيها ، أخذ يستعد لإعداد جيش قوى لملاقاة رتبيل سجستان وغيره من ملوك وأمراء الترك الدراري ، لأن خطر أولئك على أمن واستقرار الولاية كان أشد وأقوى من خطر الخوارج عليها . وقاد يعقوب حملة عسكرية لدفع خطر الترك عن أراضي الدولة الإسلامية في سجستان ، وكان أن نجح يعقوب في حملاته العسكرية الموفقة في قتل رتبيل سجستان وثلاثة من ملوك الترك ، كما استطاع أن يصل إلى كابل ويفتح غزنة ، وأن ينشر الإسلام في تلك البقاع ، مما جعل عدداً من ملوك البلاد المجاورة يعترفون بسلطته (١٥) ، ويعقدون معه معاهدة سلام مثل : ملك " المولتان " " وملك " الرخج " وملك " زابلستان " ، وملك " السند ومكران " (١٦) . كما أرسل ملك الهند وفداً تفاوض مع يعقوب (١٧) على جسر " بسط " .

\* \* \*

وقد اتسمت علاقة الصفارين بالخلافة العباسية بعدة سمات أسهمت إسهاماً كبيراً في صياغة تلك العلاقة وتوجيهها ومن أهمها :

- ١ - الشك والحذر وعدم ثقة كل منهما بالآخر .
- ٢ - الإصلاح الديني والاجتماعي .
- ٣ - الفكر السياسي للخوارج وأثره في توجيه حركة الصفارين .

٤ - الطبيعة العسكرية للإمارة الصفارية وأثرها فى تكييف حركة الصفاريين .  
كان لهذه المؤثرات وغيرها من العوامل المساعدة الأخرى كاختلال الأمن ، واضطراب الأحوال السياسية فى ولايات المشرق (١٨) ، وعجز الطاهريين عن إقرار الأمن والنظام فى ولاياتهم ، وضعف سلطة الخلافة العباسية ، أثر بارز فى رسم الخطوط العريضة للروابط والصلات التى حكمت علاقة الإمارة الصفارية بدولة الخلافة العباسية فكانت العلاقات بينهما تستقر حين تتفق مصالح الطرفين ولكنها لم تصل إلى درجة ثقة كل واحد منهما فى الطرف الآخر . أما حين تعارض مصالحهما فكانت تنقسم عرى الروابط والصلات بينهما .

وبالنسبة للعامل الأول أخذ يعقوب بن الليث يوجه نشاطه بتحريض من أهل سجستان إلى بلاد الترك الدرارى المتاخمين لولاية سجستان ، لأن خطرهم على سجستان كبير (١٩) ، فقاتل ملوك تلك البلاد حتى وصل إلى غزنة وكابل ، ثم عاد يعقوب إلى سجستان وقد حمل بعض رؤوس الترك معه ، فزادت هيئته ، وغنم من بلاد الترك غنائم كثيرة (٢٠) ، وكان ذلك كله فى صالح الخلافة العباسية ولذلك لم تعترض الخلافة على أعماله . وكان يعقوب يظهر التمسك بطاعة الخليفة المستعين بالله ، فلما تولى المعتز بالله الخلافة سنة ٢٥٢ هـ ، كتب إلى يعقوب بولاية سجستان (٢١) ، ولكن علاقة الدولة العباسية به لم تتوثق لأن شخصيته وأهدافه وخططه لم تتضح لم تتضح بعد للخلافة .

وفى سنة ٢٥٤ هـ أرسل يعقوب إلى الخليفة المعتز بالله يطلب ولاية كرمان ويذكر عجز الطاهريين وعدم قدرتهم على إدارتها واستيفاء خراجها وتحقيق الأمن والاستقرار لأهلها . وأعلن يعقوب ولاءه وطاعته للخليفة فأجابته إلى طلبه وقلده ولاية كرمان وكان المعتز بالله يعلم أن يعقوب يظهر له طاعة ظاهرية لا حقيقة لها (٢٢) . ولكل الظروف التى كانت تعيشها الخلافة العباسية عندئذ الأوضاع التى أحاطت بولايتى فارس وكرمان دفعت الخليفة إلى تقليد



يعقوب ولاية كرمان . ولم يكن ذلك ناتجاً عن ثقة الخليفة فى يعقوب أو فى ولائه وطاعته للخلافة ، وإنما أراد يعقوب أن يتقرب إلى الخلافة لعله يزيل شكها فيه وعدم ثقتها به فبادر حينما استولى على فارس بالخطبة للخليفة العباسى والدعاء له . وحينما طلب منه على بن الحسين إبراز كتاب الخليفة إليه بولايته رد عليه يعقوب قائلاً : " فإن البلد لأمر المؤمنين ، ونحن عبيده نتصرف بأمره فى أرضه وسلطانه ، وفى طاعة الله وطاعته " (٢٣) ، ثم أرسل إلى الخليفة المعتز بالله هدية ثمينة (٢٤) ، وكتب إليه يعلن طاعته . ومع ذلك ، فإن الخليفة لم يكن مطمئناً إلى عمل يعقوب وتصرفاته ، فحينما غادر فارس أرسل إليها عمالاً (٢٥) .

وفى سنة ٢٥٧ هـ استولى يعقوب على فارس مرة أخرى ، وأراد أن يتحدى سلطة الخلافة ، ولكن الخليفة ، العباسى الموفق بالله حرص على تسوية الموقف بين الصفارين والخلافة فأسند إليه بعض أعمال الولايات التى كان معظمها تحت يده ، كبلخ وطخارستان والسند وسجستان ليعده عن فارس ، ولما رأى يعقوب أن الخلافة تحاول دائماً إبعاده عن فارس ، وأنها لا تطمئن إليه ، ولا زالت تشك فى نواياه وخططه ولا تثق فى ولائه وطاعته ، اعتبر أن السبب فى ذلك هم آل طاهر أصحاب النفوذ فى خراسان وبغداد وفارس ، فأراد أن يصفى حسابه مع آل طاهر لعله يحظى بثقة الخلافة ، فاستولى على خراسان ، وقضى على نفوذ الطاهريين بها فى سنة ٢٥٩ هـ ، ولكن الخلافة ما كانت لتعدل الصفارين بالطاهريين ، فازداد شكها فى الصفارين وأصدرت أمراً إلى عاملها على بغداد بأن يجمع حجاج خراسان وجرجان وطبرستان والرى ويعلمهم بأن الخليفة لم يول يعقوباً أياً من تلك الولايات ، وإنه من المخالفين الخارجين على سلطة الخلافة ولما رأى يعقوب أن الخلافة لم تغير موقفها منه وأن ثقتها فيه انهارت قرر أن يلتحم معها عسكرياً (٢٦) ، وتم ذلك فى دير العاقول ٢٦٢ هـ . وكان هذا اللقاء العسكرى ، بين يعقوب وقوات الخلافة العباسية يمثل قمة الشك وعدم ثقة كل طرف فى الآخر .

ورغم أن عمرو بن الليث الذى خلف أخاه على الإمارة كان أكثر مرونة وتعاوناً وتقرباً إلى الخلافة ، إلا أن الخلافة العباسية كانت تسند إليه ولاية الأعمال وترسل التقاليد مداراه له ودفعاً لخطره ، لا ثقة فى ولائه وطاعته لبنى العباس . وكانت الخلافة تتحين الفرص للقضاء على عمرو ونفوذه ، فلما أتت الفرصة للمعتضد بالله سنة ٢٨٧ هـ على يد السامانيين لم يتردد فى ذلك .

وقد أعلن يعقوب ، عدم ثقته وكرهه للعباسيين فى رواية حيث قال يعقوب: " إن العباسيين قد ثبتوا حكمهم على الخيلة والخديعة . ألم تشاهد ما عملوه مع أبى مسلم وعائلته البرامكة على الرغم من كل ما عمله هؤلاء الرجال بالنسبة للدولة العباسية ، فلاتدع أحد يثق بهم أبداً . " (٢٧)

وقد ادخل الصفاريون تقليداً جديداً على علاقة الأمراء المستقلين بالخلافة العباسية فاحتفظوا لأنفسهم بما جمعوه من خراج مناطقهم ، ولم يرسلوا منه شيئاً إلى بيت المال ببغداد ، واقتصروا على إرسال الهدايا . وكان يعقوب أول من أدخل اسمه فى الخطبة مع اسم الخليفة ، كما كان عمرو أول من نقش اسمه على الدنانير . والصفاريون هم أيضاً أول من هاجم سلطة العباسيين فى فارس ، وحاولوا الحط من سلطتهم الدنيوية إلى أدنى حد (٢٨) .

أما العامل الثانى وهو جهود الصفاريين فى الإصلاح الدينى والاجتماعى فلقد تأثر يعقوب بن الليث الصفار بفلسفة حركة المتطوعة ، فانضم إلى تلك الحركة وأصبح أحد أعضائها النشيطين ، واستطاع بقوة شخصيته (٢٩) وتأثيره وحسن معاملته لاتباعه وأصحابه أن يتزعم الحركة (٣٠) . ثم أنه أخذ يتقرب إلى أفرادها حتى استحوذ على قلوبهم فاطاعوه طاعة مطلقة . فلما قضى على كثير من زعماء الخوارج المتطرفين الذين رفضوا التعاون معه ، وأقر الأمن والنظام فى سجستان اتجه إلى المجتمع فى سجستان فأخذ يصلح أحواله ويقضى على المفاسد التى انتشرت فيه وكان يأخذ بعضاً من أموال الأغنياء فيوزعها على الفقراء

والضعفاء . وأظهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٣١) فازادات محبة الناس له (٣٢) . وقد أظهر يعقوب لأصحابه وخاصة العلماء منهم أن الخليفة ولاء سجستان وأمره بقتال الخوارج ، لئلا يظهر في نظرهم بمظهر العاصي الخارج على سلطة الخلافة . وبعد أن استقر الوضع في سجستان ثم إصلاح أحوال المجتمع فيها اتجه إلى بلاد الترك المتاخمين لسجستان وأخذ يدعوهم للإسلام ليظهر أمام أتباعه وأعدائه على حد سواء بمظهر المجاهد في سبيل الله . وبعد ذلك قصد بعض أملاك الطاهريين في هرات وبوشنج فضمها إليه مظهرًا أن الدافع من وراء ذلك هو عجز الطاهريين عن تحقيق الأمن والاستقرار لأهلها . ثم اتجه إلى الطاهريين في كرمان وأملاك الدولة العباسية في فارس متخذًا من عجز الطاهريين وفساد الإدارة وفقدان الأمن حجة لبسط نفوذه (٣٣) . وكانت الخلافة العباسية حتى نهاية عصر المهدي بالله (٢٥٦) لا ترى في حركة يعقوب التي أظهرها بمظهر الإصلاح الاجتماعي والديني خطرًا يهدد أمنها واستقرارها ، بل رأت أنها تستفيد منها في توطيد الأمن في فارس وكرمان . ولكن سياسة الخلافة العباسية تجاه يعقوب تغيرت حينما تقلد المعتمد على الله ٢٥٦ - ٢٧٩ هـ الذي أصدر إلى محمد بن طاهر منشورًا بولاية خراسان وسجستان ، وبهذا لم يعترف المعتمد بولاية يعقوب على سجستان (٣٤) .

أما الإمام الخليلي ، هـ . ١٠ ألف السنين الخصال - مؤلفه : محمد حجة

وعلى الرغم من أن يعقوب الصفار قد تعاون مع الخوارج واستفاد من حركتهم إلا أن المصادر التاريخية التي بين أيدينا لم تبين مدى تأثير يعقوب بعقيدة الخوارج ومذهبهم . ويبدو أن المصادر التاريخية التي نعتت يعقوب بأنه خارجي (٣٧) قصدت من اللفظ معناه السياسى ، ولم تقصد معناه المذهبى والفكرى . فيعقوب عاش حياة فيها قدر من الزهد والتقشف وكان لا يكشف لأصحابه عن آرائه وأفكاره وأسراره (٣٨) . ونتيجة لأن يعقوب الصفار عاش فى بيئته سجستان التى كان للخوارج فيها صولة وجولة ، وكانوا فيها من الكثرة والقوة ما جعلهم يتفاحرون بمذهبهم عند البيع والشراء (٣٩) ، فقد تأثر يعقوب بفكرهم السياسى ، وكان لهذا التأثير أثره فى علاقته مع دولة الخلافة العباسية ، ويتضح لنا ذلك فى ثلاثة مواقف :

**الموقف الأول :** كان سنة ٢٥٤ هـ حينما اتجه يعقوب بجيشه إلى فارس ليستولى عليها ويضمها إلى ولايته ، فلما طلب منه على بن الحسين بن قريش والى فارس - فى عهد الخليفة المعز بالله - إن كان معه عهد من الخليفة أن يبرزه له رد عليه يعقوب بأن معه عهد من الخليفة لا يستطيع أن يبرزه إلا بعد أن يدخل البلد ، فلما قبض يعقوب على على بن الحسين ودخل شيراز أخرج سيفه قال : هذا عهدى (٤٠) .

**وكان الموقف الثانى :** حينما دخل يعقوب الصفار نيسابور فى شوال من عام ٢٥٩ هـ وقبض على محمد بن طاهر ، إذ أخذ علماء ووجهاء وأعيان المدينة يتناجون فيما بينهم وكل يسأل صاحبه : أمعه عهد وتقليد من الخليفة ؟ فلما علم بما يساورهم أمر جنوده بأن يطوفوا فى المدينة يدعون الناس وخاصة العلماء وأعيان نيسابور حتى يعرض عليهم منشور الخليفة فلما اجتمعوا عنده التفت

يعقوب إلى حاجبه وقال له : " احضر منشور أمير المؤمنين حتى اقرأه عليهم فوضع الحاجب أمامه سيفاً براقاً فقال يعقوب : هذا هو منشور الخليفة إن هذا السيف هو الذى أعطانى خراسان ، وبذلك فأنا والخليفة سيان فى الحجة (٤١) .

أما الموقف الثالث : فحينما انهزم يعقوب بن الليث الصفار أمام جيش الخلافة العباسية بقيادة المعتمد على الله سنة ٢٦٢ هـ حيث اتجه إلى جند يسابور وأقام هناك يعالج جراحه . وفى تلك الأثناء أراد الموفق بالله أن يستغل هزيمة يعقوب لكى يتفرغ لحرب الزنج ، فأرسل إليه رسولا يحمل تقليداً ليعقوب بعمل بعض الولايات البعيدة عن العراق . فلما وصل رسول الخليفة : إلى جند نيسابور سنة ٢٦٥ هـ كان يعقوب على فراش الموت وبجانبه سيفه فقال يعقوب لرسول الخليفة : قل للخليفة أننى عليل فإن مت فقد استرحت منك واسترحت منى ، وأن عوفيت فليس بينى وبينك إلا هذا السيف (٤٢) .

وجملة القول ، كان لبيئة سجستان التى عاش فيها آل الصفار ولتعاونهم مع الخوارج وتعاون الخوارج معهم دور كبير فى تأثر يعقوب بالفكر السياسى للخوارج ثم فى توتر العلاقة بين الإمارة الصفارية ودولة الخلافة بما جعلها تحتكم فى كثير من المواقف إلى السيف والقوة ، مثلما يفعل الخوارج حينما يصطدمون عسكرياً بالخلافة العباسية .

أما العامل الرابع فهو الطبيعة العسكرية للإمارة الصفارية : إذ توصف الإمارة الصفارية فى سجستان بأنها كانت إمارة عسكرية ، وكان يعقوب وأخوه عمرو جنديين عبقرين (٤٣) يتمتعان بكثير من الصفات القيادية والعسكرية ، وكان ليعقوب منهج خاص فى تنظيم جيشه وتزويده بالعناصر الجديدة واعداده وتهيئته للقتال (٤٤) .



وكان معظم جند جيش يعقوب من أهالى سجستان ، وهى منطقة سهلية  
سبخة رملية تقل فيها الجبال وذات مناخ حار(٤٥) ، مما جعل يعقوب لا يحقق  
مكاسب استراتيجية ثابتة فى منطقة الترك الدرارى ذات الجبال الوعرة والمناخ  
البارد ، لأن جيشه تعود على الهواء الدافئ وخفة الحركة وقلة المؤنة(٤٦) . لذلك  
نلاحظ أن الإمارة الصفارية اتجهت فى توسعها إلى المنطقة الجنوبية لسجستان ،  
وهى فارس وكرمان وإلى المنطقة الغربية لها وهى خراسان(٤٧) ، مما جعلها فى  
صراع مستمر مع الخلافة العباسية . وكان لذلك أثره القوى فى توتر العلاقة مع  
العباسيين . وكان يعقوب وعمرو يريان دائماً أن قوتهمما ترجع لأصل عسكرى  
بحت ، لا لآى اعتبارات أخرى ، وهذا يؤكد سيطرة الروح العسكرية على الإمارة  
الصفارية ، مما جعل علاقتها بالخلافة متذبذبة مضطربة لا تستقر على حال . وعلى  
كل حال فإن شهرة يعقوب وأخيه عمرو تعود إلى شجاعتهمما ومقدرتهمما  
السياسية والعسكرية ، لا إلى ثقافتهمما ودعمهمما وتشجيعهمما للحركة العلمية  
والأدبية فى سجستان . والذين كتبوا عن الإمارة الصفارية إما فرس(٤٨) ، اندفعوا  
وراء العاطفة فجعلوا يعقوب وأخاه بطلين قوميين بعثا مجد فارس القديم فنسبوا  
إليهما أموراً كثيرة تتعلق بالعناية بأجداد فارس وتاريخها وتراثها وأدبها ، إما من  
طوائف أخرى تحدثت عن الصفاريين من خلال نشاطهم السياسى ومعاركهم  
العسكرية دون أن تتعرض لما خلفوه من تراث حضارى ، فلم تذكر جانباً من  
نشاطهم العلمى ، أو طرفاً من دورهم فى ازدهار المشرق وحضارته . ولعل  
السبب فى اغفال المصادر التاريخية للجوانب العلمية والأدبية التى أسهم فيها  
الصفاريون إبان إمارتهم على سجستان وغيرها من ولايات المشرق ، يعود إلى  
توتر علاقة الصفاريين بالخلافة العباسية ، والتى اتخذت طابع المواجهة الحربية بينهما  
حين أعلن يعقوب الحرب ضد الخليفة المعتمد على الله ، وأعلن أخوه عمرو الذى  
أعقبه على الإمارة عدة مرات تمرداً وعصياناً على الخليفتين المعتمد على الله  
والمعتضد بالله ، مما جعل المصادر التاريخية التى سجلت أحداث التاريخ العباسى فى

عصر نفوذ الأتراك تبرز جانباً كبيراً من النشاط السياسى والمعارك الحربية للصفارين دون ذكر الجوانب الحضارية التى أسهموا فيها والتى سارت جنباً إلى جنب مع نشاطهم السياسى (٤٩) لذلك فإن إبراز دور الصفارية كإحدى الإمارات الإسلامية التى حكمت المشرق فى العصر العباسى فى المجال الحضارى من الأمور التى تتطلب جهداً كبيراً ، لأن هذا الجانب ضاع بين إغفال المصادر التاريخية التى أغفلت نشاط الصفارين الثقافى ومساهماتهم فى حضارة المشرق ، وبين حماسة واندفاع المؤلفين الإيرانيين الذين نظروا إلى الإمارة الصفارية نظرة قومية عاطفية، فقالوا إن نهضة المشرق الأدبية خاصة فى القرن الثالث الهجرى تدين لهم وخاصة فيما يتعلق بالعناية باللغة الفارسية وآدابها .

وللحقيقة والتاريخ فإن الحركة العلمية والأدبية فى ولاية " سجستان " وخاصة فى مدينتى " زرنج " و " بست " شهدت إزدهارا ونشاطاً ملحوظاً فى الفترة التى تعاقبت فيها على الإمارة الصفارية يعقوب بن الليث وأخوه عمرو ، وذلك لاستتباب الأمن واستقرار الأوضاع فيها ، وللرخاء الاقتصادى الذى عاشته الولاية فى عهدهما . وقد تخرج فى بست " بست " فى تلك الفترة علماء كثيرون فى الفقه والتفسير والأدب واللغة ، منهم الخطابى أبو سليمان أحمد بن محمد البستى صاحب معالم السنن وغريب الحديث (٥٠) .

وعلى الرغم مما شهدته ولاية سجستان فى عصر يعقوب وعمرو من نشاط فى الحركة العلمية والأدبية إلا أن المصادر التاريخية ، وكتب الأدب ، لم تسجل لنا صورة أو حدثاً تاريخياً يمكن الاستفادة منه فى بيان دور آل الصفار فى دعم وتشجيع الحركة العلمية فى سجستان وخراسان ، اللهم إلا ما يذكره المسعودى عن إحسان يعقوب ، وبره بأتباعه وجنده دون تمييز ، وما يذكره أيضاً عن طريقته ومنهجه فى استقبال الوفود والرؤساء (٥١) . كذلك يذكر ابن خلكان أن عمراً انتهج سياسة ونظماً إدارية فى حكمة لخراسان تعد فريدة فى ذاتها (٥٢) ، والإمارة

الصفارية - كما ذكرنا - وإن كانت السمة العامة لها أنها إمارة عسكرية فى خططها ونفقاتها - ، إلا أن الباحث المتحرى للحقيقة لا يستطيع أن ينكر أن يعقوب وأخاه عمرو بذلا جهودًا أسهمت فى الازدهار الحضارى لولاية المشرق .

وكانت عناية الصفارين بالآداب الفارسية على ما يبدو أكثر من عناية الطاهريين ، لأنه لم يكن لطاهر وبنيه دراية تامة باللغة الفارسية (٥٣) ، ويذكر باريزى : أن يعقوب لم يكن له علم باللغة العربية . وينبغى أن ندرك أن رأى باريزى وغيره من المؤلفين الفرس القائل بأن اللغة العربية لم تنتشر فى سجستان فى ذلك الوقت أمر بحاف للحقيقة ، فقد انتشرت اللغة العربية فى مدن سجستان الهامة مثل " بست " و " زرنج " وتخرج فى بست عدد من علماء اللغة العربية . ولا أدل على انتشار اللغة العربية فى زرنج قاعدة الولاية من أن خطبة الجمعة فيها كانت باللغة العربية .

والخلاصة أنه ويمكن إبراز مجهود الإمارة الصفارية ودورها فى حضارة المشرق فى عدة جوانب تشمل النقاط التالية :

( أ ) إقرار الأمن والنظام فى سجستان وبذلك أتاحوا للحركة العلمية فى مدن سجستان جوا علميًا بعيدًا عن الفوضى والإضطراب .

(ب) العناية بالمشآت العمرانية وخاصة بناء المساجد وإقامة بعض المباني للإدارات والأجهزة الحكومية فى نيسابور وإقامة بعض الأسواق فى زرنج (٥٤)

(ج) الاهتمام بالصحة العامة والرعاية الصحية وتشجيع الحركة الطبية فى سجستان . ويتضح ذلك من أن عمرو بن الليث أوقف جزء من دخل السوق الذى بناه فى زرنج ليصرف دخله على بیمارستانات (٥٥) فيها فأصبح لها مورد ساعدها على أداء رسالتها وعلى نشر الوعى الصحى بين الناس .

## الهوامش

- (١) د. محمد عبد القادر أبو فارس : النظام السياسى فى الإسلام ص ١٣١
- د. فتحى عبد الكريم : الدولة والسيادة فى الفقه الإسلامى ص ١٥١
- (٢) يراجع فى ذلك ابن منظور : لسان العرب ، وكذلك حاشية جيش الصفاريين بقلم قحطان عبد الستار الحديثى ، ص ٢٣٨
- (٣) سى . أى . بوزورت : جيش الصفاريين ترجمة : د. عبد الجبار ناجى ، ص ١٩٦
- (٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ، ص ٤٣٠
- (٥) الحموى : معجم البلدان ج ٤ ، ص ٣٣٣
- (٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ، ص ٤٠٢
- والحديثى : وفيات الأعيان ج ٦ ، ص ٤٠٢
- (٧) ف . بارتولد : تاريخ الدولة الصفارية .
- ترجمة : د. منذر البكر : مقالة فى مجلة كلية الآداب جامعة البصرة - السنة الثانية .
- (٨) يراجع فى ذلك : سى . أى . بوزورت : جيش الصفاريين .
- ترجمة : د. عبد الجبار ناجى ص : ط
- وفيات الأعيان ج ٥ ، ص ٢٩١
- (٩) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٥ ، ص ٢٩١
- ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ، ص
- (١٠) الأصبخري : المسالك والممالك ص ١٤٢
- (١١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٥ ، ص ٣٣٨
- (١٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٥ ، ص ٢٩١
- (١٣) السمعانى : الأنساب ج ٧ ، ص ١٣
- (١٤) الشلقانى : الرواية فيما وراء العراق ص ٢٥
- (١٥) بارتولد : تركستان ص ٣١٩

- (١٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٦ ، ص ٤٠٤
- (١٧) المسعودى : مروج الذهب ج٤ ، ص ٢٠٠
- (١٨) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٢٧٠
- (١٩) النرشحى : تاريخ بخارى ص ١٠٨
- (٢٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٦ ، ص ٤٠٣
- (٢١) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج٣ ، ص ٢٩٤
- (٢٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج١١ ، ص ١٥٩
- (٢٣) ابن خلكان : ج٦ ، ص ٤٠٨
- (٢٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج٥ ، ص ٢٤١
- (٢٥) باستانى باريزى : يعقوب بن الليث الصفار ص ١٤٨
- (٢٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج٥ ، ص ٣٦٣
- (٢٧) سى . ي . بوزورت : جيش الصفاريين ص ١٩٠
- (٢٨) القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢٠٢
- (٢٩) ابن الأثير : الكامل ج٥ ، ص ٣٣٨
- (٣٠) نفس المرجع .
- (٣١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٦ ، ص ٤٠٣
- (٣٢) حمزة الأصفهاني : تاريخ سنى ملوك الأرض ص ١٧٠
- (٣٣) ابن الأثير : ج٥ ، ص ٢٤٠
- (٣٤) د . إبراهيم باستانى باريزى : يعقوب بن الليث الصفار ص ١٤٦
- (٣٥) د . فاروق عمر : الخلافة العباسية ص ٢٢٣
- (٣٦) سى . أى بوزورت : جيش الصفاريين ص ٢٠٢
- (٣٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٦ ، ص ٤٠٢
- (٣٨) المسعودى : مروج الذهب ج٤ ، ص ٢٠٣



- (٣٩) ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٣ ، ص ١٩٠
- (٤٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٦ ، ص ٤٠٧
- (٤١) باريزى : يعقوب بن الليث الصفار جـ ٦ ، ص ٤٠٧
- د. فاروق عمر : الخلافة العباسية ص ٢٢٢
- (٤٢) باريزى : يعقوب بن الليث ص ١٦٣
- (٤٣) سى . أى بوزورث : جيش الصفاريين ص ١٨٩
- (٤٤) المسعودى : مروج الذهب جـ ٤ ، ص ٢٠٥
- (٤٥) المسعودى : مروج الذهب جـ ٤ ، ص ٢٠٥
- (٤٦) الأصبخري : المسالك والممالك ص ١٤٠
- (٤٧) ابن طيفور : تاريخ بغداد ص ١٧
- (٤٨) يمثل هولاء صاحب تاريخ سيستان ، ومن الباحثين المحدثين :
- د. إبراهيم باستانى باريزى : أستاذ التاريخ بجامعة طهران فى كتابه : يعقوب بن الليث الصفار .
- ود. رضا زاده شفق : أستاذ الأدب الفارسى فى جامعة طهران فى كتابه : تاريخ الأدب الفارسى .
- (٤٩) يمثل هولاء الطبرى فى كتابه : تاريخ الأمم والملوك ، والمسعودى فى كتابه : مروج الذهب ، وابن الأثير فى كتابه : الكامل ، وابن خلكان فى كتابه : وفيات الأعيان . قد تميز المسعودى ، وابن خلكان بالإشارة إلى طرف من نظم الصفاريين الإدارية والمالية والعسكرية
- (٥٠) الحموى : معجم البلدان جـ ١ ، ص ٤١٥
- (٥١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٤ ، ص ٢٠٤
- (٥٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٦ ، ص ٤٢١
- (٥٣) حامد عبد القادر : قصة الأدب الفارسى جـ ١ ، ص ١١٧
- (٥٤) الأصبخري : المسالك والممالك ص ١٤٠
- (٥٥) الأصبخري : المسالك والممالك ص ١٤٠

## المصادر والمراجع

### المصادر :

- ابن الأثير : أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد . ت ٦٣ هـ .  
- الكامل فى التاريخ .
- دار الكتاب العربى ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .
- الحموى : أبو عبد الله ياقوت : ت ٦٢٦ هـ .
- معجم البلدان .
- بيروت للطباعة والنشر ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م .
- ابن حوقل : أبو القاسم محمد بن علي . ت ٣٦٧ هـ .
- صورة الأرض
- منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت .
- ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون . ت ٨٠٨ هـ .
- تاريخ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر دار الكتاب اللبنانى للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ١٩٦٦ م .
- مقدمة ابن خلدون ، الطبعة الرابعة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .
- ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد . ت ٦٨١ هـ
- وفيات الأعيان ، تحقيق : د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت .
- السمعاني : أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور . ت ٥٦٢ هـ .
- كتاب الأنساب ( لندن ١٩١٢ ) .
- الاضطخري : أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي - ت فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى .
- المسالك والممالك .
- تحقيق : محمد عبد العال الحسينى ، دار القلم ١٣٨١ هـ .

- الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير . ت ٣١٠ هـ .  
- تاريخ الأمم والملوك .  
ابن طيفور : أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر الكاتب . ت ٢٨٠ هـ .  
بغداد . طبع سنة ١٣٨٨ هـ / ١٣٦٨ م .  
القزوينى : زكريا محمد . ت ٦٨٢ هـ .  
- آثار البلاد وأخبار العباد .  
دار صادر بيروت .  
المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين / ت ٣٤٥ هـ .  
- مروج الذهب ، تحقيق : محمد محى الدين عبد الحميد . الطبعة الرابعة ، مطبعة  
السعادة بمصر ١٣٨٥ هـ .  
المقدسى : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد . ت ٣٨٨ هـ .  
- أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، طبع فى مطبعة بريل عام ١٩٠٩ م .  
ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم . ت ٧١١ هـ .  
- لسان العرب .  
الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر .  
اليقوبى : أحمد بن يعقوب ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر الطبعة  
الثانية ١٣٧٩ هـ .  
**المراجع :**  
د. حامد عبد القادر :  
- قصة الأدب الفارسى ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة الطبعة الأولى ١٩٥١ م  
د. عبد الحميد الشلقانى :  
- الرواية فيما وراء العراق ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٥  
عبد العزيز الدورى :  
- دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ، الطبعة الأولى ، مطبعة السريان ، بغداد ١٩٤٥ .

د. عبد الفتاح السرنجاوى :

- النزعات الاستقلالية والخلافة العباسية ، الطبعة الرابعة : نشر دار الكتب الأهلية  
بمصر ١٣٦٣ هـ / ١٩٤٥ م .

د. فاروق عمر :

- الخلافة العباسية فى عصر الفوضى العسكرية ، الطبعة الثانية ، منشورات مكتبة  
المثنى ، بغداد ١٩٧٧ م .

د. فزاد محمد النادى :

- نظرية الدولة فى الفقه السياسى الإسلامى ، الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ .  
الكتب المترجمة إلى العربية :

- باريزى : د. إبراهيم باستانى

يعقوب بن الليث الصفار

ترجمه من الفارسية : د. محمد فتحى يوسف الرئيس

دار الرائد العربى .

- بارتولد فاسيلى : تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى ، ترجمة د.  
صلاح الدين عثمان هاشم .

منشورات المجلس الوطنى للثقافة والفنون الكويت ١٤٠١ هـ .

- بوزورث . سى . أى : جيش الصفليين ، لندن ، ١٩٧٧ .

- د. رضا شفق : تاريخ الأدب الفارسى .

ترجمه من الفارسية : محمد موسى هنداوى

دار الفكر العربى ١٩٤٧

- النرشخى : أبوبكر محمد بن جعفر . ت ٣٨٤ هـ تاريخ بخارى .

ترجمة : د. أمين عبد المجيد البدوى ، دار المعارف المعارف بمصر .





# محاولة المهتدى بالله الإصلاحية

## وأثرها على الخلافة العباسية

د/ علي بن صالح المجيب\*

### مقدمة :

يمثل الخليفة المهتدى بالله ( حكم بين عامي ٢٥٥ و ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ - ٨٧٠ م ) ، نموذجاً حياً وصادقاً لمجموعة الخلفاء الصالحين الذين سطر التاريخ الإسلامي بمراحلة المختلفة سيرتهم وجهودهم الخيرة بحروف من نور ، فقد كان المهتدى بالله ديناً على منهج الخلفاء الراشدين ، وضعه الإمام السيوطي يرحمه الله ضمن الاثنى عشر خليفة الذين ورد ذكرهم في الحديث الشريف : " لا يزال هذا الأمر عزيزاً إلى اثني عشر خليفة كلهم من قریش " (١) ، وقال عنه الإمام الحافظ ابن كثير : " لقد كانت خلافته بحمد الله خلافة صالحة " (٢) ، وامتدحه الإمام الذهبي قائلاً : " إنه من أحسن أهل زمانه " (٣) .

ولقد استهدفت المحاولة الإصلاحية التي تولى كبرها الخليفة المهتدى بالله قلب الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتردية التي عانت الخلافة العباسية من ويلاتها وآثارها السلبية منذ فجر عصرها الثاني الذي بدأ سنة ٢٣٢ هـ / ٨٤٦ م بسبب ضعف السلطة المركزية في العاصمة سامراء من ناحية ، وتفاقم نفوذ الموالي الأتراك ، وتدخلهم المستمر في شؤون الخلافة من ناحية أخرى .

مدخل : (الحياة السياسية في سامراء قبيل عهد المهتدى ٢٣٢-٢٥٥ هـ) :

أضحت الخلافة العباسية منذ مطلع العصر العباسي الثاني ٢٣٢ هـ / ٨٤٧ م تكن تحت وطأة نفوذ العناصر التركية التي وفدت إلى حاضرة الخلافة العباسية في العراق (٤) بأعداد هائلة أثناء عهد الخليفة المعتصم (٥) .

---

\* أستاذ مساعد بكلية العلوم العربية والاجتماعية، بالقصيم جامعة الإمام محمد بن سعود.

وعندما اعتلى الخليفة المتوكل (٦) (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ / ٨٧٤٧ - ٨٦١ م) عرش الخلافة حاول مقاومة النفوذ التركي والتخلص منه ، فزج ببعض القواد الأتراك فى السجن (٧) ، وأقدم سنة ٢٣٥ هـ / ٨٥٠ م على خطوة جريئة أخرى هدفت إلى الحد من سيطرة الأتراك ، ومنعهم من التدخل فى شئون فى شؤون الخلافة ، وحرمانهم من اختيار الخليفة العباسى . ذلك أنه عقد البيعة لأبنائه الثلاثة : محمد المنتصر بالله (٨) ، والوزير المعتز بالله (٩) ، وإبراهيم المؤيد بالله (١٠) ، وأقطع كلا منهم ناحية مهمة من بلدان الخلافة العباسية (١١) .

وبذلك حرم المتوكل الأتراك مما كان فى أيديهم من الولايات والمناصب المهمة . ومن الطبعى أن يولد هذا الإجراء كرها فى نفوسهم تجاه المتوكل ، فاشتد حقدهم عليه ، وأشاعوا الاضطرابات والفتن (١٢) داخل العاصمة العباسية سامراء (١٣) .

وقد شعر المتوكل بذلك فقرر الابتعاد عنهم ، وانتقل من العراق إلى الشام حيث وصل دمشق سنة ٢٤٣ هـ / ٨٥٧ م سعيًا وراء كسب تأييد العناصر العربية التى كانت تشكل آنذاك غالبية سكان بلاد الشام . ولكن المتوكل لم يستطع تحقيق ما كان يصبو إليه ، بل شغب عليه جند الشام (١٤) فعاد إلى سامراء بعد أن غاب عنها قرابة شهرين (١٥) .

ولما عاد إليها وجد ابنه وولى عهده المنتصر قد تغير موقفه ، وصار يتعاطف مع بعض قواد الأتراك . فقام بعزله من منصبه ، وجعل ابنه المعتز وليًا للعهد . وعندئذ أنضم المنتصر إلى الأتراك ، وشايعهم ضد أبيه . فعزم المتوكل على الفتك بإبنه وبعض أعوانه الأتراك (١٦) ، ولكنهم اغتالوه سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م ، وبايعوا ابنه المنتصر بالخلافة (١٧) ، وأوعزوا إليه عزل أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد ، فاستجاب لطلبهم وهم المتورطون معه فى قتل أبيه (١٨) . ثم انقلب عليهم وراح يسبهم فى مجالسه بقوله : " هؤلاء قتلة الخلفاء " (١٩) . ولما شعروا بالخطر دسوا

عليه طبيبه حيث فصدته بريشة مسمومة مات متأثراً بها سنة ٢٤٨هـ / ٨٦٢م (٢٠). وبوفاة المنتصر اتفق الأتراك على حجب الخلافة عن أولاد المتوكل كي لا يجدوا فرصة للأخذ بثأر أبيهم وأخيه ، وبايعوا أحمد بن المعتصم (٢١) ، ولقبوه بالمستعين قائلين : " هو ابن مولانا " (٢٢) .

تولى المستعين الخلافة وقلد عدداً من قواد الأتراك بعض المناصب في الدولة ، وأتاب بعضهم عنه في الولايات ، ثم فرق عليهم الأموال (٢٣) . ولكنه ما لبث أن غير معاملته لهم ، وأمر بقتل اثنين منهم ، فتنكروا له ، ثم خاف على نفسه منهم ولجأ سنة ٢٥١هـ / ٨٦٦م إلى بغداد (٢٤) .

وكان أن قرروا مبايعة المعتز بالله بن المتوكل ، وعندئذ أصبح للدولة العباسية خليفتان وحاضرتان في آن واحد . أحدهما المعتز في سامراء ، والآخر المستعين في بغداد . واندلعت الحرب بين أنصار الخليفتين فكثر القتل ، وغلت الأسعار ، وعظم البلاء . ولم تضع هذه الحرب أوزارها إلا بعد أن أقدم المستعين على خلع نفسه سنة ٢٥٢هـ / ٨٦٧م (٢٥) .

في تلك السنة تولى المعتز الخلافة ، وكان أول إجراء قام به أنه خلع أخاه المؤيد من ولاية العهد ، وضربه ، وقيدته فمات بعد أيام (٢٦) ، ثم قبض على أخيه طلحة الموفق (٢٧) ، وزج به في السجن ، ثم سيره إلى بغداد وظل مقيماً بها (٢٨) .

وكان المعتز طيلة مدة حكمه واقعاً تحت سيطرة أمه ( قبيحة ) (٢٩) ، ولهذا أصبح مستضعفاً من جانب الأتراك الذين طالبوه بأرزاقهم ، فطلب من والدته بعض المال ، ولكنها رفضت . ولم يجد الأتراك بداً من الهجوم عليه ، وأمروه بخلع نفسه ، فلما رفض خلعوه ، وسلموه إلى من يقوم بتعذيبه ، فمنعه من الطعام والشراب ثلاثة أيام ، ثم أدخلوه سرداباً وجصصوا عليه فمات (٣٠) . وعندئذ أحضروا محمد بن الواثق من بغداد وبايعوه بالخلافة سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٩م ، ولقبوه المهتدي بالله (٣١) .

### نبذة عن الخليفة المهتدى بالله :

هو أمير المؤمنين ، المهتدى بالله ، أبو عبد الله محمد بن الواثق هارون ابن المعتصم محمد بن الرشيد العباسي (٣٢) . ولد بالقاطول (٣٣) في خلافة جده المعتصم سنة ثمان أو تسع عشر ومائتين هجرية (٣٤) وأمه أم ولد رومية تسمى قرب (٣٥) .

رشحه البعض لتولى منصب الخلافة عقب وفاة أبيه الواثق سنة ٢٣٢هـ ، ولكن فئة من قواد الأتراك عارضوا هذا الإجراء بسبب صغر سنه ، فحال ذلك دون وصوله إلى الخلافة آنذاك (٣٦) . فجرى ترشيح المتوكل جعفر بن المعتصم مكانه في الخلافة (٣٧) .

وقد بويع المهتدى بالخلافة في آخر شهر رجب سنة ٢٥٥هـ ، وكان عمره يومئذ سبعة وثلاثين سنة ، وقيل : تسعاً وثلاثين سنة (٣٨) . ولما بويع أقر جعفر بن محمود الاسكافي (٣٩) على وزارته ، ثم عزله (٤٠) واستوزر سليمان بن وهب (٤١) وجعل صالح بن وصيف (٤٢) حاجباً له وأسند القضاء إلى الحسن بن أبي الشوارب (٤٣) .

يقول الخطيب البغدادي : " كان المهتدى بالله من أحسن الخلفاء مذهباً ، وأجملهم طريقة ، وأظهرهم ورعاً ، وأكثرهم عبادة " (٤٤) . أما ابن العبراني فقد قال عنه : " كان زاهداً صواماً قواماً لم تعرف له زلة ، سهل الحجاب ، كريم الطباع " (٤٥) .

ويقول ابن الجوزي : " لم يزل المهتدى صائماً منذ جلس للخلافة إلى أن قتل " (٤٦) .

وقد تحدث بعض المؤرخين عن سياسة التقشف التي انفراد بها هذا الخليفة عن غيره من خلفاء بني العباس ، وذلك في ملبسه ومأكله ومشربه وسائر شؤون

حياته ، فقد روى الخطيب البغدادي (٤٧) أن أحد أصحاب المهدي تناول معه طعام الإطار في رمضان ، وكان الطعام قطعاً قليلة من الخبز وبجانبها آنية فيها ملح وخل وزيت فدعا المهدي صاحبه إلى الطعام ، ولكنه تأخر في بدء الأكل ظناً منه أنه سيؤتى بطعام آخر . فقال له الخليفة : " كل فليس ها هنا من الطعام غير ما ترى " . وعندئذ تعجب صاحبه وحاول أن يثنيه عن إفراطه في التقشف حيث أخذ يذكره بما أسبغ الله عليه من النعم ، وبما بسطه من الرزق وكثرة الخير ، فرد عليه المهدي ردّاً بليغاً أبان فيه بعضاً من فصاحته في القول ، وحكمته وتقديره للأمور ، إذ قال لصاحبه : " إن الأمر لعلّى ما وصفت فالحمد لله ، ولكنى فكرت فى أنه كان فى بنى أمية عمر بن عبد العزيز ، وكان من التقل والتقشف على ما بلغك ، فغرت على بنى هاشم ألا يكون فى خلفائهم مثله فأخذت نفسى بما رأيت " (٤٨) .

وكان الناس يروون عن سفيان الثوري (٤٩) قوله : " الخلفاء الراشدون خمسة ، ويُعدّ فيهم عمر بن العزيز " ، ثم أجمع الفقهاء ، وأصحاب الحديث ، والقرآن أن السادس هو المهدي بالله (٥٠) .

وبينما المهدي يُطل على الناس من أعلى قصره فى أحد الأيام سمع رجلاً يقول لآخر : نصبت ميزاب سطحك فى ملكى ، بينى وبينك أمير المؤمنين ، فسجد المهدي ، ثم رفع رأسه وبكى ، وقال : الحمد لله الذى أرانى الدنيا هكذا ، هذا والله قد طيب على الموت (٥١) .

وكان المهدي يُكثر من الصلاة والركوع والسجود إلى أن يدركه الصباح ، ويُكثر من الدعاء خصوصاً وقت الإفطار إذا كان صائماً ؛ وكذلك كان يكثر من الدعاء على خصومه ويسأل ربه بأن يكف عنه شرهم (٥٢) . ولما قتل أخرج رجل من الموضع الذى كان هذا الخليفة يأوى إليه فأصيب له سفظ (٥٣) مقفول فتوهم المقربون منه أن فيه مالا أو جواهرًا ، فلما فتح وجد فيه جبة صوف ، وقيل جبة



شعر ، فلما سألوا خادمه ، أخبرهم أن المهتدى إذا جن عليه الليل لبسها وغل نفسه بها(٥٤) .

### محاولة المهتدى الإصلاحية :

قبل أن نتطرق إلى محاولة المهتدى الإصلاحية يجدر بنا أن نشير إلى حال البيت العباسى نفسه وقت تسلم المهتدى مقاليد الخلافة .

ذلك إن البيت العباسى كان عندئذ يعانى من حالة ضعف وتفكك لم يسبق لها مثيل ، وذلك بسبب انصراف أكثر أبنائه عن شؤون الرعية ، وميلهم إلى حياة البذخ والترف ، وانسياقهم خلف أهواء الموالى الأتراك الذين أحكموا سيطرتهم على بعض المناصب المهمة فى الخلافة ، وتمكنوا من غرس بذور الفتنة بين أفراد الأسرة العباسية . وفأوجد ذلك جواً من العداء والكراهية والشك فيما بينهم ودخلوا فى مشاحنات لا طائل من ورائها سوى إنهاك القوة العباسية ، والتقليل من محبة ومكانة العباسيين وهيبتهم فى قلوب الناس . فاستغل الأتراك ذلك وصاروا بمثابة حلقة اتصال بين الرعية والخلفاء(٥٥) . وكان القواد قد أجمعوا بعد أن خلع المعتز نفسه عن الخلافة على أنه ليس فى أولاد الخلفاء أفضل ولا أعقل من محمد بن الواثق(٥٦) .

ولما تبوأ المهتدى مكانه فى دار الخلافة وجد أن الفرصة باتت مواتية لتحقيق ما كان يدور فى ذهنه من قبل . إذ لم يستطع هذا الخليفة تحمل رؤية مظاهر الفساد والفوضى وقد أضحت تعم أرجاء الدولة ، فكان أول إجراء إصلاحى أقدم عليه حينما جرى ترشيحه للخلافة رفضه قبول البيعة من أحد ما لم يعلن سلفه الخليفة المعتز أمام الملأ عدم قدرته على تصريف أمور الخلافة ، ورغبته فى تسليمها إليه عن رضا وقناعة واختيار منه . وكان المهتدى قد قال لأنصاره حينما تقدموا إلى مبايعته المثل السائر : " لا يجتمع فحلان فى شول ، ولا سيفان فى غمد " (٥٧).



ولما حضر المعتز ومثل أمام المهتدى سلم عليه بالخلافة ، فطلب الحاضرون من المهتدى أن يأخذ مكانه فى صدر المجلس ، ولكنه أبى ، وقال : " لا ارتفع على العرش إلا أن يرفعنى الله بخلافته " . ثم تحدث إلى ابن عمه المعتز قائلاً : " يا أمير المؤمنين خلعت أمر البرية من عنقك طوعاً ورجبة ، وكل من كانت لك فى عنقه بيعة فهو برئ منها " فأجابه المعتز إلى ذلك ، ثم قام المهتدى إلى صدر المجلس ، وبايعه الناس فى سامراء (٥٨) .

ويبدو أن المهتدى قصد من وراء قيامه بهذا الإجراء تحقيق أمور عدة :  
أولها : أن يؤكد لمن حوله بأن وصوله إلى الخلافة لم يكن مغنماً وهدفاً قد خطط له وسعى من أجل الوصول إليه ، بل كان مغرماً وجد نفسه فجأة فيه .  
ثانيها : إنه كان يخشى من وقوع فى الفخ نفسه الذى نصبه بعض قواد الأتراك من قبل للخليفة المعتز حينما بايعوه بالخلافة ووافقهم على ذلك ، بينما كان سلفه المستعين ما زال قائماً على رأس الخلافة فى بغداد ، فأدى ذلك إلى تأجج نيران الفتنة أواخر سنة ٢٥١هـ / ٨٦٦م بين المعتز وأنصاره فى سامراء والمستعين وأعوانه فى بغداد ، وسقط فيها عدد ليس بالقليل ما بين قتيل وجريح (٥٩) .

ثالثها : حاول الحصول على أوسع تأييد ، حيث إن مبايعته الشعبية المسبقة تعد بمثابة تأييد لكل ما كان يخطط لتنفيذه من إصلاحات إدارية واجتماعية .

لقد أدرك المهتدى بثاقب نظره وحكمته وتواضعه أن يبدأ قبل فرض محاولته الإصلاحية على عامة الناس بإصلاح البيت العباسى نفسه من الداخل ، بعد أن انغمس أكثر أفرادهم فى الملذات فحري بهم إن يكونوا فى سائر أحوالهم وتصرفاتهم قدوة حسنة ومثالاً أعلى للناس كافة . ولكن المهتدى قبل أن يأمر أهل بيته بذلك ، بدأ أولاً بنفسه حيث عاش حياة زهيدة مما جعل أهل عصره يشبهونه بالخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز .

قال عنه الإمام الأزدي في أخبار الدول المنقطعة : " يكاد يكون في الهاشميين كعمر بن عبد العزيز في بني أمية هدياً وصدقاً " (٦٠) .

وقال عنه مؤرخ آخر : " لم يل الخلافة بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن العزيز أصلح منه " (٦١) ، وكان المهتدي كثيراً ما يردد قوله : " إنني لأستحي أن يكون لبني مروان عمر بن عبد العزيز وليس لبني العباس مثله ، وهم آل الرسول عليه الصلاة والسلام وبه ألزم ، وإليه أقرب " (٦٢) .

وكان المهتدي يلبس الصوف الخشن تحت ثيابه ، وظل في أثناء خلافته يلبس الثوب الواحد فيبقى عليه أياماً كثيرة لا يستبدله بغيره (٦٣) . وكان يقول : " لو لم يكن الزهد في الدنيا ، والإيثار لما عند الله من طبعي لتكلفته وتصنعتة فإن منصبى يقتضيه ، أنى خليفة الله في أرضه ، والقائم مقام رسوله ، النائب عنه في أمته " (٦٤) .

ولما تولى المهتدي الخلافة صار يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع فيخطب بالحاضرين ، ويعظهم ويذكرهم بالآخرة ، ويصلى بهم (٦٥) .

وكان المهتدي قد انفرد بعمله هذا عن غيره من خلفاء العصر العباسي الثاني الذين سبقوه فقد كان هؤلاء يندبون عنهم من يخطب بالناس أيام الجمع والأعياد (٦٦) .

لقد أبطل المهتدي إبان خلافته الملاهي ، وأمر بإخراج القيان والمغنين والمغنيات من سامراء (٦٧) ، وأمر بطمس وإحراق الصور التي كانت في المجالس ، وإخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فكسرت وضربت دنائير ودراهم ، وأمر بذبح الكباش والديوك التي كان يناطح بها بين يدي الخلفاء (٦٨) .

كذلك أولى المهتدي النواحي المالية قدراً كبيراً من الأهمية ؛ إذ كان يعلم أن السياسة المالية ذات قيمة كبرى في سير أعمال الدولة ، بل هي العنصر النابض

فى حياة الأمم ، وكثير من المشاكل تحدث من سوء التنظيم المالى . ولذا فقد بدأ هذا الخليفة بنفسه وخصص مائة درهم يومياً لنفقاته الشخصية (٦٩) ، وبلغ إجمالى نفقاته على أهله وولده وخدمه وحشمه طوال مدة حكمه خمسة عشر ألف دينار (٧٠) فى حين كان الخلفاء الذين سبقوه ينفقون على موائدهم فى كل يوم عشرة آلاف درهم (٧١) .

واتسعت دائرة إصلاحاته المالية فشملت رواتب الجند حيث قرر أن تدفع هذه الرواتب على أساس الأيام بدلاً من الشهور ، ليكون فى مأمن من ثورات الجند ، حتى إذا نقصت الأموال فى خزانة الدولة حسم ذلك اليوم عليهم بدون مشاغبة (٧٢) .

ولما كان الجيش العباسى يتألف من فرق عسكرية عدة تشكلت على مر العصور وتعاقب الخلفاء ، فقد رأى المهتدى أن تدفع رواتب الجند فى الجيش العباسى على حسب نوعية الفرق العسكرية التى ينتمون إليها ، فقد كان الفرد الواحد من فرقة الأتراك يتقاضى درهمين يومياً مقابل درهم واحد لزميله الذى يخدم فى فرقة المغارية " المنسوبة إلى مصر " (٧٣) .

وما من شك أن هذا التميز فى مراتب الجند العباسى وإعطاء الأتراك أفضلية دون غيرهم ، يعكس بوضوح مدى قوة نفوذ العناصر التركية وتحكمهم فى مركز القرار السياسى داخل البلاط العباسى ، كما أنه يبين مدى الضعف الذى بلغه العنصر العربى إبان هذه المرحلة فى تاريخ الدولة العباسية .

لقد كان المهتدى يقصد من وراء تلك الإصلاحات المالية ترشيد النفقات العسكرية ، والعمل على الوصول إلى توازن مصروفات الخلافة مع إيراداتها التى أختلت أمورها فى عهود من سبقه ، لدرجة أن خزانة الدولة عند توليه الخلافة أصبحت شبه خاوية بعد أن عبت بها القادة الأتراك وبعض نساء وأمهات الخلفاء.

ولما كانت فترة الفوضى السياسية التي سبقت خلافة المهدي قد أتاحت الفرصة لبعض ضعاف النفوس في الوصول إلى المراتب العليا في الدولة ، كالوزارة والدواوين العامة وغيرها ، فأساءوا استخدام هذه المؤسسات وأخفقوا في إدارتها لأنهم جاءوا إليها بقصد تحقيق مكاسب ذاتية لهم ، فقد باشر المهدي الإشراف بنفسه على الخراج والدواوين حيث خصص يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع للجلوس فيها والكتاب بين يديه يقومون بعمل الحسابات(٧٤) .

ولما تبين له أن جماعة من الوزراء والرؤساء أهملوا في أعمالهم لم يتوان في القيام بتأديبهم ، حيث فوض أمرهم إلى كبير حجابيه صالح بن وصيف فسجن الوزير أحمد بن إسرائيل(٧٥) والكاظم عيسى بن إبراهيم(٧٦) ، ثم أمر بإخراجهما إلى باب العامة في سامراء وجلد كل واحد منهما خمسمائة سوط ، ثم طيف بهما على بغلين أمام الناس وماتا متأثرين بذلك(٧٧) .

لقد بالغ الحاجب ابن وصيف في تعذيبهما بهدف التخلص منهما ، فقد فعل فيهما ما لم يطلبه الخليفة منه ، إذ إن المهدي لما بلغه ما حل بهذين الكاتبين غضب عليه ، ومن شدة تأثره بما حدث لهما قال : "أما عقوبة إلا السوط أو القتل؟ أما يقوم مقام هذا شيء؟ أما يكفي؟ إنا لله وإنا إليه راجعون " وكان يقول ذلك ويسترجع مراراً(٧٨) .

لقد كان المهدي با لله خليقاً للإمارة ، بطلاً ، شجاعاً ، قوياً في أمر الله(٧٩) ، حازماً ضد من يخرج عن جادة الصواب حتى ولو كان من أفراد أسرته فقد طال عقابة ثلثة منهم لما بلغه أنهم اختلسوا شيئاً من أموال الدولة فأصدر قراراً بنفى قبيحة والدته المعتز وابنها عبد الله(٨٠) ومعهما أبا أحمد الموفق إلى مكة(٨١) .

وأهتم الخليفة بالمهدي بالقضاء وشهدت خلافته - رغم قصرها - انتعاشاً لمكانة القضاء ، فنظر الناس إليه بشئ من الإكبار والإعجاب(٨٢) . ولم يتردد في

تأديب اثنين من قضاة سامراء ، هما حماد ابن إسحاق (٨٣) ، والحسن بن أبى الشوارب ، حيث أمر بإركاب الأول على بغل وطيف به فى سامراء ، ثم نفاه إلى الأهواز (٨٤) ، وذلك عندما بلغه أنه كاتب دون علمه ابن عمه الموفق أثناء إقامته فى منفاه بمكة (٨٥) . أما القاضى الثانى فقد عزله المهتدى عن القضاء وألقاه فى السجن سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٩م وولى بدلاً منه القاضى عبد الرحمن البصرى (٨٦) .

ويأتى هذا الإجراء فى إطار حملة قام بها المهتدى ضد بعض ذوى المناصب المرموقة فى الدولة ، كالوزير الإسكافى والحاجب ابن وصيف ، بعد أن كثر كلام الناس فيهم ، وفى سوء سيرتهم ، وميلهم الشديد إلى الدنيا (٨٧) .

لقد شيد المهتدى فى عهده قبة لها أربعة أبواب سماها ( قبة المظالم ) ، وجلس فيها للخاصة والعامة من الناس ، حيث صار يخاطب أصحاب الحوائج بنفسه (٨٨) . وكان المهتدى إذا جلس للمظالم أمر بأن توضع كوانين الفحم عندما يشتد البرد فى أروقة ومنازل قبة المظالم ، فإذا أدخل المستظلم أمر بأن يدفأ ويجلس ليسكن ويثوب إليه عقله ، ويتذكر حجته ثم يدنى ويسمع منه ويقول : كيف يُدلى المتظلم بحجته إذا لم يُفعل به هذا وقد تداخلته رهبة الخلافة وألم البرد ؟ (٨٩) .

ولما علم المهتدى بأن عمال الخراج دأبوا منذ عصر خلفاء بنى أمية على مطالبة أهل البلدان بدفع الكسور فى الأوزان والمعاملات المالية ، رفض ذلك وأمر بإسقاطه عن الناس ، وقال : " معاذ الله إن ألزم الناس ظلمًا تقدم العمل به أو تأخر ، على أن أقرر حقًا وأزيل ظلمًا وأن أجحف بيت المال " (٩٠) .

وانتشر خبر إنصافه وعدله فى سائر الأقطار الإسلامية فقصده الناس من كل مكان ، فقد كان يجلس للنظر فى أمور المسلمين فى دار العامة ، فتقرأ عليه قصص الناس من أولها إلى آخرها . فيأمر بالتوقيع فيها وإنشاء الكتب لأصحابها وتختم وتُدفع إلى صاحبها بين يديه (٩١) . وكان قد قدم عليه رجل من مدينة الرملة (٩٢) ،



وأعطاه كتاباً يشكو فيه من ظلم عامله على هذه المدينة ، فأخذه المهتدى ، وكتب فيه أسطرًا بخطه إلى الوالى يأمره بإنصافه . ولما أراد هذا الرجل الانصراف من مجلس الخليفة سقط مغشياً عليه فنهض المهتدى يعاينه بنفسه حتى أفاق وسأله عن سبب ذلك فأجابه بأنه ما كان يتوقع أن يعيش حتى يرى هذا العدل . فقال المهتدى : كان الواجب علينا أن ننصفك وأنت فى بلدك ولا تحتاج إلى كل هذا التعب والكلفة ، وأعطاه خمسين ديناراً من بيت مال المسلمين ، وقال له : " إني لا أملك مالاً فخذها لنفقتك قادماً وراجعاً ، واجعلنا فى حل من تعبك وتأخر حقك " (٩٣) .

ولما وقعت فى عهد المهتدى خصومة بين أحد أبنائه ورجل من سامراء لم يتوان لحظة واحدة فى استدعاء ابنه وطلب منه بأن يقف بجوار خصمه ، فسأله عما ادعاه عليه ، فأقر به ابنه ، وعندئذ أمر برد حقه عليه ، وكتب إليه الخليفة كتاباً بذلك ، فقال له الرجل : والله يا أمير المؤمنين ما أنت إلا كما قال الشاعر :

حَكَّمْتُمُوهُ فَقَضَى بَيْنَكُمْ      أبلج مثل القمر الزاهر

لا يقبل الرشوة فى حكمه      ولا يبالى غبن الخاسر

فقال المهتدى : أما أنت أيها الرجل فجزاك الله خيراً ، وأما أنا فما سمعت بهذا الشعر ، ولكنى أذكر قول الله عز وجل : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (٩٤) .

وقد أحاط المهتدى العلماء ببره ، وإحسانه ، ورفع منازل الفقهاء والأدباء والكتاب فكانوا لا يفارقون مجلسه . ومن أبرز هؤلاء العلامة شيخ الحنفية أبى بكر الشيبانى المعروف بالخصاف (٩٥) ، الذى صنف كتاب " الخراج " للمهتدى ، ولما قُتل هذا الخليفة نهبت دار الخصاف ، وذهبت بعض كتبه (٩٦) . ومن الكتاب



المبرزين في دواوين المهدي الوزير الكبير والكاتب الشهير سليمان بن وهب ،  
روى أنه كان جالساً في مجلس المهدي فدفع إليه هذا الخليفة كتاباً ليحيب عليه ،  
فلما قام قال المهدي : " ليس في صناعته له نظير ، غير أنه يُفسد نفسه بحبه  
الشديد للمال " (٩٧) .

ولقد أنشد البحري (٩٨) قصيدة بديعة في المهدي وصف فيها زهده  
وسيرته وأولها :

إذا عرضت أحداً ليلي فنادها      سقتك غواصي المن صوب عهادها  
ولما فرغ البحري من إنشاد هذه القصيدة اعتذر منه المهدي لأنه ليس لديه  
مال يكافئه به ، ولا يرى له حقاً في بيت المال فيعطيه منه . وأحضر بعض أفراد  
أسرته وقال لهم : " أبو عبادة - يقصد البحري - خطيب بيتنا ، وشاعر دولتنا ،  
وليس في يدي شيء سوى أموال بيت المال وهي وديعة في يدي ، والله يسألني  
عنها يوم القيامة ، ويحاسبني عليها . فأجيزوا أبا عبادة عني . فجمعها له في  
الحال مائة ألف درهم . فقال المهدي : يا أبا عبادة والله ما ملكت عُشرها قط  
ولا أملكه إن شاء الله " (٩٩) .

وهكذا كان المهدي حريصاً على استقرار الأمور الداخلية في عهده كي  
يتسنى له المضى قدماً في تنفيذ محاولته الإصلاحية دون أن يواجه عقبات تذكر .  
واقترض ذلك منه أن يقف في بداية عهده على الأقل موقفاً وسطاً من الحركات  
الفكرية والمذهبية التي كانت تموج بها بعض الولايات الإسلامية ، وخصوصاً في  
مدن العراق والمشرق الإسلامي . ولكنه لم يتردد رغم ذلك في المجاهرة فور توليه  
بمناصرته للسنة وأهلها وبعدها للتشيع وأهله . وذلك عكس السياسة التي انتهجها  
قبله كل من جده المعتصم وأبيه الواثق . وأقوى دليل على ذلك قيامه بنفي وزيره جعفر  
الإسكافي إلى بغداد حينما بدرت منه تصرفات توحى بميله إلى الشيعة (١٠٠) .

وكان المهتدى لما ذكره أحد أصحابه بقضية خلق القرآن الكريم وموقف أبيه وجده من الممتنعين عن القول بذلك ، كالإمام أحمد بن حنبل (١٠١) ، أقر بأنه ظل يقول : إن القرآن مخلوق صدرًا من خلافة أبيه الواصل حتى سمع مناظرة جرت في عهد أبيه فرجع عن هذه المقالة منذ ذلك اليوم . وقال المهتدى لصاحبه : " رحم الله أحمد بن حنبل ، والله لو جاز لي أن أتبرأ من أبي لتبرأت منه " (١٠٢).

ونخلص مما سبق : إلى أن الإصلاح الذي حاول المهتدى القيام به كان متسع النواحي ، فقد بدأ بنفسه ثم انتقل إلى أسرته ليعطي المثل الكامل لشعبه ، ولأولئك الجند والموالي الذي يحيطون به ، وكذلك أصحاب المصالح الذين حاولوا عبثًا ثنيه عن المضى في مشروعه الإصلاحى . ولكنه أصر على موقفه ، ورفض الإذعان لرغبتهم فأجبرهم على قبول ما كان يعتزم القيام به ، والانطلاق فى ذلك إلى أبعد مدى : حقًا لقد امتدت يده الإصلاحية إلى الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فأعاد لبيت المال توازنه ، وحفظ للقضاء مكانته ، وجلس للمظالم ، وأشرف بنفسه على أعمال الدواوين ، فكان من البدهى والحالة هذه أن تستقيم الأمور ، ويسود قدر من العدل والإنصاف أكثر من ذى قبل فى عهده .

### أسباب فشلها :

كادت محاولة المهتدى الإصلاحية ترى النور ، وتؤتى ثمارها ، ولكن الأوضاع العامة من حوله كانت فوق طاقته . ففى مستهل خلافته بدأت الفتن والاضطرابات ، وظهرت بعض حركات المعارضة السياسية والمذهبية التى لم يقتصر ظهورها على حاضرة الخلافة العباسية سامراء فحسب ، بل قامت فى مدن وأقاليم شتى داخل العراق وخارجه مثل بغداد والبصرة (١٠٣) والموصل (١٠٤) وسجستان (١٠٥) غيرها .

وقد لخص الطبرى مجمل حال الخلافة أبان عهد المهتدى بقوله : " وكانت ولايته والدنيا كلها من أرض الإسلام مفتونة " (١٠٦) .

أما ابن الأثير فقد شخص هو الآخر واقع الخلافة آنذاك قائلاً : " ولما ولي - يقصد المهتدى - كانت الدنيا كلها بالفتن منسوخة " (١٠٧) .

ويقول بعض المؤرخين (١٠٨) : " لقد كان المهتدى بالله بطلاً ، شجاعاً ، مهيباً ، قوياً في أمر الله ، كأنما خلق للإمارة لكنه لم يجد معيناً ولا ناصرًا على الحق ، والوقت قابل للإدبار " .

وقد بدأ العلامة ابن خلدون (١٠٩) حديثه عن هذا الخليفة بقوله : " كانت الفتن في عهده قائمة ، والدولة مضطربة ، فشمر لأصلاحها لو أمهل ، لكن ابن وصيف غلب على أمره " .

والواقع أن محاولة المهتدى الإصلاحية لم تكن من الأساسى محل رضا وقبول من بعض العناصر المتسلطة داخل البلاط العباسى ؛ إذ إن من شأن نجاحه فى ذلك سلب هؤلاء كل الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها . وهذا يفسر رياح المعارضة التى أثاروها فى وجه هذه الحركة ، ويفسر مجاهرتهم فى وجه الخليفة بعدم تقبلهم لخطواته الإصلاحية ، فقد قالوا له : تريد أن تحمل الناس على سيرة عظيمة لم يألفوها فى خلافة من سبقك ! ولكن المهتدى تصدى لهم بكل حزم وإصرار قائلاً : " أريد أن أحملهم على سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأهل بيته والخلفاء الراشدين " (١١٠) . ثم عادوا إلى الحوار معه وقالوا : ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام كان مع قوم قد زهدوا فى الدنيا ورغبوا فى الآخرة كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وغيرهم . وأنت إنما رجالك تركى وجزرى ومغربى وغيرهم من العجم ، لا يعلمون ما يجب عليهم من أمر آخرتهم ، وإنما غرضهم ما استعجلوه من هذه الدنيا ، فكيف تحملهم على ما ذكرت من الواضحة . وقد دار بينه وبينهم جدل طويل فى هذا الأمر حتى استطاع فى النهاية أن يجبر كثيراً من معارضيه على تقبل سياسته الإصلاحية (١١١) .

وبدهى القول أن بروز هذه المعارضة المبكرة ضد إصلاحات المهتدى كانت كفيلة بإحباط معنوياته أو على الأقل تثبيط عزيمته عن المضي قدماً في تنفيذ ما كان يسعى إليه ، ومع ذلك كان المهتدى على يقين تام بأن هذه المشكلات التى بدأت فى الظهور هنا وهناك ، لم تكن موجهة ضده شخصياً وليس الغرض منها النيل من ذاته ، أو الاعتراض على توليه هذا ، المنصب بقدر ما كانت تعبيراً صريحاً عن رفض الرأى للواقع المرير الذى أضحت الخلافة العباسية تئن تحت وطأته ، منذ أن تغلبت العناصر التركىة على شئونها ابتداء من العصر العباسى الثانى ( ٢٣٢هـ / ٨٤٧م ) حتى عصر المهتدى بالله . فقد شهدت هذه الحقبة الزمنية القصيرة تولى عدد من الخلفاء الذين لم يكونوا مؤهلين أساساً للوصول إلى هذا المنصب فقد كان بعضهم ضعيف الشخصية أو صغير السن ، وبعضهم الآخر غير مبال بأحوال الرعية ، وكان منصرفاً تماماً عن شئون الدولة . وقد ذكرنا فى - مدخل هذا البحث - نماذج من هؤلاء كالمنتصر والمستعين والمعتز .

ولعل من سوء حظ المهتدى أن ترشيحه للخلافة جاء بعد أولئك الخلفاء مباشرة ، فى الوقت الذى كان الناس قد يتسوا فيه من ظهور خليفة لديه الكفاية والمقدرة على إصلاح وتجديد أوضاع الخلافة .

ولهذا كانت النفوس مهياة لشق عصا الطاعة على الخليفة الجديد ، بعد أن ضاق الناس ذرعاً وستموا من عدم وفاء الخلفاء الذين سبقوه بالوعود التى قطعوها على أنفسهم لتبديل حال الخلافة .

ومن ثم نظر الناس إلى سياسة المهتدى على أنها امتداد لسياسة من سبقه خصوصاً تجاه الأتراك ، إذ كانت هذه السياسة ترمى إلى تقريب هؤلاء من البلاط العباسى ، ومنحهم المناصب المهمة فى الدولة ، وإغداق الأموال الطائلة عليهم .

لقد سار أوائل خلفاء العصر العباسى الثانى على ذلك النهج اعتقاداً منهم أن مثل هذا الإجراء من شأنه أن يقوى الصلات بينهم وبين أولئك الأتراك ، وبالتالي يكون فيه ضمان لسلامتهم وبقائهم أطول مدة ممكنة فى الحكم العباسى .

وكانت فى طليعة المشكلات التى واجهت المهتدى أنه لما جرى ترشيحه للخلافة أواخر شهر رجب سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٩م ، تردد أهل بغداد فى مبايعته إذ فضلوا عليه الموفق بن المتوكل (١١٢) ، فكان ذلك الحدث غير المتوقع بمثابة صدمة للمهتدى بالله فى فجر حياته السياسية ، وهو الذى كان قد قبل منصب الخلافة بغرض الإصلاح ، والعمل على تطهير مؤسسات الدولة من كل مظاهر الفساد التى كانت تفشت بها .

ورغم أن بعض المؤرخين (١١٣) قد ذكروا أن سبب إقدام بغداد على هذه الخطوة يعود إلى عدم معرفتهم بما جرى فى العاصمة سامراء من إجماع الناس على ترشيح المهتدى للخلافة ، فإننا نرى أن أهل بغداد فضلوا الموفق على ابن عمه المهتدى لكون الأول يقيم بينهم فى بغداد . هذا بالإضافة إلى أنه كان شخصية قيادية بارزة وقتذاك ، بعكس المهتدى ، الذى لم يكن معروفاً على المسرح السياسى فى الدولة العباسية .

فالموفق هو ابن الخليفة المتوكل ، وأخو الخليفين المنتصر بالله والمعتز . وكان قائد جيش الخلافة فى عهد أخيه المعتز ، فضلاً عما كان يقوم به من نشاطات سياسية أخرى فى خلافة أخيه ألقى بسببها فى السجن ، ثم نفى إلى البصرة ، ولكنه أعيد إلى بغداد قبيل وفاة أخيه ، وتولى المهتدى الخلافة (١١٤) .

ويبدو لنا أن ما حصل من أهل بغداد تجاه الموفق كان له صلة وثيقة بالقرار الذى اتخذته المهتدى حينما تولى الخلافة ، حيث قام بنفسى الموفق إلى مكة المكرمة (١١٥) .

وكان والى الشرطة فى بغداد سليمان آل طاهر (١١٦) قد حاول إجبار الناس على مبايعة المهتدى بالقوة ، فغضب هؤلاء وهاجموا داره (١١٧) . ولما وصلت الأنباء إلى المهتدى فى سامراء ، طلب من والى عدم اللجوء إلى استخدام القوة



لثنى الناس عن رغبتهم ، فما كان من الوالى إلا أن قام بتوزيع الأموال عليهم ، فسكنت الفتنة وأقبل سكان بغداد على مبايعة المهتدى بالله (١١٨) .

ولم يكد الخليفة يفرغ من فتنة العامة فى بغداد حتى أثار الجند فتنة أخرى ، وذلك احتجاجاً على إيواء والى الشرطة نفسه جمعاً من الخراسانيين الفرس الموالين للدولة الطاهرية (١١٩) ، وكان هؤلاء أثناء إقامتهم فى بغداد قد أساءوا معاملة أهلها ، وارتكبوا أعمالاً شنيعة ، فحقّد الناس عليهم ، وتطورت هذه الفتنة بعد أن رأى أهل بغداد تعاطف الوالى مع أولئك الفرس لدرجة أنه اختلس أموال الجند وقام بتوزيعها عليهم . وعندئذ لم يستطع الجند كبت مشاعر الغيرة والغضب ، فأعلنوا العصيان على الخليفة ، ووجدوا مساندة قوية من عامة الناس التى لم تهدأ ثورتهم بعد ، وبذلك خرجت بغداد مرة أخرى عن طاعة المهتدى بالله (١٢٠) .

وقد اشتدت هذه الفتنة ضراوة عندما اقتحم الجند السجن فى بغداد ، وأطلقوا سراح السجناء . واندلعت الحرب بين الخراسانيين وجند بغداد فى الشوارع والبيادين ، فاضطر القائد الخراسانى محمد بن أوس (١٢١) إلى النزوح ناحية مناطق الجزيرة الفراتية ، واقتفى أثره حوالى مائة ألف شخص من أهل بغداد وعسكرها ، واشتبك الطرفان فى شمال العراق حتى حلت الهزيمة بالخراسانيين (١٢٢) .

ونتيجة لذلك أصبح موقف والى الشرطة ابن طاهر حرجاً للغاية أمام المهتدى بالله ، نظراً لانتفاء الوالى المذكور إلى الأسيرة ذات النفوذ القوى فى كل من بغداد وخراسان . وتفاقم خطر هذه الفتنة ربما يؤدى إلى فقدان أسرته تلك المكانة المرموقة التى كانت تحظى بها آنذاك لدى البيت العباسى . لذلك طلب ابن طاهر من القائد الخراسانى محمد بن أوس أن يرحل نهائياً عن إقليم العراق ، وأن يعود مع إتباعه إلى خراسان (١٢٣) .



ونلاحظ مما سبق أن جانباً من علة الخلافة الحقيقية في عصر المهدي با لله يكمن في وجود ولاية غير مخلصين له ، فابن طاهر على سبيل المثال انحاز إلى أبناء جنسه الفرس وأهمل مصلحة الخلافة ، فاستفحل أمر الفتنة التي كان الوالي سبباً في نشوئها ، وتعد واحدة من العقبات التي واجهت المهدي في مستهل خلافته ، واعتضت طريق حركته الإصلاحية .

ومن المشكلات التي شغل بها فكر الخليفة المهدي با لله في بداية حكمه الخلاف الذي نشب بين كبير حجاجه صالح بن وصيف ووالدة الخليفة المعتز قبيحة التركية ، فقد كانت هذه المرأة ذات نفوذ ومال وجاه في عهد ابنها . وقد تواطأت مع نفر من أنصارها على قتل صالح بن وصيف الذي كان وقتذاك مُقدم قواد الأتراك ، ولكنه اكتشف هذه المؤامرة ، فلما قُتل ابنها اختفت داخل سرب في قصرها وظلت فيه مدة من الزمن (١٢٤) .

ولما تولى المهدي الخلافة اضطرت إلى الخروج ، وسعت إلى مصالحة ابن وصيف ، فوافق على طلبها ، شريطة أن تسمح له بمصادرة أموالها التي قدرت بـ (مليون وثمانمائة ألف دينار) . هذا فضلاً عما عُثر عليه لديها من خزائن وجواهر مدفونة تحت الأرض . فوافقت على تسليم هذه الأموال إليه (١٢٥) .

لقد أوجس المهدي خيفة في نفسه من ظهور قبيحة والدة المعتز ، كما أقلقته محاولتها الرامية للتقرب من حاجبه ابن وصيف ، وذلك بهدف إحياء ما كان لها من نفوذ وجاه في خلافة ابنها ؛ إذ أن ذلك يشكل تهديداً لسلطته ومحاولته الإصلاحية . وهذا ما دفعه إلى إبعادها عن العاصمة سامراء ، فنفاها إلى مكة المكرمة ، حيث سيرت إليها بصحبة بعض رجاله ، وظلت فيها إلى أن تولى المعتمد على الله (١٢٦) الخلافة سنة ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م فردها إلى سامراء (١٢٧) .

ومن أهم العقبات التي واجهت المهدي با لله في مبتدأ خلافته ، وكان لها دور مؤثر في إرباك خطته الإصلاحية ثورة الزنج التي اندلعت في شوال سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٩ م قرب مدينة البصرة في جنوب العراق (١٢٨) .

وكان زعيم الزنج قد ادعى أنه ينتسب إلى آل البيت (١٢٩) ، وأراد أن يستغل الفوضى السياسية والاجتماعية الضاربة أطناها في هذه المدينة المزدهمة بالسكان ، خاصة أن البصرة كانت تزخر آنذاك بمجموع العبيد الذين كانوا يستوطنون السباخ ويقومون باستصلاح الأرضى الزراعية (١٣٠) . هذا بالإضافة إلى أن هذه المدينة كانت وقتذاك مسرحاً لبعض الحروب العصبية حيث كان الصراع القبلى على أشده بين قبيلتى البلالية والسعدية (١٣١) . والواقع أن صاحب الزنج رجل مغامر بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، فقد رأى اضطراب أحوال الخلافة العباسية ، وأرد أن يكون له شأن وسط هذا الجو المضطرب . لقد كانت ثورة الزنج على جانب كبير من الأهمية من حيث طابعها ودوافعها وآثارها على الدولة العباسية ابتداء من عهد المهتدى بالله ، فقد كانت حلقة فى سلسلة متصلة من الأحداث الاجتماعية والسياسية والفكرية الهائلة التى عبرت إبان هذه المرحلة عن السخط العام من ناحية ، وعن تفكك الدولة العباسية من ناحية ثانية (١٣٢) .

وكان زعيم الزنج قد بدأ حركته فى خطبة ألقاها على أتباعه العبيد يوم عيد الفطر سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٩م حيث أخذ يَعدُّ أصحابه بالحرية ، ونقض الرق وتحقيق العدل الاجتماعى ، وغلظ لهم الإيمان بألا يغدر بهم ، ولا يخذلهم ولا يدع شيئاً من الإحسان إلا أتى به إليهم (١٣٣) .

أخذ زعيم الزنج فى بداية خلافة المهتدى يزحف على بلدان الخلافة العباسية الواقعة جنوب العراق ، حيث بدأ بالبصرة نفسها ، وجرت بينه وبين أهلها معركة البيداء التى انتصرت فيها . وسميت بهذا الاسم لكثرة ما سقط فيها من القتلى والجرحى غالبيتهم من العلويين وألقى صاحب الزنج برؤوسهم فى النهر رغم زعمه بأنه من سلالة الخليفة على بن أبى طالب رضى الله عنه (١٣٤) .

والواقع أن الخليفة المهتدى بالله لم يتحرك بشكل إيجابى لقمع حركة الزنج فى مهدها، فقد ترك أهل البصرة وحدهم يتحملون مواجهة تيار الزنج العنيف (١٣٥) .

ولكننا لو أمعنا النظر فى ظروف الخلافة وقتذاك ، لوجدنا للمهتدى بعض العذر فى ذلك ، فقد تزامن قيام حركة الزنج مع نشوب فتنة العامة ثم فتنة الجند فى بغداد ، وهبوط الروح المعنوية لأفراد الجيش العباسى بسبب قيام والى بغداد باختلاس مرتباتهم(١٣٦) .

ولما استقرت الأمور فى بغداد ولى الخليفة المهتدى وجهه شطر البصرة فأرسل جيشاً محدود العدد والعدة لمساعدة أهلها ضد زعيم الزنج ، ولكنه انهزم أمام الزنج قرب نهر الريان(١٣٧) ولقى حوالى ألف وخمسمائة من أفرادهم مصرعهم(١٣٨) .

ولما انتصر صاحب الزنج على جيش الخلافة اشتد بأسه ، وخاف منه أهل البصرة ، وأمسكوا عن حربه ، وكتبوا إلى الخليفة يطلبون منه التدخل ، وعندئذ فقط وجه إليهم المهتدى مدداً بقيادة جُعلان التركى ، وفى الوقت نفسه عين قائداً آخر يدعى أبا الأحوص الباهلى (١٣٩) والياً على مدينة الأبله(١٤٠) .

ويأتى هذا الإجراء من جانب المهتدى للحيلولة دون وقوعها هى الأخرى تحت سيطرة الزنج ، إذ إن هذه المدينة تتمتع بموقع جغرافى على شاطئ نهر دجلة فى زاوية الخليج ( العربى ) بالقرب من البصرة(١٤١) .

وقد أثارت سيطرة الزنج على البصرة ، وما جاورها من المدن جواً من الهلع والفرع بين سكانها ، وألحقت بها خراباً كبيراً .

ولما كانت البصرة تُعد باب بغداد الكبير ، ومدخل دجلتها المتدفق بضروب المتاع ، وأنواع السلع المجلوبة من أطراف الدنيا ... (١٤٢) ، حيث وصفها المقدسى بأنها : " فرضه البحر ومطرح البر " (١٤٣) . وتقع على مرمى حجر من حاضرة الدولة العباسية ، فمن الطبيعى أن تتأثر بقية مدن العراق من جراء سقوطها بيد الزنج ، حيث أختلت طرق المواصلات بينها وبين هذه المدن ، وألحق الزنج بزراعتها وتجارها أضراراً بالغة(١٤٤) .

لقد كان لحركة الزنج آثار ونتائج سيئة تمثلت فى الأضرار المادية كالقتل الجماعى والتخريب العشوائى ، وما أصاب الزراعة من شلل ترتب عليه عجز فى موارد بين المال وارتفاع الأسعار وقلة الأقوات (١٤٥) .

وتزامن ظهور حركة الزنج فى البصرة مع إعلان يعقوب بن الليث الصفار (١٤٦) عن قيام الدولة الصفارية فى إقليم سجستان ، وذلك سنة ٢٥٣هـ / ٨٦٧م (١٤٧) . ولم يتوقف طموح الصفار عند هذا الحد ، فقد شرع فى مد نفوذه غرباً ناحية مركز الخلافة فى العراق حيث خضعت لسيطرته سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٨م ولايتا كرمان (١٤٨) وفارس (١٤٩) ، وأصبح على مقربة من البصرة معقل حركة الزنج . وعندئذ صارت الخلافة تخشى أن يواصل الصفار زحفه نحو العراق ويسعى إلى إحياء النفوذ الفارسى هناك من ، جديد أو تقوم بينه وبين صاحب الزنج اتصالات خفية تلتقى خلالها أهدافهما السياسية ، ومن ثم ينشأ بينهما تحالف سياسى يكون موجهاً ضدها فيصعب عليها مواجهة هاتين القوتين فى آن واحد . وهكذا فإنه لم تمض على تسلم المهتدى بالله زمام الحكم سنة واحدة حتى وجد نفسه مضطراً للمحاربة على جبهات ثلاث فى وقت واحد . فبالإضافة إلى حركتى الزنج والصفار فى الجبهة الجنوبية من العراق ، ظهرت حركة الخوارج (١٥٠) بقيادة مُساور الشارى (١٥١) فى إقليم الموصل بشمال العراق (١٥٢) .

وكان زعيم الخوارج فى بداية أمره قد أتخذ من بلدة الحديثة (١٥٣) داراً لهجرته ، فلما قوى شأنه ، وازداد أتباعه ، قصد الموصل سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٨م واستطاع أن يدخلها دون حرب بعد أن اقتحم دار والى الخلافة عبد الله بن سليمان (١٥٤) وأحرقها (١٥٥) .

وهكذا لم يجد مساور أدنى صعوبة فى السيطرة على الموصل ، وذلك لميل أهلها إلى الخلاف ، ورغبتهم المستمرة فى الخروج عن طاعة أمير المؤمنين (١٥٦) .

وفى هذه الأثناء هاجم زعيم الخوارج المسجد الجامع فى الموصل وقت صلاة الجمعة ، وصعد المنبر ، وخطب فى الناس ، فوجه المهتدى بالله جيشاً إليه ، التقى بالخوارج الذين ألحقوا بالجيش العباسى هزيمة قاسية (١٥٧) اشتدت على أثرها شوكة الخوارج فى شمال العراق ، وبصفة خاصة بعد أن تغلب قائدهم مساور على أشد خصومه هناك ويدعى عبيدة العمرى (١٥٨) الذى لقى مصرعه عند نواحى جبهينة قرب الموصل فى مطلع سنة ٢٥٦هـ / ٨٦٩م (١٥٩) .

وكان مساور الخارجى قد رفض أن يرسل خراج الموصل إلى الخليفة المهتدى بالله ، فضاقت الأرزاق على الجند العباسى . فجهز المهتدى جيشاً آخر لقتال الخوارج . وقد جعل على مقدمته بعض قواد الأتراك . غير أن خلافاً حاداً نشب بين الخليفة وقواد الجيش أدى إلى توقفه عن مواصلة سيره ، ولم يتمكن من بلوغ هدفه فى الموصل (١٦٠) . وما من شك أن اندلاع حركة الخوارج فى الموصل كان أحد العوامل المؤثرة التى أصابت محاولة المهتدى الإصلاحية بالشلل . فالموصل معقل هذه الحركة ذات موقع استراتيجى مهم بالنسبة للخلافة العباسية من الناحيتين السياسية والاقتصادية فقد كانت آنذاك باب العراق ، ومفتاح خراسان (١٦١) ، ومنها يُقصد إلى ولاية أذربيجان (١٦٢) .

ويقول ياقوت الحموى : " كثيراً ما سمعت أن بلاد الدنيا العظام ثلاث ، نيسابور (١٦٣) ؛ لأنها باب الشرق ، ودمشق ؛ لأنها باب الغرب ، والموصل ؛ لأنه القاصد إلى هاتين الجهتين لا بد أن يمر بها (١٦٤) .

ولم تكن الأحوال الداخلية فى بقية مناطق الخلافة العباسية أكثر أمناً واستقراراً مما كانت عليه داخل العراق ، فقد كانت الأوضاع هناك مضطربة خصوصاً فى مصر حيث ظهرت فى مطلع خلافة المهتدى بالله بعض الحركات العلوية ، كانت الأولى بقيادة أحمد بن طباطبا (١٦٥) ، وكان ميدانها بين برقة (١٦٦) والإسكندرية . ثم نقل ابن طباطبا حركته إلى الصعيد (١٦٧) جنوب



مصر ، وهناك ازداد نصاره وادعى الخلافة ، فأوعز المهتدى إلى واليه على مصر أحمد بن طولون (١٦٨) بأن يقتفى أثر هذا العلوى . وقد تمكن ابن طولون من سحق هذه الحركة بعد أن قتل قائدها وحملت رأسه إلى مصر (١٦٩) .

أما الحركة الأخرى فقد تولى كبرها ابن الصوفى العلوى (١٧٠) الذى ظهر فى صعيد مصر ، وملك مدينة إسنا (١٧١) فى ذى القعدة سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٨م ، ثم نهب هذه البلاد وقتل أهلها (١٧٢) . ولقد سير إليه أحمد بن طولون جيشاً ، هزمه ابن الصوفى ، وأسر قائده ، وقطع يديه ورجليه ، ثم صلبه ، وذلك فى ربيع الأول سنة ٢٥٦هـ / ٨٦٩م (١٧٣) . ثم سير إليه ابن طولون جيشاً آخر تمكن من هزيمته ، وقتل كثيراً من رجاله ، ولاذ ابن الصوفى نفسه بالفرار إلى إحدى الواحات القريبة فى الصعيد (١٧٤) .

كذلك كانت الحالة الأمنية فى الشام سيئة ومضطربة إلى حد كبير ، فقد ثار فيها عيسى بن الشيخ (١٧٥) ، واستولى على دمشق ، وقطع الخراج عن بغداد (١٧٦) .

ونلاحظ مما سبق أن أقاليم العراق ومصر والشام والموصل التى تعد أهم بلدان الخلافة العباسية من الناحيتين السياسية والاقتصادية كانت فى عهد المهتدى بالله مسرحاً لعدد من الحركات والثورات المختلفة فى دوافعها وأهدافها ، مما أدى إلى تعطيل المرافق العامة فى هذه النواحي ، التى أصبحت عرضة للسلب والنهب من جانب الخارجين عن طاعة الخليفة . وقد أثر ذلك بشكل كبير على خراج تلك البلدان الذى كان يعد أحد الموارد الأساسية لبيت المال فى العصر العباسى . لقد كان لتدهور الحالة الاقتصادية فى عصر المهتدى نتائج سلبية للغاية فقد وقفت الخلافة عاجزة عن صرف مرتبات الجند فتأخرت أرزقهم لعدة أشهر ، واضطرت إلى استمالة قواد الجيش بكل الوسائل المتاحة ، حيث قامت بمنحهم الإقطاعات ، وإعفائهم من الزيادات والرسوم (١٧٧) . وانعكس ذلك بشكل تلقائى على

نفسيات الجند ، فبدأت تظهر بينهم حالة من الاستياء والسخط . وكانت أولى ردود الفعل تجاه ذلك قد ظهرت فى أوساط الجند المرابطين فى ولاية الرى (١٧٨) إذ ترك هؤلاء مواقعهم ، وعادوا إلى العراق خصوصاً حينما أشيع بينهم أن أمراء الأتراك فى سامراء قد نهبوا أموال الدولة بعد مقتل الخليفة المعتز (١٧٩) .

وقد بذل الخليفة المهتدى محاولات شتى لإقناع العسكر بالبقاء فى الرى ولزوم ذلك الثغر ، وأخذ يحذرهم من أن انسحابهم سيؤدى إلى تغلب العلويين بقيادة الحسن بن زيد (١٨٠) على البلاد التى سوف يتركونها خلفهم . ولكن لما تبين للمهتدى عزم الجند على ترك مواقعهم ، أفضى لقوادهم بأنه يعانى من ضائقة مالية لا يستطيع معها صرف مرتبات الجند العائدين إلى سامراء (١٨١) لكن محاولاته باءت بالفشل ، وعاد الجند إلى العراق ، وأقاموا بالقرب من سامراء ، وطلبوا من الخليفة أن يرسل إليهم أحد أخواته ليحملوه رسالة إليه ، فندب لهذه المهمة أخاه عبد الله بن الواثق (١٨٢) . وفى أثناء المفاوضات بين الطرفين اعترف الجند بأن بعض قوادهم يدبرون مؤامرة لعزل المهتدى بالله عن الخلافة ، وكتبوا بعض المطالب التى نقلها ابن الواثق إلى أخيه ، وتعهدوا للمهتدى فى حال تنفيذه لها بأن يقفوا إلى جانبه ، ويقتلوا كل من يريد أن يمس به بسوء (١٨٣) . ورغم أن المهتدى وعدهم بتحقيق ما طلبوا ، إلا أن الظروف السياسية والاقتصادية من حوله لم تمكنه من الوفاء بوعدده ، فقد كان الخليفة طيلة مدة حكمه محاطاً بطغمة من أمراء الأتراك الذين لم يتركوا له سبيلاً إلى الإصلاح . وكان على رأس هؤلاء كبير حجابه صالح بن وصيف الذى ازداد ظلمه ، واشتد جبروته بعد مقتل المعتز وجلوس المهتدى مكانه ، فقد قام بتصفية كبار رجال الدولة والقواد الذين يخشى منهم أن ينافسوه على السلطة فى البلاط العباسى .

ولما رأى بعض القواد الأتراك أن صالح بن وصيف تخلص من كبار منافسيه، ولم يقف فى طريقه أحد خافوا على أنفسهم ، فثاروا عليه يتقدمهم موسى بن

بُغَا (١٨٤) . ولكنه اختفى عنهم . ثم اتهموا الخليفة المهتدى بالتواطؤ معه ، وطلب موسى من المهتدى مناظرته ، فرفض الخليفة طلبه فى بادئ الأمر ، ولكنه ما لبث أن عاد ، ووافق على ذلك ، ثم تناظرًا . وفى أثناء ذلك قام رجال موسى وحملوا المهتدى على دابة ، ونهبوا ما كان فى مجلسه ، وأدخلوه إلى دار أحدهم (١٨٥) ثم أخذوا عليه عهدًا بالألا يميل صالحًا عليهم ، وأصروا على أن يقوم المهتدى بتسليمهم ابن وصيف لكى يحاسبونه على أفعاله (١٨٦) .

ولما احتدم النزاع بين الثوار والخليفة فكروا فى خلعه ، وشاع هذا الخبر فى أوساط الناس ، فقام هؤلاء وكتبوا رقاعًا ألقوها فى المساجد " معاشر المسلمين ادعوا لخليفكم العدل الرضا المضاهى عمر بن عبد العزيز أن ينصره الله على عدوه ويكفيه مؤنه ظالمه ، ويتم النعمة عليه وعلى هذه الأمة ببقائه " (١٨٧) ، وعندما بلغ الأمر المهتدى خرج إلى الثوار متقلدًا سيفه ، وخطب فيهم بعد أن نفى علمه بالمكان الذى يحتفى فيه صالح بن وصيف قائلاً : " بلغنى ما أنتم عليه ، ولست كمن تقدمنى ، مثل المستعين والمعتز ، والله ما خرجت إليكم إلا وأنا متحنط ، وقد أوصيت إلى أخى بولدى ، وهذا سيفى ، والله لأضربن به ما استمسك بيدي ، والله لئن سقط منى شعرة ليهلكن أكثركم ، أما دين ، أما حياء ؟ كم هذا الخلاف على الخلفاء ، والإقدام والجرأة على الله ؟ " (١٨٨) .

وعلى الرغم من قوة الخطاب الذى وجهه المهتدى إلى الثوار فإنه لم يترك أثرًا كبيرًا فى نفوسهم ، فما أن فرغ منه حتى نادى قائدهم أنه من جاء بصالح بن وصيف فله عشرة آلاف دينار ، فاشتد عليه الطلب ، فلما عثروا عليه قتلوه ، وذلك فى شهر صفر سنة ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ م (١٨٩) .

وهكذا نلاحظ مما سبق أن الأتراك سلبوا الخليفة المهتدى سلطته ، وأساءوا التصرف فى شؤون دولته حتى إنه صار يرجو الخلاص منهم . وليس أدل على ذلك مما رواه الطبرى من أن المهتدى عندما أشغل باله موسى بن بُغَا رفع يديه

إلى السماء قائلاً : " اللهم إني أبرأ إليك من فعل هذا القائد ، فقد أخل بالثغر ، وأباح العدو ، اللهم تول كيد من كاید المسلمين ، اللهم إني شاخص بنيتي واختياري إلى حيث نكب المسلمون فيه ، ناصرًا لهم ودافعًا عنهم ، اللهم فأجرني بنتي إذا عدت صالح الأعوان " ! ثم انحدرت دموعه ، وبكى (١٩٠) .

ولقد تفاقم الخلاف بين المهتدي وبعض قواد الأتراك عندما اتهم اثنين منهم - هما موسى بن بُغا وأخوه محمد - بنهب أموال الجند واختلاسها (١٩١) . ووقع ذلك في وقت كان فيه صبر المهتدي على تصرفات الأتراك قد نفذ . وفوق ذلك فإنه لم يعد يتحمل رؤية ما يدور بينهم من صراعات . ويبدو أنه أدرك أن الوقت قد حان للتخلص منهم ورأى أن أنجح وسيلة لذلك هي ضرب بعضهم ببعض .

وكانت أولى الخطوات التي أقدم عليها الخليفة في هذا الاتجاه قيامه باستدراج محمد بن بُغا ، ومصادرة أمواله ، وقتله في سامراء . وقام على إثر ذلك بتنحية أخيه موسى عن قيادة الجيش العباسي (١٩٢) .

ولما تخلص المهتدي من هذين القائدين رنا ببصره إلى قائد تركي آخر يدعى بايكباك عُرف بميله إلى العبث والفساد ونهب الأموال ، وقتل الناس ظلماً . وأمره الخليفة بالكف عن ذلك مرات كثيرة ، ولكنه لم ينته (١٩٣) ، وأسند إليه قيادة الجيش مكان موسى بن بُغا ، وطلب منه أن يواصل زحفه إلى الموصل لحرب زعيم الخوارج مساور الشاري ، وأوعز إليه كذلك بأن يقبض على موسى ، ويقتله (١٩٤) .

ويبدو واضحاً أن المهتدي عندما زج بهذا القائد في الحرب ضد الخوارج لم يكن مقتنعاً بكفاءته وإخلاصه بقدر ما كان يرغب في التخلص منه ، أو عل الأقل إبعاده عن العاصمة العباسية سامراء ، وضرب قواد الأتراك بعضهم ببعض . ولكن

بايكباك كان يقظاً لما يدبره الخليفة ضده ، فاتصل بالقائد موسى بن بُغا ، وأخبره بتدبير المهتدى ضده ، فاتفقا على وضع خطة للإطاحة به ، ومن أجل هذا عاد بايكباك فجأة إلى سامراء ، وبصحبه نفر من قواد الأتراك ، ودخلوا إلى دار الخلافة في شهر رجب سنة ٢٥٦هـ / ٨٦٩م ، فأخذت تساور المهتدى بعض الشكوك من عودة بايكباك ، فأصدر أمراً بالقبض عليه ، وإلقائه في السجن (١٩٥).

ولما بلغ أصحاب بايكباك ما جرى لقائدهم ، اجتمعوا ، وطالبوا المهتدى بالإفراج عنه ، ولكنه قبل أن يُبت في ذلك استمع إلى مشورة من أحد الأفراد الأسيرة العباسية ؛ إذ قال له : " لقد كان أبو مسلم الخراساني (١٩٦) أعظم شأنًا عند أهل خراسان من بايكباك عند أصحابه ، فلما طرح رأس أبي مسلم سكتوا ، ولو فعلت بهذا مثله لسكتوا . وعندئذٍ أمر المهتدى بقتل بايكباك ، فاستراح منه (١٩٧) .

وبعد مصرع بايكباك دق ناقوس الخطر في دار الخلافة ، فقد تجمهر حوالى سبعين ألف تركي من أعوان هذا القائد وطالبوا بدمه ، فالتقى بهم المهتدى وأنصاره في ميدان العاصمة سامراء في نحو عشرة آلاف فارس من الترك والعرب والفرس وغيرهم ، فحاربهم . ولكنهم كسروه لأن الأتراك الذين كانوا في عسكره غدروا به أثناء القتال وانضموا إلى إخوانهم أتباع بايكباك . وولى المهتدى منهزمًا ، وفي حلقه مصحف معلق ، والبردة في كتفيه ، والسيف بيده (١٩٨) وأخذ ينادى : يا معشر المسلمين ! أنا أمير المؤمنين ، قاتلوا عن خليفكم ! فلم يجبه أحد من العامة إلى ذلك ، فسار إلى باب السجن ، فأطلق من فيه وهو يظن أنهم يعينونه ، فهربوا ، ولم يعنه أحد ، فاتجه إلى دار صاحب الشرطة ودخلها وهم في أثره ، فدخلوا عليه وأخرجوه ، وحملوه على بغل ، وحبسوه في أحد الدور . ثم عرضوا عليه أن يعزل نفسه عن الخلافة مقابل الإفراج عنه ، ولكنه أبى ، ووافق على أن يكتب لهم بخطه كتابًا يتعهد فيه ألا يغدر بهم ، ولا يغتالهم ، ولا يفتك



بهم ، وأنه متى فعل ذلك فهم فى حل من بيعته ، ويصبح الأمر إليهم يستخلفون شخصاً غيره . ولكنهم لم يصغوا لطلبه ، وقاموا بتعذيبه حتى مات فى الثامن عشر من شهر رجب سنة ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ م ، ودُفن بمقبرة المنتصر فى سامراء (١٩٩) ، بعد أن استمرت خلافته كلها أحد عشر شهراً وخمسة وعشرين يوماً فقط ، وكان عمره حين أدركه الأجل ثمانياً وثلاثين سنة (٢٠٠) .

\* \* \*

وخلاصة القول: إن محاولة المهتدى لم تنجح أولاً لأنه مكث سنة واحدة فى الخلافة ، وأن صفاته الشخصية الإيجابية لم تكن لتكفى فى هذا العصر الملئ بالمؤامرات والفتن .

وثانياً : أن من يريد تبنى سياسة مضادة لما هو سائد ، لا يكفيه قوة منطقته ووضوح الحق فى جانبه، بل يحتاج إلى القوة، فالحق بلا قوة يضيع، والسياسة تحتاج إلى قوة. والمهتدى لم يكن يملك القوة فى الجيش أو فى الوجهاء من القوم .

وثالثاً : أن الرجل كان يشعر بضعفه وسط أعاصير عصره ، فمال إلى الانعزال وابتغاء آجل الآخرة بدلاً من عاجل الدنيا .

ورابعاً : أن المهتدى لم يمتلك خطوط منهج إصلاحى واضح متكامل سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وعسكرياً ، وإنما كان يمتلك مبادئ تمثلها واقتبسها من سير الصالحين الأوائل ، فعرف بها ونقلت عنه .

وخامساً : أن المهتدى لم يبادر إلى إصلاح الخلل الأكبر فى جسد الدولة المتمثل فى الاعتماد الكبير على الجند والقادة الأتراك . فقد ركن هذا الخليفة إليهم وهادنهم ولم يواجههم ، وبذلك أصبح مثل سابقيه فاقداً لقوة الجموع الأخرى من الأمة ، وخاصة العرب الذين أسقطهم العباسيون من حسابهم منذ قيام دولتهم .

ثم إن المهتدى كان فى حاجة إلى كل نصير خصوصاً من أفراد أسرته ، ولذلك فإنه أخطأ حينما قام بنفى الموفق إلى مكة بدلاً من احتوائه وضمه إلى جانبه فى مواجهة التيار العنيف الذى ثار ضد محاولته الإصلاحية .

### أثر هذه المحاولة على الخلافة العباسية :

لم تذهب محاولة المهتدى بالله عبثاً ، فقد كشفت قواد الأتراك أمام جنودهم حتى أن هؤلاء طالبوا الخليفة المهتدى فى أواخر أيام خلافته بأن يوكل قيادة الجيش إلى أحد أفراد الأسرة العباسية (٢٠١) ، وقد تنبه المعتمد إلى ذلك حينما تولى الخلافة، فأدار ظهره للأتراك ، وجعل قيادة الجيش لأخيه الموفق (٢٠٢) .

وكان لمحاولة المهتدى أثر فى استرداد البيت العباسى بعض سلطانه ، بعد أن استطاع هذا الخليفة الحد من نفوذ الأتراك بضرب بعض قاداتهم أمثال محمد بن بُغا وصالح بن وصيف وبايكباك ، ولذا لم يجد الخليفة المعتمد صعوبة عند اختيار ابنه جعفر ولياً للعهد (٢٠٣) ، ثم إنه لما مات الموفق سنة ٢٧٨هـ / ٨٩١م جرت مبايعة ابنه أحمد بولاية العهد بعد جعفر المفوض ، ولُقب بالمعتضد بالله (٢٠٤) .

ولما خلع المعتمد بالله جعفرًا من ولاية العهد فى محرم سنة ٢٧٩هـ / ٨٩٢م أسند ولاية العهد للمعتضد (٢٠٥) ، ولم يواجه خلال ذلك مضايقة من الأتراك كما كانوا يفعلون من قبل فى مثل هذه الظروف ، وبذلك حرم البيت العباسى الأتراك من فرصة اختيار من يرون مصلحتهم فى استخلافه .

حقيقة أن هذه المحاولة الإصلاحية كانت بمنزلة حجر الأساسى الذى قامت عليه مرحلة الانتعاش التى مرت بها الخلافة ، وشملت كثيراً من جوانب الحياة ، ودامت حوالى أربعين سنة ، حكم فيها ثلاثة خلفاء هم : المعتمد على الله ، ثم المعتضد ، ثم ابنه الكتفى . وعاش هؤلاء الخلفاء فى دست الخلافة آمنين من عدوان الأتراك عليهم ، بل إن الأتراك فى أيامهم عادوا خداماً للدولة ، كما كان

شأنهم عند بدء ظهورهم فى بغداد وبذلك سكنت الفتن التى كانوا يثيرونها ، ولم يجرؤ واحد منهم على إسقاط خلفاء هذه الفترة أو معارضتهم .

ومهما يكن من أمر فقد ترتب على عزل المهتدى بالله وواد محاولته الإصلاحية فى مهدا آثار سلبية عديدة على الخلافة ، فقد نشطت إثر ذلك مباشرة الحركات المناوئة للخلافة منتهزة فرصة الفراغ السياسى ومرحلة الانتقال التى مرت بها الخلافة العباسية ما بين وفاة المهتدى ووصول القائد المخلص أبى أحمد الموفق إلى قيادة الجيش ، وضبطه لشؤون الدولة فى ظل خلافة أخيه المعتمد . ففى البصرة اشتدت شوكة صاحب الزنج ، وصار يتطلع إلى توسيع دائرة نفوذه بهدف بسط كامل سيطرته على جنوب العراق . والواقع أن قائد الزنج حقق لنفسه ما يريد فقد استغل ظروف الخلافة ، واستولى إبان هذه الفترة على بعض المدن الهامة فى المنطقة الواقعة جنوب شرقى إقليم العراق وضمها إلى مركز حركته فى البصرة . ولم يواجه زعيم الزنج فى هذه الأثناء أدنى مقاومة من الخلافة العباسية (٢٠٦) .

وفى الموصل انتهز الخوارج كذلك فرصة الاضطراب التى وقعت داخل الدولة العباسية فسعى قائدهم مساور الشارى إلى إحياء حركته الانفصالية من جديد ، والتقى بجيش الخلافة قرب بلدة خانقين (٢٠٧) . وقتل من أصحاب مساور جمع كثير ، وكان ذلك فى سنة ٢٥٦هـ / ٨٧٠م (٢٠٨) . وفى خضم هذه الأحداث التى شهدتها الخلافة نتيجة لعزل المهتدى عن الخلافة وفشل مشروعه الإصلاحى ، انتعشت بعض الحركات العلوية المعارضة للحكم العباسى ، فقد ظهر أحد العلويين فى الكوفة ويدعى على بن زيد (٢٠٩) وتمكن من الاستيلاء عليهما بعد أن أزاح الوالى العباسى عنها (٢١٠) .

وفى المشرق الإسلامى استطاع الحسن بن زيد العلوى مؤسس الدولة الزيدية فى طبرستان بسط سيطرته على ولايتى الرى وجرجان (٢١١) .

ومما ساعد على ظهور هاتين الحركتين سوء أحوال عمال الخلافة في بعض الولايات الإسلامية ، فقد استهان أكثرهم بأمر الخلفاء بسبب الضعف السياسى والاقتصادى الذى انتاب الخلافة وقتذاك . ونذكر من هؤلاء على سبيل المثال الوالى العربى عبد العزيز بن أبى دلف (٢١٢) نائب الخلافة فى الرى الذى فارق ولايته دون سبب ، الأمر الذى مكن الحسن بن زيد من السيطرة عليها والإساءة إلى أهلها . وكذلك نائب الخلافة فى الكوفة الذى أهمل شأن ولايته مما جعل على بن زيد يستولى عليها دون مقاوم (٢١٣) .

وفى الشام حاولت العناصر العربية التى كانت تشكل غالبية السكان هناك الإفادة من الأحداث السياسية التى جرت فى العراق من أجل استعادة ما كان العرب يتمتعون به من هيبة ونفوذ فى الدولة الإسلامية . وكان أن جاهر الأمير العربى عيسى بن الشيخ فى عدائه للخلافة العباسية ، ولم تتوقف أطماعه السياسية عند حدود السيطرة على دمشق ، وقطع الخراج عن بغداد ، بل إنه تمادى إلى ما هو أبعد من ذلك فقد نهب خراج مصر الذى حمله والى الخراج هناك أحمد بن المدبر (٢١٤) عن طريق الشام إلى بغداد ، وكان يُقدر بسبعمئة ألف دينار . وفى الوقت نفسه رفض ابن الشيخ إقامة الدعوة للخليفة المعتمد على الله بعد توليه الخلافة مباشرة . وبدلاً من أن يقوم هذا الخليفة بتأديبه على تصرفه فقد كافأه بولاية أرمينية (٢١٥) . وقد قبل ابن الشيخ ذلك ظناً منه أن الشام تكون بيده إضافة إلى أرمينية ، ولكن المعتمد أنفذ جيشاً لطرده ابن الشيخ من الشام ، فالتقى الجيشان قرب دمشق وانهزم عسكر ابن الشيخ ، فلاذ بالفرار إلى أرمينية (٢١٦) .

وفى العراق حاول كذلك مغامر عربى يدعى سعد الباهلى (٢١٧) أن يتغلب على البطائح (٢١٨) ، ولكن أحد قواد الخلافة قبض عليه ، وساقه أسيراً إلى سامراء، فضرَبَ سبعمائة سوط حتى مات (٢١٩) .

وفى إقليم فارس سعت العناصر الفارسية بدورها على الظهور من جديد لإنعاش ما كان لها من نفوذ فى العصر العباسى الأول ، وهو النفوذ الذى انزوى بعد تقدم العناصر التركية فى العراق ، فقد ازدادت أطماع يعقوب الصفار مؤسس الدولة الصفارية وتحرك لضم أجزاء من بلدان الخلافة إلى دولته التى كان مركزها فى سجستان ، حيث زحف الصفار فور علمه بنبا خلع الخليفة المهتدى غرباً نحو إقليم العراق ، واضطرت الخلافة إلى صرفه عن هذه الناحية فعهدت إليه ببعض ولايات المشرق الإسلامى ، فقبل فى بادئ الأمر ذلك ، ولكنه ما لبث أن تراجع وعاد إلى العراق ، وحارب جيش الخلافة (٢٢٠) .

ومما سبق نستطيع القول : إنه على الرغم من انهيار محاولة المهتدى الإصلاحية فى مهدها نتيجة لعزل هذا الخليفة فإنها فى واقع الأمر تركت وراءها آثار إيجابية وسلبية عديدة على الخلافة العباسية . وقد استفاد الخلفاء خصوصاً الثلاثة الأوائل الذين حكموا بعد المهتدى من الآثار الإيجابية ، وقاموا بتوظيفها لصالحهم . وفى الوقت ذاته حرصوا على تجنب ما نتج عنها من آثار سلبية حتى لا تتكرر الأحداث السياسية والاقتصادية نفسها التى وقعت فى خلافة المهتدى بالله .

### الخاتمة :

عندما تولى المهتدى بالله الخلافة كان غالب الناس قد فقدوا الثقة بخلفاء بنى العباس نتيجة ضعفهم ، وعدم مبالاتهم بشؤون الرعية ، وسيطرة الموالى الأتراك على مقاليد الخلافة، حيث بلغ سلطانهم آنذاك ذروته لدرجة ، أنهم أصبحوا بمنزلة حلقة اتصال بين الخليفة والرعية ، ولم يكن أحد يستطيع أن يجرؤ على معارضتهم . لقد كان المهتدى بالله حقيقة من أفضل خلفاء البيت العباسى زهداً وعدلاً وتواضعاً ، ومن هذا المنطلق حاول إصلاح ما فسد من أحوال دولته مقتدياً فى ذلك بسيرة الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز ، فشرع فى إحياء بعض السنن



والعادات الحميدة التي كان يقوم بها خلفاء الدولة الإسلامية ، والتي كادت قبل توليه أن تندثر بسبب إهمال الخلفاء الذين سبقوه لها . ونذكر من ذلك على سبيل المثال : حضوره إلى المسجد الجامع ، ومصلى العيد في أيام الجمع والأعياد لإلقاء الخطبة وإمامة الناس في الصلاة ، وكذلك جلوسه للمظالم ، والإشراف بنفسه على الدواوين .

لقد شملت محاولة المهدي الإصلاحية كثيراً من جوانب الحياة فقد أهتم هذا الخليفة بالنواحي المالية ، وأولى القضاء اهتماماً خاصاً حيث شهدت خلافته انتعاشاً مكانة القضاء ، ومن مآثره قبة المظالم التي شيدها في العاصمة سامراء . وكان المهدي حازماً مع المخالفين حتى ولو كانوا من أقربائه ، أو من كبار رجال الدولة فقد طال عقابه ثلة من هؤلاء ، ولم يفرق بين قريب وبعيد .

لقد تأججت نيران الفتن والاضطرابات في عهد المهدي بشكل لم يسبق له مثيل . وكان أول الوهن الذي أصاب جسد الخلافة في مستهل حكمه رفض أهل بغداد مبايعته في بادئ الأمر . ثم ازداد الوضع سوءاً عندما اندلعت ثورة الجند في بغداد ، وعاد الجند ، المرابطون في الثغور الشرقية من أرض الخلافة إلى ثكناتهم قرب العاصمة سامراء مطالبين بأرزاقهم المتأخرة لعدة أشهر . وفي هذا الوقت خرج صاحب الزنج في جنوب العراق ، وشق الخوارج عصا الطاعة على الخلافة في شمال العراق . وعندئذٍ أسقط بيد المهدي ، وأصبح في حيرة من أمره ، فهل يمضي بحركته قُدماً إلى الإمام أم يتوقف عن ذلك ويتفرغ للقضاء على هذه الحركات المناوئة للخلافة ؟

وكان لقيام هذه الحركات انعكاسات اقتصادية خطيرة على الخلافة فقد عجزت موارد الدولة من الأقاليم المتمثلة وقتذاك في رسوم الضرائب والخراج وغيرهما عن الوفاء باحتياجات بيت المال ، لدرجة أن المهدي أصبح غير قادر حتى على دفع مرتبات الجند ، مما أدى إلى تسلل الإحباط والملل إلى نفوسهم .

وعندئذٍ فقد الخليفة السيطرة عليهم ، ولم يُعد بإمكانه أن يركن إليهم لقمع أولئك الخارجين عن طاعته ، وتأديبهم وإعادةتهم إلى جادة الصواب .

والواقع أن المهتدى بالله لما شرع في محاولته الإصلاحية لم يجد من يناصره، أو يشد من أزره، بل كان محاطاً بطغمة من الأتراك لم تترك له سبيلاً إلى الإصلاح. ومن سوء حظه أنه لم يلبث في الحكم طويلاً ، وبالتالي فإن محاولته هذه لم تأخذ وقتاً كافياً لكي تقف على قدميها لترى النور ، وتؤتي ثمارها.

## الهوامش

(١) ورد هذا الحديث بعدة ألفاظ وطرق منها : " لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفة " ، و " لا يزال أمر الناس ماضياً " ، و " لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش " .

انظر : صحيح مسلم : تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ( ١٤٥٢/٣ - ١٤٥٣ ) .  
السيوطي : تاريخ الخلفاء ، دار الفكر ، بيروت ، ص ١١ .

(٢) البداية والنهاية ، ط ٦ ، بيروت ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ( ١١/١٨ ) .

(٣) العبر في خبر من غير ، بيروت ( ٣٦٦/١ ) .

(٤) الأزدي : أخبار الدول المنقطعة ( تاريخ الدولة العباسية ) تحقيق ودراسة د. محمد الزهراني ، المدينة المنورة ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، ص ١٨١ . ؛ السيوطي : نفسه ، ص ٣١٠ .

(٥) المعتصم : ( أبو إسحاق بن هارون الرشيد ) ، ولد سنة ١٧٨ هـ ، بويع بالخلافة في رجب سنة ٢١٨ هـ ، وكانت وفاته في ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ . ( ابن العبراني : الإنباء في تاريخ الخلفاء تحقيق د. قاسم السامرائي ، ط ٢ ، الرياض ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ، ص ١٠٤ ) .  
(٦) المتوكل : ( أبو الفضل جعفر بن المعتصم بن الرشيد بن المهدي ، بويع في ذي الحجة سنة ٢٣٢ هـ ، وقُتل في شوال سنة ٢٤٧ هـ . ( ابن خلكان : وفيات الأعيان ، تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت ، ( ٣٥٠/١ ) .

(٧) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ط ٢ ، بيروت ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، ( ٣٠٢/٥ ) .

(٨) المنتصر بالله : ( أبو جعفر محمد بن المتوكل ، بويع له بعد مقتل أبيه مباشرة سنة ٣٤٧ هـ ، ومات مسموماً على يد طبيبه سنة ٢٤٨ . ( ابن العبراني : الإنشاء ١٢١ - ١٢٣ ) .

(٩) المعتز بالله : ( محمد وقيل الزبير بن جعفر المتوكل ) ، بويع له عند خلع المستعين سنة ٢٥٢ هـ ، ولم يل الخلافة قبله أحد أصغر منه ، توفي سنة ٢٥٥ هـ . ( ابن قتيبة : المعارف ، ط ٢ ، تحقيق د. ثروت عكاشة ، دار المعارف ، مصر ، ص ٣٩٤ . ؛ الأزدي : أخبار الدول المنقطعة / ص ١٩٣ - ١٩٤ ) .

(١٠) المويد : ( إبراهيم بن جعفر المتوكل ) كان ولياً للعهد في أثناء خلافة أخيه

المعتز، ولكنه عزله في رجب سنة ٢٥٢ هـ ، وضربه وقيده فمات متأثراً بذلك بعد أيام .  
(السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٣٣ ) .

- (١١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ( ٣٠٦/٥ ) .
- (١٢) السيوطى ، نفسه ، ص ٣٢٤ .
- (١٣) سامراء : مدينة تقع بين بغداد وتكريت وقامت على الضفة الشرقية لنهر دجلة ، بناها الخليفة المعتصم ، ونقل إليها دار الخلافة سنة ٢٢١هـ . ( ياقوت الحموى : معجم البلدان ، بيروت ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، ( ١٧٣/٣ - ١٧٤ ) .
- (١٤) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، مصر ١٣٤٦هـ ( ٣٨٩/٢ ) .
- (١٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ( ٣٢٧/٥ )
- (١٦) نفسه ، ( ٣٣٥/٥ ) .
- (١٧) ابن العمرانى : الإنباء ص ١٢٠ . ؛ ابن الأثير : الكامل فى تاريخ ، بيروت ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م . ( ٩٧/٧ - ٩٩ ) .
- (١٩) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٣٠ .
- (٢٠) ابن الأثير : الكامل ، ( ١١٤/٧ - ١١٥ ) .
- (٢١) أبو العباس أحمد بن المعتصم بن الرشيد ، أخو الخليفة المتوكل ، ولد سنة ٢٢١هـ ، تولى الخلافة عقب وفاة المنتصرة سنة ٢٤٨هـ ، ثم خلع نفسه سنة ٢٥٢هـ . وفى هذا العام لقى مصرعه على يد أحد حجاجه الأتراك . ( السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٣٢ ) .
- (٢٢) ابن العمرانى : الإنباء ، ص ١٢٣ .
- (٢٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ( ٣٥٤/٥ ) ؛ ابن العمرانى : الإنباء ، ص ١٢٤ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ( ١١٩/٧ - ١٢٠ ) .
- (٢٤) المسعودى : مروج الذهب ، ( ٤٠٧/٢ - ٤٠٨ ) .
- (٢٥) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٣٢ .
- (٢٦) الأزدي : أخبار الدول المنقطعة ، ص ١٩٣ . ؛ ابن الأثير : الكامل ، ( ١٧١/٧ ) .
- (٢٧) الموفق : هو الأمير أبو أحمد طلحة بن المتوكل بن المعتصم ، كان بيده الحل والعقد فى خلافة أخيه المعتمد ، ومات قبل أن يتولى الخلافة فى صفر سنة ٢٧٨هـ . ( النهيى : سير أعلام النبلاء ، ط ١٠ ، بيروت ١٤١٤هـ ، ١٦٩/١٣ ) .
- (٢٨) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ( ٤١٤/٥ ، ٤٣٢ ) .

(٢٩) قبيحة أم المعتز سماها زوجها المتوكل بهذا الاسم لحسنها وجمالها ، كانت من ربات السياسة والدهاء والنفوذ والسلطان . ولما قُتل ابنها المعتز ظفروا لها بخزائن تحت الأرض فيها أموال طائلة وكنوز وجواهر ثمينة ، توفيت في ربيع الأول سنة ٢٦٤هـ بعد أن أعيدت من مكة إلى سامراء مكرمة معززة : انظر : ( ابن الأثير : الكامل ، ٢٠٠/٧ . ، عمر كحالة : أعلام النساء ، ط ٣ ، بيروت ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م ، ( ١٨٤/٤ - ١٨٧ ) .

(٣٠) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ( ٤٣١/٥ ) .

(٣١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٣٣ .

(٣٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ( ٤٣١/٥ ) . ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ( ٥٣٥/١٢ ) .

(٣٣) القاطول : أحد روافد نهر دجلة ، حفره هارون الرشيد في موضع سامراء قبل بنائها . ( الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، بيروت ( ٣٤٧ / ٣ ) . ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ( ٢٩٧/٤ ) . ؛ لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، ط ٢ ، بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، ص ٨٢ ) .

(٣٤) البغدادي : تاريخ بغداد ، ( ٢٤٨ / ٣ ) .

(٣٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ( ٤٣١/٥ ) .

(٣٦) ابن الأثير : الكامل ، ( ٣٣/٧ ) .

(٣٧) نفسه ، ( ٣٣/٧ ) .

(٣٨) المسعودي : مروج الذهب ، ( ٤٣١/٢ ) .

(٣٩) أبو الفضل جعفر بن محمود الإسكافي . تولى الوزارة في عهد المعتز ، كان قليل الحظ من العلم والأدب ، ولكنه سعى إلى استمالة الناس بالمنح والعطايا ، وكان متهما بالتشيع ، وثارت بسببه فتنة ، فعزله المعتز . ( ابن طباطبا : الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، دار صادر ، بيروت ، ص ٢٤٤ ) .

(٤٠) ابن طباطبا : نفس المصدر والصفحة .

(٤١) سليمان بن وهب بن سعيد بن حصين الحارثي ، أصبح كاتباً للخليفة المأمون ، ولما تولى المهتدي جعله وزيراً له ، وشغل أيضاً منصب الوزارة في خلافة المعتمد على الله .

انظر : ( ابن طباطبا : نفسه ، ص ٢٤٧ - ٢٤٩ . ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ( ١٢٧ / ١٣ ) .



(٤٢) هو صالح بن وصيف الكبير " شيخ الموالى " كان والده من أمراء الأتراك مماليك المعتصم ، وكان ابنه صالح أحد مقدمى الأتراك فى بلاط المعتز ، ثم جعله المهتدى حاجباً له ، وقد قتل صالح بسامراء فى صفر سنة ٢٥٦هـ على يد نفر من الموالى الأتراك . ( ابن العمرانى : الإنباء ، ص ٢٨٦ ، هامش (٣٣٧) ؛ ابن الأثير : الكامل ، ( ٢٢٥/٧ ) .

(٤٣) الحسن بن محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب الأموى تولى القضاء فى عهد المتوكل ثم عزل ، وأسند إليه مرة أخرى فى عهد المهتدى ، توفى سنة ٢٦١هـ . ( وكيع : أخبار القضاة ، بيروت ، ( ٣٠٣/٣ ) . ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، مصر ( ٣٤/٣ ) .

(٤٤) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ( ٣٤٨/٣ ) .

(٤٥) ابن العمرانى : الإنباء ، ص ١٣٣ .

(٤٦) المنتظم ، ( ٨٤/١٢ ) .

(٤٧) تاريخ بغداد ، ( ٣٥٠/٣ ) .

(٤٨) نفسه .

(٤٩) أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى الكوفى ، كان إماماً فى علم الحديث وغيره من العلوم ، وقد أجمع الناس على دينه وورعه وزهده وثقته ، وهو أحد الأئمة المجتهدين ، ولد سنة ٩٥هـ ، وتوفى بالبصرة سنة ١٦١هـ .

( الأصبهاني : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ط ٢ ، دار الكتاب العربى ، بيروت ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م ، ( ٣٥٦/٦ ) .

(٥٠) ابن العمرانى : الإنباء ، ص ١٣٣ .

(٥١) نفسه .

(٥٢) المسعودى : مروج الذهب ، ( ٤٣٦/٢ ) .

(٥٣) السَّقَط : رعاء يوضع فيه الطيب ونحوه من أدوات النساء . ووعاء من قضبان الشجر ونحوها توضع فيه الأشياء كالفاكهة ونحوها . ( المعجم الوسيط ، عنى بطبعه ونشره عبد الله الأنصارى ، دار إحياء التراث الإسلامى ، قطر ، ( ٤٣٣/١ ) .

(٥٤) المسعودى : مروج الذهب ، ( ٤٣٦/٢ ) .

- (٥٥) د. حسن محمود وأحمد الشريف . العالم الإسلامى فى العصر العباسى ، ط ٤ ، الكويت ١٩٨٠م ، ص ٣٤٣ .
- (٥٦) اليعقوبى : تاريخ ، بيروت ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م ، ( ٥٠٥/٢ ) .
- (٥٧) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ( ٤٣١/٥ - ٤٣٢ ) ، ابن العمرانى : الإنباء ص ١٣٣ .
- (٥٨) ابن العمرانى : نفس المصدر والصفحة .
- (٥٩) انظر تفاصيل هذه الحادثة فى تاريخ الطبرى ، ( ٣٧٠/٥ - ٣٧١ ) .
- (٦٠) أخبار الدول المنقطعة ، ص ١٩٦ .
- (٦١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ( ٢٦/٣ ) .
- (٦٢) ابن العمرانى : الإنباء ، ص ١٣٣ .
- (٦٣) اليعقوبى : تاريخه ، ( ٥٠٥/٢ ) .
- (٦٤) ابن العمرانى : الإنباء ، ص ١٣٣ .
- (٦٥) المسعودى : مروج الذهب ( ٤٣١/٢ ) .
- (٦٦) كتب سعيد بن عبد الملك - وهو أحد الكتاب فى ديوان المهتدى بالله - رسالة فيها بأحد الخلفاء وقوة فصاحته وخطبته فى عيد الفطر . ومن المحتمل أنه يقصد بتلك الرسالة خليفته المهتدى بالله . وللإطلاع على نص هذه الرسالة . انظر : أحمد زكى : جمهرة رسائل العرب ، بيروت ، ( ٢٦١/٤ ) . ؛ د. شوقى ضيف : تاريخ الأدب العربى ، ط ٧ ، دار المعارف ، مصر ، ( ٥٥٤/٤ ) .
- (٦٧) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ( ٤٣٩/٥ ) ابن الأثير : الكامل ، ( ٢٠٣/٧ ) .
- (٦٨) المسعودى : مروج الذهب ، ( ٤٣٦/٢ ) .
- (٦٩) نفسه .
- (٧٠) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ( ٤٦٢/٥ ) .
- (٧١) المسعودى : مروج الذهب ، ( ٤٣٦/٢ ) .
- (٧٢) د. ضيف الله الزهرانى : النفقات وإدارتها فى الدولة العباسية ، ط ١ ، مكة المكرمة ١٣٠٦هـ / ١٩٨٦م ، ص ٢٩٩ .
- (٧٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ( ٤٧٠/٥ ) .

(٧٤) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ( ٣٥٠/٣ ) . ابن الجوارى : المنتظم ، دراسة وتحقيق محمد ومصطفى عبد القادر عطا ، ط ١ ، بيروت ١٤١٢ هـ — ، ١٩٩٢ م ، ( ٨٤/١٢ ) .

(٧٥) أحمد بن إسرائيل بن الحسين الأنباري ، كان ذا مكانة رفيعة عند الخليفة المعتز ، استوزره سنة ٢٥٢ هـ ، فنهض بأعباء الوزارة ، وجمع بين الذكاء وسرعة الحفظ . وقد اعتمد عليه المعتز في حساب الديوان ، ظل في الوزارة ثلاث سنين حتى قتله صالح بن وصيف بالضرب في عهد المهدي بالله سنة ٢٥٥ هـ .

( الذهبي : السير ، ( ٣٣٢/١٢ - ٣٣٣ ) . الصفدي : الوافي بالوفيات ، ط ٢ ، تصدرها جمعية المستشرقين الألمانية، دار صادر، بيروت ١٣٩٢ هـ/١٩٧٢ م ، ( ٢٤٣/٦ - ٢٤٤ ) . (٧٦) أبو نوح عيسى بن إبراهيم ، من الكتاب المبرزين في عهد المعتز . وقد اتهم باختلاس الأموال مع الوزير أحمد بن إسرائيل وال كاتب الحسن بن مخلد ، فصودرت أموالهم ، وأمر كبير الحجاب صالح بن وصيف بضربهم ، ولقى أبو نوح حتفه بسبب ذلك ، كان لا يزال نصرانيا وذلك في ٢٧ رمضان سنة ٢٥٥ هـ . (الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٤٣٤/٥ - ٤٣٥) . (٧٧) الطبري : نفسه ، ( ٤٣٥/٥ ) .

(٧٨) نفسه .

(٧٩) الذهبي : السير ، ( ٥٣٦/١٢ ) .

(٨٠) أبو العباس عبد الله بن المعتز بن المتوكل ، كان أديبا بليغا شاعرا مقتدرا مجالسا للعلماء والأدباء ، بايعه رؤساء الأجناد ووجوه الكتاب بالخلافة في خلافة المقتدر ، ولقبوه المرتضى بالله ، وأقام في الخلافة يوما وليلة ، ولكن المقتدر قبض عليه وسلمه إلى القائد مؤنس الخادم فقتله في شهر ربيع الآخر في السنة نفسها ( ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ( ٧٦/٣ ) . (٨١) اليعقوبي : تاريخه ، ( ٥٠٥/٢ ) .

(٨٢) د. عادل محي الدين : الرأي العام في القرن الثالث الهجري ، ط ١ ، ١٩٨٧ م ص ١٩٤ .

(٨٣) حماد بن إسحاق بن إسماعيل بن الإمام حماد بن زيد . أخو القاضي إسماعيل بن إسحاق ، كان حماد من أهل العلم ، ومن حفظه الحديث ، وكان فقيها على مذهب مالك ، وكان يحضر مجلس المهدي مع غيره من الفقهاء . تولى قضاء بغداد مرة واحدة ، ومات

بالسّوس سنة ٢٦٧هـ . ( وكيع : أخبار القضاة ، ( ٢٨٠/٣ ) . ؛ الذهبي : السير ، ( ١٦/١٣ ) .

(٨٤) الأهواز : ولاية تقع بين البصرة وفارس ، وقد أطلق العرب المسلمون عليها هذا الاسم بعد فتحهم لها حيث كان الفرس يسمونها خوزستان .

( ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، تحقيق : د. محمد مخزوم ، ط ١ ، بيروت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ، ص ٤٨ . ؛ ياقوت : معجم البلدان ، ( ٢٨٥/١ ) . ؛ لسترنج : بلدان الخلافة ، ص ٢٦٧ ) .

(٨٥) وكيع : أخبار القضاة ، ( ٢٨٠/٣ ) .

(٨٦) عبد الرحمن بن نائل بن نجيح البصري ، ولاء المهتدي بالله قضاء سامراء في ذي الحجة سنة ٢٥٥هـ بعد أن عزل القاضي الحسن بن أبي الشوارب .

( وكيع : المصدر السابق ، ( ٣٠٣/٣ ) ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ( ٤٥٧/٥ ) ؛ ابن الأثير : الكامل ، ( ٢١٧/٧ ) ) .

(٨٧) الأزدي : أخبار الدول المنقطعة ، ص ١٩٨ .

(٨٨) ابن العبراني : الإنباء ، ص ١٣٣ .

(٨٩) البيهقي : المحاسن والمساوي ، دار صادر ، بيروت ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م ، ص ٥٤٠ .

(٩٠) الماوردي : الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، مصر ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م ، ص ٨٠ - ٨١ .

(٩١) الآجري : الشريعة ، تحقيق محمد الفقي ، ط ١ ، مطبعة السنة المحمدية ، ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م ، ص ٩١ . ؛ البرّي : الجوهرة ، ط ١ ، الرياض ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، ( ٤٥٨/١ ) .

(٩٢) الرَّمْلَة : مدينة بفلسطين ، وهناك مدن أخرى تحمل الاسم نفسه مثل محلة الرملة الواقعة نحو شاطئ دجلة مقابل الكرخ ببغداد ، قرية الرملة بالبحرين ، والرملة كذلك محلة بسرخس في خراسان . ( ياقوت : معجم البلدان ، ( ٦٩/٣ )

(٩٣) ابن العبراني : الإنباء ، ص ١٣٤ .

(٩٤) سورة الأنبياء الآية ٤٧ . هذه الرواية ساقها الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ،

( ٣٤٩/٣ ) ؛ وابن العبراني : الإنباء ، ص ١٣٤ .

(٩٥) أبو بكر أحمد بن عمرو بن مَهر الشيباني . الفقيه الحنفي ، المحدث عن وهب بن جرير وأبي عامر العقدي ، والواقدي ، وخلق كثير ، وكان الخصاف زاهدًا ورعًا . حريصًا على أن يأكل من صنّعه رحمه الله ، ومات ببغداد سنة ٢٦١هـ ، وكان عمره قرابة ثمانين سنة . (الذهبي : السير ، ( ١٢٣/١٢٤ - ١٢٤ ) .

(٩٦) من أشهر كتبه : الحيل ، والشروط الكبير ، والرضاع وأدب القاضي ، وذرع الكعبة ، والمسجد والقبر وأحكام الوقوف ، وغيرها . (الذهبي : نفسه ، ص ١٢٤) .  
(٩٧) الذهبي : المصدر السابق ( ١٢٧/١٢٨ - ١٢٨ ) .

(٩٨) البحري : أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى ، ولد بمنبج في حلب سنة ٢٠٦هـ ، وفيها نشأ ثم خرج إلى العراق ومدح جماعة من الخلفاء أولهم المتوكل على الله ، ويقال له : البحري نسبة إلى بُحتر وهو أحد أجداده . وقد توفي البحري سنة ٢٨٤هـ في مدينة منبج مسقط رأسه .

( ياقوت : معجم الأدباء ، دار المستشرق ، بيروت - لبنان ، ( ٢٤٨/١٩ ) ابن خلكان : وفیات الأعيان ، ( ٢١/٦ ) .

(٩٩) ابن العبراني : الإنباء ، ص ١٣٦ .

(١٠٠) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٣٥ .

(١٠١) الإمام : شيخ الإسلام أبو عبد الله أحمد بن حنبل بن هلال ... الشيباني المروزي البغدادي . أحد الأئمة الإعلام ، ولد في شهر ربيع الأول سنة ١٦٤هـ ، وطلب العلم وهو ابن خمس عشرة سنة ، كان إمامًا في الحديث والفقه والسنة . وله مصنفات عديدة في هذه العلوم . وكان ممن امتنع عن القول بخلق القرآن في عهد الخليفة المأمون وتعرض نتيجة ذلك للسجن والتعذيب ، وقد أصر على موقفه في عهد المعتصم وابنه الواثق حتى تولى المتوكل على الله الخلافة فأظهر الميل إلى السنة ، ونصر أهلها ، ورفع المحنة ، وكتب بذلك إلى الآفاق وذلك في سنة ٢٣٤هـ . توفي الإمام أحمد عمومًا في ربيع الأول سنة ٢٤١هـ . ( الأصبهاني : حلية الأولياء ، ( ١٦١/٩ ) ؛ الذهبي : السير ، ( ١٧٧/١١ ) ، العير ، ( ٣٤٢/١ ) ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٢٠ .

(١٠٢) الآجوري : الشريعة ، ص ٩٢ ، ٩٥ ، البري : الجوهرى ، ( ٤٥٩/١ ) ، ( ٤٦١ ) ،

السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٣٥ .



- (١٠٣) البصرة : مدينة مشهورة في جنوب العراق تقع على رأس الخليج العربي قرب مصب نهر دجلة ، ( لسترنج : بلدان الخلافة ، ص ٦٥ ) .
- (١٠٤) الموصل : مدينة معروفة تقع على الضفة الغربية لنهر دجلة شمال العراق .
- ( ياقوت : معجم البلدان ، ( ٢٢٣/٥ ) . ؛ لسترنج : المرجع السابق ، ص ١١٥ ) .
- (١٠٥) سيجستان : ولاية جنوب خراسان . ( ياقوت : المصدر السابق ، (١٩٠/٣) .
- (١٠٦) تاريخ الأمم والملوك ، ( ٤٣٩/٥ ) .
- (١٠٧) الكامل ، ( ٢٠٣/٧ ) .
- (١٠٨) الذهبي : السير ، ( ٥٣٦/١٢ ) ؛ ابن دقماق : الجواهر الثمين في سير الملوك والسلطين ، تحقيق محمد كمال الدين ، ط ١ ، بيروت ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، ( ١٥٣/١ ) .
- (١٠٩) العبر وديوان المبتدأ والخير ، ط ١ ، بيروت ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ، ( ٣٧٢/٣ ) .
- (١١٠) المسعودي : مروج الذهب ، ( ٤٣٣/٢ ) .
- (١١١) نفسه .
- (١١٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ( ٤٣٢/٥ ) . ؛ ابن الأثير : الكامل ، ( ١٩٨/٧ - ١٩٩ ) .
- (١١٣) تاريخ الأمم والملوك ، ( ٤٣٢/٥ ) . ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ( ١٧/١١ ) .
- (١١٤) الطبري : نفسه . ؛ ابن الأثير : نفسه .
- (١١٥) اليعقوبي : تاريخه ، ( ٥٠٥/٢ ) .
- (١١٦) سليمان عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق بن ماهان الخزاعي ، أحد أفراد الأسرة الطاهرية التي حكمت خراسان ، وكان سليمان عاملاً على طبرستان ولم يتول حكم الدولة الطاهرية حيث أصبح والياً على الشرطة في بغداد سنة ٢٥٥ هـ ، وكانت وفاته سنة ٢٦٦ هـ .
- ( ابن الأثير : نفسه ، ( ١٣٠/٧ ، ٢٠١ ، ٣٣٣ . ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ( ٨٣/٣ ) .
- (١١٧) الطبري : المصدر السابق . ( ٤٣٢/٥ ) .
- (١١٨) نفسه ، ( ٤٣٣/٥ ) .

(١١٩) الدولة لطاهرية : أسسها طاهر بن الحسين الذى وُلد فى بوشنج بخراسان سنة ١٥٩هـ/٧٧٥م ، وهو من أصل فارسى . وقد صعد نجمه أثناء الصراع الذى نشب بين الأمين وأخيه المأمون ، ولما استقرت الأمور فى بغداد للمأمون اختار طاهر بن الحسين وعهد إليه بحكم المشرق سنة ٢٠٥هـ/٨٢٠م . وأقام طاهر فى مدينة مرو بخراسان التى أصبحت منذ ذلك الوقت عاصمة للدولة الطاهرية . وتوفى طاهر سنة ٢٠٧هـ ، وتدرج أفراد أسرته فى حكم تلك الدولة حتى سقوطها سنة ٢٥٩هـ/٨٧٣م .

وللإطلاع على تفاصيل واسعة عن قيام هذه الدولة . انظر : د. فتحى أبو سيف : المشرق الإسلامى بين التبعية والاستقلال ، القاهرة ١٩٧٨م ، ص ٩٥ - ١٣٨ ، عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ، ترجمة د. محمد علاء الدين منصور ، القاهرة ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، ص ١٣ - ١٨ ) .

(١٢٠) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ( ٤٣٦/٥ ) .

(١٢١) محمد بن أوس البلخى . كان الغالب على أمر سليمان آل طاهر أيام ولايته على طبرستان . وكان محمد قد فرق أولاده فى مدن طبرستان وهم أحداث سفهاء ، فتأذى بهم الرعية . وقد قدم محمد على رأس جند خراسان الموالين الطاهرية إلى بغداد وذلك سنة ٢٥٥هـ . ومنذ سنة ٢٦٤هـ انقطعت أخبار ابن أوس ولا نقف له على سيرة . ( ابن الأثير : الكامل ، ( ١٣٠/٧ ، ٢٠٢ ، ٢٧٦ ، ٢٩١ ، ٣١٠ ) .

(١٢٢) ابن الأثير : نفسه ، ( ٢٠٢/٧ ) .

(١٢٣) نفسه ، ( ٢٠٢/٧ - ٢٠٣ ) .

(١٢٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ( ٤٣٣/٥ ) .

(١٢٥) ابن الأثير : الكامل ، ( ٢٠٠/٧ ) .

(١٢٦) المعتمد على الله : هو أبو العباس أحمد بن المتوكل ، بويع له فى رجب سنة

٢٥٦هـ ، وتوفى بغداد فى رجب سنة ٢٧٩هـ . (الأزدى : أخبار الدولة المنقطعة ، ص ١٩٩) .

(١٢٧) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ( ٤٣٣/٥ ) .؛ السيوطى : تاريخ الخلفاء ،

ص ٣٣٤ .

(١٢٨) الطبرى : نفسه ، ( ٤٤١/٥ ) .

(١٢٩) زعم صاحب الزنج أن اسمه ونسبه : على بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى ابن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب . وذكر البعض أن اسمه : علي بن محمد بن عبد الرحيم ، ونسبه في عبد القيس ، وأنه وُلد ونشأ في إحدى قرى مدينة الري ( طهران حالياً ) وكان قبل ظهور حركته وإعلان زعامته للزنج يتنقل بين سامراء والبحرين وهجر ومناطق البادية لنشر أفكاره وادعاءاته بين سكان هذه البلاد . ولمعرفة أوسع التفاصيل عن حركة الزنج . طالع : ( الطبري : المصدر السابق ، ( ٤٤١/٥ ، ٤٥٧ ) . ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ( ١٨/١١ - ١٩ ) .

(١٣٠) ابن الأثير : الكامل ، ( ٢٠٥/٧ ) .

(١٣١) اليعقوبي : تاريخه ، ٥٠٦ . ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ( ٤٤٣ / ٥ ) .

(١٣٢) د. بدر عبد الرحمن محمد : الدولة العباسية ، مصر ، ص ١٥٨ .

(١٣٣) ابن الأثير : الكامل ، ( ٢٠٩/٧ ) .

(١٣٤) ابن الأثير : نفسه ، ( ٢١٤/٧ - ٢١٥ ) .

(١٣٥) د. بدر عبد الرحمن محمد : الدولة العباسية ، ص ١٦١ .

(١٣٦) الطبري : تاريخ الأم والملوك ، ( ٤٣٢/٥ ) .

(١٣٧) نهر الريان : أحد الأنهار الواقعة على الضفة الشرقية لنهر دجلة جنوب العراق .

( لسترنج : بلدان الخلافة ، ص ٦٩ ) .

(١٣٨) ابن الأثير : الكامل ، ( ٢١١/٧ ) .

(١٣٩) أظهر جُعْلان عجزه للخليفة في التصدي لصاحب الزنج داخل البصرة ، فصرفه عن حرب الزنج وأسند الخليفة هذه المهمة لقائد تركي آخر يدعى سعيد الحاجب . أما أبو الأحواص الباهلي فقد لقي مصرعه أثناء هجوم الزنج على الأبله في أواخر شهر رجب سنة ٢٥٦هـ .

( الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ( ٤٥٧/٥ ، ٤٧٦ - ٤٧٧ ) . ؛ ابن الأثير : المصدر

السابق ، ( ٢٣٦ / ٧ ) .

(١٤٠) الطبري : نفسه ، ( ٤٥٧/٥ ) .

(١٤١) ياقوت : معجم البلدان ، ( ٧٧/١ ) .

(١٤٢) الجاحظ : التبصر بالتجارة ، تحقيق حسن عبد الوهاب ، دار الكتاب الجديد ،

١٩٦٦م ، ص ٥ .

(١٤٣) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ط ٢ ، لندن

١٩٠٩م ، ص ١٢٨ .

(١٤٤) أحمد على : ثورة الزنج ، مكتبة الحياة ، بيروت ، ص ١٠٤ ، د. بدر عبد الرحمن : الدولة العباسية ، ص ١٧٠ .

(١٤٥) د. عادل الألوسي : الرأى العام فى القرن الثالث الهجرى ، ص ١٦٢ .

(١٤٦) يعقوب بن الليث ، مؤسس الدولة الصفارية ، وقد حكمت منطقة إيران خمساً وأربعين سنة ( ٢٥٣ - ٢٩٨ هـ / ٨٦٧ - ٩١٠ م ) ، وكان يعقوب نحاساً فُعرف بلقب الصفار ، ثم برز كقائد عسكري فى إقليم سجستان سنة ٢٥٣ هـ ، ومات يعقوب سنة ٢٦٥ هـ / ٨٧٩ م ، ثم خلفه أخوه عمرو بن الليث فى حكم هذه الدولة .

انظر : ستانلى لين بول : الدول الإسلامية ، ترجمة محمد صبيحى فرزات ، دمشق ، ( ٢٦٣ / ١ ) . د. على المحميد : دراسات فى تاريخ المشرق الإسلامى ، ط ١ ، الرياض ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م ، ص ٩ .

(١٤٧) ابن الأثير : الكامل ، ( ١٨٤ / ٧ ) .

(١٤٨) كرمان : ناحية تقع بين فارس ومكران وسجستان وخراسان . ياقوت : معجم البلدان ، ( ٤٥٤ / ٤ ) .

(١٤٩) فارس : ولاية تقع جنوب إيران حالياً وكانت قصبتها شيراز ( لسترنج : بلدان الخلافة ، ص ٢٨٣ ) .

(١٥٠) بدأ ظهور الخوارج فى الموصل سنة ٧٦ هـ / ٦٩٥ م ، وكانوا بقيادة صالح بن مُسرح التميمى . وقد دعا صالح أصحابه إلى الخروج على طاعة أمير المؤمنين ، وإنكار الظلم ، وجهاد المخالفين لهم . وقد قاموا بعدة حركات فى العصر العباسى كان أولها سنة ١٣٧ هـ فى عهد أبى جعفر المنصور .

انظر : ابن الأثير : الكامل ، ( ٣٩٣ / ٤ ) ؛ ابن خلدون : العبر ، ( ١٩٠ / ٣ ) .

وللإطلاع على مزيد من المعلومات عن حركات الخوارج فى الموصل . انظر : سعيد الديوه جى : تاريخ الموصل ، مطبوعات المجمع العراقى ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ( ٦٧ - ٧٦ ) .

(١٥١) مُساور بن عبد الحميد بن مساور الشارى البجلي الموصلى . كان مبدأ خروجه بالبوازيج فى الموصل سنة ٢٥٢ هـ . ومنذ ذاك التاريخ قاد عدداً من ثورات الخوارج هناك ضد الخلافة العباسية حتى سنة ٢٦٣ هـ ( ابن الأثير : الكامل ، ( ١٧٤ / ٧ ، ٣٠٩ ) .

- (١٥٢) ابن الأثير : نفسه ، ( ٢٠٥/٧ ) .
- (١٥٣) الحديثة : بليدة كانت تقع على الجانب الشرقى لنهر دجلة قرب الزاب الأعلى ، وتسمى حديثة الموصل تمييزاً لها عن حديثة الفرات . ( ياقوت : معجم البلدان ، ( ٢٣٠/٢ ) .
- لسترنج : بلدان الخلافة ، ص ١١٩ ) .
- (١٥٤) لم تذكر المصادر التي لدينا سوى أنه كان أمير الموصل وقت استيلاء مساور الخارجي عليها سنة ٢٥٥هـ . ( ابن الأثير : الكامل ، ( ٢٠٥/٧ )
- (١٥٥) ابن الأثير : نفس المصدر والصفحة .
- (١٥٦) نفسه .
- (١٥٧) نفسه ، ص ٢٠٥ ، ٢١٥ .
- (١٥٨) عُبَيْدَة من بنى زهير العمروى . ( ابن الأثير : نفسه ، ( ٢٢٦/٧ ) .
- (١٥٩) نفسه .
- (١٦٠) نفسه ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .
- (١٦١) خراسان : هو الإقليم الشرقى من بلاد فارس ، وهى حالياً قسمة بين إيران وأفغانستان وجزء منها يتبع روسيا . ( محمود شاكر : تركستان ، بيروت ، ص ٢٦ ) .
- (١٦٢) أذربيجان : هى الدولة المعروفة الآن بجمهورية أذربيجان الواقعة فى منطقة القفقاس ، عاصمتها مدينة ( باكو ) . ( محمود شاكر : تركستان ، ص ١٠٨ ) .
- (١٦٣) نيسابور: إحدى مدن خراسان، وقد أصبحت حاضرة ذلك الإقليم بعد مدينة مرو .
- ( لسترنج : بلدان الخلافة ، ص ٤٢٤ ) .
- (١٦٤) ياقوت : معجم البلدان ، ( ٢٢٣/٥ ) .
- (١٦٥) هو أحمد بن عبد الله بن إبراهيم بن طباطبا ، لقي مصرعه فى صعيد مصر سنة ٢٥٥هـ . ( ابن الأثير : الكامل ، ( ٢١٧/٧ ) .
- (١٦٦) بَرْقَة : اسم ناحية كبيرة تشتمل على مدن وقرى تقع بين الإسكندرية وإفريقية .
- ( ياقوت : معجم البلدان ، ( ٣٨٨/١ ) .
- (١٦٧) الصعيد : بلاد واسعة فى مصر تشتمل على مدن عدة أهمها أسوان فى أقصى الجنوب .
- ( ياقوت : المصدر السابق ، ( ٤٠٨/٣ ) .



(١٦٨) الأمير التركي أبو العباس أحمد بن طولون ، صاحب الديار المصرية والشامية والثغور ، كان الخليفة المعتز قد ولاء على مصر ، ثم استولى على الشام فى مدة اشتغال الموفق بحرب صاحب الزنج . وُلد أحمد بسامراء سنة ٢٢٠هـ ، وتوفى فى مصر سنة ٢٧٠هـ ( ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ( ١٧٣/١ - ١٧٤ ) .

ولمزيد من التفاصيل عن الدولة الطولونية . انظر : د. محمد أحمد زيود : العلاقات بين الشام ومصر فى العهدين الطولونى والأخشيدى ، ط ١ ، دمشق ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .  
(١٦٩) ابن الأثير : الكامل ، ( ٢١٧/٧ ) .

(١٧٠) هو إبراهيم بن محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد على بن أبى طالب ويُعرف بابن الصوفى . ( ابن الأثير : الكامل ، ( ٢٣٧/٧ ) .  
(١٧١) إسنا : مدينة بأقصى صعيد تقع على الشاطئ الغربى لنهر النيل . ( ياقوت : معجم البلدان ، ( ١٨٩/١ ) .

(١٧٣) ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، ( ٧/٣ ) .

(١٧٤) ابن الأثير : الكامل ، ( ٢٣٩/٧ ) .

(١٧٥) عيسى بن الشيخ بن السليل من ولد حساس بن مرة بن ذهل الشيبانى ، عقد له الخليفة المستعين سنة ٢٥٢هـ على مدينة الرملة ، ثم استولى على فلسطين كلها ، وتغلب على دمشق وأعمالها . ولكنه تنكر للخلافة واستبد بالأموال ، وحارب جيش الخلافة فى عهد المعتمد على الله ، ولما انهزم سار إلى أرمينية حيث توفى فيها سنة ٢٦٩هـ . ( ابن الأثير : الكامل ، ( ١٧٦/٧ ، ٢٣٨ ، ٣٩٧ ) .

(١٧٦) ابن الأثير : نفسه ، ( ٢٣٨/٧ ) .

(١٧٧) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ( ٤٦١/٥ ) .

(١٧٨) الرى مدينة تقع فى الطرف الشمالى الشرقى من إقليم الجبال ، قامت على أنقاضها مدينة طهران عاصمة إيران حالياً . ( لسترنج : بلدان الخلافة ، ص ٢٤٩ - ٢٥٢ ) .

(١٧٩) الطبرى : نفسه ، ( ٤٤٠/٥ ) ؛ ابن الأثير : الكامل ، ( ٢٠٤/٧ ) .

(١٨٠) الحسن بن زيد بن إسماعيل بن الحسين بن زيد بن على بن الحسين بن على أبى طالب مؤسس الدولة الزيدية فى طبرستان سنة ٢٥٠هـ ، وقد حكم حوالى عشرين سنة حتى

وفاته سنة ٢٧٠هـ ، ثم خلفه أخوه محمد بن زيد ( ابن الجوزى : المنتظم ، ( ٣٤/١٢ ) ابن الأثير : الكامل ، ( ٤٠٧/٧ ) .

(١٨١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ( ٤٤١/٥ ) .

(١٨٢) أبو القاسم عبد الله بن الواثق ، ظهر على مسرح الحوادث السياسية فى خلافة أخيه المهتدى بالله . ولم يجلس على عرش الخلافة قط . ( ابن الأثير : الكامل ، ( ٢٢١/٧ - ٢٢٤ ) .

(١٨٣) ابن الأثير : نفسه ، ( ٢٢٣/٧ ) .

(١٨٤) موسى بن بغا الكبير . ابن نحالة الخليفة المتوكل . كان أحد قواد الأتراك البارزين فى الدولة العباسية منذ عهد المتوكل ، وقد سطع نجمه فى خلافة المعتمد على الله . ( ابن الأثير : نفسه ، ( ٩٨/٧ ، ٢٩١ ، ٣٠٥ ) .

(١٨٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ( ٤٥٨/٥ ) .

(١٨٦) نفسه .

(١٨٧) نفسه ، ( ٤٦١/٥ ) .

(١٨٨) نفسه ، ( ٤٦٠/٥ ) .

(١٨٩) نفسه ، ( ٤٦٦/٥ - ٤٦٧ ) .

(١٩٠) نفسه ، ( ٤٤١/٥ ) .

(١٩١) ابن الأثير : الكامل ، ( ٢٢٨/٧ ) .

(١٩٢) نفسه .

(١٩٣) ابن العمرانى ، الإنباء ص ١٣٦ .

(١٩٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ( ٤٦٨/٥ ) ، ابن الأثير : الكامل ، ( ٢٢٨/٧ ) .

(١٩٥) الطبرى : نفسه ، ( ٤٦٨/٥ - ٤٦٩ ) .

(١٩٦) أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم الخراسانى ، كانت ولادته سنة ١٠٠هـ ، فى إحدى قرى خراسان ، وأخذ يدعو للعباسيين سنة ١٢٩ هـ . لقي أبو مسلم مصرعه سنة ١٣٧ هـ على يد أبى جعفر المنصور بسبب خلافات حادة نشبت بينهما .

( ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ( ١٤٥/٣ - ١٥٥ ) .

- (١٩٧) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك، (٤٦٩/٥) ، ابن كثير: البداية والنهاية، (٢٢/١١) .
- (١٩٨) ابن العمرانى : الإنباء ، ص ١٣٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، (٢٢٩/٧) .
- (١٩٩) ابن الأثير : الكامل ، (٢٣٠/٧) .
- (٢٠٠) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ( ٤٧٦/٥ ) .
- (٢٠١) نفسه ، ( ٤٦٣/٥ ) .
- (٢٠٢) نفسه ، ( ٤٨٠/٥ ، ٤٨٨ ) .
- (٢٠٣) نفسه ، ( ٥٠٢/٥ ) .
- (٢٠٤) المعتضد بالله : أحمد بن طلحة الموفق بن جعفر المتوكل بن المعتصم ، ويكنى : أبا العباس ، ولد بسامراء سنة ٢٤٣ هـ ، وبويع له بالخلافة سنة ٢٧٩ هـ .
- ( ابن الجوزى : المنتظم ، ( ٣٠٦/١٢ ) ؛ ابن الأثير : الكامل ، ( ٤٤٤/٧ ) .
- (٢٠٥) الطبرى : نفسه ، ( ٦٠٤/٥ ) .
- (٢٠٦) ابن الجوزى : المنتظم ، ( ١٠٨/١٢ ) .
- (٢٠٧) خانقين : بلدة تقع شرق مدينة حلواء . وعمر به حاليًا الطريق الذى يربط بين بغداد وإيران . ( ياقوت : معجم البلدان ، ( ٣٤٠/٢ ) ؛ لسترنج : بلدان الخلافة ، ص ٨٧ ) .
- (٢٠٨) ابن الأثير : الكامل ، ( ٢٤٠/٧ ) .
- (٢٠٩) على بن زيد العلوى ، صاحب الكوفة ، قتله قائد الزنج سنة ٢٦٠ هـ
- ( الطبرى : تاريخ الأمم والملوك . ( ٤٩٩/٥ ) .
- (٢١٠) الطبرى : نفسه . ( ٤٧٨/٥ ) .
- (٢١١) جرجان : إقليم يقع فى جنوب شرقى بحر قزوين ( لسترنج : بلدان الخلافة ، ص ٤١٧ ) ، ولزید من المعلومات عن هذه الأحداث انظر : الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ( ٤٧٨/٥ ) ، ابن الأثير : الكامل ، ( ٢٤٨/٧ ) .
- (٢١٢) عبد العزيز بن أبى دلف القاسم بن عيسى العجلي ، كان والده أبو دلف أحد قواد المأمون ثم المعتصم . وقد عهدت الخلافة سنة ٢٥٢ هـ إلى الأمير عبد العزيز بحكم بلاد الجبل، ولقى هذا مصرعه سنة ٢٦٥ هـ . ( ابن الأثير : الكامل ، ( ١٧٦ / ٧ ) ، ( ٣٢٧ ) : ابن نخلكان : رفيات الأعيان ، ( ٧٣/٤ ) .

- (٢١٣) ابن الأثير : الكامل ، ( ٢٤٠/٧ ، ٢٤٩ ) .
- (٢١٤) أحمد بن محمد بن عبيد الله بن المدبر الضبي ، كان والي الخراج في مصر فلما قدمها ابن طولون سنة ٢٥٤هـ كف يده عن الخراج ، وقبض عليه ، وسجنه ، ثم أمر بقتله سنة ٢٧٠هـ ( ابن الأثير: نفسه، (٨٧/٧) ، النهي: السير إعلام النبلاء، (١٢٥/١٣-١٢٦) .
- (٢١٥) أرمينية : ناحية واسعة تنقسم إلى قسمين : أرمينية الكبرى وعاصمتها خلط ، والصغرى عاصمتها تفليس . أما حدود أرمينية الحديثة فيحدها من الشمال جمهورية جورجيا ، ومن الجنوب إيران ، ومن الغرب تركيا ، ومن الشرق جمهورية أذربيجان . ( ياقوت الحموي: معجم البلدان ، ( ١٥٩/١ - ١٦٠ ) ؛ مروان المدور : الأرمن عبر التاريخ ، ط ١ ، بيروت ١٩٨٢م ، ص ٥٧٥ ) .
- (٢١٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ( ٤٧٩ / ٥ )، ابن الأثير: الكامل، ( ٢٣٨/٧ ) .
- (٢١٧) سعد أحمد بن سعد الباهلي ، ظهر في البطائح ، وحاول أن يتغلب عليها سنة ٢٥٧هـ ، ولكن الخلافة أرسلت إليه القائد أحمد المولد ، فقبض عليه وضرب حتى مات .
- ابن الأثير : نفسه ، ( ٢٤٨/٧ ) .
- (٢١٨) البطائح : ناحية في العراق تقع بين مدينتي واسط والبصرة .
- ياقوت : معجم البلدان ، ( ٤٥٠/١ ) .
- (٢١٩) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ( ٤٨٧/٥ ) ؛ ابن الأثير : الكامل، ( ٢٤٨/٧ ) .
- (٢٢٠) ابن الأثير : نفسه ، ( ٢٤٧ / ٧ ، ٢٩٠ ) .

## المصادر والمراجع

### أولاً : المصادر :

- ابن الأثير : عز الدين على بن محمد الشيباني ( ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م ).  
الكامل فى التاريخ ، بيروت ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .
- ابن تغرى بردى : جمال الدين أبى المحاسن يوسف ( ت ٨٧٤ هـ / ١٤٧٠ م ).  
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة .
- ابن الجوزى : أبو الفرج عبد الرحمن بن على ( ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م ) .  
المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك ، دراسة وتحقيق محمد ومصطفى عطا ، ط ١ ،  
بيروت ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م .
- ابن خرداذبة : أبو القاسم عبد الله بن عبد الله ( ت ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م ) .  
المسالك والممالك ، تحقيق محمد مخدوم ، ط ١ ، بيروت ١٩٨٨ م .
- ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون ( ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م ) .  
العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ط ١ ، بيروت ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
- ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ( ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م ) .  
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت .
- ابن دقماق : إبراهيم بن محمد ( ت ٨٠٩ هـ ) .  
الجواهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين ، تحقيق محمد كمال الدين ، ط ١ ،  
بيروت ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ،
- ابن طباطبا : محمد بن على بن الطقطقى ( ت ٧٠٩ هـ ) .  
الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، دار صادر ، بيروت .



- ابن العمراني : محمد بن علي بن محمد ( ت في حدود سنة ٥٨٠هـ )  
الإنباء في تاريخ الخلفاء ، تحقيق د. قاسم السامرائي ، ط ٢ ، الرياض ١٤٠٢هـ /  
١١٩٨م .
- ابن قتيبة : عبد الله بن مسلم ( ت ٢٧٦هـ / ٨٨٩م )  
المعارف ، تحقيق د. ثروت عكاشة ، ط ٢ ، مصر .
- ابن كثير : أبو الفداء الحافظ إسماعيل بن عمر الدمشقي ( ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م ) .  
البداية والنهاية ، ط ٦ ، بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- الآجري : أبو بكر محمد بن الحسين ( ت ٣٦٠هـ ) .  
الشرعية ، تحقيق محمد حامد الفقي ، ط ١ ، مطبعة السنة المحمدية ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م .
- الأزدي : جمال الدين علي بن ظافر ( ت ٦١٣هـ / ١٢٧٦م ) .  
أخبار الدول المنقطعة ، تاريخ الدولة العباسية ، تحقيق ودراسة د. محمد  
الزهراني ، المدينة المنورة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
- الأصبهاني : الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله ( ت ٤٣٠هـ )  
حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ط ٢ ، بيروت ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .
- البري : محمد بن أبو بكر بن عبد الله الأنصاري التلمساني .  
الجوهرية في نسب النبي ﷺ وأصحابه العشرة ، ط ١ ، الرياض ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
- البيهقي : إبراهيم بن محمد ( ت ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م ) .  
المحسن والمساوي ، بيروت ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م .
- الجاحظ : عمرو بن بحر ( ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م ) .  
كتاب التبصر بالتجارة ، تحقيق حسن عبد الوهاب ، القاهرة ١٩٦٦م .
- الخطيب البغدادي : أبو بكر أحمد بن علي ( ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م ) .  
تاريخ بغداد ، بيروت .

- الذهبي : الإمام شمس الدين محمد بن أحمد ( ت ٧٤٨ هـ / ١٣٧٤ م ) .  
سير إعلام النبلاء ، ط ١٠ ، بيروت ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ . العبر في خير من  
غير ، تحقيق أبو هاجر محمد بن بسيوني ، بيروت .
- السيوطي : الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ( ت ٩١١ هـ )  
تاريخ الخلفاء ، دار الفكر ، بيروت .
- الصفدي : خليل بن أيك ( ت ٦٧٤ هـ ) .  
الوافي بالوفيات ، بيروت ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .
- الطبري : محمد بن جرير ( ت ٣١٠ هـ ) .  
تاريخ الأمم والملوك ، ط ٢ ، بيروت ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .
- الماوردي : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب ( ت ٤٥٠ هـ ) .  
الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، ط ٣ ، مصر ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م
- المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين ( ت ٣٤٦ هـ ) .  
مروج الذهب ومعادن الجوهر ، مصر ١٣٤٦ هـ .
- المعجم الوسيط ، مجمع اللغة بالقاهرة ، ١٩٦٠ .
- المقدسي : أبو عبد الله محمد بن أحمد ( ت ٣٧٨ هـ / ٩٧٨ م ) .  
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ط ٢ ، دار صادر ، بيروت ، لندن ١٩٠٩ م .
- النيسابوري : الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج ( ت ٢٦١ هـ ) .  
صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية .
- وكيع : محمد بن خلف بن حيان ( ت ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م ) .  
أخبار القضاة ، عالم الكتب ، بيروت .
- ياقوت : شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الملك الحموي  
( ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م ) .  
معجم الأدباء ، بيروت ، لبنان .  
معجم البلدان ، بيروت ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

- اليعقوبي : أحمد بن واضح الكاتب ( ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م ) .
- تاريخ اليعقوبي، بيروت ، ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م .
- ثانيًا : المراجع :
- أحمد زكي : جمهرة رسائل العرب ، بيروت .
- أحمد علي : ثورة الزنج ، مكتبة الحياة ، بيروت .
- بدر عبد الرحمن محمد : الدولة العباسية ، مصر .
- د. حسن محمود وأحمد الشريف : العالم الإسلامي في العصر العباسي ، ط ٤ ، الكويت ١٩٨٠م .
- ستانلي لين بول : الدول الإسلامية ، ترجمة محمد صبيحي فرزات ، دمشق .
- سعيد الديوه جي : تاريخ الموصل، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .
- د. شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، ط ٧ ، دار المعارف ، مصر .
- د. ضيف الله الزهراني : النفقات وإدارتها في الدولة العباسية ، ط ١ ، مكة المكرمة، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .
- عادل محي الدين الألوسي : الرأي العام في القرن الثالث الهجري ، ط ١ ، ١٠٨٧م .
- عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ، ترجمة د. محمد علاء الدين منصور ، القاهرة ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .
- د. علي المحميد : دراسات في تاريخ المشرق الإسلامي ، ط ١ ، الرياض ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .
- عمر رضا كحالة : إعلام النساء ط ٣ ، بيروت ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

- د. فتحى أبو سيف : المشرق الإسلامى بين التبعية والاستقلال ، القاهرة ١٩٧٨ م .
- لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس و كوركيس عواد ، ط٢ ، بيروت ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .
- د. محمد أحمد زيود : العلاقات بين الشام ومصر فى العهدين الطولونى والأخشيدي، ط١ ، دمشق ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م .
- محمد شاكل : تركستان ، بيروت .
- مروان المدور : الأرمن عبر التاريخ ، ط١ ، بيروت ١٩٨٢ م .





# العلاقة بين مغول فارس ومغول القفجاق

## بعد معركة عين جالوت

١٢٦٠ - ١٢٧٠ م

أ.د. محمود سعيد عمران (\*)

مات الخان الأعظم للمغول مونكو Mongka في أغسطس عام ١٢٥٩م ، فأوقفت القوات المغولية عملياتها العسكرية في بلاد الشام . وكان للخان الأعظم ثلاثة أخوة كبار هم قوبيلاي Kubilai وهولاكو Hulagu الذى كان يقود القوات المغولية في بلاد الشام، وأريق بوقا Arigboga كما كان له إخوة صغار أقل أهمية. وأشارت الدلائل إلى ترشيح قوبيلاي لمنصب الخان الأعظم . وكان قوبيلاي في تلك الأثناء يقود حملة عسكرية على حدود بلاد الصين ، فساندته القوات المغولية المرافقة له في حملته ليكون خانا أعظم ، وبدأ يستعد للعودة إلى العاصمة المغولية حتى سيطر على الموقف داخل العاصمة (١) .

وفى ظل هذه الأحداث انقسمت الأسرة الحاكمة المغولية إلى قسمين ، أحدهما يساند قوبيلاي والآخر يساند أريق بوقا . وانتهى الأمر باختيار قوبيلاي خانا أعظم للمغول (١٢٦٠ - ١٣٩٤م) وعندئذ انسحب هولاكو ومعه قواته إلى بلاد فارس ليراقب الأحداث في حين ترك قائده كتبغا مع باقى القوات المغولية في بلاد الشام . وصادف ذلك مولد دولة سلاطين المماليك في مصر والشام فكان عليها أن تحمل راية الجهاد لإثبات وجودها وقوتها في المنطقة حتى تكون جديرة بالحكم بوصفها وريثة البيت الأيوبي في حكم مصر والشام .

وكانت بداية الاحتكاك بين المغول والمماليك عندما أرسل هولاكو سفارة إلى القاهرة في أوائل عام ١٢٦٠م تطلب من سلطان قطز (١٢٥٩ - ١٢٦٠)

---

(\*) أستاذ تاريخ العصور الوسطى - كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية .

الاستسلام والخضوع للسيادة المغولية . ولكن السلطان أمر بقتل الرسل ، ومعنى ذلك أن الحرب قائمة لا محالة بين الطرفين . وعلى ذلك استعد قطز للقتال فحشد قواته ، وانضم إليه ما تبقى من القوات الخوارزمية وعساكر المغيث عمر الأيوبي حاكم إمارة الكرك ( ١٢٣٩ - ١٢٦١ م ) حتى أصبحت القوات الإسلامية تفوق أعداد القوات المغولية التي قدرها البعض بحوالى عشرة آلاف مقاتل (٢) .

فى نهاية يوليو ١٢٦٠م اجتاز قطز وقواته الحدود المصرية ، وتولى قيادة المقدمة القائد بيبرس الذى نجح فى الانتصار على طلائع القوات المغولية التى كانت مرابطة فى نواحي مدينة غزة بقيادة القائد بيدرا Baidar . وعلى إثر هذه الهزيمة أرسل بيدرا إلى القائد المغولى كتبغا Kitbuqa المقيم فى مدينة بعلبك يخبره بالوقائع (٣) .

وكان أن نظم كتبغا قواته ، وكان مع القوات المغولية قوات كرجية و أرمنية ، وعناصر من مغول القفجاق (٤) ، كما كان يرافق كتبغا من البيت الأيوبي الملك السعيد صاحب الصببية ، والملك الأشرف موسى صاحب حمص (٥) . ورغم هذا كله فقد كانت القوات المغولية أقل عدداً من القوات الإسلامية . وحول أعداد القوات الأرمنية فقد ذكرت أحد المصادر الأرمنية أن عدد القوات التى أرسلها الملك الأرمنى هيثوم الأول Hethim I ( ١٢٢٦ - ١٢٦٩ م ) كانت حوالى خمسمائة (٦) .

أما عن قوات مغول القفجاق فقد ذكر ابن عبد الظاهر أن كشافة المماليك وجدوا جماعة كبيرة من التتار مستأمنين وافدين إلى الباب الشريف لأنهم من أصحاب الملك بركة - خان مغول القفجاق - وكانوا نجدة عند هلاون أى هولاکو . فلما وقع بينهما ، أى وقع الخلاف بين بركة وهولاکو ، كتب الملك بركة إليهم بالحضور إليه ، وإن لم يقدرُوا على ذلك يتجاوزون إلى عسكر الديار المصرية ، ويذكرون أن العدو قد استحكمت بينهما - أى بين هولاکو وبركة - وكان عددهم فوق المائتى فارس ، فكتب السلطان إلى نواب الشام بإكرامهم ، وحمل الخلع إليهم وإلى نسائهم ، وأحسن إلى مقدميهم الأربعة (٧) .

أما كتبغا فقد تقدم من بعلبك حتى وصل إلى مدينة الناصرة ، ثم إلى عين جالوت التي وصلها يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان عام ٦٥٨ / الثاني من سبتمبر ١٢٦٠ م . وعند عين جالوت دارت المعركة الفاصلة بين المغول بقيادة كتبغا والمماليك بقيادة قطز ، فانكسر المغول وسقطوا بين قتلى وأسرى ، فى حين ظل كتبغا يقاتل حتى هلك فرسه ، فوقع فى أسر المسلمين ، وحمل مقيدا بالأغلال إلى السلطان فأمر بقتله . كما وقع فى الأسر الملك السعيد الأيوبي وقد أمر السلطان بقتله أيضا . أما الملك الأشرف فقد فارق العسكر المغولي وطلب الأمان من السلطان فأمنه ، وأقره على ما بيده وهى مدينة حمص ومضافاتها . وتقدم قطز ودخل دمشق ظافرا (٨) .

وكان لجنكيز خان Jenghiz Khan أربعة أولاد حسب كبر السن هم جوجى Juji ، وجغتاي Jagatai ، وروا كيتاي Ogodai ، وطولوى Tului . وفى أيام جنكيز خان كان مركز الحكومة فى العاصمة قراقورم فى إقليم منغوليا ، أما بعد وفاته فقد تم نوع من التقسيم الإدارى ، فأصبح أو كيتاي خانا بالإضافة إلى إقليم منغوليا ، أما جغتاي فقد اختص بإقليم ما وراء النهر وتركستان الشرقية منذ عام ١٢٢٧ م ، وفى سلالته التى استمرت حتى عام ١٣٧٠ م . وفيما يختص بإقليم فارس فقد تولى حكمه هولاكو بعد موت والده طولوى وذلك منذ عام ١٢٥٦ (٩) .

أما جوجى فقد حكم القبيلة الذهبية الذى كان لون مخيماتها ذهبيا فعرفت بهذا الاسم ، وقد حكم بعده ولدان هما باطو وعرفت سلالته باسم القبيلة الزرقاء ، وحكمت جنوب روسيا وغرب بلاد القفجاق منذ الفتح حتى عام ١٣٨٠ م ، والثانى هو أوردا Orda الذى عرفت سلالته باسم القبيلة البيضاء واستمرت حتى ١٤٨١ م ، وحكمت فى سيبيريا وشرقى بلاد القفجاق .

ويعنينا فى هذا البحث مغول فارس ومغول القبيلة الزرقاء الذين أطلق عليهم مغول القفجاق . ويلاحظ أن كلمة القفجاق أطلقت على البلاد التى تقع إلى شمال

البحر الأسود والتي تعرف حالياً باسم أوكرانيا ، وكان يعيش فيها فى تلك الحقبة وما قبلها عناصر البشناق Pechenegs ثم عناصر الكومان Cumans (١٠) ، وهى الأراضى التى وردت فى المصادر العربية والفارسية باسم القفجاق ، وقد أتخذ هؤلاء من مدينة سراى Sarai على نهر الفولجا عاصمة لهم (١١) .

أما مغول فارس فقد تولى هولاکو حکم بلاد فارس وأذربيجان وجزء من غربى بحر قزوين وأتخذ من مدينة شیراز عاصمة له عام ١٢٥٦م وحتى عام ١٢٦٥ ، وخلفه ابنه أباقا أو أبغا ١٢٦٥ - ١٢٨٢ م ، ثم تكوادار ١٢٨٤ - ١٢٨٤ م ، وأرغون ١٢٨٤ - ١٢٩١ م .

أما عن مغول القفجاق فكانوا تحت حکم بركة بن جوجى منذ عام ١٢٥٧م أى قبل معركة عين جالوت وحتى عام ١٢٦٧م ، ثم حکمها منكو تیمور ١٢٦٧ - ١٢٨٠م ، وتلاه تودا منكو ١٢٨٠ - ١٢٧٨ ، وغيث الدين ١٢٩٠ - ١٣١٢ م .

وإذا كان البحث يتركز على علاقة مغول فارس بمغول القفجاق بعد معركة عين جالوت ، فلتكن البداية عن العلاقة بين الخان هولاکو والخان بركة . والواقع أن توسعات هولاکو عند حدود بلاد القفجاق كانت السبب فى العداوة بين الطرفين، فقد أورد العینی إن هولاکو طمع لظروف عائلية فى التوسع فى بلاد القفجاق ، لذلك تجهز بجيشه وسار فى عام ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م بعد جلوس بركه على سریر الملك ، وعندما علم بركة بذلك سار إليه بعساكره وهزمه ، وكان بينهما نهر " ترك " ، وقد جمده ماؤه لشدة البرد ، فعبر هولاکو وعساكره متخطباً إلى بلاد بركة . وانتهى الأمر بهزيمة هولاکو وعسكره " فولوا على أدبارهم وتكردسوا فى النهر الجامد ، فانفقاً الجمدة من تحتهم فغرق منهم جماعة كثيرة ، وأفلت من نجا منهم من المصاف والغرق صحبه هولاکو راجعين إلى بلادهم ، وصارت العداوة بين الطائفتين متمكنة " ، وقد لعب القائد المغولى نوغای Nogay

الذى أسماه العيسى نَوْغِيَّةَ دورًا كبيرًا فى هذه المعركة التى أدت إلى هزيمة هولاكو (١٢) .

ويذكر أبو المحاسن أن الخان بركة كان يميل إلى المسلمين ميلاً زائداً ويعظم أهل العلم ويقصد الصلحاء ويترك بهم . ووقع بينه وبين ابن عمه هولاكو ، وقاتله بسبب قتله للخليفة المستعصم بالله وغيره من المسلمين (١٣) . وهكذا نشبت الحرب بين الطرفين منذ ذلك الحين ، وصارت العداوة بين الطرفين مورثة (١٤) . وإذا كان العداء بين الطرفين قد ظهر قبل معركة عين جالوت بخمس سنوات فإنها لم تتفاقم إلا بعد موت الخان الأعظم مونكو وإنقسام الامبراطورية المغولية إلى وحدات سياسية ، وهذا لم يتضح إلا بعد معركة عين جالوت .

وكان الخان بركة يميل إلى الإسلام والمسلمين فإعتنق الإسلام فى مرحلة لاحقة ، وهى نقطة فى غاية الأهمية فى تاريخ العلاقات بين الخان بركة والخان هولاكو . ومسألة تحديد الزمن الذى اعتنق فيه الخان بركة الإسلام أمر يصعب تحديده بدقة ، ولكن الباحث سيحاول الوصول إلى تاريخ معقول ومقبول ، إذ يرى البعض أنه تحول للإسلام قبل اجتياح المغول لمدينة بغداد فى عام ١٢٥٩م ، وأنه اعترض على التخريب الوحشى الذى ألحقه المغول بالمدينة (١٥) ، ثم تصاعد الخلاف بين الطرفين بعد معركة عين جالوت ، وهو الأمر الذى دفع الخان بركة إلى سحب قواته التى كانت تحارب إلى جانب قوات هولاكو فى بلاد الشام (١٦) .

وحول الزمان الذى أسلم فيه الخان بركة فقد سبق أن ذكرنا أن جماعة كبيرة من التتار مستأمنين وفدوا إلى الباب الشريف ، أى سلطنة المماليك لأنهم من أصحاب الخان بركة ، وكانوا نجده ، فلما وقع بينهما كتب إليهم بالحضور ويعتبر طلب الخان بركة من عساكره الدخول إلى الديار المصرية أمراً له دلالة . إذ لا يعقل أن يطلب الخان بركة من عساكره ذلك إلا إذا كانت العلاقات طيبة بين السلطان بيبرس والخان بركة . وحول إسلام الخان بركة ذكر العيسى أنه أسلم على



يد أحد تلامذه الشيخ الباخري الذي إتخذ من بخارى مقراً له ، وقد أورد ذلك فى عام ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م ، وقال أيضاً إنه عندما ملك الخان بركة البلاد " أسلم وحسن إسلامه " (١٧) .

ولعل فى ذلك إشارات واضحة إلى إسلام الخان بركة ، ولكن إعلام الظاهر بيبرس بإسلام الخان بركة جاء بعد ذلك . فقد ذكر العيني أنه فى عام ٦٦١ هـ / ١٢٦٢ م وصلت رسل بركة خان مخبرين بإسلامه وعلى أيديهم كتاب منه يتضمن ذكر من أسلم أيضاً من بيوت التتار (١٨) . وعلى ذلك يمكن القول أن إسلام الخان بركة كان قبل عام ١٢٦٢ م ، وأن السلطان بيبرس قد تلقاه بصورة رسمية فى عام ١٢٦٢ م .

وحول العلاقات بين مغول فارس ومغول القفجاق يهمنى فى هذه الصفحات التعرض للطرق التى تربط بين الطرفين . ومن المعروف أنه لا يوجد طريق بين الدولتين إلا طريق بحر قزوين . وليس لدى المغول قوة بحرية فى تلك المرحلة . أما الطريق البرى فيمر من بلاد فارس إلى أرمينية وبلاد الكرج (جورجيا) وآسيا الصغرى حيث دولة سلاجقة الروم ، وأخيراً الامبراطورية البيزنطية التى قامت فى المنفى واتخذت من مدينة نيقية عاصمة لها ، والدولة اللاتينية التى أقامها الصليبيون فى القسطنطينية على أنقاض الامبراطورية البيزنطية .

وفيما يتعلق بدولتى أرمينية والكرج فقد خضعتا للخان هولاكو ، واشتركت قوات الدولتين فى معارك المغول ضد المسلمين ، فى معركة عين جالوت وغيرها من المعارك ، خاصة التى دارت فى أعالي بلاد الشام والفرات . كذلك كانت دولة سلاجقة الروم فى طاعة هولاكو . ويذكر ابن العبرى أن هولاكو أرسل قبل معركة عين جالوت فى طلب السلطان عز الدين وأخيه ركن الدين ليذهبا إلى خدمته فأطاعاه . وطلب من الأخوين بأن يتولى عز الدين من مدينة قيصرية فى آسيا الصغرى إلى تخوم أرمينية ، وركن الدين من



مدينة أقسرا حتى ساحل البحر بحدود الامبراطورية البيزنطية .. وعاد الأخوان مسرورين وأخذ ركن الدين مدينة سبسطية عاصمة له ، وأقام عز الدين فى قونية ، ووضع هولاء قوات مغولية لتزابط فى أراضى سلاجقة الروم (١٩) .

وعلى هذه الصورة لم يتبق فى آسيا الصغرى خارج سلطان هولاء سوى الامبراطورية البيزنطية فى نيقية ، وعلى الطرف الآخر القسطنطينية حيث كان اللاتين يحكمون بقية الأراضى البيزنطية بعد ما سقطت فى أيديهم منذ عام ١٢٠٤م على أيدي قوات الحملة الصليبية الرابعة .

\* \* \*

وقد استفاد الظاهر بيبرس من الخلافات التى وقعت بين مغول فارس ومغول القفجاق ، حتى أنه يمكن القول بأن فكرة التقارب بين مغول القفجاق ودولة المماليك ظهرت فى تلك المرحلة . ولكن مثل هذا التقارب لم يكن وضعه على أرض الواقع بين الطرفين لأن الطريق البرى بين بلاد الشام ومغول القفجاق تقطعه الدول المتحالفة مع مغول فارس . هذا إلى أن الطريق البحرى عبر بحر مرمرة كان يتحكم فيه اللاتين الذين يحكمون فى القسطنطينية . ولكن الظروف هى التى خدمت هذه القضية ، ففى عام ١٢٦١م نجح الامبراطور ميخائيل الثامن باليولوج Michael VIII Palaiologos ( ١٢٥٨ - ١٢٨٢م ) فى القضاء على امبراطورية اللاتين فى القسطنطينية ، وبذلك أصبح الحاجز البحرى الوحيد بين دولة القفجاق ودولة المماليك هو بحر مرمرة الذى يقع تحت سلطان الامبراطورية البيزنطية .

والواقع أن العلاقات بين الظاهر بيبرس والامبراطور ميخائيل أصبحت طيبة منذ عام ٦٦٠هـ - ١٢٦١م على الأقل . وهناك العديد من الأمثلة على حسن العلاقة بين الطرفين ، ومن ذلك أنه فى عام ١٢٦١م وصلت كتب الامبراطور ميخائيل " وهو يقسم أنه متى احتاجت سلطنة الملك الظاهر إلى مساعدة ، ساعدت بكل ما تقدر سلطنتى عليه " . وقد رد السلطان عليه وأرسل إليه هدية " منها الزرافات وجماعة من التار الأسارى بخيولهم الترية وعدتهم " (٢٠) .

ويتضح من النصوص أن هذه الأحداث وقعت قبل إنتقال الامبراطور من مدينة نيقية إلى القسطنطينية ، فقد ذكرت المصادر أن الأمير فارس الدين أقوش المسعودى كان قد توجه رسولاً إلى الامبراطور ميخائيل الذى طلب من السلطان بيبرس أن يرسل إليه بطرقاً للنصارى الملكانيين ، فعين السلطان الرشيد الكحال لذلك ، وأرسله فى صحبة الأمير فارس الدين ١٢٦٠م . فأكرمه الامبراطور وأكرم من فى صحبته من الأساقفة . وتصادف وصول هذه الجماعة من قبل السلطان بيبرس مع فتح الامبراطور للقسطنطينية ، واصطحب الامبراطور السفارة المصرية لمشاهدة المدينة ، ثم عبروا على مكان به مسجد يبدو أنه مسجد أبو أيوب الأنصارى - فأبقى الامبراطور عليه ليكون ثوابه للسلطان (٢١) . وهكذا غدا الطريق مفتوحاً أمام حسن العلاقات بين دولة المماليك ودولة مغول القفجاق ، مما جعل إقامة تحالف بين الدولتين أمراً يسهل تحقيقه .

والواقع أن الرسل والمراسلات نشطت بين الطرفين . وهناك العديد من الأمثلة على ذلك (٢٢) . والذى يعيننا فى هذا البحث هو ما سجل عام ٦٦١هـ / ١٢٦٣م عن وصول رسل من الامبراطور البيزنطى ، ورسل سلطان سلاجقة الروم ، ورسل الخان بركة إلى أبواب سلطنة المماليك . وهذا كله يؤكد حسن علاقة الظاهر بيبرس بهذه الدول وحكامها ، وما ترتب عليها من آثار فى العلاقات بين مغول فارس ومغول القفجاق .

وسوف نركز فى هذه السطور على الكتب التى أرسلها الخان بركة إلى السلطان ، وقد ورد بها " السلام والشكر وطلب الأنجاد على هلاون " هولاكو " والإعلام بما هو عليه من مخالفة شنكرخان " جنكيز خان " وشريعة أهله ، وأن كل ما فعله من اتلاف النفوس بطريق العدوان منه ، وأنتى قد قمت أنا وأخوتى الأربعة قربة من سائر الجهات لإقامة منارة الإسلام وإعادة مواطن الهدى إلى ما كانت عليه من العمارة ، وذكر الله والآذان والقراءة والصلاة ، وأخذ ثأر الأئمة والأمة " .

ثم التمس الخان بركة من السلطان بيبرس " إنفاذ جماعة من العسكر إلى جهة الفرات لإمساك الطريق على هلاون ، ويوصى على السلطان عز الدين [سلطان سلاجقة الروم] ويستمد مساعدته " (٢٣) .

ويتضح مما سبق عدة أمور أهمها ، أن الحرب كانت قائمة بين مغول فارس ومغول القفجاق ، وأن هناك ترابط وتفاهم واتفاق تام بين زعماء مغول القفجاق المسلمين لمحاربة هولاكو في جميع الجبهات لرفع راية الإسلام . والأمر الثاني هو طلب الخان بركه إقامة تحالف عسكري بين المماليك في مصر والشام ومغول القفجاق يتم بموجبه قيام الجيش المملوكي بقطع الطريق على قوات مغول فارس في جهة الفرات ، وهو الطريق الذي يتقدمون منه لمهاجمة مغول القفجاق . والأمر الثالث هو قيام السلطان بيبرس بالتوسط بين الخان بركه وبين عز الدين الذي يحكم بلاد سلاجقة الروم مع أخيه ركن الدين (٢٤) ، لأن دولة سلاجقة الروم كانت خاضعة للخان هولاكو وبها حاميات من مغول فارس (٢٥) ، وإذا ما أنضم سلاجقة الروم إلى جانب الخان بركه ضد هولاكو يكون ذلك في مصلحة دولة مغول القفجاق ودولة المماليك جميعاً .

وكان أن أكرم السلطان بيبرس سفراء الخان بركه ، وأعادهم ومعهم رسل من قبله محملين بالهدايا . يضاف إلى ذلك أن بيبرس طلب أن يُدعى للخان بركه بعد الدعاء له في مساجد مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، والقدس الشريف . وأرسل السلطان عُمره إلى مكة نيابة عن الخان بركه (٢٦) . وعلى أية حال ، فالعداء بين بيبرس وهولاكو قائم ، والعداء بين الخان بركه وهولاكو قائم ، كما أن الظاهر بيبرس يرجع أصله إلى بلاد القفجاق وهي بلاد الخان بركه (٢٧) .

ولم يلبث الحلف الذي تم بين بركه والظاهر بيبرس إن دخل حيز التنفيذ ، ففي جمادى الأولى من عام ٦٦٢ هـ / مارس ١٢٦٤ م وصل إلى السلطان بيبرس في مصر جماعة من عربان خفاجه ، وذكروا أنهم يغيرون على التار ، وإن غاراتهم تصل إلى أبواب بغداد والبصرة ، كما أخبروا السلطان بأخبار مدينة شيراز ، وقد أكرمهم السلطان وأنعم عليهم (٢٨) .

كذلك اهتم السلطان بيبرس بمعايير الفرات التي تؤدي إلى بلاد الشام ، فطلب من نائب حلب أن يتوجه إلى هذه المناطق حيث نهر الساجور ، ويقيم بمن معه من عسكر حلب ويحفظ معاير الفرات لئلا يعبرها أحد من التتار قاصداً الشام (٢٩) .

واستهدفت سياسة بيبرس تدمير المناطق إلى يلجأ إليها مغول فارس إذا ما قدموا إلى حلب سواء للإغارة أو لشق طريقهم إلى بلاد القفجاق . من ذلك أنه كتب إلى النواب بحلب بإحراق الأعشاب ، كما سير جماعة إلى مدينة آمد ومواضع الأعشاب التي اعتادت قوات مغول فارس نزولها إذا ما وصلوا إلى حلب ، وقد تم إحراق هذه الأعشاب لمسافة مسيرة عشرة أيام إلى أن صارت رماداً ، وتم ذلك أيضاً في أعشاب مدينة خلط (٣٠) .

ومن ناحية أخرى فإن الحرب بين بركة وهولاكو لم تتوقف كما تطالعنا النصوص ، فقد ورد أن قوات بركة انتصرت على قوات هولاكو عدة مرات في البر والبحر (٣١) . ولعل المقصود هنا بكلمة البحر نهر الفرات . وقد أدى ذلك إلى توقف التجارة في تلك المناطق وتعرض العديد من التجار للنهب والقتل . وكان في ذلك فرصة طيبة لدولة المماليك التي تسيطر على مياه شرق البحر المتوسط (٣٤) . ويتضح من ذلك أن تحالف الخان بركة مع الظاهر بيبرس ضد هولاكو قد نجح تماماً ، وأن الخان بركة كان بعيد النظر عندما تحالف مع الدولة المملوكية ، هذا التحالف الذي عاد على المماليك ومغول القفجاق بفوائد كثيرة .

وفي تلك الأثناء ، ظل السلطان الظاهر بيبرس يراقب حركات مغول فارس " محترزاً من مكائدهم ، أخذاً بالحزم في أمورهم ، وقصاده لا تنقطع من بغداد وخلط وغيرهما من بلاد الشرق ... " وكان يبحث بالكشافة - أي الجواسيس - لاستطلاع أمورهم " وأمسك من وسط التتار ناساً أخذ الأخبار منهم ... " (٣٢) .

أما عن العلاقات بين الخان بركة والظاهر بيبرس والإمبراطور ميخائيل فقد ظلت طيبة ، ولكن صفو العلاقات بين الخان والإمبراطور تعكر لبعض الوقت ، وذلك بسبب اعتداء قوات مغول القفجاق على الأرضي البيزنطية . وقد أدى ذلك إلى منع الإمبراطور لرسل الظاهر بيبرس من التوجه إلى بلاد القفجاق مما أثار غضب الظاهر بيبرس ، واعتبر أن الإمبراطور قد نكث بوعوده ، " فأخرج أيمن الأشكري ( الإمبراطور ميخائيل ) وقال قد نكث بإمساك رسلي ومال إلى جهة هولاءكو " ، وأرسل بيبرس إلى الإمبراطور يقول : " إن كان إمساك رسلي فساد حالك مع الملك بركة ، وكون عساكره أفسدت في بلادك ، فأنا أصلح الحال بينك وبينه ، كما كتب إلى خان بركة بذلك أيضًا " (٣٣) .

ويبدو أن السبب الرئيسي لتوتر العلاقات بين الخان والإمبراطور يرجع إلى التقارب الذي تم بين الإمبراطور وهولاءكو ، فقد رأى الأخير أن التحالف مع الإمبراطورية البيزنطية في غاية الأهمية لضرب مغول القفجاق وإيجاد نوع من التوازن السياسي والعسكري في آسيا الصغرى . لذلك أرسل هولاءكو إلى الإمبراطور يطالب بزوجة له بعد موت زوجته النسطورية طقز خاتون (٣٤) . وقد وافق الإمبراطور على طلبه وشرع في إرسال ابنة غير شرعية له هي ماريا Marie ، وقبل أن تصل ماريا إلى بلاط المغول في فارس مات هولاءكو ، فتزوجت من ابنه أبغا ( ١٢٦٥ - ١٢٨١ م ) ، وعرفت في البلاط المغولي باسم دسبينا خاتون Despina Khatun . وقد وجد المسيحيون فيها حامية جديدة للمسيحية بعد رحيل طقز خاتون ، وأجلها المسيحيون والمغول لما اشتهرت به من حب الخير والحكمة (٣٥) .

وفي تلك الأثناء وصل رسل الظاهر بيبرس الذين أوفدهم للتوسط في الصلح بين الخان بركة والإمبراطور ، إلى العاصمة البيزنطية ، وعادوا معهم كتاب من الإمبراطور يتضمن رجوعه عن رأيه في معاداة مغول القفجاق ، وأنه



أقسم على ذلك . ويضيف الإمبراطور أن سبب تأخره في الرد على السلطان هو وفاة الخان بركه . كما طلب استمرار الصلح مع الظاهر بيبرس ، وسأله أيضاً الدخول في الصلح مع أبغا بن هولاكو ، بعد أن أقر الصلح مع بيت بركه . وقد رد الظاهر بيبرس على الإمبراطور بالموافقة على طلب الصلح ، عدا الصلح مع أبغا وقال : "وأما أبغا فماله إلا السيف ، وهو مطلوب منا بئثار المسلمين" (٣٦) .

ويرى البعض أن من أسباب التوتر بين هولاكو والإمبراطور والخان بركه ، ما حدث عام ١٢٦٢م ، ففي أواخر صيف هذا العام تأهب عز الدين سلطان قونية للقدوم لخدمة هولاكو لأن السفراء كان يلحون عليه في ذلك . ولما ضرب عز الدين خيامه خارج مدينة قونية استعداداً للرحيل جاء من يخبره أن أخاه ركن الدين والقائد المغولي في تلك النواحي سوف يقيدونه بالسلاسل ويذهب به إلى ملك الملوك هولاكو . ولما سمع عز الدين خاف وترك خيامه وأخذ أهل بيته واتجه إلى الإمبراطور مينخائيل (٣٧) . ويضيف آخرون أن السبب الرئيسي يرجع إلى أن عز الدين سلطان قونية الذي أقامه هولاكو أرسل رسالة إلى الظاهر بيبرس يذكر فيها أنه تنازل له عن نصف بلاده . وقد وافق الظاهر بيبرس وشرع في تجهيز نجدة للسلطان عز الدين . ثم وصل كتاب آخر من عز الدين إلى الظاهر بيبرس يخبره فيه أن قوات هولاكو علمت بما تم الاتفاق عليه بينه وبين سلطان مصر ، فخاف وولى هارباً (٣٨) .

وإزاء هذا التوتر الذي ساد آسيا الصغرى وأعلى الشام وبلاد القفجاق لم يكن أمام الإمبراطور البيزنطي وهو الدبلوماسي البارع إلا التصرف بسرعة للحفاظ على عرش الإمبراطورية الذي استعاده بقوة السلاح وسط محيط هائل من العداء شمل كل دول المنطقة التي تمتد من بلاد فارس شرقاً حتى أوروبا غرباً . لذلك بدأ الإمبراطور في تغيير سياسته وعمل على مزيد من التقارب مع مغول القفجاق وعرض زواج ابنته من الأمير نوغاي Nogai الوزير الأول في دولة مغول القفجاق وقائد قواتها (٣٩) .



ومما لا شك فيه أن هذا التصرف أغضب هولاء على علاوة غضبه من إيواء الإمبراطور للسلطان عز الدين . ويبدو أن الإمبراطور أراد إرضاء الخان هولاء فعرض عليه الزواج من إحدى بناته فوافق هولاء على ذلك ، ومن الواضح أيضاً أن السلطان عز الدين خاف من غدر الإمبراطور به فأرسل إلى الخان بركة يخبره سرّاً بذلك ، فعرض الخان بركة استضافته فسافر عز الدين متخفياً إليه (٤٠) ، وقد منحه حكم منطقة القرم (٤١) .

والحقيقة أن الإمبراطورية البيزنطية كانت فى وضع حرج للغاية منذ استعادة الإمبراطور ميخائيل لعرش الإمبراطورية . ذلك أنه ظهرت فى غرب أوروبا حركة لاستعادة الإمبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية ، وساند هذه الفكرة البابا أوربان الرابع Urban (١٢٦١ - ١٢٦٤م) الذى وعد فى عام ١٢٦٢م بتقديم عرش صقلية وجنوب إيطاليا إلى شارل أف أنجو Charles of Anjou (١٢٦٦-١٢٨٥م) أخ الملك لويس التاسع Louis IX ملك فرنسا (١٢٢٦ - ١٢٣٠م) . وقد ناصب شارل الإمبراطورية البيزنطية العداوة لإرضاء البابوية التى أخذت تطالب الإمبراطور ميخائيل بتنفيذ وعده وتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية (٤٢) .

وفى الوقت نفسه كان هولاء يسعى للتحالف مع الغرب الأوروبى لضرب دولة المماليك واستعادة القدس ، وفى هذا ما يزعج الظاهر بيبرس . وكان بيبرس يعلم أن البيزنطيين ليس لديهم رغبة فى إتمام مثل هذا التحالف الذى سيعرضهم للخطر . كما أن الغرب الأوروبى نادى بحملة صليبية فى عامى ١٢٦٣ - ١٢٦٤م ضد مغول القفجاق لقيامهم بغزو بولندا . وكان الأرمن والمسيحيون النساطرة يرون أن المغول هم إرادة الله لتدمير القوى الإسلامية ، وقد قام النساطرة الذين كانوا فى دولة مغول فارس بجهود جبارة من أجل إتمام هذا التحالف (٤٣) .

وفى حوالى عام ١٢٦٣م أرسل هولاء أول سفارة إلى البابا ، وكانت هذه السفارة بداية لسلسلة من الاتصالات الدبلوماسية المتبادلة بين خانات فارس

والغرب الأوربي استمرت حوالى أربعين عاماً حتى دخل مغول فارس فى الديانة الإسلامية(٤٤) .

ومما لا شك فيه أن أنباء تقارب الغرب الأوربي مع هولاءكو أزعج منطقة الشرق الأدنى الإسلامى ، خاصة أن المغول اقترحوا هجوماً مغولياً على مصر ، وأنهم سوف يقدمون القدس للصليبيين ، هذا إلى أن تقدم القوات الصليبية كان فيه إزعاج كبير للإمبراطورية البيزنطية التى باتت تخشى على نفسها تكرار الحملة الصليبية الرابعة . ومع موت الخان هولاءكو فى عام ١٢٦٥م ، والخان بركه فى العام التالى ١٢٦٦م ، ظهر شبه تحالف بين مغول القفجاق ودولة المماليك والإمبراطورية البيزنطية من جانب ضد خانات فارس والإمارات الصليبية والغرب الأوربي من جانب الآخر ، رغم التصاهر الذى تم بين الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن وبين أبغا خان مغول فارس .

أما عن التحالف الثلاثى فقد استهدف شق صفوف الغرب الغرب الأوربي بعامة وبين جنوة والبندقية بخاصة ، حتى لا يدخل التحالف بين أوربا وبين مغول فارس حيز التنفيذ ، لأن هذا التحالف سوف يدخل منطقة الشرق الأدنى فى صراع يعود بالضرر على الأطراف كلها . وخطط ميخائيل باليولوج لضرب الترابط الأوربي رغم أنه كان واهياً ، عن طريق بذر الشقاق بين جنوة والبندقية ، فى ضوء ما كان بينهما من صراع قديم ومتكرر ، خاصة أن هذا الصراع قد تجدد فى عام ١٢٦٥م فى مدينة عكا الصليبية ، وهى الحرب المعروفة باسم حرب القديس سابا Saint sabas وقد استمرت هذه الحرب لأكثر من خمس سنوات هزم خلالها الجنوية فى معركة بحرية عام ١٢٥٨م ، ولم يتم الصلح بينهما رغم توسط البابوية حتى عام ١٢٦١م(٤٥) .

وقد استغل الإمبراطور هذه الفرصة ، ووجد أن البندقية تعتبر دعامة قوية للصليبيين ، وأنها هى التى قادت الحملة الصليبية الرابعة وأسقطت الإمبراطورية ،

لذلك بدأ فى التقرب إلى دولة جنوة المنافسة الأولى لدولة البندقية ، وعقد معها معاهدة فى الثالث عشر من مارس ١٢٦١م عرفت باسم معاهدة نيمفايون Nymphaion نسبة إلى المنتجع الذى كان الإمبراطور يقضى فيه فصل الشتاء . وبموجب هذه المعاهدة تم التحالف بين جنوة وبيزنطة ضد البندقية ، ووضعت جنوة خمسين سفينة تحت تصرف الإمبراطورية لمقاومة سفن البندقية ، كما منحت جنوة كل الامتيازات التجارية التى كانت ممنوحة للبنادقة من قبل ، وأصبح للتجار الجنوبيين حق التجارة المعفاة من الضرائب فى كل موانئ الإمبراطورية وفى البحر الأسود أيضاً . وقد تعاملت جنوة بالذات فى تجارة الرقيق والسلع الأخرى مع مصر ومغول القفجاق (٤٦) .

ورغم المتاعب اللاحقة لهذه الاتفاقية بين البنادقة والإمبراطور ميخائيل الذى اتهم البنادقة بالتآمر عليه مع ما نفرد Manfred ملك صقلية وجنوب إيطاليا ١٢٥٨ - ١٢٦٦م ، فإن سفن الجنوبيين عززت وجودها فى البحر الأسود . وسارت هذه السفن بصفة دائمة عبر مضيق البسفور والدردنيل لتصل إلى موانئ الشام ومصر . ومن خلال هذا الاتصال فإن ثروة مغول القفجاق ازدهرت رغم محاصرة مغول فارس للطريق البرى . ويتضح من ذلك أن هذا الاتصال التجارى لم يكن يتم طالما بقيت القسطنطينية فى أيدي اللاتين (٤٧) .

ولم يسلم مغول فارس من تهديد أعدائهم المنافسين ، فقد استمرت الحرب بين مغول فارس ومغول القفجاق بعد موت هولاكو عام ١٢٦٥م والخان بركه عام ١٢٦٦م . ورغم أن مغول فارس نجحوا فى الحفاظ على أراضيهم إلا أنهم لم يتمكنوا من التوسع بعد ذلك فى جهة الغرب بعامة ، كما أنهم فشلوا تماماً فى السيطرة على بلاد الشام بخاصة .

والواقع أن مغول فارس كانوا يحاربون على جبهتين ، جبهة مغول القفجاق وجبهة بلاد الشام . وكان خانات مغول فارس يأملون فى التحالف مع الغرب

الأوربي ولذا وأطلقوا العديد من السفارات إلى الباباوية وإلى حكام أوروبا من أجل إقامة هذا التحالف . ولكن أوروبا التي كانت متمثلة في إنجلترا وفرنسا بعد ضعف الإمبراطورية الرومانية المقدسة بوفاة الإمبراطور فريديريك الثاني Fredrick II عام ١٢٥٠م كانت تهتم بمشاكلها الداخلية أكثر من الاهتمام أكثر بالقضية الصليبية والتحالف مع المغول . هذا إلى أن أوروبا لم تنس هجوم المغول الوحشي عليها وكانت تخاف من تقدم المغول مرة أخرى . يضاف إلى ذلك أن أوروبا سبق إن توهمت أن مغول فارس سوف يتحولون إلى الديانة المسيحية ولكن هذا لم يحدث .

ومن جانب آخر تطلع شارل أف أنجو إلى قيادة حملة صليبية ضد القسطنطينية وإسقاط الإمبراطورية البيزنطية مرة أخرى . لذلك لم يكن لدى شارل النية في الصراع مع الظاهر بيبرس أو مهاجمة أملاكه في مصر أو الشام . ويرى البعض أن شارل أقنع أخاه الملك لويس التاسع بأن يتوجه بحملته الصليبية إلى تونس في عام ١٢٧٠م ، وليس إلى مصر كما حدث في عام ١٢٥٠م .

وكان للإمبراطور ميخائيل باليولوج أهمية عظمى في الصراع الذي دار بين مغول فارس ومغول الفجاق ، فقد كان كل ما يعنيه هو استمراره على عرش الإمبراطورية ، كما إن الإمبراطورية لم تنس ما فعله الغرب الأوربي عندما أسقطوا الإمبراطورية عام ١٢٠٤م ، ولذا فإنه كان عدوا لدودا للغرب الأوربي ، وكان ذلك كافيا للظاهر بيبرس ، كما أن تحالف الإمبراطور مع مغول القفجاق كان سندا قويا له .

وحقيقة الأمر أن مغول فارس كان بوسعهم الانتقام لهزيمتهم في معركة عين جالوت والانتصار على دولة المماليك الناشئة في مصر ، وذلك إذا كانت دولة المغول قد استمرت موحدة ، وإذا كانت الحكومة اللاتينية قد استمرت مسيطرة على القسطنطينية . ولكن طرد الإمبراطور اللاتيني بلدوين الثاني Baldwin II عام

١٢٦١م سهل كثيراً من مهمة السلطان بيبرس فى الدفاع عن الشام ومصر ضد مغول فارس .

\* \* \*

وفى ختام هذا البحث يود الباحث أن يؤكد حقيقة تاريخيه ، وهى إن المعارك لا تقاس بوقائعها وإنما تقاس بنتائجها . لقد كانت معركة عين جالوت صغيرة فى أحداثها ولكنها كبيرة فى نتائجها على إمبراطورية المغول بعامة وخانات مغول فارس ومغول القفجاق بخاصة ، وعلى دولة الكرج وأرمينية وسلاجقة الروم والإمبراطورية البيزنطية ، ثم على الدولة المملوكية وعلى شمال أفريقية حيث قامت الدولة الحفصية فى تونس . وتطالعنا المصادر الأراجونية بأن السفارات تبودلت بين مغول فارس والملك جيمس الثانى James II ملك أراجون (١٢١٣ - ١٢٧٦م) وأن أسطول أرغوان أبحر إلى الشرق فى ما يشبه حملة صليبية للتحالف مع المغول ومحاربة المسلمين(٤٨) .

وهكذا يبدو فى ضوء النصوص أن معركة عين جالوت كانت لها نتائج على دول حوض البحر المتوسط بأكمله ، بل أنها ربما تجاوزت ذلك إلى عمق أوروبا الشرقية والغربية .

## الهوامش

- (١) الهمداني ، رشيد الدين : جامع التواريخ - دار النهضة العربية - لبنان - ١٩٨٣ ، ص ١٥٠ - ١٥٢ .
- (٢) ابن العبري : تاريخ الزمان - دار المشرق - بيروت - ١٩٨٦ - ص ٣١٦ .
- (٣) أبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر - ٤ أجزاء - بيروت ( د.ت ) ج ٣ ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .
- (٤) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص ١٣٧ .
- (٥) أبو الفدا : المصدر السابق - ج ٣ ، ص ٢٠٥ .
- (6) Sambat, La Chronique, Paris 1980, p.106.
- (٧) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص ١٣٧ .
- (٨) أبو الفدا : المصدر السابق - ج ٣ - ص ٢٠٥ ، ابن العبري : المصدر السابق ، ص ٣١٧ ، ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص ٦٦ .
- (٩) الهمداني : المصدر السابق - ص ١٦ ، ٩٦ ، ١٣٥ ، ١٦٠ ، ٢٥٢ .
- (10) John Kinamos, Deeds of John and Manuel Comnenus, New York. 1976, p.65, Marco Polo, The Travels, Penguin, p.335 .
- (١١) قسطنطين برونيروجيتوس . إدارة الإمبراطورية البيزنطية ، ترجمة محمود سعيد عمران - دار النهضة العربية - بيروت - ١٩٨٠ ، ص ٥٣ - ٥٥ .
- أبو الفدا : المصدر السابق - ج ٣ ، ص ١٢٨ ، العيني : عقد الجمان - دولة سلاطين المماليك ، ص ٧٦ - ابن سباط ، تاريخ ابن سباط - طرابلس ١٩٩٣ - ج ٢ ، ص ٢٧٦ ، ص ٥٨٥ .
- الهمداني : المصدر السابق ، ص ٢٨ ، ٣٢ .
- (١٢) العيني : المصدر السابق - ص ١٠٨ - ١٠٩ .
- (١٣) أبو الحسن : المصدر السابق - ج ٢ - ص ٢٢٢ .
- (١٤) الهمداني : المصدر السابق - ص ١٢٥ ، بيروت المنصوري : التحفة المملوكية - الدار المصرية اللبنانية ١٩٨٧ - ص ٣٦ .
- (١٥) أبو الفدا : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٩٢ - ١٩٣ .



- (١٦) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص ١٣٧ .
- (١٧) العيني : المصدر السابق - ص ٩٠ - ٩١ .
- (١٨) العيني : المصدر السابق ص ٣٦٠ .
- (١٩) ابن العبري : المصدر السابق - ص ٣١٥ - ٣٢٥ .
- (٢٠) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص ٨٨ .
- (٢١) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص ١٢٩ .
- (٢٢) أبو المحاسن : المصدر السابق - ج ٧ - ص ٢٢٢ .
- (٢٣) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص ١٧٠ - ١٧١ .
- (٢٤) أبو المحاسن : المصادر السابق - ج ٧ - ص ٢٠٠ - ٢٠١ .
- (٢٥) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص ١٩٢ .
- (٢٦) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص ١٧٤ .
- (٢٧) أبو المحاسن : المصدر السابق - ج ٧ - ص ٩٤ .
- (٢٨) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص ١٩٤ .
- (٢٩) أبو المحاسن : المصدر السابق - ص ١٩٤ .
- (٣٠) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص ١٣٦ .
- (٣١) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص ١٤٩ .
- (32) Sanuders, Muslim and Mongols, Canterbury 1977, p.73.
- (٣٣) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص ١٩٥ - ١٩٦ .
- (٣٤) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .
- (٣٥) ابن العبري : المصدر السابق - ص ٣١٤ - ٣١٥ - محمود سعيد عمران - المغول وأوروبا - دار المعرفة الجامعية ١٩٩٦ - ص ٦٥ .
- (٣٦) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .
- (٣٧) ابن العبري : المصدر السابق - ص ٣٢٢ .
- (٣٨) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص ١٢٥ - ١٢٨ .
- (39) Saunders, op. cit., p.73 .
- (٤٠) ابن العبري : المصدر السابق - ص ٣٢٤ .

- (٤١) الحمداني : المصدر السابق - ص ٢٠٠ .
- (42) Runciman, The Sicilian Vespers, Cambridge, 1958, pp. 68-9, 138-40
- (٤٣) محمود سعيد عمران : المرجع السابق - ص ٢٣٠ وما بعدها .
- (٤٤) محمود سعيد عمران : المرجع السابق - ص ٢٥٥ وما بعدها .
- (45) Saunders, op. cit., p. 74 .
- (46) Nicol, Donald. The last Centuries of Byzantium 1261 - 1453, London 1972, p.38 .
- (47) Saunders, op. cit., pp. 74 - 5 .
- (48) James of Aragon, The Chronicle, London 1883, II, pp. 578 ff

# حياة التسلية والترفيه في المجتمع الأندلسي

د . سعد عبد الله البشري\*

دراسة الحياة الاجتماعية في أى قطر من أقطار الدولة الإسلامية من الدراسات التى ينبغى العناية بها وتسلط الضوء على جوانبها المختلفة ، إذ فيها ما يعين على كشف الكثير من الجوانب الخفية والنواحي الغامضة فى التاريخ الإسلامى ، ويقدم تفسيرات مهمة لعدد كبير من وقائع وأحداث التاريخ . وانطلاقاً من هذه الحقيقة رغبت فى دراسة جانب مهم من جوانب الحياة الاجتماعية فى الأندلس ، هو ما يتصل بحياة التسلية والترفيه فى المجتمع الأندلسي ، وركزت فى هذا البحث على ما يتعلق بوسائل التسلية التى كان يمارسها الأندلسيون ويجدون فيها المتعة والترويح عن النفس . وكان اهتمام الباحث منصباً أكثر على ألوان الألعاب والرياضيات المسلية وبعض الوسائل الأخرى البريئة . ولم نتعرض خلال البحث إلى وسائل أخرى ندرك أنها اتصفت بشئ من ألوان المجون أو الابتذال ، مثل مجالس الطرب والغناء . ونرجو من خلال هذه الدراسة المتواضعة أن نكون قد ألقينا بعض الضوء على جانب له أهميته فى تاريخ المجتمع الأندلسي والكشف عن بعض جوانبه التى تلامس مشاعر الناس وتمس أحاسيسهم ، وكما أن هناك تاريخ لآلامهم فهناك صفحات باسمه فى حياتهم .

## الألعاب :

عرف الأندلسيون فى تاريخهم عدداً من الألعاب التى مارسوها بقصد التسلية والترويح عن النفس ، وكان البعض يمارس لعبة أو ألعاباً مختلفة بدافع الارتزاق والحصول على المال .

---

\* أستاذ مشارك التاريخ الإسلامى - جامعة أم القرى .

وتجدر الإشارة إلى تنوع الألعاب ، فمنها ما يمكن أن نطلق عليه : الألعاب الرياضية كسباق الخيل ، والرماية ، ورياضة الصيد والقنص ، ومصارعة الثيران . ويلحق بذلك لاعبو الحركات الغربية أو ما عرف عند الأندلسيين بـ (العجائبي)، وهو ما يعرف اليوم بالبهلوان ، الذى يقوم بألعاب تتطلب المهارة فى الحركة وإثارة إعجاب النظارة . وهناك أنواع من الألعاب الأخرى كلعبة خيال الظل ، ولعبة الشطرنج وغيرهما . ومن أنواع الألعاب ما يستخدم فيه الحيوان ، كمصارعة الإنسان للحيوان ، أو صراع الحيوانات بعضها مع بعض ، أو استخدام الحيوان لتأدية حركات معينة كألعاب القرادين .

أما عن ألعاب الرياضة والفروسية فإن هذا اللون من الألعاب حظى بعناية واهتمام الأندلسيين . وليس هذا بدعاً فى سلوكهم وعاداتهم وتقاليدهم فقد ورثوا الولع بهذا الصنف من الألعاب عن آبائهم وأجدادهم ، إذ هى من الرياضات التى شغف بها العرب منذ جاهليتهم<sup>(١)</sup> وزادها الإسلام عناية ، لما فى ذلك من مظاهر الشجاعة والرجولة والفروسية . فسباق الخيل لون من ألوان الفروسية نال عناية الأندلسيين وولعوا به حكماً ورعايا ، فكانت رياضة سباق الخيل من الرياضات التى يشاهدها أمراء بنى أمية ويشجعون الناس على ممارستها ، ويغدقون الجوائز على الفائزين فى حلبات السباق . كما كان يصاحب هذه السباقات عروض أخرى من رياضيات الفروسية كاللعب بالسيوف والرماح . وكان يوم المهرجان الذى يحتفل به الأندلسيون ، من الأيام التى تشهد سباق الخيل بصورة واسعة . وقد تحدث عنها الشعراء<sup>(٢)</sup> ومما عمق الاهتمام بهذه الرياضة روح الجهاد ومجابهة مخاطر القوى النصرانية فى شمال الأندلس وحماسة المسلمين إلى النفير وتلبية داعى الجهاد ، ولا يتم ذلك إلا لمن توفرت فيه مؤهلات الفروسية والقدرة البارعة على الكرّ والفرّ .

وكان أهل الحسبة والمشتغلون بالتأديب يعمدون إلى تشجيع الناس على تعلم الرماية ، والسباحة ، وألعاب الفروسية ، وذلك بدلاً من ممارسة غير النافع من ألوان اللهو (٣) .

وكان الخليفة الحكم المستنصر ( ٣٥٠ - ٣٦٦ هـ / ٩٦١ - ٩٧٦ م ) حريصاً على مشاهدة ألعاب الفروسية وسباق الخيل ( حتى لظل أيام علقته ... يتطلع على فرسان البرابر إذا تحركوا للعب ، شاخصاً إليهم معجباً بهم ويقول لمن حوله : انظروا إلى انطباع هؤلاء القوم على خيلوهم فكأفهم الذين عناهم الشاعر بقوله :

فكأنما ولدت قياماً تحتهم      وكأنهم ولِدُوا على صهواتها  
ما أعجب انقيادها لهم . كأنها تفهم كلامهم ... (٤) .

يذكر ابن عذارى أن الناس في قرطبة كانوا يخرجون لرؤية العساكر المتأهبة للغزو ، وحدث أن خرج الناس رجالاً ونساءً وأخذت طائفة من الناس تحاكي صفى القتال و تمثل أسلوب الكر والفر فى القتال (٥) . ويبدو أن هذه الظاهرة كانت معروفة لدى الأندلسيين وكانوا يمارسونها من باب الإعجاب بالفروسية وفنون القتال .

كذلك كان الموحدون يمارسون ألعاب الفروسية على ظهور الخيل . ويصف ابن صاحب الصلاة إحدى احتفالاتهم التى شارك فيها الخليفة يعقوب المنصور سنة ٥٦١ هـ / ١١٦٥ م فيقول ( وتجاولت الخيل من فرسان العساكر بالجرى واللعب والدفاع بالحمالات والكرات ، والطبول تضرب من ضحوة النهار إلى أذان الظهر من اليوم المذكور ، حتى حمل الأمير بنفسه فى تلك الوقعات سروراً فأظهر من ركوبه وفروسيته أمراً عجيباً ) (٦) .

وعندما قدمت جموع العرب من أفريقية للانضمام لجيوش الموحدين على عهد الخليفة أبى يعقوب المنصور ، وذلك فى ربيع الثانى ٥٦٦ هـ ١١٧٠ م أعد لهم استقبالا حافلا . وللتعبير عن سروره بقدمهم طلب من عساكر العرب وعساكر الموحدين أن يحمل بعضهم على بعض ( جريًا ولعبًا وفرحًا وطربًا . ورأى الحاضرون والنظار منهم عجبًا ودام ذلك اللعب والطرب ، والطبول تضرب إلى أن مضى أكثر النهار ) (٧) .

وقد عرفت هذه الألعاب والسباقات وإظهار فنون الفروسية بحملات الخيل ، ولا تزال تجرى فى بلاد المغرب إلى يومنا هذا ، وخاصة عند الأفراح والمواسم (٨) .

وأولى بنونصر ملوك غرناطة عنايتهم هذا الجانب ، وكانوا أنفسهم يمارسون سباق الخيل ، وألعاب الفروسية . وقد أثنى ابن الخطيب على السلطان محمد بن إسماعيل بن فرج ٧٢٥ - ٧٣٣ هـ فوصفه بقوله : ( جلس ظهور الخيل ، أفرس من جال على صهوة ، لا تقع العين - وإن غصت الميادين - على أدرب بركض الجياد منه مغرمًا بالصيد ، عارفًا بسمات الشفار وشيات الخيل ... ) (٩) .

وكان السلطان النصرى محمد الخامس ( ٧٥٥ - ٧٩٢ هـ ) ممن شغف بالجياد وسباقها . وكان يشهد حفلات السباق ، ويحتفى بالفائزين فيه ، وفى ذلك يقول وزيره أبو عبد الله بن زمرك :

لك الجياد إذا تجرى سوابقها      فللرياح جياد ما تجاريها  
إذا انبرت يوم سبق فى أعتها      ترى الروق طلاحًا لا تباريها (١٠)

وبلغ من اهتمام بنى نصر ورعاياهم بألعاب الفروسية وسباق الخيل أن جيرانهم من رعايا مملكتى أرغون وقشتالة كانوا يقصدون غرناطة للمشاركة فى ألعاب الفروسية (١١) .



واشتهر من رجال الدولة النصرية بالفروسية وألعابها المختلفة كإجادة الرماية والمبارزة : محمد بن أحمد بن قطبة الدوسى الذى وصفه ابن الخطيب - وكان أحد أصحابه - فقال : ( ومناقبه يقصر عنها الكثير من أبناء جنسه ، كالفروسية والتجند والبسالة والرماية والسباحة والشطرنج ، متحمداً بحمل القنا مع البراعة ... ) (١٢) .

ومن وسائل الترويح والتسلية [ الصيد ] ، وهو من ألوان الرياضات التى عرفها العرب قديماً . ولما دخلوا الأندلس ورأوا ما بها من ألوان الحيوانات والطيور، زاد شغفهم بالصيد والقنص . وكان نهر الوادى الكبير الذى يقع عليه عدد من المدن الأندلسية منها قرطبة وأشبيلية ، من المواضع التى يخرج إليها الناس للنزهة والصيد .

وكان الصيد يتم بوسيلتين : ( الأولى ) بالبزاة ( جمع بازى ) والجوارح ويعرف البيزرة ويسمى صاحبها : بازياً . و ( الثانية ) بالكلاب والفهود ويسمى صاحبها : الكلاب والفهاد (١٣) .

وقد أعطى حكام وأمراء الدولة الأموية فى الأندلس هذه الرياضة المثيرة الكثير من اهتمامهم ، حتى أنهم خصصوا فى دولتهم خطة للبيزرة ، يتولاها بعض كبار رجال الدولة كالحاجب بدر بن أحمد وفطيس بن أصبع ، والفتى خوذى الصقلبي (١٤) وكان أشهر من تولاها على عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر نجم بن طرفه (١٥) .

ونظراً لما كانت تحظى به هذه الرياضة المسلمية من اهتمام بنى أمية وشيوع ممارستها بين الأهالى ، قال الناس عن الأمير هشام الرضا عندما أصلح قنطرة قرطبة، وبالع فى ذلك : ( إنما بناها لتصيده ونزهته ) فحلف حين بلغه ذلك ألا يجوز عليها إلا لغزو أو مصلحة (١٦) .

ولم تكن هذه الرياضة حكرًا على الحكام فقط ، فهذا مطروح بن سليمان الأعرابي أحد الثائرين على الأمير هشام الرضا ، كان مولعًا بالصيد ، وقد لقي حتفه غدرًا في إحدى متصيداته (١٧) .

وكان الملوك والأعيان يدرّبون صقورهم وجوارحهم على الصيد فى نواحي أشبونة ، وجبال شرق الأندلس وجزر البليار . وكان المستولون عن الصيد بالبزاة والصقور والجوارح يولون مواسم الصيد اهتمامهم ، حيث تكثر فيها أنواع الطيور ومنها الغرائيق فى الوادى الكبير (١٨) ويبدو أن نهر الوادى الكبير كان من المواطن المفضلة لصيد أنواع الطيور والحيوانات ، وكان من الأماكن التى يخرج إليها الناس خاصة وعامة للنزهة والتصيد (١٩) .

ومن الطريف أن نشير إلى أن من أنواع الحيوان الذى شغف الناس بصيده حيوان ( السمور ) الذى يستخدم وبره فى الفراء الفاخر . ويذكر أحد الأطباء أنه حيوان يكون فى بحر الروم ولا يحتاج منه إلا إلى خصاه فيؤخذ وتقطع ويطلق (٢٠) .

وفى مقامة للوزير أبى حفص عمر بن شهيد ( حيًا فى سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م ) يشير إلى حياة الصيد والطراد فيقول : " ثم رحلنا وتذكرنا الطراد فمشيت الجياد ، وتوالت آساد ، واستعدّ بياز وكلاب فإذا بحر من بركٍ يخرقه سفين من بُرك (١٢) ، وفى السيور صقور إذا نظرت . وليوث إذا جُرّدت . تنظر من أمثال الدنانير ، وتتخطف بأشبه المرفهة الذكور ، فأرسلناها إرسال سهام الأحداق إلى قلوب العشاق ، فلم نر إلا ريشًا مخلوجًا . ومنسرًا يُحسن توديجًا (٢٢) " .

ونجد نصوصًا متفرقة عن الصيد بالجوارح والحيوانات فى عصر ملوك الطوائف ، إذ كان هؤلاء ممن ولعوا بهذه الرياضة المسلية . وكان ولاتهم وعماهم يتقربون إليهم بإهداء أنواع متميزة من الصقور والجوارح ، وبعض الحيوانات المدربة على الصيد . وفى أحيان أخرى يمنحها الحكام أو الملوك رجالاتهم

وأعوانهم . من ذلك إهداء ابن طاهر أمير مرسية المنصور بن محمد بن أبى عامر  
ملك بلنسية بعض الصقور المدربة وإهداء ابن المرغوى الأشبيلي للملك المعتمد بن  
عباد كلبة صيد وصفها فى شعر بقوله :

لم أر ملهى لذى اقتناص	ومكسباً مقنع الحريص
كمثل خطار ذات جيد	أطلع فى صفرة القميص
كالقوس فى شكلها ولكن	تنفذ كالسهم للقنيص
إن تخذت أنفها دليلاً	دل على الكامن العويص (٢٣)

وللشاعر الأديب أبى العباس ابن حمدىن القرطبى المتوفى ( ٥٢١هـ /  
١١٢٧م ) وصف ممتع لأحد كلاب الصيد ومنها ما أورده شعراً حيث يقول :

إذا عدا واشتد فى طلابه	يكاد يخرج من إهابه
متقدًا كالنار فى التهابه	لا يطعن الصيد بغير نابه (٢٤)

ومن الآثار التى تدل على الولع بحياة الصيد بالحيوانات كالفهود فى القرن  
السادس الهجرى ، ما نجده منقوشاً على علبة محفوظة بمجموعة أو كتافيو ،  
هو مبرج ، ويمثل النقش فارساً يركب خلفه فهد (٢٥) . وكان محمد بن عبد الملك  
ابن سعيد المتوفى ( ٥٨٩هـ / ١١٩٣م ) إذا ركب فى الصباح الباكر للصيد من  
داره الواقعة بجوار جامع غرناطة ، شوش على المصلين صلاتهم بأصوات دوى  
الجلجل بالبزاة ، ومناداة الصيادين ، ونباح الكلاب (٢٦) .

ولم تنقطع هواية الصيد فى القرون التالية ، فقد مارسها سلاطين بنى الأحمر  
ملوك غرناطة ، واشتهر منهم بذلك : السلطان محمد الرابع والسلطان محمد  
الخامس . وقد احتفظت الكتب التى أرخت لهم بمقطوعات شعرية تتضمن الإشارة  
إلى ذلك (٢٧) .

وكانت الحيوانات البرية كثيرة فى جبال شلير ، ومنها الدببة والغزلان ، إلى جانب ما حفلت به المناطق الغرناطية بأنواع الطيور والحجلان والبط والدراج والحمام البرى ، وكانوا يستخدمون لاصطيادها طيور الباز التى لقيت عناية واهتمام الغرناطيين (٢٨) .

وتجدر الإشارة إلى أن من بين كثير من القطع الأثرية التى حفظت من الضياع ، والتى تعود إلى تاريخ مسلمى الأندلس ، ما يحمل فى زخرفته ونقوشه ورسومه ما يدل على ولع الأندلسيين بالصيد ، سواء كان صيد الحيوانات كالغزلان والأيل أو صيد أنواع الطيور المختلفة (٢٩) .

### المصارعة - والمبارزة - الصولجان - الكرة :

ومن الألعاب الرياضية التى مارسها الأندلسيون المصارعة والمبارزة ، وتوضح لنا بعض التحف الأندلسية التى سلمت من الضياع ، - ومنها علبة المغيرة بمتحف اللوفر - ما لقيته رياضة المصارعة من اهتمام ، إذ يصور نقشها مصارعين يمسك أحدهما بالآخر ويحاول أن يطرحه أرضاً . وفى تحفة فنية أخرى تنسب لعبد الملك بن المنصور العامرى ثلاثة نقوش ، ثلاث صور ، فى الأولى رجلان يركبان فيلين بينهما شجرة ، وقد تسلحا بترس وسيف ، وفى النقش الثانى يبدو فارسان يحاول أحدهما طعن آخر برمح الطويل فيتلقاه الثانى بدرعه ويهم بطعنه بسيفه ، وفى النقش الثالث صورة فارسين يستعدان للمبارزة (٣٠) .

وكان كثير من الناس - وليس الأمر وقفاً على الفرسان وحدهم - يلعبون بالسيوف والرماح ، ويمارسون لعبة المبارزة والطعن بالرماح ، وما أشرنا إليه من الرسومات والنقوش فيه ما يؤكد ذلك .

كذلك من أنواع الرياضات المسلية التى عرفها الأندلسيون ( لعبة الصولجان ) ، وهى رياضة تمارس من فوق صهوات الخيل . وقد نقلها العرب عن

الفرس . والصولجان اسم العصا التي يُلعب بها ، هي المضرب التي تضرب بها الكرة ، وفي نهايتها ما يشبه رأس المطرقة مصنوع من الخشب . والكرة التي تستخدم في رياضة الصولجة كانت بحجم البرتقالة وتصنع من الجلد المضغوط ، ويتدافعها اللاعبون بمضاربهم وهم فوق خيولهم لإدخالها المرمى ، وهو عبارة عن قائمين بينهما مسافة هي سعة المرمى (٣١) .

ومن مارس هذه الرياضة في الأندلس الأمير الحكم بن هشام ( ١٨٠ - ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ - ٨٢١ م ) إذ كان يلعبها مع رجاله داخل قصره ، ولم تكن القلاقل التي اندلعت في عهده تمنعه عن ممارسة هواياته ورياضته المسلية (٣٢) .

وما من شك في أن هذه الرياضة كانت من الرياضات المفضلة عند حكام وأعيان الأندلس ، فهي من الرياضات الملوكية التي لقيت إقبالا واسعا لدى هذه الفئة من المجتمع . ومما يشير إلى ممارسة الأندلسيين لهذه اللعبة ( الصولجان ) قول الشاعر أبي الحسن علي بن إبراهيم بن الزقاق ( ت قريبا من ٥٣٠ / ١١٣٥ م ) .

يخنيه طول ضرابه هام الغدى      حتى يُرى بيديه منه صولج (٣٣)

وقول الشاعر عبد الوهاب بن أحمد بن حزم ( ت ٤٣٨ هـ )

لما رأيت الهلال منطويا      في غرة الفجر قارن الزهرة

شبهته والعيان يشهد لي      بصولجان أوفى لضرب كرة (٣٤)

ومن بين الألعاب التي عرفت عند الأندلسيين ومارسوها ( لعبة المخراق ) وهي من ألعاب الصبيان . يقول ابن مقانا الأشبوني (٣٥) مادحا ابن حمود الإدريسي صاحب مآلقه في مطلع القرن الخامس الهجري :

البرق لائح من أندرين      ذرفت عيناك بالماء المعين

لعبت أسيفه عارية      كمخاريق بأيدي لاعبين (٣٦)

والمخاريق جمع مخراق وهو ما تلعب به الصبيان من الخرق المفتولة .  
والمخراق منديل أو نحوه يلوى فيضرب به ، أو هو ثوب يُلفّ ويضرب به الصبيان  
بعضهم بعضاً (٣٧) .

ونجد إشارة لطيفة لدى أحد الأطباء الأندلسيين ، ينصح فيها بممارسة  
الرياضة ثم يقول : ( وأحمد الرياضة اللعب بالكرة الصغيرة وهو آمنها ) (٣٨) فهل  
عرف الأندلسيون اللعب بالكرة سواء كان ذلك اللعب يتم بالأيدى أو الأرجل ؟  
إننا لا نستطيع الجزم بذلك مع أن أحد المشتغلين بالرياضة فى عصرنا الحاضر أمدا  
من خلال أحد كتبه بصورة تمثل أندلسياً يلعب الكرة ويتبادل لقفها (٣٩) بيديه .  
ولا نستبعد ذلك لأن العرب - حتى فى فترة مبكرة من تاريخهم فى الإسلام -  
عرفوا الكرة وهذه الشاعرة ليلى الأخيلىة فى النصف الأول من القرن الأول  
الهجرى تصف قطاة تدلت على فراخها فتقول :

تدلت على حصّ ظمء كأنها كرات غلام فى كساءٍ مؤرنب

فهى تشبه القطاة بالكرة التى كُست بكساء من جلد الأرنب .

ويذكر ابن منظور ( ت ٧١١ هـ / ١٣١١ م ) فى كتابه " نثر الأزهار " أن  
الدبوق كرة شَعْرية ترمى فى الهواء ، ثم يتلقاها الغلام ضارباً لها تارة . بصدر  
قدمه ، وتارة بالصفح الأيمن من ساقه اليمنى ، راداً إياها إلى العلو على الدوام (٤٠) .

أما لعبة الشطرنج فكانت (٤١) من الألعاب التى شغل بها الكثير من رؤساء  
ووجهاء الأندلس . ومن هؤلاء عدد كبير من الأمراء الأمويين وخاصتهم من  
الوزراء والقادة . فمن اشتهر بلعبها والتهمم بها الأمير الأموى محمد بن عبد  
الرحمن بن الحكم ( ٢٣٨ - ٣٠٠ هـ / ٨٥٢ - ٩١٢ م ) . ويذكر ابن حيان أن  
أحد فتيان الأمير ويدعى أيدون كان ماهراً فى لعبة الشطرنج ، وأنه غلب فى ذلك  
الأمير وعدداً من أصحابه ، ثم انبرى له أصحاب الأمير ويدعى تمام بن عامر ،



وكان الأمير قد أقصاه عن مجلسه بسبب خلاف ، فتمكن تمام من التغلب على أيدون في جولات متعددة ، فسُرَّ بهذا الأمير وأدناه ووصله وأعادته إلى مجالسته . وذاعت هذه القصة بين الناس فسارع الكثير من الفتيان والأدباء إلى تعلم الشطرنج، بغية الوصول إلى ما وصل إليه تمام . وكان من أولئك المتطلعين إلى الجاه والنفوذ ابن أخت الشاعر يحيى الغزال ، فعاب عليه خاله انشغاله ولهوه بالشطرنج وقال :

عمل في غير برٍّ	واختلاف ولزوم
إنما أسسها ويحـ	ك شيطان رجيم
هبك فيها ألعب النـ	أس فماذا يا حكيم ؟
لعبة الشطرنج شؤم	فاجتنبها يا شؤوم
فليقل ماشاء من شاء	فقولى مستقيم
إنما جاءت بمهر	واحد وهو وخيم
والذى ينزى عليها اليـ	وم من يُنزى عقيم
وسيلو صدق مافسرت	فيها من يروم
إنما هي لأناس	شأنهم شأن عظيم
ملك يجبى إليه	أو وزير أو نديم
أو رجال ورثوا الأمـ	حوال للدهر سلوم
فادكر ما بيد القا	ثم عنها إذ يقوم
هل سوى شئ يسير	من سرور لا يدوم
فإذا ما أبلغ البيـ	ت فمسحور ملوم (٤٢)

ويتضح من خلال الأبيات السابقة أن لعبة الشطرنج كانت فى الغالب لعبة الخاصة ، إذ أن العكوف عليها والاشتغال بها فيه ملهاة عن شئون الحياة الأخرى . ولا يستغرق فى لعبها إلا علية القوم وأثرياء المجتمع ، الذين يزجون أوقات فراغهم بمثل هذا اللعبة وغيرها من الألعاب . ولهذا فاشتغال العامة بها ضرب من الغباء ، لأنهم أحوج إلى الوقت المضاع .

وكان لبعض الفقهاء موقفهم الحازم من هذه اللعبة ، حتى ألف أحدهم وهو الفقيه محمد بن الفخار المالقي ت ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م كتاباً فى تحريم الشطرنج هو ( استواء النهج فى تحريم اللعب بالشطرنج ) (٤٣) .

وعلى الرغم من ذم هذه اللعبة لما يترتب عليها من ضياع الوقت وتضييع المصالح والاشتغال عما ينفع المرء ، إلا أننا نجد هناك فئة من أهل العلم عُرف عنهم لعب الشطرنج ، بل والمهارة فى ذلك . وسوف نذكر عدداً منهم حسب الترتيب الزمنى .

فممن اشتهر بلعب الشطرنج من الخاصة أحمد بن عباس وزير زهير العامرى صاحب المرية فى عصر ملوك الطوائف ، وقد وصفه أحد جلسائه بالشغف الشديد بالشطرنج وذكر أنه أغلب الشهوات عليه وأنه فى أحد الأيام واصل اللعب بالشطرنج نهاره كله وبعض ليله (٤٤) .

وذاع صيت الوزير محمد بن عمار فى الدولة العبادية فى أشبيلية فاشتهر بالمهارة الفائقة فى لعبة الشطرنج ، ووصف بأنه ( طبقة بالأندلس لا يقوم له أحد فيها ) وكان المعتمد ابن عباد قد بعثه لمفاوضة الفونسو السادس ملك قشتالة الذى كان قد خرج لغزو أشبيلية وقرطبة ، فسار إليه ابن عمار لمفاوضته ، وتمكن ابن عمار عن طريق الحيلة والدهاء من إقناع الفونسو بالدخول معه فى تحدي على أيهما يغلب فى الشطرنج . فأخذت الفونسو العزة بالإثم ووعد بأن يهب لابن عمار ما

يشاء إذا غلبه عمار فى لعبة الشطرنج ، فلعب الاثنان وأحرز ابن عمار الظفر ، وأذعن الفونسو لمطالب ابن عمار التى تمثلت فى أن يعود عن غزو أشبيلية وقرطبة، فاستجاب الفونسو بعد أن حصل على أتاوة كبيرة من المعتمد(٤٥) .

وممن اشتهر بلعب الشطرنج من أهل العلم الطبيب الأديب أبو بكر محمد زهر الأشبيلي ( ت ٥٩٠ هـ - ١١٩٣ م ) وكان هذا العلامة عارفاً بعدد من العلوم والفنون ، واشتهر إلى جانب ذلك بالبراعة فى الشطرنج(٤٦) .

وكان العلامة أبو بكر بن أبى الحسن الزهرى ( ق ٧ هـ ) قد عرف فى مستهل حياته بالولع الشديد بلعبة الشطرنج ، حتى عرف عند الناس بالشطرنجى فكره أن يوصف بذلك ، فاشتغل بدراسة علم الطب حتى نبغ فيه وذاع صيته بالطب(٤٧) .

وممن شاع ذكره فى هذه اللعبة العلامة محمد بن عبد المنعم الصنهاجى ( ق ٨ هـ ) ، وصفه ابن الخطيب بأنه من صدور الحفاظ وأهل الصلاح ، ثم قال ( طبقة فى الشطرنج يلعبها محجوباً ) (٤٨) كذلك كان معاصره الأديب الكاتب محمد بن أحمد بن قطبة الدوسى الغرناطى بارعاً فى عدد من الألعاب ، كالرماية، السباحة ، ماهراً فى الشطرنج وكان من أصحاب ابن الخطيب(٤٩) .

ومما له صلة بالشطرنج أو قريب منه لعبة الخمسية . فإذا كان الشطرنج لعب الخاصة وأرباب الجاه والسلطة فإن لعبة الخمسية كانت لعبة العامة . ويبدو أن الفرق بين اللعبتين ومن يلعبهما كان مضرب المثل فى التمايز الطبقي فى المجتمع الأندلسى ، ولهذا يرد المثل الشعبى الأندلسى إذ يقول ( لسنة الشطرنج كلعب الخمسية ) (٥٠) .

## مصارعة الحيوانات :

أما عن مصارعة الحيوانات فإن أول الإشارات المهمة التى تفيد أن هذا اللون من الرياضات والألعاب الخطيرة والمثيرة كان سائداً ومألوفاً فى حياة الأندلسيين ، ما تشير إليه نقوش بعض التحف الفنية ، ومنها صندوق خشبى منسوب إلى عبد الله بن منصور العامرى ت ( ٣٩٢-٣٩٧هـ / ١٠٠١-١٠٠٦م ) ويحمل هذا الصندوق نقشاً يمثل صياداً مقاتلاً يصارع أسدين فى وقت واحد ، ويوجه إلى أحد الأسدين طعنة برمحه فى حين يمسك الأسد أحد ساقى الرجل وينهش مؤخره . وفى ذات الوقت يكون المقاتل مشغولاً بدفع الأسد الآخر الذى يهاجمه من الأمام بدرعه . والنقش يتميز بالحيوية والإثارة .

وعلى غطاء الصندوق نفسه نقش يمثل فارساً يطعن وحشاً فى رقبته فيلتفت برأسه فاغر الفم ألماً وتحفزاً ، بينما تعلو وجه الفارس نشوة الظفر (٥١).

وتجدر الإشارة إلى أن مصارعة الثيران السائدة الآن فى أسبانيا ودول أمريكا اللاتينية كانت معروفة لدى الأندلسيين فى مملكة غرناطة ، إذ يذكر ابن الخطيب أن هذه اللعبة كانت منتشرة بين عليّة المجتمع فى غرناطة ، ويصف طريقه مصارعة الثيران بأن يطلق الثور أو البقر الوحشى كما أسماه ، وتطلق عليه كلاب اللان المتوحشة فتأخذ فى نهش جسمه وأذنيه متعلقة بها كالأقراط . والهدف من هذا هو الحد من قوة الوحش وتهذيب حركته ، وهو ما يقوم مقامه اليوم عمل رماة السهام وطاعن الرمح ، وذلك تمهيداً للقاء المصارع . ويصف ابن الخطيب المصارع بالفروسية والإقدام ، وأنه يصارع الثور وهو ممتط فرسه المدرب ، ثم يجهز أخيراً على الثور بطعنة من رمحه (٥٢) وهذا اللون من المصارعة لا يزال موجوداً إلى يومنا ، ويسمى الفارس المصارع باسم رخونيا دور Rejoneador نسبة إلى الرمح القصير الذى يستعمله فى قتل الثور واسمه رخون Rejon . ويشير د / أحمد مختار العبادى إلى أن هذا النص الذى احتفظ لنا به ابن الخطيب الغرناطى

هو أقدم نص وجدناه عن هذه المصارعة المشهورة ، وثُبه إلى أن هذا النص لم يرد ذكره فى الموسوعة الكبرى التى ألفها خوسية ماريا قوسيو عن الثيران ( Jose Maria Cossi: Ios Toros, 3 Tomos ) (٥٣) .

وكانت مصارعة الثيران على هذه الصورة معروفة فى بلاد المغرب ، إذ يذكر ابن الخطيب أنه عندما كان لاجئاً مع سلطانه محمد الخامس ببلاد المغرب - وكان ذلك سنة ٧٦٠ - ٧٦٣ هـ / ١٣٥٨ - ١٣٦١ م - حضر أثناء إقامته احتفالاً لسلطان المغرب أبى عنان فارس ، وذلك بمناسبة اختتان أحد أبنائه . وكان من بين عروض الاحتفال مصارعة جرت بين ثيران وكلاب رومية . وكيف أن الكلاب كانت تهاجم الثور وتمسكه فى أذنيه بأسنانها كالأقراط ، ويصف ذلك فى شعره ومنه :

وطاردت مقدم الصوار بجراح	يُصابُ به منه الصماخ أو الإبط
متين الشّوا فى رأسه سمّهرية	مقصرة عنهن ما يّنب الخُطُ
وقد كان ذا تاج فلما تعلقا	بسامعته زانه منهما قرط(٥٤)

ولا يعلم على وجه الدقة أى القطرين : الأندلس أو المغرب كان الأسبق إلى ممارسة هذه الرياضة المثيرة ، ولكن أرجح أن الأندلس هى السابقة إلى ذلك. وقد يكون لهذه الرياضة أصل لدى الشعوب القديمة كالرومان ، ومن انتقلت إلى الأندلسيين ، وإن كانت المصادر التاريخية شحيحة بالمعلومات حول هذه اللعبة ، وذلك فى القرون الأولى من تاريخ الأندلس .

والحق يقال : إن هذه اللعبة فى صورتها التى يعمد فيها الإنسان إلى التسلى بقتل الحيوان بعد إثنخانه بالجراح ، فيها ما يوحى بغرابتها عن المجتمع الإسلامى ، وما كان عليه من أخلاق تدعو إلى الرحمة والشفقة ليس بالإنسان فقط وإنما

كذلك بالحيوان . ويبدو لي أن هذا اللون من الرياضيات لم يكن معروفًا لدى الأندلسيين فى القرون الأولى ؛ وذلك عائد إلى ما كان يتحلى به المجتمع الأندلسى آنذاك من صفات وخلال أكثر التزامًا وإنسانية . ومما يؤكد ذلك أننا لم نعثر - حسب الطاقة - على نص أو معلومة تشير إلى ممارسة الأندلسيين لهذه الرياضة القاسية العنيفة ، وأن هذه الرياضة لم تعرف إلا فى أواخر العهد الإسلامى فى الأندلس ، الذى ساد فيه تدهور الأخلاق ، والبعد عن نهج الدين الإسلامى الحنيف . ولم تكن هذه اللعبة تجرى بتلك الصورة فقط إنما كانت تتم أيضًا بصورة أخرى ، وذلك بأن تكون المنازلة بين ثور وأسد . وقد شاهد أحد شعراء الأندلس وهو أبو عبد الله محمد بن جزى ( ت ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م ) لدى سلطان المغرب أبى عنان مصارعة بين الثور والأسد فقال ابن جزى المذكور :

لله يوم بدار الملك مربيه      من العجائب ما لم يجر فى خلدى  
لاح الخليفة فى برج العلا قمرًا      يشاهد الحرب بين الثور والأسد (٥٥)

\* \* \*

والحديث عن مصارعة الحيوانات سواء مع الإنسان أو مع بعضها البعض يقودنا إلى الحديث عن أنواع أخرى من الألعاب التى تشارك فيها الحيوانات أو الجوارح . ومن هذه الألعاب ما تشارك فيه القردة إذ يتم تدريبها على أداء حركات رياضية تثير الدهشة والإعجاب . وكان يطلق على أصحاب هذه اللعبة ( القرّادين ) وكانوا يمنعون من دخول الدور والمنازل لما فى ذلك من ترويع للحوامل والأطفال (٥٦) .

وكان البعض يفضل مشاهدة القتال بين الديكة وكانت هذه اللعبة من الألعاب الشعبية ، وراجت على وجه الخصوص فى القرى والأحياء الشعبية بالمدن (٥٧) .



## لعبة خيال الظل :

يجدر بنا فى البداية توضيح مفهوم هذه اللعبة وأصل منشأها ، فنشير إلى أنها تمثيلية تُستخدم الظلال فى إبراز مشاهدتها ، وذلك باستخدام شاشة من النسيج الأبيض يوضع خلفها مصدر ضوئى ، ويرفع اللاعب مجموعة من الدمى المصنوعة من الجلد أو الورق ويحركها بأصابعه المعقودة بخيوط رفيعة ، فتعكس ظلال هذه الدمى على الشاشة البيضاء أمام المشاهدين ، وتكون مصحوبة بألحان أو حوار يلقيه اللاعب. وتعتبر الصين المهد الأول لهذا الفن إذ كان من الفنون المعروفة بها منذ القرن الحادى عشر الميلادى ، ثم انتشر منها إلى سواها فدخل البلاد العربية ومنها مصر ، التى ارتقى فيها خيال الظل ، ومنها انتشر إلى تركيا ، وبلاد البلقان، وإلى بلدان شمال أفريقيا . وقد بقى لنا من المصنفات حول هذا الفن تمثيلات الطبيب المصرى محمد دانيال ، ويُسمى كتابه ( طيف الخيال ) (٥٨) ، نشر المستشرق الألمانى ارلنجر ثلاثة أجزاء منه عام ١٩١٠ م .

ويبدو من خلال بعض ما وصلنا من شذرات تاريخية ومعلومات محدودة أن هذه اللعبة المسلية دخلت الأندلس بصورة مبكرة نسبياً ، وذلك منذ القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، إذ نجد إشارة طريفة يوردها أحد أدباء الأندلس وهو عمر بن الشهيد التجيبى وكان حياً سنة ( ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م ) وذلك فى مقامة أدبية يقول فيها : ( وصلنا إلى منزل بدوى ذى هيئة وزى ... فهش وبش ، وكنس منزلة ورش ... ثم مال بنا إلى بيت مُكنس ، منوع مجنّس ، قد جلّله حصراً بلدية وغشاه بُسطاً بدوية ، ومد فيه شرائط وحبالاً كأنه يريد أن يخرج خيالاً ... (٥٩) .

وما من شك فى أنه هنا يعنى خيال الظل . وقد تكون هذه اللعبة قد انتقلت فى مرحلة من مبكرة من العراق أو مصر إلى الأندلس . وربما كان ناقلها أحد الأندلسيين المترددين على المشرق ، أو قد يكون ذلك على يد أحد المشاركة .

وليس هذا بغريب فكثير من التأثيرات الاجتماعية التي كانت سائدة في المشرق انتقلت إلى المغرب ، والأندلس ، ولنا في قصة زرياب وانتقاله إلى الأندلس وتأثيره في الحياة الاجتماعية أبلغ دليل . ونقع على اسم أحد الوافدين المصريين ، ويدعى أبو القاسم الخيالي ، وقد وصل إلى قرطبة في القرن الرابع الهجري ، وقد يكون لقبه المذكور له صلة بحرفته حول لعبة الخيال ، مع أننا لا نملك نصًا واضحًا يفيد ذلك، وإن كان هناك ما يشير إلى إحدى جواريه وتدعى بستان كانت من بين من استدعا هن الخليفة محمد بن هشام لتسليته ومجونه (٦٠) .

ونجد في أزجال ابن قزمان إشارات مهمة إلى هذه اللعبة ، تفيد أنها شاعت في أوساط المجتمع الأندلسي ، ففي إحدى أزجاله يقول :

ليس على قميص ذاب      إلا قميصًا مرقع  
وطويشر غفاره      الطّر كلّ مقطع  
سل لو كان لعنقى      أو كان على رأس قنّزع  
( بابه ) كنت أنا نرقص      في لعبة القلياني

ويشير عبد العزيز الأهواني إلى أن الكلمة التي لم تنقط في أول القفل هي (بابه) وهي لفظة اصطلاحية تستخدم في لعبة ( خيال الظل ) ، ويراد بها الفصل أو المشهد من تمثيلية خيال الظل . ويدل النص على أن هذه اللعبة عرفت عند الأندلسيين ( بلعبة القلياني ) ووصف لباسه بالمهلهل والممزق يدل على أن اللعبة في الأندلس مثلما كانت في الشرق تعتمد على الهزل والإضحاك (٦١) .

والقلياني قد تكون نسبة إلى أحد الخياليين الماهرين ومنسوب إلى قليانة Juliana ( جليانة ) وهي بلدة من أعمال وادي آش إلى الجنوب من غرناطة .

وإضافة إلى ما سبق نجد لمحات محدودة عن لعبة خيال الظل في أشعار بعض الأندلسيين وبعض رسائلهم ، ففي ديوان أبي الحسن الششتري يقول في زجله الذي جعل في قفلة :

( وما الناس إلا كما الخيال فانظر إلى ماسك الصور )

وهى إشارة واضحة إلى لعبة خيال الظل ، وأن الدنيا بمن فيها من أناس وما قدر لهم من حياة وسعى وحركة ، ما هم إلا كالدمى التى يحركها لاعب الخيال ، ثم يزول كل ذلك ويفنى . وإلى مثل هذا المعنى أشار الشاعر المملوكى ضياء الدين بن عبد الكريم حيث قال :

تجئ وتمضى بابة بعد بابه وتفننى جميعاً والمحرك باق(٦٢)

وهناك إشارات للعبة الخيال فى رسائل أبى عبد الله محمد بن عباد الرندى وهو من أعلام الزهد فى الأندلس وكان حياً فى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى(٦٣) .

\* \* \*

### ألعاب تقوم على المهارات الحركية :

كان من بين الألعاب التى استحوذت على اهتمام الأندلسيين ، وأثارت إعجابهم تلك الألعاب التى يؤديها بعض الأشخاص من ذوى المهارات والأداء المتميز . ويشبه هؤلاء فى عصرنا الحاضر ما يطلق عليه البهلوان ، الذى يشاهد فى السيرك وهو يقوم بأداء حركات تثير إعجاب النظارة . وفى ديوان ابن الخطيب أبيات شعرية طريفة يصف فيها أحدهم وهو يتلاعب على الحبل ويتدلى منه حيناً ، ويرتقى حيناً آخر بين حركة سريعة ، وثبات عجيب :

وبحرى تلاعب فى شريط وجئ الفعل متصل الصّموت

تدلى وارتقى وسما وأهوى فأعجب فى التماسك والثبوت

فقلنا إن يكن بشراً سوياً ففيه غريزة من عنكبوت

يشير د. محمد بن شريفة إلى هذه الأبيات ويقول تعليقاً عليها : إن كلمة بحرى التى وردت فى أول البيت الأول ( إنما هى تحريف لكلمة غجرى نسبة إلى الغجر المعروفين فى الأندلس ) (٦٤) ولكن الباحث يستبعد ذلك ، لأنه لو حلّ لفظ غجرى محل بحرى لاختل وزن البيت ، إذ لو قطعنا كلمة بحرى حسب العروض لكانت على هذا النحو : وحرى ، وغجرى (٦٥) .

وبالتالى لا نطمئن إلى تعليل الأستاذ ابن شريفة . فضلاً عن أن لفظ غجرى فيما يبدو لى لم يكن معروفاً عند الأندلسيين وإنما كان ذلك فى القرون التى أعقبت خروج المسلمين من الأندلس .

ويصف الشاعر الغرناطى محمد بن يوسف بن زُمرك ( ت ٧٩٦هـ / ١٣٩٣م ) أحد اللاعبين المهره وهو يؤدى حركاته المثيرة على الحبل فيقول :

ومنوع الحركات قد ركب الهوا	يمشى على خط به متوهم
فإذا هوى من وجوه ثم استوى	أبصرت طيراً حل صورة آدمي
يمشى على فن الرشاء كأنه	فيه مساور ذابل أو أرقم

وقد أطلق فى الأندلس على من يحترف هذه الألعاب ويؤديها بمهارة وبراعة [ العجائبي ] وذلك لما يثيره من دهشة وإعجاب المشاهدين .

وكان هذا الشخص يؤدى ألعاباً مختلفة ، من بينها اللعبة المشار إليها وهى اللعب على الحبال . وقد احتفظ لنا أبو المطرف بن عميرة بوصف نادر وطريف لأحد هؤلاء العجائبيين وهو يلعب بالصحائف فارغة وملئمة بالماء ، فيقذفها فى الهواء ويتلقاها بيديه فى حركات عجيبة ، ومهارات بارعة . ويقول ابن عميرة : ( هذا وإلحدهما وصف يزيد على الأوصاف ، وعمل هو المشار إليه فى الصحف ، تصفُّ له فى مداره ، وتلقى بمجال إقباله إدباره . فيأخذها بأصبعين ويديرها لرأى العين ، فترى عجباً من نصب وإماله ، وإثبات وإزالة ، واتساق بغير قد ، والصاق

دون ود ، وربما أكفأها فى الهواء ، وقد غمرها بالماء ، فتحسبه جمد فما يقطر ، أو عاد سراباً فى عين من ينظر ، ويمر بها فيجعلها تحت ذيله ، ثم يقتلعها بجملته سيله فيفقدوها العيان ، ويخلى منها المكان ، ويخلع الثياب لا أثر هناك ، وينزع السراويل فلا زيادة على تلك وذاك ، فإذا استوفى فى بعض جوانبه ، وقضى وطراً من عجائبه ، ارتج من الأمام والواريء وقام عنها كتاركة بيضها بالعراء ) . ومن مهاراته الحركية وألعابه المدهشة ما يقوم على اللعب بالنار فيقول : ( ويؤتى بالنار وحرها مرهوب وتهيئها مشبوب ، فيودعها ذاك المستودع ، ويدع فى شأنها فوق ما أبدع ) وفى طور آخر يلعب بقلال الماء ، ( وربما وضعت له القلة بمائها ، فلا ترى أعجب من إخفائها يختطفها اختطافاً وقد هزّ منها أعطافاً وركب فوقها صحافاً فيحمل منها جنيناً حش(٦٦) ، ودفيناً يأمن النباش ثم يقوم عنها عجلان ، ويترك شخصها كما كان ، وهذا خلال نغمات حسان سماعية وهيآت إيقاعية ) .

ولهذا العجائبي ألعاب يؤديها بصحبة أحد أصحابه ، تقوم على أداء حركات بارعة يستخدم فيها العمائم والملابس ( ولهما فى مركز المدار ، وموقف الاختيار ، نشروطى ونشر للعمائم ولى ، وربما أعدها بعد إلقاء ، وقلبا الثياب لغير استسقاء ، فيرجع الطالع أفلا ، ثم يعود العالى سافلاً... ) (٦٧) .

وهكذا يتبين لنا أن هذه الألعاب التى تقوم على البراعة والمهارة فى الأداء والحركة بالأرجل والأيدى والأصابع ، وتستخدم فيها وسائل متعددة من أوان وحبال وعمائم وقلل وغيرها مما نشاهده حالياً فى السيرك أو غيره ، نقول إن هذه الألعاب كانت تستقطب جمهوراً كبيراً من الناس وكانت فى مقدمة وسائل التسلية والمتعة لديهم .

ولعل من أهم الدلائل التى تشير إلى ولع الناس بمثل هذه الألعاب أن صاحبها وهو العجائبي لا يزال له ذكر ووجود فى بعض بلدان المغرب ، بل إن

بعض الألعاب التى أشرنا إليها لا تزال تعرض فى ساحة جامع الفناء بمدينة  
مراكش (٦٨) .

ونظراً لخفة ورشاقة العجائى أثناء تأديته إحدى ألعابه فقد أطلق عليه  
( الزرير ) وهو اسم طائر عرف حركته وسرعته فى القفز (٦٩) .

ومما له صلة بمثل هذه الألعاب أولئك الذين يقومون بحركات تدعو إلى  
الضحك والتسلية . ويرتدى أحدهم فى سبيل ذلك ثياباً مناسبة لدوره ، وربما  
وضع له شعراً كثيفاً على حاجبيه وشاربه وعلى رأسه قلنسوة ، وهو أشبه فى  
عصرنا الحاضر بما يسمى ( المهرج ) الذى يؤدى دوره أمام الجمهور سواء فى  
السيرك أو المسرح . وقد أمدنا ابن بسام بمعلومات طريفة حول أحدهم وما يقوم  
به من حركات مضحكة (٧٠) .

وقد نبه السقطى إلى عدم ترك أمثال هؤلاء المهرجين والمهذرين يمارسون  
ألعابهم وحركاتهم إلا فى الشوارع السالكة والساحات العامة (٧١) .

\* \* \*

### المنتزهات :

ومن وسائل التسلية التى عرفها المجتمع الأندلسى خروج الناس إلى  
المنتزهات . وبلاد الأندلس من البلدان التى اشتهرت بجمال طبيعتها ، وخاصة فى  
الجزء الأوسط الجنوبى . وبطبيعة الحال توفر لأهلها عدد من مواضع النزهة  
والفرجة . وكان أمراء وخلفاء بنى أمية ، ومن تبعهم من الملوك والسلاطين لهم  
جنتهم وبساتينهم التى يقضون بها كثيراً من الوقت طلباً للمتعة والترويح . وكان  
أول أمراء بنى أمية ومؤسس ملكهم بالأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام -  
المعروف بالداخل - قد اتخذ له جناحاً وبساتين فى منية الرصافة بقرطبة . وحدث  
عندما نظر منها إلى نخلة أن هاجت شجونه فقال :



تبدت لنا وسط الرصافة نخلة      تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل  
فقلت شبيهى فى التغرب والنوى      وطول التناوى عن بُنى وعن أهلى  
إلىخ ..... (٧٢) .

وفى عصر الخلافة الأموية - على عهد الخليفة الحكم المستنصر ( ٣٥٠ - ٣٦٦هـ / ٩٦١ - ٩٧٦م ) أهدى أحد الفتيان الصقلية - ويدعى درى الأصغر - إلى الخليفة الحكم بستاناً عرف بالرمانية . وكان درى هذا قد بالغ فى العناية به وزراعة مختلف أنواع الأشجار والأزهار فيه ، حتى غدا فى أبهى صورة ووضع فيه أنواعاً من الحيوانات ، ثم قدّمه هداية للخليفة فقبله ، وعهد إليه بالقيام عليه . ثم دعاه درى لإستضافته فى البستان ، فسار إليه الخليفة بحاشيته، وقد أبدى درى من ضروب الضيافة والإكرام للخليفة ما عمّ ذكره ، وأجمع من حضر تلك المناسبة أنهم لم يشاهدوا فى المنتزهات السلطانية أكمل مما رأوه (٧٣) .

وهذه صورة من صور التنزه والفرجة لدى الطبقة الحاكمة آنذاك . ونكتفى بها لتركز الضوء أكثر على ما يتصل بالرعية وأفراد المجتمع الأندلسى ، وذلك لأن طبقة الخاصة كان لها منتزهاتها الخاصة الملحقة بالقصور والدور ، مما لا سبيل لعامة الناس إليه .

فمن أشهر المنتزهات الشعبية ما عرف بمحصن الحمة ، وهو من مدينة بجانة . وفى هذا الموضع عين ماء يقصدها الناس للاستشفاء . وكان أهل المرية يقصدون ذلك الموضع فى أيام الربيع مصطحبين معهم نساءهم وأولادهم ، ويتزودون خلال ذلك بألوان الطعام والشراب . ونظراً لكثافة من يقصدها من المتنزهين ، فإن أسعار المساكن وإيجاراتها ترتفع خلال ذلك بصورة كبيرة (٧٤) .

وكانت مدينة سرقسطة من أجمل مدن الأندلس حتى قال ابن سعيد : ( ولا نعلم فى الأندلس مدينة يحدق بها أربعة أنهار سواها ، وكأن كل جهة تغايرت

على اتحافها فأهدت إليها نهرًا يلثم من أعطافها ، وأشهرها نهر جلق ، وشرب موسى بن نصير فاتح الأندلس من ماء نهر جلق فاستعذبه وحكم أنه لم يشرب بالأندلس ماء أعذب منه ، وشبه ما عليه من البساتين بغوطة دمشق ، ... ومن متفرجاتها الحلقيين ، ووادي الزيتون (٧٥) .

واشتهرت مدينة أشيلية بمتنزهاتها ، ومنها مرج الفضة ، والعروس ، والسلطانية ، وشتبوس . وكانت المتفرجات والمتنزهات مقصدًا للناس في أعيادهم ، وأيام سرورهم ، ويجدون بين خمائلها وطبيعتها الخلابة المتعة والسرور (٧٦) .

واشتهر وادي العسل في الجزيرة الخضراء بجمال طبيعته وكثرة بساتينه .

\* \* \*

### الألعاب التي حظرها المحتسب لما بها من الخداع والاحتيال :

كان للقائمين على الاحتساب دور بالغ في مراقبة أصحاب الألعاب ، والمشتغلين بألوان اللهو الذي يقوم على الخداع أو السحر ، فسعوا إلى محاربة أصحابها ، ومنهم أهل التخيل : ( الذي يظهر أنه شيئًا من غير فعله ويخيل بمثل النواريج (٧٧) وقلب العين ، والسندی (٧٨) الذي يهيج نفسه عن القدر ينهى عن ذلك وإلا أدب (٧٩) .

وينهى السقطى عن ترك المبهرجين والمهذرين يمارسون ألعابهم وحركاتهم إلا في الشوارع السالكة ، وعند تجمعات الناس (٨٠) .

وكان هناك من أصحاب الألعاب من يستخدم في ألعابه الحيات والعقارب ، ومنهم من يعمد إلى المرأة فيضعها تحت الشمس فتحرق ما تحتها ، ويستغلون ذلك في خداع السذج من العامة ، فكانوا يمنعون من ذلك (٨١) .

ويبدو أن من الألعاب الشعبية التي عرفت لدى الأندلسيين وخاصة أيام الأفراح والمواسم ما يفعله الصبيان من رش الأسواق والشوارع بالماء ، ليكون سببًا في تزليق ، الناس والضحك عليهم ، فهي المحتسب عن ذلك (٨٢) .

ومن بين الألعاب التى نهى المحتسب عنها لما قد تجر إليه من أذى وضرر  
الألعاب التى يُلعب فيها بالمقارع والعصى فى الشوارع (٨٣) .

### الأعياد ومظاهر التسلية والترفيه :

كان من الطبيعى أن يحتفل الأندلسيون بعيدى الفطر والأضحى ، ولكنهم  
ابتدعوا أعيادًا ومواسم يحتفلون فيها ، ويتخذونها وسيلة للتسلية والابتهاج . وقد  
زَلَّ كثير منهم فى مشاركة أهل الذمة فى أعيادهم ومناسباتهم ، ومنها عيد يناير ،  
وفيه يصنعون ألوان الحلوى التى يعملونها على شكل مدن صغيرة ذات  
أسوار (٨٤) .

ومن أشهر المناسبات التى يشارك فيها الأندلسيون النصارى ما يُسمى بعيد  
العنصرة أو المهرجان ، ويأتى فى اليوم الرابع والعشرين من حزيران ، وهو اليوم  
الذى زعموا أن يحيى بن زكريا ولد فيه . وقد اشتهر بشعلة النار التى كانوا  
ينصبونها ويقفزون فوقها . وورد فى أمثالهم الشعبية : ( الكبش المصوّف ما يكفز  
( ما يقفز ) العنصرة ) (٨٥) .

وفى هذا اليوم يعمد الأطفال والصبيان إلى رش الشوارع والأسواق بالماء ،  
ويلعبون بالمقارع والعصى ، وكان فى ذلك ما يسبب الأذى للمارة ، فشدد  
المحتسب على منعه (٨٦) .

وكان الناس يلبسون فى هذا العيد الثياب ذات اللون الأبيض . وكان الفنان  
زرياب هو الذى سَنَّ هذا اللون لهم (٨٧) .

ويبدو أن هذا العيد ، أو ما يعرف بيوم المهرجان ، كان مشهوراً لدى  
الأندلسيين . وتمدنا كتب الأدب بالكثير من النصوص والأشعار التى نظمها الأدباء  
والشعراء حول هذا الموسم . من ذلك ما قاله الشاعر أبو بكر الدانى ( ت ٥٠٧هـ /  
١١٧٤م ) واصفاً مشاركة الأسطول الاحتفال بيوم المهرجان :

بشرى بيوم المهرجان فإنه يوم عليه من احتفائك رونق  
طارت بنات الماء فيه وريشها ريش الغراب وغير ذلك شوذق(٨٨)  
ويقول الشاعر عبد الرحمن بن عثمان الأصم(منتصف القرن الرابع الهجرى):  
أرى المهرجان قد استبشرا غداة بكى المزن واستعبرا  
وسربلت الأرض أفوافها وجللت السندس الأخضر  
وهَزَّ به الرياح صنايرها فضوَّعت المسك والعنبر  
تهادى به الناس الطافهم وسامى المقلُّ به المكثرا(٨٩)  
وكان من بين الألعاب التى يمارسها الناس يوم المهرجان سباق الخيل . يقول  
الشاعر عبد العزيز بن الخطيب وكان مسجوناً فى يوم المهرجان :

رويدك أيها الشوق المذكى لنار صبايتى بالمهرجان  
لقد أذكرت منى غير ناس وهجت لى الصبابة غيروان  
أيوم المهرجان أعذر فحالى تراها فى البلاء كما ترانى  
ولو لم يثنى طبق وقيد لرحت وقيد لى قصب الرهان(٩٠)

وما من شك أن هذه الأعياد والمواسم ليست مما شرع للمسلمين ، بل تأثر  
هؤلاء بأهل الذمة بحكم المجاورة والاختلاط . وقد بلغ الأمر بتقليد النصارى  
ومشاركتهم هذه الأعياد مدى خطيراً نبه الفقهاء والعلماء إلى ذلك ، ودعوا إلى  
نبذ هذه العادات وعدم التشبه بالنصارى . ومن هؤلاء العلماء عبد الملك بن حبيب  
الذى ذم تقليد النصارى . ويحىى بن عمر الذى نهى عن اجراء الخيل ورش الماء فى  
يوم المهرجان . وأكبر من تصدى لهذا الظاهرة الفقيه محمد بن وضاح الذى صنف

كتاباً أسماه (البدع والنهي عنها) حمل فيها على مجازاة النصارى وتقليدهم فى أفراحهم وأعيادهم(٩١) .

ومن العادات التى اشتهر بها أهل غرناطة خروجهم فى موسم جنى العنب إلى المنتزهات ، والمروج الخضراء وهم يلبسون أبهى الثياب والأزياء، ويظلون عدة أيام فى نزهة وتسلية مع أخذ الحيلة والحذر من عدوان النصارى عليهم(٩٢) .

وكان لأهل الجزيرة الخضراء جناناً وبساتين على ضفافه ، وكان مقصدهم للتنزه ونيل أوقات من الراحة والاستجمام(٩٣) .

واشتهرت مدينة غرناطة بمنتزهاتها الرائعة ، وخاصة ما أطلق عليه فحص غرناطة La Vega de Granada . وقد شبه هذا الفحص أو المرج بغوطة دمشق، فوصف بكثرة جداوله وكثافة روضاته وجناته ، وكان فى غاية الجمال والنضارة يقصده الناس للتنزه ، وكان أكثر ذلك فى ليالى الصيف(٩٤) .

وكان أهالى غرناطة يخرجون للتنزه فى موسم نضج العنب ، ويقصدون المروج الخضراء وضفاف الأنهار ، وخاصة نهر شنيل ، الذى ولع الشعراء بوصفه وما عليه من البساتين والرياض ، وفيه قال أبو الحجاج يوسف بن سعيد :

أحنّ إلى غرناطة كلما هفت	نسيم الصبا تهدي الجوى وتشوق
سقى الله غرناطة كل منهل	بمنهل سحب مأوّه من هريق
وما شاقنى إلا نضارة منظر	وبهجة وادٍ للعيون تسروق
تأمل إذا أملت حوز مؤمل	ومدّ من الحمرا عليك شقيق
وأعلام نجد والسبيكة قد علت	وللشفق الأعلى تلوحُ بروق
وقد سلّ شنيل فرنداً مهنداً	نضى فوق درّ ذرّ فيه عقيق
إذا نم منه طيب نشر أراكه	أراك فتيت المسك وهو فتيق

ومهما بكى جفن الغمام تبسمت      ثغور أقاح للرياض أنيق(٩٥)

ولو تتبعنا أماكن التنزه ومواضع الفرجة عند أهل الأندلس لطلال بنا الحديث؛ لأن بلاد الأندلس - كما سبق - كانت فى مجملها من أجمل البلدان وأحلبها طبيعة ، فلا يعدم أهلها حينذاك أن يجدوا فى كل ناحية منها موضعاً يقصدونه للمتعة وجلب السرور .

### سرد القصص والحكايات :

ومن وسائل التسلية التى عرفها الأندلسيون سرد القصص والحكايات . وتشير كتب التاريخ إلى ولع كثير من الخلفاء والحكام بالقصص ، فاتخذوا لهم من أرباب الأخبار والتاريخ والأدب من يقومون بسرد نوادر الأخبار وطرائف الحكايات والآثار . ويهمننا ما يتصل بالأندلس:

ففى العهد الأموى كان الأمراء والخلفاء يقربون فى مجالسهم ومتدياتهم وأسمارهم أصحاب النوادر والقصص والآثار ، ويقضون معهم ساعات عديدة كل ليلة ، يتسامرون ويتذاكرون طرائف الأخبار ونوادر الحكايات والقصص . واشتهر من هؤلاء الذين حظوا بمكانة لدى أمراء بنى أمية : يحيى الغزال ، وعباس بن فرناس ، وذلك على عهدى الأمير الحكم الربضى وابنه عبد الرحمن الأوسط ، كما اشتهر الأديب الفنان زرياب بنوادره وطرائفه التى أثارت إعجاب الأمير عبد الرحمن الأوسط ورعيته(٩٦) .

وعلى عهد الخلافة الأموية كان الخليفة الناصر مولعاً بالتاريخ وأخبار الأوائل ، فأهداه إمبراطور القسطنطينية كتاب أورسيوس فى تاريخ العالم(٩٧) . وأما ابنه الحكم المستنصر فكان يجد متعته فى قراءة الكتب ومطالعتها ومجالسة أهل العلم والأدب والتاريخ(٩٨) .



وكان الحاجب المنصور بن أبى عامر ( ٣٦٦ - ٣٩٣هـ / ٩٧٦ - ١٠٠٢م ) مولعاً بالأدب والنوادر والقصص والحكايات فصنف له الأديب صاعد بن الحسن كتاب " الفصوص " فى الأدب ، وفى الحكايات كتابى ( الهجفجف ابن عدقان بن يثربى مع الخنوت بنت مخزومة بن أنيف ) و ( كتاب الجواس بن قعطل المذحجى مع ابنة عمه عفراء ) . وقد أثنى حزم الظاهرى على الكتاب الأخير ووصفه بالملاحاة ، وأن المنصور كان شغوفاً به حتى رتب له من يخرج له أمامه فى كل ليلة (٦٩) .

وألّف الأديب حسان بن مالك للمنصور بن أبى عامر كتاباً اسماء ( ربيعة وعقيل ) وكان سبب تصنيفه أنه دخل على المنصور وبين يديه كتاب من كتب السمر لأحد أدباء المشرق ، فخرج حسان إلى داره واعتكف على تصنيف كتابه المذكور ، فجاء به بعد أسبوع وقدمه للمنصور فكافأه عليه وأجزل صلته (١٠٠) .

وكان من أشهر القصاصين والأخباريين أبو أيوب بن حجاج ( ت ٣٣٨هـ / ٩٤٩م ) وصف بسعة حفظه للأخبار القديمة ، وبراعته فى عرضها ، وحسن سردها (١٠١) . وكان أبو عبد الله الغامبى من أحفظ الناس لأخبار أهل الأندلس ، وآدابهم وما دار بينهم من الأخبار والفكاهات ، وكان يفد على الخليفة عبد الرحمن الناصر فيجد لديه كل بر وإكرام (١٠٢) .

ومن الطريف تأثر حكام أسبانيا النصرانية بالعرب فى هذا الجانب ، فقد أشار المؤرخون إلى ولع السيد القمبيطور بالقصص العربية ، وكان معجباً بسيرة المهلب بن أبى صفرة ، وحروبه ، كثير التطلع والسؤال عن أخباره ، وقصصه مع أعدائه (١٠٣) .

وكان القصاصون يتخذون لهم مواضع فى الأسواق والساحات . وقد نهى المحتسب بعضهم عن سرد القصص والحكايات التى يسندونها إلى النبى ﷺ ،

وذلك لجهلهم ، وكذبهم ، وزياداتهم ، وأباح لهم أن يرووا القصص عن بنى اسرائيل (١٠٤) .

ولا يتسع المجال لسرد أسماء البارزين من القصاصين وأصحاب السير والأخبار، إذ تحفل كتب التراجم بأعداد كبيرة من هؤلاء (١٠٥) .

### الخاتمة :

وأخيراً فهذه أبرز وسائل التسلية التى عرفها الأندلسيون فى تاريخهم الاجتماعى . وما من شك فى أن بعض هذه الوسائل كانت معروفة منذ القدم عند العرب ، ومنها رياضة الصيد وبعض ألعاب الفروسية كسباق الخيل والمبارزة وغيرها ، كما أن فيها من الألعاب ما نقله الأندلسيون عن غيرهم من الشعوب ، ومنها لعبة الشطرنج وهى لعبة فارسية ، نقلها العرب عنهم أدخلوها معهم إلى الأندلس . ومثل ذلك خيال الظل وهى - كما مرّ - من الألعاب التى نقلها المسلمون عن الصينيين ، ومن ثم انتشرت فى أقطار العالم الإسلامى ، ومنها الأندلس . ولا نعلم على وجه اليقين ما يتصل بتاريخ لعبة بمصارعة الثيران وما إذا كان الأندلسيون هم الذين ابتكروها ، أم كان ذلك من تأثير حضارة أخرى . وفى هذا كله ما يدل دلالة واضحة على الامتزاج الحضارى الذى انصهر فى بوتقة الحضارة الأندلسية ، فكان الأندلس - كأي قطر فى الدولة الإسلامية - صاحبة حضارته وحياة الأفراد فيه ظواهر اجتماعية مختلفة ، راوحت بين التأثير والتأثير . ومثلما تأثر الأندلسيون بغيرهم من الشعوب أثروا أيضاً فيهم من خلال أهم ألعابهم التى اشتهروا بمزاولتها فى المجتمعات والأقطار الأخرى ، ونعنى بها رياضة مصارعة الثيران ، التى تعد من أشهر الألعاب إن لم تكن أشهرها فى أسبانيا ودول أمريكا الوسطى والجنوبية ، هذا على الرغم من تحفظنا إزاء تلك اللعبة التى تفتقر إلى الرحمة والشفقة بالحيوان .

وبعد فهذه لوحة اجتماعية أردنا تقديمها عن جانب مهم فى حياة الأندلسيين ، ونمط سلوكهم الفكه ، وطرائفهم المختلفة للترويح عن أنفسهم ، وإبعاد السأم والملل عنها ، وذلك على الرغم من تاريخهم الملى بالأحداث والوقائع المؤلمة ، سواء على مستوى الجبهة الداخلية وما حفل به تاريخ الأندلس من تعاقب الحكام والدول وما تخلل ذلك من قلاقل وفتن ، أو على مستوى الجبهة الخارجية المتمثل فى استفحال القوى النصرانية تحفزها للعدوان .

## الهوامش

(١) نذكر فى هذا الصدد أن الحرب التى اندلعت بين عباس وذبيان والتى عرفت بحرب داحس والغبراء كانت سبب اتهام المتسابقين لبعضهم بالغش فى نتيجة السباق بين داحس وهو حصان لقيس بن زهير والغبراء وهى فرس لحذيفة بن بدر ( انظر ، ابو عبيدة ، أيام العرب ، جمع وتحقيق عادل جاسم / ١٤٨ وما بعدها .

(٢) انظر الحميدى ، جذوة المقتبس / ٢٨٩ - عبادة كحلبة ، تاريخ النصارى فى

الأندلس . / ١٧٦

(٣) ابن عبد الرؤوف : آداب الحسبة والمحتسب / ١١٣

(٤) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق عبد الرحمن الحبشى / ١٩٣

(٥) البيان المغرب . ج ٢ / ٢٢٢

(٦) المن بالإمامة / ٢١٥

(٧) ابن صاحب الصلاة . المن بالإمامة ، ٣٤٣

(٨) المصدر نفسه والصفحة حاشية رقم (١) .

(٩) اللوحة البدرية / ٩٠

(١٠) المقرئ : نفخ الطيب ج ٧ / ١٧٤

(١١) يوسف شكرى ، غرناطة فى ظل بنى الأحمر / ١٣٦

(١٢) الإحاطة ، ج ٢ / ٢٥٠

(١٣) السيد عبد العزيز سالم ( صور من المجتمع الأندلسى ) مقال بمجلة معهد

الدراسات الإسلامية . مدريد ج ١٩ / ٧٢-٧٣

(١٤) ابن عذارى . البيان المغرب ج ٢ / ١٥٩ و ٢٥٩

(١٥) ابن حنبل ، طبقات الأطباء . تحقيق فؤاد سيد / ١٠٧ - ابن حيان ، المقتبس ،

ج ٥ / ٤٧١

(١٦) ابن عذارى ، البيان المغرب ج ٢ / ٦٦

(١٧) ابن عذارى . المصدر السابق ج ٢ / ٦٣

(١٨) السيد عبد العزيز ( صور من المجمع الأندلسي ) مقال بمجلة الدراسات الإسلامية  
مدير ص ٧٢

(١٩) المقر ، نفح الطيب ج ١/٢٠٨

(٢٠) المقرى ، المصدر نفسه ج ١/١٩٨ . وبحر الروم هو البحر الأبيض المتوسط .

(٢١) البرك . جمع البركة . طائر مائي صغير أبيض . انظر ( لسان العرب مادة : برك ) .

(٢٢) ابن بسام ، الذخيرة ق ١ ، ج ٢/٦٨٣ والتوديع الفصد انظر الصفحة المذكورة  
ح رقم ٤ ، انظر أيضاً رسالة طردية فى صيد الطباء لأبى عبد الله محمد بن الحنطاط فى خريدة  
القصر ج ٢/٢٩٧-٢٩٨

(٢٣) انظر السيد عبد العزيز سالم : المقال السابق / ٧٢-٧٣

(٢٤) الأصفهاني خريدة القصر ج ٢/ ٣٠٢-٣٠٣

(٢٥) السيد عبد العزيز سالم . صور من المجمع الأندلسي ٧٨

(٢٦) ابن الخطيب ، الإحاطة ج ٣/٢١٥ وكان أخوه أحمد مولعاً بالصيد انظر المقرى ،

النفع ج ٤ / ١٨٠-١٨١

(٢٧) انظر على سبيل المثال المقرى ، أزهار الرياض ، ج ٢/ ١٠٥-١٠٦

(٢٨) يوسف شكرى ، مرجع سبق ذكره ١٣٦

(٢٩) انظر السيد عبد العزيز سالم ، صور من المجمع الأندلسي ٧٤ وما بعدها .

(٣٠) السيد عبد العزيز سالم ، صور من المجمع الأندلسي / ٧٩

(٣١) أمين الخولى . الرياضة والحضارة الإسلامية / ٢٨٤

(٣٢) انظر ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ / ٧٩

(٣٣) ابن سعيد ، المغرب فى حلى المغرب ، ج ٢/ ٣٢٨

(٣٤) ابن بشكوال ، الصلة ، ج ٢ / ٣٨١

(٣٥) نسبة إلى مدينة أشبونة وهى لشبونة عاصمة البرتغال حالياً .

(٣٦) ابن بسام ، الذخيرة ق ٢ . ج ٢ / ٧٨٦ وما بعدها .

(٣٧) انظر لسان العرب . مادة غرق .

(٣٨) بن زهر ، كتاب الأغذية ١١٤

- (٣٩) أمين الخولى ، الرياضة والحضارة الإسلامية ٢٧٢
- (٤٠) أمين الخولى ، نفس المرجع / ٣٠٠
- (٤١) شرح المسعودى ما هية هذه اللعبة وصفتها وآلاتها ، للوقوف على ذلك ، انظر مروج الذهب ج ٤ / ٣٢٥
- (٤٢) المقتبس . تحقيق محمود مكى ١٨٠ - ١٨١ وما بعدها .
- (٤٣) ابن الخطيب ، الإحاطة ج ٣ / ٩٤
- (٤٤) ابن بسام ، الذخيرة ق ١ ج ١ / ٢٦٧
- (٤٥) المراكشى ، المعجب / ١٧٩
- (٤٦) ابن أبى أصيبعة . عيون الأنباء / ٥٢٢
- (٤٧) ابن أبى صعبية - نفس المصدر / ٥٣٦
- (٤٨) الإحاطة ج ٣ / ١٣٤
- (٤٩) ابن الخطيب ، الإحاطة ج ٢ / ٢٥٠
- (٥٠) انظر الزجالى ، أمثال العولم ق ١ ، ص ٢٥٦
- (٥١) السيد عبد العزيز سالم ، صور من المجتمع الندلسى ، ( بحث مبجلة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ج ١٩ - ١٩٧٦ - ١٩٧٨ ص ٧٨
- (٥٢) أشار إلى هذا النص د. أحمد مختار العبادى نقلاً عن ابن الخطيب . الإحاطة ( نسخة الاسكوريال لوحة ٤٤١ ) .
- (٥٣) انظر أحمد مختار العبادى / مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى بلاد المغرب والأندلس ٦/٠ حاشية رقم (١) .
- (٥٤) انظر المقرئ . نفح الطيب ج ٦ / ٤٥٩ - ٤٦٠ وما بعدها .
- (٥٥) المقرئ . النفح ج ٥ / ٥٣٠ - ٥٣١
- عرفت المصارعة بين الحيوانات فى الشرق فيذكر أن المعتز ( منتصف القرن الثالث ) الهجرى كان يحب مشاهد العراك بين الحيوانات وكان يدعو ضيوفه لمشاهدة العراك بين الأسد والفيل ( انظر آدم متز ) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ٢٦٤/٢ .
- (٥٦) الجريسفى . رسالة فى الحبسة ١٢٣ - ١٢٤



(٥٧) شكرى ، غرناطة فى ظل بنى الأحمر ١٣٧

(٥٨) انظر أحمد عطية الله ، القاموس الإسلامى ج ٣ / ٣٠٦ - ٣٠٧ - دائرة

المعارف الإسلامية ج ٩/٥١-٥٢

(٥٩) ابن بسام . الذخيرة ق ١ ج ٢/٦٧٧ وانظر ترجمة الأديب ابن الشهيد لدى

الحميدى .

الجدوه / ٣٠٢ وقد أشار محقق الذخيرة إحسان عباس إلى أن النص يشير فى الأغلب إلى ( عيال الظل ) . كما أورده عبد العزيز الأهوانى فى مقالة المنشور بعنوان ( على هامش ديوان ابن قزمان ، مجلة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ج ١٩ ، ١٩٧٦ - ١٩٧٨ م / ٥٤ - ٥٥ ) .

(٦٠) انظر ابن عذارى، البيان الغرب ج ٣/٨٠ وكذلك الزجاجى، أمثال العوام ق ١/٢٥٤ (٦١) على هامش ديوان ابن قزمان ، بحث مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمديرية ج ١٩ / ٥٥ وأورد محمد ابن شريفة فى تحقيقه لأمثال العوام إشارة إلى زجل ابن قزمان إلا أنه لم يربط بين لعبة القليانى وخیال الظل .

ابن قزمان هو أبو بكر محمد بن عيسى عبد الملك أمام الزجاجين بالأندلس ولد حوالى سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م وتوفى سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م ( انظر ابن سعيد ، المقتطف من ازاهر الطرف ٢٦٣ ) .

(٦٢) انظر عبد العزيز الأهوانى على هامش ديوان ابن قزمان ٥٥ - ٥٦

(٦٣) انظر الزجاجى ، أمثال العوام ، ق ١ / ٢٥٤ حاشية رقم ٦

(٦٤) الزجاجى . أمثال العوام . ق ١ / ٢٥٢

(٦٥) الأبيات المذكورة أعلاه من بحر الوافر الذى وزنه :

مفاعلتن مفاعلتن فعولن مفاعلتن مفاعلتن فعولن

وكلمة ( وبجرى ) دخلها زحاف فنقلب من مفاعلتن وهذا يسمّى [ معصم ] أما كلمة ( وَغَجَرِي ) فى تستقيم أبداً مع وزن الأبيات . ولا مع بحرهما .

(٦٦) أى الجنين الذى ييس فى البطن : انظر لسان العرب ، مادة حش .

- (٦٧) انظر محمد بن شريفة . أبو المطرف أحمد بن عميرة ١٩٤ نقلًا عن الرسائل ١٤٩  
( محفوظ بالخزانة لعامة بالرباط تحت رقم ٢٣٢ ) .
- (٦٨) الزجاجي . أمثال العوام ، ق ١ / ٢٥٣ .
- (٦٩) الزجاجي . نفس المصدر والقسم والصفحة .
- (٧٠) انظر الذخيرة ، ق ١ ج ٢/٦٥٤ ، الزجاجي ، أمثال العوام ق ١/٢٥٤
- (٧١) رسالة في آداب الحسبة / ٨٣
- (٧٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢/٦٠
- (٧٣) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق عبد الرحمن الحجى ١٠٧
- (٧٤) الإدريسي ، نزهة المشتاق ج ٢/٥٦٦
- (٧٥) المغرب فى حلى المغرب ج ٢/٤٣٤-٤٣٥
- (٧٦) انظر ابن سعيد ، القدر المعلى ٧٣ - ٧٥
- (٧٧) النواريج مفردتها النيرج وهو أخذُ تشبه السحر وليست بحقيقة وإنما هو تشبيه وتلبيس ( لسان بالعرب . مادة نرج ) .
- (٧٨) ابن عبد الرؤف ، آداب آداب الحسبة والمحتسب ١١٣
- (٧٩) الإشارة إلى السندى هنا قد تكون عائدة إلى لعبة معينة أدخلها أحد الهنود إلى الأندلس فعُرفت به ويبدو أنها قرية مما يعرف فى عصرنا هذا برياضة اليوغا .
- (٨٠) رسالة فى آداب الحسبة ٨٣
- (٨١) ابن عبد الرؤف . آداب الحسبة والمحتسب ١١٢
- (٨٢) الجرسيفى ، رسالة فى الحسبة ١٢٣ - ١٢٤
- (٨٣) الجرسيفى ، نفس المصدر والصفحة .
- (٨٤) انظر الزجاجي . أمثال العوام ، القسم الأول ٢٣٩
- (٨٥) الزجاجي ، المصدر نفسه والجزء ٢٤٠
- (٨٦) الجرسيفى ، رسالة فى الحسبة ١٢٣ - ١٢٤
- (٨٧) المقرئ ، ج ٣/٢٨
- (٨٨) المراكشى ، المعجب ، المعجب ٢٢٥

- (٨٩) الحميدى ، جذوة المقتبس ٢٧٦
- (٩٠) الحميدى ، الجذوة / ٢٨٩ وانظر أيضًا أمثلة أخرى لدى الأصفهاني، خريدة  
القصر ج ٢ / ١٣١
- (٩١) عبادة كحيلة ، تاريخ النصارى فى الأندلس ١٧٦ - ١٧٧
- (٩٢) ابن الخطيب ، الإحاطة ج ١ / ١٣٨
- (٩٣) ابن سعيد ، القدح المعلى / ٩٥ وتحفة القادم / ٦٨
- (٩٤) ابن الخطيب ، الإحاطة ج ١ / ٩٩
- (٩٥) ابن الخطيب المصدر نفسه ج ١ / ١١٧ - ١٣٨
- (٩٦) انظر المقرئى : نفح الطيب ج ٣ / ١٢٧ حيث وصفه بأنه ( حوى من آداب  
المجالسة وطيب المحادثة ومهارة الخدمة الملوكية مام لم يجده أحد من أهل صناعته ) .
- (٩٧) ابن أبى صبيعة ، عيون الأنباء / ٤٩٣ - ٤٩٤
- (٩٨) ابن الأنبار ، الحلة السراء ج ١ / ٢٠٢
- (٩٩) الحميدى ، جذوة المقتبس ٢٤٠
- (١٠٠) الحميدى ، الجذوة ١٩٦
- (١٠١) الزبيدى ، طبقات النحويين واللغويين ٣٠٠
- (١٠٢) الزبيدى ، نفس المصدر ص ٢٩٠
- (١٠٣) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٣ ج ١ / ١٠٠
- (١٠٤) ابن عبد الرؤف ، آداب الحسبة والمحتسب ١١٢ - ١١٣
- (١٠٥) انظر على سبيل المثال الإحاطة ج ٣ / ٨٥ - ٩٧ - ١٦٠ - ١٩٦ - ٢٢٨ وكذلك  
ج ٢ / ٧٣ . وأصحاب التراجم المذكورة هناك كانوا فى قرون متأخرة من تاريخ الأندلس .

## ( قائمة المصادر والمراجع )

- (١) ابن أبي أصيبعة . ( ت ٦٦٨ هـ )  
عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تحقيق نزار رضا .  
دار مكتبة الحياة . بيروت ١٩٦٥ م .
- (٢) الإدريسي ، محمد بن محمد ( ق ٦ هـ )  
نزهة المشتاق في اختراق الآفاق . مكتبة الثقافة الدينية القاهرة .
- (٣) الأصفهاني ، عماد الدين محمد ( ت ٥٧٩ هـ ) .  
خريدة القصر وجريدة العصر ، تحقيق محمد العروسي وآخرين ، الدار  
التونسية للنشر ، ط الثالثة .
- (٤) ابن بسام ، علي بن بسام ( ت ٥٤٢ هـ ) .  
الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة بيروت  
١٣٩٨ هـ .
- (٥) الجرسيفي ، عمر بن عثمان ( ق ٦ هـ ) .  
رسالة في الحسبة ، تحقيق ليفي بروفينسال ، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي  
للأثار الشرقية القاهرة ١٩٥٥ م .
- (٦) الحميدى ، محمد بن أبي نصر ( ت ٤٨٨ هـ ) .  
جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس . الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة  
١٩٦٦ م .
- (٧) ابن حيان ، حيان بن خلف ( ت ٤٦٩ هـ ) .  
المقتبس في أخبار بلد الأندلس . تحقيق عبد الرحمن الحجى . دار الثقافة .  
بيروت ١٩٦٥ م وكذلك الجزء الذى حققه محمود مكى دار الكتاب العربى  
بيروت ١٩٧٣ م .

- (٨) ابن الخطيب ( ت ٧٧٦هـ ) .  
الإحاطة فى أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عنان ج ١ ط الثانية ح ٢ و ٣ و ٤ ط  
الأولى مكتبة الخانجي القاهرة .
- (٩) الزبيدي ، محمد بن الحسن ( ت ٣٧٩هـ ) .  
طبقات النحويين اللغويين ، تحقيق محمد أبو الفضل . دار المعارف ط الثالثة .
- (١٠) الزجالي ، عبد الله بن أحمد ( ت ٦٩٤هـ ) .  
أمثال العوام فى الأندلس ، دراسة وتحقيق د / محمد بن شريفة منشورات  
وزارة الدولة المكلفة بشئون الثقافة . مطبعة محمد الخامس بفاس .
- (١١) ابن زهر ، عبد الملك بن زهر ( ت ٥٥٧هـ ) .  
الأغذية . تقديم وتحقيق . إكسبيراثيون غارثيا المجلس الأعلى للأبحاث العلمية  
معهد التعاون مع العالم العربى ، مدير ١٩٩٢ م .
- (١١) ابن سعيد ، على بن موسى ( ت ٦٨٥هـ ) .  
(١) المغرب فى حلى المغرب . تحقيق شوقى ضيف . دار بالمعارف ، القاهرة ١٩٦٤ م .  
(٢) القدح فى التاريخ المحلى . اختصره محمد بن عبد الله بن خليل ، تحقيق  
إبراهيم الأبيارى ، دار الكتب اللبنانى ، بيروت ط الثانية ١٩٨٠ م .
- (١٢) ابن صاحب الصلاة ، عبد الملك ( ت ٥٩٤هـ ) .  
المن بالإمامة ، تحقيق عبد الهادى التازى . دار المغرب الإسلامى . بيروت  
١٩٨٧ م .
- (١٣) ابن عبد الرؤوف ، أحمد بن عبد الله ( ق ٥هـ ) .  
رسالة فى آداب الحسبة والمحتسب . تحقيق ليفى بروفنسال . مطبعة المعهد  
العلمى الفرنسى للآثار الشرقية . القاهرة ١٩٥٥ م .
- (١٤) أبو عبيدة ، معمر بن المثنى ( ت ٢٠٩هـ ) .  
أيام العرب . جمع وتحقيق عادل جاسم . مكتبة النعضة العربية بيروت ، ط  
الأولى ١٩٨٧ م .

- (١٥) ابن عذارى ، أبو عبد الله محمد ( ق ٨هـ ) .  
البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب . ج ٢ . تحقيق ومراجعة ج.س.  
كولان وليفى بروفنسال . دار الثقافة بيروت .
- (١٦) المسعودى ، على بن الحسين ( ت ٣٤٦هـ ) .  
مروج الذهب ومعادن الجوهر . تحقيق محمد محى الدين عبد الله عبد الحميد .  
مطبعة السعادة . القاهرة . ط الرابعة ١٩٦٤ م .
- (١٧) المراكشى ، عبد الواحد بن على ( ت ق ٧هـ ) .  
المعجب فى تلخيص أخبار المغرب . تصحيح وتعليق . محمد سعيد العريان  
ومحمد العربى العلمى . دار بالكتاب . الدار البيضاء . ط السابعة ١٩٧٨ م .
- (١٨) المقرئ ، أحمد بن محمد ( ت ١٠٤١هـ ) .  
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب . تحقيق إحسان عباس . دار صادر  
بيروت ١٩٦٨ م .
- (١٩) ابن منظور ، جمال الدين محمد .  
لسان العرب . دار صادر ، بيروت .
- ( أ ) المراجع :
- أحمد عطية الله : القاموس الإسلامى ، ج ٢ مكتبة النهضة المصرية القاهرة  
١٩٦٦ م .
- أحمد مختار العبادى : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب . مؤسسة شباب  
الجامعة . الإسكندرية ١٩٨٣ م .
- آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى . تعريب محمد عبد  
الهادى أبو ريده . دار الكتاب العربى ، بيروت ط الرابعة ١٩٦٧ م .
- أمين الخولى : الرياضة والحضارة الإسلامية . دار الفكر العربى القاهرة  
١٩٩٥ م .



- عباده كحيله : تاريخ النصارى فى الأندلس ، المطبعة الإسلامية الحديثة القاهرة ١٩٩٣ م .
- محمد بن شريفه : أبو المطرف أحمد بن عميرة حياته وآثاره ، منشورات المركز الجامعى للبحث مطبعة الرسالة . الرباط ١٩٦٦ م .
- يوسف شكرى : غرناطة فى ظل بنى الأحمر ، المؤسسة الجامعية للدراسات الجامعية والنشر ، بيروت ط الأولى .
- (ب) الدوريات :
- السيد عبد العزيز سالم : صور من المجتمع فى عصر الخلافة الأموية وعصر دويلات الطوائف من خلال النقوش فى علب العاج ، ( بحث بمجلة معهد الدراسات الإسلامية مدريد ج ١٩ سنة ١٩٧٦ - ١٩٧٨ م ) .
- عبد العزيز الأهوانى : على هوامش ديوان ابن قزمان ( بحث بمجلة معهد الدراسات معهد الإسلامية فى مدريد ج ١٩ سنة ١٩٧٦ - ١٩٧٨ م ) .
- دائرة المعارف الإسلامية : تعريب أحمد الشتتاوى وإبراهيم زكى خورشيد وعبد الحميد يونس . دار الفكر .



## الصرب بين البيزنطيين والبلغار

د. عادل عبد الحافظ حمزة (\*)

### أصل الصرب :

قيل فى تفسير كلمة " الصرب " إنها ترجع إلى أصل قوقازى هو لفظ "صير" Ser ، بمعنى رجل ، مع إضافة علامة الجمع التى تلحق بآخر الكلمة وهى "بى" ، فتصبح " صربى " : أى " رجال " . وقد ورد اسم الصرب للمرة الأولى فى القرن السادس الميلادى فى كتابات الجغرافى فيبيوس سكويسبوس Vibius Sequespus (١) فى حين يذكر بعض البيزنطيين أن كلمة " صرب " تعنى فى لغة الرومان " العبيد " وأنها باللغة الدرجة " صربولا " Serbula . بمعنى الذين يلبسون النعال الحقيبة (٢) ويبدو أن هذا التفسير قد ألحق بالصرب للخط من شأنهم ، فى ضوء خضوع الصرب للبيزنطيين ردحا طويلاً من الزمن .

أما عن أصل الصرب فقد أرجعه كثير من المؤرخين إلى السلاف Slaves الجنوبيين أو اليوجسلاف (٣) . وهؤلاء من العناصر الآسيوية التى تنتمى لمجموعة الشعوب الأوربية القديمة الذين قطنوا المنطقة الواقعة خلف جبال الكربات شمالاً ما بين نهري الفيزل والدينير (٤) وينقسم الصرب داخلياً إلى قسمين : صرب يوجسلاف، يبدو أنهم من مجموعة سلافية تشمل ( السلوفان والكروات والصرب والبلغار ) ومجموعة الشرق الروسية (٥) غير أن الصرب انشقوا عن السلاف ، وظهروا فى بداية القرن السادس الميلادى فى ألمانيا بمناطق " ماجد بورج " Mageburg وانهالت Anhalt (٦) حيث عاشوا بين نهري الإلب Elbe والسال

---

\* أستاذ مساعد بكلية الآداب - جامعة المنيا .

Sale (٧) ونتيجة لضغط الأقار أوغل الصرب وكذلك الكروات فى تراقيا ومقدونيا (٨) .

وكان أن حدث صراع على الميراث بين ولدى رئيس الصرب فى أوائل القرن السابع ، فلجأ أحدهما مع أتباعه إلى الإمبراطور البيزنطى هرقل ( ٦١٠ - ٦٤١ هـ ) ليساعدهم فى للاستقرار فى مكان جديد . ويبدو أن الإمبراطور البيزنطى وجدها فرصة ليستغل هؤلاء ضد الآفار الذين يقلقون الإمبراطورية البيزنطية ، مما يوضح أن هذه الجموع الصربية كانوا فى تلك المرحلة المبكرة من تاريخهم قادرين على صد الآفار بدليل استجابة الإمبراطور البيزنطى لطلبهم (٩) . على أية حال فإن الإمبراطور وطن جزءاً من الصرب فى الأماكن التى طرد الآفار منها وخاصة إقليم تسالونيك Thessalonica ، وفى المنطقة شمالى جبال أو لمبياس Olympus وهى التى أطلق عليه " صربيليا " Serblia . ويتعجب بعض المؤرخين من قدرة هذا المكان على استيعاب تلك الأعداد من الصرب (١٠) وأن كان يمكن القول أن أعداد تلك الجموع لم تتعد بضعة آلاف ، فضلاً عن إن جزءاً منهم فقط هو الذى استقر فى المكان الجديد وليس كل الصرب كما سبق القول .

وقد مكث هذا الفريق من الصرب فترة ليست طويلة ثم عاودهم الحنين للعودة مرة أخرى إلى أماكنهم الأصلية حيث بقية بنى جلدتهم يعيشون فيما بين نهري الآلب والسال إلى جانب الهنغارين ، وذلك فى المنطقة التى يطلق عليها اسم بوجكى Bijki المجاورة لكرواتيا التى تسمى البيضاء (١١) . ولكن حدث أثناء عودتهم - عند عبورهم نهر الدانوب - أن عدلوا عن رأيهم ، وفكروا فى العودة مرة ثانية إلى أحضان الدولة البيزنطية . لذلك أرسل أميرهم بورجا Porga إلى الإمبراطور البيزنطى هرقل يطلب منه من الصرب منطقة أخرى يستقرون فيها ، فسمح لهم الإمبراطور البيزنطى بالاستقرار فى إقليم نسب إليهم وعرف باسم بلاد الصرب serbia بالإضافة إلى عدة مناطق تحمل أسماء الباجانى والزاكلمسى

Zachlumi وتربونيا Terbounia والكاناليت Kanalites وهذه الأقاليم كانت خالية بعد ما هجرها أهلها من الرومان إمام الزحف السلافي (١٢).

ويبدو كما يرى بعض الباحثين أن الذي كان قد دفع الصربيين إلى اتخاذ قرار العودة إلى بلادهم هو أن الأرض التي حاولوا الاستقرار فيها كانت مجربة فقيرة وأنهم لم يفلحوا في أن يعاشوا أهل البلاد الأصليين من اليونانيين فضلاً عما ألقى عليهم من بعض الالتزامات ، مما دفعهم إلى الاتجاه نحو الدانوب . هذا من ناحية ؛ ومن ناحية أخرى ربما دفعهم إلى تغيير رأيهم عند وصولهم إلى الدانوب ، و التفكير في الاستقرار في شبه جزيرة البلقان ، أنهم أدركوا أن هناك أرضاً لهم ، وأن أتباعهم وذويهم من القبائل الأخرى استقروا فيها (١٣) .

وهكذا أخذت قوافل الصرب تتجه نحو المناطق الآنفة الذكر التي منحهم إياها الإمبراطور البيزنطي هرقل في أوائل القرن السابع الميلادي . غير أنهم لم يقنعوا بما صار تحت أيديهم من بلاد ، وإنما تطلّعوا إلى غرب أوربا ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من الشعوب التي استقرت في شرق أوربا ، مثل الهنغارين بعد ذلك . على أي حال فإن هناك إشارات في المصادر تشير إلى هجوم الصرب خلال القرن الثامن الميلادي على إقليم ثورنجيا سنة ٧٨٢م ، حيث احتكوا بقوات الفرنجة (١٤) ، التي تصدت لهم وجعلت حركتهم التوسعية تقتصر على شبه جزيرة البلقان . وكان أن استطاعوا في بدايات القرن التاسع الميلادي احتلال بعض المدن وتدمير ما قاومهم واعترض سبيلهم ، مثل سنجو دينوم Singidunum "بلجراد" Belgrade وفيينا سيوم Vimindeum وكوستولان Kostolan على نهر الدانوب ، وديوشيا Dioclea وتيتو جراد Titograd في مونتيجرو Montenegro وسالونا Salona التي انقسمت إلى دلبا شيا (١٥) هذا بالإضافة إلى أن الصربيين فرضوا سيطرتهم على القبائل السلافية بين نهري الألب والساله (١٦) واستقروا في تلك المنطقة حيث كونوا دولة يحدها من الشمال الغربي كرواتيا Croatia والبوسنة

Bosnia ومن الغرب هر س ك جوفينا Hercegovina ومنوتنجرو ، ومن الجنوب العربى البانيا Albania ومن الجنوب مقدونيا ، ومن الشرق بلغاريا ورومانيا ، ومن الشمال المجر (١٧) ، وكانت جبال الألب الديناريه تحوط بلاد الصرب من الغرب ، ومن الشمال جبال الألب الألبانية " بروكليتسى " Prokletige ، وجبال شار فى الاتجاه الجنوبى الغربى وجبال البلقان فى الشرق ، بالإضافة إلى نهر الدانوب الذى يتدفق من الشمال إلى الجنوب ليفصل بين يوغسلافيا ورومانيا (١٨) ومن ثم تكون دولة الصرب قد امتدت من بلجراد إلى شاطئ البحر الأدرياتي (١٩) .

هذا عن المكان الذى استقر فيه الصرب ، أما عن لغتهم فهى تشبه إلى حد كبير اللغة الكرواتيه باستثناء بعض اختلافات لغويه فى المفردات واستخدام الأحرف الهجائية المختلفة . والكروات يستخدمون الحروف الرومانية اللاتينة فى حين أن الصرب يستخدمون الحروف السيرليه و النصوص الأولى التى وجدت فى اللغة الصربية والكرواتية يرجع تاريخها إلى القرن الثانى عشر الميلادى (٢٠) .

### الصراعات الداخلية بين أمراء الصرب :

وهكذا لم يكن يتصف القرن التاسع الميلادى إلا وكانت الشعوب والقبائل الصربية قد كونت كياناً سياسياً وعسكرياً لها ، وتلقب أميرهم الذى تولى القيادة السياسية بلقب زوبان Zupan (٢١) وسرعان ما غدت مجموعة مدن صربيا عامرة بالسكان ، مثل دستتيكون Destinikon وتزنا بوسكى Tzernabouskei وبحيرتوس Megyretous ودرسنيك Dersneik ولسنيك Lesnik وسالينس Salines ، وفى إقليم البوسنة Bosona توجد مدن كاتيرا Katera وغيرها (٢٢) .

ولاشك فى أن هذا المجتمع الصربى الأخذ فى النمو والاستقرار قد واجه مشاكل سياسية داخلية لعدم استقراره استقراراً كاملاً من ناحية ، ووجود كثير من الطامعين فيه من ناحية ثانية ، ولتطلع معظم الأمراء إلى السلطة من ناحية ثالثة .



وقد أعقب موت أمير الصرب بورجا Porga ابنه ثم حفيده ، ثم توالى الحكم فى هذه الأسيرة واحد بعد الآخر . وقد شهد النصف الأخير من القرن التاسع اشتداد الصراع حول الحكم بين الأبناء بعضهم وبعض ولأخوة والأعمام ، مما أتاح فرصة للبلغار للتدخل فى شئون دولة الصرب .

ويمكن القول أن أمراء البيت الحاكم فى صربيا ، أعطوا الفرصة للبلغار للتدخل ، ومن ثم زاد هيب الصراع بين أفراد ذلك البيت . ولم يقف الصراع عند هذا الحد ، فقد تدخلت بيزنطة هى الأخرى ليس ضد بلاد الصرب فحسب ، بل ضد التدخل البلغارى أيضاً ، حيث أرسل الإمبراطور البيزنطى رومانوس الأول Romanus 1 من القسطنطينية الأمير زكريا من بريسلاق بن مونتيمير الصربى ليتدخل فى الحكم من بولس بن برانواس أمير الصرب الذى ساندته الأمير سيمون البلغارى ، وبذلك يكون الإمبراطور البيزنطى قد حاول الحد من النفوذ البلغارى فى بلاد الصرب . وهكذا صارت الحرب الأهلية بين أمراء الأسرة الحاكمة فى الصرب ، عبارة عن حرب بين البيزنطيين والبلغار على أرض صربية ، وقد انتهت هذه الحرب ، بانتصار بولس بن برانوس على زكريا بن بريسلاف ، فسلم الأمير بولس غريمه الأمير زكريا للبلغار الذين أو دعوه فى السجن (٢٣) .

على أن الأمير بولس لم يلبث أن ضاق ذرعاً بالسيطرة البلغارية عليه ، ومن ثم لم يستمر على ولائه للبلغار . وعندما أدرك البلغار ذلك فكروا فى إرسال الأمير زكريا المسجون عندهم وغريم الأمير بولس ، ليحل محله فى صربيا ، وكان أن استولى الأمير زكريا على الحكم فى صربيا بمساندة البلغار لمدة أربع سنوات (٩٢٠ - ٩٢٤هـ) . غير أن الأمير زكريا لم يلبث بدوره أن سئم سيطرة البلغار عليه ، فأراد التخلص منهم . ولما أحس البلغار بذلك رأوا أنه لابد من تعديل سياستهم ، فعينوا على صربيا الأمير تزييسلاف Tzeeslav بن كلوينيمير البلغارى الأم الصربى الأب ، وسليل الأسرة الحاكمة الصربية ، وأرسله الأمير سيمون

البلغارى صحبة جيش بلغارى . وقد دبر الأمير سيمون مؤامرة قبض بمقتضاها على أمراء الصرب كلهم ، وكان من بينهم الأمير تزيسلاف نفسه . أما الأمير زكريا حاكم الصرب ، فقد فر إلى كرواتيا . وقد مكث هؤلاء الأمراء فى بلغاريا بضع سنين إلى أن استطاع تزيسلاف الهروب من بلغاريا ، ودخل صربيا من مدينة بريسلاف واستولى عليها . وعندئذ وجد البلاد وقد هجرها أهلها ، بحيث لم يبق فى صربيا إلا عددًا قليلًا من الناس يعيشون على الصيد . ولما كان تزيسلاف له تجارب سابقة مع البلغار ، وعلى يقين من رغبتهم فى السيطرة الجامعة على صربيا ، فإنه لم يلبث عندما دخل صربيا أن تخوف من هجوم بلغارى عليه ، الأمر الذى دفعه إلى طلب المساعدة العسكرية من الإمبراطور البيزنطى رومانوس الأول ( ٩١٩ - ٩٤٤ م ) على أن يكون تابعًا له . ولاشك فى أنها كانت فرصة عظيمة للإمبراطور البيزنطى ، تمكنه من السيطرة على صربيا وأمرائها ، فأرسل قوات عسكرية لأمير الصرب بريسلاف . وعندما شعر الصربيون الذين فروا من بلادهم إلى بلغاريا وبيزنطة وكرواتيا بسب الحرب الأهلية من ناحية والهجوم البلغارى البيزنطى من ناحية أخرى بالأمان ، أخذوا يعودون إلى بلادهم صربيا ، فى حين عمل تزيسلاف ( ٩٢٧ - ٩٥٠ ) على النهوض بالعمارة فى بلاده وتوطين الصربين فيها ( ٢٤ ) . وبذلك يكون الصراع البيزنطى البلغارى قد أخذ من بلاد الصرب ساحة له ومن أمرائها أداة لتدمير هذه البلاد وتشتيت سكانها وتخريب ديارهم وإشاعة الفوضى وعدم الاستقرار بين ربوعها .

### الصرب والمسيحية :

كانت القبائل الصربية أيا كان مصدر هجراتها وثنية فى أول أمرها ، وخاصة إذا علمنا أن تحرك هذه القبائل بدأ غالبًا قبل القرن السادس الميلادى ، فى وقت لم تكن المسيحية قد انتشرت انتشارًا واسعًا فى شرق أوروبا . وبعبارة أخرى فإن القبائل الصربية التى استقرت فى الإمبراطورية البيزنطية أوائل القرن السابع

الميلادى أبان عهد الإمبراطور هرقل ( ٦١٠ - ٦٤١ م ) كانت وثنية ، ولم تكن قد اعتنقت المسيحية بعد (٢٥) وقد دفع ذلك الإمبراطور إلى أن يطلب من روما إرسال مبشرين لتنصير الصربيين وليشرحوا تعاليم المسيحية وجوانبها (٢٦) .

وهكذا أخذت الإمبراطورية البيزنطية على عاتقها القيام بعملية تنصير الصرب واستمرت هذه السياسة بعد عهد الإمبراطور هرقل ، إذ يشير بعض المؤرخين إلى أن هناك محاولات فى هذا الصدد بذلت من قبل الإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور باسيل الأولى Basil 1 ( ٨٦٧ - ٨٨٦ م ) (٢٧) ، وقد واكب ذلك فترة حكم أمير الصرب مونتيمير Montimer الذى اعتنق المسيحية على المذهب الأرثوذكسى عام ٨٧٩ (٢٨) . وبذلك أخذت المسيحية تشق طريقها فى المجتمع الصربى خلال القرنين التاسع والعاشر للميلاد (٢٩) وكان أن أخذت الكنائس تظهر فى صربيا اعتباراً من عهد راستكو Rastko الذى عرف بالقدّيس سافا Sava ، حيث أسس سنة ١٢١٩م كنيسة أرثوذكسية تحمل اسمه (٣٠) ، وعين نفسه أول أسقف لها ، فضلاً عن تأسيسه عددًا من الأسقفيات الجديدة بعد ذلك (٣١) وكان للقدّيس سافا طائفة ربطت المسيحية الصربية بالمراكز الدينية التى زارها ، وهى جبل أثوس Athos ، والقدس ، والقسطنطينية ، و " ترنوفو " Trnovo وعند وفاته نقل رفاته من بلغاريا إلى الدير الملكى فى ملسيفا Mileseva بصربيا عام ١٢٣٧م (٣٢) .

ومهما يكن من أمر ، فإن صربيا أخذت بالمسيحية على المذهب الأرثوذكسى ولم يتهاون أمراء صربيا ضد كل من حاول أبعاد الصربيين عن الأرثوذكسيه ، وليس أدل على ذلك مما ورد فى الدستور الذى وضعه ستيفن دوشان ( ١٣٣١ - ١٣٥٥ م ) بشأن معاقبة كل من يحاول تحويل الرعايا الأرثوذكس إلى البدعة اللاتينية ( الكاثوليكية ) كذلك الزواج بين الأرثوذكس وأنصاف المؤمنين ، يعنى الكاثوليك . ولا شك فى أن هذا الاتجاه يحمل بين ثناياه

عداء بين ستيفن دوشان والبابوية . غير أن هذا العداء كان لا يبدو إلا فى أوقات السلام الصربى فقط ، أما إذا توترت العلاقات بين الصرب والبيزنطيين فإن ستيفن كان يمالئ البابوية (٣٣) على أية حال فإن ستيفن دوشان بذل جهداً كبيراً لدعم المسيحية الأرثوذكسية الصربية وحسبه أنه أنشأ البطركية الصربية (٣٤) .

ولا شك فى أنه بالإضافة إلى جهود أمراء صربيا فى نشر المسيحية بين الصرب لا ننسى دور البيزنطيين فى هذا المضمار . وقد حرصت الدولة البيزنطية على إرسال البعثات التبشيرية إلى صربيا خوفاً من تغلغل النفوذ الدينى البلغارى فيها ، لما هناك من عداء مستمر بين البيزنطيين والبلغار ، وعليه فقد انتشرت المسيحية الأرثوذكسية فى صربيا (٣٥) .

### علاقة الصرب بالبيزنطيين والبلغار :

كان للصرب منذ وقت مبكر أطماعهم التوسيعه على حساب جيرانهم مما أوقعهم فى صدام مع هؤلاء الجيران ، وهو ما يشير إليه التاريخ فى موقف شارلمان منهم وسيطرته على بعض القبائل الصربية (٣٦) ويغلب على الظن أن قوات شارلمان لم تصل إلى بلاد الصرب إلا فى أواخر القرن الثامن الميلادى ، وذلك بعد أن هاجمت بعض القبائل الصربية إقليم ثورنجا عام ٧٨٢م (٣٧) .

كذلك حدث صدام بين الإلمان وأقوى قبيلة صربية وهى اللوساكيين Lusicians (٣٨) ، كما اصطدم التشيك Czechs بالصرب (٣٩) .

وهناك بعض المؤرخين ذكر أن السكسون هجموا على الصرب فى بلادهم فى ربيع سنة ٩٢٩م تقريباً ، وخاصة على قبيلة الدالمنيزى Daleminzi الصربية (٤٠) .

هذا فيما يخص المناوشات التى حدثت بين الصرب وبعض القوى الغربية . ومن الواضح أنها لم تستمر طويلاً ، وإنما كانت عبارة عن هجمات خاطفه من

الجانبيين ، فهي إذا كانت من جانب الصرب فهي على ما يبدو بهدف البحث عن مكان للاستقرار ، أو البحث عن غنائم ، أو وضع اقتصادى أفضل . وإذا كانت الهجمات من جانب القوى الأوروبية الغربية سواء من الفرنجة أو التشيك أو السكسون فهي فى الغالب لاحتواء قبائل الصرب حتى لا تطلقها أو لأسكاتها حتى لا تكرر هجماتها .

أما علاقة الصرب بالدولة البيزنطية والبلغار فقد اختلفت اختلافًا بينًا . ويبدو إن الصرب عاشوا فى وئام مع الإمبراطورية البيزنطية بعد عصر هرقل خلال القرون السابع والثامن والتاسع للميلاد . وانتهج الصرب نفس السياسة تجاه البلغار ، بل كانت هناك - أحيانًا - صداقة قائمة بين الطرفين لأنهما سويا يخشون قوة الإمبراطورية البيزنطية (٤١) .

والذى لا شك فيه هو أن قوة الصرب أقل بكثير من قوة البلغار ، الأمر الذى كان يدفع الصرب إلى التودد للبلغار ، ولكن البلغار كانت لهم أطماع سياسية فى بلاد الصرب ، أدناها إخضاع أمراء الصرب للسيطرة البلغارية ، ومن ثم فإن هناك محاولات بذلت من جانب البلغار لتنفيذ مخططاتهم ضد الصرب . وبدأت أولى هذه المحاولات فى النصف الأول من القرن التاسع الميلادى فى عهد أميرهم برسيام Persiam ( ٨٣٦ - ٨٥٢ م ) إذ شنوا حربًا ضد الصرب استمرت قرابة ثلاث سنوات ، وكان أمير الصرب عندئذ هو بلاستيمير Blastimer . غير أن البلغار لم يتمكنوا من الانتصار على الصرب بل حلت بهم الهزيمة ، وبالتالى ذهبت آمال البلغار تلك المرة أدراج الرياح فى محاولة الاستيلاء على بلاد الصرب . ثم كرر البلغار المحاولة مرة أخرى عندما استغلوا الانقسام الأسرى الذى ساد بين الأمراء فى بلاد الصرب والذى نشب بين أولاد بلاستيمير الثلاثة بعد وفاة والدهم ، فزحف الأمير البلغارى ميخائيل بوريس Michael Boris بن برسيام لتحقيق آمال والده فى بلاد الصرب وينتقم منهم ، لكن الصرب هزموه هزيمة ساحقة ، وأسروا



ابنه فلاديمير Vladimir . وعندئذ لم يكن أمام أمير البلغار ميخائيل إلا التفكير جدياً في أمرين هامين هما ؛ إطلاق سراح ابنه من الأسر ، والخروج بجيشه سالماً من بلاد الصرب . لذلك طلب من أمير الصرب موتيمير أن يفك أسر فلاديمير ، ويحميه بقواته حتى يخرج من بلاد الصرب ، بالفعل أرسل موتيمير ولديه بوريناس Borenas وستيفن Stephen ليصحبوا الأمير البلغاري ميخائيل وجيشه إلى أن غادر بلاد الصرب ، ووصل إلى بلاده آمناً . ويبدو أن الأمير البلغاري اعتبر مغادرته بلاد الصرب دون المساس به وقواته جميلاً أسداه له الأمير الصربي . وليس أدل على ذلك من إرساله الهدايا الفاخرة للأمير الصربي موتيمير الذي اعتقد أن ما فعله أمير البلغار يعبر عن صفاء سماء العلاقات بينهما ، وأن ذلك إيذاناً بفتح صفحة جديدة بينهما . والدليل على ذلك أنه رد على هدايا الأمير البلغاري بإرساله ثمانية عشرة قطعة من الفراء وكلبين وصقارين وعبيدين له . غير أن الأمير البلغاري ومن معه من أمراء البلغار اعتبروا هذه الهدايا تعبيراً من أمير الصرب عن ولاءه وخضوعه لأمر البلغار ، أى أنها بمثابة إتاوة (٤٢) . على أية حال ترتب على هذا توطيد العلاقة بين الصرب والبلغار ، ووصل الأمر إلى زواج الأمير الصربي كلونيمير Klonimer بن سترويمير من امرأة بلغارية ، أنجب منها تزيسلاف Tzeaslav (٤٣) .

ومهما يكن من أمر هذه الفترة من العلاقات الصربية البلغارية ، فإن حكم الأمير الصربي بطرس بن جوينيكوس بن بلاستيمير ( ٨٩٢ - ٩١٧ م ) عاصر فترة حكم كل من الأمير البلغاري سيمون ( ٨٩٣ - ٩٢٧ م ) والإمبراطور البيزنطي ليو السادس Leo VI ( ٨٨٦ - ٩١٢ م ) . ويذكر بعض المعاصرين أن الأمير بطرس الصربي من جانبه ناشد السلام مع الأمير البلغاري سيمون ، كما دان - بطرس - بالولاء والطاعة للإمبراطور البيزنطي ليو السادس . غير أنه حدث بعد وفاة الأخير وإعلان الوصاية على الإمبراطور القاصر قسطنطين السابع ، أن جاء الحاكم العسكري البيزنطي لإقليم دايراً كيوم ، وكان يدعى ليو رابدوكوس Leo



Rhabduchus إلى إقليم باجاني الصربي لينافس الأمير بطرس حول بعض الموضوعات . وقد أزعج ذلك مخيائيل أمير زاكلمى ( ٩١٣ - ٩٢٦ م ) ، فكتب إلى الأمير سيمون البلغاري يذكر له أن الإمبراطور البيزنطي أرسل إلى الأمير بطرس الصربي يطلب منه مساعدة الصرب للهنغاريين ( ٤٤ ) لمحاربة البلغار . ولا شك في أن ذلك أدى إلى استياء الأمير البلغاري من المكائد البيزنطية ضده ، الأمر الذي ترتب عليه حدوث معركة بين البيزنطيين والبلغار في ٢٠ أغسطس ٩١٧ م عرفت بمعركة أخيلو Achelo . ولم يكتف الأمير سيمون البلغاري بهذا بل وجه جهوده العسكرية ضد الأمير بطرس الصربي فأرسل جيشاً بقيادة سيجر يتيس تيودور Sigritzis Theodor ومارمياس Marmais سنة ٩٢٠ م . وكانت خطة الأمير البلغاري تستهدف خلع الأمير بطرس من بلاد صربيا وتعيين أمير صربي موال للبلغار ويكون على عدااء مع بطرس . وقد وجد البلغار ضالتهم المنشودة في الأمير الصربي بولس بن برانوس بن مونتيمير بن بلاستيمير الذي كان بطرس قد سمل عينى والده وحتى لا يلجأ البلغار إلى حرب طاحنة مع الصرب تكون نتيجتها الفشل كما سبق ، لجأ البلغار إلى الحيلة والخداع ضد الأمير الصربي بطرس ، فأظهروا له أنهم أصدقاء منذ القدم ؛ وأن هناك روابط ودلائل تشير إلى ذلك ، ولا داعى للتخوف منهم . وبالفعل اطمأن الأمير بطرس تماماً وقابلهم . وعندئذ خانوا القسم الذى اقسموه على أنفسهم بأنهم لن يخونوه وتنصلوا من تعهداتهم، فقبضوا عليه وخلعوه من الحكم وعينوا بدلاً منه أميرهم الصربي بولس الذى جاءوا به من بلغاريا . أما بطرس فقد أخذه البلغار وسجنوه عندهم حتى مات وهو فى السجن ( ٤٥ ) .

وإزاء هذا التدخل البلغاري السافر فى صربيا ، لم تستطع بيزنطة الوقوف مكتوفة الأيدى . فإذا كانت بلغاريا قد فرضت أميراً صربياً من قبلها على صربيا ، فإن معنى ذلك الحد من النشاط البيزنطي فى المنطقة أمام انتشار النفوذ البلغاري .

وهذا ما لا تحتمله بيزنطة : وإمام هذه الأعمال البلغارية فى صربيا ، قام الإمبراطور البيزنطى رومانوس الأول ( ٩١٩ - ٩٤٤ م ) بإرسال الأمير الصربى زكريا بن بريسلاف بن موتيمير بن بلاستيمير الذى كان مقيماً فى بيزنطة ، مؤيداً عسكرياً منها ليحارب الأمير الصربى بولس المعين من قبل البلغار ، ودخل الأميران فى صراع انتهى بانتصار الأمير بولس على الأمير زكريا المدعم بمساعدة بيزنطية ، وأسره وسلمه لبلغار الذين أخذوه والقوا به فى السجن مثلما ألقوا ببطرس من قبل (٤٦) .

لقد حكم بولس بلاد الصرب ثلاث سنوات تحت رعاية البلغار ، لكنه ضاق ذرعاً بالتدخل البلغارى وأعلن العداء لهم . ولم ينتظر البلغار حتى تتدخل بيزنطة ، وتستغل هذا العداء ، لذا أرسلت بلغاريا الأمير الصربى زكريا بن بريسلاف المسجون عندها ، وقد سبق أن أرسله بولس أسيراً إليها . على أية حال تمكن زكريا هذه المرة بفضل المساعدة البلغارية من الانتصار على بولس وهزمته وطرده من صربيا . وغدا زكريا أميراً على الصرب تحت السيطرة البلغارية ( ٩٢٠ - ٩٢٤ م ) . وفى الصدام بين البيزنطيين والبلغار قرر الأمر زكريا الوقوف إلى جانب الإمبراطور البيزنطى ، فأخذ يرسل المبعوثين إلى أباطرة الإمبراطورية البيزنطية أثناء حكمه لصربيا تحت رعاية البلغار ، وكافة رسائله إلى الإمبراطور البيزنطى تشير إلى طلب التبعية والخضوع لبيزنطية (٤٧) .

وإذا لم نسلم بما أورده قسطنطين بورفيجنيتوس عن طلب الأمير الصربى الخضوع لبيزنطة ، فإن بيزنطة كانت تتحين الفرصة - بلا شك - للسيطرة على صربيا من حين لآخر . وإما كان الأمر أمام العداء الذى أعلنه الأمير الصربى زكريا للبلغار ، كان على أمير البلغار سيمون أن يضع حداً لسياسة الأمير زكريا . ولم يكن أمامه غير الخيار العسكرى ، لأن البلغار لا ينظرون إلى الصرب بوصفهم أندادا لهم ، وإنما هم إتباع . ولذا فإنه لم يكن هناك مجال للمفاوضات السياسية .

وكان الحل الوحيد أمام البلغار هو إخضاع الصرب وأميرهم بالقوات العسكرية .  
وللمرة الثانية فى عهد سيمون أرسل جيشًا على رأسه ثلاثة من القادة ، يصحبهم  
أمير صربى هو تزيسلاف ، البلغارى الأم ، الصربى الأب . وهذه القوات فاقت  
فى عددها وعتادها مقدرة الأمير زكريا العسكرية ، ولذا لم يستطيع الصمود أمامها  
ففر إلى كرواتيا . ومرة أخرى خضع أمراء الصرب أمام وعود البلغار وخرجوا  
إليهم ، فقبض عليهم البلغار جميعًا بمن فيهم تزيسلاف نفسه سنة ٩٢٤م تقريبًا ،  
بالإضافة إلى كثير من أهالى صربيا ، وأخذوهم أسرى . أما الباقون من الصربيين  
فقد فروا إلى كرواتيا وراء الأمير زكريا ، وتركوا صربيا خاوية ، شبه خالية تمامًا  
من السكان . وتمادى من البلغار فى قطع الطريق على زكريا وإتباعه من الصرب  
الذين فروا إلى كرواتيا ، فقد أمر سيمون بإرسال فرقة عسكرية إلى كرواتيا  
لقتالهم، وحتى لا يفكر الأمير زكريا فى الاستغاثة بهم والعودة إلى صربيا مرة  
أخرى(٤٨) .

أما تزيسلاف الأمير الصربى الذى كان من المنتظر أن يعينه البلغار أميرًا على  
صربيا فقد جاعوا به معهم ثم خدعوا به أمراء الصرب وأسروهم جميعًا وهو معهم.  
وقد عاش بعد ذلك قرابة سبع سنوات فى بلغاريا يتحين الفرصة للعودة إلى بلاده  
أميرًا . ولم يكن فى إمكان تزيسلاف تحقيق هذا الهدف فى ظل وجود أمير البلغار  
سيمون لما له من شكيمة ، لذلك ما أن مات الأخير سنة ٩٢٧م(٤٩) ، حتى هرب  
تزيسلاف من بلغاريا ومعه أربعة رجال ودخل صربيا من مدينة بريسلاف ،  
فاستولى على هذه المدينة . وقد خشى من هجوم بلغارى جديد على الصرب ،  
ولذا استغاث بالإمبراطور البيزنطى رومانوس الأول ، وطلب منه قوات عسكرية  
بيزنطية للمساعدة ، مقابل قيام الأمير تزيسلاف بإعلان التبعية والولاء للإمبراطور  
البيزنطى ، بحيث يكون خادمة الأمين ورهن إشارته ، مثلما فعل أمراء الصرب  
الأولين . ولا شك فى إن هذا كان كل ما يتمناه الإمبراطور البيزنطى ، فاستجاب

للأمير الصربي وأرسل إليه ما أراد من عون عسكري ، وبذلك أصبحت صربيا فى حماية البيزنطيين . وكان بدأت صربيا مرحلة جديدة فى طريق استقرارها ، وأخذ أهالى صربيا الذين فروا منها إلى كرواتيا ، وأسرهـم البلغار أو أستا منهم الإمبراطور البيزنطى فى إمبراطوريته ، يعودون إلى صربيا . ومن ناحيته بدأ الأمير الصربى تزيـسلاف ( ٩٢٧ - ٩٥٠ م ) يعمل على تعمير صربيا وتنظيمها مستغلاً ما أرسله إليه الإمبراطور البيزنطى من معونة وهدايا فاخرة وثمانية (٥٠) .

ومن هنا فإن صربيا وتوابعها مثل راسكيا Rascia وليم The Lim وإيـار Ibar وزيتا Zeta وزاـكلوميا وباجانى وغيرها ، ظلت فى حماية الإمبراطورية البيزنطية حتى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى (٥١) إلى أن ظهر أمراء صربيون أقوياء أخرجوا أنفسهم من التبعية البيزنطية التى فرضها أمراء صربيا السابقون عليها (٥٢) مثل راسكيا التى أعلنت الحرب على الإمبراطورية البيزنطية للتخلص من الخضوع لها . وقد وقفت هنغاريا بجوار راسكيا ضد بيزنطة ، الأمر الذى ترتب عليه قيام أباطرة الإمبراطورية البيزنطية من أسرة كومنن بأنفسهم بحملات عسكرية ضد هنغاريا لمساعدتها المدن الصربية لتحرر من السيطرة البيزنطية . وأبان هذه الحركات التى قامت بها المدن الصربية ضد بيزنطة ، لجأ البيزنطيون إلى عزل أمراء الصرب ، وتعيين غيرهم موالين لبيزنطية ، لكن هذا الأسلوب وغيره مما أتبعته بيزنطة مع الصرب لم يكن ناجحاً ، فإذا رجعت القوات البيزنطية إلى بلادها سرعان ما انقلب الصرب ثانية ضد بيزنطة (٥٣) .

وعندما تولى عرش صربيا الأمير ستيفن ثيمانى Stephen Temani ( ١١٦٧ - ١١٩٦ م ) حاولت الإمبراطورية البيزنطية فرض سيطرتها على صربيا ، فاستغلت النزاع الذى ساد بين أمير صربيا وأخواته ، وشجعتهم على تقسيم صربيا ، وحصل ستيفن على نصيبه ، فزادت مكانته وأصبح هو الأمير الأكبر ( الزوبان الكبير ) . وعندئذ عمل على التخلص من السيطرة البيزنطية ، لكن

الإمبراطور البيزنطى ما نويل كومنين (١١٤٣-١١٨٠م) Manuel Comnenus لم يتركه يهدأ بذلك ، إذ قام بحملة ناجحة على بلاد الصرب أخضع بها ستيفن ثيمانى ، وأعلن تابعاً له عام ١١٧٢م (٥٤) .

وقد احتفل بذلك الإمبراطور مانويل كومنين عند دخوله القسطنطينية (٥٥) ، ولكن وفاة الأخير عام ١١٨٠م كان نكبة على الإمبراطورية البيزنطية ، إذ زادت هجمات الهنغارين والنورمان عليها ، وسعت بلغاريا إلى التخلص من السيطرة البيزنطية . وفى نفس الوقت كان فردريك الأول يخترق بحملته الصليبية الأراضى البيزنطية فى جو من سوء تفاهم بينه وبين الإمبراطور البيزنطى إسحق الثانى انجليوس Isac Angelus (١١٨٥ - ١١٩٥م) وأمام هذا الوضع لم يترك ستيفن ثيمانى هذه الفرصة ثم مديده ، فهو لم يعمل على التخلص من السيطرة البيزنطية فحسب ، بل عمل على توسيع أملاك الصرب على حساب الإمبراطورية البيزنطية، إذ استولت راسكيا على بعض المناطق ، وخاصة ما تبقى من إمارة "زيتا" وكذلك المدن الساحلية مثل سكوتارى Scutari وبار Bar وأولسينى Ulciny وكوتور Kotor (٥٦) ويضيف بعض المؤرخين أن ستيفن ثيمانى استغل قدوم الإمبراطور فردريك الأولى بحملته الصليبية إلى الشرق ، وأعلن الترحيب به وقدم له المؤن من شعير ودقيق وأغنام وبقر ، وهدايا عبارة عن " فرس البحر وخنازير وثلاثة غزلان حيه متوحشه " ، كما وزع على كل أمير مجموعة من المؤن والخمر واللحم (٥٧) وقد فسر بعض المؤرخين هذا الموقف من أمير الصرب تجاه الإمبراطور الألمانى بأنه نكاية فى الإمبراطور البيزنطى إسحق الثانى انجليوس ، وإنه ربما يكون الأمير الصربى قد طلب المساعدة العسكرية من الإمبراطور الألمانى فردريك الأول ضد الإمبراطور البيزنطى (٥٨) .

ولم يقف الإمبراطور البيزنطى مكتوف الأيدى أمام تصرفات الصرب تجاه الدولة البيزنطية واستغلالها الأوضاع التى أضحت فيها ، فشن حرباً ضدهم ،



وتقابل مع الصرب على نهر مورافيا Moravia سنة ١١٩٠م فهزمهم وأجبرهم على طلب السلام والتخلى عن المكاسب التى حققوها على حساب البيزنطيين . ولم يكن من السهولة بمكان على الصرب تقبل شروط الإمبراطور البيزنطى ، إذ كان ما استولوا عليه خلال عشر سنوات يصعب التخلي عنه غداة معركة واحدة ، ولذا ظلت مساحات كبيرة من الأراضى البيزنطية تحت السيطرة الصربية . ويبدو أن الإمبراطور البيزنطى أخذ يدرك مدى قوة الصرب ، فلم تعد صربيا هى تلك المناطق والشعوب التى تسعى للحماية البيزنطية الآن كما كانت من قبل فى عهد هرقل أو رومانوس الأول . وصار على الإمبراطور البيزنطى أن يعيد النظر فى علاقته بالصرب ، ولذا لجأ إلى تحقيق كسب سياسى عن طريق المصاهرة مع الصرب بحيث تتزوج ايودكيا Eudocia ابنة الكسيوس انجليوس Alexius Angelus من ستيفن بن ستيفن ثيمانى (٥٩) .

ومهما يكن من أمر ، فإن ستيفن ثيمانى أمير صربيا تنازل عن الحكم سنة ١١٩٦م لابنه ستيفن الثانى ( ١١٩٦ - ١٢٢٧م ) . وكان ستيفن الأول يعتقد أنه بذلك العمل ستسود العلاقة طيبة بين الصرب والإمبراطورية البيزنطية لما بينهما من صلات نسب ، وقد أقر ابنه ستيفن ليحقق هذا الغرض ، فى حين أن الأمير ستيفن الأول أقر ابنه الأكبر فوكان Vukan على المقاطعات الصربية البحرية التى كانت بيده مثل زيتا Zeta وترينى Trebinge . ولا شك فى أن حرمان الابن الأكبر من تولى العرش قد أدى إلى نزاع أسرى استعان فيه فوكان بالهنغارين وستيفن الثانى بالبلغار ، وبالتالي تدخلت القوى الخارجية فى مشاكل صربيا الداخلية من جديد ، مما اضطر الأخوان فوكان وستيفن الثانى للانسحاب إلى المناطق البحرية . وعلى الرغم من أن البلغار ساعدوا ستيفن الثانى فى استعادة العرش ، إلا أن الأخوين توصلا إلى سلام ، وبذلك قدر صربيا أن تفيق من هذه الاضطرابات الأسرية ، وأخذت تلعب دورا جديدا على الساحة البلقانية فشنت



حروباً على خلفاء الأمس ( بلغاريا وهنغاريا ) (٦٠) ، وأصبح الطريق مفتوحاً أمامهم ناحية الامبراطورية البيزنطية ، بعدما سقطت بيزنطة عام ١٢٠٤م فى أيدي اللاتين ، وبذلك انزاحت هذه القوة التى ظلت جاثمة على قلب صربيا ردحاً من الزمن (٦١) . ولم تفلح صلة النسب بين الصرب والبيزنطيين فى توطيد الصلات الطيبة بينهما ، إذ تعددت القوى السياسية فى البلقان ، وطمعت فى السيطرة على صربيا . وشكل حلف ضم كل من الإمبراطور اللاتينى هنرى أف فلاندرز Henry of Flanders فى القسطنطينية والإمبراطور البلغارى " بوريل " Boril وحاكم ايروس Epirus ميخائيل الأول Michael I . ولم يكن أمام ستيفن الثانى الصربى إلا الصمود أمام هذا الحلف فى المنطقة ، حتى تمكن من صدّه ، وأوقف خطره على الصرب . وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على مكانة صربيا فى عهد ستيفن الثانى بصفة خاصة وفى القرن الثالث عشر بصفة عامة (٦٢) .

ومن هنا يمكن القول أن علاقات صربيا بالدولة البيزنطية والبلغار تأثرت إلى حد كبير بوضع صربيا فى منطقة البلقان وسط القوى السياسية المحيطة بها . ولم تقتصر علاقات صربياً على هاتين القوتين فحسب ، بل تعددت علاقاتها بكثير من القوى فى غرب أوربا كما رأينا ، وبعد سقوط بيزنطة فى أيدي اللاتين عام ١٢٠٤ م ، صار لصربيا علاقات مع أيبروس Epirus ونيقية Nicaea ، وأحياناً مع هنغاريا Hungary فضلاً عن الأنجويين Angevins فى صقلية ونابلى (٦٣) .

### الأوضاع الاجتماعية والثقافية والاقتصادية :

عندما استقرت القبائل الصربية فى منطقة البلقان ، كان من الصعب عليها فى البداية التخلص من الأوضاع القبلية العشائرية التى ألفها الصرب . ويصف البعض نظام الصرب عندئذ بأنه نظام عشائرى ديمقراطى ، يرتبط بالمصالح المباشرة لقبيلة أو عشيرة معينة . ولم يكن لدى القبيلة إحساس قوى بالوحدة أو المصالح المشتركة بينهما وبين القبائل الأخرى ، الأمر الذى أدى إلى إشاعة جو من الفوضى

ترتب عليهم ضعفهم بالرغم من كثرتهم العددية (٦٤) . وبطبيعة الحال لم يستمر هذا الوضع القبلى لدى الصرب بعد استقرارهم . ويرجع ذلك إلى الاحتكاك بينهم وبين البيزنطيين ، إذ بدأ التأثير البيزنطى تظهر ملامحه على المجتمع الصربى ، خاصة بعد توزيع الأراضى التى استولى عليها الصرب من أصحابها الأصليين ، مما ترتب عليه أن أصبح الصرب هم أصحاب الأرض ، وغدا أصحابها الأصليون عبيداً لهم (٦٥) .

يضاف إلى ذلك أن القبائل الصربية تجمعت فيما بينها وعملت اتحادات فيداراليه Plemes ، ثم تحولوا إلى ولايات تحت رئاسة صغار الأمراء " الزوبان " إلى أن خضعت لسيطرة الأمير الكبير " الزوبان الكبير " فى القرن العاشر الميلادى (٦٦) ولعل هذا الوضع الذى أضحي فيه المجتمع الصربى دفع بعض المؤرخين إلى وصفه بأنه كان " شبه إقطاعيات زراعية صغيرة " (٦٧) .

ولم يقف التأثير الصربى عند هذا الحد ، بل أخذ التأثير البيزنطى يضرب بجذوره فى المجتمع الصربى ، فيطور البلاط بحيث غدا يضم طبقة النبلاء من الرؤساء والكونتات أو البارونات ، فضلاً عن هيئة مبدلة وغنية من رجال الكنيسة (٦٨) ، ويتضح ذلك خاصة فى راسيكا Rascia إذ كان البلاط يتكون من ممثلى الطبقة الاستقرائية والمسئولين الحكوميين ورجال الدين ، ويجتمعون مع الأمير فى المناسبات الرسمية مثل التتويج - أو اصدار القوانين الجديدة أو تعيين رؤساء أساقفة أو تأسيس دير (٦٩) .

هذا فيما يخص بعض الملامح العامة للجانب الاجتماعى عند الصرب . أما الجانب الثقافى ، فقد أجمع كثير من المؤرخين على أن ثقافة صربيا لم تبدأ إلا فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى (٧٠) وأن جانباً من هذه الثقافة تأثر بالتراث السلافى الذى طوره البلغار ونقلوه إلى الصرب وغيرهم (٧١) . غير أن الجانب الأكبر من هذه الثقافة كان بيزنطياً ، وخاصة فى المناطق القريبة للدولة ، على

الدانوب وسافا Sava وفي مونتيجرو Montenegro ( الجبل الأسود ) ودلماشيا والبوسنة وراسيكا وعلى حافة فاردار Vardar عن طريق مقدونيا - ومنطقة مورافيا Moravia (٧٢) ، وهناك تأثير قوى فى حوض نهر ايبار Ibar وسهل كوسوفو Kosov . وعلاوة على ذلك فإن المناطق الصربية من الادرياتيكي تأثرت بالغرب فى الناحية الفنية فقط . ومن المناطق التى تأثرت بها صربيا فى هذا الجانب " بار " Bar وانتبارى Antibari ودوبرفينيك Dubrovnik وديراكيوم ( ديراتشيوم ) Dyrrachium (٧٣) .

ويمكن القول أن هذا المجتمع الصربى ، الذى كان فى أصله غير منظم ومستقر ، تحول عندما أتاحت له فرصة الاستقرار والنهوض إلى الشكل الأنف الذكر ، وكون مجتمعا وثقافة متأثرة بالبيئات التى نشأ عليها من ناحية والحضارات المجاورة له من ناحية ثانية ، فضلاً عن تعطشه للتشرب بروح العصر من ناحية ثالثة - فلا غرابة عندما نجد بعض المؤرخين يذكر أن معدل الثقافة فيه برزت على المستوى الأوروبى ، وخاصة فى عصر النضج والاستقرار اعتباراً من القرن الثالث عشر على حد قول البعض (٧٤) .

والسؤال الذى يفرض نفسه الآن على بساط البحث ؛ إذا كان هذا هو بعض جوانب الأوضاع الاجتماعية والثقافية عند الصرب ، فكيف كان حالهم الاقتصادى ؟ لاشك فى إن الحياة فى هذه المنطقة قبل وبعد استقرار الصرب وتقريباً حتى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى ، كانت قائمة على أساس الرعى فوق الجبال والقرصنة على ساحل . وهناك تربية الماشية وزراعة بعض الفواكة مثل الأعناب ، وقد بدأ النمو الصربى وتغير نمط الحياة نتيجة للتأثير البيزنطى من ناحية وزيادة عدد سكان الصرب من ناحية أخرى بحيث غدا لا يقل عن نصف مليون صربى (٧٥) .

وإلى جانب الحياة الرعوية والزراعية ، وجدت بعض المعادن فى صربيا ، مثل الفضة والنحاس والحديد ، وبدأ التفكير فى استخراج هذه المعادن من مناجمها (٧٦) . ولعل وجود هذه المناجم مع توسط موقع صربيا ، دفع بعض عمال

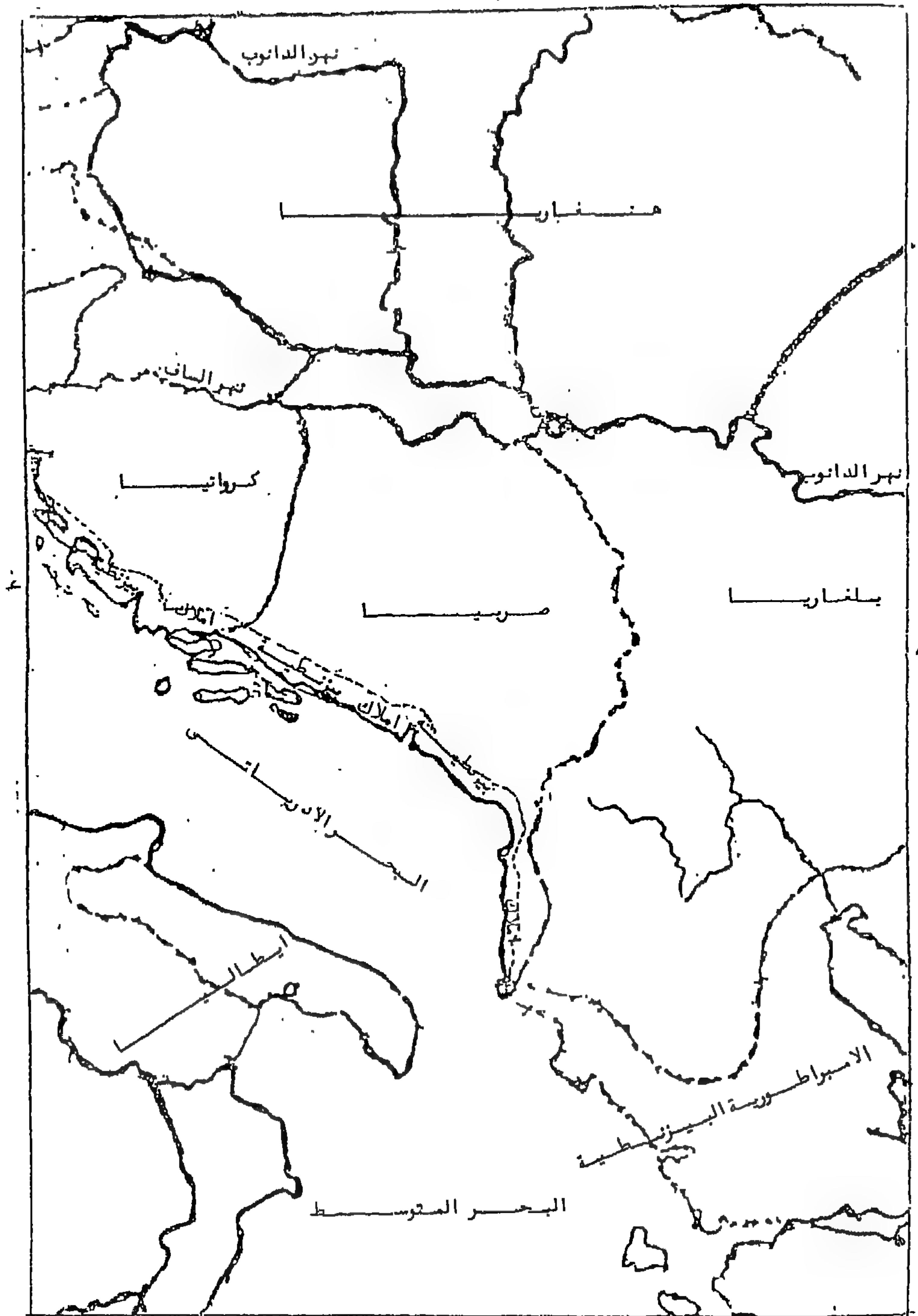
المناجم فى ألمانيا وسكونيا للعمل فى صربيا ، وهؤلاء استقروا فى صربيا وأسسوا ما يشبه المستعمرات لهم ، ثم أصبحت مدناً فيما بعد مثل نوفو Novo وبرسكوفو Brskovo فى وادى تارا Tara فى مونتيجرو Montengro ورودنيك Rudnik . ولم تلبث تطورت الحياة فى صربيا واتجهت إلى الصناعة والتجارة وسك العملة والبحرية اعتباراً من القرن الثالث عشر الميلادى (٧٧) .

\* \* \*

وصفوة القول أن صربيا نشأت فى منطقة البلقان ، وسط بعض القوى مثل الدولة البيزنطية والبلغار . ويبدو أن المجتمع الصربى فى البداية لم يكن عنده خبره بسياسة الحكم ، مما دفع القوى المجاورة لها إلى أن تنتهز الفرصة وتستغل هذا الوضع لغرض السيطرة عليها من جانب والزج بأفراد الأسرة الحاكمة فى صراعات داخلية من جانب آخر .

ولا يمكن إنكار الدور الذى قامت به الدولة البيزنطية فى صربيا لإدخال الصرب خطيرة المسيحية وغرس هذه الديانة فى قلوب الشعب الصربى ، والذى لاشك فيه هو أن هذا الدور البيزنطى كان مقترناً بالسيطرة السياسية حتى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى .

ثم جاء أمراء صربيون رفضوا السيطرة البيزنطية والبلغارية واستقلوا تماماً عن كليهما . والأدهى من ذلك أن الصرب تطلعوا إلى استقطاع أجزاء من أملاك الدولة البيزنطية وخاصة بعد سقوطها فى يد اللاتين سنة ١٢٠٤ م . والملاحظ أن المجتمع الصربى بتركيبته الاجتماعية القبلية وأمرائه وسكانه ، أهتم بالجانب الدينى والثقافى والاقتصادى على الرغم من الأوضاع السياسية التى كان يعيش فيها سواء داخلية أو خارجية ، وما عرف عن أخلاق الصربيين من قسوة تصل إلى حد الوحشية ، ولا شك فى أن هذه البنية كانت نواة لما ظهرت عليه صربيا فيما بعد فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد وحتى السيطرة العثمانية .



خريطة سوريا في العصور الوسطى





CF : Dvornik (F) : op. cit, p. 269. 330 .  
- الزاكلومي : Zachlumi تعنى فى لغة السلاف ما وراء الجبل ، والجبل المقصود به هنا جبل كلومس Chlumos ، وهناك نهر يسمى زاكلوما . وقد سكن هذا الإقليم الرومان الذين نقلهم دقلديانوس من روما ، وظل هذا الإقليم خاضعاً للإمبراطور البيزنطى حتى استولى عليه الأقاليم الذين طردهم الصرب وأقرهم الإمبراطور البيزنطى فيه . Ibid, p. 161  
- التزونيون والكاناليت : هى بلاد واحدة ، وتيربونا تعنى فى لغة السلاف المكان الحصين ، وكانالى Kanali تعنى العرب المشحونه ، وتوجد مدن عامره فى هاتين المنطقتين هى أورموس Ormos وريستا Rhisena ولوكابيتاى Loukabetai وزتليبي Zetlibe . Ibid, p.163  
- الباجاني : ويسمون الارثثاني ؛ وتعنى فى اللغة السلافية والرومانية والإنجليزية الوثنيين . وفى باجانيا مدن عامرة هى موكرون Mokron وبروليا Beroulia واستروك Ostrok وسلافيتزا Slavinetza ، ويمتلكون جزيرة كبيرة تسمى كوركرا Kourkral وأخرى يطلق عليها مالوزيتيا . Malozetai Ibid, p.165

(١٣) ليلى عبد الجواد إسماعيل : المرجع السابق ص ١٣٣

(١٤) اينهارد : المصدر السابق هامش ص ٩٨

(15) The Encyclopedia Americana, V.24 , pp.571 - 572.

CF : The New Encyclopedia Britannica, v. 9, p.65.

CF : Ostrogorsky (G) : History of the Byzantine state, new Jersey , 1954. p.94 .

(16) Dvornik (F) : Op. Cit., p.13 .

(١٧) تبلغ المساحة الإجمالية لبلاد الصرب تقريباً ١١٦,٣٤ ألف ميل مربع أى حوال

٨٨,٣٦٦ كم

CF : The New Encyclopedia Britannica, V.9 , p. 65, V. 24, p.571 .

(18) Lec.cit.

(١٩) سعيد عاشور : المرجع السابق ص ٦١٣

وانظر عن اللغة العربية

(20) Ibid, v. 9, p. 60. CF : Byzantion, Tome , 4, p.278

وإبراهيم أنيس : اللغة بين القومية والعالمية ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٠ ص ١٤٠ ،

١٤١ ، ١٤٣ ، ١٥١

(21) The Encyclopedia, Britannica, v. 9, p.65 .

(22) Constantine Porphyrogenitus : op. cit., p.161.

(23) Ibid, pp.157, 159 .

(24) Ibid, pp. 159,161.

وعن الصراع البيزنطى البلغارى انظر CF : Ostrogorsky (G) : Op. Cit., 236 - 237

وكذلك : وسام عبد العزيز فرج : السلاف فى شبه جزيرة البلقان وجهود

الإمبراطورية البيزنطية لاسترداد سيادتها ، مجلة الجمعية المصرية مجلد ٣٠ - ٣١ لسنة ١٩٨٤م

ص ١٤١ - ٢٠١

(25) CF : Constantine Porphyrogenitus : cit.,pp.161, 163, 165.

(26) Ibid, P.155.

(27) Boissonnade : Life and work in Medieval Europe, London, p.58.

وانظر : ليلى عبد الجواد إسماعيل : المرجع السابق ص ٣٣١ - ٣٣٢

(28) The New Encyclopedia, Britannica, v. 9, p.65.

(٢٩) اينهارد : المصدر السابق ص ٨٦

(30) The Encyclopedia Americana, v. 9, p. 66, v. 24 , p. 572.

(31) Cam - Med - Hist, v. 4, part. I, pp. 531 - 532 .

(32) Dimtri Obolensky : The Byzantine Commonwealth, London, 1971, p.248.

(33) Camb - Med - Hist, v. 4 , Part. I , p.540 .

(34) Ibid, p. 522.

(35) Runciman (S) : Byzantine civilisation, London, 1961, p.282.

(٣٦) اينهارد : المصدر السابق ص ١٠

(٣٧) المصدر نفسه ص ٩٨

(38) Dvornik (F) : Op. cit , pp. 48, 56 .

(39) Ibid, p. 92 .

(40) Ibid, p. 20.

(41) Constantine Porphyrogenitus : Op. cit., p. 155.

وانظر السيد البار العرينى : الدولة البيزنطية ، بيروت ١٩٨٢م ص ١٢٩

(42) Ibid, p. 155.

(43) Ibid, p. 157.

(٤٤) لقد أورد قسطنطين بروتينيوس هنا أن الإمبراطور البيزنطى طلب مساعدة

الصرب للأتراك ضد البلغار ؛ ويبدو أن المقصود بالترك هنا هم الهنغارىون ( المجريون ) وليس

الأتراك المعروفين لدينا ، لسببين ؛ الأول : أن عنصر من عناصر الأتراك لم يظهر بعد فى هذه

المنطقة من أوربا ؛ وثانيًا : أنه فى هذه الحقبة التاريخية ظهر الهنغارىون فى تلك المنطقة ؛ كثرت

اغاراتهم على غرب أوربا والدولة البيزنطية ، وقد أطلق عليهم البعض " ترك أوربا " ومن هنا

يغلب على الظن أن المقصود بالترك هنا هم الهنغاريون ، انظر : أحمد مختار العبادي : خبر ظهور  
الترك بالثغر الأعلى سنة ٣٣٠هـ / ٩٤٢م . مجلة المتاهل ، المغرب عدد ٢٩ سنة ١٤٠٤هـ /  
١٩٨٤م .

(45) Constantine Porphyrogenitus : op. cit , p. 157.

CF: Franzius (E) : History of the Byzantin Empire, New York, 1967, p. 208.

(46) Constantine Porphyrogenitus : op. cit., p.159.

(47) Ibid, p. 159.

(48) Lecit .

(49) Franzius (E) : op. cit., p.208.

(50) Constatsntine Porphyrogenitus : op. cit., pp. 159, 162.

CF : Franzius (E) : op. cit., p. 208.

وعن الصراع البيزنطي البلغاري . انظر :

Ostrogorsky (G) : op. cit., p. 236 .

CF: Diehl (C) : Byzantium Greatness and Decline, New Jersey, 1957, 0. 186.

(51) Camb . Med - Hist, v. 4 , part, I , p. 519.

(52) Setton (k) : History of the Crusades, V. I .New York, 1955 , p.510 .

(53) Camb - Med - Hist , v. 4 . part , I , p. 520 .

للمزيد انظر : ليلي عبد الجواد إسماعيل : حملات ما نويل كومنين على بلاد البحر ،

مقال بمجلة الجمعية التاريخية .

(54) Ibid , pp. 521 - 522.

(٥٥) حسنين محمد ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، القاهرة ١٩٩٣م

ص ٢٢٨

(56) Camb - Med - Hist, V.4, part,1, p.521 .

CF : Diehl (c) : op. cit, p.186.

(٥٧) ستيفن رنسيومان : الحروب الصليبية ج ٣ ترجمة السيد / الباز العريني ، الطبعة

الثانية ، بيروت ١٩٨٠ ص ٣٦

(58) Michaud ( J.E ) : Historia de Criosades, Tome, 2, Paris, 1816, p. 78 .

CF: Setton ( K.M ) : History of the Crusades, v. 2, London, 1962, v. 2 , p. 99

(59) Camb - Med - Hist , v. 4, Part, I , p.521.

CF Diehl (C) : Op. Cit., p.186.

(60) Camb - Med - Hist, v. 4, part, pp. 530 - 531.

(61) Obolensky (D) : Op. cit., p. 247 .

(62) Camb - Med - Hist , v.4, part , 1 pp.526, 531, 533. 543.

CF Diehl (C) : op. cit., pp. 186 , 200, 206 .

وعن العلاقات بين البيزنطيين والبلغار انظر :

Byzantion , Tome, 9, Bruxeles, 1934, pp. 301 - 309, 311, 319, 322.

CF: Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, B. G. Niebuhrii, v. 3, Bonnae, 1855, pp. 148, 169, 557, 566.

وانظر : سعيد عاشور : المرجع السابق ص ٦١٣ - ٦٢٠ ، ٦٥٠ ، ٦٥٣

وحسين محمد ربيع : المرجع السابق ص ٢٩١ - ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ .

CF : Lodge ( M.A ) : The Close of the Middle Ages ( 2172 - 1494 ) London, 1910, pp. 501 - 502 .

(63) CF : Obolensky (D) : Op. cit., p. 247.

وانظر : ستيفن رنسيومان المرجع السابق ج ٣ ص ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٧١٧

(64) The Enclopedia Americana , v. 24. p.572.

(65) Boissonnade : Op. cit., pp. 58, 271 .

(66) Franzius (E) : Op. cit., p. 208 .

(68) Boissonnade : Op. cit., p.58 .

(69) Obolonsky (D) : Op. cit., pp. 249.

(70) Runciman (S) : Op. cit., p. 284.

(71) Dvornik (F) : Op. cit., p.19.

CF : Setton (K) : Op. cit., p. 510.

(72) Boissonnade : Op, cit., pp. 57 - 58 .

(73) Obolensky (D) : Op. cit., pp. 247 - 249 .

(74) The Encyclopedia Americana, v.24., p.572.

CF : Obolensky (D) : Op. cit., pp. 250 - 254 .

CF : Runciman (S) : Op. cit ., pp. 284 - 285 .

CF : Camb - Med - Hist , v.4 , part , I, pp. 545 - 549.

(75) Boissonnade : Op. cit , p. 58 .

(76) Ibid , p . 269.

(77) Obolensky (D) : Op. cit., pp. 247 - 250.

CF : Camb - Med - Hist , v. 4, part , 1 pp.532 - 433 , 540

( المصادر والمراجع الأوربية )

- **Atiya ( Aziz Syryal ) :**

The Crusade of Nicopolis, London, 1939.

- **Boissonnade :**

Life and Work in Medieval Europe, London .

- **Byzantion :**

Tome 4, Paris, 1929.

Tome 9, Bruxelles, 1934 .

- **Corpus :**

Scriptorum History Byzantinae, v.3, Bonnae, 1844, 1855.

- **Constantine Porphyrogenitus :**

An Administamdo Imperio, Translated by R. J. H. Jenking,  
Budapest , 1949 .

- **Diehl ( Charles ) :**

Byzantium : Greatness and Decline, New Jersey, 1957 .

- **Obolensky ( Dimitri ) :**

The Byzantine Commonwealth, London , 1971 .

- **Dvornik ( Francis ) :**

The Making of Central and Eastern Europe London , 1949 .

- **Franzius ( Enne ) :**

History of the Byzantine Empire, Mother of Nations, New York,  
1967 .

- **Ahrweiler ( Helene ) :**

Byzance et La Mer, Paris, 1966.

- **Pirenne ( Henri ) :**

A History of Europe from the Invasions to the 16 Century, London,  
1948 .

- **Lodge ( M - A ) :**

The Close of the Middle Ages ( 1272 - 1494 ) London, 1910 .

- **Michoud ( J - F ) :**

Historia des Croisades, Tome 2-3 , Paris , 1816-1822 .

- **Baynes ( Norman ) and . L . B. moss :**

Byzantium, Oxford, 1948.

- **Ostrogorsky (G) :**

History of the Byzantine State New Jersey, 1957.

- **Runicman ( Steven ) :**

Byzantine Civilisation, London, 1961 .

- **Southern ( R - W ) :**

The Making of the Middle Ages, London

- **Setton ( M . Kenneth ) :**

A History of the Crusades, V. I New York , 1955 , v . 2 London , 1962 .

- **The Cambridge Medieval History :**

v . 4, part I . Cambridge, 1964 .

- **The Encyclopedia Americana :**

v . 24, America, 1824 .

- **The Encyclopedia Britannica :**

v . 9, Chicago, 1973-1974 .

( المراجع العربية والمترجمة )

- إبراهيم أنيس :

اللغة بين القومية والعالمية ، القاهرة ، ١٩٧٠ م .

- أحمد مختار العبادي :

خبر ظهور الترك بالثغر الأعلى سنة ٣٣٠ هـ / ٩٤٢ م . مجلة المناهل ، المغرب

سنة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .



- اينهارد :  
سيرة شارلمان ، ترجمة/عادل زيتون ، الطبعة الأولى دمشق ١٩٨٩م / ١٤١٠هـ .
- حسنين محمد ربيع :  
دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية . القاهرة ١٩٩٣ م .
- زبيدة محمد عطا :  
الترك فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٦ م .
- ستيفن رنسيما :  
تاريخ الحروب الصليبية ، الجزء الثالث ترجمة السيد الباز العرينى ، بيروت ط ٢  
١٩٨٠ م .
- سعيد عبد الفتاح عاشور :  
أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ الطبعة السادسة القاهرة ١٩٩١ م
- السيد الباز العرينى :  
الدولة البيزنطية ( ٣٢٣ - ١٠٨١ م ) بيروت ١٩٨٢ م .
- ليلى عبد الجواد إسماعيل :  
(١) الدولة البيزنطية فى عصر الإمبراطور هرقل وعلاقتها بالمسلمين القاهرة ١٩٨٥ م .  
(٢) حملات ما نويل كومنين على بلاد المجر ، مقال بالجمعية التاريخية المصرية .
- وسام عبد العزيز فرج :  
السلاف فى شبه جزيرة البلقان وجهود الإمبراطورية البيزنطية لاسترداد  
سيادتها . مقال بمجلة الجمعية التاريخية المصرية مجلد ٣٠ - ٣١ سنة ١٩٨٤ م .



## فئات القضاة في الدولة العثمانية

وأفراد ينتمون إليهم

**د. سعيد بن سعد سفر الغامدي\***

اهتمت الدولة العثمانية بأمر القضاء اهتماماً كبيراً ، ووضعت نظاماً دقيقاً لتعيين القضاة وترقياتهم وتنقلاتهم ومتابعة أعمالهم ، وكانت ولاية القضاة تشمل جميع أنحاء الدولة العثمانية في القارات الثلاث : آسيا وأوروبا وأفريقية . والجدير بالذكر أن الولاية القضائية ظلت تمتد إلى الأقاليم التي ضعف فيها النفوذ العثماني سياسياً أو عسكرياً أو إدارياً ، مثل بلاد القرم وشمال إفريقيا . وعلى ذلك فالقضاء العثماني كان أكثر نفوذاً وبقاءً واستقراراً في الولايات العثمانية من النفوذ العسكري أو السياسي أو الإداري للدولة في تلك الأقاليم وأمثالها .

كانت المحاكم الإسلامية تنظر جميع أنواع القضايا ، سواء كانت قضايا مدنية أو جنائية ، وسواء كانت من اختصاص الشريعة أو القوانين الوضعية أو العرف أو غير ذلك . وكان القضاء جميعهم مسلمين ، ويفصلون في القضايا في ضوء مذهب الإمام أبي حنيفة (١) ، وهو المذهب الرسمي للدولة . وقد اهتم السلاطين بتقرير هذا المذهب مذهباً رسمياً في الأقاليم الإسلامية التي فتحتها القوات العثمانية ؛ وكان هذا التغيير المذهبي أحد التغييرات الرئيسية والقليلة التي أدخلتها الدولة في أقاليم العالم الإسلامي التي فتحتها . وقد أبقت الدولة العثمانية على المذاهب الأخرى ، ولكن اشترطت أن يكون كبير القضاة أو رئيس المحكمة حنفياً ، وكان يطلق على شاغل هذا المنصب قاضي القضاة ، أو قاضي عسكر أفندي أو رئيس القضاة (٢) .

---

\* أستاذ مشارك في التاريخ الحديث والمعاصر - كلية العلوم الاجتماعية - جامعة الإمام محمد

ولكن لم تمتد هذه الولاية القضائية لتلك المحاكم لتشمل جميع الأشخاص فى الدولة ، إذ كانت فى الدولة هيئات معترف بها لها محاكمها الخاصة التى تنظر فى قضايا أفرادها ، مثل طبقة القولا ر ، وهم العبيد . ومثل الأشراف الذين هم من سلالة أسرة النبى ﷺ .

أما رعايا الدولة النصارى فكانت قضايا الأحوال الشخصية الخاصة بهم خارجة عن اختصاص المحاكم العادية ، وكانت تنظرها محاكم كنسية خاصة بهؤلاء النصارى ، يرأسها رئيس " الملة " ، وله أن يستعين ببعض رجال الدين النصرانى . كذلك كانت هناك قضايا خاصة بإدارة أراضٍ معينة من أراضى الأوقاف ، فكانت تنظر أمام محاكم خاصة يرأسها عضو من الهيئة القضائية الإسلامية العادية . وعلى العموم فإن قضاة الهيئة الإسلامية كانوا ينظرون جميع القضايا التى تتعلق بالشريعة الإسلامية فى جميع أنحاء الدولة سواء بين المسلمين بعضهم وبعض ، أو بين المسلمين والنصارى ، إلا إذا كان المسلم ينتمى إلى هيئة لها نظام قضائى يختص بها مثل القولا ر ، والأشراف (٣) .

وكان القضاة بوجه عام يحصلون على جزء كبير من دخلهم من مصدرين (٤) : الرسوم القضائية ، والغرامات التى يحكم بها . وكلا المصدرين يدران إيرادًا وفيرًا . وكانوا يتقاضون جزءًا من الرسوم المقررة على معاينة التركات وتقسيمها ، والمبايعات ، وعلى الأوراق الرسمية التى تصدر عن المحاكم ويطلق عليها الحجج الشرعية . وتسجل كل حجة التصرفات العقارية ، ورسوم الزواج المقررة على زواج البنت البكر وزواج الثيب ، وكان رسم زواج البنت (٥) أسيرًا أو أفعج (٦) بينما كان رسم زواج الثيب (٧) أسيرًا .

## ١ - قضاة العسكر (٨) :

أنشأت الدولة العثمانية على رأس النظام القضائي منصب قاضى القضاة (٩) ، أو رئيس القضاة ، أو قاضى عسكر (١٠) . وكان مقره الأساسى العاصمة أستانبول ، وقد استحدث هذا المنصب فى الدولة العثمانية فى عهد السلطان مراد الأول . وأول قاضى عسكر هو " جاندارلى قره خليل " ومن أهم أعماله الإشراف على أعمال القضاة فى سائر أنحاء الدولة العثمانية ، فىقوم بترشيح القضاة لشغل المناصب القضائية . ويرفع هذا الترشيح إلى شيخ الإسلام للمصادقة عليه ، كما يقوم قاضى العسكر بمراقبة أعمال القضاة والتأكد من نزاهتهم وحرصهم على تطبيق الشريعة الإسلامية فى الأحكام ، وأسلوب تعاملهم مع الناس ، كذلك يقوم بالإشراف على حركات التنقل والترقية ، وتعرض عليه التقارير والمذكرات التى يبعث بها قضاة الأقاليم . وكانت تقوم بجانب قاضى العسكر أجهزة فنية وإدارية ، يعمل فيها موظفون بمثابة مساعدين له . وكانت بعض هذه الإدارات لمتابعة أعمال القضاة ، واستقبال التقارير التى ترفع عنهم ، والبعض الآخر لمتابعة تنقلاتهم ، وتعيين قضاة جدد فى المناطق والمدن المحتاجة ، والبعض الثالث من هذه الإدارات يتعلق بالشئون المالية وصرف استحقاق القضاة ومرتباتهم ، بينما كان يحتفظ بعض هذه الإدارات بصور من أختام القضاة للتحقق من صحة الأختام على المذكرات والتقارير التى ترفع إلى قاضى العسكر منعاً للتزوير (١١) .

وكان قاضى القضاة يتمتع بنفوذ أدبى كبير لم يظفر به من قبل قاضى القضاة فى أى بلد إسلامى . وعلى سبيل المثال كان الصدر الأعظم قرمان محمد باشا يخشى أن يتضاءل نفوذه بجانب نفوذ قاضى القضاة ، فاقترح على السلطان محمد الثانى ( الفاتح ) أن ينشئ منصباً ثانياً لوظيفة قاضى عسكر ، وأن يطلق على شاغل الوظيفة الأولى قاضى عسكر الروملى ، والوظيفة الثانية يطلق على شاغلها

قاضى عسكر الأناضول ، وأن يتقاسم الاثنان الاختصاصات التى كان يمارسها قاضى العسكر ، فيختص أحدهما بقضاء الأناضول ، بينما يختص الآخر بقضاء بلاد البلقان وبقية الأقاليم العثمانية فى أوربا . وكان الصدر الأعظم يقصد من وراء هذا الاقتراح كسر النفوذ الواسع العريض الذى كان يتمتع به قاضى العسكر ، حيث كان هو الرئيس المباشر لقضاة الدولة . وقد أخذ السلطان محمد الفاتح بهذا الاقتراح ، وتم إنشاء المنصب الجديد فى عام ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م قبل وفاة السلطان بسنة واحدة (١٢) .

هذا بينما تشير بعض الوثائق العثمانية إلى أن السبب فى إنشاء منصب ثانٍ لوظيفة قاضى عسكر هو تزايد الأعباء والمسئوليات على رئيس القضاة بعد فتح القسطنطينية ، وتوسع الفتوحات العثمانية فى بلاد شرق أوربا . لهذا رأى السلطان محمد الفاتح إنشاء وظيفتين بمسمى قاضى عسكر ؛ لتوزيع المسئوليات ، مما يساعد على أدائها على أحسن وجه (١٣) .

وعلى هذا النحو وجد فى الدولة العثمانية منصبان يحمل شاغل كل منهما لقب قاضى عسكر ، مع إضافة الاسم الجغرافى الذى يحدد مناطق ولايته القضائية إلى اسمه . ولكن كان قاضى عسكر الروملى أعلى مركزاً من زميله قاضى عسكر الأناضول ، وكان الأول يصحب الجيش العثمانى فى فتوحاته الكثيرة فى شرق أوربا ، كما كان من اختصاصاته تعيين جميع القضاة الذين يعملون فى شرق أوربا ، وكذلك العاملين فى المساجد التى أنشأت فى الولايات العثمانية الأوربية . وكان قاضى عسكر الأناضول يمارس مثل هذه الاختصاصات فيما يختص بالأقاليم فى آسيا ، إلا أن الحروب كانت أقل ، وتكاد تكون منحصرة فى إخماد الفتن التى تظهر فى الأناضول فى بعض الأحيان . وكان هذان القاضيان الكبيران يليان شيخ الإسلام فى المرتبة (١٤) .



ولا تساع رقعة الدولة العثمانية بعد أن ضم السلطان سليم كلا من الشام ومصر والحجاز واليمن إلى رحاب الدولة العثمانية ، استحدث السلطان سليم وظيفة ثالثة بمسمى قاضى عسكر البلاد العربية (١٥) .

وبعد دخول الشمال الإفريقى فى حوزة العثمانيين (١٦) ، استحدث السلطان سليمان القانونى ابن سليم الأول وظيفة رابعة أطلق على شاغلها مسمى " قاضى عسكر الشمال الإفريقى " (١٧) . وكان القضاة فى شمال إفريقيا يتبعون قاضى عسكر الأناضول قبل استحداث السلطان سليمان القانونى وظيفة قاضى عسكر الشمال الإفريقى .

وكان قضاة العسكر أعضاء فى الديوان الهمايونى (١٨) . وكانوا يشتركون إشتراكاً فعلياً مع رئيسه الصدر الأعظم للنظر فى القضايا التى تعرض على محكمة الديوان ، كما كان يشارك فى هذا العمل إلى جانب قضاة العسكر مجموعة من القضاة من فئة مولى الكبير، وهذا ما سأشير إليه فيما بعد .

وقد أضفت الدولة العثمانية على قضاة العسكر الكثير من الامتيازات والتشريفات منها : أن يقام حفل رسمى كبير لقاضى العسكر عند تعيينه ، وكان على الصدر الأعظم أن يحضر هذا الحفل من باب التقدير والتكريم ، وكان لا يجوز للصدر الأعظم أن ينيب أحداً عنه فى حضور الحفل . وكان الصدر الأعظم يقدم لقاضى العسكر رداء التشريفه ، وهو فروسمور ، ويساعده على ارتدائه فى أثناء الحفل (١٩) . وكانت تخصص لكل قاضى عربية يستقلها فى تنقلاته ، وإذا قامت الحرب فى آسيا صاحب قاضى الأناضول الجيش العثمانى إلى ساحة الحرب، أما إذا كانت الحرب فى أوروبا فإن قاضى عسكر الروملى هو الذى يرافق الجيش ، وفى كلتا الحالتين كانت تقدم لكل منهما أطواخ (٢٠) تنصب أمام خيمته التى تكون مجاورة لخيمة السلطان وخيمة الصدر الأعظم .

ومن امتيازات قاضى العسكر صلاحية مقابلة السلطان بلا دعوة فى السفر . وكان ينفذ المعاملات المتعلقة بالعساكر أو من فى حكمهم ، وكانت له مخازن للشعير ، ولهذا كانت تأتية مبالغ كبيرة من تلك المخازن ومن إيراداته الخاصة . وكان قاضى العسكر يستقبل الوزراء عند الديوان ، ويرافق السلطان فى مراسيم الأعياد . وكان يتناول الطعام فى مأدبة خاصة فى الديوان . بينما كان الوزراء وأركان الدولة يتناولون الطعام فى القصر معاً فى أيام الديوان وسائر الأيام الرسمية (٢١) .

### قضاة التخت :

كان يلى قضاة العسكر فى الدرجة والمركز قاضى استنبول ويطلق عليه ، استانبول أفنديسى (٢٢) ، والقضاة الثلاثة لضواحيها الثلاث ، وهذه الضواحي هى : سكوتارى Scutari وهو اسم يرجع إلى العهد البيزنطى ، ولذلك يطلق على هذه الضاحية أيضاً الاسم التركى أسكودار (٢٣) Uskudar ، ثم ضاحية جلاطة Galata ، ثم ضاحية أيوب (٢٤) وكان يطلق على هذه الضواحي الثلاث اسم " بلاد ثلاثة " أى البلاد الثلاثة . وهذا المصطلح له مدلول قضائى ومدلول إدارى ، فقضاة هذه النواحي يتمتعون باستقلال قضائى عن قاضى استانبول ويرتبطون بقاضى عسكر الأناضول ، كما كان لهذه الضواحي بعض الاستقلال فى شئون الشرطة . وكان هؤلاء القضاة يحضرون جلسات الديوان الهمايونى يوماً واحداً فى الأسبوع ، كما يحلون مكان قاضى العسكر فى حالة تغيبه ، كما يقومون بمساعدة الصدر الأعظم رئيس الديوان فى نظر القضايا . وكان يطلق على هؤلاء القضاة الأربعة - قاضى استانبول ، وقضاة الضواحي - اسم معبر " تحت قاضيسى " أى قضاة التخت ، لأنهم يقيمون بصفة دائمة فى العاصمة وعلى مقربة من العرش السلطانى ، الذى كان يطلق عليه التخت . وكان الصدر الأعظم عقب إنتهاء جلسة المحكمة يذهب فى صحبة قاضى استانبول فى جولة تفتيشية ميدانية فى

العاصمة . ومما هو جدير بالذكر أن قضاة التخت الأربعة كانوا يتمون إلى طائفة القضاة من فئة المولى الكبير (٢٥) .

## ٢ - القضاة من فئة مولى الكبير (٢٦) :

يختلف عدد القضاة من فئة مولى الكبير من عصر إلى عصر ، وقد بلغ عددهم - فى أواخر عهد السلطان سليمان القانونى ( منتصف القرن السادس عشر الميلادى تقريباً ) - خمسة وعشرين قاضياً (٢٧) موزعين على النحو التالى :

قاضى عسكر الروملى .

قاضى عسكر الأناضول .

قاضى عسكر البلاد العربية .

قاضى عسكر الشمال الإفريقى .

قاضى استانبول .

قاضى أسكودار .

قاضى جلاطة .

قاضى أيوب .

قاضى مكة المكرمة .

قاضى المدينة المنورة .

قاضى بروسه (٢٨) .

قاضى أدرنة (٢٩) .

قاضى لاريسيا (٣٠) .

قاضى سالونيك (٣١) .

قاضى فيليبية (٣٢) .

قاضى إزمير (٣٣) .

قاضى القدس .

قاضى دمشق .

قاضى بغداد .

قاضى القاهرة .

قاضى الجزائر .

قاضى تونس .

قاضى طرابلس .

قاضى اليمن .

وكان شيخ الإسلام هو الذى يعين هؤلاء القضاة الخمسة والعشرين ، ويوافق الصدر الأعظم على تعيينهم (٣٤) . ثم يصدر السلطان فرماً بتعيينهم فى مناصبهم . ومن المميزات التى أعطيت لأصحاب هذه المناصب القضائية ، أنهم يشغلونها مدى الحياة ، إلا أنه كانت تصدر فى بعض الأحيان حركة ترقية أو تنقلات لهؤلاء القضاة حرصاً على المصلحة العامة . وكان يتبع كل قاض من هؤلاء جهاز إدارى كبير يتكون من مراقبى الحسابات ، وأمناء الخزانة ، ومجموعة من الكتاب والمساعدين . ومن الاختصاصات التى اختص بها القضاة من فئة مولى الكبير حق عقد الجلسات القضائية فى بيوتهم أحياناً . بينما كان سائر القضاة ينظرون القضايا فى المحاكم (٣٥) .

## · المفتشون :

يعد المفتشون من رجال القضاء ، وإن كان اسمهم لا ينم عن مهنتهم القضائية . وكان عددهم قليلاً يصل إلى خمسة مفتشين . وكانوا جميعاً قضاة من فئة مولى الكبير ، ويختصون بالإشراف على الأوقاف الخيرية في الدولة العثمانية ، فيقومون بجمع إيراداتها والانفاق على المؤسسات الدينية والخيرية وكافة أوجه البر والخير . وكان بعض هذه الأوقاف تحت إشراف شيخ الإسلام ، والبعض الآخر تحت إشراف الصدر الأعظم ، والبعض الثالث تحت إشراف رئيس الخصيان البيض (٣٦) . وكان مقر ثلاثة من أولئك المفتشين في استانبول ، يختص كل منهم بقسم من الأقسام الثلاثة لهذه الأوقاف : فكان أحدهم يعمل مع شيخ الإسلام ويسمى " شيخ الإسلام مفتشى " ، وكان الثانى مع الصدر الأعظم ويسمى " وزيرى أعظم مفتشى " ، وكان الثالث يسمى " حرمين مفتشى " ، لأنه كان يشرف على الأوقاف المرصودة على الحرمين الشريفين فى مكة المكرمة والمدينة المنورة . وظل هذا الأخير فى منصبه حتى نهاية القرن السادس عشر الميلادى ، ثم تقاسم مع زميله رئيس الخصيان السود (٣٧) الإشراف على أوقاف الحرمين الشريفين ، ثم انفرد رئيس الخصيان السود بالإشراف على هذه الأوقاف فى القرن الثامن عشر الميلادى . أما المفتشان الآخران فكان أحدهما يباشر عمله فى مدينة أدرنة ، والآخر فى مدينة بروسة . وكانا يتبعان رئيس الخصيان . وكان لكل مفتش من هؤلاء المفتشين جهاز إدارى يضم عدداً كبيراً من الموظفين المساعدين الذين يتجولون فى مناطق الأوقاف (٣٨) .

## ٣ - القضاة من فئة مولى الصغير :

كان القضاة من فئة مولى الصغير يعملون فى أكثر من سبع عشرة مدينة من مدن الصف الثانى ، مثل : بوسناسراى (٣٩) ، وصوفيا (٤٠) . بلغراد ، كوتاهاية ،

قونية ، فيلوبوليس ، مرعش ، ديار بكر ، عنتاب (٤١) . حلب ، بيروت ، الموصل ، البصرة ، حيفا ، الإسكندرية ، عسير (٤٢) .

وكان هؤلاء القضاة من فئة مولى الصغير أقل في درجتهم ومستوى تعليمهم من القضاة من فئة مولى الكبير ، لذلك يعينون في المناطق والمدن الصغيرة.

أما من حيث الأعمال التي يقومون بها ، فهي فصل الخصومات بين الناس ، وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية عليهم . أما القضايا الكبرى مثل القصاص والرجم وما إلى ذلك فترفع عادة إلى شيخ الإسلام للبت فيها ، وفي بعض الأحيان ترفع إلى قاضى العسكر ( قاضى القضاة ) . أما تقسيم التركات وفض المنازعات القبلية ، فنظراً لأهميتها وحساسيتها فقد ربطت بشيخ الإسلام ، الذى يقوم بدوره بإرسال لجنة من كابر القضاة تشرف على توزيع التركات ، وتفض المنازعات بين القبائل حسب تعليمات شيخ الإسلام والصدر الأعظم (٤٣) .

كذلك كان يتولى القضاة من فئة مولى الصغير الإشراف على المساجد والمدارس فى مدنهم الصغيرة ، ويقومون أيضاً بالإشراف على الأوقاف الخيرية .

#### ٤ - القضاة العاديون :

كان القضاة العاديون يشكلون الغالبية العظمى من عدد قضاة الهيئة الإسلامية الحاكمة . وقد اختلف عددهم من فترة إلى أخرى حسب اتساع الدولة العثمانية وانكماشها . وقد بلغ عددهم فى أواخر القرن السادس عشر الميلادى حوالى ستمائة قاض ، يباشرون القضاء فى المدن الصغيرة ، فى ثلاث قارات هى آسيا وأوروبا وأفريقيا (٤٤) . وكان عددهم فى أوروبا يصل إلى مائتى وخمسين قاضياً تقريباً ، يتبعون قاضى عسكر الروملى . أما قضاة الأناضول وشمال العراق ، فكانوا يتبعون قاضى عسكر الأناضول ، بينما يتبع القضاة فى الجزيرة العربية والشام لقاضى عسكر البلاد العربية ، ويتبع القضاة فى شمال أفريقيا قاضى عسكر



شمال إفريقيا (٤٥) . وكان يجرى فى بعض الأحيان بعض التغييرات بما يتمشى مع أهمية الولاية ومصلحة الدولة ، فمثلاً القضاة فى مكة المكرمة والمدينة المنورة تبعوا فى بعض الأحيان قاضى استانبول وارتبطوا فى بعض الأحيان بشيخ الإسلام مباشرة . وكذلك القضاة فى القدس وبعض المدن الفلسطينية ارتبطوا فى منتصف حكم السلطان عبد الحميد الثانى بشيخ الإسلام مباشرة ، وكذلك الحال بالنسبة لولاية بيروت . أما الحال فى مصر فقد كان القضاة يتبعون فى بعض الفترات كبير القضاة فى الأناضول ، والذى يسمى قاضى عسكر الأناضول ، كما كانوا يتبعون فى بعض الفترات قاضى القضاة فى استانبول (٤٦) .

ورغم انحسار نفوذ السياسى والإدارى للدولة العثمانية من شرق أوروبا عقب هزيمتها فى حربها مع روسيا ، وعقد معاهدة سان ستيفانو (٤٧) . ومؤتمر برلين سنة ١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م (٤٨) ، إلا أن نفوذ القضاة بقى كما كان ، وظلوا يمارسون عملهم فى القضاء والفصل فى الخصومات بين الناس ، ولم يؤثر فى عملهم تغيير نظام الحكم فى بلاد شرق أوروبا إلا فى عصور متأخرة .

## ٥ - النواب والمفتون :

### النواب :

كانت وظائف النواب تمثل أدنى درجات السلم الوظيفى القضائى فى الهيئة الإسلامية الحاكمة فى الدولة العثمانية . وكانوا يباشرون اختصاصاتهم القضائية فى المدن الصغيرة ، أو فى القرى الكبيرة ، كما كانوا يحلون محل القضاة أثناء غيابهم عن عملهم عند قيامهم بالإجازة ، أو فى أثناء مرضهم أو آدائهم لفريضة الحج . وكان بعض النواب يرافقون بعض كبار القضاة ويشركونهم فى جلسات المحاكم الشرعية لمساعدتهم وتخفيف العبء عنهم . واختلف عدد النواب من فترة إلى أخرى ، وقد بلغ عددهم فى نهاية القرن السادس عشر الميلادى ما يقرب من

مائتى نائب ، كانوا يباشرون عملهم فى مختلف أنحاء الدولة العثمانية (٤٨) . وكان النائب يعين فى منصبه ولا يتقاضى مرتباً من الحكومة . ولكنه كان يحصل على إيرادات ضخمة من حصيلة الغرامات المالية التى يحكم بها على المخالفين ، والذين يرتكبون أعمالاً مخلة بالآداب العامة ، وما إلى ذلك (٤٩) .

ووجد إلى جانب شيخ الإسلام عدد من النواب ، للنظر فى بعض القضايا العادية مما يساعد على تخفيف بعض الأعباء عن شيخ الإسلام وقضاة استانبول . وكان شيخ الإسلام وقضاة العسكر يرسلون بعضهم فى مهمات رسمية إلى بعض الولايات فى الدولة العثمانية (٥٠) .

### المفتون :

كان المفتون يشكلون قطاعاً هاماً للغاية فى الهيئة الإسلامية الحاكمة إلى جانب القضاة . وكان المفتون يعينون فى المدن الهامة ويقومون بمهام مناصبهم بجانب القضاة ، ولكن كان مركزهم يأتى بعد مركز القضاة . ويظلون فى مناصب الإفتاء مدى الحياة، أى دون التقيد ببلوغهم سنّاً يحالون عندها إلى التقاعد . وكانت مهمتهم تتمثل فى إصدار الفتاوى فى المسائل التى يطلب منهم بحثها ، فيعكف المفتى على دراسة هذه المسألة فى ضوء مذهب الإمام أبى حنيفة ، ثم يسجل رأيه كتابة على ورقة رسمية معدة ومختومة من قبل المحكمة ، تشبه الإستمارة . وكان رأى الذى ينتهى إليه المفتى يسمى فتوى (٥١) .

وكان عدد المفتين فى جميع أنحاء الدولة العثمانية يصل إلى ما يقرب من ثلاثة مفتين (٥٢) . وكانت غالبيتهم تعمل فى المدن الهامة بجانب القضاة - كما ذكرت ذلك من قبل - بينما عمل البعض الآخر بجانب كبار رجال الحكم فى الدولة ، يمدونهم بالرأى الصحيح فى المسائل العامة من حيث عدم تعارضها مع مبادئ الشريعة الإسلامية . فكان كل منهم يشغل ما يمكن أن نطلق عليه فى المصطلح الحديث منصب المستشار الدينى .

وكان هناك بعض المفتين إلى جانب السلطان ، كما كان هناك بعض المفتين إلى جانب الوزراء والأمراء ، وحكام الولايات فى الدولة ، يوضحون لهم رأى الشريعة فى أى قضية ما ، ورأى القانون ، وأوجه التطابق أو التعارض . ومثل هذه الفتوى التى تصدر عن المفتى يؤخذ بها جملة وتفصيلاً ، وتحسم الموقف سواء فى المسألة العامة أو فى القضية المطروحة (٥٣) .

ولكن قلما لجأ القضاة أو رجال الحكم المحلى إلى المفتين لإصدار الفتاوى لهم ، فقد كان القضاة يباشرون الفتاوى بأنفسهم . أما الوزراء والأمراء وحكام الولايات ورجال الحكم فى الدولة ، فكانوا يطلبون معظم الفتاوى من دار الإفتاء التابعة لشيخ الإسلام (٥٤) ، ولا يحيلون إلى المفتى إلا بعض الأمور البسيطة الخالية من التعقيد . لذلك نعتهم بعض الباحثين بأن نشاطهم كان يشوبه الخمول أو الركود . ولكن اتسعت آفاق العمل حينما سمح للأفراد بالالتجاء إلى المفتين ؛ لإصدار الفتاوى الشرعية فى القضايا المطروحة أمام المحاكم ، فكان المفتى يصدر رأيه كتابةً ومسجلاً على ورقة رسمية ، على غرار الفتاوى التى يصدرها للجهات الحكومية ، ويأخذ المواطن هذه الفتوى ويقدمها للمحكمة كمستند يدعم موقفه فى القضية . وكانت مثل هذه الفتوى تحسم القضية فى العادة لصالحه .

ويلاحظ أنه لم يكن فى تلك العصور محامون محترفون يتولون المرافعة أمام المحاكم ، لذلك كان المفتى عنصراً ضرورياً وهاماً ونافعاً فى النظام القضائى . وقد رحب المفتون بالفتاوى التى تصدر عنهم للأفراد ؛ لأنها جاءت بمورد مالى جديد تمثل فى الرسوم التى يدفعها طالب الفتوى ، وكان للمفتين نصيب كبير من هذه الرسوم ، فكان يأتيهم رزقهم رغداً من كل مكان (٥٥) .

وكان المفتون فى الأقاليم أقل درجة ومرتبة من القضاة . وكانت وظائف المفتين لا تحاط بأى نوع من أنواع المظهرية التى كانت تحاط بها المناصب الأخرى فى نفس المدينة أو الإقليم أو الولاية .

وقد أسدى المفتون للدولة العثمانية أجل الخدمات ، فقدموا لها - بصفتهم حراس الشريعة - قوة الإسلام ، وهى أعظم قوة روحية عملت فى هدوء ومشاهدة واستمرار على تماسك الدولة ومجتمعاتها الإسلامية دون أن تتعرض هذه القوة الروحية لهزات أو تغيرات ، بل مضت فى طريقها تطبع العثمانيين وحياتهم الخاصة والعامة بالطابع الإسلامى العميق .

## ٦ - امتيازاتهم ودورهم فى تطبيق تعاليم الإسلام :

كان القضاة - وبخاصة من فئة مولى الكبير - يتمتعون بعدة امتيازات ، إذ كان لكل منهم الحق فى ارتداء عباءة من الفرو السمور فى الاحتفالات الرسمية من قبيل التكريم والتشريف . وكان هذا النوع من العباءات يرتديه الباشوات وحكام الولايات ومن إليهم من كبار موظفى الدولة . وكان من تقاليد الدولة العثمانية أن يقام حفل رسمى كبير - سواء فى عاصمة الدولة أو فى عواصم الولايات - لتقديم هذا الرداء للشخص أو للأفراد الذين ينعم به عليهم ، ويحضر هذا الحفل كبار موظفى الدولة المدنيين والعسكريين ، ويتولى ورئيس الحفل مساعدة القاضى فى ارتداء الفرو السمور (٥٤) .

وكان من امتيازات كبار القضاة أن يتبعهم فى غدواتهم وروحاتهم وكافة تنقلاتهم عدد من الرجال يختص بعضهم بحراسة القاضى ، ويختص البعض الآخر بخدمته باختلاف أنواعها (٥٥) .

وكانت توجه الدعوة إلى أولئك القضاة وإلى كبار أساتذة مدارس الشريعة والقانون باستانبول ، وكبار المدن العثمانية لحضور الاحتفالات التى تقام عند اعتلاء سلطان جديد العرش العثمانى ، ويقدم فيها كبار الموظفين الولاء له . وكانت هذه الدعوة تتكرر - بعد ذلك - مرتين على مدار السنة ، المرة الأولى عند حلول عيد الفطر المبارك ، والمرة الثانية عند حلول عيد الأضحى . فكان يقام

فى كل عيد من هذين العيدين حفل استقبال رسمى فى القصر السلطانى . وكان كبار القضاة يشهدون هذين الحفلين كما يشهدهما شيخ الإسلام والصدر الأعظم . وكانت تقام احتفالات مماثلة فى عواصم الولايات ، يحضرها القضاة والقادة العسكريون ، وكبار الموظفين فى الولاية تحت رعاية الوالى . وكان القضاة لهم قصب السبق فى تلك الاحتفالات (٥٦) .

كذلك كان هؤلاء القضاة يدعون للمشاركة فى بعض الاحتفالات التى كانت تقيمها الدولة العثمانية فى بعض الأحيان عقب انتصارها فى معركة حاسمة لها أثر كبير فى تقدم الفتوحات العثمانية وهزيمة الأعداء . وكانوا - أى القضاة - يقدمون فى بعض هذه الاحتفالات على بعض القادة العسكرية (٥٧) .

وتذكر بعض الوثائق العثمانية (٥٨) أنه كان يسند إلى بعض القضاة من فئة مولى الكبير قيادة بعض الجيوش العثمانية الفاتحة ، كما كان يسند إليهم قيادة بعض الجيوش العثمانية الموجهة لإخماد فتنة شبت فى بعض أنحاء الدولة العثمانية . وقد حقق الكثير منهم انتصارات كبيرة سجلها التاريخ لهم (٥٩) .

كذلك كان معظم هؤلاء القضاة أعضاء رئيسيين فى ديوان الولاية ، لايت أمر بدونهم ، فكل قاضٍ من هؤلاء مسئول عن الشؤون القضائية فى ولايته (٦٠) .

وقد قام العلماء والقضاة بدور كبير وبارز فى تطبيق تعاليم الإسلام فى أحكامها وتصرفاتهم الشخصية ، فقد كانوا على اختلاف رتبهم ومناصبهم وتخصصاتهم قدوة طيبة للمجتمع العثمانى ، وقد ميزتهم الدولة العثمانية فى زيهم الخارجى فكانوا يرتدون العمامات والفرو المميز لهم فى لونه وشكله العام ، مما يجعلهم محط أنظار الناس ، وقد كانوا أهلاً لذلك . ولم يكن تميزهم مقصوراً على المظهر الخارجى . وإنما كان التميز أصلاً فى تمكنهم فى العلوم الشرعية ، وحرصهم الشديد على تطبيق تعاليم الإسلام ، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر فى أماكن تجمعات الناس فى الطرقات والأسواق .



وكان كثير من القضاة يتولى الإمامة بالمسلمين فى الجوامع والمساجد الكبيرة ، كما يؤمون الناس فى الأعياد وأيام الجمع ، وكانوا يحثون الناس فى خطبهم على التمسك بالدين ، ووجوب تطبيقه نصاً وروحاً فى كل صغيرة وكبيرة من أمور الحياة .

غير أن القضاة لم يكونوا جميعاً على درجة واحدة من النزاهة والاستقامة ، فهناك عدد قليل من القضاة لعبت الرشاوى دوراً كبيراً فى صرفهم عن إصدار الأحكام الإسلامية الصحيحة ، خاصة فى الفترة الثانية من حكم سلاطين الدولة العثمانية ، وهى الفترة التى استشرى فيها الضعف والفساد ، وعم معظم الأجهزة الحكومية ، فاستغل ذلك بعض القضاة والقادة العسكريين وصغار الموظفين لجمع مكاسب مالية على حساب الدولة وأفراد المجتمع . وقد أورد بعض المؤرخين الأتراك نماذج من تقارير مرفوعة من لجان التفتيش والتحقيق إلى السلطان وإلى شيخ الإسلام تذكر أن بعض القضاة باعوا ضمائرهم ، وخانوا الأمانة التى أوكلت إليهم فى سبيل جمع المال (٦١) .

وفيما يلى نماذج مختصرة لعدد من القضاة وشيوخ الإسلام لعبوا دوراً هاماً فى التاريخ العثمانى . وخلفوا آثاراً كبيرة من المؤلفات الشرعية والكتب التاريخية واللغوية وغيرها ...

### ابن الجزرى :

شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد بن على بن يوسف الجزرى ، فقيه وحجة فى القراءات وشاعر . ولد بدمشق ليلة السبت الموافق ٢٥ رمضان عام ٧٥١هـ/ ٣٠ نوفمبر - أول ديسمبر - عام ١٣٥٠ م ، وحفظ القرآن عام ٧٦٣هـ/ ١٣٦٣ م . وبعد أن صرف جزءاً من عنايته فى الحديث درس القراءات المختلفة ، وأجاد فيها . وفى سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٧هـ ، حج إلى مكة المكرمة والمدينة ، ثم ذهب إلى القاهرة حيث أجاد القراءات ، ولما رجع إلى دمشق انصرف إلى دراسة



الحديث والفقہ ، وعاد إلى القاهرة لدراسة البلاغة وأصول الفقہ . ثم ذهب إلى الإسكندرية ليحضر على تلاميذ ابن عبد السلام . وفى عام ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م أجاز له أبو الفداء الإفتاء . كما أجاز له الإفتاء أيضاً كل من ضياء الدين عام ٧٧٨ هـ / ١٣٧٣ م ، وشيخ الإسلام البلقينى عام ٧٨٥ هـ / ١٣٨٣ م . وبعد أن درس القراءات مدة من الزمن عُين قاضياً بدمشق عام ٧٩٣ / ١٣٩١ م . ولما صودرت أملاكه بالقاهرة عام ٧٩٨ هـ / ١٣٩٥ م ذهب إلى بلاط السلطان العثمانى بايزيد بن عثمان فى بروسه ، ولازمة ما يقرب من ست سنوات ، وتولى منصب " مفتى الأنام " بعد أن تدرج فى الوظائف الإدارية والقضائية فى الدولة العثمانية . وبعد وقعة " أنقرة " فى عام ٨٠٤ هـ / ١٤٠٢ م أوفده تيمورلنك إلى بلاد ما وراء النهر ، ثم بعد ذلك إلى سمرقند ، وألقى فيها على الناس دروساً ، وذهب ابن الجزرى بعد وفاة تيمور فى عام ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م إلى خراسان ثم إلى هراة فاصفهان ، فالبصرة ... ثم إلى مكة المكرمة فالمدينة المنورة عام ٨٢٣ هـ / ١٤٢٠ م . وبعد أن مكث عدة سنوات فى هذه البلدان رجع إلى شیراز ، وتوفى بها يوم الجمعة ٩ ربيع الأول ٨٣٣ / ٢ ديسمبر ١٤٢٩ م .

### مؤلفاته :

١ - كتاب النشر فى القراءات العشر . ويوجد بمكتبة نورى عثمان رقم ٩٧ ، فهرس الكتبخانة الخديوية ، ج ١ ، ص ١١٧ ؛ المكتبة العبدلية بتونس ، ج ١ ، ص ١٧٦ .

٢ - تحبير التيسير فى القراءات ، وهو شرح لكتاب " التيسير " للدانى فى القراءات . فهرس الكتبخانة الخديوية ، ج ١ ، ص ٩٢ ، برلين رقم ٥٩٠ ، استانبول / مكتبة نورى عثمان ، رقم ٥٩٠ .

٣ - طيبات النشر فى القراءات العشر ، وهى منظومة من بحر الرجز تقع فى ألف بيت عن القراءات العشر ، انتهى من نظمها فى شعبان عام ٧٩٩ هـ / مايو ١٣٩٦ م ، طبعت بالقاهرة عام ١٢٨٢ ، ١٣٠٧ هـ .

٤ - الدرة المضية فى قراءات الأئمة الثلاثة المرضية ، وهى منظومة من بحر الطويل فى ٢٤١ بيتاً انتهى منها عام ٨٢٣هـ / ١٤٢٠م ، طبعت بالقاهرة عام ١٢٨٥ ، ١٣٠٨هـ .

٥ - هدية أو ( غاية ) المهرة فى زيادة العشرة . وهى منظومة فى نفس الموضوع . توجد بمكتبة أيا صوفيا رقم ٣٩ .

٦ - منجد المقرين ومرشد الطالبين ، وهى رسالة فى سبعة أبواب عن أهمية القراءات .

٧ - لامية من بحر الطويل فى إحدى وأربعين بيتاً تحتوى على أربعين مسألة عن معضلات القراءات .

٨ - المقدمة الجزرية ، وهى أرجوزة فى ١١٠ أبيات عن التجويد ، طبعت فى القاهرة عام ١٢٨٢ ، ١٣٠٧هـ .

٩ - التمهيد فى عام التجويد ، انتهى من تأليفه عام ٧٦٩هـ / ١٣٦٧م يوجد بالكتبة الأهلية بباريس رقم ٢٠٥٩٢

١٠ - كفاية الألعى فى آية يا أرض ابلعى . وهى فى القراءات المختلفة للآية ٤٦ من سورة هود ، فهرس ، فهرس الكتبخانة الخديوية ، ج٧ ، ص ٥٧٨

١١ - مختصر طبقات القراء المسمى بغاية النهاية ، وهو أصغر كتابه اللذين يبحثان فى هذا الموضوع . استانبول ، مكتبة نوري عثمان رقم ٨٥

١٢ - مقدمة علم الحديث ، برلين رقم ١٠٨٤

١٣ - الهداية إلى الرواية ، وهى منظومة فى ٣٧٠ بيتاً من بحر الرجز عن تناقل الروايات المختلفة فى القراءات بين طبقات القراء .

١٤ - عقد اللآلى فى الأحاديث المسلسلة العوالى ، انتهى من تأليفه بشيراز عام ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م ، باريس ، المكتبة الأهلية ، رقم ٤٥٧٧ ، ٣

١٥ - الرسالة البيانية فى حق أبوى النبى ﷺ .

١٦ - المولد الكبير ، وهو فى سيرة النبى ﷺ .

١٧ - ذات الشفاء فى سيرة النبى والخلفاء ، وهى أرجوزة فى سيرة النبى ﷺ والخلفاء الراشدين - رضوان الله عليهم - ولمحة سريعة فى تاريخ المسلمين إلى عهد السلطان بايزيد الأول ، ألفها نزولاً على رغبة أمير شيرازير محمد .

١٨ - الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين ، طبع بالقاهرة عام ١٢٧٩ ، ١٣٤٥ ، وفى عام ١٣٢٢ هـ .

١٩ - مختصر النصيحة بالأدلة الصحيحة ، وهى رسالة الأخلاق . تعتمد على الحديث ، فهرس الكتبخانة الخديوية ، المجلد السابع ، ص ٥٦٤

٢٠ - الزهر الفاتح . وهى رسالة فى الحث على الفضيلة ، طبعت بالقاهرة عام ١٣٠٥ ، ١٣١٠ هـ .

٢١ - الإصابة فى لوزام الكتابة ، برلين ، رقم ٦

٢٢ - منظومة عن الفلك فى اثنين وخمسين بيتاً من الرجز (٦٢) .

### خوجة أفندى :

سعد الدين بن حسن جان بن حافظ محمد بن حافظ جمال الدين الأصفهاني ، ويعرف عادة باسم خوجة ( سعد الدين ) أفندى . مؤرخ عثمانى شهير وشيخ من شيوخ الإسلام النابيين ، ولد عام ٩٤٣ هـ / ١٥٣٦ - ١٥٣٧ م فى استانبول . وهو ابن رجل يدعى حسن جان ، هاجر من فارس والتحق بخدمة السلطان سليم الأول حاجباً له ، خلال السنوات السبع الأخيرة من سنوات

حكمه . ولقد قص حسن جان على ولده جميع القصص والأخبار التي تتصل بحياة السلطان سليم ، فما كان من سعد الدين إلا أن ألف منها كتاباً سماه "سليم نامه" وجعله ذيلاً لتاريخه المشهور ، ولقد ترجم ديزر H. F. Diez كتاب "سليم نامه" إلى الألمانية ما عدا المقدمة .

درس سعد الدين الفقه الإسلامى ، واندمج فى زمرة العلماء منذ عهد متقدم . وفى عام ٩٦٣هـ / ١٥٥٥ - ١٥٥٦ م أصبح سعد الدين ملازماً للفقير المشهور أبى السعود ، ثم أصبح فى المحرم من عام ٩٨١هـ / ١٥٧٣ - ١٥٧٤ م مدرساً ( خوجة ) وهو اسمه المشهور الذى لا يزال يعرف به إلى الآن بوجه عام ) لمراد ولى العهد . وكان فى ذلك الوقت والياً على مغيسية . وظل خوجة أفندى مشير مراد الثالث الأمين بعد اعتلائه العرش فى ديسمبر سنة ٩٨١هـ / ١٥٧٤ م ، واحتفظ برتبة " خوجة سلطانى " أى مدرس السلطان فى عهد محمد الثالث خليفة السلطان مراد . وغدا سعد الدين شيخاً للإسلام فى شعبان عام ١٠٠٦هـ / ١٥٩٨ - ١٥٩٩ م ، وتوفى وهو يشغل هذا المنصب بعد ذلك بعامين بمدينة استانبول فى الثانى عشر من ربيع الأول عام ١٠٠٨هـ / ١٢ أكتوبر ١٥٩٩ م . وقد حمل أربعة من أبنائه الخمسة نعش أبيهم إلى أيوب حيث دفن فى فناء المدرسة الخاصة بتحفيظ القرآن وتلاوته . وقد بلغ بعض أبنائه مناصب رفيعة ، فقد بلغ ولداه محمد ومحمد أسعد (٦٣) منصب الإفتاء ، وعبد العزيز وصالح (٦٤) منصب قاضى عسكر ، أما ولده مسعود فقد مات صغيراً (٦٥) .

وسعد الدين هو مؤلف التاريخ العثمانى المشهور المعروف باسم " تاج التواريخ " ولا يزال هذا التاريخ يعد بوجه عام من عمدة المصادر فى التاريخ العثمانى ، رغم أن سعد الدين لم يؤلفه بأمر من السلطان ( لم يكن سعد الدين حاملاً للقب مؤرخ السلطان ) . وقد أسدل هذا التاريخ حجب النسيان على جميع

التواريخ المتقدمة الخاصة بآل عثمان ، وهى المعروفة باسم "تواريخ آل عثمان" بل إنه جعلها شيئاً تافهاً مزرياً (٦٦) .

ويتناول هذا التاريخ الكلام عن البيت العثمانى من وقت قيامه حتى وفاة السلطان سليم الأول - المتوفى فى ٢١ سبتمبر عام ١٥٢٠ م - واستقى هذا التاريخ مادته من كتب المؤرخين المتقدمين ، وهو مكتوب بأسلوب يغلب عليه الإطناب . وتم هذا الكتاب فى عهد السلطان سليم الثانى ، وكان المقصود منه على وجه التحديد أن يكون ذيلًا للكتاب الفارسى " مرآة الأدوار ومرقاة الأخبار " لمصلح الدين محمد اللارى المتوفى عام ٩٧٩ هـ / ١٥٧١ م ، ونقل سعد الدين هذا الكتاب إلى التركية . وقد ذاع هذا الكتاب ، وأصبح الناس يقرأونه فى عدة مخطوطات إلى أن أصبح فى متناول الأيدى بوجه عام عندما طبع عام ١٢٧٩ هـ / ١٨٦١ م فى مجلدين كبيرين .

وأعد أنطوان كالان Antoine Galland ترجمة فرنسية مخطوطة لكتاب تاج التواريخ فى عام ١٧١٠ م ، ويظهر أن المجلد الأول من هذا المخطوط قد فقد، أما الباقي فمحفوظ فى المكتبة الأهلية بباريس .

ويقال : إن محمد أسعد أفندى ابن سعد الدين قد أتم التاريخ الذى كتبه أبوه (٦٧) .

### أبو السعود :

هو محمد الآمدى نسبة إلى آمد المعروفة الآن بديار بكر ، فقيه عثمانى من أصل كردى ، ظل شيخاً للإسلام ثلاثين عاماً . وكان من أكبر أعوان السلطان سليمان القانونى ، ولد عام ٨٩٦ هـ / ١٤٩٠ - ١٤٩١ م . وكان فى أول أمره مدرساً للفقهاء ثم قاضياً ، وظل قاضى عسكر الرومللى ثمان سنوات متتالية ، ثم عين شيخاً للإسلام . وصنف تفسيراً للقرآن الكريم استقاه من تفسير البيضاوى ،

والكشفاف للزخشرى . ولما ظهر الجزء الأول من تفسيره رفع مرتبه اليومى من ٣٠٠ إلى ٥٠٠ آقجة ، ثم رفع إلى ٦٠٠ لما ظهر الجزء الثانى منه . ولما ولى السلطان سليم الثانى العرش شرفه بوضع يده على عمامته واحتضنه بشغف ، ورفع مرتبه إلى ٧٠٠ آقجة فى أول شعبان عام ٩٧٤ هـ / ١١ فبراير ١٥٦٧ . وأفتى أبو السعود فتوى يجيز فيها حملة السلطان سليم على قبرص . وقد حزن السلطان سليم حزناً شديداً لوفاته عام ٩٨٢ هـ / ١٥٧٤ م . وهو صاحب " قانون نامه " الذى صنفه للسلطان سليمان القانونى ، جمع فيه القوانين التى صدرت خلال فترة حكم هذا السلطان ، وخلف شعراً بالتركية والعربية ، وقد أطلق اسمه على أحد شوارع مدينة استانبول (٦٨) .

### خضر بك :

عالم عثمانى وشاعر ، وقاضى قضاة استانبول . ولد فى غرة ربيع الأول عام ٨١٠ هـ / ٦ أغسطس ١٤٠٧ م فى " سيورى حصار " ، وهو ابن جلال الدين قاضى تلك المدينة ، وينتمى إلى أسرة " شهيرة " يرد نسبها إلى خوجة نصر الدين . تلقى خضر بك العلم على يد ملا محمد يكن ، وتزوج من ابنته فيما بعد . ولما أتم دروسه أصبح قاضياً فى مسقط رأسه ، ثم مدرساً ، واختير بعد ذلك أستاذاً فى بروسة ، ثم قاضياً فى " اينكول " ثم استدعى آخر الأمر للتدريس فى أدرنة ، وعين قاضياً للقضاة فى استنبول . وأبناؤه هم : أحمد باشا مفتى بروسة الذى توفى عام ٩٠١ هـ / ١٤٩٥ م ، و سنان باشا ، ويعقوب باشا قاضى بروسة الذى توفى عام ٨٩١ هـ / ١٤٨٦ م ودفن فى مسجد ملا فنارى . وعرف هؤلاء الثلاثة بمواهبهم العقلية ، وسعة إطلاعهم . وكان خضر بك نفسه حجة فى العلوم الإسلامية ، على دراية واسعة بآداب اللغات الإسلامية ، وله منظومة فى الوعظ والإرشاد من بحر البسيط عنوانها " النونية فى العقائد " . وقد شرحت هذه القصيدة أكثر من مرة مثل شرح داود بن محمد القرصى . وله إلى جانب ذلك عدة



مؤلفات أخرى معظمها فى الشعر . وتوفى خضر بك فى استانبول عام ١٤٥٨هـ / ١٤٥٩م ، ودفن فى مقبرة أيوب . ولا تزال قرية قاضى كوى المقابلة لاستانبول على الشاطئ الأسيوى تحمل اسمه ، أى قرية القاضى ، وكانت له فيها أملاك شاسعة (٦٩) .

### خير الله أفندى :

مؤرخ تركى نابه الذكر ، ولد فى استانبول من أسرة ظلت تخدم السلاطين دون انقطاع أكثر من ١٦٠ عامًا . وأبوه عبد الحق أفندى المشهور ( توفى عام ١٢٧٠هـ / ١٨٥٤م ) ، كان من رجال الدين والطب ، وبلغ مرتبة " سر أطباء " ثلاث مرات ، ثم خلع عليه لقب التشريف " رئيس العلماء " منذ عام ١٢٦٩هـ / ١٨٥٢م . وبدأ خير الله حياته مقتفياً أثر أبيه ، فنشأ نشأة دينية . وكان أول منصب تولاه هو منصب " ملا إزمير " عام ١٢٥٨هـ / ١٨٤٢م ثم اتجه نحو العلوم والطب والتربية ، وأصبح سنة ١٢٦٥هـ / ١٨٤٨م عضواً فى مجلس التعليم ومجلس الزراعة ، ورئيساً ثانياً لجمع ( أنجمن - دانشى ) ، ورئيساً لعدة هيئات عميلة . وشغل مناصب رفيعة فى وزارة المعارف التى ألفت تأليفاً جديداً ، وظل مدة طويلة ناظراً لمدرسة الطب ، إلى أن اختير سفيراً فى طهران عام ١٢٩١هـ / ١٨٦٤م ، وتوفى فجأة عام ١٢٨٣هـ / ١٨٦٦م .

ولخير الله ولدان هما : عبد الحق حامد ، أشهر شاعر فى تركيا الحديثة ، وعبد الخالق نصوحى ، وكلاهما اشتغل بالسفارة لتركيا فى الخارج .

ولخير الله عدد من المؤلفات فى التاريخ والجغرافيا والطب والعلوم والزراعة . ومعظم كتبه فى الزراعة مترجمة عن اللغات الأجنبية . وقد طبعت بعض مؤلفاته مثل كتاب " مسائل حكمت ، وبيت دهقانى ، ورحلته إلى أوربا المسماة أوربا سياحت نامه سى " . وتعود شهرته إلى مؤلفاته فى التاريخ ، فله إلى جانب كتابه

" وقائع مصرية " ، تاريخ مفصل للدولة العثمانية عنوانه " دولت عليه عثمانية تاريخى " بدأ صدوره تقريباً فى نفس الوقت الذى ظهر فيه التاريخ القيم الذى أصدره أحمد جودت - مؤرخ السلطنة - فى اثنى عشر مجلدًا ، وهو يشمل تاريخ الدولة العثمانية فيما بين عامى ١٧٧٤ هـ / ١٨٢٦ م .

وكان خير الله أفندى يريد أن يكتب التاريخ العثمانى بأجمعه فى مصنف واحد متصل الحلقات . وهو أول مؤرخ تركى حاول أن يتناول التاريخ العثمانى من ناحية مكانته بالنسبة لتاريخ العالم ، وذلك على عكس الطريقة التى كانت مألوفة فى ذلك الوقت عند أصحاب الحوليات من الترك الذين لم يخرجوا فى تأليفهم عن المصادر والشئون التركية دون غيرها .

وكان خير الله فى الواقع أول كاتب نجح إلى حد ما فى كتابة تاريخ شامل للعالم " تاريخ عمومى " . وكان معظم اعتماده على المصادر الفرنسية . ويتبين لنا ذلك من كتابة الأعلام الأجنبية بحسب نطقها الفرنسى ، وكان فى الوقت نفسه يعتمد على المصادر التركية التى لم تكن بعد قد استقلت تمامًا .

وقد خص مجلدًا من كتابه بالمقدمة وبالتاريخ المتقدم للدولة العثمانية ، وهو العهد السابق على حكم عثمان الأول . ووضعت خطة الكتاب بحيث يستغرق عهد كل سلطان من سلاطين آل عثمان مجلدًا من مجلداته . وقد عرض فى الوقت نفسه للحكام المسلمين والنصارى المعاصرين ، ثم يتناول بعد ذلك مادة الكتاب متوخيًا الفائدة من غير اعتبار لسرد الأخبار . ولغة خير الله بسيطة واضحة سهلة الفهم إذا قسناها بلغة المؤرخين المتقدمين الطنانه . ويمتاز تاريخه أيضًا على تواريخ من تقدموه ببعدته عن المحاباة والبغض الأعمى للثقافات الأخرى .

وقد ظهر من هذا التاريخ خمسة عشر مجلدًا فقط ( ١٢٧١ - ١٢٨١ هـ / ١٨٥٣ - ١٨٦٤ م ) وهى تبدأ بعهد عثمان الأول ، وتنتهى بعهد أحمد الأول ( ١٠١٢ - ١٠٢٧ هـ / ١٦٠٣ - ١٦١٧ م ) ثم توفى المؤرخ بعد ذلك . فحاول

على شوكت المفتش فى " ديوان أحكام عدلية " أن يتم الكتاب الذى لم يستطع  
خير الله أن ينجز إلا بعضه بعد مشقة . ولم يظهر بعد ذلك إلا ثلاثة مجلدات  
أخرى ، من المجلد السادس عشر إلى المجلد الثامن عشر (١٢٨٩ -  
١٢٩٢هـ/ ١٨٧٢ - ١٨٧٥ م) إلى عهد السلطان إبراهيم الأول (١٠٤٩ -  
١٠٥٨هـ/ ١٦٣٩ - ١٦٤٨ م) (٦٩) .

### صارى كورز :

ويعرف أيضاً باسم صارى كروز ، ففیه عثمانى وقاضى عسكر ، واسمه  
الحقيقى نور الدين . وقد ولد فى إقليم " قره سى " . كان أبوه يدعى يوسف ،  
وتلقى صارى دروسه على مشاهير المعلمين ، ومن بينهم قوجة سنان باشا . ثم  
اشتغل بعد ذلك بالفقه وأصبح مدرساً ثم قیماً ، ثم غدا آخر الأمر قاضى استانبول  
عام ٩١٧هـ/ ١٥١١ م ، واستخدمه السلطان بايزيد الثانى فى شئون الدولة  
المختلفة . وعين فى عام ٩١٩هـ/ ١٥١٣ م إبان حكم السلطان سليم الأول قاضى  
عسكر الأناضول ، وفى عام ٩٢١هـ/ ١٥١٥ م قاضى عسكر الرومللى . وقد  
صُرف عن منصبه فى العام التالى وأصبح مرة أخرى قیماً . وعين عام  
٩٢٦هـ/ ١٦١٩ م قاضى استانبول مرة أخرى ، وتوفى صارى كورز فى استانبول  
عام ٩٢٨هـ/ ١٥٢١ م ودفن فى حديقة المسجد الذى شيده . وكان يعيش فى  
مكان غير بعيد من المسجد الذى يحمل اسمه (٧٠) ولا يزال حتى من أحياء استانبول  
يعرف باسم صارى كورز نسبة إليه (٧١) وقد ألف صارى كورز فى الفقه ،  
وخلف عدداً من الكتب يوجد ثبت لها فى كتاب حاجى خليفة (٧٢) .

### خليل أفندى زاده :

أحمد سعيد أفندى ، من العلماء الذين ظهوروا فى عهد السلطان محمود  
الأول (١١٤٣ - ١١٦٨هـ / ١٧٣٠ - ١٧٥٤ م) وهو ابن بركللى خليل  
أفندى . ولى منصب قاضى عسكر الأناضول مرتين . ودرس خليل على أبيه ثم

تلقى الدروس المألوفة فى المدرسة ، وبدأ حياته مُلاً فى يكى شهر عام ١١٣٥هـ / ١٧٢٢ م . ثم أخذ يرتقى مراتب العلماء حتى بلغ أسماها . واختير شيخاً للإسلام عام ١١٦٢هـ / ١٧٤٩م ولكنه صرف عن منصبه عام ١٧٥٠م ، بعد أن ظل فيه عشرة أشهر ، لصلابته وعناده ، ونفى إلى بروسه حيث توفى بها عام ١١٦٨هـ / ١٧٥٤م ، ودفن بالقرب من أمير سلطان .

وكان خليل فى نظر الناس عالماً من أصحاب الأقلام مؤهلاً تمام التأهيل لكل ما يتطلبه منصبه . وخلف لنا خليل - علاوة على شرحه لتاريخ عينى المتوفى عام ٧٦٢هـ - ترجمة تركية لجزء من ذلك الكتاب . واشتهر كثير من أبنائه وأحفاده بالتفقه فى الدين (٧٣) .

### جلبى زاده :

عاصم أفندى إساعيل : شيخ الإسلام ومؤرخ تركى ، وهو ابن رئيس أفندى كوجك جلبى ، ومن ثم عرف بهذا الاسم . تولى بادئ الأمر القضاء وتدريس الفقه ، ثم اختير آخر الأمر مؤرخاً للدولة العثمانية مكان رشيد ١١٣٠هـ / ١٧١٧م ، وولى على التعاقب قضاء بروسه عام ١١٥٢هـ / ١٧٣٩م ، والمدينة المنورة عام ١١٥٧هـ / ١٧٤٤م ، واستانبول عام ١١٦١هـ / ١٧٤٨م ثم أصبح شيخاً للإسلام عام ١١٧٢هـ / ١٧٥٨م وظل فى هذا المنصب حتى وفاته بعد ذلك بثمانية شهور .

ويتناول تاريخه المشهور ، ( طبع بالآستانة عام ١١٥٣هـ / ١٧٤٠م ) . الفترة بين عامى ١١٣٥ و ١١٤١هـ / ١٧٢٢ - ١٧٢٨م . وله ديوان شعر كبير يضم قصائد فى مدح السلطان أحمد الثالث ومحمود الأول ، وأبيات قيلت فى الأحداث الهامة التى وقعت بين عامى ١١٢٧ - ١١٥٥هـ / ١٧١٦ - ١٧٤٢م (٧٤) .

## عارف حكمت بك :

عاش فى الفترة ( ١٢٠١ - ١٢٧٥هـ / ١٧٨٦ - ١٨٥٩م ) وتولى مشيخة الإسلام من سنة ١٢٦٢ - ١٢٧٠هـ / ١٨٤٥ - ١٨٥٤م ، ويعد عارف حكمت من أواخر شعراء وكتاب المدرسة القديمة من الترك . وقد انحدر عارف من أكابر الموظفين ، ( كان أبوه إبراهيم عصمت قاضى عسكر ، فى ظل السلطان سليم الثالث ) . تولى عارف حكمت منصب ( ملا ) بيت المقدس سنة ١٢٥١هـ / ١٨١٦م ثم القاهرة سنة ١٢٣٦هـ / ١٨٢٠م ، ثم المدينة المنورة سنة ١٢٣٩هـ / ١٨٢٣م . وغدا من بعد نقيب الأشراف سنة ١٢٤٩هـ / ١٨٣٣م ، ثم قاضى عسكر الأناضول سنة ١٢٤٩هـ / ١٨٣٣م ، ثم الروملى سنة ١٢٥٤هـ / ١٨٣٨م وتقلد أخيراً منصب شيخ الإسلام ، وظل يشغله سبع سنوات . وقد عقد عارف حكمت باشا صلات مع أكابر شعراء عصره وخاصة أسعد أفندى ، وزير باشا ، وطاهر سلام . وكان هو نفسه يقرض الشعر ، ويعد ديوانه الذى يشتمل على قصائد بالتركية والعربية والفارسية ، من أواخر الآثار النابذة لمدرسة الشعر التركية القديمة ، وقد طبع الديوان فى استانبول سنة ١٢٨٣هـ / ١٨٦٧م .

ومن الآثار الأخرى " تذكر شعراء " وهو تراجم للشعراء الترك حتى سنة ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م ، وكتاب " الأحكام المرعية فى الأراضى الأميرية " وكتاب " خلاصة المقالات فى مجالس المكالمات " ( ٧٥ ) .

## ٧ - مستشارو السلطان والوزراء :

يأتى فى مقدمتهم " خوجة السلطان " والمعنى الحرفى لهذا المصطلح معلم السلطان . وكان مستشاراً للسلطان فى المسائل الدينية ، وكان يشترط فيه تعمقه فى المسائل الشرعية إلى جانب تعمه فى القوانين الدولية المعاصرة . وكان يقدم رأى القانونى فى أى مسألة يريد بها السلطان مبيناً مدى مطابقتها أو تعارضها مع



تعاليم الشريعة الإسلامية السمحة ، فكما أنه مفتى فى المسائل الشرعية فهو أيضاً يعد مفتياً فى المسائل القانونية . ولذلك كان يظفر بتقدير عميق ومركز مرموق بين مستشارى السلطان ، وفى دوائر الحكومة . وكان خوجة السلطان فى درجة القضاة من فئة المولى الكبير ، أى قاضى من الدرجة الأولى ، ولذلك كان يرقى من هذا المنصب المرموق إلى الوظائف العليا فى الهيئة الإسلامية الحاكمة . وتذكر بعض الوثائق العثمانية أن محمد عصمت باشا شغل منصب معلم ومستشار السلطان القانونى مدة ثلاث سنوات ، ثم عين رئيس محكمة الصدر الأعظم ، وبقي فى هذا المنصب مدة أربع سنوات ، ثم رقى إلى منصب أعلى وهو قاضى عسكر الروملى ، وبقي فى هذا المنصب سنتان حتى توفى سنة ٩٥٣هـ / ١٥٤٦م (٧٦) .

وتذكر وثائق عثمانية أخرى أن معظم سلاطين الدولة العثمانية - وبخاصة سلاطين المرحلة الأولى - كانوا يحيطون أنفسهم بعدد كبير من المستشارين الشرعيين والمعلمين . وقد اتخذ السلطان سليمان القانونى فى السنوات الأخيرة من حكمه خمسة وعشرين مستشاراً شرعياً (٧٧) ، كما عين السلطان عبد الحميد الثانى سبعة عشر قاضياً على وظيفة مستشار (٧٨) .

وكان معظم السلاطين يتنافسون فى تعيين المستشارين الشرعيين من حيث الكثرة والنوعية ، وكانوا يصطحبونهم فى حلهم وترحالهم وحتى فى ميادين القتال والمعارك ، وكانوا يتقيدون بتعليماتهم ونصائحهم ، وبهذا تقدمت الدولة العثمانية تقدماً مذهلاً فى فتوحاتها الإسلامية فى شرق أوروبا . وتذكر بعض المصادر العثمانية أن السلطان محمد الفاتح كان له مايزيد عن عشرين مستشاراً ، منهم من يختص بالأمور العسكرية ومنهم من يتولى متابعة أمور الدولة العثمانية الأخرى . وكان معظم هؤلاء لمستشارين ملازمين للسلطان محمد الفاتح ويحضرون اجتماعات الديوان الهمايونى ، ويشاركونه فى ساحات الجهاد (٧٩) .



ويتم تعيين هؤلاء المستشارين الشرعيين بترشيح من شيخ الإسلام والصدر الأعظم بعد تمحيص وتدقيق ، ثم يرفع هذا الترشيح للسلطان للمصادقة عليه وإصدار قرار التعيين (٨٠) .

ولم يكن السلاطين على درجة واحدة من حيث التقيد أو الأخذ بمشورة هؤلاء المستشارين ، فقد كان السلطان سليم الأول - وهو رجل عسكري من الدرجة الأولى - يستبد برأيه وبخاصة في الأمور الحربية ، وإن كان يستمع إلى رأى مستشاريه ووزرائه (٨١) .

ووصل الأمر ببعض السلاطين الضعاف حد تسليم مقاليد الحكم إلى المتشاورين والصدر الأعظم . وصار مثل هذا النوع من السلاطين لا يعرف عن أمور دولته شيئاً إلا عن طريق هؤلاء المستشارين والمعلمين أمثال سليم الثاني ، ومصطفى الأول ، وأحمد الثاني ... وغيرهم (٨٢) .

ولم يكن تعيين المستشارين مقصوراً على السلاطين فحسب ، بل كان كل وزير من وزراء الدولة العثمانية يحيط نفسه بعدد من المستشارين يساعدونه في إدارة الدولة . كذلك نجد كبار الأمراء من آل عثمان - ممن يشغلون مناصب قيادية في الدولة - يعينون بعض المستشارين إلى جانبهم (٨٣) .

وكان الوزراء والأمراء - في فترة قوة الدولة - يستمعون إلى نصائحهم وإرشادهم ولا يقدمون على أمر ما أو قرار معين إلا بعد تمحيصه ودراسته دراسة دقيقة والاستماع إلى مشورة المستشارين (٨٤) .

أما في فترة الضعف التي انتابت الدولة العثمانية بعد وفاة السلطان سليمان القانوني ، فنجد بعض الوزراء والأمراء قد سلموا الأمر والإدارة إلى هؤلاء المستشارين ، فاستبد بعضهم بالحكم واحتكر مصالح الدولة ، وأخذ يعمل لحسابه الخاص نظراً لانصراف الوزراء والأمراء عن متابعتهم (٨٥) .

ومما زاد الأمر سوءاً وعجل بضعف الدولة العثمانية وسقوطها ، تعيين مستشارين أجانب من الدول الأوروبية إنجلترا وفرنسا ، وألمانيا ... إلى جانب السلاطين والوزراء والأمراء . وهؤلاء كانوا يتظاهرون بتقديم النصيح والمشورة الصادقة للسلطان وأعوانه ، بينما هم فى الحقيقة على عكس ذلك ، يعملون لحسابهم وحساب دولهم المعادية للدولة العثمانية المسلمة . وكانت مشوراتهم من أسباب ضعف الدولة العثمانية وسقوطها ، لأن بعض السلاطين والوزراء كانوا يأخذون هذه النصائح كأمر مسلم به وينفذونها دون تمحيصها وتدقيقها وأخذ رأى العلماء والفقهاء فيها(٨٦) .

وقد بدأ تعيين المستشارين الأجانب فى الدولة العثمانية منذ أوائل القرن السابع عشر تقريباً ، ثم ازداد عدد المستشارين الأجانب وبخاصة العسكريين منهم حتى بلغ قمته فى القرن التاسع عشر الميلادى . وكان بلاط السلاطين محمود الثانى وعبد الحميد وعبد العزيز يفيض بهم ، بدعوى محاولة إصلاح الدولة العثمانية وتقديمها ، بينما هم فى الحقيقة يعملون على تغريب الدولة العثمانية وإبعادها عن دينها .

ومن أمثلة الذين تولوا منصب مستشار السلطان والوزراء :

**أحمد باشا :**

وهو ابن قاضى عسكر ولى الدين ، فقيه وشاعر عثماني فى عهد السلطان محمد الفاتح . كان فى أول أمره أستاذاً بمدرسة مراد الثانى فى بروسه ثم قاضياً لأدرنه ، ثم معلماً للأمراء والوزراء ، ثم عين مستشاراً للسلطان محمد الفاتح ، وبقي فى هذا المنصب حتى وفاته سنة ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م . ودفن بمدينة بروسه بالقرب من المسجد الذى أنشأه ، وهو أول شاعر عثماني يتميز شعره برقة الأسلوب . ويعتبر أحمد باشا مبدع التعبير الشعرى للأتراك العثمانيين(٨٧) .

## بركوى :

محمد بن بير على ، فقيه تركى ، ولد سنة ٩٢٨هـ / ١٥٢٢م ، ودرس فى استانبول ، وتدرج فى بعض الوظائف الحكومية فى أدرنة ، ثم أراد أن يعتزل الحياة العامة ، ولكن عطا الله أفندى عينه مدرساً فى مدرسة ( بركى ) وظل يعمل فيها فترة طويلة إلى أن عين مستشاراً للسلطان سليم الثانى سنة ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م ، وبقي فى هذا المنصب حتى وفاته سنة ٩٨١هـ ، ١٥٧٣م . وتشهد مصنفاته وكتبه - التى ألف معظمها باللغة العربية - بطول باعه فى التأليف ، وأغلب مصنفاته فى شؤون الدين بمعناه الواسع ، كتفسير القرآن الكريم وعلم الفرائض والوعظ والمسائل الفقهية مثل شروط الوقف ، وهو موضوع جادل فيه جدلاً عنيفاً . وله مؤلفات فى النحو العربى ، ولكن بركوى يشتهر على وجه خاص برسالة فى أصول الدين باللغة التركية تسمى عادة باختصار "رسالة بركوى" أو "صيت نامه" وقد طبعت وترجمت عدة مرات (٨٨) .

## بير محمد باشا :

أحد الصدور العظام فى الدولة العثمانية ، وهو ينتسب إلى أماسيه . اشتغل بالقانون والشرعية الإسلامية حتى أصبح قاضى صوفياً وسلورى وغلطه ، ثم أشرف على مطاعم ( عمارات ) محمد الفاتح التى خصصها للفقراء فى استانبول . وفى عهد بايزيد الثانى منح لقب باش دفتردار ، واشتهر فى أيام سليم الأول بمشورته الحكيمة فيما يتصل بغزو فارس حتى عينه السلطان سليم الأول مستشاراً له ، ثم شغل بعد ذلك قائمقام استانبول مدة من الزمن . ولما انتهت الحملة العثمانية على المماليك فى مصر عين صدر أعظم مكان يونس باشا ، ثم شغل منصب مستشار السلطان سليمان القانونى حتى وفاته عام ٩٤٠هـ / ١٥٣٣م . وقد شيد بير محمد باشا بعض المنشآت الخيرية منها : مسجد باستانبول سمي باسمه ، ومدرسة ومطعم للشعب (٨٩) .

### راشد محمد :

مؤرخ سلطاني عثماني ينتسب إلى استانبول حيث ولد ، وأبوه القاضي ملا مصطفى من أهله ملطية . أتم دراسته في مسقط رأسه ، وولى بها منصب المؤرخ الرسمي للدولة ، وظل شاغلاً لهذا المنصب إلى أن عين قاضياً لحلب عام ١١٣٤هـ / ١٧٢٠م . ثم بعث سفيراً لبلاده في فارس ، ثم شغل بعد ذلك قاضي مكة المكرمة ، ثم قاضي استانبول في شعبان ١١٤٢هـ / ١٧٣٠م ، وصرف عن هذا المنصب بعد ذلك ببضعة أشهر . وفي جمادى الأولى ١١٤٧هـ / ١٧٣٤م ، عين قاضي عسكر الأناضول ، ثم عين مستشاراً للسلطان محمود الأول لمدة عام ، حيث توفي في ١٨ صفر ١١٤٨ / ١٠ يولية ١٧٣٥م في استانبول . وقد كتب راشد محمد ذيلاً لتاريخ نعيما عن الدولة العثمانية من عام ١٠٧١ - ١١٣٤هـ / ١٦٦٠ - ١٧٢١م يعرف عادة بـ ( تاريخ راشده ) ، وهو العمدة في تاريخ هذه الفترة ، وخلفه في منصب المؤرخ السلطاني إسماعيل عاصم المعروف بكوجوك جلبي زاده (٩٠) .

### سالم محمد أمين :

ويلقب بميرزا زاده ، فقيه عثماني وكاتب لسير العلماء والأدباء . وهو ابن شيخ الإسلام ميرزا مصطفى أفندي . وكانت ولايته في استانبول وتعلم بها حتى أصبح مدرساً . ثم ترقى في سلم الوظائف الشرعية فتولى القضاء في مكة المكرمة في ذي القعدة عام ١١٣٤هـ / ١٣ أغسطس ١٧٢٢م ، ثم قاضياً في استانبول في جمادى الأولى عام ١١٤٣هـ / ١٢ نوفمبر ١٧٣٠م ، ثم غدا قاضي عسكر الأناضول . وعهد إليه في ربيع الثاني عام ١١٤٦هـ / ١٢ أغسطس ١٧٣٣م بمنصب قاضي عسكر الرومللي . وفي عام ١١٤٩هـ / ١٧٣٦م أوفد إلى مكة المكرمة ليتولى القضاء فيها مرة أخرى . ثم عاد بعدها إلى استانبول ، وعين مستشاراً للسلطان محمود الأول ، ثم نقل بعد ذلك إلى دمشق ليتولى القضاء بها ،

لكنه توفي في الطريق عام ١١٥٢هـ/١٧٣٧م . ولسالم محمد عدة ترجمات وشروح لمصنفات فقهية ، وكتاب في الجهاد يسمى " نيل الرشاد في أمر الجهاد " طبع في الآستانة عام ١٢٩٤هـ/١٨٧٨م ، انتهى من تأليفه في ذي الحجة عام ١١٤٥هـ/١٧٣٢م ، وقد كتبه بأمر من السلطان محمود الأول . وترجم أيضاً إلى التركية التاريخ العام للعيني المتوفى عام ٨٥٥هـ/١٤٥١م ، المعروف باسم " عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان " وتوجد ثمانية مجلدات من المخطوط الأصلي لهذا الكتاب - وكان في نية المؤلف أن يجعله في عشرة مجلدات - في استانبول بمكتبة نوري عثمانية . وأعظم مؤلفات سالم " تذكرة شعراء " الذي ترجم فيه لـ ٤١٠ شاعر وناظم ، كتبه عام ١١٣٣هـ/١٧٢٠م ، ويوجد المخطوط الأصلي لهذا الكتاب في مكتبة خالص أفندي باستانبول ، ومنه مخطوط آخر في فينا ، وقد طبع هذا الكتاب في استانبول عام ١٣١٥هـ/١٨٩٨م ، ويقع في ٧٢٦ صفحة (٩١) .

### أئمة السلطان والمساجد الخاصة :

تنافس سلاطين الدولة العثمانية والأمراء والوزراء في بناء المساجد والجوامع في العاصمة استانبول ، وفي مختلف ولايات الدولة العثمانية . وكان الدافع وراء ذلك إما حباً للخير ، أو تخليد لذاكرتهم .

وكان كل سلطان يبنى جوامع يعهد إلى شيخ الإسلام بتعيين أئمة وخطباء ومؤذنين لتلك الجوامع . وكان عددهم يختلف حسب كبر الجامع أو صغره . وكان خطباء الجوامع الكبيرة يختارون من كبار القضاة ، وينتسبون إلى القضاة من فئة مولى الكبير . وكان السلطان يؤدي صلاة الجمعة أو العيدين في أحد الجوامع التي بناها، أما بقية الفروض فكان يؤديها مع وزرائه في المساجد الخاصة في مقر الحكم ، أو في مسجده الخاص في قصره مع أفراد حاشيته (٩٢) .

وكان يشترط في إمام الجامع أن يكون متعمقاً في علوم الشريعة الإسلامية إلى جانب إلمامه بالقوانين الوضعية المعاصرة ، وقضايا المجتمع ، حتى يتمكن من



تفقيه الناس وتبصيرهم بأمور دينهم ، ومعالجة بعض الظواهر الاجتماعية السيئة (٩٣) .

وكان بعض السلاطين لهم مجموعة من الأئمة والخطباء يصاحبونهم في حلهم وترحالهم وتنقلاتهم في أقاليم الدولة العثمانية المختلفة ، كما كانوا يصاحبون السلطان في ميادين الجهاد ، ويقومون بإمامة المجاهدين في جميع صلواتهم ، كما كانوا يقومون إلى جانب بعض القضاة الآخرين بحث الناس على الجهاد والاستبسال في الجهاد ، ويذكرونهم بما أعده الله للمجاهدين من أجر جزيل وخير كبير في الدنيا والآخرة (٩٣) .

وكانت مرتبات هؤلاء الأئمة في الغالب من إيرادات الأوقاف الخيرية التي يوقفها السلطان على مسجده الذي شيده ، وقل أن نجد سلطاناً أو وزيراً أو أميراً يبنى جامعاً دون أن يوقف على هذا الجامع مزرعة أو استراحة أو عيناً ما ... يصرف منها على متطلبات المسجد ورواتب الخطباء والأئمة والمؤذنين (٩٤) .

وكان بعض خطباء الجوامع يشاركون في اجتماعات الديوان الهمايوني ، كما كان البعض الآخر مستشاراً للسلطان (٩٥) .

وكان مستشارو السلطان وأئمتهم ومعلموه من كبار أعضاء الهيئة الإسلامية الحاكمة ، وتمتعوا بنفوذ كبير جداً في الدولة ، لأن طبيعة وظائفهم كانت تتطلب أن يكونوا على اتصال مستمر بالسلطان . وكان لهم من ثقافتهم ومن الثقة الكبيرة التي أولاها إياها السلطان ما جعل الأضواء تسلط عليهم . وكان السلطان يقدر آراءهم ويحترمها .

ومن أمثلة الجوامع والمساجد الخاصة : المساجد التي كان يبنها الأمراء والوزراء ، وأهل الخير . وكانت الهيئة الإسلامية الحاكمة هي التي تتولى تعيين الأئمة والخطباء والمؤذنين والوعاظ .



ومن الخطباء المشهورين والأئمة كمال الدين خوجندي مؤلف كتاب شرح المقاصد . وكان كمال الدين يوم السلطان بايزيد الصاعقة في مسجده الخاص . والسيد شريف على الجرجاني مؤلف كتاب " التعريفات " وكان مستشار السلطان محمد الأول وإمامه الخاص . ويازيجي زاده محمد أفندي مؤلف كتاب " محمدية " كان إماماً وخطيباً في مسجد السلطان مراد الثاني في أدرنه . والشيخ سليمان الجزولي مؤلف كتاب " دلائل الخيرات " من أئمة السلطان محمد الفاتح ، وسيد أحمد البخاري إمام وخطيب في جامع السلطان بايزيد الثاني ، والشيخ الإمام أحمد القسطلاني مؤلف كتاب " المواهب " إمام وخطيب مسجد السلطان سليم الأول . والشيخ نعمة الله أفندي صاحب كتاب " اللغة " ، وكان من أشهر أئمة السلطان سليمان القانوني ، وأبو السعود أفندي إمام السلطان سليم الثاني ، وعلى القاري مؤلف كتاب " تصانيف " إمام وخطيب جامع السلطان أحمد الأول ، والشيخ إسماعيل حقي البورصوي مؤلف " تفسير روح البيان " إمام وخطيب جامع السلطان أحمد الثالث ، والشيخ شمس الدين حبيب إمام السلطان عبد الحميد الأول والشيخ سنبل زاده إمام وخطيب جامع السلطان محمود الثاني (٩٦) .

#### ٩ - أطباء القصور السلطانية :

لم يكن علماء الدين وحدهم الذين يتمون إلى الهيئة الإسلامية الحاكمة ، بل كانت هذه الهيئة تتسع لتشمل بعض الأطباء والجراحين ... وغيرهم من أصحاب التخصصات العلمية . ولعل مرد هذا الشمول إلى أن فريقاً من الأطباء كانوا يجمعون بين دراسة الطب ، والفقه ، أصول الدين وعلوم البلاغة وغيرها . وكانت لكل منهم في معظم الأحيان قدم راسخة ، وسأورد بعض الأمثلة على ذلك :

١ - أيدينلي (٩٧) حاجي باشا : وهو خضر بن علي بن الخطاب ، وكان معاصراً للسلطان أبي يزيد الأول ( ٧٩٠ - ٨٠٦ هـ ) ، جمع بين دراسة الفقه ، وعلوم البلاغة وبين دراسة الطب . وقد ارتحل إلى القاهرة طلباً للعلم ، ودرس على

شيوخ عصره فى الأزهر ، حيث درس على يد الشيخ مبارك منتقى ، وأتم دراسته الدينية والفقهية مع الشيخ أكمل الدين ، والشيخ بدر الدين سيهافى . وقد أصيب بمرض صرفه إلى تعلم الطب . وسرعان ما لمع نجمه فيه ، ثم أصبح كبير الأطباء فى ( بیمارستان مصر ) . وقد عاد بعدئذ إلى آيدين ، واستقر فى بركى بدعوة من آيدين أوغلى محمد بك ، وقيل أصبح من أطباء تيمرلنك ولقن أطباء العلم ، ثم خدم الأمير سليمان وقضى فى بلاطه وقتاً طويلاً . وكان له بعض الصلات المتفرقة مع السلطان بايزيد الأول بعد عودته من مصر (٩٨) .

وقد ألف فى التخصصات التى درسها عدة رسائل وكتب ومراجع . ويلاحظ أن مؤلفاته الطبية فاقت - من حيث عددها وأهميتها - رسائله فى الفقه والتفسير والمنطق ، وقيل إن كتابيه " الشفاء " وتسهيل الطب " قد نقل إلى اللغة اللاتينية (٩٩) .

ومن أشهر رسائله فى الفقه والتفسير والمنطق (١٠٠) :

تفسير فى مجمع الأنوار فى جميع الأسرار ، ويقع فى مجلدين .

طوابع الأنوار فى الكلام ، وهو شرح على تفسير البيضاوى للقرآن الكريم .

حواشى على شرح فخر الدين الرازى لكتاب " مطالع الأنوار فى المنطق " .

" الشفاء " وضعه باللغة التركية ، ويبحث فى أنواع العلاج ، وقسمه ثلاثة أقسام ، تناول فى القسم الأول علم وظائف الأعضاء وعلم التغذية ، وفى الثانى الأطعمة والأدوية ، وفى الثالث أسباب الأمراض وتشخيصها وعلاجها .

• " تسهيل الطب " وهو عبارة رسالة بسط فيها كتابه السابق .

• " شفاء الأسقام ودواء الآلام " .

• " الفريدة فى ذكر الأغذية المفيدة " .

• "التعاليم" .

• "الكیمی الجلالی" .

٢ - بهجت مصطفى أفندی : (١١٨٨-١٢٤٩هـ/١٧٧٤-١٨٣٤م)  
تدرج فی المناصب الطبية حتى وصل سنة ١٢١٨هـ / ١٨٠٣ م إلى منصب كبير  
أطباء السلطان سليم الثالث ، ثم انتقل إلى المناصب الدينية والقانونية المرموقة ،  
كان من بينها منصب قاضی إزمیر من فئة مولى ، ثم قاضی مصر سنة ١٢٣٦هـ /  
١٨٢٠ م ، ثم توج حياته الوظيفية بشغله منصب قاضی عسكر الأناضول سنة  
١٢٣٨هـ / ١٨٢٢ م ، ثم قاضی عسكر الروملی ( البلقان وبقية الولايات  
العثمانية فی أوربا ) سنة ١٢٤٨هـ / ١٨٣٢ م . وكان بهجت مصطفى أفندی يعتبر  
من رواد الطب الحديث على النمط الأوربي ، أنشئت تحت إشرافه مدرسة طب  
جديدة ، استقدمت الدولة لها مدرسين أوربيين ، كما أنشئ تحت إشرافه أيضًا  
مستشفى جديد . وعكف على دراسة لغات أوربية على يد كبير الترجمة فی  
الباب العالی ، وقام بترجمة عدد لا يستهان به من الكتب العلمية والطبية ، منها  
كتاب ينر Inner عن التطعيم ، وكتاب بوفون Buffon عن التاريخ الطبيعي ،  
ومصنفات أخرى عن الكوليرا والزهرى وقوبا الغنم . وتولى ترجمة كتاب المؤرخ  
المصرى عبد الرحمن الجبرتي : "عجائب الآثار فی التراجم والأخبار" إلى اللغة  
التركية ، وقصر ترجمته على الجزء الخاص بالحملة الفرنسية على مصر وأطلق عليه  
"تاريخ مصر" وقد طبع فی استانبول سنة ١٢٨٢هـ / ١٨٦٥ - ١٨٦٦ م (١٠١) .

٣ - عاكف أفندی : درس الطب فی إنجلترا ، وبعد عودته عين طبيب  
السلطان عبد العزيز الخاص ، إلى جانب عمله كمدرس فی مدرسة الطب فی  
استانبول . وكان أحد الأطباء الستة (١٠٢) الذين قاموا بفحص السلطان مراد  
الخامس ، وأثبتوا أن الداء الذى أصيب به السلطان مراد داء عضال ، وأنه لن  
يستطيع أن يستعيد قواه العقلية وسلامه تفكيره ، حتى ولو بعد مدة طويلة . وبعد

تولى السلطان عبد الحميد الثانى مقاليد الحكم عينه طبيبة الخاص ، وبقي فى منصبه هذا مدة سنين ، ثم استبعده السلطان عبد الحميد الثانى لشكه فى إخلاصه له . وكان عاكف أفندى طوال السنين التى عمل فيها طبيباً لعبد الحميد - كان أيضاً - مستشاراً له فى كثير من الأمور ، لا سيما وأن عاكف أفندى درس الفقه وأصول الشريعة الإسلامية . وتشير الوثائق العثمانية بأن السلطان عبد الحميد قد استدعاه لمراجعة بعض الفتاوى التى أصدرها شيخ الإسلام وبعض القضاة بشأن الحرب الروسية العثمانية ، والتى أصبح بموجبها الجهاد فرض عين على كل مسلم قادر على حمل السلاح (١٠٣) .

وبالإضافة إلى تمكن عاكف أفندى ونبوغه فى الطب والشريعة الإسلامية ، فقد كان على درجة كبيرة من الخبرة والفهم فى الفنون الحربية ، إذ عمل مدرساً فى المدرسة الحربية فى استانبول وتخرج على يديه عدد من كبار الضباط فى الجيش العثمانى (١٠٤) .

\* \* \*

كان للسلطان العثمانى عدد كبير من الأطباء ينتمون إلى الهيئة الإسلامية الحاكمة عند معظم المؤرخين ، وهم طبيب السلطان الخاص ، ويطلق عليه " حكيم باشى " أى كبير الأطباء ، ويعمل تحت رئاسته عدد من المساعدين له ، ثم " جراج باشى " أى كبير الجراحين ، ويعمل معه عشرة من الجراحين بمشابهة مساعدين له ، وينتمى هؤلاء جميعاً إلى الهيئة الإسلامية الحاكمة (١٠٥) .

إلا أنه لا ينبغى تعميم هذا الحكم لأمرين :

الأول منهما : أن الشرط الأساسى لانتماء أى شخص إلى الهيئة الإسلامية هو تمكنه من الشريعة الإسلامية ، وليس جميع الأطباء فى تاريخ الدولة العثمانية الطويل قد توفر فيه هذا الشرط .

الأمر الثاني : أن الدارس لسلاطين الدولة العثمانية فى أواخر القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر يجد أن معظم الأطباء الذين كانوا يعملون فى بلاطهم أطباء أجانب من مختلف الدول الأوروبية ، وقل أن نجد أطباء عثمانيين مسلمين متمكنين فى علوم الشريعة الإسلامية ، يعملون فى بلاط السلاطين كالذين أشرت إليهم سابقاً . وهذه الاستثناءات القليلة تجعلنا نخصص فى الحكم ولانعم (١٠٤) .

## ١٠ - نقيب الأشراف ، حامل الراية :

كانت الهيئة الإسلامية الحاكمة تضم بين أفرادها فئة الأشراف ، وهم الذين ينحدرون من آل بيت النبى ﷺ . وكان الأشراف يمثلون أحد نظامين وراثيين وحيدين فى الدولة العثمانية ، والنظام الوراثى الآخر هو وراثة العرش السلطانى ، وكانت هذه الوراثة فى أسرة آل عثمان .

وكان يطلق على الأشراف اسم آخر هو الاسياد ، فيذكر اسم الشريف مسبقاً بكلمة سيد ، ولكنهم كانوا لا يعدون أعضاء فى الهيئة الإسلامية الحاكمة إلا إذا تلقوا فى المؤسسات التعليمية دراسات فى مستوى الدراسات التى يتعلمها العلماء . وكان بعض الأشراف يكتفون بانتسابهم إلى آل بيت النبى ﷺ ولا يجهدون أنفسهم فى تثقيفها وتعليمها ، وهذا لا يكفى لانتسابهم إلى هيئة العلماء . فالعلم والتمكن من علوم الشريعة الإسلامية شرط أساسى لذلك الانتساب . وكان عدد الأشراف بوجه عام كبيراً ، ويختلف من عصر إلى آخر ، وقد تسلل إلى صفوفهم عدد من المدعين ، ولذلك لم تكن تصرفات هؤلاء المدعين فوق مستوى (الشبهات) (١٠٦) .

وكانت بعض الحكومات والسلطات تعطيهم الحق دون سواهم فى ارتداء العمامة الخضراء ، كما كانت لهم امتيازات شخصية كالإعفاء الضرائبى مدى الحياة ، وإجراء مراتب مجزية لبعضهم ، كما كان لهم محاكم خاصة بهم ، وقضاتها من الأشراف (١٠٧) .



وفى نطاق الحديث عن الأشراف نسلط الأضواء على شريفين : أحدهما يحمل علم الدولة العثمانية ويسير به فى المواكب الرسمية والعسكرية ، وكان يتقدم على جميع ضباط الجيش ويطلق عليه أمير العلم أو حامل الراية ، وكان يتناوب مع الصدر الأعظم فى رفع العلم فى المعارك الحربية . وأول إشارة عثرت عليها فى الوثائق العثمانية تشير إلى أن حامل العلم من الأشراف كان ذلك فى عام ٩٦٢هـ/ ١٥٥٤م فى أثناء الحملة التى شنّها صالح ريس بككر بك الجزائر بأمر من السلطان سليمان القانونى لضم مراكش ( المغرب ) إلى الحكم العثمانى . ولم تنجح هذه الحملة فى البقاء فى مراكش إلا بضعة أشهر ، لأن محمد المهدي السعدى استطاع أن يبعد النفوذ العثمانى والجزائرى عن مراكش (١٠٨) ، كما وردت فيما بعد إشارات كثيرة فى الوثائق العثمانية تشير إلى تناوب حمل البيرق النبوى بين الصدر الأعظم والشريف فى المعارك الحربية ، وبخاصة فى الفتوحات الإسلامية فى شرق أوروبا (١٠٩) .

وكان لحمل الشريف العلم فى مقدمة الجيش أثر كبير فى تقدم الجيش واستبساله فى الجهاد حينما يرون علم الدولة يحمله الشريف فى وسط جيش الأعداء. أما الشريف الآخر فكان رئيس الأشراف ، ويطلق عليه نقيب الأشراف ، وكان يحتل المكانة الثانية فى الهيئة الإسلامية الحاكمة ، وفى الاحتفالات التى تقام خلال شهر رمضان المبارك . وكان نقيب الأشراف يتقدم فى معظم الأحيان على شيخ الإسلام ، وكان يعين فى منصبه مدى الحياة ، ومقره فى العاصمة استانبول . وهو يرأس الهيئة القضائية الخاصة بالأشراف ، وله سلطة مطلقة عليهم ، ويتولى محاكمتهم والتحقيق معهم وتنفيذ العقوبات عليه . وكان له جهاز فنى وإدارى يعمل تحت إدارته ، ويوفد بعضاً إلى الولايات العثمانية الإسلامية لتقصى الحقائق عن الأشراف وأوضاعهم وما إلى ذلك (١١٠) ، وكمثال على وضع الأشراف ومدى اهتمام الدولة العثمانية بهم نشير إلى وضع الأشراف فى مصر .



ففى مصر كان يصدر تعيين نقيب الأشراف بفرمان من السلطان فى استانبول . وكان النقيب يشغل هذا المنصب مدى الحياة ، ولو أن هذا المبدأ لم يحترم تمامًا ، وبخاصة عندما ضعفت قبضة الدولة العثمانية على مصر التى اجتازت فترة سياسية دامية أطلق عليها عهد الانقلابات السياسية أو عهد الاضطراب السياسى ( ١٢١٦ - ١٢٢٠ هـ / ١٨٠١ - ١٨٠٥ م ) . فقد استطاع أفاك تركى يدعى " يوسف أفندى " أن يستصدر من السلطان سليم الثالث فرماناً فى نوفمبر - تشرين الثانى - ١٨٠١ م بتعيينه نقيباً للأشراف فى مصر بدلاً من السيد عمر مكرم . ولم يستطع الباشا العثمانى فى مصر فى ذلك الوقت ، وهو محمد خسرو باشا أن يتجاهل فرمان السلطان سليم ، فقلد هذا الباشا نقابة الأشراف فى ٢ نوفمبر - شباط - ١٨٠٢ م للأفاك التركى يوسف أفندى ، ولكن أعيدت نقابة الأشراف إلى السيد / عمر مكرم فى ١٨ أبريل سنة ١٨٠٢ م بعد مساع بذلت لدى السلطان فى استانبول (١١١) .

وكان للمركز المرموق الذى تبوأه نقيب الأشراف فى استانبول أصداء على مركز نقيب الأشراف فى مصر ، وإذا كان الأخير أيضاً يتمتع بمكانة كبيرة ، فهو بحكم منصبه عضو فى ديوان القاهرة ، وكان الباشا العثمانى يرجع إليه فى كثير من المسائل . وكان يقدم للنقيب فرو سمور فى شتى المناسبات ، وفى فترات متقاربة على مدار السنة ، وكان أشراف مصر يدينون لنقيهم بالطاعة ، وكان يقدم له كل ثلاثة مرات يطلق عليها " جميكية " وكانت هذه المراتب محدودة قيمتها ، ومدونة فى سجلات النقابة (١١٢) .

## الهوامش

(١) أبو حنيفة : هو النعمان بن ثابت بن زوطى بن ماه ، ولد فى سنة ٨٠ هـ / ٦٩٩ م ، وهو من المجتهدين فى الشرع الإسلامى ، وإمام للمذهب الحنفى الذى ينسب إليه ، وكانت وفاته يرحمه الله سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م .

(مخليفة بن عياط العصفري : كتاب الطبقات ، ص ١٦٧ ، تحقيق أكرم ضياء العمرى ، الطبعة الثانية ، دار طيبة . الرياض ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م) .

( أحمد بن أبى بكر بن مخلكان : رفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ص ٤٠٥ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، تحقيق إحسان عباس ، الجزء الخامس ، دار صادر ، بيروت " بدون تاريخ " ) .

(٢) دفتر المهمة رقم (٢) وثيقة رقم (٦١٣) تاريخ ٢ ربيع الأول ٩٨٢ هـ / ٧ أكتوبر ١٥٢١ م .  
- محمد بن أحمد النهروالى : البرق اليماني فى الفتح العثماني ، ص ٧٣١ الطبعة الأولى ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر . الرياض ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .

- طاشكبرى زاده : الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية . ج ١ ، ص ٣٠٤ ١٣١٩ .

- يلمازا وزتونا : بيوك تركيا تاريخى ، ج ١ ، ص ٦٧ . إستانبول ١٩٧٨ م .

(٣) دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (١٦٤٣) تاريخ ٢٣ رجب ٩٦٢ هـ / ١٩ أبريل ١٥٥٥ م .  
- محمد جمال : وثائق سياسية ، ص ١٢٣ . الأستانة ١٣٢٧ هـ .

- أحمد رفيق : كدنلر سلطتى ، ج ١ ، ص ٩٣ . الأستانة ١٣٢٢ هـ .

(٤) عبد الصمد بن إسماعيل الموزعى : الإحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ، ص ٥٥ - ٦٠ ، تحقيق محمد الحبشى . الطبعة الأولى . منشورات المدينة ، صنعاء ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م .

(٥) الأقجة : هى وحدة من عملة تركية قديمة . سكت لأول مرة عام ٧٣٠ هـ / ١٣٢٩ م فى عهد السلطان أورخان بن عثمان . وكانت على ثلاثة أنواع :

النوع الأول : وحدة قيمتها ٥ أفجة . ولم يكن عليها تاريخ ، كما لم يذكر محل سكها .  
قطرها ٢٢ مم . ومكتوب على وجهها " أورخان ، خلد الله ملكه " باللغة العربية .

النوع الثاني : وحدة من أفجة واحدة فقط ، بلا تاريخ ولا ذكر المكان . على وجهها الأول أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة وكلمة الشهادة ، وعلى وجهها الثاني " أورخان ، خلد الله ملكه " .

النوع الثالث : على الوجه الأول أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة ، وعلى الوجه الثاني تاريخ ٧٢٩ ومحل سككتها بورصة ، وقطرها ١٨ سم . ويتتابع سك الأفجة طوال مدة السلطنة العثمانية حتى عهد السلطان محمود الثاني أى حتى عام ١٢٣٤هـ / ١٨١٨م ، وضربت من فضة عيارها ٩٠٪ .  
( دائرة المعارف التركية ، ميدان لاروس ، ج١ ، ص ٢١٣ ، الطبعة الأولى ١٩٧٣م ) .

(٦) قاضى العسكرى ( الجيش ) تعود تسميته بهذا الاسم إلى أن هذا المنصب فى الأصل قد أنشئ ليكون شاغله قاضياً للجيش العثماني يرافقه فى ساحات المعارك . وكان إنشائه متقدماً على وضع قضاة للمدن . وفضلاً عن تكليفه برد الحقوق إلى أصحابها ؛ فقد كان يخوض المعارك مع الجيش ، ولهذا وقعت على عاتقه مهمة ضمان الوحدة المعنوية فى الجيش أكثر مما وقعت على عاتق القواد العسكريين . انظر كلاً من :

- حكمت فقلجملی : المرجع السابق ، ص ٢٨٣ .

- محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١١٥ .

(٧) قاضى القضاة : تعود هذه التسمية إلى عهد الخليفة العباسى هارون الرشيد ( ١٧٠ - ١٩٣هـ / ٧٨٦ - ٨٠٩م ) الذى يرجع إليه الفضل فى تعيين رئيس للقضاة فى كافة أراضى الدولة الإسلامية .

( جمال صادق المرصفاوى : نظام القضاء فى الإسلام ، ص ١٩٧ بحث مقدم المؤتمر الفقه الإسلامى المنعقد فى جامعة الإمام ابن سعود الإسلامية سنة ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م ، طبع سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م - الرياض )

(٨) دفتر المهمة رقم (١) ، وثيقة رقم (٦٩٩) تاريخ ٢٥ ذو الحجة ٨٦٤هـ / ٢٦ نوفمبر ١٤٥٩م .

(٩) دفتر المهمة رقم (٢) وثيقة رقم (٧٠٣) تاريخ ١٠ شعبان ٨٨٥هـ / ١ مارس ١٤٨٠م .

- أحمد رفيق : أوننجى عصر هجر يده إستانبول حیات ، ص ١٨٧ الآستانة ١٣٣٣هـ .

- أسعد أفندى : أس ظفر ، ص ١٢٥ باريس ١٨٣٣ م .
- بروسلى محمد طاهر : عثمانلى مؤلفلى ، ج ٢ ، ص ٣٣٥ ، إستانبول ١٣٣٨ هـ .
- (١٠) دفتر المهمة رقم (٢) وثيقة (٧٠٣) تاريخ . شعبان ٨٨٥ هـ / ١ مارس ١٤٨٠ م .
- (١١) دفتر المهمة رقم (٢) وثيقة رقم (٧١٠) تاريخ ١٢ شعبان ٨٨٥ هـ / ٣ مارس ١٤٨٠ م .
- وثيقة رقم (٧١١) تاريخ ١٥ شعبان ٨٨٥ هـ / ٦ مارس ١٤٨٠ م .
- (١٢) محمد جمال : وثائق سياسية ، ص ٣٠١ ، الأستانة ١٣٢٧ هـ .
- أحمد رفيق : كدنلر سلطتى ، ج ١ ، ص ٩١ .
- (١٣) دفتر المهمة رقم (٤) وثيقة رقم (٥٢٧) تاريخ ١ صفر ٩٢٤ هـ / ١٣ يونيه ١٥١٨ م .
- (١٤) كان دخول الشمال الإفريقى فى حوزة العثمانيين على نحو التالى : فى ٢٨ ذى الحجة ٩٢٢ هـ / ٢١ يناير ١٥١٧ م دخلت مصر فى حكم العثمانيين . بعد انتصار السلطان سليم الأول على الجيش المملوكى بقيادة السلطان طومان باى فى معركة الريدانية . وفى سنة ٩٢٥ هـ / ١٥١٩ م دخلت الجزائر فى الحكم العثمانى بناءً على استنجد أهلها ضد القوى النصرانية الأسبانية . وفى سنة ٩٥٨ هـ / ١٥٥١ م دخلت طرابلس فى الحكم العثمانى بعد استنجد أهلها بالسلطان سليمان القانونى . أما تونس فقد دخلت فى الحكم العثمانى سنة ٩٨٢ هـ / ١٥٧٤ م بعد معارك هائلة بين القوات العثمانية والقوات الليبية الأسبانية .
- (١٥) دفتر المهمة رقم (٦) وثيقة رقم (٧٧٩) تاريخ ١٠ ربيع الأول ٩٦٨ هـ / ١٦ أكتوبر ١٥٦٠ م .
- (١٦) لفظة " همايون " فارسية الأصل . ومعناها اللغوى مبارك ، مقدس ، حسن الحظ ، ومن هنا ملكى ، أو سلطانى ، وخطى همايون معناها مرسوم أو أمر كتابى سلطانى .
- ( سامى : قاموس الإعلام ، ج ٣ ، ص ٣٠٧١ ، الأستانة ١٣٠٨ هـ ) .
- والديوان الهمايونى يشبه مجلس الوزراء ، ولكنه أوسع من ناحية الاختصاص والعضوية . وكان سلاطين الفترة الأولى يحضرون جلساته ويرأسون اجتماعاته . واستمر هذا التقليد متبعًا حتى الثلث الأخير من حكم السلطان سليمان القانونى حيث تنازل عن رياسته للصدر الأعظم؛ نظرًا لإتساع رقعة الدولة العثمانية فى عهده وانشغاله بمعالجة أمور الدولة الخارجة عن نطاق اختصاص الديوان ، وليس سبب هذا التنازل هو زواج السلطان

سليمان القانونى بزوجته النصرانية روكسلانه وحبه الشديد لها إلى درجة أنه لا يستطيع مفارقتها كما يزعم بعض المؤرخين .

- دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (١٦٩١) تاريخ ٩ ذو الحجة ٩٦٨هـ / ٣١ أغسطس ١٥٦٠م .  
وكان الديوان زمن السلم يعقد جلسات مطولة أربعة أيام من كل أسبوع هى : السبت والأحد والإثنين والثلاثاء ، وتتوقف الجلسات خلال شهر رمضان المبارك ، فكان الاجتماع يستغرق ما يقرب من ثمان ساعات ، وكان يتخلله فترات استراحة وتناول الطعام الذى كانت تقدمه الدولة لأعضاء الديوان وغيرهم من الموظفين الذين تقضى طبيعة عملهم أن يظلوا على مقربة من الأعضاء لتقديم البيانات أو الإيضاحات وما إلى ذلك . وكانت الدولة تستقطع نسبة معينة من مرتبات جميع أعضاء الديوان وموظفيه والحرس ومن إليهم قيمة جزء من تكاليف الطعام الذى تقدمه لهم على مدار السنة ، وكان الطعام يتكون من اللحم والخبز والأرز والفاكهة .

(١٧) دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (١٦٤٥) تاريخ ٢٥ رجب ٩٦٤هـ / ٢١ أبريل ١٥٥٧م .  
- عثمان زادة : حديقة الوزراء ، ص ١٢٣ ، الآستانة ١٢٧١هـ .

- محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى ، ج ٣ ، ص ١٥٩ ، الآستانة ١٣١١هـ .

(١٨) أطواخ جمع طوخ وتكتب فى بعض المراجع العربية بحرف الغين على هذا النحو: طوخ وأطواغ . والطوخ هو ذيل حصان معلق فى سارية فى أعلاها كرة من النحاس المطفى بالنهب . وكان كبار موظفى الدولة يتميزون بعدد الأطواخ التى ترفع أمامهم فى المواكب والحفلات الرسمية .

حيث كانت تقدمهم سارية تحمل الطوخ أو الأطواخ المقررة بحكم القانون لكل منهم . وعدد الأطواخ هو الذى يحدد مراكز كبار رجال الدولة . فالسلطان له تسعة أطواخ ، وللصدر الأعظم خمسة أطواخ ، ولشيخ الإسلام خمسة أطواخ ، أما الوزير فترفع أمامه ثلاثة أطواخ .

(علميه سالنامه سى ، ص ٤٣٧ ، نشر أحمد رفيق وزميلة ، مطبعة إستانبول ١٣٣٤هـ) .

(عطائى : ذيل الشقائق ، ص ٩٣ ، إستانبول ١٢٦٨هـ) .

(١٩) عبد الله خلوصى : دوحة الملوك ، ص ٢٠ ، الآستانة ١٢٦٧هـ .

- بروسلى محمد طاهر : عثمانلى مؤلفلى : ج٢ ، ص ٣٦٧ .
- سلاتىكى مصطفى أفندى : تاريخ ، ص ٨٣ ، الآستانة ١٢٨١هـ .
- (٢٠) أفندى لفظة عثمانية شاع استخدامها فى جميع البلاد التى دخلت فى الحكم العثمانى ، وهى لقب يمنح للأشخاص المدنيين المثقفين ثقافة واسعة .
- ( سامى : قاموس الإعلام ، ج٣ ، ص ٢٥٩ ) .
- (٢١) أسكودار : كلمة تركية معناها محطة البريد ، وهذا المكان أقدم حى فى إستانبول ، ويقع على الجانب الأسيوى من البوسفور . ويذكر بعض المؤرخين الأتراك أن هذا الحى قد دخل فى الحكم العثمانى سنة ٧٣٢هـ / ١٣٣١م فى عهد السلطان أورخان بن عثمان ، بينما يذهب البعض الآخر إلى أن دخوله فى الحكم العثمانى كان فى سنة ٧٤٢هـ / ١٣٤١م . وفى عهد العثمانى أصبحت أسكودار جزءاً من صميم العاصمة إستانبول ، ولم يزدحم بالسكان إلا فى عهد السلطان سليمان القانونى . وفى أسكودار عدد كبير من المساجد المشهورة ، أنشأ أكثرها أكبر نساء القصر العثمانى ، كما أن أسكودار أصبح مقر اجتماع طائفة الدراويش ، ومركزاً للتكايا ، وبهذا غدت مركزاً هاماً لحياة التصوف فى العاصمة ، وأشهر هذه التكايا تكية الخلوتية ، وتكية الرفاعية وغيرها .
- ( حاجى خليفة : جهانتما ، ص ٦٦٣ - ٦٧٠ الآستانة ١١٤٦هـ )
- (حافظ حسين الأيوانسرايى : حديقة الجوامع ، ج٢ ، ص ١٨٢-١٩٠ ، الآستانة ١٢٨١هـ).
- (٢٢) ضاحية أيوب تنسب إلى الصحابى الجليل " أبى أيوب " وهو : خالد بن زيد الأنصارى ، حامل لواء النبى ﷺ . استشهد تحت أسوار القسطنطينية أثناء حصار المسلمين لهذه المدينة عام ٥٢هـ / ٦٧٢م ، ودفن هناك . ويقال إن الشيخ أقر شمس الدين عثر على قبره عندما أتى محمد الثانى لمحاصرة هذه المدينة . وقد شيد مسجد فى هذه البقعة عام ٨٦٣هـ / ١٤٥٨م . وقام بتوسيعه التكمجى زاده أحمد باشا عام ١٠٠٠هـ / ١٥٩١م وشيدت له مؤذنتان وأروقة عام ١١٣٦هـ / ١٧٣٣م . وقد دفن فى مكان ملحق بالمسجد عدد كبير من مشاهير الرجال ، أمثال : الصدر الأعظم سنان باشا المتوفى عام ١١٢٣هـ / ١٧٢٩م . والسلطانة ماه فيروز خديجة ، وأم السلطان عثمان الثالث ، والصدر الأعظم سميز على باشا ... وقد قامت حوزة هذا المسجد ضاحية هامة هى ضاحية أيوب . ويحتل فى هذا



المسجد بتتويج كل سلطان جديد من سلاطين آل عثمان : حيث يتقلد السيف ، ويقسم على المصحف على الجهاد فى سبيل الله . وهذا عُرف جرى عليه سلاطين الدولة العثمانية منذ فتح القسطنطينية حتى سقوط الدولة العثمانية .

(٢٣) دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (١٦٦٥) تاريخ ٢٣ صفر ٩٧٠هـ / ١٧ يناير ١٥٦٢م .

- حافظ حسين الأيوانسرايى : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٦٧ .

- عطائى : ذيل الشفائق ، ص ٩٣ .

(٢٤) المولى : بفتح الميم أو ضمها وسكون الواو وفتح اللام . معنى سيد أو رئيس أو زعيم أو قيم . وقد حرفت هذه اللفظة فى أقاليم شمال إفريقيا فأصبحت " مولاي " ومن بين الطرق الصوفية المشهورة توجد الطريقة التى أسسها جلال الدين الرومى ، وقد اشتق اسمها من كلمة " مولانا " . معنى سيدنا ، ويطلق الأكراد إلى الوقت الحاضر لفظة " المولا " على السيد الوقور كبير السن ذى المركز المرموق سواء الناحية الدينية أو السياسية أو الاجتماعية ، وهى تقابل فى المجتمعات القبلية كلمة شيخ . وأكثر الأكراد استخداماً لهذا الكلمة هم أكراد العراق . فيذكرون اسم الشخص مسبقاً بكلمة " مولا " . مثل مصطفى البرزانى زعيم الأكراد .

( عبد العزيز محمد الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ٤٢٣ ، مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٨٠م ) .

(٢٥) دفتر المهمة رقم (٥) ، وثيقة رقم (١٦٣٩) تاريخ ٥ رجب ٩٦١هـ / ١ أبريل ١٥٥٤م .

(٢٦) برؤسة : وينطقها الأتراك : " بورسة " وكانت تعرف قديماً باسم " بروسا " وتقع على

خط طول ٤٠° - ٢٦° شرقاً وخط عرض ٣١° - ٤٠° شمالاً ، عند سفح جبل كشيخ ،

واسمها القديم " أوليمبوس " وبلغ عدد سكانها عام ١٩٠٧م : ٦٦,١٥١ نسمة ، وبها

حمامات ساخنة شهيرة . بمياهها الكبريتية الحديدية . ومن آثار بروسة المساجد التى شيدها

السلاطين الأول من آل عثمان وخاصة " يشيل جامع " الذى شيده السلطان محمد الأول

" وأولو جامع " ، ومسجد مراد الثانى ، ومسجد يلدرم ، وأصبح لبروسة شأن فى

الإسلام بعد أن فتحها السلطان محمد خان بن عثمان ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م . اتخذها مقراً

للدولة ، وظلت بعده مقر السلاطين إلى أن فتحت مدينة القسطنطينية . حيث نقلت العاصمة إليها .

( عبد الله خلوصي : دوحه الملوك . ص ٨٧ ) .

(٢٧) أدرنة : تقع على مرتفع من الأرض ، عند ملتقى عدة أنهار في وسط سهل بالبلقان . وقد حصّنها الروم تحصيناً قوياً لصد غارات البلغار ، فتحتّها الجيوش العثمانية في عهد السلطان مراد الأول سنة ٧٦٣هـ / ١٣٦٢م ، بعد إنزال هزيمة ساحقة بالأحلاف الصليبية ، وفشلت جهود البابا " أوربان الخامس " الذي بذل جهوداً مضنية في لم شمل الدول الأوربية في حرب صليبية ضد الدولة العثمانية . وبعد هذا النصر المؤزر الذي حققه السلطان مراد على الدول الأوربية نقل عاصمته من بروسة إلى أدرنة . وعمرها بالمساجد والمدارس والقصور والمنشآت الخيرية ، واتخذها نقطة إنطلاق لمواصلة الفتوحات الإسلامية في أوربا . واتسعت أدرنة اتساعاً كبيراً ، حتى كان بها عام ١٢٦٧هـ / ١٨٥٠ أكثر من ثلاثين ألف بيت ، يسكنها أكثر من مائة وخمسين ألف نسمة . غير أن هذه المدينة أخذت في الضمور تدريجياً بعد الحرب الروسية العثمانية ، وانسحاب الدولة العثمانية من معظم بلاد شرق أوربا ، حيث قدر عدد سكانها في أعقاب الحرب بثمانين ألف نسمة تقريباً .

( سامي : قاموس الأعلام ، ج ٣ ، ص ١٥٩ ) .

(٢٨) لاريس Larisse مدينة في بلاد اليونان ، وتقع في إقليم تساليا .

(٢٩) سالونيك : بلد من أعمال مقدونية في طرف خليج سالانيك مصب نهر وردار .

وكانت منذ قديم العصور مدينة تجارية لها شأنها وظل هذا حالها في عهد الإمبراطورية البيزنطية، وكانت تضم في تلك الأيام جاليات كبيرة وخاصة من أهل البندقية . افتتحها السلطان العثماني با يزيد الأول سنة ٧٩٦هـ / ١٣٩٤م بعد أن أوقع الهزيمة بالأساطيل النصرانية المتحالفة . ولما بدأ الضعف يظهر على جسم الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر الميلادي أصبحت سالونيك أشد تعرضاً لهجوم الأعداء والنفوذ الأجنبي . وقد نص قانون الإصلاح الإداري الذي عمل سنة ١٢٨١هـ / ١٨٦٤م على إنشاء ولاية سالونيك ، وامتدت تلك الولاية إلى مساحات كبيرة ، ولكنها لم تلبث طويلاً حتى

انكمشت ، كما أصبحت مركزا لجمعية تركيا الفتاة ، والجمعيات الماسونية اليهودية ، والمعارضين للدولة العثمانية ، نظراً لموقعها الممتاز ، وضعف نفوذ الدولة العثمانية عليها ، وسيطرة الدولة الأوربية عليها . وخسرت الدولة العثمانية سالونيك أثناء الحرب البلقانية ، فقد عبر الجيش اليوناني إليها تحت إمرة ولي العهد ، وحاصر سالونيك في ٨ نوفمبر ١٩١٢ م . وفي اليوم نفسه سلم القائد العثماني حسن باشا المدينة لليونانيين وأدجت في بلاد اليونان بمقتضى الصلح الذي تم في أثينا في ١٤ نوفمبر ١٩١٣ م .

( سعد الدين : تاج التواريخ ، ج ١ ، ص ٣٤٢ وما بعدها . والآستانة ١٢٧٩ هـ ) .

( حاجي خليفة : تقويم التواريخ ، ص ٢٥١ . والآستانة ١١٤٦ هـ ) .

( ٣٠ ) فيلبية : مدينة تقع في بلغارية .

( ٣١ ) إزمير : أهم مدن تركية آسيا من الوجهة التجارية . ولما غزا السلاجقة آسيا الصغرى في أواخر القرن الحادى عشر الميلاد . واستقروا في إزمير ، ومنها أخذوا يشنون الغارات على جزر الأرخبيل ومضيق الدردنيل ، ولم تعد إزمير إلى الحكم البيزنطى إلا بعد أن أجلى السلاجقة عن نيقية عام ٤٩١ هـ / ١٠٩٧ م . ولما انحلت مملكة السلاجقة في قونية ، واحتل أمير أفسوس المدينة عام ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠ م وأصبحت كما كانت من قبل قاعدة لغارات القراصنة على جزر الأرخبيل وسفن الفرنجة التجارية . واتحدت قوات الفرنجة البحرية تحت رعاية البابا للقضاء على هذه القرصنة ، ونجحوا في دخول إزمير عنوة سنة ٧٤٥ هـ / ١٤ م وابتنى فرسان جزيرة رودس الذين أنيط بهم حماية المدينة قلعة القديس بطرس ، ثم نجح السلطان العثماني بايزيد الأول في إجلائهم ، وتم فتح المدينة ودخلوها في الحكم العثماني ، وعمرها سلاطين الدولة العثمانية بالمساجد والمدارس والمنشآت الخيرية . غير أن الزلازل التى انتابت هذه المدينة قضت على معظم هذه المساجد والمدارس والآثار . فقد انتابها زلزال في ١٢ رمضان عام ١٠٩٩ هـ / ١٠ يولييه ١٦٨٨ م ، وطغت الأمواج على ما يقرب من نصف المدينة ، وأما الزلزال الثانى فقد حدث عام ١١٩٢ هـ / ١٧٧٨ م ومات فيه عدد كبير من سكان هذه المدينة ، ولا تزال بعض الآثار باقية إلى اليوم .

( حافظ حسين الأيوانسرايى : حديقة الجوامع ، ج ١ ، ص ٢١١ ) .

- (٣٢) بعد أن أصبح رئيس الديوان الهمايوني .
- (٣٣) دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (١٦٤١) تاريخ ٢٨ شعبان ٩٦١هـ / ١٩ مارس ١٥٥٤م ، ووثيقة رقم (١٦٦٥) سبق ذكرها .
- محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى ، ج٣ ، ص ١٦٧ .
- عثمان زاده : حديقة الوزراء ، ص ٩٠ .
- (٣٤) يقوم رئيس الخصيان البيض على الخدمة الداخلية فى أجنحة الحريم السلطاني ، وكان يطلق عليه أحياناً " باب السعادات أغاسى " أى أغا باب السعادة ، وأحياناً أخرى " قابى أغاسى " أى أغا البوابة .
- (٣٥) رئيس الخصيان السود كان يطلق عليه " قيزار أغاسى " أى أغا البنات .
- (٣٦) دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (١٦٤٦) تاريخ ٢٦ رجب ٩٦٥هـ / ٢٢ أبريل ١٥٥٨م .
- دفتر المهمة رقم (٨) وثيقة رقم (١٢٤٠) تاريخ ٢١ ربيع الثانى ٩٨٤هـ / ٢٦ نوفمبر ١٥٧٥م .
- (٣٧) بوسنا سراى هى عاصمة ولاية البوسنة .
- (٣٨) صوفيا : عاصمة بلغاريا .
- (٣٩) عنتاب : مدينة فى سوريا .
- (٤٠) دفتر المهمة رقم (٦) وثيقة رقم (٧٩٧) تاريخ ٢٤ ربيع الأول ٩٧٠هـ / ٣٠ أكتوبر ١٥٦٢م .
- (٤١) سعد الدين : تاج التواريخ ، ج١ ، ص ٣٦٣ .
- عطائى : ذيل الشقائق ، ص ١٤٤ .
- (٤٢) محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى ، ج٣ ، ص ١٩١ .
- عثمان زاده : حديقة الوزراء ، ص ١١٣ .
- (٤٣) دفتر المهمة رقم (١٠) وثيقة رقم (١٤٠١) تاريخ ١٦ محرم ١٠٠١هـ / ٨ يونيو ١٥٩٢م .
- خير الله : دولت عثمانية تاريخ ، ج١١ ، ص ٢٨١ الآستانة ١٢٩٢هـ .
- (٤٤) دفتر المهمة رقم (٨) وثيقة رقم (١٣٢٧) تاريخ ١٧ جمادى الآخرة ٩٩٥هـ / ١٩ ديسمبر ١٥٨٦م .
- رفعت أفندى : دوحة المشايخ ، ص ١١٣ .

(٤٥) دفتر المهمة رقم (٨) وثيقة رقم (١٣٣٤) تاريخ ١٩ جمادى الآخرة ١٢٩٥هـ - ٢١ ديسمبر ١٥٨٦م .

- أحمد رفعت : روضة العزيزة ، ص ٩١ ، الآستانة ١٢٨٢هـ .

(٤٦) معاهدة سان استفانو : هي من أكثر المعاهدات ضرراً بالدولة العثمانية ، وتعتبر فى القانون الدولى العام من أنواع المعاهدات غير المتكافئة أملتها دولة منتصرة على دولة منهزمة ، وأهم البنود التى جاءت فى هذه المعاهدة :

إنشاء ما يسمى بلغاريا العظمى ، وأفردت لها مساحات شاسعة فى البلقان ذات أربعة أضلاع ، تتحد بنهر الدانوب شمالاً ، والبحر الأسود شرقاً ، وبحر إيجه جنوباً ، والبانبا غرباً . وقررت المعاهدة أن يكون " مأمور " الحكومة وجنودها من النصارى ، وأن يحكمها أمير ينتخبه الأهالى ، بشرط ألا يكون هذا الأمير أحد أعضاء الأسر الحاكمة فى أوربا . ويصدر السلطان فرماناً بتعيينه بعد موافقة الدول الأوربية الكبرى الموقعة على معاهدة باريس عام ١٢٧٣هـ / ١٨٥٦م ، وإن يجتمع مجلس " المعتبرين " أى مجلس الأعيان ؛ لوضع دستور للبلاد قبل انتخاب الأمير . وعلى الدولة العثمانية أن تسحب قواتها من بلغاريا ، وعلى الحكومة المحلية أن تهدم القلاع المقامة فى أنحاء البلاد ، وأن ترابط القوات الروسية فى بلغاريا لمدة سنتين ، حتى يتم إنشاء جيش من البلغاريين ، يتكون من ست فرق من المشاة وفرقتين من الفرسان ، ويكون تعدادهم جميعاً خمسين ألفاً . وأن تدفع بلغاريا جزية سنوية للسلطان تودع فى أحد المصارف .

ونصت المعاهدة على منح الاستقلال التام لرومانيا ، وأن يضم إليها ثلثا إقليم دبروجة ، وأن يأخذ منها إقليم بساريا لضمه إلى روسيا ، كما قررت المعاهدة منح الصرب استقلالها مع إضافة إقليم نيش إليها ، ووضع ولايتى البوسنة والهرسك تحت مراقبة روسيا ، على أن تحتفظ الدولة العثمانية بسيادتها على هاتين الولايتين . وقررت المعاهدة وجوب تنفيذ أحكام اللائحة الأساسية الصادرة عام ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م فى جزيرة كريت . أما بالنسبة لأرمينية فقد قررت المعاهدة أن تتعهد الدولة العثمانية بإجراء إصلاحات أساسية حسب الاحتياجات المحلية فى المناطق التى يسكنها أرمن ، وتأمين النصارى من اعتداءات

الأكراد والشراكسة ، وإصدار عفو عام عن المسجونين السياسيين والمعتقلين والمنفيين الأرمن . وأما مكاسب روسيا في الحرب فهي :

١ - تقرير حرية المرور في البوسفور والدردنيل في وقت السلم والحرب للسفن التجارية الروسية التي تريد عبور هذه المضائق .

٢ - استيلاء روسيا على أقاليم هامة في آسيا ، وهي : اردهان ، قارص ، باطوم ، وبايزيد مع الأراضي الملحقه بهذه المدن .

٣ - استيلاء روسيا على إقليم هام في أوربا هو بساريا مصب نهر الدانوب .

٤ - فرض غرامة فادحة على الدولة العثمانية حدث بمبلغ " ١,٤١٠,٠٠٠,٠٠٠ " روبل أى ما يعادل في ذلك الوقت " ٢٣٥ " مليون جنيه

٥ - المحافظة على أوضاع وحقوق وامتيازات القسيسين والرهبان ومن إليهم من رعايا روسيا القاطنين في الدولة العثمانية ، وكذلك الزوار الروس .

(٤٧) اعترضت الدول الأوربية على معاهدة سان أستفانو ، وهاجمتها هجومًا عنيفًا ، وذلك لإنفراد روسيا بالمكاسب الهائلة ، والنفوذ الواسع في البلقان والقوقاز دون أن تنال الدول الأوربية الكبرى نصيبًا من هذه الغنيمة . وتداعت الدول الأوربية لعقد مؤتمر في برلين ، فأذعنت روسيا لمطالب هذه الدول ، وتم عقد المؤتمر برئاسة المستشار الألماني بسمارك ، وشارك فيه كل من :

بريطانيا ، فرنسا ، روسيا ، ألمانيا ، النمسا المجر ، والدولة العثمانية ، وإيطاليا ، وأهم مقررات هذا المؤتمر :

أولاً : أن تحتل الإمبراطورية الثنائية - النمسا والمجر - الولاياتين العثمانيتين الهامتين البوسنة والهرسك في غرب البلقان احتلالاً " مؤقتاً " .

ثانيًا : أن تقيم الإمبراطورية الثنائية - النمسا والمجر - حاميات عسكرية، وتحتفظ بطرق عسكرية وتجارية في صنجق " نوفى يازار " بين الصرب والجبل الأسود ، ومع بقاء الإدارة العثمانية فيها .

ثالثًا : أبقى معاهدة برلين النفوذ الروسى في شرق البلقان مع تقرير ما جاء في معاهدة سان أستفانو .



رابعًا : أكدت معاهدة برلين استقلال رومانيا طبقًا للحدود التي وضعتها معاهدة سان أستفانو.

خامسًا : أكدت المعاهدة أيضًا استقلال كل من الصرب والجبل الأسود.

سادسًا : أنقصت المعاهدة من حجم بلغاريا العظمى بتقسيمها إلى قسمين :

( أ ) قسم باسم بلغاريا ، وحدت حدوده ، ويكاد يكون مستقلاً وله حكومة

نصرانية وقوات نصرانية ، وحاكم نصراني .

(ب) أما القسم الثاني فيقع جنوب البلقان بين مقدونيا وأدرنة ، ويسمى "روم

إيلي شرقي" بدلا من اسم بلغاريا . وتكون إدارته الداخلية مستقلة .

سابعًا : كما قرر المؤتمر أن تتنازل الدولة العثمانية لروسيا عن أراضى : أردهان ، قارص ،

باطون ، بايزيد ...

ثامنًا : قامت بريطانيا بالضغط على الدولة العثمانية سرًا فى مؤتمر برلين حتى أجبرتها

على التنازل عن جزيرة قبرص لبريطانيا .

تاسعًا : قامت بريطانيا باسترضاء فرنسا ، حينما اعترضت الأخيرة على الاحتلال

البريطاني لقبرص ، واستطاعت بريطانيا إقناع فرنسا باحتلال تونس ، وتم ذلك

فيما بعد . وكان هدف بريطانيا هو إسكات فرنسا عندما تقوم هى باحتلال مصر.

هذه هى أهم مقررات مؤتمر برلين ، وكانت أشد سوءًا ونكالاً بالدولة العثمانية من

معاهدة سان أستفانو ، حيث تكالبت الدول الأوروبية وروسيا على أجزاء الدولة العثمانية ،

وبذلك انتهى الوجود العثماني تقريباً من شرق أوروبا ، ومن شمال إفريقيا .

( أحمد عبد الرحيم مصطفى : علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديوى إسماعيل ١٨٦٣ -

١٨٧٩م ، دار المعارف بمصر ١٩٦٧م ، ص ١٩٣ ما بعدها ) .

( محمد فريد بك المحامى : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، دار الجليل ، بيروت ، ١٣٩٧هـ /

١٩٧٧م ، ص ٣٥٣ وما بعدها ) .

( محمد رفعت : تاريخ البحر المتوسط وتياراته السياسية ، دار المعارف بمصر ١٩٥٩م ،

ص ٧٨ وما بعدها ) .

(٤٨) دفتر المهمة رقم (١٠) وثيقة رقم (١٤٩٧) تاريخ ٢٣ صفر ١٠٠٧هـ / ٢٤ يونيه ١٥٩٨م .

- رفعت أفندى : دوحة المشايخ ، ص ١٨٣ ، مطبعة إستانبول .

- (٤٩) محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى ، ج٣ ، ص ١٢١
- سعد الدين : تاج التواريخ ، ج١ ، ص ٣٥١
- (٥٠) منجم باشى : صحائف الأخبار ، ج٣ ، ص ٩٣ ، الأستانة ١٢٨٥ هـ .
- دائرة المعارف التركية ، ميدان لاروس ، ج١ ، ص ٤٣١ ، الطبعة الأولى ١٩٧٣ م ، إستانبول .
- (٥١) دانشمان ظهورى : عثمانلى إمبراطور لوغو تاريخى ، تاريخى ج١ ، ص ٢٨٧ ، إستانبول ١٩٦٥ م .
- جمال الدين : عثمانلى ومؤرخلى ، ص ٥٣ ، القسطنطينية ١٣١٤ هـ .
- (٥٢) دفتر المهمة رقم (٧) وثيقة رقم (٥٤٩) تاريخ ٢٥ ذو الحجة ٩٧٣ هـ / ٢٦ نوفمبر ١٥٦٥ م .
- (٥٣) دفتر المهمة رقم (٧) وثيقة رقم (٥٢٧) تاريخ ٢١ ذو القعدة ٩٧١ هـ / ٩ يونيه ١٥٦٣ م .
- (٥٤) دفتر المهمة رقم (٧) وثيقة رقم (٥٣١) تاريخ ٢٢ ذو القعدة ٩٧٢ هـ / ١٠ يونيه ١٥٦٤ م .
- (٥٥) عبد الرؤوف محيى الدين سنو : أثر الغرب الأوربى فى حركة الإصلاح فى الدولة العثمانية ( ١٧٨٩ - ١٨٣٩ ) ، ص ٥٢ بيروت ١٩٧٥ م .
- أحمد راسم : تاريخ ، ج١ ، ص ١٢٧ ، إستانبول ١٣٢٦ - ١٣٢٨ هـ .
- (٥٦) دفتر المهمة رقم (٥) ، وثيقة رقم (١٦٤٥) سبق ذكرها .
- حاجى خليفة : تقويم التواريخ ، ص ١٥٣
- (٥٧) عثمان زاده : حديقة الوزراء ، ص ٤٣
- دائرة المعارف التركية : ميدان لاروس ، ج١ ، ص ٤٥٢
- (٥٨) أحمد رفعت : روضة العزيزة ، ص ١١٩
- دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (١٦٥٠) تاريخ ٦ ذو الحجة ٩٦٧ هـ / ٢٨ أغسطس ١٥٥٩ م
- (٥٩) حافظ حسين الأيوانسرايى : حديقة الجوامع ، ج١ ، ص ٥٤
- منجم باشى : صحائف الأخبار ، ج٣ ، ص ٩١
- (٦٠) دفتر المهمة رقم (٦) وثيقة رقم (٧٨١) تاريخ ١٧ ذو القعدة ٩٦٨ هـ / ٥ يونيه ١٥٦٠ م .
- وثيقة رقم (٧٨٣) تاريخ ١٢ ربيع الأول ٩٦٩ هـ / ١٨ أكتوبر ١٥٦١ م .
- (٦١) دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (١٦٥٠) سبق الإشارة إليها .
- (٦٢) أحمد راسم : تاريخ ، ج١ ، ص ١٢١

- سعد الدين : تاج التواريخ ، جـ ١ ، ص ٣٢١
- (٦٣) محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى ، جـ ٣ ، ص ١٤٤ - ١٦١
- برنارد لويس : إستانبول وحضارة الخلافة الإسلامية ، ترجمة سيد رضوان على ، دار  
السعودية للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ، ص ١٧٩ - ١٨٢
- (٦٤) طاشكبرى زاده : الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية القاهرة ١٣١٠ هـ ، جـ ١ ،  
ص ٣٩
- محمد عبد الحى اللكنوى : الفوائد البهية فى تراجم الحنفية . القاهرة ١٣٢٤ هـ ، ص ١٤٠
- حافظ حسين الأيوانسرايى : حديقة الجوامع ، جـ ٢ ، ص ١٨٢
- سعد الدين : تاج التواريخ ، جـ ١ ص ٣٦١
- رفعت أفندى : دوحة المشايخ ، ص ٢٢١
- (٦٥) محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى ، جـ ١ ، ص ٣٣ ، جـ ٤ ، ص ١٤٤
- (٦٦) محمد ثريا أفندى : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٢٠٠ - ٣٣٨
- (٦٧) محمد ثريا أفندى : المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٣٦٥ وما بعدها .
- (٦٨) حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون جـ ٢ ، ص ١١٢ ، دار  
الكتب العلمية بيروت .
- (٦٩) فنالى زاده حسن جلى : تذكرة الشعراء . مخطوط فى فينا رقم ١٢٢٨ . جـ ٢ ، ص ٣٨٧
- بجوى : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٨٨
- حاجى خليفة : فذلكة ، جـ ١ ، ص ١٣٠
- حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون جـ ٢ ، ص ٥٤٩
- عطائى : ذيل الشقائق ، ص ٤٢٩ وما بعدها .
- بروسلى محمد طاهر : عثمانى مؤلفلى ، جـ ٢ ، ص ٢٢ وما بعدها .
- علمية سالنامه سى : ص ٤٢٦ وما بعدها .
- (٧٠) حافظ الأيوانسرايى : حديقة الجوامع ، جـ ٢ ، ص ١٩٣
- رفعت أفندى : دوحة المشايخ ، ص ٢٩٧
- بروسلى محمد طاهر : عثمانلى مؤلفلى ، جـ ٢ ، ص ٣٠٠

- بجوى : تاريخ ، ١٢٣ - ١٤٩
- سعد الدين : تاج التواريخ ، ج١ ، ٣٢١
- قنالى زاده حسن جلى : تذكرة الشعراء ، ج٢ ، ص ٣٥١
- (٧١) أحمد رفعت : روضة العزیزية ، ص ١١٩
- حاجى خليفة : جهاننما ، ص ٢٢٣
- محمد عبد الحى اللكنوى : الفوائد البهية فى تراجم الحنفية ، ص ١٩٧ .
- حاجى خليفة : فذلکة ، ج١ ، ص ١٤٣
- بروسلى محمد طاهر : عثمانلى مؤلفلى ، ج٢ ، ص ٣٢١
- حافظ الأیوانسرائى : حدیقة الجوامع . ج١ ، ص ٢١٨
- قنالى زاده حسن جلى : تذكرة الشعراء ، ج١ ، ص ١١٧
- (٧٢) - أحمد رفعت : روضة العزیزية ، ص ١٨١ - ١٠٥
- جمال الدين : عثمانلى تاريخ ومؤرخلى ، ص ١٢٥
- سامى : قاموس الإعلام ، ج٣ ، ص ٢٢٧٤
- محمد ثریا أفندى : سجل عثمانى ، ج٢ ، ص ٣١٩
- سلاتىكى مصطفى : تاريخ ، ص ٦١ - ٩٢
- خیر الله : دولت عثمانیة تاریخ ، ج١١ ، ص ٢٤١
- أحمد راسم : تاریخ ، ج١ ، ص ١٥٣
- (٧٣) حافظ حسین الأیوانسرائى : حدیقة الجوامع ، ج١ ، ص ١٣٣ وما بعدها .
- أحمد رفیق : کدنلر سلطتى ، ج١ ، ص ٩٣
- محمد اللکنوى : الفوائد البهية فى تراجم الحنفية ، ص ٢٢٧
- أحمد راسم : تاریخ ، ج١ ، ص ١٧٧ - ١٨٩
- خیر الله : دولت عثمانیة تاریخ ، ج١١ ، ص ٣٢٤
- (٧٤) خطأ مشهور ، والأصح صارى كورز . انظر :
- سرى باشا : غلط مشهور ، إستانبول . الطبعة الثانية مادة صارى كوزل .
- (٧٥) حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون . ج٢ ، ص ٤١٣

- محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى ج٦ ، ص ١٠٨
- حاجى خليفة : سجل عثمانى ج١ ، ص ١٣٤
- عطائى : ذيل الشقائق ص ٢٦٥
- (٧٦) رفعت أفندى : درحة المشايخ ص
- سامى : قاموس الإعلام ، ج٣ ، ص ٢٠٥٦
- محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى ، ج٣ ، ص ٢٨
- نامق كمال : عثمانلى تاريخ ، ص ١٩١
- محمد جمال : وثائق سياسية ، ص ١٢٣
- (٧٧) أحمد راسم : تاريخ ، ج١ ، ص ٢٨٣
- محمد عبد الحى اللكنوى : الفوائد البهية فى تراجم الحنيفة ، ص ٢١١
- حافظ الأيوانسرايى : حديقة الجوامع ، ج٢ ، ص ١١٣
- (٧٨) محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى ، ج٢ ، ص ٣١٩
- سامى : قاموس الإعلام ، ج٣ ، ص ٣٠١١
- رفعت أفندى : دوحه المشايخ ، ص ٣٧٧
- (٧٩) دفتر المهمة رقم (٤) وثيقة رقم (٥٠١) تاريخ ٢٤ شوال ٩٤٤هـ / ١٤ يناير ١٥٣٧ م .
- (٨٠) دفتر المهمة رقم (٧) وثيقة رقم (٥١٩) تاريخ ٢٠ ذو القعدة ٩٧١هـ / ٨ يونيه ١٥٦٣ م .
- (٨١) ( المديرية العامة لدار محفوظات رئاسة الوزراء ، إستانبول ، ( يلدز )
- وثيقة رقم (٦٩٥) كرتون ١٨ ، ظرف ٣٨ ، قسم ٢١ تاريخ ١ محرم ١٢٩٥هـ / ٥ يناير ١٨٧٨ م .
- وثيقة رقم (٧٠١) كرتون ١٩ ، ظرف ٣٩ ، قسم ١٣ تاريخ ١ شعبان ١٢٩٦هـ / ٢١ يوليه ١٨٧٩ م .
- (٨٢) رفعت أفندى : درحة المشايخ ، ص ٣٥٦
- عبد الله خلوصى : دوحه الملوك ، ص ١٨٤
- (٨٣) حافظ حسين الأيوانسرايى : حديقة الجوامع ، ج٢ ، ص ١٩٣
- منجم باشى : صحائف الأخبار ، ج٣ ، ص ٢٤٣

- (٨٤) أحمد جواد : تاريخ عسكري عثماني ص ٤٠٢
- محمد جمال : وثائق سياسية . ص ٢٠٢
- (٨٥) نهاد سامي بانارلي : دستان ملوك آل عثمان ، ص ٣١٤ ، إستانبول ١٩٣٨ م .
- أحمد رفعت : روضة العزيزة . ص ١٣٣
- عثمان زاده : حديقة الوزراء . ص ١٨٧
- (٨٦) نامق كمال : عثمانلي تاريخ ، ص ١٧٩
- (٨٧) سعد الدين : تاج التواريخ ، ج ١ ، ص ٣١٠
- (٨٨) محمد ثريا أفندي : سجل عثماني ج ٢ ، ص ٣٢٧
- أحمد رفيق : أوننجي عصر حجر يده إيتانبول حيات ص ٢٢١
- (٨٩) طاشكيري زاده : الشقائق النعمانية ج ٩ ، ص ٤٤٧
- جمال الدين : عثمانلي تاريخ ومؤرخلري ص ٧١
- (٩٠) بروسلي محمد طاهر : عثمانلي مؤلفري ، ج ٢ ، ص ٣٠٩
- عثمان زاده : حديقة الوزراء ، ص ٩٧
- (٩١) حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، ج ٢ ، ص ١٤٧
- حاجي خليفة : تقويم التواريخ ، ص ٢٠١ - ٢٠٣
- (٩٢) نامق كمال : عثمانلي تاريخ ، ص ٢٥١
- حاجي خليفة : تقويم التواريخ ، ص ٣٣٧
- (٩٣) سعد الدين : تاريخ التواريخ ، ج ١ ، ص ٣٩٧
- (٩٤) محمد ثريا أفندي : سجل عثماني ، ج ٣ ، ص ٣
- سامي : قاموس الإعلام ، ص ٢٤٩٤
- بروسلي محمد طاهر : عثمانلي مؤلفلري ، ج ٢ ، ص ٣٣٥
- (٩٥) رفعت أفندي : دوحه المشايخ ، ص ٣١١ - ٣١٣
- (٩٦) حافظ حسين الأيوانسراي : حديقة الجوامع ، ج ١ ، ص ٩٥
- (٩٧) عبد الله خلوصي : دوحه الملوك ، ص ١١٩
- (٩٨) منجم باشي : صحائف الأخبار ج ٣ ، ص ٣٢٤



- (٩٩) رفعت أفندى : دوحة المشايخ ، ص ٤٠١
- (١٠٠) منجم باشى : صحائف الأخبار ، ج ٣ ، ص ٢٢١
- رفعت أفندى : دوحة المشايخ ، ص ١٨٠ - ١٩١
- عبد الله خلوصى : دوحة الملوك ، ص ٥٣ - ٦٧
- عبد القادر أغلو : اليوم العثمانيين .
- ترجمة محمد خان ، الناشر الدار العثمانى للنشر ١٣٩٧ هـ .
- (١٠١) أيدينلى نسبة إلى أيدين . وهى مدينة فى آسيا الصغرى . وقد استولى عليها سلاجقة الروم ، ثم أصبحت بعد ذلك عاصمة إمارة أسسها الأمير أيدين وخلع عليها اسمه . وقد ضم حفيده الأمير عيسى هذه الإمارة إلى السلطان العثمانى أبا يزيد الأول ، واستولى السلطان مراد الثانى عليها نهائيا سنة ٨٣٠ هـ / ١٤٢٦ م عند وفاة أميرها الجنيد ، ولكن ظل حكم هذه الإمارة وراثيا فى أسرة قره عثمان أوغلى عدة قرون حتى نجح السلطان محمود الثانى فى إنهاء حكمهم لها سنة ١٢٤٩ هـ / ١٨٣٣ م . ( سامى : قاموس الإعلام . ج ٣ ، ص ٣٠٩٧ ) .
- (١٠٢) رفعت أفندى : دوحة المشايخ ، ص ٢٨٥ - ٢٨٧
- منجم باشى : صحائف الأخبار ، ج ٣ ، ص ٣٠٩
- (١٠٣) منجم باشى : صحائف الأخبار ، ج ٣ ، ص ٤٠٩
- سامى : قاموس الإعلام ، ج ٣ ، ص ٣٠٤٦
- بروسلى محمد طاهر : عثمانلى مؤلفلى . ج ٢ ، ص ٣١١
- (١٠٤) منجم باشى : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٤١٥
- سعد الدين : تاج التواريخ ج ١ ، ص ١٩٤
- طاشكبرى زاده : الشقائق النعمانية ، ص ٤٦٠
- (١٠٥) خير الله : دولت عثمانية تاريخ ، ج ١١ ، ص ٣٠٨ ، الآستانة ١٢٩٢ هـ .
- أسعد أفندى : أس ظفر ، ص ١٨٧
- محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى ج ٢ ، ص ٣٥٧
- علمية سالنامه سى : مصدر سبق ذكره . ص ٥٨٧

- شهاب الدين سليمان: تاريخ أدبيات عثمانية ج ١١ ، ص ٣٧٦ الآستانة ١٣٢٨ هـ.

(١٠٦) الأطباء الستة هم :

- ١ - ديسكون : طيبى سفارة إنجلترا .
- ٢ - مروان : طبيب سفارة فرنسا .
- ٣ - سوتو : طبيب سفارة النمسا .
- ٤ - مولبخ فاسطورى : طبيب سفارة ألمانيا .
- ٥ - مونجرى .
- ٦ - عاكف أفندى : أحد أطباء السلطان مراد الخامس .

(١٠٧) المديرية العامة لدار محفوظات رئاسة الوزراء - استانبول ( يلدز )

- وثيقة رقم (٧١١) كرتون ١٩ ، ظرف ٣٩ تاريخ ١٠ محرم ١٢٩٤ هـ / ٢٦ يناير ١٨٧٧ م

- وثيقة رقم (٧١٢) كرتون ٢٩ ، ظرف ٤٣ ، قسم ١٣ تاريخ ٧ ذو القعدة

١٢٩٤ هـ / ١٤ نوفمبر ١٨٧٧ م .

(١٠٨) المديرية العامة لدار محفوظات رئاسة الوزراء - استانبول ( يلدز ) . وثيقة رقم (٧١٩)

كرتون ١٩ ، ظرف ٣٩ ، قسم ١٥ تاريخ ١ صفر ١٣١١ هـ / ١٤ أغسطس ١٨٩٣ م .

(١٠٩) دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (١٦٧٠) تاريخ ٢١ محرم ٩٦٦ هـ / ١١ ديسمبر ١٥٥٩ م .

ووثيقة رقم (١٦٧٣) تاريخ ٢٩ محرم ٩٦٦ هـ / ١٩ ديسمبر ١٥٥٩ م .

(١١٠) لمعرفة المزيد من أسماء الأطباء المسلمين الدارسين لعلوم الشريعة الإسلامية ، والذين

يمكن اعتبارهم أعضاء فى الهيئة الإسلامية الحاكمة انظر : " المديرية العامة لدار

م محفوظات رئاسة الوزراء - استانبول ( يلدز ) .

- وثيقة رقم (٧٢٧) كرتون ٢١ ، ظرف ٤٠ ، قسم ١٧ تاريخ ٢ رمضان ١٢٦٢ هـ /

٢٥ أغسطس ١٨٤٦ م .

- وثيقة رقم (٧٢٩) كرتون ٢١ ، ظرف ٤٠ ، قسم ١٧ تاريخ ٥ صفر ١٢٧٤ هـ /

٢٦ سبتمبر ١٨٥٧ م .

- وثيقة رقم (٧٤١) ، كرتون ٢٧ ، ظرف ٤١ ، قسم ١١ تاريخ ٢ ربيع الأول

١٢٨٥ هـ / ٢٤ يونيه ١٨٦٨ م .

- وثيقة رقم (٧٤٩) كرتون ٢٧ ، ظرف ٤١ ، قسم ١١ تاريخ ٩ صفر ١٣٠٣هـ /  
١٨ نوفمبر ١٨٨٥ م .

(١١١) علميه سالنامه سى : مصدر سبق ذكره . ص ٤٠٣

- عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٣٩ و ٤٤٠

- عبد الكريم رافق : العرب والعثمانيون ١٥١٦ - ١٩١٦ م ، ص ٥٣ ، الطبعة  
الأولى ، دمشق ١٩٧٤ م .

(١١٢) عبد الرؤوف محيى الدين سنو : المرجع السابق ، ص ٥٣ .

(١١٣) دفتر المهمة رقم (٢) وثيقة رقم (١٦٣٩) تاريخ ٥ رجب ٩٦١هـ / ١ إبريل ١٥٥٤ م .

(١١٤) دفتر المهمة رقم (٢) وثيقة رقم (١٦٤٠) تاريخ ٢٨ شعبان ٩٦١هـ / ١٩ مارس ١٥٥٤ م

(١١٥) دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (١٥٧٠) مصدر سبق ذكره ، ووثيقة رقم (١٦٧٣)  
مصدر سبق ذكره .

(١١٦) عبد العزيز الشناوى : عمر مكرم . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر . دار  
الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ م ، ص ٩٢ - ٩٧ .

(١١٧) عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها . ج ١ ص ٤٤١ .

## المصادر والمراجع

### القسم الأول : الوثائق العثمانية

١ - وثائق عثمانية غير منشورة من المديرية العامة لدار محفوظات رئاسة الوزراء

إستانبول . BASBAKANLIK ARSIVI GENEL MUDURLU

وهي مصنفة على شكل دفاتر مهمة . MUHIMMED EFTERLERI

\* دفتر المهمة رقم (١) :

- الوثيقة رقم (٦١٣) ، تاريخ ٢٩ ذو الحجة ٨٥٩هـ / ٣٠ نوفمبر ١٤٥٤ م .

- الوثيقة رقم (٦٩٩) ، تاريخ ٢٥ ذو الحجة ٨٦٤هـ / ٢٦ نوفمبر ١٤٥٩ م .

\* دفتر المهمة رقم (٢) :

- الوثيقة رقم (٧٠٣) ، تاريخ ١٠ شعبان ٨٨٥هـ / ١ مارس ١٤٨٠ م .

- الوثيقة رقم (٧١٠) ، تاريخ ١٢ شعبان ٨٨٥هـ / ٣ مارس ١٤٨٠ م .

\* دفتر المهمة رقم (٥) :

- الوثيقة رقم (١٦٣٩) ، تاريخ ٥ رجب ٩٦١هـ / ١ أبريل ١٥٥٤ م .

- الوثيقة رقم (١٦٤١) ، تاريخ ٢٨ شعبان ٩٦١هـ / ١٩ مارس ١٥٥٤ م .

- الوثيقة رقم (١٦٤٥) ، تاريخ ٢٥ رجب ٩٦٤هـ / ٢١ أبريل ١٥٥٧ م .

- الوثيقة رقم (١٦٤٦) ، تاريخ ٢٦ رجب ٩٦٠هـ / ٢٢ أبريل ١٥٥٨ م .

- الوثيقة رقم (١٦٧٠) ، تاريخ ٢١ محرم ٩٦٦هـ / ١١ ديسمبر ١٥٩ م .

- الوثيقة رقم (١٦٩١) ، تاريخ ٩ ذو الحجة ٩٦٨هـ / ٣١ أغسطس ١٥٦٠ م .

- الوثيقة رقم (١٦٥٠) ، تاريخ ٦ ذو الحجة ٩٦٨هـ / ٢٨ أغسطس ١٥٦٠ م .

\* دفتر المهمة رقم (٦) :

- الوثيقة رقم (٧٧٩) ، تاريخ ١٠ ربيع الأول ٩٦٨هـ / ١٧ أكتوبر ١٥٦٠ م .

- الوثيقة رقم (٧٨١) ، تاريخ ١٧ ذو القعدة ٩٦٨هـ / ٥ يونيو ١٥٦٠ م .

- الوثيقة رقم (٧٨٣) ، تاريخ ١٢ ربيع الآخر ٩٦٩هـ / ١٨ أكتوبر ١٥٦١ م .

- الوثيقة رقم (٧٩٧)، تاريخ ١٥ ربيع الأول ١٩٧٠هـ/ ٢١ أكتوبر ١٥٦٢م  
\* دفتر المهمة رقم (٧) :

- الوثيقة رقم (٥١٩)، تاريخ ٢٠ ذو القعدة ٩٧١هـ/ ٨ يونيو ١٥٦٣م.  
- الوثيقة رقم (٥٢٧)، تاريخ ٢١ ذو القعدة ٩٧١هـ/ ٩ يونيو ١٥٦٣م.  
- الوثيقة رقم (٥٣١)، تاريخ ٢٢ ذو القعدة ٩٧٢هـ/ ١٠ يونيو ١٥٦٤م.  
- الوثيقة رقم (٥٤٩)، تاريخ ٢٢ ذو الحجة ٩٧٣هـ/ ٢٦ نوفمبر ١٥٦٥م.  
\* دفتر المهمة رقم (٨) :

- الوثيقة رقم (١٢٤٠)، تاريخ ٢١ ربيع الثاني ٩٨٥هـ/ ٢٧ نوفمبر ١٥٧٦م  
- الوثيقة رقم (١٣٢٧)، تاريخ ١٧ جمادى الآخرة ٩٩٥هـ/ ١٩ ديسمبر ١٥٨٦م  
- الوثيقة رقم (١٣٣٤)، تاريخ ١٩ جمادى الآخرة ٩٩٥هـ/ ٢١  
ديسمبر ١٥٨٦م.

\* دفتر المهمة رقم (١٠) :

- الوثيقة رقم (١٤٠١)، تاريخ ١٦ محرم ١٠٠١هـ/ ٨ يونيو ١٥٩٢م.  
- الوثيقة رقم (١٤٩٧)، تاريخ ٢٣ صفر ١٠٠٧هـ/ ٢٤ يونيو ١٥٩٨م.

٢ - وثائق الفهرس الأصلي لأوراق قصر يلدز :

YLIDIS ESAS EVRAKI KATAOLGU

- وثيقة رقم (٧٢٧)، كرتون ٢١، ظرف ٤٠، قسم ١٧.  
تاريخ ٢ رمضان ١٢٦٢هـ/ ٢٥ أغسطس ١٨٤٦م.  
- وثيقة رقم (٧٢٩)، كرتون ٢١، ظرف ٤٠، قسم ١٧.  
تاريخ ٥ صفر ١٢٧٤هـ/ ٢٦ سبتمبر ١٨٥٧م.  
- وثيقة رقم (٧٤١)، كرتون ٢٧، ظرف ٤٠، قسم ١١.  
تاريخ ٢ ربيع الأول ١٢٨٥هـ/ ٢٤ يونيو ١٨٦٨م.  
- وثيقة رقم (٧١١)، كرتون ١٩، ظرف ٣٩، قسم ١٣.  
تاريخ ١٠ محرم ١٢٩٤هـ/ ٢٦ يناير ١٨٧٧م.

- وثيقة رقم (٧١٢) ، كرتون ٢٩ ، ظرف ٤٣ ، قسم ١٣ .  
تاريخ ٧ ذو القعدة ١٢٩٤هـ / ١٤ نوفمبر ١٨٧٧ م .
- وثيقة رقم (٦٩٥) ، كرتون ١٨ ، ظرف ٣٨ ، قسم ٢١ .  
تاريخ ١ محرم ١٢٩٥هـ / ٥ يناير ١٨٧٨ م .
- وثيقة رقم (٧٠١) ، كرتون ١٩ ، ظرف ٣٩ ، قسم ١٣ .  
تاريخ ١ شعبان ١٢٩٦هـ / ٢١ يولييه ١٨٧٩ م .
- وثيقة رقم (٧٤٩) ، كرتون ٣٧ ، ظرف ٤١ ، قسم ١١ .  
تاريخ ٩ صفر ١٣٠٣هـ / ١٨ نوفمبر ١٨٨٥ م .
- وثيقة رقم (٧١٩) ، كرتون ١٩ ، ظرف ٣٩ ، قسم ١٥ .  
تاريخ ١ صفر ١٣١١هـ / ١٤ أغسطس ١٨٩٣ م .



## القسم الثاني : المؤلفات

### ١ - المصادر والمراجع التركية :

- أحمد رفعت : روضة العزیزية ، الأستانة ١٢٨٢ هـ .
- أحمد رفیق : کدنلر سلطتی ، ج١ ، الأستانة ١٣٣٢ هـ .
- أحمد رفیق : أوننجی عصر هجر یده إستانبول حیات الأستانة ١٣٣٢ هـ .
- أحمد راسم : تاریخ ج١ ، إستانبول ١٣٢٦ - ١٣٢٨ هـ .
- أسعد أفندی : أس ظفر باریس ١٨٣٣ م .
- بروسلی محمد طاهر : عثمانلی مؤلفری ، ج٢ إستانبول ١٣٣٨ هـ .
- جمال الدین : عثمانلی تاریخ مؤرخلری ، القسطنطنیة ١٣١٤ هـ .
- حافظ حسین الأیوانسرایي : حدیقة الجوامع ، ج١ ، الأستانة ١٢٨١ هـ .
- حاجی خلیفة : تقویم التواریخ ، الأستانة ١١٤٦ هـ .
- حاجی خلیفة : جهاننما ، الأستانة ١٠٤٥ هـ .
- خیر الله : دولت عثمانیة تاریخ ، ج١١ ، الأستانة ١٢٩٢ هـ .
- دانشمان ظهوری : عثمانلی إمبراطور لو غوتاریخی ، ج١ ، إستانبول ١٩٦٥ م .
- رفعت أفندی : دوحه المشایخ ، مطبعة إستانبول .
- سلانیکي مصطفى أفندی : تاریخ الأستانة ١٢٨١ هـ .
- سعد الدین : تاج التواریخ ، ج١ الأستانة ١٢٧٩ هـ .
- سری باشا : غلط مشهور ، إستانبول ، الطبعة الثانية .
- شهاب الدین سلیمان : تاریخ ادبیات عثمانیة ، الأستانة ١٣٢٨ هـ .
- عبد الله خلوصی : دوحه الملوك ، الأستانة ١٢٦٧ هـ .
- عثمان زاده : حدیقة الوزراء الأستانة ١٢٧١ هـ .
- علمية سالنامه سی : نشر أحمد رفیق وعلى أمیری أفندی ، مطبعة إستانبول ١٣٣٤ هـ .
- محمد ثریا أفندی : سجل عثمانی ، ٣ أجزاء الأستانة ١٣١١ هـ .

- منجم باشى : صحائف الأخبار ، ج ٣ ، الآستانة ١٢٨٥ هـ .
- محمد جمال : وثائق سياسية ، الآستانة ١٣٢٧ هـ .
- نهاد سامى بانارلى : دستان ملوك آل عثمان ، إستانبول ١٩٣٨ م .
- يلماز اوزتونا : بيوك تركيا تاريخ ، ج ١ ، إستانبول ١٩٣٨ م .
- ٢ - المصادر والمراجع العربية والمعرّبة :
  - أحمد بن أبى بكر بن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان .
  - وتحقيق إحسان عباس ، الجزء الخامس دار صادر بيروت ( بدون تاريخ ) .
  - أحمد عبد الحليم مصطفى : علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديوى إسماعيل ١٨٦٣ - ١٨٧٩ م ، دار المعارف بمصر ١٩٦٧ م .
  - برنارد لويس : إستانبول وحضارة الخلافة الإسلامية ، ترجمة سيد رضوان على ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م
  - حكمت قفلجملى : التاريخ العثمانى ( رؤية مادية ) ترجمة فاضل لقمان ، دار الجليل ( بدون تاريخ ) .
  - حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، ج ٢ ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان .
  - خليفة بن خياط العصفري : كتاب الطبقات ، تحقيق أكرم ضياء العمرى ، الطبعة الثانية ، دار طيبة ، الرياض ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .
  - طاشكبرى زاده : الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية ، القاهرة ١٣١٠ هـ
  - عبد الصمد بن إسماعيل الموزعى : الإحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ، تحقيق محمد الحبشى ، الطبعة الأولى ، ومنشورات المدينة ، صنعاء ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ .
  - عبد العزيز محمد الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها . مكتبة الأنجلو المصرية ، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٨٠ م .
  - عبد العزيز محمد الشناوى : عمر مكرم . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٧ م .

- عبد الكريم رافق العرب والعثمانيون ١٥١٦ - ١٩١٦ الطبعة الأولى ١٩٧٤م دمشق .

- عبد القادر ده ده أغلو : البوم العثمانيين ترجمة محمد خان . الناشر الدار العثماني للنشر ١٣٩٧هـ .

- عبد الرؤوف عحي الدين سنو : أثر الغرب الأوربي في حركة الإصلاح في الدولة العثمانية ( ١٧٨٩ - ١٨٣٩م ) بيروت ١٩٧٥م .

- عطائي : ذيل الشقائق . إستانبول ١٢٦٨هـ .

- محمد عبد الحى اللكنوى : الفوائد البهية في تراجم الحنفية . القاهرة ١٣٢٤هـ .

- محمد بن أحمد النهر والى : البرق اليماني في الفتح العثماني الطبعة الأولى . دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر الرياض ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .

- محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني . كيف نشأت وارتقت السلطنة العثمانية وإلى أى حد بلغت عظمتها . بيروت ١٩٢٥م .

- محمد فريد بك المحامى : تاريخ الدولة العلية العثمانية . دار الجيل بيروت ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

- محمد رفعت : تاريخ البحر المتوسط وتياراته السياسية ، دار المعارف بمصر ١٩٥٩م .

### ٣ - المخطوطات والقواميس ودوائر المعارف العربية والتركية :

- قنالى زاده حسن جلى : تذكرة الشعراء ، مخطوط في فينا رقم ١٢٢٨ .

- سامى : قاموس الإعلام ، ج ٣ ، أستانة ١٣٠٨هـ .

- دائرة المعارف التركية : ميدان MAYDAN LAROUSSE

الطبعة الأولى ١٩٧٣م ، إستانبول .

- جمال صادق المرصفاوى : نظام القضاء فى الإسلام ، بحث مقدم لمؤتمر

الفقه الإسلامى انعقد فى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

سنة ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م ، طبع سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .



## علاقات الدولة السعودية الأولى بولاية الدولة العثمانية

### فى العراق والشام

#### د. عايض بن خزام الروقى(\*)

كان أول تدخل فى شئون الدولة السعودية الأولى من جانب العراق ، تلك الحملة العسكرية الكبيرة التى قادها ثوينى بن عبد الله بن محمد بن مانع آل شبيب، شيخ قبائل المنتفق سنة ١٢٠١هـ/١٧٨٦م ووصل بها إلى منطقة القصيم . وكان الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود يبدل قصارى جهده فى إصلاح ذات البين ، والمصالحة مع هذا القائد المهاجم ، لأن السعوديين لم يقوموا بأى عمل عدائى ضده . وكل ما هناك هو التجاء أحد أمراء بنى خالد الذى يُطَارَد من إخوانه وعشيرته إلى الدرعية ، ودخولها هرباً بنفسه من الموت . ولكن ثوينى أخذته العزة بقوته وسار حتى وصل إلى بريدة وضرب عليها الحصار ، وإن كان سرعان ما فك الحصار وعاد إلى العراق، لأن الأوضاع فى قبيلته اختلت وخشى على مركزه فعاد دون أن يحقق مآربه(١).

وكان رد فعل الدولة السعودية سريعاً على هذا العدوان الذى لا مبرر له ، فقاد الأمير سعود بن عبد العزيز حملة عسكرية سنة ١٢٠٣هـ/١٧٨٨م فاجأ بها قبائل المنتفق فى الروضتين - بين المطلاع وسفوان(\*) - لتكون هذه الحملة أول حملة عسكرية سعودية تجتاز حدود العراق ، وتظهر لهؤلاء القوم قدرة الدولة السعودية على رد الاعتداءات التى توجه لها عبر تلك الحدود(٢) .

وكان الأمير سعود بن عبد العزيز قد تمكن قبل ذلك من تأديب ثوينى بن عبد الله وبعض قبائله حين أغار عليهم فى الصمان عند اجتماعهم مع قبائل بنى خالد فى نفس العام ، وهزمهم فى تلك المعركة(٣) .

---

\* أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر - جامعة أم القرى .

ومما يؤسف له أن يكون موقف بعض المنتسبين إلى العلم الشرعي متأثراً بالجو السياسى والمصالح الذاتية ، وهذا ما ظهر فى الخطابين المرسلين من قاضى مكة المكرمة وقاضى المدينة المنورة فى أواخر عام ١٢٠٧هـ إلى السلطان العثمانى . وفى الوقت الذى يطالب قاضى المدينة بالقضاء على الدعوة السلفية فى نجد والدولة الداعمة لها لأنها بدأت فى إلا انتشار والوصول إلى المدينة المنورة وأهلها(٤) ، يؤكد قاضى مكة المكرمة أن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب المدعومة من الدولة السعودية بدأت تشتد وتقتوى يوماً بعد يوم ، وأن أهل البلدان المجاورة للحرمين الشريفين بدأوا يتسابقون فى الدخول فيها تباعاً ، لذا فإن هذا القاضى يرى أن العلاج يكمن فى محاصرتها والقضاء عليها وأنه يجب تكليف والى بغداد بتلك المهمة وبذل المساعدة العاجلة له لإنجاز مهمته(٥) .

ونحن لا نعدو الحقيقة هنا إذا قلنا أن مواقف أمثال هؤلاء القضاة تعبر عن نظرة ذاتية ضيقة ، كانت تلعب دوراً نشازاً فى كثير من مواقف الولاة ورجال السياسة فى الدولة العثمانية . وأثرت هذه المواقف تبعاً لذلك على الدعوة السلفية الإصلاحية التى رعتها الدولة السعودية الأولى .

وتذهب بعض المصادر المعاصرة إلى أن إتساع الدعوة الإصلاحية والدولة السعودية قد خاف أمير مكة ، فسارع بالكتابة إلى السلطان العثمانى فى الأستانة؛ وأطلق كثيراً من التهم ضد الدولة السعودية ودعوتها . ولكن الشيخ محمد بن عبد الوهاب سارع بإرسال خطاب توضيحي إلى والى الشام يتبرأ فيه مما نسب إليه من تهم باطلة . وزاد من سوء سلوك أمير مكة منعه لحجاج نجد وحبس جماعة منهم ، وكان قد أرسلهم الإمام عبد العزيز إلى مكة(٦) .

وتؤكد الرويات التاريخية المعاصرة أن والى العراق سليمان باشا الكبير ١١٩٣ - ١٢١٥هـ / ١٧٧٩ - ١٨٠١م تلقى عدداً من الرسائل المليئة بالإفتراءات والأكاذيب ضد الدولة السعودية ومنهجها ، وطالب بالوقوف فى وجهها والحد



من خطورتها كما يزعم أصحاب هذه الرسائل (٧) . ولذا قررت الأستانة توجيه حملة عسكرية ضد الدولة السعودية والإيعاز لتسلم البصرة بمساندة هذه الحملة ودعمها بالعتاد والرجال . وأرسل أحد الأغوات من بيروت للمساعدة والدعم (٨) .

وقد أسندت قيادة هذه الحملة إلى شيخ قبائل المتفق ثويني بن عبد الله الذي قضى أكثر من أربعة أشهر في إعدادها وجمع الرجال من بادية العراق وحاضرتها (٩) . وخرج بجيشه اللجب وعتاده المخيف في أواخر سنة ١٢١١هـ / أوائل سنة ١٧٩٧م .

ومن ناحية أخرى واستعد رجال الدولة السعودية وبدأوا في تجهيز قواتهم وتجميع رجالهم . وتوجه الأمير سعود بن عبد العزيز بقواته حتى نزل الحفر (١٠) ، بينما سار ثويني بقواته حتى نزل على الماء المعروف في ديرة بني خالد والمسمى - الشباك - ، وعندئذ هاجمه أحد عبيد جبور بني خالد والمسمى طعيس بحربة حديدية معه ، وضربه بها بين كتفيه ، وقيل قذفه قذفة بها في صدره وهو يلعب بين يديه ، فخرج رأسها من ظهره ، وطعيس - يردد الله أكبر - ومات ثويني حيثئذ وتفرق جنده ، فتعقبهم الجيش السعودي وغنم منهم مغانم كثيرة من المدافع والسلاح والإبل والماشية ، وكان ذلك في شهر محرم سنة ١٢١٢هـ / يوليو ١٧٩٧م (١١) .

ومهما كان اختلاف الروايات التاريخية وكتاب التاريخ في البحث عن الأسباب التي أودت بحياة ثويني (١٢) ، إلا أن ما تؤيده هذه الدراسة هو ما ذهب إليه أحد المؤرخين في القول بأن طعيس الذي قام بقتل ثويني هو "أحد مماليك براك - بن عبد المحسن أحد زعماء بني خالد - سابقاً ، وأحد المتحمسين للدعوة الإصلاحية ، .. وقد أصبح ما قام به طعيس مضرب مثلاً للإقدام ؛ إذ يقال : "باع بيعة طعيس" (١٣) .

ولم يعد أمام قادة الدولة السعودية الأولى بعد ذلك إلا الدفاع عن أنفسهم وعقيدتهم وأرضهم ، فتوجه الأمير سعود بن عبد العزيز فى شهر رمضان ١٢١٢هـ/ فى أوائل سنة ١٧٩٨م بحملة عسكرية إلى أطراف العراق وهاجم بلدة سوق الشيوخ من ضواحي متصرفية البصرة ، ثم اتجه إلى بادية السماوة لتأديب القبائل التى تعاونت مع ولاية بغداد ، ووقعت بينهم معارك غربى مدينة كربلاء . وقد قتل فى هذه المصادمات العسكرية من رجال الدولة السعودية ما يقرب من خمسة عشر رجلاً منهم براك بن عبد المحسن رئيس بنى خالد ، ومحمد آل على شيخ جبل شمر ، بينما قتل من قبائل العراق عدد كبير من أشهرهم مطلق بن محمد الجربا شيخ قبائل شمر العراق . ثم عاد الأمير سعود بعد أن أحرز انتصارات حاسمة، وحقق لدولته مكانة عسكرية قوية (١٤) .

ولم يكن هذا العمل العسكرى الذى قامت به القيادة السعودية هو الوحيد فى تلك المرحلة ، لأنهم أدركوا أن الأخطار باتت تتكاثفهم من كل جانب والتآمر يحيط بهم وأن الأعداء يتربصون بهم الدوائر . لذلك خرجت حملة عسكرية سعودية بقيادة أمير القصيم حجيلان بن حمد ، إلى الإطراف الجنوبية من أرض الشام ، وهاجمت هذه القوة عربان الشرارات وغنمت منهم ، ثم عادت إلى أوطانها بعد أن حققت إنتصارات حاسمة ذات أثر معنوى واستراتيجى بالغ (١٥) . وقد تنبه أحد الكتاب الغربيين إلى سلامة المنهج السياسى عند رجال الدولة السعودية الأولى ، وأنهم كسبوا الأنصار والمؤيدين لهم بالتدرج ، ولم يعلنوا الحرب على الحكومتين القرييتين منهم فى العراق والحجاز ، ولم يعتدوا على حقوقهما مؤكداً أن قوافل الحجاج من دمشق وبغداد كانت تعبر أراضيهم دون أن يمسهما بسوء (١٦) .

وكان أن طلب السلطان العثمانى فى الأستانة من الوالى العثمانى فى بغداد إعطاءه تصوراً كاملاً عن ماهية الخلاف الحاصل بين أمير مكة غالب بن مساعد

والإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود ، لأن هذا الخلاف كما اعتقد السلطان ستصل تأثيراته فى يوم ما إلى الحرمين الشريفين . وفى ضوء ذلك تم تكليف والى بغداد ، ووالى جدة وأمير الحاج العثماني لمحاولة لإصلاح ذات البين بين أمير مكة وأئمة الدولة السعودية الأولى .

ولم يتردد أئمة الدولة السعودية فى الموافقة على الصلح والتعامل الحسن ؛ إلا أن أمير مكة أصر على عدوانه وتأجيج الخلاف مع السعوديين رغم القوة المتفوقة لدى السعوديين وكثرة أتباعهم كما يؤكد ذلك والى جدة .

وكتب والى بغداد إلى السلطان العثماني بهذا الشأن ، مشيراً إلى أن الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود أرسل رسالة إلى السلطان فى الأستانة مع أحد رجاله ، وكان المأمول كما يقول والى العثماني فى بغداد إتمام الصلح بعد الإطلاع على مضمون هذه الرسالة ، لكن الرجل توفى قبل وصوله إلى الأستانة واختفت معه رسالته مما زاد فى تعقيد القضية ، كما يؤكد والى العثماني .

وحين كُلفَ والى الشام بمحاولة إقناع أمير مكة بالصلح مع السعوديين لم يتمكن من ذلك ، لتعنت الأمير ، ووجود محاذير لم يسمها والى العثماني باسمها .

ولعل استقراء هذه الوثيقة يعطى دلالة واضحة على أن الولاة العثمانيين قد لعبوا دوراً مؤثراً فى تأجيج العداوة بين الدولة السعودية والدولة العثمانية ، حيث أعطى والى العثماني لسلطان الدولة العثمانية صورة خاطئة عن مسلك السعوديين، متهماً إياهم أن ما يظهرونه يخالف ما يبطنونه ، وذكر فى رسالته بالحملات العسكرية التى قام بها السعوديون على جنوب العراق وعلى قبائل المنتفق دون أن يشير إلى الأسباب التى حملتهم على القيام بها والتى من أبرزها الحملتان العسكريتان اللتان قام بهما ثوينى بن عبد الله شيخ قبائل المنتفق فى داخل حدود الدولة السعودية الأولى .

وتحدث الوالى العثمانى بإسهاب عن غزوة السعوديين لسوق الشيوخ وغربى مدينة كربلاء وما نتج عن هذه الحملات العسكرية ، ليصل فى نهاية رسالته إلى الهدف الذى يسعى إليه وهو المطالبة بالانتقام من حكام الدولة السعودية والقضاء عليهم . ومع اعترافه ببعد المسافة وصعوبة الطرق إلا أنه طالب بإعداد تجهيزات عسكرية كبيرة مدعومة من الدولة العثمانية . ومع ذلك فإنه يعتقد فى رسالته تلك أنه حتى لو تم التغلب على السعوديين فى أرضهم فمن الصعوبة بل من المستحيلات البقاء فى تلك الجهات والمحافظة عليها . والحل عندئذ كما اعتقد ذلك الوالى هو دعم أمير مكة ، لأن الخطر كما يزعم كبير ، والنفوذ السعودى قوى ومتزايد (١٧) .

ومن خلال ما تقدم يظهر لنا جلياً أن الوالى العثمانى فى بغداد سعى لتشويه مسلك الدولة السعودية ، ووضع المحاذير والافتراضات والعقبات الكثيرة فى سبيل تطوير وتحسين علاقات الدولة السعودية الأولى مع الدولة العثمانية فى الأستانة بداية ، ومع ولايته هو فى بغداد بعد ذلك .

وكان أن سارع والى بغداد سليمان باشا الكبير إلى تجهيز حملة عسكرية ضخمة بعد أن حصل على موافقة الأستانة (١٨) ، وقد ضمت تلك الحملة عناصر مختلفة من الجنود العثمانية النظامية المدربة ، إضافة إلى رجالات بعض العشائر الكردية ، وقبائل الخزاعل الشيعية التى عسكرت على الضفة الغربية من نهر دجلة خارج مدينة بغداد لتستكمل استعداداتها وتجهيزاتها (١٩) .

وغادرت هذه القوة العسكرية الكبيرة بقيادة الكيخيا على باشا (٢٠) بغداد يوم ٢٢ ربيع الآخر سنة ١٢١٣هـ / أكتوبر سنة ١٧٩٨م ، وانضمت إليها فى الطريق أعداد كبيرة من رجالات القبائل العراقية المختلفة ، وتسلحت هذه الحملة بالمدافع وآلات الحرب المدمرة . وفى البصرة انقسمت هذه الحملة إلى قوتين :

قوة الفرسان بقيادة على باشا ، سارت على الطريق البرى إلى الأحساء ، وقوة المشاة والمدفعية والمعدات الثقيلة نقلت على السفن التى استأجرها متصرف البصرة وتوجهت بحراً إلى البحرين وموانئ الأحساء .

وأخيراً وصلت الحملة بعدتها وعتادها إلى المبرز والهفوف ، وحاصرت الحصنين السعوديين فيهما لأكثر من شهرين (٢١) ، واستبسل القائدان السعوديان ورجاهلها أمام هذه القوة الغاشمة ، وعندئذ أدرك على باشا أن الأمر جد خطير . وإذا كان هذا موقف قائدين مع عدد محدود من الرجال فى حصنين اثنين ، فكيف يكون لقاء الجيش السعودى بعدته وعتاده ؟ هكذا دخل الخوف والفرع فى نفس القائد العثمانى ورجال جيشه ، وراح جنوده يفكرون فى مصيرهم والهلاك الذى ينتظرهم ، فقرر الانسحاب ودفنوا بعض معداتهم تحت الأرض وأحرقوا البعض الآخر ، وتراجعوا حتى نزلوا الماء المعروف - الشباك - فى حين نزل الأمير سعود بن عبد العزيز مع جنده على الماء المعروف والمسمى - تاج (٢٢) ، وكان أن جنح الباشا إلى السلم وتبادل الرسائل مع الأمير سعود بن عبد العزيز ، وتوصل الطرفان إلى اتفاق يتم بموجبه انسحاب الكينخيا على باشا إلى أرض العراق على أن يعود الأمير سعود إلى الدرعية . وقد تحدثت المصادر والمراجع التاريخية بإسهاب عن شروط هذا الاتفاق ، وكل مؤلف عاجلها بطريقته ، بيد أن ما يلفت الانتباه أسلوب الخطاب الذى وجهه الأمير سعود إلى الكينخيا على باشا وأورده أحد المؤرخين المعاصرين ، حيث يقول :

" من سعود بن عبد العزيز إلى على ..

أما بعد : ما عرفنا سبب مجيئكم إلى الأحساء ؟ وعلى أى منوال جئتم؟...  
أما الأحساء فهى قرية الآن ليست داخلية فى حكم الروم - أى العثمانيين - وبعيدة عنكم ولم يحصل منها شئ يسوى - أى يساوى - تعبكم ، ولو أن جميع الأحساء وما يليها تؤدى لكم دراهماً ، ما تعادل مصروفاتكم التى عملتموها فى



هذه السفارة ، ولا يوجد بيننا وبينكم من المضاغنة قبل ذلك إلا ثويني ، فهو كان المعتدى ولقى جزاءه فالآن مأمولنا المصالحة وهي خير لنا ولكم ، والصلح سيد الأحكام" (٢٣) .

وقد اختلفت آراء وروايات المؤرخين حول تلك الواقعة ومن هو المنتصر فيها من الجانبين ؟ ومن هو الذي طلب الصلح قبل صاحبه ؟ ومن الذي رغب في الصلح ولم يرغب في الحرب ؟ كل هذه التساؤلات والآراء يمكن توكيدها بلغة المنطق العلمي من خلال مجريات الأحداث ، فالهزيمة والخوف والتخاذل كلها اعترت جيش الكيخيا على باشا وقادته ، ولو كان قد أحس بشئ من الأمل والانتصار مهما كان يسيراً لما طلب الصلح والسلم . يكفي أنه يمثل قوة الدولة العثمانية وواليها القوى في بغداد ، وهو الذي جهز هذه الجحافل من الجيوش من العراق إلى الأحساء عن طريق البر والبحر . وكان هدفه معروفاً ، وهو تدمير الدولة السعودية وجيشها ، فكيف ينجح للسلم وهو في مواجهة السعوديين ؟! إنه لم يفعل ذلك إلا عندما أحس بالضعف والهزيمة فلجأ إلى الحفاظ على البقية الباقية من كرامته كقائد ؛ وكرامة قادة جيشه ورجاله ، حتى لا تتكرر معه أحداث الحملة التي قادها ثويني بن عبد الله ، في العام المنصرم .

لقد كان الإمام عبد العزيز بن محمد حريصاً على الأمن والاستقرار ومراعاة قواعد الجوار ، ولا سيما مع ولاية الدولة العثمانية في العراق . لكن الطرف الآخر لم يبادلونه نفس الاحساس ، وإنما تربصوا به وبقومه الدوائر ، وتحقق لهم ذلك عن طريق قبيلة الخزاعل بالقرب من النجف إذ اعترضوا قافلة من أتباع الدولة السعودية ، قيل إنهم تجار ، وقيل غير ذلك . لكن المؤكد أن عشائر الخزاعل التابعين لباشوية بغداد غدروا بهذه القافلة وقتلوا منهم حوالي ثلاثمائة رجل وذلك في عام ١٢١٤ هـ / ١٧٩٩ م . ولم يتعجل الإمام عبد العزيز في اتخاذ القرار ، بل أرسل احتجاجاً إلى والي بغداد بدفع الدية لرجاله كي تسلم لأسرهم وفق قواعد



الشريعة الإسلامية . لكن الوالى العثمانى أخذ فى التسوية والمماطلة؛ وطلب من أحد رجالات العراق واسمه عبد العزيز بيك الشاوى المرور على الإمام عبد العزيز بعد انتهاء الحج ومباحثته فى القضية ، لكن دون الالتزام بشئ للسعوديين . لذا فقد كان مصير هذه المفاوضات الفشل وعدم الوصول إلى نتيجة حاسمة (٢٤) .

لم يعد أمام رجال الدولة السعودية إلا الانتقام لأنفسهم ورد اعتبارهم ، إنطلاقاً من التوجيه القرآنى الكريم : ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله وأعلموا أن الله مع المتقين﴾ الآية (٢٥) .

وكان أن غزا الأمير سعود بن عبد العزيز كربلاء لتأديب عشائر الخزاعل على فعلتهم فى قتل رجاله ، ولأن الوالى العثمانى لم يحرك ساكناً . وقد نجح الأمير سعود فى دخول المدينة عنوة فى شهر ذى القعدة سنة ١٢١٦هـ / وهو الشهر الثالث من سنة ١٨٠٢م وقام بهجوم خاطف حقق له انتصاراً عسكرياً ومعنوياً ضد تحركات الوالى العثمانى فى بغداد ومن شايعه وسار وفق رغباته ، ثم عاد إلى نجد منتصراً (٢٦) .

وعندما أدرك والى بغداد سليمان باشا الكبير ضعفه وعجزه عن مقارعة الدولة السعودية عسكرياً ، كتب رسالة للسلطان العثمانى ، تتصف بالغرابة ؛ وأعقب ذلك وفاة ذلك الوالى فى ٨ ربيع الثانى سنة ١٢١٧هـ / أواخر أغسطس سنة ١٨٠٢م ربما بسبب وباء الطاعون الذى كان عندئذ منتشرًا فى بغداد بصورة كبيرة (٢٧) .

ومازالت تلك الرسالة محفوظة بنصها العثمانى فى أرشيف رئاسة مجلس الوزراء فى إستانبول تحت تصنيف خط همايون ٣٧٦٥ وتاريخ ١٠ ذى القعدة سنة ١٢١٦هـ ، وسيطرق البحث هنا لأهم عناصرها ، وللتعرف من خلالها على البعد الحقيقى لعلاقات هؤلاء الولاة بالدولة السعودية الأولى .

استهل والى بغداد رسالته الموجهة للسلطان العثماني بالإفتاء على إمام الدولة السعودية الإمام عبد العزيز بن محمد بأنه أحدث مذهباً جديداً ليس من الدين الإسلامى ، ثم تطرق إلى نفوذ الدولة السعودية ، وأشار إلى أن ذلك النفوذ شمل معظم أجزاء نجد وأطراف الحجاز ومنطقة القصيم وسائر عشائر الشام ، وامتد إلى رأس الخيمة وإلى مسقط ، وشمل هذا النفوذ القواسم والعتوب على الساحل الغربى للخليج .

وأشار الوالى العثمانى فى رسالته إلى أن نفوذ السعوديين أصبح متغلغلاً فى أذهان العرب والعجم على السواء ، وأن الولاء فى الجزيرة العربية ومنطقة الخليج أصبح شبه مطلق للسعوديين .

ثم يقول ذلك الوالى فى ختام رسالته ما نصه :

" الدولة السعودية الآن تعتبر فى عنفوان قوتها ، حيث فرضت نفوذها كاملاً على البحر ولا نستطيع حيثئذ مجابهتها والتصدى لها بحرياً ، إلا أنه بالإمكان مهاجمتها والتصدى لها عن طريق البصرة براً . وأما فى الخليج فإن بريطانيا التى تعتبر صديقة وفيّة للدولة العلية والتى تتحكم فى شبه القارة الهندية والبحار الشرقية، تسعى جدياً لمجابهة الدولة السعودية ، ولعلها تقوم بالمهمة فى الخليج العربى ضد ابن سعود وأتباعه ، وهذا كله إذا تمت الموافقة عليه من عتبة السلطان المحترم ، وعندئذ سيتم تنظيم المواقف كل فيما يخصه " (٢٨) .

وبعد وفاة والى بغداد سليمان باشا الكبير ، أسندت الولاية إلى الكيخيا على باشا ، الذى قاد الحملة العسكرية العثمانية سنة ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م ، إلا أنه كان أشد عداء للدولة السعودية من سلفه (٢٩) . ولأنه يعرف القدرة العسكرية عند السعوديين ، من خلال خبرته السابقة ويدرك الصعوبات التى تعترضه فى تنفيذ أهدافه ضد الدولة السعودية ، فإنه أخذ يحيك المؤامرات التى تساعد فى تحقيق

أهدافه ، ووجد ضالته في أحد المجرمين الذين احترقوا القتل والاعتقالات ، وسبق له أنجز مهمة كُلفَ بها في مكة المكرمة من هذا القبيل .

ذلك أن الوالى العثمانى - الكيخيا على باشا التقى بهذا الرجل - المدعو عثمان - (٣٠) وتأكد من أن شخصيته تدعو إلى الثقة فى إنجاز مهمة الاغتيال ، وأن الإغراء والتحريض لا يزيده إلا إصراراً ، فاتفق معه على قتل الأمير سعود مع والده . ولكن المجرم تمكن من قتل الإمام عبد العزيز دون الوصول إلى ابنه ، وعندئذ تعهد الوالى العثمانى لسلطان دولته بإكمال المهمة وبذل الجهد والإمكانات للقضاء على الأمير سعود وقتله مثلما قتل والده . وعند وصول هذه الرسالة إلى السلطان العثمانى ، توجهها بتوقيعه بالإطلاع وإبداء الفرح والسرور بإنجاز هذا العمل (٣١) .

هذه الرسالة - الوثيقة - التى بعثها والى بغداد إلى عاصمة الدولة العثمانية وإلى السلطان العثمانى شخصياً تُترجم بوضوح ماهية العلاقة بين ولاية الدولة العثمانية فى العراق ورجال الدولة السعودية الأولى .

ولم تتوقف مؤامرات الولاية العثمانية فى العراق عند حد إغتيال أئمة الدولة السعودية ، وإنما تجاوزتها إلى محاولة قتل أمراء وقادة الدولة السعودية فى أكثر من موقع . فهذا هو والى بغداد يرقص طرباً للخبر الذى جاءه من متصرف البصرة عن اغتيال أحد قادة الإمام سعود بن عبد العزيز فى الطائف على يد أحد المجرمين ، وقد أرسله أمير مكة للقيام بهذه المهمة . وزفّ الوالى العثمانى ذلك الخبر إلى سلطان الدولة العثمانية فى إستانبول (٣٢) .

وفى تلك الأثناء بعث برسالة أخرى إلى السلطان العثمانى ، يؤكد فيها أن قواته العسكرية وصلت إلى أطراف نجد ، وأن قواته التقت بالسعوديين واشتبكت معهم فى معركة قوية وقتلت منهم الكثير ، هو يعدّ فى خطابه هذا بمواصلة العداء والحرب ضد الدولة السعودية (٣٣) .

وفى هذه الأجواء المشبعة بالعدوان صار على السعوديين أن يثأروا لأنفسهم عملاً بقوله تعالى : ﴿الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربُّنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرنَّ الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز ﴾ الآية (٣٤).

وقد ترجم هذه الحقائق الإمام سعود بن عبد العزيز على أرض الواقع . ففى عام ١٢١٨هـ / ١٨٠٣م قاد حملة عسكرية ناجحة على جنوب العراق وداهم مدينة البصرة ومدينة الزبير ، ثم عاد إلى الدرعية منتصراً (٣٥) .

واستمرت الهجمات السعودية على أطراف العراق الجنوبية وبعض بلدانه مثل البصرة والزبير والنجف طوال السنوات اللاحقة ، حيث غزاها الإمام سعود سنة ١٢٢٣هـ / ١٨٠٨م وداهمت قواته كربلاء للمرة الثانية . وتبع هذه الحملة عدة حملات ناجحة ، تمكنت القوات السعودية فى إحداها من عبور نهر الفرات . ووصل الأمير عبد الله بن سعود فى إحدى تلك الحملات إلى قرب بغداد وهددها تهديداً مباشراً (٣٦) . وبذلك حققت القوات السعودية قصب السبق فى هذه المواجهة العسكرية مع ولاية الدولة العثمانية فى العراق ، واستطاعت بذلك التغلب على معارضيها والمناوئين لها . ويذهب بعض المؤرخين إلى أن كثيراً من القبائل العراقية فى غرب الفرات دفعت الزكاة للدولة السعودية الأولى ، فى تلك المرحلة التاريخية الحاسمة (٣٧) .

\* \* \*

أما عن علاقات الدولة السعودية الأولى مع ولاية الدولة العثمانية فى الشام فقد مرت بنفس الصعوبات وتلك العقبات . وتعتبر الحملة العسكرية التى أرسلها الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود إلى دومة الجندل (٣٨) ، فى سنة ١٢٠٨هـ / ١٧٩٣م ، أول اتصال بين الدولة السعودية وأطراف الشام ، ثم تبعتها

بعد ذلك الحملة السعودية التي قادها حجيلان بن حمد أمير القصيم ، سنة ١٢١٢هـ/١٧٩٧م ، حيث أغار على بواى الشرارات فى أطراف الشام وحقق انتصاراً عسكرياً مؤثراً رغم بعد المسافة بينه وبين عاصمة دولته (٣٩) .

وكان لهذه الحملات العسكرية تأثير واضح على بعض قبائل الشام التى أقبلت على اعتناق مبادئ الدعوة السلفية ، حتى أن المصادر المعاصرة أكدت على أن بعض القادمين من حلب الشام إلى الدرعية فى زمن الإمام عبد العزيز بن محمد، قدموا على ست نجائب محملات بزكوات بواى أهل الشام (٤٠) . وهذا الواقع التاريخى الذى أصبحت تعيشه بلاد الشام يبدو جلياً فى الرسائل التى بعث بها قاضى دمشق الشام - محمد راشد حمادى زاده - إلى السلطان العثمانى فى الأستانة . وقد طلب هذا القاضى من الأستانة إرسال فرمان عثمانى (٤١) باللغة العربية إلى قبائل عنزة القاطنة فى حمص وحماه . وعند وصول هذا فرمان إلى والى الشام الحاج عبد الله باشا العظم ، فإنه سيرسله بدوره إلى هذه القبائل ، ليقرأ عليهم على رؤوس الأشهاد ، وأمام جموع الناس لإفهامهم محتواه (٤٢) . وفى الخطاب الثانى طلب القاضى إعداد خطاب مستقل للقبائل القاطنة فى ضواحي الشام وأورد بعض الأسماء لأشهر مشايخ تلك القبائل لمخاطبتهم مباشرة (٤٣) .

لكن يبدو أن الخوف والقلق أخذ يساور ذلك القاضى ، وربما يكون الرجل مدفوعاً من والى الشام العثمانى ، لتكون رسائله أشد أثراً فى الأستانة من رسائل والى التى يبعثها بنفسه . وفى الرسالة الثالثة التى بعثها القاضى المذكور إلى السلطان العثمانى بتاريخ ١٧ ربيع الأول سنة ١٢١٨هـ ، يظهر عليه شئ من الخوف والارتباك ، حيث يتحدث عن الدولة السعودية وتنظيماتها بأسلوب غير مقبول عقلاً ، فهو يشير إلى أن الدولة العثمانية أصبحت فى خطر داهم ، وأن تهديد الدولة السعودية سيصل إلى عاصمة الدولة إذا لم توقف بسرعة وبقوة ، ولم



ينس قاضى الشام أن يطلب من السلطان العثمانى إصدار فرمان عثمانى إلى شيخى بنى صخر(\*\*) فى الزرقاء . وعند وصول ذلك فرمان إلى والى الشام عبد الله باشا فإنه سيبلغ لهما سريعاً ، لأن هذين الرجلين - كما يقول - شديداً الولاء للدولة العثمانية ، ووقوفهما مع قبائلهما إلى جانب الدولة سيحقق النصر المنتظر ضد الدولة السعودية وتهديداتها المستمرة على حد تعبيره(٤٤) .

وهكذا ظهر الخوف وكثرت الدعايات المضادة للدولة السعودية فى بلاد الشام ، حتى بلغ الأمر منتهاه بعرض تقارير من ولاية الشام على السلطان العثمانى والصدر الأعظم تتضمن نقل المؤن والذخائر إلى الحرمين الشريفين عن طريق البصرة والخليج العربى ، لأنها الطريق الأفضل والأكثر أمناً من طريق الشام . وقد وافق الصدر الأعظم فى الدولة العثمانية على تكليف والى بغداد بإنجاز تلك المهمة لأنه يعتقد هو الآخر أن ذلك من صميم مهماته ، لاسيما وأن الدولة السعودية الأولى لازالت متأثرة بمحادثة اغتيال الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود(٤٥) .

وتؤكد المراجع التاريخية إنضواء كثير من قبائل الشام بسهولة تحت لواء الراية السعودية ، لأنها وجدت فيها ما لم تجده فى سياسة الولاة العثمانيين . لذلك فإن معظم هذه القبائل رأت فى الانضواء تحت مظلة الدولة السعودية خلاصاً لها من فساد حكم الولاة الذى كانت تعاني منه البلاد(٤٦) .

فى تلك الظروف ، وفى ظل هذه المتغيرات التاريخية التى كانت تمر بها بلاد الشام ، بدأ الارتباك واضحاً فى الإجراءات الإدارية المتبعة فى ولاية الشام ، إذ رفض بعض رجال الدولة الالتزام بالتعليمات التى تصدر إليه من عاصمة الدولة ، أو حتى تنفيذ فرمانات التى تصدر من السلطان العثمانى نفسه . وظهرت على السطح حينذاك قضية محمد باشا الذى صدر أمر سلطانى منذ سنة ١٢١٩هـ بتعيينه والياً على جدة ، لكنه رفض الذهاب إلى هناك وأثار كثيراً من الإشكالات والأشاعات التى انعكست على جند الدولة العثمانية فى الشام وأصابتهم بالوهن



والرعب ، وجعلتهم يتلکأون فى الاستجابة للتعليمات التى تصدر إليهم . وقد نحاض المسئولون ورجال الدولة فى هذه القضية وكيفية معالجتها ، حتى أن السلطان العثمانى نفسه طلب من والى الشام المسارعة فى حل هذه القضية دون إثارة مشاكل إضافية ، لأن الوضع فى الشام وفى الجزيرة العربية لا يحتمل مثل هذه الأمور فى ذلك الوقت بالذات (٤٧) .

وكان أن سارع والى الشام إلى إرسال تحريرات مهمة لعرضها على السلطان العثمانى وبرفقها القرار المتخذ من قبل مجلس الشورى فى الولاية ، الذى يطالب بإعداد حملة عسكرية كبيرة من قبل والى الشام قوامها ثلاثة آلاف جندى ، والاستعانة بولاية مصر فى دعم هذه الحملة بالذخائر والمهمات ، ليتم إرسالها إلى جد ومهاجمة الدولة السعودية فى عقر دارها (٤٨) .

وبينما أكد والى مصر - محمد على باشا - هذا الرأى فى رسالته التى بعثتها للأستانة بتاريخ ١٧ رجب ١٢٢٠هـ/ أواخر عام ١٨٠٥م ، مبدئاً استعدادة لتنفيذ التكليف الذى ورده من السلطان العثمانى للمشاركة فى التصدى للدولة السعودية، بيد أن ذلك الوالى زاد من مخاوف الدولة العثمانية حين أكد عجز ولايتها فى الشام والحجاز عن مجابهة السعوديين ، وأنهم فى حاجة إلى الدعم المستمر من مصر ومن الأستانة (٤٩) .

وكان الإمام سعود بن عبد العزيز قد بين للسلطان العثمانى سليم الثالث منهج دولته ، وأن ضم الحجاز للدولة السعودية فيه خير كثير للأهالى والمسلمين ، حيث أنه أمن الناس على أرواحهم وأموالهم ، وألغى الضرائب عن كواهم وثبت القاضى المعين من قبل السلطان العثمانى . والشئ الذى طلبه الإمام سعود من سلطان الدولة العثمانية هو منع والى الشام ووالى مصر من حمل الطبول والزمور التى ترافق الحجاج كل عام ، لأنها لا تتناسب مع قداسة الزمان والمكان وليست من الدين الإسلامى (٥٠) .

فى سنة ١٢٢١هـ/١٨٠٦م ، وهى السنة التى حج فيها الإمام سعود بن عبد العزيز حجته الثالثة ، مَنَعَ السعوديون والى الشام أمير الحاج الشامى عبد الله باشا العظم من دخول المدينة المنورة ومن ثم مكة المكرمة ، لأن محمل الحج الذى يرافقه تزفه الطبول والزمور ، وهى من الأشياء المخالفة لشعائر الحج . وكان قد طُلبَ من الوالى العثمانى فى العام السابق عدم اصطحاب هذه البدع فى الحج القادم لكنه لم يلتزم ، فأصبح لزاماً على رجال الدولة السعودية منعه من دخول الأماكن المقدسة (٥١) .

ويذهب البعض إلى أن سبب منع الحاج الشامى وأميره عبد الله باشا العظم من دخول المدينة المنورة ومكة المكرمة ، هو الحيلولة دون التقاء أهل الشام ومن معهم مع أمير مكة غالب بن مساعد ، لكى لا تتاح لهم الفرصة فى التآمر وإحداث قلاقل فى الحج ، لا يعلم مداها إلا الله عز وجل ، لا سيما أن أمير الحاج الشامى يمتلك من الأسلحة والمعدات والعساكر النظامية الشئ الكثير (٥٢) . وهذا رأى من الآراء الراجحة ، خاصة إذا عرفنا أن أمير مكة لم يكن مخلصاً فى ولائه وتعامله مع أئمة الدولة السعودية وهم يدركون ذلك دون أدنى شك ، إضافة إلى أن رجال الدولة السعودية يرفضون من منطلق عقائدى وجود الطبول والزمور فى الحج والتى تأتى عادة مع محمل الحاج الشامى .

وكان أن دفع أمير الحاج الشامى عبد الله باشا العظم ثمن ذلك الإجراء ، حيث أصدر السلطان العثمانى سليم الثالث فرماناً بعزله من منصبه ، باعتبار أنه تقاعس عن مواجهة رجال الدولة السعودية ، وأرجع الحجاج بناء على طلبهم ، دون أن يقوم بأى عمل عسكرى ، وعين يوسف باشا كنج Genc بدلاً منه فى ولاية الشام سنة ١٢٢٢هـ/١٨٠٧م (٥٣) .

أما الإمام سعود بن عبد العزيز فقد بعث بأكثر من رسالة إلى والى الشام يوسف باشا كنج ، قال فى إحداها :

" الحمد لله معز من أطاعه و اتقاه ، ومذل من أضاع أمره وعصاه ... من سعود بن عبد العزيز إلى جناب حضرة يوسف باشا وزير الشام ... " .

إلى أن قال : " ... وفصل النزاع بين المختلفين عند كتاب الله ، وأصل الدين الذى ندعو إليه الناس هو ما دعا إليه محمد ﷺ إخلاص العباداة لله ، وأقامة الفرائض الذى افترض الله عليه ، ونفى الشرك وتوابعه من كل قبيح ... "

ثم كانت الرسالة الثانية أكثر وضوحاً ، وأرق لفظاً حيث قال الإمام سعود : " ... إلى جناب المكرم والحبيب المحترم يوسف باشا ، بلغه الله من الخير ما شاء ... وقد بلغكم ما نحن عليه وندعو الناس إليه ، ولكن ربما يقع من ثقل الأخبار زيادة ونقصان ، فنذكر لكم الآن حقيقة الأمر على وجهه ... فيقيننا الذى نحن عليه وندعو الناس إليه هو : الإخلاص لعبادة الله وحده ، ولا نذبح القربان إلا لله ، ولا نرجو إلا هو ولا نخاف إلا منه ولا نتوكل إلا عليه ، وأننا نتبع الرسول ﷺ ونوجب طاعته ... ولا نعبد إلا الله وحده ، ولا نتقرب إلا إليه بما شرع على لسان رسوله ﷺ ، مما دلت عليه النصوص القرآنية والسنة النبوية ... " (٥٤) .

لكن يوسف باشا كنج والى الشام كان يبيت للإمام سعود بن عبد العزيز ودولته الحرب والدمار ، فالتعليمات تأتية تباعاً من الأستانة كى يقوم بتجهيز الحملات العسكرية ضد الدولة السعودية ، وهو لا يرفض هذه الأوامر ، ولكنه يدرك حجمه الطبيعى وعجزه عن القيام بهذه المهمة بمفرده . وقد كتب أكثر من رسالة إلى والى مصر محمد على باشا ، فيها شرح وافى للخطط التى يعتزم القيام بتنفيذها ضد الدولة السعودية ، متعاوناً فى ذلك مع محمد على فى مصر وأمير مكة غالب بن مساعد ، ودعا فى رسائله تلك إلى تظافر الجهود ، وبذل كافة الإمكانيات لانجاز تلك المهمة التى تؤرقه هو قبل غيره ، وتؤرق دولته العلية فى الأستانة كما يقول (٥٤) .

والواقع أن الإمام سعود بن عبد العزيز - وهو السياسى المحنك والقائد العسكرى الجسور - أدرك تلك المواقف وعرف كنهها ، ففى الوقت الذى نراه يستقبل قافلة كبيرة للحجاج المغاربة قَدِمَت عن طريق البر عن طريق القاهرة ، ويقول عنهم : إنهم قوم متدينون ، ويتصرفون بحشمة (٥٦) ، إذا به وقد قاد قواته العسكرية سنة ١٢٢٥هـ / ١٨١٠م ، وغزا بها بلاد الشام حتى وصل إلى المزيروب (٥٧) ، وحقق إنتصارات سريعة . ثم أعاد الكرة فى نفس العام ، وتوغل داخل الشام ووصل إلى حوران (٨٥) ، وبصرى (٨٩) ، ومن هناك كاتب ولاية الشام ودعاهم إلى الدخول فى الطاعة واعتناق مبادئ الدعوة . ثم عاد من مهمته تلك بعد أن حقق فيها الانتصارات وأوقف مؤامرات المناهضين لدولته . بيد أن رجال الأستانة أفزعتهم هذه التحركات وأدركوا ضعف والى الشام يوسف باشا كنج ، فأصدروا فرماناً عثمانياً بعزله من منصبه وتعيين سليمان باشا والياً على الشام بدلاً منه (٦٠) .

وكان الهدف من هذا التغيير تعاون الوالى الجديد مع والى مصر محمد على باشا ، غير أن الواقع أثبت عكس ذلك ، فالعلاقات بين محمد على باشا ويوسف باشا كنج كانت فى أحسن حالاتها ، فى حين أن سليمان باشا ومحمد على باشا كانا على طرفى نقيض والتعاون بينهما يكاد يكون معدوماً (٦١) ، وهو ما أثر بعد ذلك فى مجرى الأحداث وزاد من اتساع الهوة بين الرجلين .

أما الوالى الجديد سليمان باشا فلم يوفق فى تحسين علاقات الدولة العثمانية مع الدولة السعودية ، وإنما بدأ ولايته بتوجيه خطاب إلى الإمام سعود بن عبد العزيز فى شهر رجب سنة ١٢٢٥هـ ملأه بالتهديد والوعيد . وزاد من حدة الخطاب أنه ملأه بالتهم والأباطيل ضد الدولة السعودية الأولى ودعوتها السلفية منهجها الذى تسير عليه (٦٢) .

وهكذا أوصل ولاية الدولة العثمانية فى العراق والشام علاقات الدولة السعودية الأولى مع الدولة العثمانية إلى نقطة اللا عودة ، وكأنهم أرادوا بذلك هدم ما بناه السعوديون ، وهو ما تحقق بالفعل بعد ذلك ، لكنه فى تلك المرة لم يكن بأيدي هؤلاء الولاة وإنما بيد والى مصر محمد على باشا .

### الخاتمة والنتائج :

كان قيام الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٧هـ/١٧٤٤م فى قلب الجزيرة العربية ، يمثل ظاهرة حضارية رائدة فى قيام الدول ، لاسيما أن هذه الدولة قامت على المنهج الإسلامى الصحيح ، وأنها نذرت نفسها للدفاع عن عقيدة أهل السنة والجماعة . وكان وقوفها خلف الدعوة الإصلاحية التى نادى بها العالم الجليل الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، يمثل مرتكزا جديداً لقيام أول دولة عصرية عرفت فى الجزيرة العربية فى تاريخها الحديث .

ومع أن المعارضين للدولة والمناوئين لها اختلفت مشاربهم ، وتضاربت مصالحهم ، وسلكوا مختلف الطرق الغير مشروعة للتأثير على منهجية الدولة السعودية وثوابتها الدينية ، إلا أن تلك الدولة لم تغير من مرتكزاتها السياسية التى قامت عليها ، وتعاملت مع هؤلاء القوم وفق المنظور الإسلامى ووفق مقاصد الشريعة الإسلامية ، وتحملت فى سبيل ذلك الشئ الكثير ، ولم تغير من أهدافها وغاياتها ، مما جعلها فى مقدمة الدول الناهضة والقوية فى العصر الحديث .

وعندما نقل المعارضون لهذه الدولة تصوراتهم الخاطئة عنها إلى القوى المجاورة ، وفى مقدمة هذه القوى ولاية الدولة العثمانية فى العراق والشام ، لعبت حينئذ المطامع والمطامح الشخصية دوراً بارزاً فى توجيه حركة الأحداث التاريخية بين هذه الدولة وولاية الدولة العثمانية ، وبالتالي مع عاصمة الدولة العثمانية فى إستانبول .



ولم يتمعن ولاية الدولة العثمانية ورجالاتها في الأستانة هذا المسلك الذى اتتهجه أئمة الدولة السعودية ، فأغمضوا أعينهم ، وصموا آذانهم عن الحجج الواضحة ، والحقائق الساطعة التى نادى بها السعوديون ، وأخذتهم العزة بالإثم فدبروا المؤامرات المختلفة ضد الدولة السعودية ودعوتها الإصلاحية ، وأرسلوا الحملات العسكرية لأطراف الدولة السعودية وعاصمتها ، حينئذ أصبح لزاماً على أئمة الدولة السعودية ورجالاتها الدفاع عن عقيدتهم ودولتهم وانتمائهم ، إنطلاقاً من التوجيه الربانى فى قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ( الآية ١٩٠ من سورة البقرة ) .

وقد بلغ العداء ذروته حين ساهم ولاية الدولة العثمانية فى العراق بطريقة أو أخرى فى إغتيال إمام الدولة السعودية الأولى الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود .

وسبق هذا الحادث المؤلم إرسال عدة حملات عسكرية كبيرة إلى أراضى الدولة السعودية الأولى فى وسط نجد . ولأن هذه الحملات لم تحقق أهدافها المتوقعة فى القضاء على الدولة السعودية ، لأن السعوديين لم يخضعوا لهذه الحملات بل ردوا عليها بالمثل ، بل بصورة أشد وأقوى فى بعض المواقع ، فقد حاول أولئك الولاة ومن شايعهم تشويه سمعة الدولة السعودية الأولى ، وإطلاق التهم والأكاذيب .

هذا التشويه وهذه الافتراءات الكاذبة وصلت إلى عاصمة الدولة العثمانية فى إستانبول ، وتأثرت بها ولايات الدولة العثمانية وفى مقدمتها ولاية الشام ، التى حاول ولايتها أن يقوموا بنفس الدور الذى قام به ولاية العراق ، لكنهم كانوا أضعف من أن يؤدوا الدور المطلوب منهم ، حتى أن منصب الوالى فى الشام كان مرهوناً بمدى قدرة الوالى فى مهاجمة الدولة السعودية ، فإذا تلكأ أو عجز عن المهمة عُزل من منصبه . ومن حسن الطالع لهذه الدراسة أننا حصلنا على وثائق من



الأرشيف العثماني في إستانبول لم يسبق نشرها من قبل ، أبرزت جملة من النتائج التاريخية التي تعتبر إضافة علمية جديدة :

١ - أن الدولة السعودية الأولى قامت على منهج إسلامي ، وأنها سارت وفق معتقد أهل السنة والجماعة .

٢ - أن من أهداف الدولة السعودية واستراتيجيتها نشر الدين الإسلامي الصحيح، وإزالة البدع والضلالات التي انتشرت داخل الجزيرة العربية في تلك الفترة التاريخية الحاسمة .

٣ - أن هذه الدولة لم تبادر إلى العداء المطلق مع القوى المجاورة ، وإنما حرصت على الدعوة إلى الله بالحجة ، والحوار العلمي البناء ، فبعث أئمة الدولة الرسائل والدعاة إلى أماكن كثيرة ، وكسبوا بذلك الكثيرين من الأنصار المؤيدين .

٤ - إن المعارضين للدولة السعودية ودعوتها الإصلاحية من داخل الجزيرة وفي أطرافها لم يتحروا الحقيقة في أحكامهم ، ووجهوا التهم والأباطل الكاذبة ضد الدولة السعودية ومنهجها الإسلامي .

٥ - لم تلجأ الدولة السعودية الأولى في أي وقت من الأوقات إلى محاربة المعارضين لها والمناوئين لدعوتها ، وإنما كانت تدافع عن وجودها كدولة مستقلة ذات معتقد صحيح وهدف سليم .

٦ - إن المعارك التي خاضتها الدولة السعودية الأولى مع ولاية الدولة العثمانية في العراق والشام كانت تنطلق من محورين أساسيين :

- إما لردع العدوان عن أرضها وكيانها .

- أو لتأديب من يجرؤ على مهاجمتها ، وإثبات قدرتها على التصدي لكل عدوان يوجه ضدها .

٧ - أن ولاية الدولة العثمانية في العراق والشام شوهوا المنهج السياسى والعقائدى الذى تقوم عليه الدولة السعودية ، وحالوا بذلك دون تحسين العلاقات بين الدولة السعودية والدولة العثمانية ، وأوصلوا العلاقة السياسية بين الدولتين إلى نقطة النهاية .

٨ - أثبتت الدراسة أن الأهداف الشخصية والمصالح الذاتية الآنية كانت ذات أثر فعال فى إضعاف علاقات الدولة السعودية الأولى مع ولاية الدولة العثمانية فى العراق والشام ، وهو ما أعطى الفرصة الكاملة للمعارضين والمناوئين كى يحققوا أهدافهم الهدامة .

٩ - إن الواقع التاريخى لهذه الأحداث يثبت أن أئمة الدولة السعودية ودعاتها كانوا أشد حرصاً من ولاية العراق والشام ومن شايعهم على تطوير وتحسين العلاقات بين الجانبين ، ولو أدرك رجال الدولة العثمانية وولاتها ذلك مبكراً لتغير وجه التاريخ ليس فى الجزيرة العربية والمشرق العربى فحسب وإنما فى العالم الإسلامى بشكل عام .

## الهوامش

- (١) حسين بن غنام : تاريخ نجد ، ج١ ، ص ١٦١ - ١٦٤
- ؛ عثمان بن بشر : عنوان المجد ، ج١ ، ص ١٥٧ - ١٦٠
- ؛ مقبل عبد العزيز الذكير : مخطوطة ... ج٣ ، ص ٣٤ ، مركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى ، جامعة أم القرى ، رقم المخطوط ١٧٤ تاريخ .
- (\*) سفوان : قرية تقع بين الكويت والبصرة وهى تابعة للعراق ، وسفوان ذكره النابغة الجعدى بقوله :
- فضل لنسوة النعمان منا  
على سفوان يوم أردناني  
وذكره أبو نواس الحسن البصرى بقوله :
- يا حبذا سفوان من متربع  
إذ كان يجتمع الهوى سفوان  
وقد صحفه الاستعمال فلا يعرف اليوم عند الناس إلا بصفوان .
- انظر : عثمان بن بشر : عنوان المجد فى تاريخ نجد ، ج١ ، هامش ص ٢١٨ .
- (٢) د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : الدولة السعودية الأولى ١١٥٨ - ١٢٣٢هـ / ١٧٤٥ - ١٨١٨م ، ج١ ، ص ٢٠٤ ، ط ٤ ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، دار الكتاب الجامعى ، القاهرة .
- ؛ عثمان بن بشر : المصدر السابق ، ج١ ، ١٦٨ .
- (٣) مقبل عبد العزيز الذكير : المصدر السابق ، ص ٣٥ .
- ؛ د. عبد الكريم الغرايبة : قيام الدولة السعودية العربية ، ص ٧٦ ، منشورات معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٤م .
- (4) Hatt-i, Humayun, No. 3855 - A - Tarihi, 12.10.1207.
- (5) Hatt-i, Humayun, No. 3855 - F - Tarihi, 3.10.1207.
- (٦) مخطوطة : " رسالة فى تراجم آل سعود " ، مركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى ، جامعة أم القرى ، رقم المخطوطة ١٣٦٨ تاريخ .
- ؛ السيد أحمد بن زينى دحلان : الفتوحات الإسلامية بعد مضى الفتوحات النبوية ، ج٢ ، ص ٢٣٤ ، ط ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م ، مؤسسة الحلبي وشركاه ، القاهرة .

- (٧) حسين بن غنام : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٩٥
- ؛ عثمان بن بشر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢١٨ - ٢١٩
- (٨) رسول الكركوكلى : المصدر السابق ، ص ٢٠٤
- ؛ مصطفى النحاس حير : آل سعود فى الجزيرة العربية من القبيلة إلى الدولة ، ص ١٧ ، ص ١ ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ، دار الكتاب الجامعى ، القاهرة.
- (٩) د. منير العجلانى : تاريخ البلاد العربية السعودية ، الدولة السعودية الأولى ، جـ ٢ ، عهد الإمام عبد العزيز بن محمد ، ص ١٠٣ ، ط ٢ ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م ، مطابع دار الشبل بالرياض .
- ؛ أمين سعيد : تاريخ الدولة السعودية ، جـ ١ ، ص ٥٩ - ٦٠ ، مطبوعات دار الملك عبد العزيز ، الرياض .
- (١٠) حفر العتاك - وهو المعروف قديمًا بحفر بنى سعد ، انظر : عثمان بن بشر : المصدر السابق ، جـ ١ ، هامش ص ٢٢٦ .
- (١١) حسين بن غنام : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٩٥ - ٢٠٢
- ؛ عثمان بن بشر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٢٥ - ٢٢٨
- ؛ رسول الكركوكلى : المصدر السابق ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥
- ؛ تاريخ جودت : الجزء الثانى ، ص ١٢٤ ، طبعة ١٩٩٣ م ، مطبعة جاويك Cevik - طبع باللغة التركية ذات الأحرف اللاتينية .
- (١٢) د. منير العجلانى : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٠٦ - ١٠٨
- (١٣) د. عبد الله العثيمين : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٥٨ .
- (14) Hatt-i, Humayun, No - 3841. Tarihi, 4.2.1213.
- ؛ عثمان بن بشر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٤٠ - ٢٤١
- ؛ مقبل الذكير : المصدر السابق ، ص ٣٦
- (١٥) عثمان بن بشر ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٤٠
- ؛ فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ، ص ٣٣٨ - ٣٣٩ ، ط ٢ ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م ، مكتبة النصر الحديثة ، الرياض .

(١٦) جوهان لودفيج بوركهارت : مواد لتاريخ الوهابيين، ترجمة د. عبد الله الصالح العثيمين، ص ٨٠ ، ط ١ ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، مطابع شركة العبيكان ، الرياض .

(17) Hatt-i, Humayun, No - 3841 - Tarihi, 4.2.1213.

(١٨) رسول الكركوكلى : المصدر السابق ، ص ٢٠٥ .

(19) Sir, Brydges Harford Jones : Anaccount of his Majesty's mission to the court of Persia in the years 1807 - 1810 to which is appended, Abrief History of the wahhaby, Vol, 2. p.19 "London, 1834".

(٢٠) الكينخيا - أو - الكتخدا - لقب إستعمله العثمانيون .معنى النائب، ويقصد به هنا نائب

الوالى ومساعدته . وعلى باشا - هذا نائب والى بغداد - سليمان باشا الكبير ، وقد

زوجه ابنته واتخذته نائباً له . انظر : سول الكركوكلى : المصدر السابق ، ص ٢١٧-٢١٨

؛ د. منير العجلانى : المرجع السابق ، ج ٢ ، هامش ٢ ، ص ١١٠

(٢١) عثمان بن بشر : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٥١ - ٢٥٢

؛ مخطوطة رسالة فى تراجم آل سعود : ص ٢ ، مركز البحث العلمى وإحياء التراث

الإسلامى جامعة أم القرى ، رقم ١٤٦٨ تاريخ .

؛ مقبل الذكير : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٦

؛ عبد المنعم الغلامى : الملك الراشد جلالة المغفور له عبد العزيز آل سعود، ص ١١ ، ط ٢

، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، دار اللواء للنشر ، الرياض .

- كان قائد قصر الميرز والمعروف بقصر - صاهود - هو القائد السعودى سليمان بن محمد

بن ماجد التميمى من بلدة ثادق إحدى بلدان نجد ، وكان عدد الرجال الذين معه داخل

الحصن لا يتجاوز مائة رجل . وقد عيّن الأمير سعود ذلك القائد أميراً على الأحساء بعد

إنهاء هذه الأزمة .

أما قائد قصر الهفوف فهو القائد السعودى إبراهيم بن سليمان بن عفيصان ومعه عدد

ليس بالكثير من أهل الخرج وغيرهم ، لا يتجاوز عددهم المائة رجل وقد سمي القصر ذاك

باسم قائده - قصر إبراهيم .

انظر : ابن بشر : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٥١ - ٢٥٥

؛ مقبل الذكير : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٦ - ٣٧

؛ د. عبد الله الصالح العثيمين : المرجع السابق ، ص ١٥٩

(٢٢) الشباك : أصبح اليوم هجرة - قرية - كبيرة تسكنها بعض قبائل آل مرة .  
؛ ثاج : أصبح هو الآخر هجرة - قرية كبيرة تسكنها بعض قبائل العوازم ، وقد ورد  
ذكر ثاج في شعر ذو الرمة ، حين قال :

نحاهما ثاج نحوه ثم إنه توخى بها العينين عين متالع

(٢٣) رسول الكركوكلى : المصدر السابق ، ص ٢٠٨

(٢٤) مخطوطة : رسالة في تراجم آل سعود ، ص ٢ ، مركز البحث العلمى وإحياء التراث  
الإسلامى ، رقم ١٤٦٨ تاريخ .

؛ رسول الكركوكلى : المصدر السابق ، ص ٢١٣

؛ د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : المرجع السابق ، ص ٢١٦

؛ د. عبد الفتاح حسن أبو عليه : المرجع السابق ، ص ٥٤

؛ أمين سعيد : المرجع السابق ، ص ٦٢

؛ أحمد عبد الغفور عطار : المرجع السابق ، ص ٦٧

(٢٥) سورة البقرة ، آية ١٩٤

(٢٦) عثمان بن بشر : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

؛ د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : المرجع السابق ، ص ٢١٧ .

؛ لوثرروب ستودارد : حاضره العالم الإسلامى ، ترجمة عجاج نويهض ، تقديم وتعليق

الأمير شكيب أرسلان ، المجلد الثانى ، ج ٢ ، ص ١٦٢ - ١٦٢ ، ط ٤ ، ١٣٩٤ هـ -

١٩٧٣ م ، منشورات دار فكر .

؛ د. عبد الله الصالح العثيمين ، المرجع السابق ، ص ١٦١ .

(٢٧) رسول الكركوكلى : المصدر السابق ، ص ٢١٧ - ٢١٨ .

(28) Hatt-i, Humayun, No. 3765. Tarihi.10.11.1216.

(٢٩) عثمان بن بشر : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٨

؛ رسول الكركوكلى : المصدر السابق ، ص ٢١٩ - ٢٢٣

(٣٠) اختلفت الروايات حول شخصية هذا الرجل ، فبعضها يؤكد أنه كردى من بلدة

العمادية بلد الأكراد المعروف شمالى الموصل فى العراق ، والبعض الآخر يقول أنه شيعى

من كربلاء أو النحف قدم للانتقام من الإمام عبد العزيز الذى غزا البلدتين سنة ١٢١٦ هـ



بينما تؤكد رواية ثالثة أن اسمه عبد القادر وأنه أرسل من ملك العجم ، وأنه فارسي الأصل . وتشير هذه الرواية إلى أنه قد وُجدَ في عمامة هذا الرجل عند قتله ورقة مكتوبة باللغة الفارسية تدعوه إلى قتل عبد العزيز بن محمد بن سعود ، وهناك رواية رابعة أوردها مؤلف لمع الشهاب تؤكد أن والي بغداد علي باشا قد أعلن أمام جلسائه عن جائزة كبيرة لمن يقوم باغتيال الإمام عبد العزيز في الدرعية ، وفي اليوم التالي جاءه هذا الرجل واسمه علي واتفق معه على إنجاز المهمة ووهب ولأسرته كثير من المال . انظر في ذلك عثمان

بن بشر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٦٤ - ٢٦٦

؛ مقبل الذكر : لمصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٣٨

؛ جوهان لودفيج بوركهارت : مواد لتاريخ الوهابيين ، ص ٩٦

؛ د. منير العجلاني : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٠٥ - ٢٠٩

؛ د. عبد الله الصالح العثيمين ، المرجع السابق ، ص ١٦٢

؛ لوثرروب ستودارد : المرجع السابق ، المجلد ٢ ، جـ ٤ ، ص ١٦٣ - ١٦٤

(31) Hatt-i, Humayun, No.3381. Tarihi. 1218.

(32) Hatt-i, Humayun, No.3381 - B.

(33) Hatt-i, Humayun, No.3381 - S - Tarihi. 26 - 8 - 1218.

(٣٤) سورة الحج ، الآية ٤٠

(٣٥) عثمان بن عبد الله بن بشر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٧٩ - ٢٨١

؛ لوثرروب ستودارد : المرجع السابق ، المجلد ٢ ، جـ ٤ ، ص ١٦٤

(٣٦) رسول الكركوكلى : المصدر السابق ، ص ٢٢٦ - ٢٤٣

؛ د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : المرجع السابق ، ص ٢٢١ - ٢٢٢

؛ مخطوطة : رسالة في تراجم آل سعود ، ص ٤ مركز البحث العلمى وإحياء التراث

الإسلامى ، جامعة أم القرى ، مكة رقم ١٤٦٨ تاريخ .

(٣٧) د. عبد الله الصالح العثيمين : المرجع السابق ، ص ١٦٣

؛ عبد المنعم الغلامى : المرجع السابق ، ص ١٣ - ١٤

(٣٨) دومة الجندل - أو الجوف - جوف آل عمرو - وهى التى ذكرها حسان بن ثابت

بقوله :

ولقد يرانى موعدى كائننى بأرض دومة أو سواء الهيكل  
واسم الجوف اليوم يطلق على ثلاث قرى فى شمال المملكة العربية السعودية هى - دومة  
الجتندل وسكاكا والقارة .

(٣٩) عثمان بن بشر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ ، ص ٢٤٠ .

(٤٠) عثمان بن عبد الله بن بشر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٦٩ .

(٤١) فرمان كلمة فارسية الأصل ، معناها الأمر ، كانت تستعمل فى الدولة العثمانية للأوامر  
السلطانية أو يسمى اليوم بالمراسيم الملكية . انظر : محمد فريد بك : تاريخ الدولة  
العلية العثمانية ، هامش ١ ، ص ١٩ ، تحقيق إحسان حقى ، ط ٢ ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ،  
دار النفائس ، بيروت .

(42) Hatt-i, Humayun, No. 3854 - S. Tarihi. 30 - 2 - 1218.

(43) Hatt-i, Humayun, No. 3854 - B. Tarihi. 17 - 3 - 1218.

(\*) بنو صخر بطن من جذام من القبائل القحطانية النازلة فى شمال الجزيرة العربية على  
أطراف الشام الجنوبية .

(44) Hatt-i, Humayun, No. 3854 - D. Tarihi. 17 - 3 - 1218.

(45) Hatt-i, Humayun, No. 3784 - Tarihi. 9 - 12 - 1218.

(٤٦) د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : المرجع السابق ، ص ٢٢٧ .

؛ بنو ميشان : عبد العزيز آل سعود - سيرة بطل ومولد مملكة - نقله إلى العربية ، عبد  
الفتاح ياسين ، ص ٣٢ ، ط ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م ، دار الكاتب العربى ، بيروت .

؛ يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، جـ ١ ، ص ٦٥٢ - ٦٥٣ ، الطبعة الأولى ،  
١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، مؤسسة فيصل للتمويل - تركيا - استانبول .

(47) Hatt-i, Humayun, No. 4027.

, Hatt-i, Humayun, No. 4027 - A. Tarihi. 7 - 3 - 1219.

, Hatt-i, Humayun, No. 4030.

, Hatt-i, Humayun, No. 4030 - D. Tarihi. 5 - 2 - 1220.

, Hatt-i, Humayun, No. 4034 - Tarihi. 19 - 3 - 1220.

, Hatt-i, Humayun, No. 4039 - Tarihi. 1220.

(48) Hatt-i, Humayun, No. 3840 - Tarihi. 1220.

(49) Hatt-i, Humayun, No. 3848 - Tarihi. 17 - 7 - 1220.

(٥٠) محير الدين الزركلى : شبه الجزيرة فى عهد الملك عبد العزيز ، جـ ١ ، ص ٣٨ ، ط ٢ ،

١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م ، دار العلم للملايين ، بيروت .

(٥١) عبد الرحمن الجبرتي : تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، ج-٣ ، ص ١٨٩ ،  
دار الجيل ، بيروت ، ب - ت - ن .

؛ د. عبد الفتاح حسن أبو عليه : المرجع السابق ، ص ١٤  
؛ مخطوطة : رسالة فى تراجم آل سعود ... سبق ذكرها ، ص ٤  
(٥٢) عثمان بن بشر : المصدر السابق ، ج-١ ، ص ٢٩١ - ٢٩٢  
؛ مقبل الذكير : المصدر السابق ، ص ٤٢

؛ د. عبد الله الصالح العثيمين : المرجع السابق ، ص ١٦٤  
(٥٣) عثمان بن بشر : المصدر السابق ، ج-١ ، ص ٢٩٣  
؛ ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٥٢ ، ط ١٩٥٧م ، معهد  
الدارسات العربية العليا ، جامعة الدول العربية ، القاهرة .  
(٥٤) د. منير العجلاني : المرجع السابق ، ج-٣ ، ص ٢١٠ - ٢١٧ - نقلاً عن نص الرسالة  
فى تاريخ جودت باللغة التركية .

(٥٥) محفظة (١) بحبراً وثيقة رقم ٨ بتاريخ ١٩ صفر ١٢٢٣هـ ، دار الوثائق القومية بالقاهرة .  
؛ محفظة (١) بحبراً وثيقة رقم ٨ مكرر وتاريخ ١٩ صفر ١٢٢٣ ، دار الوثائق القومية  
بالقاهرة .

؛ الوثيقة رقم ٢١ بتاريخ ١٩ ذى الحجة سنة ١٢٢٤هـ .  
انظر : د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : من الوثائق الدولة السعودية الأولى فى  
عصر محمد على ١٢٢٢ - ١٢٣٤هـ / ١٨٠٧ - ١٨١٩م ، ج-٢ ، ص ٥٤ - ٦٦ ،  
ص ٨٢ - ٩١ ، ط ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ ، الناشر دار الكتاب الجامعى ، القاهرة .

(٥٦) جوهان لودفيج بوركهارت : المرجع السابق ، ص ١٠٣ .  
؛ لوثرروب ستودارد : المرجع السابق ، المجلد ٢ ، ج-٤ ، ص ١٦٤ .  
(٥٧) المزيريب : قرية من قرى سوريا وهى لا تزال تحمل اسمها إلى اليوم ، وتقع على طريق  
الحاج بين دمشق ومكة المكرمة .

(٥٨) كورة واسعة فى جنوب دمشق ذات قرى كثيرة ومزارع ، وعاصمتها بلدة درعا، يقول  
امرؤ القيس عن حوران :

فلما بدت حوران والآل دونها      نظرت فلم تنظر بعينيك منظرًا

انظر : ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٣١٧ ، ط ٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ، دار  
صادر للطباعة والنشر ، بيروت .

(٥٩) بُصرى : من أعمال دمشق الشام ، وهى قصبة كورة حوران ، نزها خالده بن الوليد سنة  
١٣ هـ . يقول النابغة الذبياني :

سقى الغيث قبرًا بين بصرى وحاسم      بغيث من الوسمى قطر ووابل

انظر فى ذلك : ياقوت الحموى : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٤١

(٦٠) عثمان بن بشر : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٠٨ - ٣١١

؛ د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبدالرحيم: الدولة السعودية الأولى ... ص ٢٢٨-٢٣٠

؛ د. عبد الفتاح حسن أبو علىة : المرجع السابق ، ص ٦٤ - ٦٥

(٦١) محافظ الذوات - محفظة رقم ١ - وثيقة رقم ١/٢٦٤ فى ١٢٨/٦/١٢٢٥ هـ - دار  
الوثائق القومية بالقاهرة .

(٦٢) د. منير العجلانى : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢١٨ - ٢٢١

## مصادر ومراجع البحث

### أولاً : المصادر :

#### ( أ ) العربية :

- (١) القرآن الكريم .
- (٢) أبو محمد عبد الملك بن هشام : السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، ط ٢ ، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م ، منشورات مصطفى البابي الحلبي - مصر .
- (٣) السيد أحمد بن زيني دحلان : الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ، ط ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م ، الحلبي وشركاه ، القاهرة .
- (٤) حسين بن غنّام : تاريخ نجد - المسمى روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوى الإسلام ، تحقيق ناصر الدين الأسد ، ط ٣ ، ١٤٠٣هـ ، الرياض .
- (٥) عبد الرحمن الجبرتي : تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، دار الجيل - بيروت ؛ ب - ت - ن .
- (٦) عثمان بن عبد الله بن بشر : عنوان المجد فى تاريخ نجد ، تحقيق عبد الرحمن ابن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ ؛ ط ٤ ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، دار الملك عبد العزيز ، الرياض .
- (٧) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ط ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت .

#### (ب) المصادر غير العربية :

- (١) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، ط ١٩٩٣م ؛ ١٩٩٤م - مطبعة جاويك Cevik - تركيا - وهو مطبوع باللغة التركية ذات الأحرف اللاتينية .
- (٢) جوهان لودفيج بوركهات : مواد لتاريخ الوهابيين ، ترجمة د. عبد الله الصالح العثيمين ، ط ١ ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، مطابع شركة العبيكان ، الرياض .

(٣) رسول الكركوكلى : دوحة الوزراء فى تاريخ وقائع بغداد الزوراء ، ترجمة موسى كاظم نورس؛ دار الكاتب العربى ، بيروت - مكتبة النهضة ، بغداد، ط ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م .

### (ج) المخطوطات :

(١) مقبل عبد العزيز الذكير : مخطوطة فى ٣ أجزاء - مركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى، جامعة أم القرى - مكة - رقم المخطوط ١٧٤ تاريخ.  
(٢) مخطوط : رسالة فى تراجم آل سعود - لمؤلف مجهول - مركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى ، جامعة أم القرى - مكة - رقم المخطوط ٢٤٦٨ تاريخ .

### ثانيًا : الوثائق :

( أ ) وثائق عثمانية من أرشيف رئاسة مجلس الوزراء إستانبول - تركيا :

- (1) Hatt-i, Humayun, No. 3381. Tarihi, 1218.
- (2) Hatt-i, Humayun, No. 3381 - B.
- (3) Hatt-i, Humayun, No. 3381 - S. Tarihi. 26 - 8 - 1218.
- (4) Hatt-i, Humayun, No. 3765. Tarihi. 10 - 11 - 1216.
- (5) Hatt-i, Humayun, No. 3784 - Tarihi. 9 - 12 - 1218.
- (6) Hatt-i, Humayun, No. 3840 - Tarihi. 1220.
- (7) Hatt-i, Humayun, No. 3841 - Tarihi. 4 - 2 - 1213.
- (8) Hatt-i, Humayun, No. 3848 - Tarihi. 17 - 7 - 1220.
- (9) Hatt-i, Humayun, No. 3854 - B. Tarihi. 17 - 3 - 1218 .
- (10) Hatt-i, Humayun, No. 3854 - D. Tarihi. 17 - 3 - 1218.
- (11) Hatt-i, Humayun, No. 3854 - S. Tarihi. 30 - 2 - 1218.
- (12) Hatt-i, Humayun, No. 3855 - A. Tarihi. 12 - 10 - 1207.
- (13) Hatt-i, Humayun, No. 3855 - F. Tarihi. 3 - 10 - 1207.
- (14) Hatt-i, Humayun, No. 4027.
- (15) Hatt-i, Humayun, No. 4027 - A. Tarihi. 7 - 3 - 1219.
- (16) Hatt-i, Humayun, No. 4030.
- (17) Hatt-i, Humayun, No. 4030 - D. Tarihi. 5 - 2 - 1220.
- (18) Hatt-i, Humayun, No. 4034 - Tarihi. 19 - 3 - 1220.
- (19) Hatt-i, Humayun, No. 4039 - Tarihi. 1220.

### (ب) وثائق من دار الوثائق القومية بالقاهرة :

(١) محافظ الذوات - محفظة رقم (١) وثيقة ١/٢٦٤ فى ١٢٢٥/٦/٢٨هـ.



- (٢) محفظة (١) بحبراً وثيقة رقم ٨ وتريخ ١٩ صفر ١٢٢٢هـ .
- (٣) محفظة (١) بحبراً وثيقة رقم ٨ مكرر وتريخ ١٩ صفر سنة ١٢٢٣هـ .
- (٤) وثيقة رقم ٢١ وتاريخ ١٩ ذى الحجة سنة ١٢٢٤هـ .
- الوثائق من رقم ٢ إلى رقم ٤ نشرها الأستاذ الدكتور / عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : فى كتابه : من وثائق الدولة السعودية الأولى فى عصر محمد على ١٢٢٢ - ١٢٣٤هـ / ١٨٠٧ - ١٨١٩م ، ج٢ ، فى صفحات ٥٤ - ٦٦ ؛ ص ٨٢ - ٩١ ، ط ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م - الناشر دار الكتاب الجامعى - القاهرة .
- وقد إطلع عليها الباحث فى دار الوثائق القومية بالقاهرة - فى الهيئة المصرية العامة للكتاب يوم السبت ١٤ جمادى الآخر ١٤١٧هـ الموافق ٢٦ أكتوبر ١٩٩٦م ... وللأمانة العلمية فقد اعتمد عليها فى كتاب د. عبد الرحيم ، لأنه أدق فى الترجمة .
- ثالثاً : المراجع العربية :**
- (١) أحمد عبد الغفور عطار : صقر الجزيرة ، ج١ ، شركة استاندرد للطباعة العربية ، مصر ، ١٣٦٤هـ .
- (٢) أمين سعيد : تاريخ الدولة السعودية ، ج١ ، مطبوعات دار الملك عبد العزيز ، الرياض .
- (٣) خير الدين الزركلى : شبه الجزيرة فى عهد الملك عبد العزيز ، ط ٢ ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م ، دار العلم للملايين ، بيروت .
- (٤) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ط ١٩٥٧م ، معهد الدراسات العربية العالية ، جامعة الدول العربية ، القاهرة .
- (٥) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : الدولة السعودية الأولى ١١٥٨ - ١٢٣٣هـ / ١٧٤٥ - ١٨١٨م ، ط ٤ ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، دار الكتاب الجامعى ، القاهرة .

(٦) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : من وثائق الدولة السعودية الأولى فى عصر محمد على ١٢٢٢ - ١٢٣٤هـ / ١٨٠٧ - ١٨١٩م ، ط ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، دار الكتاب الجامعى ، القاهرة .

(٧) عبد الفتاح حسن أبو عليّة : محاضرات فى تاريخ الدولة السعودية الأولى ١١٥٧ - ١٢٣٣هـ / ١٧٤٤ - ١٨١٨م ، ط ٢ ، ١٤١١هـ / ١٩١١م ، دار المريخ للنشر ، الرياض .

(٨) عبد الكريم الغرايبة : قيام الدولة السعودية العربية ، منشورات معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٤م .

(٩) عبد الله الصّاح العثيمين : تاريخ المملكة العربية السعودية ، ج ١ ، ط ٦ ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م ، دار العبيكان للنشر ، الرياض .

(١٠) عبد المنعم الغلامى : الملك الراشد جلالة المغفور له عبد العزيز آل سعود ، ط ٢ ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ، دار اللواء للنشر ، الرياض .

(١١) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ، ط ٢ ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م ، مكتبة النصر الحديثة ، الرياض .

(١٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق إحسان حقى ، ط ٢ ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، دار النفائس ، بيروت .

(١٣) مصطفى النحاس جبر : آل سعود فى الجزيرة العربية من القبيلة إلى الدولة ، ط ١ ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، دار الكتاب الجامعى ، القاهرة .

(١٤) منير العجلانى : تاريخ البلاد العربية السعودية - الدولة السعودية الأولى ، ط ٢ ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م ، مطابع دار الشبل بالرياض .

(١٥) مهدى رزق الله أحمد : السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية - دراسة تحليلية ، ط ١ ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض .

#### رابعاً : المراجع المترجمة إلى العربية :

(١) بنوا میشان : عبد العزيز آل سعود - سيرة بطل ومولد مملكة - نقله إلى العربية - عبد الفتاح ياسين ، ط ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م ، دار الكاتب العربى ، بيروت .

(٢) لوثرروب ستودارد : حاضـر العالم الإسلامى ، ترجمة عجاج نويهض ، تقديم وتعليق المير شكيـب أرسلان ، ط ٤ ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٣ ، منشورات دار الفكر .

(٣) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ط ١ ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ، مؤسسة فيصل للتمويل ، إستانبول - تركيا .

#### خامساً : المراجع غير العربية :

(1) Sir, Brydges Harford Jones : Anaccount of his Majesty's mission to the court of Persia in the years 1807 - 1810 to which is appended, Abrief History of the wahhaby, Vol, 2.p.19 "London, 1834" .



# سياسة حكام مصر تجاه تجارة الرقيق

( ١٢٣٥ - ١٢٩٤ هـ / ١٨٢٠ - ١٨٧٩ م )

## د . عمر سالم عمر بابكور \*

ما أن استولى محمد على على حكم مصر سنة ١٢٢٠ هـ / ١٨٠٥ م ، إلا وفكر في تأسيس دولة قوية ذات عز ومنعة (١) فخطط المشاريع للنهوض بها في مختلف المجالات الزراعية والصناعية والعلمية والعمرانية . ولم تنته طموحات محمد على بتأسيس دولة قوية في مصر ، بل لعله أمل في توسيع رقعة بلاده (٢) .

يذكر الجبرتي أن الآراء اختلفت حول فتح محمد على للسودان ، فيقول : " ... وكان الناس قد تقولوا على ذهابه إلى قبلى أقاويل منها أنه يريد التجريد على بواقي المصريين المنقطعين بدنقلا ، فأنهم استحفل أمرهم واستكثروا من شراء العبيد وصنع البارود والمدافع وغير ذلك ، ومنها أنه يريد التجريد أيضا وأخذ بلاد دار فور والنوبة ويمهد الطريق للوصول إليها " . ومنها أنهم قالوا إنه ظهر بتلك البلاد معدن الذهب والفضة والرصاص والزمرد . على أن ذهابه لجلب الرقيق يكاد يكون إجماع من كتبوا عن غزو محمد على للسودان والذي بدء في سنة ١٢٣٥ هـ / ١٨٢٠ م ، بمعنى أن جلب الرقيق كان الهدف الرئيسى لغزو محمد على للسودان، (٣) كما يتضح لنا ذلك - بما لا يدع مجالا للشك - من الوثائق .

وما أن سيطرت الجيوش الفاتحة على إقليمى سنار وكردفان حتى أظهر محمد على اهتماما بالغاً بأمر العبيد ، وحرص على جلب أكبر عدد منهم إلى مصر، حيث أنه بعد نحو شهرين من دخول ابنه إسماعيل سنار بعث محمد على بمكاتبة إلى الكتخدا في مصر يقول " علمنا من مكاتبة نجلنا صاحب السعادة الباشا

---

\* أستاذ مساعد بجامعة أم القرى - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية .

سر عسكر السودان الواردة مع بشكيريجه ، أنه أرسل بصحبة سلحدار سليم أغا نحو ألف وتسعمائة زنجي ، وألفي جمل ، وألف راس من البقر . وحيث أنه من اللازم فرز الذين يصلحون لمصالحنا من ذكور الزوج المذكورين مهما كانوا وإبقاؤهم في إسنا . وإذا كان سعادة أخينا محمد بك لم يسافر فتبلغوه صورة إرادتنا وأن تحيلوا على عهده فرز من يصلح لمصلحتنا من هؤلاء السود الأقوياء منهم - مهما كان عددهم - وإبقاؤهم في البندر المذكور . وإن إرادتنا تقضى بأنه إن كان يوجد لدينا أشغال يمكن معها استخدام الباقين من قبيل النسوة والصبيان فيستخدمون فيها . وإن لم يوجد فيباعون(٤) " .

وهكذا كان الحصول على الرقيق هدفاً من أهداف محمد على الأولية في فتح السودان ، نظراً لاحتياجه إلى أعداد كبيرة منهم لتجنيدهم في الجيش ، بالإضافة إلى استخدامهم في أعمال الزراعة والصناعة وغير ذلك من الشئون ، وذلك دون أن يحمل الخزينة المصرية أعباء شرائهم فضلاً عن رغبته في إحياء تجارة الرقيق نظراً لما تدره من أرباح(٥) .

وتلقى مكاتبات محمد على لأبنائه وقواده في السودان الضوء على مستقبل الرقيق والنخاسة في ظل النظم الجديدة ، لذا يحسن أنه أعرض بعض مقتطفات من هذه المكاتبات التي توضح حرص محمد على في الحصول على أكبر عدد ممكن من الرقيق(٦) من ذلك أن محمد على يذكر في رسالته إلى متصرف جرجا " بديهي أنني قد أرسلنا العساكر الجزارية في معية أولادنا وما زلنا نرسلهم بغية أن يجلب إلينا من ولايات السودان رجال سود نستخدمهم في أعمال الحجاز وما يماثلها من الخدمات " (٧) وفي رسالته إلى ابنه إسماعيل " إن المقصود الأصلي من هذه التكاليفات الكثيرة والمتاعب الشاقة ليس جمع المال كما كتبنا إليكم ذلك مرة بعد أخرى ، بل الحصول على عدد كبير من العبيد الذين يصلحون لأعمالنا ويجدرون بقضاء مصالحنا " (٨) كذلك يذكر في رسالة ثالثة " إن الغرض من انتدابكم إلى



تلك الديار باختيار هذه المتاعب الشديدة ومن تعزيز كم بسواد عظم من الجنود والمهمات واللوازم العديدة ، هو عبارة عن الحصول على العبيد اللازم إنتقاؤهم وفق المطلوب وإيصالهم إلى ثكنات أسوان غير معرضين للضياع والتلف . وليس فى نيتنا ولا فى نظرنا غاية أعز من هذا الأمل كما هو ظاهر ، وإن قيمة العبيد الصالحين للعمل عندنا بمثابة قيمة الجواهر نظراً لمتقضى الوقت والحال بل هو أعز من تلك وأجل كما هو بديهي وأظهر " (٩) .

وهكذا انطلقت حملات صيد الرقيق منذ بداية الفتح ، وقام بالإشراف عليها ولداه إسماعيل وإبراهيم (١٠٩) وبقية قواد الجيش ، لتوفير الأعداد التى يلح فى طلبها الباشا. ثم أخذت هذه الحملات صفة رسمية أعيد تنظيمها (١١) بحيث تحقق أكبر صيد من الرقيق ، وأصبح من واجبات الحكومة كل عام أن ترسل الحملات العسكرية فى شهرى سبتمبر وأكتوبر إلى المناطق النائية من السودان للحصول على الرقيق (١٢) .

لقد أكد محمد على أن إرسال الجنود إلى قواده بالسودان مرتبط ارتباطاً وثيق بما يرسلونه من العبيد ، ففى رسالة وجهها إلى ابنه إبراهيم باشا " ... فترسلوا أنتم من هنا لكم ثلاثة آلاف أسود متماسك الأعضاء صالح لعملنا وخدمتنا ، نرسل لكم من هنا ألف جندى فى مقابلهم !! " (١٣) .

كذلك قال فى رسالة أخرى للدفت دار : " من البديهي أن الظروف تحتم وجود المشاة والفرسان على الوجه المرفوع . فإن كنتم ترسلون لنا ألف واحد من العبيد الموجودين لديكم فإننا نلحقهم بالمدرين ونرسل لكم أربعمئة عسكرى من العساكر الذين تريدونهم بدلاً منهم ، وأن أرسلتم لنا ألفى عبد فإننا نرسل لكم ثمانمئة . وقد كتبنا لكم هذا من باب التذكار " (١٤) .

وكانت هذه الحملات تخرج سنوياً من مدن الأبيض والخرطوم وسنار إلى ثلاث مناطق رئيسية هى جبال النوبة - جنوبى كردفان ، وأوطان الشلك على

ضفاف النيل الأبيض ، وجبال الفونج (١٥) . ويرى محمد فؤاد شكرى أن انتشار تجارة الرقيق فى السودان قبل الفتح المصرى أدى إلى انتشار الفوضى فى ربوعه (١٦) ، ولكن يبدو أن هذه التجارة كانت معروفة آنذاك فى حدود ضيقة ومشروعة ، لها نظمها وقوانينها فهى لم تكن سبباً لاضطراب الأمن بل أن السبب الرئيسى لذلك هو تلك الغزوات المسلحة التى أرسلها محمد على لاصطياد الرقيق (١٧) .

واستمر المسئولون تحت حكم محمد على باشا يواصلون جهودهم لإرسال الرقيق ، فأرسل إسماعيل فى أواخر سنة ١٢٣٧هـ / ١٨٢٢م تسعمائة من الرقيق أصحاب أشداء على حساب الفرد (١٨) . وبعد مقتل إسماعيل (١٩) واصل الدفتر دار تلك المجهودات حتى بلغ مجموع الرقيق الذين أرسلهم إلى دنقلا ليرسلوا من هناك إلى مصر منذ جمادى الأولى سنة ١٢٣٩هـ - يناير ١٨٢٤م حتى شوال سنة ١٢٣٩هـ - مايو ١٨٢٤م أربعة آلاف من الرقيق (٢٠) .

ويذكر محمد فؤاد شكرى بأن بورنج يقول أنه عندما زار مصطفى بك حاكم كردفان ، وجده فى ساحة الديوان يفرز نحو أربعمائة من الرقيق بغية توزيعهم على الجند بدلاً من مرتباتهم وكانت رتبة الفرد العسكرية تراعى عند التوزيع .

وعندما طلب الدفتر دار من الباشا فى سنة ١٢٣٧هـ " ١٨٢١ - ١٨٢٢م " مده بكمية من الريالات الفرنسية ليدفع مرتبات الجنود ، اعتذر الباشا وأمر الدفتر دار بأن يدفع لهم جزءاً منها فى شكل بفتة القطن المستعمل كعملة فى ذلك الإقليم ، ويسلموا بقيتها فى مصر (٢١) . وهكذا فقد كان من الصعب دفع مرتبات الجند نقدًا لقلة العملات النقدية المتداولة فى السودان .

ولما كان تأخير دفع رواتب الجنود سبباً لكثير من الثورات العسكرية (٢٢) فقد تحتم على حكومة الباشا أن تفكر فى طريقة أخرى لدفعها ، وإلا تعرض أمن

البلاد وسلامتها لأخطار بالغة . ولحل هذا الإشكال وافق محمد على على إعطاء الجنود العبيد والجواري بدلاً من علوفتهم (٢٣) .

ولما زاد أحياناً ثمن العبد الواحد عن استحقاق الجندي ، أعطى كل عدد من الجنود كمية من العبيد اقتسموها فيما بينهم . وبينما ذكر الرحالة ( بالم ) أن الجنود في كردفان أعطوا العبيد بدلاً من رواتبهم بواقع ثلاثمائة قرش للرأس الواحد (٢٤) ، ذكر الحكمدار خورشيد عن الغزوة التي قادها لإخماد ثورة أهالي عطيش في سنة ١٢٤٥هـ / ١٨٢٩ - ١٨٣٠م أنه أعطى بعض الأسرى لجنود الشايقية بواقع خمسة عشر فرانسة لكل عبد (٢٥) وهكذا شاع استعمال هذه الطريقة الجديدة لدفع مرتبات الجنود ، حتى إنها كثيراً ما تأخرت حين عودة الغزوات من مناطق العبيد (٢٦) .

وقد شهد عهد الحكمدار خورشيد اهتماماً ملحوظاً بأمر تنظيم الغزوات وإرسالها لقنص الرقيق . فعندما استلم مقاليد الحكم في سنة ١٢٤١هـ - ١٨٢٦م أرسل غزوة لبلاد الشلك ، كما قاد في نفس السنة حملة صغيرة أخرى سارت بجذاء النيل الأزرق حتى وصلت جهاد ود العباس ، وعادت إلى الخرطوم بعد أن استولى خورشيد على كمية من العبيد باعها نيابة عن الحكومة (٢٧) . وفي سنة ١٢٤٢هـ - ١٨٢٧م قاد خورشيد حملة أخرى إلى بلاد الدنكا على ضفاف النيل الأبيض واستطاع بمساعدة الشيخ سليمان أبي روف ، من شيوخ عربان رفاعه ، الوصول حتى نهر سوبات . وعاد من هناك بعد غياب ثلاثة أشهر ، كانت نتيجتها اعتقال خمسمائة من زنوج الدنكا (٢٨) . وفي سنة ١٨٢٨م قاد خورشيد غزوة أخرى نحو بلاد الإنقسنا لجلب العبيد من هناك (٢٩) كذلك شهد عام ١٨٣٠م حملة أخرى قادها خورشيد إلى بلاد الشلك وعاد من هناك بمئتين من الأسرى . وفيما بين عامي ١٨٣١ - ١٨٣٢م قاد خورشيد أكبر قوة تستعمل في الغزوات حتى ذلك الوقت وهي ستة آلاف جندي ، نحو بلاد التاكة بهدف الحصول على

كميات ضخمة من الماشية والعييد ، إلا أن تلك الحملة تعرضت لخسارة فادحة ، إذ فقدت ألف وخمسمائة من رجالها (٣٠) وفي سنة ١٢٤٧هـ - ١٨٣٢م غزا خورشيد بلاد فازو على غزوة ناجحة جلبت أعداداً كبيرة من الرقيق (٣١) .

كذلك أعد رستم بك حاكم كردفان في عهد الحكمدار خورشيد بعض الغزوات لصيد العبيد ، ففي الخامس من شهر شعبان سنة ١٢٤٥هـ - ٣٠ يناير ١٨٣٠م قاد حملة لغزو الزنوج في جبالهم بالقرب من كردفان ، وبعد قتال عنيف بين الجانبين استمر لمدة أيام استطاع رستم بك الانتصار على الأهالي فغنم أموالهم وأملاكهم وأسر منهم ألف وأربعمائة أسير ، اختار منهم ألفاً من صغار السن المقتدرين وأرسلهم مع مصطفى أغا بيكباشي الأورطة السادسة إلى المحروسة (٣٢) . وقاد رستم رستم أيضاً في سنة ١٢٤٨هـ - ١٨٣٢ - ١٨٣٣م حملة أخرى إلى جبال الزنوج فنكث بهم وأسر منهم ألف وخمسمائة عبد (٣٣) .

وتعتبر الحكومة مسؤولة إلى أقصى حد عن ازدهار هذه التجارة بسبب السياسة الاقتصادية التي اتبعتها في هذا الجزء من قارة أفريقية ، فقد احتكر محمد علي باشا التجارة في السودان ، وامتد هذا الاحتكار فشمّل كل المحاصيل بحيث أصبحت الحكومة هي المشترية للصبغ والعاج وجلود الحيوان (٣٤) . وزيادة على ذلك فقد وضعت القيود وفرضت الضرائب الباهظة التي تكفل تنفيذ هذا الاحتكار بكل صرامة ، الأمر الذي أدى بالتجار إلى العمل فيه ، فكانت المتاجرة في الرقيق أكثر أنواع التجارة ربحاً وخاصة بعد أن كثرت أعداده التي كانت تجلبها حملات الحكومة كل عام ، مما مكن من شرائه بأثمان رخيصة (٣٥) . وقد ساعد الجلاية في المتاجرة بهذه السلع ما أتاحته لها ضريبة الماشية التي كانت تجمعها السلطات من البدو الذين كانوا يدفعون ضريبتهم عيناً ، وكان جزء منها يرسل إلى مصر والباقي تتخلص منه الحكومة ببيعة للتجار . وكان هؤلاء يقبلون على شرائها ثم يقومون ببيعها لأصحابها الأصليين الذين يظهرون فرحتهم باستعادة ماشيتهم . ولكي

يستردوها كان عليهم تلبية طلبات الجلالة من الرقيق ، فكانوا لذلك ينظمون الحملات لاصطياد الزوج التعساء(٣٦) . وكان يهتم الحكومة استمرار هذه التجارة نظراً للعوائد والرسوم التي فرضت على القوافل ، والتي أصبحت تمثل دخلاً أساسياً لها . من ذلك أن دخل حكومة الخرطوم منها بلغ اثني عشر ألفاً من الجنيهات . وقد أنشئت كذلك مكاتب تحصيل هذه العوائد في الخرطوم وأسيوط والقاهرة ، وفي كل من هذه الأماكن كان على الجلالة أن يدفعوا الرسوم على رقيقهم ، ففي كردفان كانت تتراوح ما بين عشرين وثمانين قرشاً وفي دنقلة خمسة عشر قرشاً(٣٧) ، وفي أسوان كانت أربعة وثلاثين قرشاً ونصف ، وفي القاهرة تفرض عليهم ضريبة تبلغ أحد عشر قرشاً ، أى أن متوسط الضريبة المفروضة على العبد كان مائة وخمسة قرشاً(٣٨) ولم تكن هذه الرسوم وحدها هي التي تمثل دخل الحكومة إذ أن الحكومة كانت لها تجارتيها التي تشرف عليها عن طريق بيع الفائض من الرقيق ، فكانت هناك ضريبة تقضى بدفعها عدداً من الرقيق الأقوياء(٣٩) وبذلك انتعشت تجارة الرقيق وازدهرت أسواقه القديمة في بربر - الأبيض - الخرطوم - ودنقلة(٤٠) .

وللهيمنة على مصادر الرقيق في السودان ، كان لابد لمحمد علي من أن يتخذ إجراءات حاسمة لمنع تصدير الرقيق السوداني إلى الخارج . فمنذ بداية عهده في السودان أصدر أوامره الحازمة المشددة إلى حاكم دنقلا لمنع تجار الرقيق من تصدير الرقيق السوداني إلى مصر ، إما بحجزهم في دنقلا أو بردهم من حيث أتوا(٤١) على أن هذه السياسة لم تأت بالفائدة المرجوة ، إذ تسلل عدد كبير من أولئك النحاسين إلى مصر ، مما اضطر الباشا إلى إصدار توجيهاته بشراء العبيد الذكور منهم ، الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشر والعشرين على أن يسمح لهم بالتوجه مع باقي رقيقهم إلى مصر(٤٢) .



وقد كلف محمد على المسئولين فى السودان بجلب أكبر عدد من الرقيق الذين يصلحون للتجنيد فى الجيش . ومن ثم فقد اهتمت الحكومة بإعداد الغزوات التى درج حكمدار وموظفو الباشا على إرسالها لصيد الزوج السودانين ، وتجهيزها تجهيزاً تاماً . وقد ذكر الرحالة Pallme أن الحملة المجهزة الواحدة كانت تتكون عادة من ألف إلى ألفين من القوات المنظمة ، ومن أربعمئة إلى ثمانمئة من المسلحين بالبنادق والمسدسات ، مع ثلاثمئة إلى ألف من الأهالى المشاة المزودين بالسهم والدروع، وثلاثمئة إلى خمسمئة آخرين مسلحين وراكبين على ظهور دوابهم(٤٣).

هذا وقد أمر محمد على بتوفير كل متطلبات المعيشة الطبية والراحة لهم لأنه كان مسؤولاً عنهم ، مثلهم فى ذلك مثل المصريين وبقية الشعوب الأخرى التى يحكمها(٤٤) ورغم كل الإمكانيات التى وضعها محمد على لإنجاح تجربة تجنيد الرقيق فى الجيش ، ورغم كل الجهود التى بذلها المسئولون لتحقيق رغبته ، فإن التجربة سرعان ما باءت بالفشل ، ربما لأن العدد الذى وصل من الرقيق الصالح للجندي كان غير كاف لتكوين الجيش ، أو ربما بسبب تغير البيئة والمناخ وإصابتهم بالأمراض ، التى لم تفلح معها العقاقير وقتذاك ، الأمر الذى ترتب عليه موت كثيرين منهم ، مما أزعج محمد على وخيب أمله فى إمكان الاعتماد على الرقيق فى تكوين جيش نظامى(٤٥). لذلك اتجه محمد على إلى تجنيد أبناء الفلاحين المصريين، رغم حاجته الشديدة إليهم فى فلاحه الأرض ومواجهة التوسع فى الزراعات الجديدة . ولكن من ناحية أخرى كان تكوين الجيش فى ذلك الوقت ، من الأهمية بمكان ، من حيث الاعتماد عليه فى بناء الدولة المصرية ذاتها ، ومن حيث درء الأخطار التى كانت تحيق بالدولة العثمانية ، والتى كانت تتمثل فى الحركات الثورية فى الولايات التابعة لها .

وعندما لجأ محمد على إلى تجنيد المصريين ، أصبحوا عصبه الجيش النظامى(٤٦) الحديث الذى وصل عدده فى سنة ١٨٢٤م إلى أربعة وعشرين ألفاً من الجنود(٤٧) فى رأى ، وفى رأى آخر حوالى عشرين ألفاً(٤٨) .



وصار هذا الجيش من أحسن الجيوش النظامية فى الشرق الأوسط . وقد ظل هذا الجيش المصرى ينتظم بين صفوفه فرقاً من العبيد وإن كان المصريون يشكلون العنصر الأساسى فى الجيش النظامى . أما الرقيق الذين كانت لا تتوافر فيهم شروط الخدمة العسكرية فكانوا يعملون فى مجالات أخرى كالزراعة والصناعة والخدمة فى الدواوين الحكومية(٤٩) .

ولم يتشدد محمد على مع حكام السودان ، بخصوص إرسال الرقيق من الذكور الأقوياء الذين يتجاوزون الخامسة عشر إلى العشرين سنة من العمر لتجنيدهم فى الجيش ، حيث صار لا يمانع فى جلب الرقيق - ذكوراً وإناثاً، للاستفادة منهم بقدر الإمكان فى المصانع الحديثة التى أنشأها فى البلاد(٥٠) .

وقد عمل محمد على على تهيئة الجو الصالح للمجندين الجدد من الرقيق ، وتوفير كافة احتياجاتهم حتى يعملوا بكل إخلاص وتفان . ولترغيبهم فى حياتهم الجديدة كان عليه أن يعمل على استقرارهم وإسكانهم ، ببناء الشكنات اللازمة لهم فى أسوان . وبما أن هذه الشكنات وإعدادها يستغرق وقتاً طويلاً ، فقد أرسل محمد على خمسمائة خيمة لإيوائهم إلى أن تجهز لهم الشكنات(٥١) . والواقع أن محمد على حاول أن يجعل من الرقيق ، أفراد يفيدون ويستفيدون ، حيث عز عليه أن يتركهم - خاصة بعد عدم نجاح تجربة تجنيدهم - فريسة للبطالة وما يترتب عليها من آثار فهداه تفكيره إلى توجيههم إلى العمل فى مشروعات التنمية ، فأصدر أوامره بضرورة استقرارهم ، وتوفير سبل المعيشة والراحة لهم وأن يزاولوا أعمالاً مفيدة ، تتناسب مع قدراتهم الذهنية والعضلية . وقد أمر بإنشاء قرية خاصة بهم بجوار منفلوط بالصعيد ، وأن يقوم بعض الفلاحين المصريين بتعليمهم أصول الفلاحة والزراعة(٥٢) وظل يصدر الأوامر من حين إلى آخر ، بإسكان الرقيق فى القرى المصرية الأخرى ، والعمل على ترغيبهم فى أعمال الفلاحة(٥٣) حتى لا يشعرون بأنهم غرباء عن المجتمع المصرى ، وأن يعاملوا معاملة طيبة ، لأنه كان

يهتم ببسط الرفاهية للسودانيين والمصريين على حد سواء ونشر العدل وتعمير الأقاليم السودانية تمامًا كالأقاليم المصرية (٥٤) .

وكان محمد على يهدف من وراء ذلك أن يفيد الزراعة في مصر من خدمات الرقيق ، حتى يزدهر الإنتاج الزراعي ، وما يترتب عليه من تصدير وقيام صناعات مما كانت الدولة في أشد الحاجة إليها ، لسد حاجات الجيش . وفي الوقت ذات يكتسب الرقيق أنفسهم خبرة جديدة في الأعمال الزراعية والصناعية.

وبعد المعارك الدامية التي خاضها الشعب المصرى ضد الحملة الفرنسية ، وبعد حروب محمد على الطاحنة ، فقدت مصر الكثير من خبرة أبنائها ، كما أدى تفشى الأمراض كالحميات والطاعون إلى هلاك آخرين . ومعظم الذين ماتوا كانوا من الرجال مما عرض البلاد لنقص حاد في الأيدي العاملة كانت في أمس الحاجة إليهم لاستخدامهم في المشاريع الصناعية والزراعية التي أنشأها محمد على للسير بمصر قدمًا على طريق التقدم والرخاء الاقتصادي (٥٥) . لذلك ألحق محمد على بعض الزنوج الذين جلبوا لمصر بالمعامل والمصانع التي أنشأها (٥٦) كما حث حكامدارى السودان لإرسال الرقيق ذكورًا وإناثًا ممن يصلحون لأشغال الجفالك (٥٧) .

ولحث أولئك العبيد للعمل بهمة ونشاط في تلك الأعمال الزراعية ، عمل على استقرارهم وتوفير كل سبل الراحة لهم ، فعين أحد كشافة - وهو جمال الدين أحمد - لإنشاء قرية لإسكانهم في المحل المسمى كوم كام بجوار منفلوط (٥٨) وأمره بتوفير كافة مستلزماتهم ، وجلب خمسة أو عشرة أنفار من الفلاحين لتعليمهم " أصول الفلاحة والزراعة " (٥٩) . وبجانب إنشاء هذه القرية ، عمل الباشا على إسكانهم بالقرى المصرية الأخرى ، وأصدر أوامره إلى عبدى أغا مأمور منفلوط لإيوائهم في قرية قوبتوجة والسعى لترغيبهم في الأعمال والزراعية التي أوكلت إليهم (٦٠) .

على أن مسألة استخدامهم فى الزراعة ، فشلت هى الأخرى رغم ما بذل من جهود جبارة تشير إليها الوثائق فى ترغيب السود وتعليمهم الفلاحة . فبجانب إعراض البعض منهم عن الأعمال الزراعية وعدم إقبالهم عليها ، فإن البعض الآخر إرتضى الاستقرار ، ومن ثم فإن ذلك تطلب توفير المسكن والمعيشة لهم مما كلف أصحاب المزارع نفقات باهظة ، فى بعض الأحيان ، أكثر مما تغله الزراعة ، الأمر الذى ترتب عليه أن رفض أصحاب المزارع استخدام هؤلاء الرقيق (٦١) .

أما الرقيق ، الذين لا يصلحون للجنودية والأشغال الأخرى فقد أمر محمد على منذ بداية عهده ببيعهم لتجار الرقيق فى سنار وكردفان أو فى أسوان أو فى وكالة النحاسين بالقاهرة ، حيث كانت تجارة الرقيق تجارة مشروعة منظمة لها دلالون سمح لهم بأخذ سمسة (٦٢) .

على أن محمد على ، رغم أنه احتكر التجارة فإنه لم يتاجر فى الرقيق ، ولم أعثر على وثيقة واحدة تشير إلى ذلك بصراحة . وكان فى إمكانه أن يحتكر هذه التجارة ، مثل أية سلعة أخرى كالصمغ والعاج مثلاً ، علماً بأن التجارة فى الرقيق كانت أكثر ربحاً من أى سلعة أخرى ، ومع ذلك لم يمارسها بل كان كما يقول بورنج " يكرهها ويمقتها " (٦٣) .

ويبدو أن الذى جعل محمد على يتغاضى عن تصرفات بعض حكام السودان فى بيع الرقيق ، رغبته فى سد عجز خزانة البلاد لتغطية نفقات الإدارة والجيش هناك ، فكانت خزانة مصر فى حاجة شديدة إلى الأموال لمواجهة المصروفات وتغطية نفقات مشروعات التنمية ومرتببات الجيش ، لذلك كان يتأخر فى بعض الأوقات عن إرسال الأموال من مصر إلى الإدارة فى السودان .

وإذا صح ما ذكرناه من أن محمد على لم يتاجر فى الرقيق ، ولم يستفد من استمرار التجارة فيه هناك ، بعد الجهود المضنية التى بذلها لإنجاح تجربتهم فى الجيش النظامى وفشل تلك التجربة ، ما هو إذن موقفه منهم بعد كل ذلك ؟

تشير الأحداث التي جرت بعد ذلك إلى أن محمد على وجه النظام المتبع بشأن الرقيق في السودان إلى نظام العمل الشريف ، ومن ثم نظر إلى مسألة الرق من زاوية أخرى ، هي وقف الغزوات المسلحة التي كانت ترسل لجلب الرقيق ، والإبقاء على تواجدهم في قراهم ، والاهتمام بتعليمهم وتدريبهم على الحرف الصناعية والأعمال الزراعية ، أى أن محمد على تحول من هدفه - السابق - الذى كان يرمى إلى إلقاء عبء الأعمال الحربية على عاتق الرقيق المجندين فى الجيش ، إلى استخدامهم فى المشروعات الصناعية التى أقيمت فى السودان نفسه ، وأن يشجع الزوج على استغلال مواردهم الاقتصادية وينشط من حركة التجارة المشروعة معهم(٦٤) .

وقد تطلب منه ذلك الضرب بشدة على أيدي الحكام الجشعين الذين كانوا يزاولون التجارة فى الرقيق بصورة أو بأخرى ، أو حتى يتساهلون مع التجار وأصحاب القوافل الذين يمارسون هذه التجارة ، فقد اقتضى الأمر تضيق الخناق عليهم ومحاصرتهم سواء كانوا من العرب أو من الأجانب(٦٥) .

هذا بجانب مضاعفة الجهود لتوطيد الأمن والتوسع فى دائرته والاستفادة بخدمات السودانيين أنفسهم فى الإدارة بشكل أكثر ، وتوفير الوسائل البديلة من استخدام الرقيق والمتاجرة فيهم ، حتى يمكن تحقيق انهيار نظام الرق فى السودان(٦٦) .

وقبل أن نشير إلى تلك الوسائل البديلة التى وفرها محمد على ، لتحل محل التجارة فى الرقيق ، أو على الأقل تخفف من انتشارها ، نرى أن نعرف أولاً موقف الدول الأوروبية - خاصة بريطانيا - من مسألة الرق فى السودان حيث ذكر البعض أن محمد على لم يعمل على إلغاء تلك التجارة إلا تحت ضغط الدول الأوروبية .

نشر الرحالة ، الذين زاروا السودان وغيره من الأقطار الأفريقية التى اشتهرت بتجارة الرقيق فى القرن التاسع عشر ، الأخبار عن أحوال الرقيق وعن

المعاملة القاسية التي تعرضوا لها ، وقيام حركات قوية فى أوربا تهدف إلى إلغاء الرق وتجارة الرقيق . وقد بادرت الحكومة الإنجليزية بالاتصال بمحمد على بهدف إلغاء هذه التجارة المشينة (٦٧) . وفى الواقع لم تغب عن محمد على النداءات التي كانت تتردد فى أوربا للقضاء على تجارة الرقيق ، وكان محمد على يهيمه ألا تثار مشاكل تمس سمعته وسمعة مصر فى الخارج ، خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار ، تطلعه إلى بعض الدول الأوربية لمساندته لدى السلطان العثماني الذي لا يزال فى قرارة نفسه يحقد عليه . على أن محمد على ، كان أبعد نظراً من كثير من حكام الدول الأوربية ، بخصوص مسألة الرق ، فهو - أى محمد على - يرى أن الرق نظام له جذور ضاربة وعميقة فى المجتمعات الشرقية ، ومن المستحيل نزعها منها بين يوم وليلة (٦٨) ولكن من الممكن القضاء عليه بالتدريج ، وذلك بإيجاد الوسائل البديلة خوفاً من أن يحدث ما لا يحمد عقباه من السوادنيين أنفسهم . من ذلك ما حدث من تدمير الأهالى لعدم وجود الرقيق فى الأسواق ، عندما منع تسيير الغزوات لصيد الرقيق فى سنار (٦٩) وكانت بريطانيا فى تلك الفترة ، وخاصة فى الثلاثينات من ذلك القرن فما بعدها ، تحمل راية محاربة الرق فى طول الكرة الأرضية وعرضها وخاصة فى القارة الأفريقية . ولم يكن ذلك بدوافع إنسانية أو أخلاقية بقدر ما هو وسيلة لتحقيق أغراض مصلحة وسياسية (٧٠) .

كذلك كان لبعض الدول الأوربية تاريخ فى تجارة الرقيق الأفريقى ، فقد أخذ البرتغاليون يمارسون تلك التجارة منذ عام ١٤٤٢م ولم يتقصر الأمر على تزويد الدول الأوربية بالرقيق الأسود (٧١) بل كانوا يزودون به أسبانيا للعمل فى العالم الجديد (٧٢) .

ويقول كل من ( GOHNSTON ) و ( COUPLAND ) أن التجار العرب هم الذين فتحوا أبواب تجارة الرقيق ، لكنهم - أى هؤلاء - لا ينكرون فى الوقت نفسه ، أن هذه التجارة صارت تمارس على نطاق واسع على أيدي البرتغاليين



وغيرهم من التجار الأوربيين الذين اندفعوا إلى القارة الأفريقية واستطاعوا عن طريق إمكاناتهم المادية والعسكرية ، أن ينخرطوا فى ذلك الميدان ويحققوا الأرباح الكثيرة (٧٣) .

وقد اشترك الإنجليز فى تجارة الرقيق منذ عام ١٥٦٢م فى عهد الملكة اليزابث عندما كون جون هاوكنز فى لندن شركة للتجار مع غرب أفريقيا لنقل الرقيق إلى المستعمرات البريطانية فى أمريكا (٧٤) .

ولم يأت القرن الثامن عشر حتى كانت الحكومة البريطانية من أكبر تجار الرقيق فى العالم ، فلم يقتصر دورها على نقل السود من أفريقيا إلى جزر الهند الغربية بل نشطت السفن البريطانية (٧٥) فى نقل الرقيق من أفريقيا إلى خارج القارة (٧٦) .

وعندما تغيرت الظروف الاقتصادية والسياسية فى أوربا نفسها ، نادى بعض الأفراد والجماعات بإلغاء تجارة الرقيق ، بدعوى أنها تخالف المبادئ الإنسانية. والواقع أن السبب الهام لتبنى إنجلترا الدعوة لمنع تجارة الرقيق فى السودان بوجه خاص ، هو أن إنجلترا كانت ترقب بعين الاهتمام ، ما كان يجرى فى السودان ، بعد أن مد محمد على التنظيمات الحديثة إليه ، والتي وصلت إلى جانكير فى الجنوب ، وفى الشرق إلى ساحل البحر الأحمر الغربى . وعندئذ أحست بريطانيا بالخطر الذى من الممكن أن يهدد مصالحها فى تلك المنطقة ، خاصة بعد أن بسط محمد على سيطرته على جنوب الجزيرة العربية وأشرف على سواحل البحر الأحمر ، فأحست بريطانيا أن ذلك البحر خرج من قبضتها . وكانت شركة الهند البريطانية قد نشطت فى تعاملها التجارى مع شعوب تلك المنطقة - فأخذت تعمل حساباً لإزدياد سيطرة محمد على بل وتحول البحر الأحمر إلى ما يشبه البحيرة المصرية (٧٧) . هذا إلى أن إنجلترا كانت أساساً لا تترتاح ل محمد على ، بسبب مشروعاته الطموحة من حيث تكوين الجيش واحتكاره التجارة



واتجاهه نحو الصناعة التى ربما تتطور وتنافس الصادرات البريطانية فى مصر وفى الولايات العثمانية الأخرى . يضاف إلى ذلك تقاربه من الفرنسيين ، وتشجيعهم لمشاريعه المختلفة (٧٨) . لذلك إتخذت إنجلترا من مسألة تحريم تجارة الرقيق فى السودان ، تكأة للضغط على محمد على . وليكن الأمر أولاً ، بمثابة جس نبض حتى تشرع فى تنفيذ مخططاتها نحوه ، طبقاً لمدى تجاوبه فى هذه المسألة . ومن ثم فقد راقبت تصرفات محمد على ، وأخذت تقف له بالمرصاد وتسعى لتأليب الدول الأوربية ضده ، بل والعمل على تحطيم طموحه وتجميد نشاطه الممثل فى سياسته التوسعية واحتكاراته التجارية ، فوجهت إليه فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٧٣م الكولونيل كامبل قنصلها العام فى مصر والدكتور جون بورنج لمقابلة الباشا والتحدث إليه فى هذا الشأن ، وطلباً من الباشا أن " يبادر على الفور بإبطال صيد الرقيق فى الجنوب من تلقاء نفسه قبل أن يطلبوا ذلك منه بطريقة رسمية " (٧٩) وقدما مقترحات لوضع حد لهذه التجارة غير الإنسانية . واقترحت البعثة الامتناع عن دفع رواتب الموظفين والضباط والجنود رقيقاً ، الأمر الذى سيؤدى إلى توقف حملات الحكومة لصيده . كذلك منع الموظفين والمسؤولين فى السودان من الاشتراك فى هذه التجارة . وتخفيف حدة الاحتكار الحكومى فى المواد الأخرى ، وإطلاق حرية التجارة فى الجنوب (٨٠) وبالرغم من عدم إقتناع محمد على بإبطال تجارة الرقيق (٨١) ، إلا أنه اضطر تحت ضغط بريطانيا بوعده الرسولين بالعمل فى خطوات وثيدة لإلغائها، إذ أنه لا يمكن القضاء عليها قضاء مبرما مرة واحدة (٨٢).

ولم تغب عن محمد على مغزى هذه المقابلة وما تنطوى عليها من أبعاد ، لذلك كان رده عليهما حاسماً وقاطعاً ، حيث قال " إنه لم يكن متأخراً لدى أى من الجنود مبلغ يوازى ثمن عبد " (٨٣) وأنه يعرف أن ضباطه يتاجرون فى الرقيق ، وهو أمر لا يوافق عليه ، لأنه يكره هذه التجارة ويعتبر نفسه سعيداً إذا تمكن من إلغائها (٨٤) . ثم بادر بالكتابة إلى خورشيد باشا " حكمدار السودان نفسه " فى

مساء اليوم نفسه (٨٥) الذى تمت فيه المقابلة بينه وبين يونج وكاميل يأمره بإبطال هذه التجارة أى تجارة الرقيق . وجاء فى الرسالة التى وجهها إلى خورشيد باشا بتاريخ أول ديسمبر عام ١٨٣٧م " إذا كان هذا الأمر صحيحاً ، فليكن معلوماً لديكم أنه مخالف لرغباتى ، ولهذا أمركم أن تكفوا فى المستقبل عن إعطاء العبيد إلى الضباط والجنود وغيرهم من الموظفين لقاء مرتباتهم " . ولعل الباشا قد ضحى كل هذه التضحية حرصاً منه على حسن العلاقات مع إنجلترا ، إذ قال لخورشيد : " ... ولما كان واضحاً استهجان هذا النظام لدى الدول المشار إليها ، فقد وجب إلغاؤه مراعاة لما استحكم بيننا وبين هذه الدولة من روابط الصداقة المتينة " (٨٦) وأضاف قائلاً " ... يجب عليك أن تعلم أنى لا أريد ربحاً من تجارة لا تشرفنى ، وإنى على استعداد لبذل كل تضحية إذا تطلب إلغاء هذه التجارة تضحيات منى " وأرسل صورة من تلك الرسالة إلى الكولونيل كامبل ليعلمه بذلك . وأرى أن إفادة كامبل بتلك الرسالة ، كانت بمثابة قطع خط الرجعة على الحكومة الإنجليزية ، ودليلاً على أن محمد على لم يعد يتاجر فى الرقيق ولا يرغب فى أن يتاجر فيه رجاله الممثلون له فى السودان ، وأنه ليس أقل من هؤلاء الأوربيين الذين ينادون بتحريم الرق ، إن لم يكن أكثر منهم وعياً وحكمة بخصوص هذه القضية .

وفى أثناء زيارة محمد على للسودان فى ٤ ديسمبر ١٨٣٨م إتخذ بعض الخطوات حيث أصدر وهو بالخرطوم " الأوامر الرسمية بإبطال صيد الرقيق ، وأذاع المنشورات بين الأهالى والجلايين يوضح لهم جميعاً أن الجيش والمدفعية التى تتقدم فى بلادهم لا تحمل إلى قراهم وأكواخهم سوى السلام والسكينة " (٨٧) .

كذلك أصدر تعليماته بتحريم الحملات ومنع دفع الرواتب من الرقيق . وأرسلت صورة من هذه الأوامر إلى قواد الجيش ليتوقفوا عن جمعه . وفى يناير سنة ١٨٣٩م أطلق الباشا سراح خمسمائة من الزوج الأرقاء وتم إرسالهم إلى بلادهم . وصدرت الأوامر بأن تختصر الغزوات على إخضاع الخارجين عن

سلطان الحكومة وتأديب العصاة فقط وأن لا يتعرض الجنود إطلاقاً لأسر الرقيق (٨٨) .

ولا يعنى هذا أن خطر تجارة الرقيق قد قل بل إنها فى الواقع اشتدت وإتسع نطاقها بعد فتح النيل الأبيض للملاحة على أثر رحلات سليم قبودان ، إذ زاد عدد التجار المشتغلين بها وتوغلت حملاتهم جنوباً فى مناطق الرقيق ، كما أن الحكمدارين أنفسهم استمروا - بالرغم من أوامر محمد على بإيقاف الغزو - فى إرسال الغزوات لاصطياد الرقيق ، إما لحسابهم الخاص أو لسد نفقات الحكومة والإدارة فى السودان (٨٩) .

والواقع أن منع تجارة الرقيق والقضاء على هذه المشكلة لم يكن أمراً سهلاً يتم عن طريق إصدار الأوامر والمنشورات . فالرقيق فى السودان كما صرح بورنج، يكون جزءاً من النظم الاجتماعية والاقتصادية كنسيج متشابك فى كل من السودان ومصر ، بحيث أصبح الأمر يحتاج إلى تحركات كبيرة للقضاء على تجارته أكبر من تلك المنشورات التى أصدرها محمد على (٩٠) لذلك نرى أن تدخل بريطانيا ، كان من باب الوقوف فى وجه محمد على والحد من سياسته التوسعية واحتكاراته التجارية (٩١) . وكانت خطة محمد على أن يتم إلغاء تجارة الرقيق رويداً رويداً ، حيث أن هذا هو الطريق الوحيد الذى يمكن بفضله - كما قال - الوصول إلى هذه الغاية المنشودة . والسبب فى ذلك هو أن ما ألفه شعبه من عادات وما درج عليه فى هذه الأمور ، من شأنه أن يضع عقبات كثيرة فى سبيلة من العسير تذليلها إذا هو اعتزام إلغاء تجارة الرقيق دفعة واحدة (٩٢) .

وكان من أثر الإجراءات التى إتخذها محمد على لإبطال الرق وتجارته فى السودان أن أوفدت جمعية إلغاء الرق بلندن " ريتشارد مادن " إلى مصر فى عام ١٨٤٠م ، يحمل إلى محمد على شكر الجمعية وإرتياحها لما أصدره من أوامر أبان زيارته للسودان ، فقابل مادن وبصحبه القنصل الإنجليزى Hodges هودجس محمد

على . وفى أثناء المقابلة قال محمد على " يعظم سرورى إذ ألغيت الرق إلغاء تاماً ، ولكن من الواجب على الإنسان أن يهيئ للشعب قبل ذلك وسائل التربية والتعليم، لأن مسألة الرق فى هذه البلاد من أشق المسائل وأشدّها صعوبة على خلاف الحال فى بلادكم ... ذلك أن الناس إعتادوا أن يستخدموا الرقيق لدرجة أنه إذا امتنع وجود الرقيق بالأسواق ، بادروا بالشكوى ، على نحو ما فعلوا سابقاً عندما منعت جنودى من تسيير الغزوات لصيد الرقيق فى سنار ، ومن العسير على الإنسان أن يجعل من هؤلاء السود شعباً متمدناً فى بلاده وأن يعودهم العيش وفق أساليب الحياة التى نأخذ بها . لقد حاولت أن أصنع منهم جنوداً منذ سنوات مضت ، ولكنهم صاروا يموتون فى مصر وفى غيرها من الجهات التى أرسلوا إليها . ولم يبق منهم لدى سوى ثلاثمائة أو أربعمائة فحسب . وفضلاً عن ذلك فإنى لا أسمح لشعبى بأن يجهز الحملات لصيد الرقيق وجلب عبيد آخرين (٩٣) .

وهكذا مضى محمد على فى طريقه للتخلص من نظام الرق فى السودان ، ولكن ليس بالطريقة التى أرادها الأوروبيون ، فكانت خطته تختلف عن خطط تلك الدول . فبينما كان يعمل على النهوض بالسودان ، كانت الدول الأوروبية ، خاصة بريطانيا كما أثبتت الأحداث ، تتخذ من مسألة القضاء ستاراً للتدخل والإستعمار، كما حدث فى تدخل بريطانيا فى شئون سلطان زنجبار ، وتدخلها فى شئون الجهات الخاضعة للإدارة المصرية فى السيطرة على الملاحة فى البحر الأحمر بحجة تفتيش السفن التى تشتبه فى أنها تنقل الرقيق (٩٤) .

وعلى هذا ، إذا كانت تلك هى أغراض إنجلترا من محاربة تجارة الرقيق ، فإن محمد على إتخذ من تلك المسألة وسيلة يغير من تركيبة المجتمع السودانى أولاً ، وأن يعطيه الفرصة ليكيف نفسه مع الزمن لهذا الإجراء ، على أن يترك المشكلة لتحل نفسها بنفسها ، بما يدخله على المجتمع من تغير فى سلوكه اليومى عن طريق البدائل التى أوجدها هناك .

وتشير الوثائق الأصلية ، إلى أنه بعد فشل تجربة استخدام الرقيق ، لم يتشدد محمد على مع حكام السودان في طلبهم ، بل رأى أن تضاعف الجهود للنهوض بالسودان . ولعل في تعليماته لخورشيد باشا ، ما يدل على ذلك ، إذ ذكر له في قرار التعيين ، أن المطلوب منه هو تعمير الأراضى فى سنار وما حولها ورفاهية سكانها وراحتهم . وأرسل له ثمانية من كبار العلماء ومائة وأربعين مساعداً له فى تعمير البلاد وتقديمها ، وأمره بأن ينفذ ما يراه صالحاً للسكان ، دون الرجوع إليه إلا فى المسائل الهامة (٩٥) .

والواقع أنه عندما استقرت الأوضاع فى السودان ونظمت شئونه لم يأل محمد على جهداً فى سبيل نهضته المادية ، ثامناً كما فعل بالنسبة لمصر فكان يرسل أوامره من حين لآخر بضرورة تنظيم الأوامر واستغلال موارد البلاد الطبيعية ، وإنزال العقاب بأى مسئول يتهاون فى أداء عمله (٩٦) .

لذلك يمكن القول أن الإدارة المصرية فى السودان نجحت إلى حد كبير فى تنفيذ أوامر حاكم مصر ، وأوجدت الكثير من البدائل لتغيير نمط المجتمع السودانى (٩٧) . هذا وقد شملت خطة النهوض بالبلاد كل المجالات ، حتى تكون الدفعة بالمجتمع إلى التقدم متوازنة ، ولا يحدث خلل فى زاوية منها ، وبذلك تتمكن الإدارة من المحافظة على عدم إنهيار المجتمع من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والأمنية . وقد شهد على استتباب الأمن ، العلماء والرحالة الأجانب الذين زاروا السودان فى عهد محمد على ، أمثال هوسنكس وهولوريد وبالم والمستر كامبل وغيرهم من الجنسيات الأوروبية ، الذين أشادوا باستقرار الأمن ، ونشر ألوية الحضارة فى ربوع السودان (٩٨) .

وقد ترتب على استتباب الأمن فى السودان ، تغيرات اجتماعية وسياسية ، لعل أهمها استقرار الفرد السودانى بجوار عمله فى المزرعة أو المصنع . وهذا أدى



بدوره إلى التقليل من ترحالهم الذى كانت تشوبة فى بعض الأحيان ، الكثير من الأنشطة التجارية غير المشروعة .

ولم تقتصر جهود محمد على على الحد من تجارة الرقيق ، بل كانت خطته تستهدف تغيير التركيبة الاجتماعية ، وذلك بفتح الورش والمعامل الصناعية وتدريب السودانين فيها على الصناعات المختلفة ، التى أمر محمد على بإدخالها هناك ، ليتمكن السودانيون من الاعتماد على أنفسهم (٩٩) .

وكان أن أخذت الأنظار تتجه إلى الاستفادة من موارد البلاد وتحويلها إلى سلع وصناعات يستفاد بها ، بعد أن كانت - كمادة خام - ترمى على الأرض وتضيع هباء منثوراً . وبذلك يستفيد السودانيون مادياً لرفع مستواهم المعيشى ويتعلمون بعض الحرف الصناعية الجديدة لتمتص جزءاً آخر من وقتهم الذى كانت تشغله التجارة المشروعة وغير المشروعة ، وتجذب البعض الآخر منهم لكونه عملاً جديداً - ومن ثم تتسع العمالة المثمرة . وبالتالي يقل الاعتماد على الرقيق ، ويصبح أكثر تهيؤاً لتقبل التطورات الاقتصادية والسياسية التى تهدف إلى التخلص من نظام الرق . لذلك أراد محمد على أن يحدث - إن جاز لنا ذلك التعبير - إنقلاباً صناعياً فى السودان ، بالقياس إلى تلك الصناعة البدائية التى كانت تقتصر على إنتاج سلع بسيطة وضرورية تقوم على غلات نباتية ومنتجات حيوانية ، فأمر بإرسال الخبراء والصناع المصريين وإعارة الفنانين من بعض الدول الأوروبية ، لينشئ الصناعات فى السودان ، مثل ما حدث فى مصر لمضاعفة الدخل القومى فى تلك البلاد ، وليكون بديلاً - بصفة خاصة - عن الأرباح العائدة من تجارة الرقيق (١٠٠) وكان أن أقامت الإدارة المصرية ترسانة ضخمة فى الخرطوم ، وألتحق بها كثير من أبناء السودان للعمل والتعليم ، وكان من إنتاج تلك الورش - التى كانت بحق مركزاً للتدريب - العديد من السفن التى استخدمت فى البعثات الثلاث لمهمة البكباشى المصرى سليم قبطان الاستكشافية فى النيل



الأبيض. كذلك أرسلت مصر النجارين والبنائين والغواصين إلى السودان لحفر الآبار وصناعة السواقي ، ليتعلم الأهالي تلك الصناعات من جهة ، ولتوفير المياه لزراعة الأرض ، وذلك لرفع المستوى الاقتصادي من جهة أخرى .

وأنشأت الإدارة المصرية هناك ، العديد من المراكز لدباغة الجلود ، وذلك للاستفادة من جلود الحيوانات ، ولتدرب الأهالي على تلك الصناعة الجديدة (١٠١) ومن ثم فإن الإدارة المصرية في السودان ، لم تدخر وسعاً في فتح الورش وإنشاء المصانع ، لتدريب السوادنيين وتعليمهم الحرف المهنية ، وتشجيعهم على الإقبال عليها بكافة السبل ، بجانب رواتب مالية لهم . لذلك استوعبت المصانع الجديدة، التي كثيراً ما كانت تلحق بها الورش ، العديد من أبناء السودان، للعمل والتدريب فيها . واشتهرت بعض المدن كمراكز للصناعة ، مثل مدينة الكاملين على النيل الأزرق ، حيث وجدت مصانع الصابون والسكر والنيلة .

والواقع أن هذه جهود طيبة ، فكان محمد علي ، يرى أن هذه الإجراءات تعتبر علاجاً فعالاً للمجتمع السوداني ، ليخلصه من نظام الرق المزمع في البلاد . وكان هدفه من وراء ذلك، هو أن ينصب اهتمام الفرد السوداني على العمل المنتج ، بدلاً من الاعتماد على الرقيق، وأن يتعود على أن يعمل بنفسه ، وبذلك يقل الإقبال على شراء العبيد واقتنائهم لقلة الحاجة إليهم ، ويتم القضاء على الرقيق السودان .

لقد كانت هذه الخطة في حد ذاتها ، خطة عظيمة وطيبة ، بدلاً من خطط الدول الأوروبية ، التي تقوم على المنع القهري لمحاربة التجارة في الرقيق (١٠٢) هذا إلى أن جهود محمد علي في السودان ، خففت إلى حد كبير ، من انتشار تجارة الرقيق ، وإن لم يتمكن من القضاء عليها كلية ، نظراً لقصر مدة حكم محمد علي في تلك البلاد ، بالقياس إلى تاريخ نظام الرق في السودان الذي يعود إلى قرون عديدة سابقة . وبالإضافة إلى كل ذلك ، هناك عوامل أخرى ساعدت على استمرار تلك التجارة - وإن كانت بشكل ضعيف - ولعل أهمها ما يلي :

- ١ - عدم قدرة الحكومة على مراقبة التجار - من عرب وأجانب - لإتساع أرجاء السودان وكثرة نوافذه ، رغم مراقبة البحار وتفتيش السفن .
- ٢ - كان الهدف من فتح النيل الأبيض ، تسيير الملاحة الحرة وتشجيع التجارة مع الزنوج ، ولكن سرعان ما تحول التجار إلى ممارسة صيد الرقيق لأنه أكثر ربحاً .
- ٣ - بعض حكام السودان الجشعين ، لم ينفذوا أوامر محمد على الخاصة بتحريم تلك التجارة ، نظراً لما تدره عليهم من فوائد شخصية .
- ٤ - تدخل رؤوس الأموال الأجنبية في التجارة ، الأمر الذى ترتب عليه أن اتسع النشاط ، وبالتالي تنوعت الأساليب والأسلحة المستخدمة .
- ٥ - وجود بعض الأقاليم مثل دار فور ، لم تكن قد خضعت للحكم المصرى - بعد - استمرت من أهم وأكبر مستودعات الرقيق (١٠٣) .

ويعتبر عهد كل من عباس وسعيد مرحلة حاسمة في تاريخ الرق وتجارته في السودان ، إذ بلغت في قوتها حدًا خطيرًا مكن تجاره من مزاولة نشاطهم على أوسع نطاق ، وأصبحت لهم تشيكلاتهم الخاصة التي استمدوا عن طريقها نفوذًا واسعًا وسيطرة كاملة . وقد تركز مسرح عملياتهم في النيل الأبيض وروافد النيل العليا (١٠٤) وكان للنهج السياسى الذى صار عليه عباس صدهاء في السودان . ولنجاح تجار العاج والرقيق - أوروبيين وعرب - في تخطيط احتكار التجارة في النيل الأبيض وانتشارهم في أعالي النيل تحت حماية أعلام دولهم ، أثره في نمو هذه التجارة الشائنة (١٠٥) وكان أن إختار الوالى طريق الجمود والتزمت بعد محاولات الباب العالى الانتقاص من اختصاصات الوالى وسعى القناصل فى التدخل فى شئون حكومته . وكان كثير الشك فى كل من حوله إلى حد أنه عارض كل تغيير وتمسك بالوضع الرتيب فرضته إتفاقية لندن ١٨٤٠ - ١٨٤١ (١٠٦) وانعكست هذه الحالة على السودان الذى لم يلق من الوالى أى اهتمام إلا بالقدر الذى يضمن

له استمرار استغلاله ، فى الوقت الذى أخذ القناصل يتمتعون كزملائهم فى القاهرة بنفوذ كبير. وقد أدى ذلك إلى تسرب الضعف للسلطة فى الخرطوم (١٠٧)، فى الوقت الذى أدى التدخل القنصرى إلى نمو تجارة الرقيق وازدهارها خصوصاً بعد أن نجحوا فى فتح النيل الأبيض للتجارة الحرة أمام تجارة العاج (١٠٨) وفى الوقت نفسه كانت السلطات الحاكمة غير مستعدة للتنازل عن ذلك المصدر الذى كان يدر دخلاً كبيراً فى الماضى ويساهم فى تغطية نفقات الحكم فى السودان ، وخصوصاً أن الباشا نظر إلى السودان على أنه منحة يجب إستغلالها ، وضمان المحافظة عليها (١٠٩) وقد انتقلت هذه النظرة إلى حكام السودان الذين عملوا فى هذه الفترة على تحقيق ربح شخصى عاجل ، بعد أن نظر عباس إلى هذه البلاد على أنها منفى للمغضوب عليهم ولكل من يشك فى اخلاصهم . ولذلك عمل هؤلاء على استغلال موارد السودان أسوأ استغلال خصوصاً وأن خوف الباشا من استقلالهم كان يدفعه إلى تغييرهم بحيث تولى فى تلك الفترة من حكمه حوالى خمسة حكام ، هم خالد باشا ١٨٤٥ / ١٨٤٦ م وعبد اللطيف باشا ١٨٤٦ / ١٨٥٢ ، ورستم باشا ١٨٥٢ ، وإسماعيل حاكى باشا ١٨٥٢ / ١٨٥٣ ، وإسماعيل باشا الجزايرلى ١٨٥٣ / ١٨٥٤ (١١٠) لذلك كان على السودان أن يفى بهذه الالتزامات المالية سواء للخزينة المصرية أو لإشباع أطماع هؤلاء الحكام الذين تبعهم صغار الحكام فى الأقاليم بالإضافة إلى تحمله نفقات الحكم . وكان الرقيق يلعب دوراً كبيراً فى مصادر الدخل فى السودان التى تمثلت فى الضرائب ورسوم احتكار التجارة وحملات صيد الرقيق (١١١) وفى تلك الفترة قاسى السودان إسرافاً كبيراً فى فرض الضرائب إلى حد إبتزاز المال من الأشخاص ، حتى بلغت ستة جنيهات سنوياً على الفرد ، وأصبح الشيوخ ورؤساء القبائل (١١٢) مسئولين مسئولية مباشرة عن جمع الضرائب من مواطنيهم . كذلك فرض عليهم تقديم أعداد من الزوج لتجنيدهم فى الجيش . وكثيراً ما كان يفتل الرؤساء والشيوخ فى دفع التزاماتهم نظراً لهروب المواطنين من الضرائب الباهظة إلى المناطق الجبلية ،

بعيداً عن سلطة الحكومة . وكان ينظر إلى هذه العجز على أنه تمرد (١١٣) ، ومن ثم يرسل الحكام حملاتهم لغرض ظاهري هو القضاء على هذا التمرد وتأديب هؤلاء الرؤساء ، وفي الحقيقة لاصطياد الرقيق ومصادرة الماشية ، الأمر الذي كان يدر أرباحاً كبيرة للحكام (١١٤) كذلك فقد أقلق عباس عن سياسة حرية التجارة التي كان قد سمح بها في بداية حكمه عام ١٨٥٠م في محاولة لزيادة الدخل وعاد إلى تطبيق الاحتكار الذي رحب به الحكام وتطرفوا في تطبيقه تحقيقاً لأرباح شخصية . وتحت هذه الظروف أصبحت التجارة في الرقيق أوفر مما كانت عليه في عهد جده محمد علي (١١٥) .

وفي عام ١٨٥٤م كان العاج يمثل الباعث الأكبر الذي جذب التجار إلى الخرطوم ، حيث كافحوا بنجاح للمحافظة على حرية التجارة في النيل الأبيض . وفي نفس الوقت بدأت تجارة الرقيق تنحيم على هذه الأرض الجديدة (١١٦) بحيث لم يكفد ينتهي عام ١٨٥٤م حتى كان تجار العاج قد تحول الكثير منهم إلى تجار رقيق . ولتفصيل ذلك نقول أنه حدث بعد فتح النيل الأبيض للملاحة والتجارة أن وجد تجار الخرطوم في العاج حقلاً كبيراً صالحاً لهذه التجارة ، ووجدوا في صيد الفيلة في مناطق النيل الأبيض وبحر الغزال والسوبات عملاً مربحاً . وقد أغرى التجار الأثمان المرتفعة للعاج لتنظيم رحلات لصيد لفيلة ، وكان طبيعياً مع مرور الوقت أن يتناقص عدد الفيلة وبالتالي يتناقص احتياطي الثروة في هذه الجهات . ولم يكن في استطاعة التجار أن يتحملوا في المستقبل النفقات الكبيرة لهذه الرحلات . ولكي يتحاشى التجار هذه الخسائر لجأوا إلى الأشتغال بالرق (١١٧) ، وذلك عن طريق السماح لعمالهم بأن يصطادوا الرقيق كجزء من رواتبهم . وكان الرقيق يجد طريقة للخرطوم بدون عائق (١١٨) . وعندما ندر العاج وجد تجاره أنه من الأربح لهم اصطياد الرقيق بدلاً من اصطياد الفيلة ، وهكذا صار واضحاً أنه منذ عام ١٨٥٥م اندفع صيادو الرقيق في شراسة نحو الغزال والنيل الأبيض (١١٩) .

وكان تجار الرقيق قادرين على الحصول على تأييد ومساعدة القناصل الأوروبيين الذين لم ينجوا من الشبهات (١٢٠) ، حتى إن هذه التهم وجهت إلى رجال مثل جون بيتر القنصل البريطاني . وكلما ازداد نشاط تجار الرقيق كانت السلطات فى الخرطوم تعاني نقصاً فى السلطة والنفوذ ، حتى أصبح نفوذهم فى نهاية هذه الفترة وعند وفاة عباس لا يتعدى سلطة الخرطوم ومدينة الرصيرص على النيل الأزرق وتشلجة (١٢١) ، أما ما وراء ذلك من بلاد فكانت خارجة عن السلطة . وكان المواطنون متحررين من سلطة الحكومة . وفى نفس الوقت شعر الحكام فى المناطق البعيدة مثل منطقة كردفان بحرية التصرف والعمل دون تدخل من جانب السلطة فى الخرطوم .

وعندما تولى سعيد باشا الحكم بعد عباس اصدر سنة ١٨٥٦م منشوراً لتحرير الرق ومنحهم حريتهم كاملة فى مصر ، مع توفير العمل لمن يترك خدمة أسياده (١٢٢) . وفى محاولة لإيقاف إمدادات الرق من السودان أصدر أوامره بتعيين أخيه حلمى باشا حاكماً على السودان ، وعهد إليه القيام بالاصلاحيات التى تحقق مصلحة السودانين ، والقضاء على أسباب الشكوى والتذمر (١٢٣) . وصدرت التعليمات بأن يرسل حاميات للقيام بدوريات منتظمة فى النيل الأبيض . وقد قام حلمى باشا بإنشاء سلسلة من المحطات العسكرية (١٢٤) التى توغلت جنوباً حتى التقاء السوبات بالنيل الأبيض . وكانت هذه المحطات ذات غرض مزدوج فهى تحمى التجار من هجمات الزنوج وكذلك تشرف على أوجه نشاطهم فى الأقاليم البعيدة (١٢٥) .

كذلك ألغى احتكار التجارة فى محاولة لتشجيع التجارة المشروعة ، وألغى الضرائب التى كانت تفرض على المشتريات من السودان (١٢٦) ، وبذلت محاولات لتحسين وسائل المواصلات فى السودان . وفى نهاية سنة ١٨٥٦م ، قرر سعيد زيارة السودان . وقد تعددت الأسباب وراء هذه الزيارة ، من بينها محاولة حل



مشكلة الرقيق التى كانت تقلقه ، لا سيما بعد أن وافقت تركيا بعد مساعى بريطانيا على منع هذه التجارة فى ممتلكاتها ، وأبدى الباب العالى رغبته فى أن يرى الوالى وقد نجح فى استئصال هذه التجارة فى ممتلكاته . بذلك تلاقى وجهات نظر سعيد مع الباب العالى فى وضع حد لهذه التجارة .

وفى الخرطوم أصدر سعيد أوامره بمنع الاتجار فى الرقيق ، وكذلك إيقاف رواتب الجند والموظفين بالرقيق مهما كانت الأحوال ، وحرّم تقديم الرقيق كجزء من الضرائب . وفى ٢٧ يناير سنة ١٨٥٧م أصدر أربع منشورات تتعلق كلها بتنظيم وجباته الضرائب . وتوقفت حملات الحكومة الصيادة للرقيق إلا فى أقصى حالات الضرورة التى تختمها امتناع الأهالى عن دفع الضرائب وتكون الحكومة مضطرة لذلك (١٢٧) .

ولكن هذه الثورة من القرارات والمنشورات لم تؤد إلى نتيجة ، وعادت تجارة الرقيق وازدادت عملياتها واشترك المسؤولون فى ذلك . ويعتبر سعيد المسؤول عن فشل هذه الإصلاحات إذ أضفى على جمع الرقيق صفة رسمية عندما كون حرساً خاصاً من الزنوج فى سنة ١٨٥٩م . وطبقاً لذلك أرسل لحكامه فى السودان يطلب الرقيق ، وبالتالى عادت طلبات استيراد الرقيق مرة ثانية . وتحرك تجار مصر والجلابة واتخذوا التنظيمات مع تجار العاج لإرسال هؤلاء الزنوج طبقاً لطلبات الباشا (١٢٨) ، ونتيجة لذلك أصبح هناك حافز قوى لمزاولة اصطياد الرقيق من مناطق النيل الأبيض وأعالى النيل ، وهكذا زال آخر قيد رسمى على مزاولة نشاطهم من قبل الباشا نفسه . وكان أن عادت الحكومة ترسل حملاتها لصيد الرقيق والتعامل به فى دفع رواتب الجند والموظفين وتحقيق الربح لهم ، وكذلك إرغام الرؤساء على تقديم أعداد منه كضريبة (١٢٩) . وكما حدث فى عهد عباس أدت تجارة العاج إلى مزاولة صيد الرقيق حتى إذا انتهت هذه الفترة كان تجار العاج قد تحولوا إلى تجار للرقيق . ومن هاجر من هذه المناطق باع منشآته لتجار الرقيق الذين احتلوا تلك المناطق الشاسعة التى كانت مسرحاً لعمليات صيد الفيلة والبحث عن العاج (١٣٠) .



ولكى تتضح مدى الصلة بين تجارة العاج والرقيق وكيف مهدت هذه التجارة واسعة النطاق لتجار الرقيق صار من الأفضل أن أتناول هذا الموضوع فى هذه الفترة بشئ من التفصيل حتى تتضح معالم المشكلة التى واجهت إسماعيل باشا فيما بعد .

أخذ التجار فى تكوين شركات تجارية للتجارة فى النيل الأبيض وأعلى النيل . وكانت هذه الشركات تساوم السلطات فى الخرطوم للحصول على حق التجارة فى منطقة معينة (١٣١) . وإذا ما حصلت على هذا الحق أصبحت تحتكر مصادر الثروة فى هذه المنطقة وتستغلها بما يحقق لها أكبر قدر من الربح دون تدخل من سلطات الخرطوم . وامتدت هذه الحقوق حتى شملت أصقاعاً شاسعة جنوبى دار فور وفى كردفان وعلى طول النيل الأبيض حتى غندو كرو . وتقوم هذه الشركات بإرسال وكلائها لاستغلال هذه المناطق (١٣٢) وقد بدأت هذه التجارة هادئة وبالطرق السلمية مع الأهالى ولكن سرعان ما تخلى التجار عن هذه الطرق ولجأوا إلى استخدام القوة للحصول على ربح سريع (١٣٣) . وقد أدى ذلك إلى تكوين جماعات مسلحة تابعة لهم ونقط عسكرية تعتبر بمثابة مستودعات للمؤن والذخائر وتجمعات لبضاعتهم ، مما عاد عليهم بالأرباح الهائلة (١٣٤) .

وأدى هذا النجاح إلى احتلال مناطق فسيحة شملت عدة آلاف من الأميال المربعة . وهذه المساحات فرض عليها تجار العاج والرقيق حمايتهم عن طريق عدد من الزرائب الرئيسية التى كان يتبعها عدد أصغر منها . وقد سيطر على هذه الجهات ما يقرب من ستة شركات كبيرة وبلغت عدد الزرائب أكثر من ثمانين زريبة ، يسيطر عليها حوالى اثنى عشر من كبار التجار وأتباعهم من القواد (١٣٥) . وأدى ذلك إلى خروج كل حوض النيل وأجزاء النيل العليا من سلطة الخرطوم . ونستطيع أن نقول أن هذه الفترة قد أفضت إلى حقيقتين :

الأولى : تمتع تجار الرقيق بنفوذ وسلطة لم يصلوا إليها قبل ذلك فى السودان بحيث أصبحوا فى مناطق نفوذهم كحكام .

الثانية : أن إخضاع هؤلاء التجار واستئصال شأفة هذه التجارة من السودان صار يتطلب فتح جديد لهذه الأقاليم . وهذه الوسيلة فرضت نفسها على إسماعيل دون أن يكون هناك مجال لاختيار غيرها . وأتفقت كلمة المعاصرين على أن حكومة مصر وحدها هى التى تستطيع أن تفعل ذلك ويقتضيها الواجب أن تدخل فى حوزتها جهات النيل العليا وتبسط عليها سلطاتها . ووقع عبء ذلك كله على عاتق إسماعيل باشا . والواقع أن تولية إسماعيل حاكماً على مصر يعتبر بداية جديدة فى تاريخ السودان ، ففى أثناء حكمه اتخذت خطوات حاسمة لمحاربة تجار الرقيق والقضاء عليهم . وقد سلطت الأضواء على هذه المشكلة فى السودان من قبل الرحالة أمثال " سيبك وجرانت " بولوجنس " و " هولجين " الذين جابوا هذه البلاد فى نهاية حكم سعيد والسنوات الأولى من حكم إسماعيل (١٣٦) .

فعن طريق كتابات هؤلاء الرحالة والمستكشفين نستطيع أن نكشف النقاب عن قصة الأعمال الوحشية التى ارتكبت ضد قبائل هذه الجهات على أيدي هؤلاء التجار الذين زاولوا سلطاتهم ونفوذهم من عدد من الزرائب التى أصبحت قلاعاً لتجار الرقيق والتى أجبر الأهالى على إنشائها وأرغموا على تزويدها بما تحتاجه من حبوب وماشية . وعن طريقها استطاع هؤلاء التجار أن يحكموا مساحات شاسعة من هذه الأقاليم من أعالي النيل ، والتى لم تظهر فيها أية سلطة لحكومة الخرطوم (١٣٧) ، حتى أن حامياتها الموجودة عند إلتقاء النيل الأبيض والسوبات التى كان عليها القيام بدوريات تفتيشية أصبحت لا أثر لوجودها (١٣٨) .

وقد قدمت كتاباتهم وتقاريرهم صورة واضحة لما كان يجرى فى مناطق بحر الغزال والسوبات ومنطقة البحيرات الإستوائية من أعمال ، بحيث أصبح العالم

الخارجى على علم بهذه المأساة ، كما قدموا مقترحاتهم للقضاء على هذا الشر . وقد أكدوا جميعاً ضرورة تقوية قوات الحكومة المرابطة عند إلتقاء النيل الأبيض والسوبات حتى يمكن أن تقوم بدوريات تفتيشية ناجحة الأثر . وإذا أريد القضاء على قوة هؤلاء التجار فى غندو كرو فلا بد من وجود قوة قوية فى بحر الجبل . وبالإضافة إلى ذلك فإنه يمكن لمفرزة من القوات المصرية تتكون من أربعمئة جندي أن تفرض سيطرة الحكومة على منطقة بحر الغزال إذ أصبح من الضروري أن تمتد سلطة الحكومة إلى هذه المناطق ، وأن تفتح إقليم البحيرات الإستوائية للتجارة المشروعة مع العالم الخارجى ، حتى تكون إجراءاتها ذات فاعلية فى محاربة هذه التجارة (١٣٩) . وفى ضوء هذه الإقتراحات بدأ إسماعيل فى تنفيذ مخططه للقضاء على هذا الشر واستئصاله من السودان (١٤٠) ، فى الوقت الذى تعرض لاتهامات من الصحف الأوربية التى اتهمته بالرغبة التوسعية ومحاولة فرض سيطرته على كل حوض النيل وتكوين إمبراطورية له (١٤١) .

وقد بدأ إسماعيل فى معالجة هذه المشكلة حتى سنة ١٨٧٩م دون أن يلجأ إلى عمليات حربية مع تجار الرقيق ، إذ رأى أن نظام الرق قد تغلغل فى المجتمعات القبلية فى أفريقية . وكان الرقيق يعاملون معاملة حسنة من قبل أسيادهم ، فضلاً عن أن النظم السائدة بين سادة هذه المناطق مكنت تجار الرقيق من أن يزاولوا حرفتهم على أوسع نطاق دون أى عائق (١٤٢) ، حيث أضفوا على هذا النظام صورته البشعة ، إذ اعتمدت تجارتهم على حرق القرى وقنص الرجال والنساء والأطفال وإثارة الحروب بين القبائل . وبعد رحلة قاسية عبر مئات الأميال يتعرض فيها الرقيق لعوامل الموت يصل إلى الأسواق لبيعه .

وقواد هذه المأساة الذين أصبحوا مصدر خطر على السودان كانوا هدف إسماعيل فى حربه السافرة فى الفترة التى تلت سنة ١٨٧٠م (١٤٣) . ذلك إن إسماعيل اعتقد أن نظام الرق يجب أن ينتهى ويتوقف بين الأهالى ، حتى يمكن أن

يضع نهاية لهذه الأعمال فى تلك الجهات . وفى رأى إسماعيل أن هذه الخطوات لا تتم إلا بتطهير النيل الأبيض ووضع نظام دقيق للإشراف على الملاحة ، وكذلك بفتح مناطق النيل العليا وبحر الغزال للتجارة المشروعة ، وإدخال المدنية والحضارة فى هذه الجهات (١٤٤) .

وقد إتخذت خطوات فعالة لتحقيق المرحلة الأولى من مخطط إسماعيل ، عن طريق دوريات تجوب النيل الأبيض حتى يمكن أن تشمل حركة نقل الرقيق . وأصرت السلطات المسؤولة على تفتيش جميع المراكب التى تستخدم هذا النهر ومصادرة رقيقها وحجز رجالها ، حتى يتقرر مصير المراكب ورجالها بتعليمات محددة وصريحة من القاهرة بينما يخلى سبيل الرقيق ويطلق سراحه .

كذلك تمسكت الحكومة ضمن خطتها بالإشراف الدقيق على تصدير الأسلحة والذخائر إلى السودان (١٤٥) ، لحساب تجار الرقيق ، الأمر الذى هدد سلطة الخرطوم . وزيادة على ذلك فقد تطلعت الحكومة إلى وضع حد لسوء استخدام القناصل للإمتيازات الممنوحة لهم ، الأمر الذى دفع إسماعيل إلى مطالبته ممثلى الدول التعاون مع الحكومة المصرية بالتخلى عن حمايتها للتجار ، حتى تستطيع الحكومة المصرية القضاء على تجارة الرقيق فى ممتلكات الباشا التى أصبحت مهددة بنفوذ هؤلاء التجار (١٤٦) .

وكان أن صدرت التعليمات إلى موسى حمدي حكمدار السودان برغبة الباشا فى القضاء على هذه التجارة " إرادة كريمة إلى حكمدار السودان ... إن مبيع وشراء العبيد الذين صار جلبهم من السودان ودارفور صار منعه من طرفنا كلياً . وقد صدر أمر من طرفنا فى هذا التاريخ إلى المالية وإلى مدير جرجا وأسيوط وأسوان فى خصوص عدم إعطاء الرخصة للجلابين المارين عليهم بالأسرى إلى مصر . فحين تصير هذه الممنوعة معلومكم يلزم الدقة والإعتناء التام فى منع مبيع ومشرى الجوارى والعبيد ببلاد السودان سرّاً وجهراً . وإذا وجد جلابين بيدهم

أسرى وقاصدين الجلب إلى مصر يصير حصرهم وإرجاعهم إلى محلهم فتستمر هذه الممنوعة على الدوام بحيث لا يرد أسرى إلى مصر ذكوراً وإناثاً من بعد هذا كلياً وبجازاة من يخالف هذه الإدارة فى حكمداريتكم" (١٤٧) .

وفى مايو ١٨٦٣م أعلن موسى حمدى عن سياسته بالقبض على عدد من القوارب التى تتعامل فى الرقيق عند وصولها الخرطوم من أعالى النيل ، وكان هذا من الإجراءات الشديدة فى ذلك العام ، ثم مصادرة حمولة سبعة مراكب تحمل الرقيق فيما بين " كاكا " و " فاشودة " على النيل الأبيض (١٤٨) . ومنذ ذلك الوقت أخذت السلطات فى الخرطوم تتخذ الخطوات التى تضمن لها سيطرة تامة على النهر كله . وفى نفس العام أرسلت حامية من الخرطوم إلى النيل الأبيض من أجل مراقبة قوارب تجار الرقيق . وفى " كاكا " عسكرت قوة أخرى مكونة من ألف رجل على النيل الأبيض عند فاشودة التى أصبحت مقراً لمديرية النيل الأبيض . وكذلك أنشئت مراكز أخرى على النيل الأبيض لمراقبة القوارب التى تجوب النيل . ولتدعيم الرقابة أرسلت أربع بواخر من القاهرة إلى الخرطوم للمساعدة فى القبض على تجار الرقيق . وقد عهد لاثنين منها بالقيام بالدوريات فى النيل الأبيض . كذلك أرسلت بعض القوات لتدعيم سلطة الحكومة فى غندكرو (١٤٩) .

ولم يكتف موسى حمدى بهذه الإجراءات إذ أصدر فى نهاية ١٨٦٣م عدة لوائح تهدف إلى منع تجارة الرقيق فى النيل الأبيض . وهذه اللوائح اشتملت على شريحة من الضرائب عرفت باسم " الوركو " فقد فرض ضرائب تتراوح بين مائة ومائتين قرشاً على كل العاملين لحساب الرقيق فى النيل الأبيض سنوياً . ولم يسمح لأى سفينة بأن تغادر الخرطوم إلا بعد أن تحصل على تأشيرة من ديوان الوركو ، وتقوم بتسديد ما عليها . كذلك طلب من القناصل منح السلطات الحق فى تفتيش القوارب التى يملكها التجار الأجانب ، وأصبح فى حكم المقرر أن التجار فى الخرطوم مسئولين ويتحملون نتائج أعمال ممثليهم فى النهر .



وقد قوبلت هذه الإجراءات باستياء من التجار واعتبرت الضرائب مرهقة ، فالرجال يعملون نصف العام لذلك لا يقدرّون القيام بدفع هذه الضرائب مما يكسبونه ، ونتيجة لذلك تحمل اسيادهم هذه الضرائب . كذلك اعتبروا أن الهدف من هذه الضرائب هو تدمير تجارتهم وأتهموا سلطات الخرطوم بالرغبة فى العودة إلى احتكار التجارة . واعتقدوا أن الحاكم العام يرغب فوق ذلك فى طرد جميع الأوربيين من النيل الأبيض (١٥٠) . وقد أعلنوا سخطهم بأن إمتنع عدد كبير منهم عن الدفع . ولكن هذا لم يثن عزم موسى حمدى عن تنفيذ سياسته ، بينما صدع للأمر " دى بوبو " و " بونست " فى حين أصرّ على عناده " جون بارترك " وأعلن رفضه الخضوع لهذه الإجراءات ، وأظهر إحتجائه عليها بأن ترك مراكمة وزرائبه ورجاله للحكومة وهدد بشكوى الحكومة المصرية ومطالبتها بالتعويض (١٥١) .

وفى الحقيقة فقد كان الوركو ضرورياً ( أطلق على الديوان الذى أنشأه موسى ويشتمل على لوائح وشرائح ضريبية تحدد فئات الرسوم المفروضة على سفن ورجال الرقيق فى النيل الأبيض ويعطى التصاريحات للسفن قبل إبحارها فى النيل الأبيض بما يفيد سدادها ) لمحاربة تجارة الرقيق ، فقد تدخلت عدة عوامل مهمة جعلت مهمة الورديات المسلحة فى النيل الأبيض بعيدة عن النجاح إذ كان التجار يعلمون مقدماً بتحركات سفن الحكومة ، وبالتالي يستطيعون تفريغ حمولاتهم من الرقيق وتهريبها على ضفاف النهر قبل مقابلتهم المسئولين . وبهذه الطريقة كان التجار يتفادون غالباً إجراءات التفتيش (١٥٢) . ويضاف إلى ذلك أن تجار الرقيق أخذوا يبحثون عن حماية ممثلى الدول الأجنبية برفع أعلام دولهم على مراكبهم ، مما جعل الحكومة المصرية تشكو من نشاط التجار الأوربيين ، فضلاً عن أن الرشوة كانت تجمد طريقها عند بعض الموظفين المسئولين .

هذه الأعمال جعلت مهمة دوريات النيل الأبيض تزداد صعوبة ، لذلك اعتبر الوركو وسيلة لتضييق الخناق على تجار الرقيق فى النيل الأبيض (١٥٣) .



وقد امتد تنفيذ هذه السياسة عبر النيل الأبيض فى مناطق النيل العليا ، إذ بدأت الحكومة بتنفيذ سياسة تهدف إلى تجريد التجار من زرائبهم فى بحر الجبل عن طريق فرض ضرائب جديدة على هذه الزرائب . وهذه الضرائب الجديدة مع ضرائب الوركو جعلت تجارتهم غير مربحة .

وفى أثناء حكمدارية صادق باشا تم تدعيم دوريات التفتيش وإتسع نفوذها واعتبرت فاشودة مركزاً حكومياً . وأرسلت حملة مكونة من ألف رجل لإحتلالها بصفة دائمة . وقد أدى تأسيس هذه المحطة وتدعيمها إلى إغلاق النيل الأبيض فى وجه تجار الرقيق الوافدين من بحر الغزال والسوبات والنيل الأعلى . وكانت نتيجة هذه الإجراءات التى استهل بها موسى حمدى حكمه ، ثم استمر فى تنفيذها صادق باشا ، أن اضطر " دى بونو " إلى التخلّى عن تجارته وبيع منشآته وزرائبه للحكومة بثمان زهيد وترك البلاد(١٥٤) .

وقد سار فى هذا الطريق أيضاً جعفر باشا الذى حكم بالقوة والشدة ، وحارب أولئك الذين اتهموا بالرشوة والفساد . وفى ولاية هذا الحاكم أعيد تنظيم الحكم فى السودان بعد أن ألحقت بممتلكات الباشا مصوع وسواكن . وقد استمر مظهر باشا فى تنفيذ سياسة تجريد تجار الرقيق من زرائبهم بعد أن تلقى تعليمات من إسماعيل صريجة لتحقيق هذه الغرض . ذلك أنه طلب من مظهر باشا أن ، يذل محاولاته فى الإستيلاء على زرائب التجار فى بحر الغزال والنيل الأعلى فى مقابل تعويض عادل ، واعتبرت هذه السياسة استمراراً لمحاربة تجارة الرقيق(١٥٥) . ويعتبر عام ١٨٦٩م من الأعوام الحاسمة فى تاريخ الرق ، إذ تقرر فيه ضم دارفور وبحر الغزال وفتح المديرية الإستوائية .

أما فى جبهة بحر الجبل وغندوكرو ، فقد أنيطت المهمة إلى سير صمويل بيكر بناء على نصيحة أمير ويلز " الذى أصبح فيما بعد ادوارد السابع " (١٥٦) .

وقد منحه الخديو إسماعيل سلطات مطلقة فى المناطق الواقعة إلى الجنوب من غندر كرو حتى خط الإستواء ، وعهد إليه إدخال الوسائل المشروعة ، وإنشاء الملاحة فى البحيرات العظمى الإستوائية وإنشاء سلسلة من النقاط العسكرية يفصل بين كل منها مسيرة ثلاثة أيام ، وأن يعمل على إبطال صيد الرقيق أو الإتجار فيه (١٥٧) .

وقد لقي تعيينه معارضة شديدة من السلطات الرسمية فى مصر ، لأن الرق كان من الأمور المعترف بشرعيتها ، فإبطال هذه التجارة على يد مسيحي كان كفيلاً بإثارة الشعور الدينى (١٥٨) ، فضلاً عن أنه كان بمثابة تحد وإعتداء على حقوق رعايا الخديوى . وقد رأى بعضهم أن المجتمع المصرى بدون رقيق يكون - أشبه بالعربة بدون عجلات (١٥٩) .

وأعترض على ذلك التعيين أيضاً جعفر مظهر حاكم دار عموم السودان ، الذى طالب بأن يتولى ذلك العمل ضباط مصريون ، وحذر من الثقة بالضباط الأجانب فى مثل هذه الحملات الهامة فى أفريقية (١٦٠) .

وكان سير صمويل بيكر رجلاً مغروراً تعوزه اللياقة والسياسة وحسن التصرف (١٦١) إذا صادف عصياناً أو تحدياً ، لجأ إلى القوة والبطش حتى إلى حملة عسكرية صغيرة .

واعترف غوردون - الذى خلف بيكر - بكراهية الأهالى الشديدة لسلفه بيكر فقال ( إن أكبر صعوبة هى استعادة ثقة الأهالى مرة ثانية فقد لقوا معاملة قاسية ) وهنا وضع الدكتور هل Hill مجموعة من النقاط ، إذ لم يشأ أن يكمل عبارة غوردون ، ولكن لورد إلتون إطلع على هذه الوثيقة وأكملها هكذا : ( ومن الغريب الكراهية الشديدة هناك لبيكر (١٦٢) . فإذا علمنا أن كتاب Hill نشر فى سنة ١٨٨١م أدركنا السبب فى حذف هذه العبارة .

ويمكن تلخيص نتائج بيكر فى أنها استطاعت أن تقيم مراكز عسكرية بين غندكرو وفاتيكو ونويرة ، غير أنها فشلت فى تحقيق أهدافها الرئيسية وهى إبطال حركة الرقيق ، وفتح البلاد للتجارة المشروعة وإنزال سفن فى بحيرة البرت وقد حققت نجاحاً كبيراً فى إثارة عدااء الأهالى السود لحكومة الخديوى ، وإنشاء حلف بين الأهالى وتجار الرقيق(١٦٣) .

ولست أدري ما إذا كان التفكير فى تعيين حكام من غير المصريين فى السودان بمثابة تأكيد لنوايا الخديوى وتسجيل لصدق عزمته فى العمل على إبطال تجارة الرق ، ليفوت فى الوقت نفسه على أية دولة أوربية أن تتدخل فى هذه المناطق بحجة مكافحة الرق مدفوعة بعوامل إنسانية أو دينية ، أو أن الخديوى - من ناحية أخرى - كان قد دخل أو بدأ يدخل ، فى مرحلة الخضوع للضغط الأوروبى ، فكانت نصيحة ولى عهد بريطانيا بمثابة إملاء . ومن الجائز أن الأوربيين ، بدأوا منذ ذلك الوقت يتطلعون إلى حوض النيل ويعلمون إرادتهم ، واتخذ ذلك مظهر الإشتراك فى ترشيح أشخاص ، لأن إساعيل لو كان قصير النظر فلا بد أن يدرك أن الحاكم الذى ينتمى لدولة عظمى لا يمكن أن يتجرد عن قوميته ، ولا يمكن أيضاً أن يخلص له إخلاصاً لا شائبة فيه أو يتخلى عن مصلحة بلاده فى إستعمار تلك المناطق . وليس فى ذلك مبالغة فالحوادث كلها تشير إلى ذلك ، إذ لما إقتضت الظروف إغلاق منافذ تصدير الرقيق على شواطئ البحر الأحمر أرسل الخديوى حملة إلى مصب نهر جوبا بقيادة ماليكوب باشا ، لكنها نزلت فى قسمايو جنوبى المصب ، ثم لم تلبث أن انسحبت فى ديسمبر ١٨٧٥م إزاء احتجاج إنجلترا ، وإن كان الكثير يعززون فشل الحملة إلى إهمال غوردون " المعتمد " تحت تأثير مصالح بلاده وإهماله التقدم من الداخل لمديد العون إلى المصريين على ساحل المحيط الهندى(١٦٤) .

وقد اعتذر غوردون بإنعدام كفاءة قواته غير النظامية . وكذلك أعترف لورد إلتون - وهو آخر من كتب عن غوردون - بأن ذلك الإهمال من جانبه

يرجح إن نزول المصريين على الساحل الشرقى أمر لن تحتمله الحكومة البريطانية (١٦٥) .

وهذا دليل آخر على أن غردون لم يتجرد عن قوميته يوماً .

وقد أثار تعيين غوردون خلفاً ليكر غضب الدوائر الرسمية وغير الرسمية ، التى كانت ترى فى هذا التعيين لفئة من الخديوى بقصد الحصول على تأييد إنجلترا فى الأزمة المالية المستحكمة فى مصر . وأدعى البعض أنه كان من المنتظر أن يقوم غوردون بمراقبة إسماعيل باشا أيوب حكمدار الخرطوم الذى لم تكن نزاهته فوق مستوى الشبهات (١٦٦) .

هذه هى الآثار التى ترتبت على الفتح الحكومى لمناطق بحر الجبل على أيدي بيكر وغوردون . أما الجبهة الثانية التى إزدهرت فيها تجارة الرقيق ، فقد كانت فى بحر الغزال حيث انفرد بالسلطة الزبير رحمة (١٦٧) ، الذى تحدى سلطة الحكومة ، ورفض أن يسدد لها أية مبالغ عن زرائبه . وقد حاول مظهر باشا حكمدار السودان إضعاف نفوذه بتسليم إدارة بحر الغزال إلى منافس للزبير هو " كجك على " ولكن الزبير قاوم هذا المشروع بحيث لم يعد أمام الحكومة سوى الالتجاء إلى القوة ، فأعدت حملة بقيادة محمد البلالى للاستيلاء على سلطنة دار فور ، وهى أهم موطن للرقيق فى السودان الغربى ، على أن يتم ذلك بعد إخضاع الزبير فى بحر الغزال ، ولكن الحملة هزمت وقتل قائدها (١٦٨) .

وتعتبر هزيمة البلالى أول ضربة أصابت هيئة الحكومة الخديوية فى السودان . غير أن جعفر باشا مظهر لعب دوره بمهارة ، فحين بعث الزبير باحتجاجاته إلى حكومة الخرطوم ، أبلغه الحكمدار أنه أحيط علماً بذلك . وهكذا منع تحويل الصراع إلى حرب مكشوفة (١٦٩) .

وبدلاً من أن تقضى حملة البلالى على الزبير ، أدت إلى نتيجة عكسية ، وأصبح للزبير السيادة على بحر الغزال . غير أن الحوادث سرعان ما تطورت ، فإن

قبيلة الرزيقات " البقارة " نقضت إتفاقها مع الزبير وباتت تعتدى على التجار اللذين يمرون بديارها ، فاضطر إلى محاربتها ، فهزمها وأحتل شكل فى أغسطس ١٨٧٣ م . وخشى السلطان إبراهيم حاكم دارفور من ازدياد نفوذ الزبير ، فتعهد زعماء الرزيقات بحمايته ، فلم يعد أمام الزبير سوى مهاجمة دارفور ذاتها ، وعرض على الحكمدار إسماعيل أيوب إقليم بحر الغزال ، فصدر الأمر بتسميته مديراً على بحر الغزال فى نوفمبر ١٨٧٣ م . وأعقب ذلك أن زحف الزبير على دارفور من الجنوب ، وتقدم إسماعيل أيوب من الشرق ، وأوقع الزبير الهزيمة بالسلطان إبراهيم فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٨٧٤م (١٧٠) .

وسرعان مادب النزاع بين الزبير وإسماعيل أيوب ، فتوجه الأول إلى مصر فى نوفمبر عام ١٨٧٥م وأستبقاه الخديوى بها .

وبذلك سيطرت مصر على مراكز تجارة الرقيق وصيده فى بحر الجبل وبحر الغزال ودارفور ، إلا أنه وضح إن إقليم يوغوص الواقع بين مصوع والتاكة ، يجد فيه الأحباش ميداناً لصيد الرقيق . وبالفعل أذن الخديوى لمنزنجو حاكم مصوع بدخول يوغوص فتم إحتلال كيرن ، وبعد ذلك تم إحتلال هرر فى الجنوب سنة ١٨٧٥م لسد المنافذ تماماً أمام تجارة الرقيق . على أنه كان من نتيجة ذلك تطويق الحبشة وإثارة شكوك النجاشى بعد أن أحاط المسلمون ببلادها من جميع الجهات . ونشبت حرب الحبشة فى الفترة من سنة ١٨٧٥م - ١٨٧٦م . وترتب عليها نتائج بالغة الخطورة بالنسبة لمصر ، فقد وجهت ضربة شديدة إلى هبة الإمبراطورية المصرية ، وبدأ السودانيون والأحباش لا يحسبون لها حساباً بعد أن كان للحكومة الخديوية سطوة عجيبة فى السودان ، حتى كان جنديها الواحد يهرب رهطاً من الأهلىين (١٧١) فلم يعد للأهالى حاجة للخضوع لحكومة وضحت فيها السيادة للأجانب .



وفي الوقت الذي كانت البلاد تعاني من الآثار التي تترتبت على حرب الحبشة والتي كلفت الخزانة المصرية نفقات طائلة ، عقد الخديوى مع بريطانيا فى ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧م المعاهدة المشهورة الخاصة بتجارة الرقيق (١٧٢) والتي جاء فى المادة الثانية منها إن أى شخص يعمل فى تجارة الرقيق بطريقه مباشرة أو غير مباشرة سوف يعامل معاملة " السارق القاتل " وهى جناية يعاقب عليها فى القانون المصرى بالإعدام . كذلك صدر أمر الخديوى يوم إبرام المعاهدة تنص المادة الأولى منه على تحريم بيع الرقيق من عائلة إلى أخرى فى مصر خلال سبعة أعوام وفى السودان خلال إثنى عشر عاماً . ونصت المادة الثانية على أن اية محاولة للخروج على هذا القانون بعد هذين التاريخين يعاقب مرتكبها بالحبس مدة تتراوح بين خمسة شهور وخمس سنوات (١٧٣) .

وكانت سنة ١٨٧٧م التى وقعت فيها المعاهدة من أحراج الأوقات فى تاريخ الإدارة المصرية فى السودان ، فالخزانة الخديوية على وشك الإفلاس ، مما دفع إسماعيل إلى إتخاذ إجراءات لم تدرس الدراسة الكافية بأمل أن يسهم السودان بمبلغ مائة وخمسين ألف جنيهات سنوياً ، تتحمل منه مديرية خط الاستواء ثلاثين ألفاً ، ومديرية بحر الغزال ما بين خمسة عشر ألفاً . على أن مصادر الإيراد فى هاتين المديريتين كانت قد أتت عليها مصروفات غوردون فى بحر الجبل ، ونفقات حملة دارفور التى قادها الزبير . وفى يونيو من العام التالى ، أمر الخديوى بإتخاذ الإجراءات اللازمة لتحصيل كل الأموال المستحقة للحكومة . ولما كان صرف مرتبات الموظفين معلقاً بتنفيذ هذا الأمر ، فلم يكن له من نتيجة سوى إغضاب الطبقة التى تقوم عليها الإدارة (١٧٤) . وحين صمم غوردون على ضرورة تولية الحكمدارية العامة للسودان ، لم يسع الخديوى سوى النزول على طلبه ، فقد كان يرى أن توتر العلاقات بين غوردون وإسماعيل أيوب جعلت من المستحيل تنفيذ واجبات الأول فى مكافحة الرق خارج نطاق المديريات الاستوائية (١٧٥) .



وتقرر أن يمتد حكم غوردون على السودان جميعه ، ودارفور ، والمديريات الإستوائية على أن يعاونه ثلاثة وكلاء : الأول للسودان ذاته ، والثانى لدارفور ، والثالث لسواحل البحر الأحمر وشرق السودان ، وعهد إليه الخديوى بتسوية مشاكل الحدود مع الحبشة ، كما لفت نظره إلى ضرورة القضاء على تجارة الرق والعمل على تحسين وسائل المواصلات (١٧٦) .

ويرى البعض أن بريطانيا قد وقع اختيارها على غوردون لإتمام عملية نشر الفوضى فى السودان ليسهل عليها وضع يدها عليه بعد إنفصاله عن مصر . هذا فى حين يرى البعض الآخر أن الحكومة البريطانية لم تعتمد اختيار غوردون لنشر الفوضى فى السودان ، إنما رسمت له سياسة محدودة ، هى إلغاء الرق . وهذه السياسة هى التى كانت سبباً فى استنزاف موارد الإدارة المصرية فى المال والرجال . ويقرر البعض أيضاً أن فشل غوردون يرجع إلى ظروف خارجة عن إرادته ، إذ لم يكن للإنجليز عموماً أية دراية بالإدارة بين الشعوب المتخلفة نسبياً ، فيما عدا الهند التى لم يسبق لغوردون أن عمل بها . ولم يكن لبريطانيا رجال ذو خبرة بهذا العمل الدقيق ، وهو حكم خليط من القبائل الإسلامية والوثنية فى مجاهل أفريقية . هذا بالإضافة إلى أن غوردون نفسه لم تتح له الفرصة لكى يتدرب على مهام وظيفته ، فإسماعيل عهد إليه بحكومة السودان دون أن يمدّه بالمستشارين ذوى الخبرة والتجربة لكى يوجهوه . وعلى أية حال ، لم يكن غوردون ليقبل نصيحة أى منهم (١٧٧) . ولذا فإنه لما رجع إلى السودان فى مايو سنة ١٨٧٧م كانت كل خبرته بشؤون الحكم والإدارة لا تزيد عن خبرة عامين قضاهما فى المديرية الإستوائية ، وهى مديرية غير إسلامية وغير عربية . وكان ماضيه العسكرى فى الصين والقرم لا يؤهله إطلاقاً لأن يكون سياسياً وإدارياً ، ولا يدر به كيف يسوس شعوباً إسلامية (١٧٨) . وكانت مسألة الرق شغلة الشاغل ، لأنه كان يدرك أنه رغم ما يتمتع به من سلطات مدنية وعسكرية مطلقة ، فإنه لا يتمكن من إبطال

تجارة الرقيق إلا إذا انتشر على طول حدود البلاد سلسلة من حراس الحدود ، على غرار القوزاق الروسى .

لقد نسى غوردون أن الخديوى قد استخدمه للإدارة لا لكى يشن حرباً صليبية شعواء على تجار الرقيق . ولا شك فى أن القضاء على هذه التجارة ، كان هدفاً من أهداف الخديوى الذى كان يعلم تمام العلم بأن الأملاك السودانية تسير بخطى وثيدة نحو حياة لامكان فيها للرقيق . فضلاً عن أن معالجة مشكلة الرقيق كان جزءاً فقط من تعليمات الخديوى ، وهو عمل دقيق يحتاج إلى شئ كثير من الدقة واللباقة (١٧٩) .

وعندما رغبت الحكومة الخديوية فى إقامة دوريات بوليسية لمراقبة سواحل البحر الأحمر وخليج عدن لتنفيذ نصوص معاهدة أغسطس ١٨٧٧م ، انتهى الأمر بتعيين الكابتن مالكولم ، وهو ضابط بالأسطول البريطانى ، للإشراف على هذه الدوريات . ولم يلبث غوردون أن إصطدام بمالكولم لأن الأخير اعتقل بعض أفراد عائلة " أبى بكر شحيم " محافظ زيلع بتهمة الاتجار فى الرقيق . وساء غوردون هذا الإجراء خشية أن يؤدى إلى تهديد الحكم المصرى فى هذه الأصقاع البعيدة ، فأطلق سراح المعتقلين ، فما كان من مالكولم إلا أن قدم إستقالته إحتجاجاً ، فاستاءت الحكومة البريطانية ورأت فى ذلك لينا " كما لو كان غوردون لا يحس فى نفسه القدرة على معاداة تجار الرقيق صراحة " .

وشاء غوردون أن يثبت لحكومته أنه لا يقل عن مالكولم أو غيره قوة فى مكافحة الرق ، حيث لجأ إلى الأساليب العنيفة وسياسة الضغط لتنفيذ سياسة الإلغاء ، بل لقد عمل إلى التخلص من الموظفين المصريين وإسناد مناصبهم إلى الأوربيين ، فى وقت كانت الإدارة المصرية فى حاجة ماسة إلى الاستقرار والهدوء، كما تناول المناصب الإدارية الكبرى بالتغيير والتبديل . وقد ترتب على تعيين موظفين أوربيين مسيحيين آثار خطيرة مهدت الطريق للثورة المهدية (١٨٠) .

ومن ناحية أخرى شاء الموظفون الأوروبيون أن يشتتوا جدارتهم وإستحقاقهم للمناصب التى يشغلونها ، فأعلنوا حرباً شعواء على تجار الرقيق . والمعروف أن السودانيين لم يؤمنوا يوماً بشرعية سياسة إلغاء الرقيق ، فما بالك إذا ما قام على تنفيذ هذه السياسة أجنبى من الأوروبيين المسيحيين ، مما يثير الظنون بأن فى ذلك إضطهاد للإسلام على يد المسيحية .

وكان الإنجليز أنفسهم بعد إسترداد السودان ، يعلمون أن مسألة إلغاء الرق شائكة للغاية وينبغى تناولها فى شىء كثير من الحذر ، بدليل ما جاء فى تقرير رفعه الكابتن موموردو Memurdo مدير مصلحة مكافحة الرق :

" أن الرقيق فى طريقة إلى الزوال ، ولكنه طريق طويل جداً وأماننا سنوات طويلة لبلوغ نهايته ، وليس من الطبيعى فى شىء أن نتخلص فى الحال من العادات والتقاليد التى عاشت لعدة قرون " (١٨١) .

الخاتمة :

يتضح لنا من خلال العرض السابق عدة نقاط أهمها :

أولاً : كان نظام الرق من الأمور العميقة الجذور فى المجتمع السودانى ، ومن أهم الأركان الذى قامت عليه اقتصادياته ، ومن ثم كان له تأثيراً واضح على حياة السودانيين الاجتماعية والسياسية .

ثانياً : كان هدف محمد على من جلب الرقيق ، الاستفادة منهم فى تكوين الجيش وإلقاء عبء الأعمال العسكرية على عاتقهم ، وأن يترك أبناء الفلاحين المصريين ليتفرغوا لأعمال الزراعة والرى ومواجهة التوسع فى المشروعات الإنمائية الجديدة ، حتى يعمل الجميع من مصريين وسودانيين فى إطار وحدة وادى النيل السياسية .

ثالثاً : بعد فشل تجربة استخدام الرقيق ، فتح محمد على أمامهم أبواب العمالة التى تتناسب مع قدراتهم الذهنية والعضلية ، حتى لا يقعون فريسة للبطالة.

رابعًا : بالغ الكتاب والمؤرخون الأجانب فى تصويرهم لمسألة إعطاء رواتب الجنود من الرقيق - فى بعض الأحيان - ولم يعالجوا المسألة من جميع زواياها المختلفة ، فكان هدفهم من وراء ذلك إعطاء معلومات مبتورة ترتب عليها تشويه الحقائق .

خامسًا : أثبتت الدراسة أن محمد على ، رغم أنه احتكر التجارة فى البلاد التى كان يحكمها ، لم يتاجر فى الرقيق على الإطلاق ، علمًا بأن تجارة الرقيق - وقتذاك - كانت أكثر ربحًا .

سادسًا : أشارت الدراسة إلى أن محمد على كان يكره التجارة فى الرقيق ويمقتها ، وبالتالي تشدد مع حكامه فى السودان لمحاربتها .

سابعًا : إن تدخل بريطانيا لإلغاء تجارة الرقيق فى السودان ، كان ستارًا يخفى أهدافًا عدائية ضده ، ومخططًا لتحقيق أطماع استعمارية ، كما أثبتت الأحداث فيما بعد .

ثامنًا : كان من الصعب القضاء على تجارة الرقيق بين طرفة عين وانتباهتها، بسبب تركيبة المجتمع السودانى نفسه ، وأهمية الرقيق بالنسبة له ، لذلك أحدثت الوسائل العلمية والعملية المشار إليها فى الدراسة كبديل عن نظام الرق وتعويض عن الأرباح التى كانت تعود من التجارة فيه .

تاسعًا : أوضحت الدراسة أنه مما يؤخذ على غوردون أنه أساء تقدير المهمة التى أنيطت به ، فقد ركز كل اهتمامه فى القضاء على تجارة الرقيق دون النظر أو الاهتمام بالتعليمات الأخرى ، ولم يكن هناك من سبب يدعوه إلى التشدد من تلقاء نفسه فى القضاء على تجارة الرق ، فملكية الرقيق لم يكن فيها أية مخالفة لأحكام الشريعة الإسلامية ، فضلاً عن أن الناس كانوا فى حاجة ماسة إلى الرقيق لإنجاز أعمالهم . فلما توقف ذلك المورد الهام من الأيدى فجأة ، نشبت أزمة هزت الكيان الاقتصادى والاجتماعى للبلاد ، وبدأت الناس يلقون اللوم ، لا على

غوردون ذاته بل على الإدارة المصرية . ودفعهم الغضب إلى الاعتقاد بأن الحكومة - بطريقة ما - تعمل ضد تعاليم الإسلام .

عاشراً : أثبتت الدراسة آثار تعيين غوردون لأعداد كبيرة من الأوربيين فى وظائف لا تناسبهم مما أغضب الأهالى حتى أنهم كرهوا الأجانب عموماً بمن فيهم المصريين .

حادى عشر : يؤخذ على غوردون أنه بينما كان يعمل فى خدمة الحكومة المصرية لم يستطيع أن يتجرد من قوميته التى جعلت منه أداة لخدمة السياسة البريطانية والقضاء على أعمال إسماعيل فى السودان . ويشاركنا فى هذا الرأى بعض المؤرخين البريطانيين الذى عاجلوا شئون الإدارة المصرية فى السودان بنزاهة وأمانة (١٨٢) .

ثانى عشر : أشارت الدراسة إلى أن غوردون لم يحاول أن يبحث فى أسباب الرق ووضع فى الإسلام ، والطريقة السليمة التى يمكن بها وضع حد له . وقد قيل عنه أنه وجد السودان فى سلام ورخاء ، وتركه فى يوليو سنة ١٨٧٩م مديناً والثورة على وشك أن تندلع فيه .

### الملاحق (١٨٣)

#### نص المعاهدة :

معاهدة الرقيق مع بريطانيا فى أغسطس سنة ١٨٧٧م .  
لما كان من أقصى آمال كل من حكومتى جناب ملكة بريطانيا العظمى وإيرلنده الحرة وحضرة خديوى مصر التعاون فى إبطال منع بيع الرقيق بالكلية ، وكان قد صمما على عقد معاهدة للوصول لهذا الغرض ، حصل الرضا والإتفاق للواضعين إماءهم آدناه الماذونين بهذا الشأن على تدوين البنود الآتية :

#### بند ١ :

حيث أنه سابق صدور لائحة من الحكومة الخديوية بمنع بيع الرقيق السودانى والحبشى فى الجهات التابعة لها فتتعهد الحكومة المشار إليها أن تمنع منعاً كلياً من



الآن فصاعداً إدخال العبيد السودانين والحبشيين بأراضي القطر المصري وملحقاته سواء كان بطرق البر والبحر المارة بتلك الأراضي وأن يعاقب بأشد الجزاء على مقتضى القوانين المصرية الجارية العمل بها أو بموجب ما سيأتى بيانه بهذه المساعدة كل من وجد متعاطياً بيع الرقيق السودانى أو الحبشى مباشرة أو بواسطة غيره وكذلك تتعهد بأن تمنع إخراج الرقيق السودانى أو الحبشى إلى خارج القطر المصرى وملحقاته منعاً مطلقاً ما لم تحقق وتثبت صحة منعه أو حرите ولا بد أن يذكر بورقة العتق أو الباسبور الذى يعطى لأولئك السودانين أو الحبشيين من طرف الحكومة المصرية قبل خروجهم بأنهم أحرار ويمكنهم أن يتولوا أمر أنفسهم كيف شاءوا بلا قيد أو شرط .

#### بند ٢ :

كل شخص يوجد بأرض مصر أو بمحدودها أو بالجهات التابعة لها بوسط أفريقيا متعاطياً بيع الرقيق السودانى أو الحبشى مباشرة أو بواسطة غيره تعتبره الحكومة المصرية هو ومن يكون مشتركاً معه بمنزلة السارقين القاتلين فإن كان من تبعيتها يحاكم أمام مجلس عسكرى وإلا تحال محاكمته على المجالس الخاصة بذلك وترسل لها المحاضرة المحررة من الجهة العليا الدالة على صحته للحكم فيها بمقتضى قوانين الحكومة التى يكون تابعا لها مادامت هذه القوانين تجيز ذلك . وما يوجد من الرقيق السودانى أو الحبشى بأيدي أى تاجر كان يصير اعطاؤه حرته ومعاملته بمقتضى المدون ببند ٣ الآتى والمذيل المؤشر بحرف أ المتمم لهذه المعاهدة .

#### بند ٣ :

نظراً لكون إعادة الرقيق السودانين أو الحبشيين لبلادهم بالتالى سواء كانوا منزوعين من أيدي المتجرين فيهم أو معتوقين يتعذر حصولها وينشأ منها إما هلاكهم من التعب أو الفاقة أو وقوعهم فى ربة الرق ثانياً تستمر الحكومة بأن تجرى معهم الإجراءات السابق إتخاذها بمعرفتها فى حق الرقيق ومذكورة فى الذيل المؤشر بحرف أ المحكى عنه .



بند ٤ :

تستعمل الحكومة المصرية سطوتها على قدر الاستطاعة لمنع ما يجرى من المقاتلات بين قبائل أفريقيا الوسطى بقصد الاستيلاء على الرقيق وبيعه وتعهده بأن يعامل معاملة القتاتلين كل من يوجد متعاطياً بيع الأولاد أو جلبها فإن كان المرتكبون لذلك من تبعية الحكومة المصرية تصير محاكمتهم أمام مجلس عسكري وإلا تحال محاكمتهم على المجالس المختصة بالحكم وترسل لها المحاضر والأوراق والمستندات للفصل فى الدعوى بمقتضى قانون بلادهم كما هو مذكور ببند ٢ .

بند ٥ :

تتعهد الحكومة المصرية بنشر أمر خصوصى يرفق بهذه المعاهدة ويكون من مقتضاه منع بيع الرقيق بالكلية فى أرض مصر من ابتداء تاريخ يتحدد بالأمر المشار إليه وتخصيص نوع الجزاء التى يترتب على من يخالف منطوقها .

بند ٦ :

لأجل زيادة الوثوق من منع بيع الرقيق السودانى أو الحبشى بالبحر الأحمر ترتضى الحكومة المصرية بأن السفن يجرى التفتيش والبحث والقبض عند اللزوم على أى مركب تكون متعاطياً تجارة رقيق من السودانين أو الحبشيين وتسليمها لأحد مراكز الحكومة المصرية القريب من محل الواقعة أو للمركز الأوفق لأجل الحكم على تلك المراكب بما تلزم . وكذلك يصير ضبط أى مركب مصرية تحقق فيها شبهة وجود رقيق للبيع أو تكون قد تعاطت بيع الرقيق أثناء سفريتها . وإجراء التفتيش وضبط الرقيق يكونان بخليج عدن وساحل بلاد العرب وبالجبهة الشرقية من أفريقيا وبمياه سواحل مصر والجهات المقابلة لها ما يوجد من الرقيق السودانى أو الحبشى بأى مركب مصرية وتضبط بمعرفة المراكب الإنجليزية لدى التفتيش يبقى تحت إذن الحكومة الإنجليزية . وهى تتعهد بإجراء ما يقتضى لحصوله على تمام الحرية أما المراكب وشحناتها وطقم بحريتها فيصير تسليمه لأقرب مركز من مراكز الحكومة المصرية لمحل الواقعة أو للمراكز اللأثق لأجل توقيع الحكم عليها بما يلزم

فإذا لم يتيسر لقبطان المركب الإنجليزى تسليم ما يكون صار ضبطه من الرقيق محل تابع لحكومة الإنجليز أو إذا دعت الضرورة من مصلحة الرقيق سودانى أو حبشى لتسليمهم للحكومة المصرية فالحكومة المشار إليها تتعهد بناء على طلب قبودان المركب الإنجليزى أو الضابط الذى تستينه لذلك أن يقبل الرقيق سودانى أو حبشى يعطيهم حريتهم وتمنحهم الامتيازات التى تمنحها للرقيق السودانى أو الحبشى المضبوط بمعرفة جهاتها ، كذلك تقبل الحكومة الإنجليزية من جهتها بأن أى مركب إنجليزية سائرة ببنديرة إنجليزية فى البحر الأحمر أو خليج عدن أو فى ساحل بلاد العرب أو فى المياه الداخلية بالقطر المصرى أو فى الجهات التابعة لهم متعاطية التجارة فى الرقيق السودانى أو الحبشى يصير تفتيشها بمعرفة الحكومة المصرية إنما المركب بشحناتها وطقم بحريتها يصير تسليمها لأقرب جهة من الجهات الحكومية الإنجليزية لأجل توقيع الحكم عليها . وما يصير ضبطه من الرقيق سودانى أو حبشى تعطى لهم الحرية بمعرفة الحكومة المصرية وتبقى متولية أمره إذا حكم بعدم صحته الجز أو إقامة الدعوى من المجلس المختص بالحكم فالحكومة التابعة لها المراكب التى أجرت ذلك تكون ملزمة بأن تعطى تعويضاً لائقاً بحسب الأحوال لحكومة المركب التى صار ضبطها أو إقامة الدعوى عليها .

بند ٧ :

يكون إجراء العمل بهذه المعاهدة فى القطر المصرى لحد أصوان من تاريخ توقيع الإمضاء عليها وفى ملحقات الحكومية المصرية بأفريقيا العليا وسواحل البحر الأحمر من بعد مضى ثلاثة شهور من ذلك التاريخ بناء عليه فقد تحررت هذه المعاهدة بتاريخ ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧م وتوقعت عليها إمضاء وأختام الواضعين أسماءهم فيه أدناه

فيفيان

شريف

\* \* \*

والواقع أنه لا يمكن معرفة الدوافع التى جعلت إسماعيل يوقع على هذه المعاهدة وهى تحوى التزامات كثيرة على مصر من أجل المداومة على مقاومة الرقيق فى الوقت الذى كانت الحالة المالية فيه تسير من سئ إلى أسوأ . ويكفى أن تعلم أن كلا من إنجلترا وفرنسا كانتا قد أرغمتا إسماعيل على إنشاء لجنة صندوق الدين فى مايو ١٨٧٦ لإيجاد وسيلة لتسوية دين مصر البالغ ٩١ مليوناً من الجنيهات والتى كانت أرباحها ٧٪ فى كل عام بل أنهما أجبرتاه خديوى مصر بعد ذلك على تعيين مراقبين عموميين لحسابات الحكومة أحدهما إنجليزى يراقب الدخل والآخر فرنسى يراقب المنصرف وهذا النظام عرف بالمراقبة الثنائية .

ونحن نعتقد أن إسماعيل قد وقع هذه المعاهدة للدافع الشخصى ، وهو شهرته وعظمته إذ يقوم بدور مهم فى مكافحة الرقيق وبذلك تجوب سمعته أنحاء أوربا كلها . والرجل كما هو معلوم عنه كان يميل إلى كل ما يتعلق بالمظاهر التى تجعل منه رجلاً عظيماً فاخراً مشهوراً فى أوربا كلها . وربما كان توقيع هذه المعاهدة أيضاً نزولاً على رغبة إنجلترا التى كانت قد أوغلت فى التدخل فى شئون مصر .

### الهوامش

(١) مكى شببكة : السودان فى قرن ( ١٨١٨ - ١٩١٩ م ) ، الطبعة الثانية ، القاهرة

١٩٧٥ ، ص ١٢

(2) DODWELL, THE Founder of Modern Egypt, Astudy of Mohamed Ali, 2nded., Cambridge, 1967, p.50 .

(٣) عبد الرحمن الجبرتنى : التاريخ المسمى عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، الجزء

الرابع ، القاهرة ١٣٦٠ هـ ، ص ٣٠٥

(٤) مكى شببكة : مقاومة السودان الحديث للغزو والتسلط ، معهد البحوث

والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٢ م ، ص ٢٩

(٥) سليمان بن محمد الغنام : قراءة جديدة لسياسة محمد على باشا التوسعية فى

الجزيرة العربية ( ١٨١١ - ١٨٤٠ ) ص ٥٠ وكذا

Dodwell, H., The Founder of Modern Egypt, Astudy of Mohamed Ali, 2nded., Cambrdige, 1967, p.50 .

(6) Henry Dodwell The Founder Of Modern Egypt 1931 .

(٧) دفتر ١٠ معية تركى مكاتبه رقم ١٤٥ بتاريخ ٢٥ جماد الأولى ١٢٣٧ هـ .

(٨) دفتر ١٠ معية تركى مكاتبه رقم ٣٢٥ بتاريخ غرة القعدة ١٢٣٧ هـ .

(٩) دفتر ١٠ معية تركى مكاتبه رقم ٤١٥ بتاريخ ١٢ ذى الحجة ١٢٣٧ هـ .

(١٠) أحمد كاتب الشونة : تاريخ ملوك السودان تحقيق مكى شببكة ص ٢٣ .

(11) Hill : Egypt In The Sudan., London , P.62 .

(12) Richard Gray : AHistory of Southern Sudan Oxford , 1961,p.5.

(١٣) دفتر ١٠ معية تركى ، ترجمة المكاتبه رقم ٦٤ بتاريخ ٢٣ ربيع أول سنة ١٢٣٧ هـ .

(١٤) دفتر ١٠ معية تركى ، ترجمة الكاتبه رقم ٢١٨ بتاريخ ٢٢ رجب سنة ١٢٣٧ هـ .

(15) Shukri, M. F., khedive Ismail and Slavery in the Sudan , 1863 - 1879, Cairo, 1937, P. 74.

(١٦) محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ١٨٢٠ - ١٨٨٥ ، القاهرة

١٩٤٨ ، ص ١٢ - ٣١ .

(١٧) حسن أحمد إبراهيم : محمد على فى السودان ، دار التأليف والترجمة والنشر

الخرطوم (د.ت) ، ص ٥٦ - ٥٧ .

(١٨) دفتر معية تركى ، ترجمة المكاتبات رقم ٣٢٥ بتاريخ ١٠ ذو القعدة سنة ١٢٣٧ هـ .

(١٩) يرى الأستاذ الشاطر البصيلي أن المماليك هم الذين دبروا مقتل إسماعيل استنادًا إلى أن خطة الغدر التي دبرت لإغتياله لم تكن معروفة في السودان آنذاك ، كما أن المماليك هم أصحاب المصلحة الحقيقية لإغتياله نسبة للعداء المستحكم بينهم وبين محمد علي . انظر : الشاطر البصيلي : معالم تاريخ السودان وادى النيل ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ١٣٤ ورغم أن الوثائق لا تنير الطريق أمامنا في هذا الموضوع الهام فهي تركنا وقد غدر إسماعيل ودمدنى وتنتقل بنا فجأة إلى حملات الدفتردار الانتقامية ، إلا أن الكثير من الرحالة الذين زاروا السودان في عهد محمد يؤكدون على أن إسماعيل قتل بمؤامرة دبرها عمر زعيم الجعليين . انظر حسن أحمد إبراهيم : المرجع السابق ، ص ٥٨ (٤) .

(٢٠) دفتر ١٤ معية تركى، ترجمة المكاتبه رقم ٤٢٤ بتاريخ ١٧ شوال سنة ١٢٣٩هـ.

(٢١) كل ثلاثة مقاطع من بفتة القطن تساوى ريالاً فرنسيًا ، دفتر ١٠ معية تركى ،

ترجمة الوثيقة رقم ٥٠ بتاريخ ١٥ ربيع الأول سنة ١٢٣٧هـ .

(٢٢) فى أوائل رجب سنة ١٢٣٧هـ - ١٨٢٢م ثار جنود أحد القواد فى السودان

يدعى حسين أغا مطالبين بمتأخرات رواتبهم ، وخوفًا من انتشار الفتنة أمر الدفتردار بصرف مائة قرش لكل واحد منهم ، إلا أنه ما هدأت الفتنة حتى قبض على الرؤوس التى حركتها وأعدمهم رميًا بالرصاص ، دفتر رقم ١٤ معية تركى وثيقة رقم ٤٢١ بتاريخ شوال سنة ١٢٣٧هـ .

(٢٣) دفتر ٢٢١ عابدين " قسم السودان " ترجمة المكاتبه رقم ١٧ ، ١٨ ص ٤ بتاريخ

٣ رمضان سنة ١٢٥٣هـ .

(٢٤) الوقائع المصرية العدد ١٥٥ بتاريخ الاثنين ٢٩ ذى الحجة سنة ١٢٤٥هـ .

(25) Pallme , Travels in kordofan , London 1844,p.342 .

(26) Shukry, M . F., Op.,cit.,p.75 ..

(27) Ipid.,p.76 .

(28) Hill, R.,On The Frontiers of Islam , Oxford, 1970,P.9.

(29) Ibid ., p.p.4-5 .

(30) Hill R., Egypt in the Sudan p 63 .

(31) Hill R.: On the Frontiers of Islam, pp. 12 - 13 .

السبب الرئيسى الذى برر به خورشيد هذا الهجوم على بلاد الشلك هو معاقبة قبائلها

لاعتداءاتها المتكررة على العرب الذين سكنوا بالقرب منهم .

- (32) Hill , R., op. Cit.,p.13 .
- (٣٣) الوقائع المصرية ، عدد رقم ٣٩٩ بتاريخ الثلاثاء ١٥ محرم سنة ١٢٤٨ هـ .
- (٣٤) الوقائع المصرية ، عدد رقم ٣٨٨ بتاريخ السبت ٣ محرم سنة ١٢٤٨ هـ .
- (35) Palme,I.,op. cit ,. pp 279 - 280 ..
- (36) Hamont, P.A.L'Egypte sous Mehomet Ali , Paris, 1845,pp.579-580 .
- (37) Dehrain, Le Sudan EGYPTIEN SOUS MEHOMET Ali, Paris 1940, pp. 189-190.
- (٣٨) محمد فؤاد شكرى ومحمد أنيس : نصوص وثائق فى التاريخ المعاصر، ص ١٢٣ .
- (39) Richard Gray, Op. cit.,. p.5 .
- (40) Pallme,I.,Op.cit,p.280 .
- (٤١) دفتر ١٠ معية تركى ، ترجمة المكاتبه رقم ٥١ ربيع الأول سنة ١٢٣٧ هـ .
- (٤٢) دفتر ١٠ معية تركى ، ترجمة المكاتبه رقم ١٦١ بتاريخ ٤ جمادى الثانية سنة ١٢٣٧ هـ .
- (43) Pallme, I., op,cit.,p.309 .
- (٤٤) دفتر ١٠ معية تركى مكاتبه رقم ٢٤١ بتاريخ ٨ شعبان ١٢٣٧ هـ وكذا .
- السيد رجب حراز المدخل إلى تاريخ مصر الحديثه القاهرة ١٩٧٠ م ، ص ٣٤٠ .
- (٤٥) مكى شبكه : تاريخ شعوب وادى النيل " مصر والسودان فى القرن التاسع عشر " ص ٣٤٠ .
- (٤٦) مكى شبكه : مرجع سابق ص ٣٤٠ .
- (٤٧) د . السيد رجب حراز : مرجع سابق ص ٢٢٨ .
- (٤٨) سليمان بن محمد الغنام : المرجع السابق ص ٥١ .
- (49) Hill ,R.Op.cit.,p.108 .
- (٥٠) دفتر ١٠ معية تركى مكاتبه رقم ٥٤١ بتاريخ ٨ شعبان ١٢٣٧ هـ وكذا .
- دفتر رقم ٤١٣ معية تركى مكاتبه رقم ٥٨٨ بتاريخ ٢٠ ربيع الثانى ١٢٦٣ هـ .
- (٥١) دفتر ٦ معية تركى ترجمة المكاتبه رقم ٧٦٨ ص ٣١١ بتاريخ ذى الحجة ١٢٣٦ هـ وكذا .
- حسن أحمد إبراهيم : المرجع السابق ، ص ٥٤ .
- (٥٢) دفتر ١٦ معية تركى مكاتبه رقم ١٥٤ بتاريخ ٢٤ جماد أول ١٢٣٩ هـ .



- (٥٣) دفتر ٢٥ معية تركى مكاتبة رقم ٢٤٤ بدون تاريخ .
- (٥٤) دفتر ٦٦ معية تركى أمر ٦٨ بتاريخ ٢٨ ربيع الأول ١٢٥١هـ .  
(55) Shukry, MF.,OP.cit.,P.75 .
- (٥٦) دفتر ديوان الخديوى بلا رقم ، وثيقة رقم ١١ بتاريخ ٢١ جمادى الأولى ١٢٤٥هـ .
- (٥٧) دفتر ٤١٣ صادر المعيشة السكنية ، ترجمة المكاتبات رقم ٢٥٨٨ بتاريخ ٢٠ ربيع الآخر ١٢٦٣هـ .
- (٥٨) دفتر ١٦ معية تركى ، ترجمة الأمر رقم ١٥٤ بتاريخ ٢٤ جمادى الأولى سنة ١٢٣٩هـ .
- (٥٩) الوثيقة السابقة .
- (٦٠) دفتر ٢٥ معية تركى ، ملخص الوثيقة التركيبية رقم ٢٤٤ بدون تاريخ .
- (٦١) من تقرير بورنج صاحب التقرير المشهور عن مصر فقد حضر إلى مصر عام ١٨٣٧م وكتب عن أحوال مصر ضمنها ذلك التقرير . ولعل مما أدى إلى خسارة المزارع المصرى سخاؤه ومعاملته الطيبة للرقيق وعدم إرهابه فى العمل - عكس ما كان يلقاه الرقيق فى أوربا ، فقد كان لا يهتم السيد الأبيض إلا استغلال السود مما ترتب عليه تقدم كبير فى اقتصاديات تلك البلاد انظر .. محمد فؤاد شكرى وآخرين : وبناء دولة مصر محمد على ، القاهرة ١٩٦٧م ص ٥٦٣ .
- (٦٢) دفتر رقم ٧١ صادر المعية ، الوثيقة رقم بتاريخ ٢٧ ذو الحجة سنة ١٢٥١هـ .
- (٦٣) من تقرير بورنج : ترجمة د. محمد فؤاد شكرى وآخرين : مرجع سابق ، ص ٧٨ .
- (٦٤) دفتر ١٠ معية تركى مكاتبة رقم ١٢٠ بتاريخ ١٢ جمادى أول ١٢٣٧هـ وكذا . تقرير بورنج : محمد فؤاد شكرى وآخرين : مرجع سابق ، ص ٥٨٩ .
- (٦٥) مارس بعض الأجانب التجارة فى الرقيق فى ظل حماية قناصل دولهم ، الذين استغلوا الامتيازات التى كانت لدولهم فى الولايات العثمانية .
- (٦٦) شوقى الجمل : تاريخ السودان وادى النيل ، الجزء الثانى ، القاهرة ، ١٩٦٩ ص ٨٧ - ٨٨ .

- (٦٧) حسن أحمد إبراهيم ، المرجع السابق ، ص ٧٥ .
- (٦٨) د . أنجلو ساماركو : رحلة محمد على إلى السودان ( تعريب طه فوزى ) القاهرة ١٩٤١ م ، ص ٨٧ .
- (٦٩) د . محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ، القاهرة ١٩٤٧ م ، ص ١٦٤ .
- (٧٠) سليمان بن الغنام : المرجع السابق ، ص ٥٢ .
- (٧١) كان يسمى الرقيق الأسود بالعبيد ، ويسمى الرقيق الأبيض بالمماليك .
- (72) Goodell , W Slavery and anti - Slavery , London 1852, p.6.
- (73) Coupland, R : The British anti - Slavery Movement , London 1933, pp .Johnston ,: History of the Colonization of Africa , cambridg , 1899.p151 .
- (74) Goodell , W.,op.cit.p.6.
- (٧٥) كانت السفن البريطانية تقوم بما هو معروف بالرحلة المثلثة ، بمعنى أن تقلع من أوروبا حملة بالبضائع مثل الأسلحة والخمور وغيرها ، وتحصل فى مقابلها على الرقيق من أفريقيا ثم تنجيه به إلى العالم الجديد ، لبيعه هناك وتشتري بثمنه المنتجات والسلع الأمريكية ، وتنقلها إلى الأسواق الأوربية فى رحلة العودة ، وقد ترتب على ذلك تدمير للمجتمعات الأفريقية ، يقابله تقدم وازدهار فى المجتمعات الغربية ، فقد شارك الرقيق الأفريقى بنصيب وافر فى بناء الاقتصاد الأمريكى قبل ظهور الثورة الصناعية وما ترتب عليها من إنتاج واسع .
- (76) Harris, H.J.H., Slavery or Sacred Truth , 1926,pp.10 - 11 .
- (٧٧) حسين مؤنس : الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ص ١٦٦ وهكذا
- Hill , R,Op. cit., p.8.
- (٧٨) جورنج يانج : تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل، تعريب على أحمد شكرى القاهرة ١٩٣٧ م ، ص ٥٨ .
- (٧٩) محمد فؤاد شكرى بناء دولة محمد على ، ص ٥٧٨ .
- (80) Shukry, M.F., Op. cit.,p.79 .
- (٨١) محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ، ص ٥٧٨ .
- (٨٢) من رسالة الكولونيل كامبل التى أرسلها إلى يلموستون انظر : محمد شكرى وآخرين : المرجع السابق ٥٧٩ .
- (٨٣) من تقرير يورنج انظر : نفسه ، ص ٥٧٨ .
- (٨٤) من تقرير يورنج انظر : محمد فؤاد شكرى وآخرون : المرجع السابق، ص ٥٨٢ .

(85) Shukry M.F.,:op.cit.,p.78 .

(٨٦) دفتر ٢٢١ عابدين ( قسم السودان ) ، ترجمة المكاتب التركبة رقم ١٨٤/١٧ مسلسل ١٥ اصلى ورقة ١٠٥ ص ٤ بتاريخ ٣ رمضان سنة ١٢٥٣هـ إلا بالمرسلون لاحظ فى رسالة أسلها إلى كامبل ببتاريخ ١٧ يناير ١٨٣٨ أن " هذا الأمر ما يزال فى ظاهره يسمح للضباط فى جيش الباشا بأن يحشدوا العبيد أو يقنصوهم ويبعثوا بهم إلى القاهرة حيث يباعون " انظر : محمد شكرى وآخرون : المرجع السابق ، ص ٥٨٣ .

(٨٧) حسن أحمد إبراهيم : المرجع السابق ، ص ٧٥ .

(88) Shukry , M.F.,op. cit ., p. 86 .

(٨٩) أنجلو ساماركو : رحلة محمد على للسودان ، تعريب طه فوزى ، القاهرة ١٩٤١ ، ص ٣٢ .

(٩٠) من تقرير يرونج : محمد فؤاد شكرى وآخرون مرجع سابق ، ص ٥٨٩ .

Madden . R.R ; Egypt and Mohamed Ali " London, 1841pp. 112 - 113 .

(٩١) غضبت بريطانيا من محمد على لاحتكاره تجارة الحرير فى الشام والبن فى اليمن والصمغ والعاج فى السودان بجانب التجارة فى مصر ، فأبرمت مع الدولة العثمانية إتفاقية تجارية فى عام ١٨٣٨م وذلك لفك هذا الاحتكار وضد سياسته التوسعية ، وتمكنت بريطانيا بمقتضى معاهدة لندن عام ١٨٤٠م من أن تحصر قوته وتحددها فى داخل مصر نفسها .

(92) F.O. 78/381 . Repport of Bowting . p.329.

(93) Madden R.R.,: op.cit , pp.110 - 114 .

(٩٤) شوقى الجمل : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر ( ١٨٦٣م - ١٨٧٩م ) ص ١٤٤ .

(95) Shukry , M.e:Op. Cit , p.55; Hill , R.:op . cit .,p.29 .

(٩٦) عبد العزيز أمين عبد المجيد : التربية فى السودان ، الجزء الثانى القاهرة ١٩٤٩م (ثلاثة أجزاء) الجزء الثانى ، ص ١٣ .

(٩٧) دفتر رقم ١٠ معية تركى وثيقة رقم ١٣ بتاريخ ٧ محرم ١٢٣٧هـ .

(٩٨) محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ، القاهرة ١٩٤٧ ، القاهرة ، ص ٢٩ .

(٩٩) دفتر رقم ٢٦ معية تركى مكاتبه رقم ١٠٠ وتاريخ ٢٩ رجب ١٢٤٢هـ .

(١٠٠) جورج ياتج : المرجع السابق ص ٨٥ .

(101) Shukry M.F., m.f ., The Khedive Ismail and slavery in the Sudan (1863 - 1876) . Cairo 1938 ) p.55 .

(١٠٢) أنجلو سارماكو : المرجع السابق ، ص ٨٧ .

(١٠٣) شوقي عطا الله الجمل : تاريخ السودان وادى النيل ، الجزء الثانى ، ص ٨٠ .

(104) Holt , P.M., A Modern History The Sudan , Oxford 1958 .. P.63.

(105) Walis Budge , E.A., p.43The Egyptian Sudan , VAL.2, ,P.225..

(١٠٦) تمكنت بريطانيا بمساعدة بعض الدول الأوروبية وتركيا من فرض ما عرف

بالتسوية الدولية ( ١٨٤٠ - ١٨٤١ ) التى بمقتضاها قصر دولة محمد على - على مصر

والسودان تغلغل القوذ الأوربي فى البلاد ، حيث صارت مصر نفسها تحت إشراف الدول

الأوربية الضامنة لتلك التسوية .

(107) Shukry , M.F.,op.cit,p.61.

(108) Holt, P.M.,op.cit.,p.61 .

(109) Shukry , M.F.,op.cit ., A.95.

(110) Robinson, The Rulers of The Sudan , London ,1928,pp.42-43 .

(111) Shukry , M.F., OP.CIT.,P.96 .

(112) Menlly, G : Khartoum and the Bule and White Nile . vol 2. ' London 1851 ' p.183 .

(113) Shukry, M.F.,: op.,cit.pp 96. 97 .

(114) Burn Rollet;Le Nil Blanc et la soudan , Paris 1855, p.178 .

(115) Walis Badge , E.A., op.cit.p.225.

(116) Holt,p.M., op.cit .,p.63 .

(117) Walis Budge., E.A., op.cit .,pp.- 221 - 222 .

(118) Gray , R.,op.cit ., p.51 .

(119) Shukry , M.F.,op.cit,p.108 .

(120) Walis Budge , E.A., op. cit , p.225 .

(121) Shukry , M.F., op.cit .,p. 109 .

(١٢٢) دفتر ٧١ قيد اللوائح مكتابة رقم بتاريخ ١٤ ربيع أول ١٢٧١ هـ .

(123) Shukry , M.F.,op.cit .,p.112 .

(124) Gray , R., op.cit.,p73 .

(125)Ibid.,

(١٢٦) مكى شبكة المرجع السابق ص ٥٨ .

(127) Shukry , M.F., op.cit.,p.116 .

(128) Shukry M.F.,cit.,p.118 .

(129) Walis Badge E.A,op.cit .,p.225 .

(130) Gary R.,op. cit., p82.

(131) Shukry M.F.,op.cit.,p.118 .

(١٣٢) محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى ، ص ١٦٦ .

(133) Holt P.M., op.cit ., p.61 .

(١٣٤) المرجع السابق ، ص ٧٩ .

(135) Gray R.,op. cit ., p.p 56,61 .

(136) Shukry M.F.,op .124-125 .

(137) Colvile H.E. History of the Sudan 1889 , p4 .

(138) Holt P.M., op. cit ., p.63 .

(139) Shukry M.F., op. cit ., p.127 .

(140) Holt P.M., op. cit ., 66.

(141) Wudlge E.A., op.cit., p.2260 .

(142) Nieber . H. J . Slavery as on Industrial System , 1910,p.137 .

(143) Walis Budge E.A., op. cit., pp . 225 - 226 .

(144) Shukry M.F., op. cit ., p. 131 .

(١٤٥) مكى شبيكة : المرجع السابق ، ص ٨٢ .

(١٤٦) محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ، ص ١٧٣ .

(١٤٧) دفتر ٧١ تركى مكتبة رقم ١٠ بتاريخ ١٤ ربيع الأول سنة ١٢٨١هـ .

(١٤٨) نعيم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ، الجزء الثانى ،

بيروت ١٩٦٧م ، ص ٥٢ .

(149) Shukry M.F., op. cit ., p.132 .

(150) Shukry Ibid ., op. cit , p.132.

(١٥١) كان من الثابت أن فى وقت صدور " الوركو " كان رجال " يترك "

يتاجرون فى الرقيق وبعد مراسلاته مع الحكومة المصرية من وجهة ومع الحكومة البريطانية من

جهة أخرى وافق إسماعيل على دفع تعويض له عن منشأته بلغت خمسمائة عشر ألف من الجنيهات.

(152) Walis Bude E .A.,op cit., p. 228 .

(153) Shukry M.F., op .cit., p. 139 .

(١٥٤) فؤاد شكرى المرجع السابق ، ص ١٧٣ .

(١٥٥) إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، الجزء الثانى بولاق مصر

١٣١٢هـ ، ص ٣١٤ ، ٣١٦ .

(156) Allen : Gordon and the Sudan , London 1931 . p.I.

(١٥٧) انظر نص العقد المبرم بين الخديوى وبيكر فى ٢٧ مارس ١٨٦٩م

نقلًا عن وثائق عابدين محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٢٥٥ .

(158) Holt . P.M., op cit., p.26.

(159) Archer, I.: The War in Egypt and The Sudan , Vol I., London 1886, p. 123.

(١٦٠) إسماعيل سرهنك : المرجع السابق ، ص ٣٣٥ .



- (160) Halt P.M., op. cit ., P.27 .  
(162) Lord Elton , General Gordon , London , 1954., p.170 .  
(163) Shukry M.F.,op. cit ., p 174 .  
(164) Ibid .,p.264 .
- (١٦٥) تعليمات الخديوى إلى غردون فى ١٦ فبراير ١٨٧٤م انظر : محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ، ص ٢٦٤ ، ٢٦٧ .
- (١٦٦) إبراهيم فوزى : السودان بين يدي غردون وكتشتر ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٠٢م ، ص ١ .
- (١٦٧) عن تاريخ حياة الزبير رحمة ، انظر نعوم شقير : المرجع السابق ، ص ٦٠ - ٨٨  
(168) Shukry M.F.,op. cit p. 152 .  
(169) Sobry : M., L egyptien sous Ismaol , Paris 1933. p.339 .  
(١٧٠) محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ، ص ١٨٦ .  
(١٧١) نعوم شقير : المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص ١٣٨ .  
(١٧٢) انظر ملحق رقم (١) فيه نص المعاهد بالتفصيل .
- (173) Gordon , H.W.: Events in the Life of Gordon From its Beginning to its End , London 1886 , p.126 .  
(174) Holt P.M., op . cot., p.26 .  
(175) Cratites , p.: Gordon , the Sudan , and Slavery , london 1933. p .79 .  
(١٧٦) محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ، ص ٢٠٤ .
- (177) Hill,R ., op.cit. ,p147 .  
(178) Ibid., p.145 .  
(179) Ibid., p. 146 .  
(180) Holt , P.M., op . cit ., p.30 Shukry ,M.F., op cit ., pp .297 - 299 .  
(181) Cromer The Earl of Modern Egypt Vol. I, New York 1908. pp. 553-554.  
(182) Hill . R., op . cit., pp . 145 - 146 .
- (١٨٣) محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ، الوضع التاريخى للمسألة ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ١١٧ / ١٢٠ .



## قائمة المصادر والمراجع

### أولاً : وثائق أصلية :

وهى مودعة بدار الوثائق القومية ، بالقلعة ، فى الدفاتر الآتى أرقامها :  
دفاتر معية تركى أرقام : ٦ ، ١٠ ، ١٤ ، ١٦ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٤١٣ .  
دفتر عابدين رقم : ٢٢١ .  
دفتر ديوان خديوى تركى بدون رقم :

### ثانياً : وثائق منشورة :

١ - تقرير " جون بورنج " Bowring ويتضمن حالة البلاد من النواحي  
الاقتصادية والإدارية والعسكرية ، بجانب حديث محمد على عن الرق  
وتجارته أنظر محمد فؤاد شكرى وآخرون بناء دولة مصر محمد على ،  
القاهرة ١٩٦٧م ص .

٢ - تقرير باتريك كامبل قنصل إنجلترا العام فى مصر وقد تناول فى هذا  
التقرير الذى رفعه إلى اللورد بالمستون فى ٦ يوليو ١٨٤٠م ، أحوال  
مصر الاقتصادية والسكانية ونظام الرق فى السودان والتجارة فيه وقد  
جاءت ترجمته العربية بكتاب محمد فؤاد شكرى .

### ثالثاً : المصادر والمراجع العربية :

- إبراهيم فوزى : السودان بين يدى غردون وكتشتر ، القاهرة ١٩٠٢م .  
- أحمد شفيق : الرق فى الإسلام ، الطبعة الأولى ، المطبعة الأهلية ١٣٠٩هـ .  
- أحمد كاتب الشونة : تاريخ ملوك السودان ، تحقيق مكى شببكة .  
- إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، جزءان ، بولاق مصر  
١٣١٢هـ .

- السيد رجب حراز : المدخل إلى تاريخ مصر الحديث ، القاهرة ١٩٧٠م .  
- الشاطر بصيلى عبد الجليل : معالم تاريخ السودان وادى النيل من القرن العاشر  
إلى القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٥٥م .

- جورج بانج : تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل تعريب على أحمد شكرى ، القاهرة ١٩٣٧ م .
- حسن أحمد إبراهيم : محمد على فى السودان ، دار التأليف والترجمة والنشر ، الخرطوم (د.ت) .
- حسين مؤنس : الشرق الإسلامى فى العصر الحديث القاهرة .
- سليمان محمد الغنام : قراءة جديدة لسياسة محمد على باشا التوسعية فى الجزيرة العربية ( ١٨١١ - ١٨٤٠ ) تهامة ١٤٠٠ هـ .
- شوقى عطا الله الجمل : تاريخ السودان وادى النيل، جزءان ، القاهرة ١٩٦٩ م .
- شوقى عطا الله الجمل : الوثائق التاريخية السياسية ، مصر فى البحر الأحمر ( ١٨٦٣ - ١٨٧٩ ) القاهرة .
- عبد الرحمن الجبرتى : فى التاريخ المسمى عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، والجزء الرابع ، القاهرة ١٣٦٠ هـ .
- عبد العزيز أمين عبد المجيد : تاريخ التربية فى السودان ، ثلاثة أجزاء ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٩٤٩ م .
- عبد الله حسين : السودان من التاريخ القديم .
- على عبد الواحد وافي : حقوق الإنسان فى الإسلام ، الطبعة الخامسة ، دار نهضة مصر ١٩٧٩ م .
- محمد فؤاد شكرى ومحمد أليس : نصوص ووثائق فى التاريخ المعاصر .
- محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ١٨٢٠ - ١٨٨٥ م القاهرة ١٩٤٨ م .
- محمد فؤاد شكرى وآخرين : بناء دولة مصر، محمد على ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .
- مصطفى مسعد : اليقظ نمط فريد فى مجال العلاقات الدولية فى الإسلام بحث فى مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود ، العدد الخامس ، الرياض ، ١٣٩٥ هـ / ١٩٥٧ م .

- مكى شببكة : السودان فى القرن (١٨١٨هـ - ١٩١٩م) ، القاهرة ١٩٤٧م .
- مكى شببكة : تاريخ شعوب وادى النيل ، " مصر والسودان فى القرن التاسع عشر " القاهرة .
- نسيم مقار : السودان فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٦١م .
- نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافية ، ثلاث أجزاء بيروت ، ١٩٦٧م .
- رابعًا : المترجمة :
- أنجلو ساماركو : رحلة محمد على إلى السودان ، تعريب طه فوزى ، القاهرة ١٩٤١م .
- بوركهارت ( جون لويس ) : رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة والسودان ، تعريب فؤاد أندراوس ، القاهرة ١٩٥٥ .
- خامسًا : الدوريات :
- الوقائع المصرية : عددهم رقم : ٣٩٩ بتاريخ الثلاثاء ١٥ محرم سنة ١٢٤٨هـ .
- الوقائع المصرية : عدد رقم : ١٥٥ بتاريخ الاثنين ٢٩ ذى الحجة سنة ١٢٤٥هـ .
- الوقائع المصرية : عدد رقم : ٣٨٨ بتاريخ السبت ٣ محرم سنة ١٢٤٨هـ .
- خامسًا : الأجنبية :

- Arkell ., History of The Sudan From The Earliest Times to 1821 .
- Allen , B.M. Gordon and The Sudan , London 1931 .
- Archer , T ., The War In Egypt and The Sudan , London 1886 .
- Brace ,. Travels to discover the Source of the Nile , 5 vols . 1970 .
- Cany , Notice Sur Le Darfour et sur Les Cardavans , pARIS 1854 .
- Coupland , R., the British Anti - Slavery Movement , London 1933 .
- Crabites , P., Gordon , The Sudan and Slavery , London 1933 .
- Cromer , The Earl of Modern Egypt . New york 1908 .
- E.Awalis Budge , The Egyptain Sudan , London .
- Doun , G , History da Regna khedive Ismail , Le Caire 1933 .

- Goodell , W ., Slavery and anti - Slavery , London 1922 .
- Gordan , H . W ., Events in the life of Gordon From its Beginning to its end , London 1886 . - Hair ., The Atlantic Slave Trade and Black Africa , London 1978 .
- Harald Macad Macad cheel . The Sudan 1954 .
- Heneri Diherain , Le Sadan Egyptian Soua Mehemet Ali, Paris 1940 .
- Henry Dod well , The Founder of Modern Egypt, 1931 .
- Hill , R., Egypt in The Sudan , London , London 1959 .
- Hamont , P . A L Egypte Sous Mehomet Ali , Paris 1845 .
- Harris , H . J ., Slavery or Sacred Trath , London 1926 .
- Calvile . H . E . History of The Colonization of Africa , Compeiga . Part I . Press 1889 .
- Johnston , H ., History of the Colonixation of Africa , Camb 1899 .
- Lautare , Netice Sar Le Karda fan , Paris 1851 .
- Lord Elton , : Gonerel Gordon , London 1954 .
- Mortin, Stadia Arabica of Islamica. American University of Beirut 1981.
- Madden, R ., Egypt and Mohamed Ali . London 1841 .
- Melly, G., Khartoum and the Blae and White Nile . Vol. 2, London 1851 .
- Nieboer , H.J., Slavery as an Industrial System , 1910 .
- Holt . P . m . Amodorn History of the Sudan , London , 1972 .
- Robinson., The Gray . Ahistory of the Southera Sudan . sfod 1961 .
- Robinson., The Rulers . London 1928 .
- Shukry, M.F., The Khedive Ismail and Slavery in the Sudan , Cairo 1938 .
- Sbry, M.: L'Empire Egyptien Sous Ismail, 1863-1879. PARIS 1923 .

## أضواء على بعض التحف الفنية

التي أهداها السلطان قايتباي للحجرة النبوية

د. عائشة عبد العزيز محمد التهامي(\*)

تحتل دولة سلاطين المماليك<sup>(١)</sup> (٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م) مكانة هامة وموقعًا بارزًا في تاريخ الحضارة الإسلامية . ذلك أن عصر سلاطين المماليك اتصف بالتفوق الحربى والاستقرار الأمنى والنشاط الاقتصادى ، مما انعكست صورته فى الازدهار الحضارى . وساعد على هذا الازدهار وفرة الثراء والمال ، نتيجة احتكار سلطنة المماليك للتجارة العالمية بين الشرق والغرب ، مما عاد على دولة المماليك بالخير فى الداخل والخارج . ويتمثل جزؤ كبير من الازدهار الحضارى فيما خلفه ذلك العصر فى مجال الفنون على تباين فروعها وأوجهها .

ويعتبر عهد السلطان قايتباي<sup>(٢)</sup> من العصور الذهبية فى دولة المماليك الجراكسة ( ٧٨٤ - ٩٢٣هـ / ١٥١٧م ) حيث أمتد حكمه بالديار المصرية والشامية قرابة تسعة وعشرين عامًا ( ٨٧٢ - ٩٠١هـ / ١٤٩٦م )<sup>(٣)</sup> ، وهى مدة طويلة لم يسبقه إليها أحد من سلاطين المماليك ، عدا السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، الذى تسلطن ما يقرب من أربع وأربعين عامًا<sup>(٤)</sup> .

وفى هذا العهد الطويل أثبت السلطان قايتباي أنه من أمهر سلاطين دولة المماليك الجراكسة سواء فى خبرته وحنكته ودرايته بكافة الأمور ، أو فى شجاعته وبُعد نظره ونشاطه وحزمه وقوة شخصيته . وحسبه أن المؤرخ المعاصر ابن أياس<sup>(٥)</sup> ، وصفه بقوله : " وعاش عمره كله فى عز وشهامة من حين كان

---

\* مدرس الآثار الإسلامية - كلية الآداب - قنا .



خاصكيا(٦) إلى أن بقى سلطاناً ، وافر العقل ، سديد الرأي ، عارفاً بأحوال المملكة ، يضع الأمور في نصابها " .

أما ابن العماد(٧) ، فقد وصف أيام قايتباى بأنها أكانت كالطراز المذهب في الخيرات والميراث ، هذا في حين قال السخاوى(٨) : " بأن السلطان قايتباى كان له خضوع لمن يعتقد فيه العلم والصلاح " .

وبخصوص اعتقاده في أهل الدين والصلاح يقول الغزى(٩) : " حكى أنه - أى قايتباى قبل أن يصبح سلطاناً - تنبأ له البعض بأن أمره يؤول إلى السلطنة . وفي موضع آخر يؤكد ابن العيدروس هذا الاعتقاد فيقول : " كان بعض أولياء الله تعالى قد أشار إلى ملكه قبل أن يفضى إليه الملك بزمam ، فقال له في واقعة : " أنت أيها الملك الأشرف قايتباى " .

ويتفق هذا مع ما عرف عن قايتباى من تهجد وتعبد وترديد أوراد ، مع شهرته بالعفة والديانة والتقوى والصيانة(١٠) . وعن عدله يصفه الصيرفى(١١) فيشير إلى : " تواضعه للضعيف والفقير والبائس والمحتاج مع شدة سطو حرمة على الجباة والمتمردين والظلمة والفجار والمتكبرين " .

وصفوه القول أن المؤرخين المعاصرين(١٢) أجمعوا على أن السلطان قايتباى : " كان ملكاً جليلاً ، وسلطاناً نبيلاً له اليد الطولى في الخيرات والطول الكامل في أشد الميراث ، جامع أشد الفضائل والفواصل حاوى المحاسن والمآثر ، وكانت محاسنه أكثر من مساوئه " ، وقد ورد بيت الشعر في هذا المقام :

ومن ذا الذى ترض سجايه كلها كفى المرء فضلاً أن تعد معايه

وكان أن انعكست هذه الصفات وتلك الشخصية على فترة حكمه فجعلتها من أخصب فترات عصر دولة سلاطين(١٣) . ويهمننا في هذا البحث أن هذه



الصفات التى تحلى بها قايتباى جاءت مصحوبة بحبه للبناء والتعمير والإنشاء(١٤)، حتى لبست البلاد فى عهده ثوباً قشياً واكتسبت فناً جميلاً لكثرة عمائره وفخامتها .

وعلى الرغم من أن هناك بعض المؤرخين(١٥) والمستشرقين(١٦) وصفوا قايتباى بالشح والبخل ، فإن آثاره ومنشأته الباقية حتى اليوم تشهد على أنه استغل المال فى الإنشاء والتعمير ، ليس فى مصر فحسب بل فى بلاد الشام والحجاز أيضاً ، بحيث قل أن يخلو حى من أحياء القاهرة أو إقليم من أقاليم الدولة فى بلاد الشام وبلاد الحجاز(١٧) ، من أثر مشهور له . وهكذا ترك اسمه مسطوراً على ما يزيد عن سبعين أثراً إسلامياً ما بين إنشاء أو تجديد أو ترميم ، هذا بالإضافة إلى إصلاح آثار أسلافه والتى سجل اسمه عليها أيضاً(١٨) .

وقد بلغ من اهتمام هذا السلطان بالعمارة أنه كان يشرف بنفسه على إنجاز عمائره . وهناك الكثير من المهندسين والمعماريين الذين قاموا بتصميم تلك العمائر، من أشهرهم ،آنذاك المهندس / البدرى حسن بن الطولونى(١٩) . ويعزى تنوع الطرز المعمارية الفنية فى عمائر قايتباى إلى كثرة هؤلاء المهندسين(٢٠) الذين صمموا وأشرفوا على تنفيذ تلك الأعمال من حيث تناسق رسومها وتنوع زخرفها وجمال نقوشها(٢١) .

والحق أن بلاد الحجاز حظيت بقسط وافر من عناية قايتباى(٢٢) نظراً لما لها من مكانة كبيرة تتناسب مع قدسية وجلال هذه البلاد ، وليثبت للعالم أجمع أن سلطان مصر وبلاد الشام جدير بلقب " خادم الحرمين الشريفين(٢٣) " .

وإذا كان سلاطين المماليك قد واصلوا العناية بإرسال الكسوة إلى الكعبة كل عام(٢٤) وخصصوا لنسج وتطريز هذه الكسوة بالخرنفش مجموعة من مهرة الصنائع المصريين من حياكين ونساجين ومطرزين وخطاطين(٢٥) ، فإن السلطان

قايتباى بالغ فى العناية بأمر كسوة الكعبة ، فضلاً عن أنه أنشأ بمكة عند باب السلام بجانب المسجد الحرام (٢٦) مدرسة لطيفة (٢٧) ، وبجانبها رباط للفقراء والطلبة مع إجراء الخيرات لأهلها كل يوم ، كما أنشأ سيلاً عظيماً (٢٨) ومكتباً للأيتام .

كذلك اجتهد السلطان قايتباى فى عمارة مسجد نمرة ومسجد الخيف بمنى (٢٩) ، كما عمر عين عرفه (٣٠) ، وأصلح بئر زمزم والمقام ، وعمر ساقية سيدنا العباس (٣١) عم الرسول ﷺ .

ومثلما أهتم السلطان قايتباى بمكة المكرمة وعمارتها بوصفها قبلة المسلمين وحجاج بيت الله الحرام ، كذلك أولى عناية كبرى بالمدينة المنورة وبالمسجد النبوى الشريف . يذكر لنا المؤرخ المعاصر ابن أياس (٣٢) ، مدى حرص السلطان قايتباى على إقامة الاحتفال بالمولد النبوى الشريف كل عام فى شهر ربيع الأول فيقول : " وفيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلاً ، واجتمع الأمراء والقضاة الأربعة ، وكان السلطان شرع فى عمل خيمة كبيرة مدورة يرسم المولد الشريف ، وقيل أن مصروفها ثلاثة وثلاثون ألف دينار ، فنصبها فى ذلك اليوم بالحوش " .

وعندما سقطت صاعقة عظيمة (٣٣) سنة ٨٨٦هـ / ١٤٨١م على المسجد النبوى الشريف ، أحرقت المنارة وسقوف المسجد جميعها والمنبر والحوائط والأعمدة والأبواب ، أمر السلطان بإصلاح وتجديد عمارة المسجد وتعويض ما ألحقه الحريق من كتب ومصاحف ، وبعث ذلك على يد مؤرخنا الشهير الشيخ السمهودى (٣٤) ، الذى وصف ما حمله معه من مصر إلى المدينة فقال : " بحيث اجتمع من ذلك أكثر مما فات ، وكذلك الكتب بعث بجانب منها ووعد بإرسال ما يحتاج إليه " . كذلك أمر قايتباى بإنشاء مئذنة خامسة (٣٥) للمسجد على باب الرحمة ، ربما محل تلك التى كانت قد شاهدها ابن جبير (٣٦) سنة ٥٨٠هـ فى رحلته

إلى المدينة المنورة وزيارته مسجد الرسول ﷺ ، إذ ذكر عدد المآذن ، فقال :  
"وللمسجد المبارك ثلاث صوامع أحدها فى الركن الشرقى المتصل بالقبلة ،  
والاثنان فى ركنى الجهة الجوفية صغيرتان كأنهما على هيئة برجين ، والصومعة  
الأولى المذكورة على هيئة الصوامع " ، كما قال أيضاً ابن بطوطة فى سنة ٧٢٦هـ ،  
فى رحلته لمسجد خاتم النبیین ، فقال : " وجعل عمر للمسجد أربع صوامع فى  
أربعة أركانه " . وقد جدد قايتباى المنير والحجرة النبوية الشريفة ، وكذلك المصلى  
النبوى ، وعمل للمسجد قبتين بديعتين (٣٦) ، بالإضافة إلى أنه جعله رباطاً (٣٧)  
للفقراء والطلبة مع تفرقة الخبز كل يوم ، علاوة على إنشاء سبيل هائل يرتوى منه  
الغنى والسائل . كذلك تم فى عهده إنشاء مقصورة حديدية جديدة للحجرة  
النبوية الشريفة فى سنة ٨٨٨هـ / سنة ١٤٨٣ م . يذكر لنا ابن أياس (٤٠) : " أن  
زنه هذه المقصورة الحديدية أربعمئة قنطار من الحديد ، وقد حملت إلى المدينة  
المنورة على سبعين جملاً " .

وبالإضافة إلى الإنشاء والبناء والترميم والإصلاح لكثير من أثار أسلافه  
بالمدينة المنورة ، فقد نقش قايتباى اسمه أيضاً على الكثير من التحف الفنية التى  
أهديت إلى المدينة من السابقين من الملوك والسلاطين والأمراء والعظماء . ومن  
هذه التحف الفنية ، الشمعدانان النحاسيان اللذان أوقفهما السلطان قايتباى على  
الحجرة النبوية الشريفة ، ويحتفظ بهما الآن متحف الفن الإسلامى بالقاهرة .

وبالنسبة للشمعدان الأول فهو من النحاس الأصفر (٤٢) (صورة ١) (٤٣) ،  
ويتكون من ثلاثة أجزاء رئيسية ، البدن وهو الجزء الأسفل والأكبر مساحة ، قوام  
زخرفته ، كتابة دعائية باستدارة البدن وبخط الثلث المملوكى (٤٤) - على مهاد من  
الزخارف النباتية - نصها " عز لمولانا السلطان الملك العادل المجاهد سلطان \*  
الإسلام والمسلمين (٤٥) الملك الأشرف أبو النصر قايتباى " ويلاحظ أن ألفات  
ولامات حروف النص الكتابى السابق ، تتقابل من أعلى مكونة شكل أهلة (٤٦) ،

كل هلال داخله وريدة صغيرة . وهكذا استطاع الفنان أن يطوع هامات الحروف العلية ، ويجعل من هامة كل حرفين متجاورين شكل نصف هلال ، مكرراً ذلك فى النص . ومما لا شك فيه أن الفنان بتحويله لنهايات تلك الحروف الصاعدة قد أخرج لنا تشكياً فنياً وزخرفياً رائعاً ، فبدت هذه الحروف فى صورة جميلة من التنسيق والتماثل والتكرار .

وفصل هذان النصان الكتائبان دائرتان مفصصتان من الخارج ، داخل كل منها رنك كتابى (٤٧) ، هذا الرنك مقسم إلى ثلاثة أقسام ، القسم العلوى نقش به بخط الثلث المملوكى عبارة : " أبو النصر قايتباى " و القسم الأوسط وهو الأكبر ونقش عليه بنفس الخط عبارة " عز لمولانا السلطان الملك الأشرف " ، والقسم السفلى وهو مماثل العلوى فى المساحة ونقش عليه وبـنفس الخط أيضاً عبارة " عز نصره " ( شكل ١ ) . ويلاحظ أن هذه الخطوط النسخية كتبت على أرضية من الزخرفة البنائية قوامها وريقات نباتية ثلاثية ؛ مما أضفى على هذه الخطوط وتلك النقوش عنصراً جمالياً .

ويحف منطقة البدن ، من أعلى وأسفل إطاران رفيعان متماثلان من الخطوط المائلة ، يليهما إطاران متشابهان أعرض من السابقين تزخرفهما رسوم بنائية ذات أفرع تحمل زهوراً ووروداً وأوراقاً مختلفة الأشكال (٤٨) والأحجام .

ويعلو منطقة البدن السفلية ، منطقة الرقبة وهى أسطوانية الشكل وتتعامد على المنطقة السابقة ، وتنقسم إلى ثلاثة أشرطة أو إطارات باستدارة الرقبة ، الشريط الأوسط أوسعهم ، وقوام زخرفته كتابة بخط الثلث المملوكى نصها " عز لمولانا السلطان الملك العادل المجاهد (٤٩) المالك الملك الأشرف أبو النصر قايتباى " ويحف هذا الشريط الأوسط شريطين آخرين أقل عرضاً من الأوسط - يحويان زخرفة نباتية من فروع ملتفة تحمل زهور اللوتس وأوراق العنب بالإضافة إلى ورود ذات أشكال مختلفة .

ويربط منطقة البدن بالرقبة ، الكتف ، وهو أفقى ومسطح وقوام زخرفته نص كتابى بخط الثلث المملوكى عبارته " عز نصره \* فى شهر رمضان المعظم قدرة " ، ونقش هذا النص الكتابى على مهاد من الزخرفة النباتية ذات الزهور والورود والأفرع النباتية الملتفة .

ويعلو منطقة الرقبة الرأسية ، تجويف علوى لكى توضع به وسيلة الإضاءة من شمع أو خلافة - ويزين هذا التجويف كتابة نسخية بخط الثلث المملوكى على مهاد من الرسوم النباتية نصها " هذا ما أوقف على الحجرة النبوية مولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى بتاريخ سنة سبع وثمانين وثمانماية " ( شكل ٢ ) .

ويلاحظ أن المساحة التى نقش عليها النص الكتابى غير كافية لتكاملته ، فنجد أن الفنان استكمله على المساحة الأكبر من الكتف بعبارة " عز نصره \* " ، " فى شهر رمضان المعظم قدرة " كما ذكرنا من قبل . ويفصل هذا النص الكتابى ، دائرتين صغيرتين مفصصتين من الخارج ، وتنقسم كل منهما من الداخل إلى ثلاثة أقسام ، القسم العلوى نقش عليه بخط الثلث المملوكى : قايتباى ؛ والقسم الأوسط وهو الأكبر ، نقش عليه بنفس الخط عبارة : السلطان أبو النصر ، والقسم السفلى وهو مماثل للعلوى فى المساحة - ونقش عليه أيضاً بنفس الخط عبارة : " عز نصره " ( شكل ٣ ) .

\* \* \*

بالإضافة إلى الشمعدان النحاسى السابق الذكر ، فإن متحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، يحتفظ كذلك بشمعدان نحاسى آخر ( صورة ٢ ) ( ٥١ ) ، أوقفة أيضاً السلطان قايتباى على الحجرة النبوية بمسجد الرسول ﷺ ، وهو يشبه الشمعدان السابق ذكره ، وذلك من حيث الشكل العام والأسلوب الزخرفى والعناصر الكتابية والدعائية ، ولكن هناك اختلاف بسيط ( ٥٣ ) فى النص الكتابى على البدن .



وهناك ثمة ملحوظة هامة تجب الإشارة إليها ، هي أن السلطان قايتباى أهدى الحجرة النبوية الشريفة بمسجد الرسول ﷺ بالمدينة المنورة ، ما يقل عن خمسة شمعانات وذلك فى عام ٨٨٧هـ / ١٤٨٢م حيث كانت - ولا زالت - هذه الأهداءات بمثابة عمل خيرى داوم عليه سلاطين وأمراء دولة المماليك ، وأيضاً حكام الدول الإسلامية على مر العصور . وكانت الحجرة النبوية الشريفة تحوى الكثير من الجواهر الفاخرة والتحف العامرة والذخائر النفيسة التى لا تقدر بثمن من الناحية المادية وكذلك الفنية . ولكن من المؤسف أن كثيراً ما كانت تتطاول يد الأشرار والمفسدين من ولاية المدينة ذوى النفوس الضعيفة والضمائر المعدومة إلى هذه التحف وتلك الأهداءات (٥٣) ، فينبهون ما يروق لهم .

كذلك كانت تحدث أحياناً قلاقل وفتن فى المدينة المنورة بسبب عبث بعض الأشراف ، ونشوب بعض الصراعات بين أفراد الأسرة الحاكمة ، كل هذا كان يؤدى إلى كثير من حالات الاضطراب والفوضى (٥٤) ، ومن هذه الأحداث المؤسفة على سبيل المثال دخول بعض المفسدين الحجرة الشريفة بقوة السلاح ونهب ما فيها من قناديل ذهبية وفضية وختمات شريفة وزيت المصابيح وشموع التراويح . ويضيف السمهودى (٥٥) ، بأنه قد بلغ الحد بهذه الشرذمة إلى سرقة ونهب كسوة الضريح الشريف والقناديل المعلقة حوله .

وأوضح دليل على صحة ما ذكره مؤرخو ذلك العصر من نهب هذه التحف وصول هذين الشمعدانين النحاسيين اللذين أوقفهما السلطان قايتباى ٨٨٧هـ / ١٤٨٢م على الحجرة النبوية الشريفة بالمدينة المنورة ، كما هو منقوش وثابت بالنص الكتابى عليهما ، إلى مصر حيث يحفظان اليوم بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة .

بالإضافة إلى الشمعدانين السابق ذكرهما ، فقد أهدى أيضاً السلطان قايتباى الحجرة النبوية الشريفة مصحفاً كبيراً أطلق عليه مؤرخو ذلك العصر (٥٦)



” مصحف حمائلي “ أى ينوء بحمله الإنسان ، ولا يستطيع ذلك ربما لثقل وزنه وكبر حجمه . إذ أنه حمل على جمل بمفرده ، وكان من النوادر على حد تعبير ابن أبياس .

وقد كتب هذا المصحف الشريف الخطاط الشهير شاهين النورى ، ومات ولم يتمه ، فأكماله الخطاط وكاتب الوثائق خطاب بن عمر الدنجاوى بأمر من السلطان قايتباى . ويعد غلاف هذا المصحف من أبداع الأغلفة الجلدية ذات الزخارف المضغوطة (٥٧) والمذهبة من ذلك العصر . (صورة ٣) (٥٨) وقوام زخرفة هذا الغلاف جامدة (٥٩) مستديرة (صورة ٤) ذات تفصيلات نصف دائرية يبلغ عددها ستة عشر تفصيلاً ، داخل كل تفصيل دائرة صغيرة مذهب . ومثلها على الحافة الخارجية ، فيعطى شكل إشعاعي كقرص الشمس ، بينما يخرج من التفصيلين العلويين والسفليين شكل دلالية على هيئة ورقة نباتية ثلاثية البتلات ، ويتوسط مركز هذه الجامة شكل نجمى سداسى الأضلاع ، يزخرف كل ضلع أشكال هندسية مختلفة تتداخل ويتشابك بعضها مع البعض مكونة أشكالاً جديدة ( شكل ٤ ) .

ويزخرف كل ركن من الأركان الأربعة لهذا الغلاف ، حليات نباتية ثلاثية البتلات ، كونت شكلاً جميلاً مع الجامة المستديرة . أما عن المصحف الشريف من الداخل ، فورقة ” فاتحة الكتاب ” ممزقة ومتأكلة ، ويقابلها ” سورة البقرة ” مذهب على أرضية زرقاء (٦٠) . وقد كتبت الآيات القرآنية الخمس من سورة البقرة باللون الذهبى ، وبخط الطومار (٦١) ، داخل مستطيل يحيط به إطار خارجى أزرق اللون يحوى زخارف نباتية مورقة وملتفة ومتشابكة ( أربيسك ) بلون ذهبى (٦٢) .

وفى ختام المصحف الشريف كتبت هذه الآية (٦٣) الكريمة : ﴿ وَتَمَتَّ كَلِمَاتِ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ بخط الثلث المملوكى ، بلون ذهبى على أرضية زرقاء ، وذلك داخل سبع دوائر متداخلة يحدها شكل مستطيل مزخرف بوحدات متضافرة على هيئة جدائل .

وأسفل هذا المستطيل نقرأ بخط الطومار " كتبه خطاب بن عمر الدنجاوى  
سنة سبع وثمانين وثمان مائة من الهجرة النبوية " ( شكل ٥ ) ( ٦٤ ) .  
وهذا المصحف المهدى إلى الحجرة النبوية الشريفة محفوظ هو الآخر فى  
القاهرة بدار الكتب المصرية .

## الهوامش

- (١) زكى محمد حسن : فنون الإسلام ، القاهرة ١٩٤٨م ، ص ٧١
- عبد الرحمن الرافعى وسعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٥٤١
- سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٩٤ ، ص ٣٧٨
- (٢) لقد بويغ قايتباى بالسلطنة سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٨م ، ولقب بالملك الأشرف قايتباى المحمودى الظاهرى ، وأحضر له شعار السلطنة أو الملك وهو العمامة السوداء والجبّة السوداء المطرزة بخيوط ذهبية والسيوف العربى وضربت له البشائر فى القلعة نودى بأسمه فى القاهرة ، وصار حينئذ السلطان الحادى والأربعون من ملوك الترك ، والخامس عشر من الجراكسة وأولادهم بمصر .
- ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، القاهرة ، ١٣٥٠هـ ، ج ٨ ، ص ٧
- ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤م ، ج ٣ ، ص ٤
- ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، تحقيق جمال محرز ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧١م ، ج ٦ ، ص ٣٩٥
- المقرئى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبعة بولاق ، ١٢٧٠هـ ، ج ٢ ، ص ١٨٥
- القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الأنشا ، دار الكتب المصرية ، ١٩١٩-١٩٢٢ ، ج ٣ ، ص ٢٧٤
- ENCYCLOPEDIA DE ISLAM, TOME II, 1927, P. 704.
- (٣) المقدسى : نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلطين ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم (٣٠٣ تاريخ تيمور) ، ورقة ١١١ - ١١٢
- (٤) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ١٢٥ - ١٢٦
- سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٦م ، ص ٣١٧
- (٥) ابن أياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٣٢٥

(٦) خاصكى ، والجمع خاصكيون وخاصكية ، وهم جماعة من أخصاء السلطان ، يأتون فى الترتيب بعد الأمراء المقدمين ، كان عددهم فى أول الأمر أربعة وعشرين ، ثم زادوا على الأربعمائة أو نحو خمسمائة نفر منهم أمراء وغيرهم ، وقد تمتع الخاصكية بمكانة كبيرة ، فكانوا يدخلون على السلطان دون استئذان ، وأجزل لهم السلاطين الهبات والعطايا .

- القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٨١ ، وسعيد عاشور : العصر المالكي ص ٤١٧

(٧) ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ج ٨ ، ص ٨ - ٩

(٨) السخاوى : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، القاهرة ، ١٣٥٣ هـ ، ج ٦ ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣

(٩) ابن العيبروس : النور السافر فى أخبار القرن العاشر ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت

رقم ( ح ٩٧٣٣ ) ورقة ٢٠ - ٢١

- الغزى : الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، تحقيق جبرائيل سليمان جبور ، بيروت

١٩٤٥ ، ج ١ ، ص ٢٩٧ - ٢٩٨

- ابن العماد : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٧

(١٠) السيوطى : تاريخ الملك الأشرف قايتباى ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ( ٦١ تاريخ ) .

(١١) ابن الصيرفى : إنباء الهصر بأبناء العصر ، تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ، ١٩٧٠ م ، ص ٣٣٨

(١٢) المقدسى : المخطوط السابق ، ورقة ١١٢

- ابن الجيعان : القول المستظرف فى سفر مولانا الملك الأشرف ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ( ٢١٠ تاريخ ) .

- السخاوى : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣

(١٣) عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام ، القاهرة ، ١٩٦٩ م ، ص ١٨٩

- عبد الرحمن زكى : بناء القاهرة فى ألف عام ، القاهرة ، ١٩٨٦ ، ص ٦٧

(14) LANE POOLE, THE ART OF THE SCARACENS IN EGYPT,  
LONDON, 1866, P. 94.

- حسنى محمد نويصر : منشآت السلطان قايتباى الدينية بمدينة القاهرة ، مخطوط رسالة

دكتورة ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥ م ، ص ٨ ، ١١

- كمال الدين سامح : العمارة افسلامية فى مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،

١٩٨٧ ، ص ٤٧

- فييت ( جاستون ) ، القاهرة مدينة الفن والتجارة ، ترجمة د. مصطفى العبادي ،

كتاب اليوم ، ١٩٩٠ م ، ص ١٥٥

(١٥) ابن أياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٣٢٦

(١٦) لينبول : سيرة القاهرة ، القاهرة ، ١٩٥٠ ، ص ٢٠٣

(١٧) سعاد ماهر محمد : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية،

القاهرة ، ١٩٨٠ م ، ج ١ ، ص ٢٢٠

(18) ENCYCLOPEDIE DE L'ISLAM, TOME II, P. 705.

(١٩) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٦ ، ص ٢٠٨

- حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ، القاهرة ، ١٩٤٦ ، ج ١ ، ص ٢٧٤

- محمد مصطفى نجيب : العمارة في عصر المماليك ، مقالة من القاهرة ، تاريخ فنونها.

آثارها ، القاهرة ، ١٩٧٠ م .

(٢٠) أحمد تيمور باشا : للمهندسون الإسلاميون ، مجلة الهندسة ، العدد ٢ ، ١٩٢٣ ، ص ٧٩ - ٨٠

(٢١) لينبول : سيرة القاهرة ، ص ٢٠٧

(٢٢) لقد سافر السلطان قايتباي للحج ٨٨٤هـ/١٤٧٩م ، وبدأ بالمدينة المنورة لزيارة قبر

الرسول ﷺ ، وأجزل الهبات والعطايا حتى قيل أنها بلغت أكثر من ستة آلاف دينار .

- ابن أياس : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٥٩

- السمهودي : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد دار

الباز للنشر ، مكة المكرمة ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ج ١ ، ص ٧١٣

(٢٣) خدام الحرمين الشريفين ، ورد لفظ خادم كوظيفة في كثير من الكتابات على الآثار

العربية ، والخادم هو من يقوم بالخدمة ، وفي موضع آخر استخدم لفظ خادم كترجمة تدل

على التواضع ، كما دخلت الكلمة في تكوين بعض الألقاب المركبة الفخرية ، ومنها

"خادم حرمي الله ورسوله" ، "خادم الحرمين الشريفين" ويقصد بها المسجد الحرام بمكة

ومسجد الرسول ﷺ بالمدينة . وقد تلقب بهذا اللقب الكثير من سلاطين المماليك ،

وذلك للدلالة على سيادتهم على الأقطار الحجازية وحمايتهم للحرمين الشريفين ، كما

أنها ترمز إلى شمول نفوذهم على العالم الإسلامي . ومن هؤلاء السلاطين الذين حرصوا

كل الحرص على تشريفهم بخدمة الحرمين الشريفين - ومن ثم كان إطلاق هذا اللقب عليهم في محله - السلطان الأشرف أبو النصر قايتباي . وقد وجد هذا اللقب بصيغة أخرى في نقش على وكالة تحمل اسمه بباب النصر بتاريخ سنة ٨٨٥هـ وهي " خادم حرمي الله ورسوله " .

- حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، ج ١ ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٥م ، ص ٤٣٣ - ٤٣٧

- حسن الباشا : الألقاب الإسلامية في تاريخ الوثائق والآثار ، الدار الفنية ، ١٩٨٩م ، ص ٢٦٦ - ٢٦٩

(٢٤) ابن العيدروس : المخطوط السابق ، ورقة ٢١

- ابن العماد : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٧

(٢٥) وقد استمرت مصر في نسج وصنع ستور الكعبة الشريفة إلى ما بعد العصر المملوكي وطوال العصر العثماني ، وكذلك إلى ما بعد الثورة حتى ١٣٨١هـ / ١٩٦١م ، حيث قررت الملكة السعودية ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م ، أن تصنع الكسوة في مصنع خاص بالكعبة .  
- عبد الله النابلسي : مخطوط " الحقيقة والحجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز محفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٤٤ جغرافيا ، ورقة ١٢٥

- ابن بطوطة ، الرحلة ص ١٣٤

- علي مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٦٩ ، ج ٣ ، ص ٢٧ .

- حسن عبد الوهاب : كسوة الكعبة الشريفة ، مجلة منبر الإسلام ، العدد ٤ ، ١٣٨٢هـ ، ص ١٨٢

- علي حسن الخربوطلي ، الكعبة على مر العصور ، القاهرة ، ١٩٦٧م ، ص ١١٤

- أحمد عبد الغفار عطار : الكعبة منذ أربعة آلاف سنة حتى اليوم ، بيروت ، ١٩٧٤م ، ص ١١٨

(٢٦) وقد جهز السلطان قايتباي لهذا المسجد منبراً عظيماً في ٨٧٩هـ / ١٤٧٤م .

- ابن العيدروس : المخطوط السابق ، نفس الورقة .

- ابن العماد : المرجع السابق ، نفس الصفحة .



- (٢٧) - المقدسى : المخطوط السابق ، ورقة ١١٣  
- الغزى : المصدر السابق ، ص ٢٩٩  
(٢٨) ابن العيدروس : المخطوط السابق ، ٢١ - ٢٢  
(٢٩) ابن الصيرفى : المصدر السابق ، ٢٤٦  
- عبد اللطيف إبراهيم : وثيقة السلطان قايتباى ، والمؤتمر الثالث للآثار فى البلاد العربية ،  
القاهرة ، ١٩٦١ م ، ص ٣٩٦  
(٣٠) لقد أصلح السلطان قايتباى عين عرفة بعد انقطاعها نحو مائة وخمسين سنة فساق الماء من  
عرفات إلى منى .

- المقدسى : المخطوط السابق ، ورقة ١١٣  
- السيوطى : المخطوط السابق .  
- ابن الغزى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٩٩  
- ابن أياس : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٥٦ - ٥٧  
(٣١) ابن العماد : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٧  
(٣٢) ابن أياس : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٠٠ ، ٢٠٦ ، ٢١٦  
(٣٣) ويذكر ابن إياس مدى اهتمام السلطان قايتباى بأمر هذه الصاعقة على مسجد الرسول  
ﷺ فيقول : " أن السلطان شرع فى تجديد عمارة المسجد الشريف ، فعين الخواجا شمس  
الدين محمد بن الزمن ، وأرسل معه عدة من البنائين والنجارين والمرحمين وغير ذلك ،  
وأمر بهدم القبة الشريفة وأعادتها ، وتغيير المقصورة وتجديد غيرها من الحديد المخرم ،  
وكانت من الخشب ، وتغيير المنبر والمآذن وانتهى العمل فى أواخر سنة ٨٨٧ هـ فجاء فى  
غاية فى الحسن ، من أجل الأبنية وأعظمها حتى قيل أن السلطان صرف على بنائه نحوًا  
من مائة ألف دينار " .

- المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٨٧ - ١٨٨  
- إسماعيل أحمد إسماعيل والنبوى حبر سراج ، المسجد النبوى الشريف ومزارات أهل  
البيت ، ١٩٧٤ م ، ص ٣٤

- سعاد ماهر : مساجد فى السيرة النبوية ، ١٩٨٧ م ، ص ١٠٠

- (٣٤) السمهودى : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، ج٢ ، ص ٦٤١ - ٦٤٣
- (٣٥) ابن جبير : الرحلة ، دار صادر ، بيروت ، ١٧٣
- ابن بطوطة : الرحلة ، دار صادر ، بيروت ، ص ١١٨
- (٣٦) السخاوى : المصدر السابق ، ج٦ ، ص ٢٠٦
- (٣٧) الرباط ، هو بناء معماری مأخوذ من الكلمة العربية المراقبة ، وهى بقاء المجاهدين ومرابطتهم فى الحصون والقلاع والثغور للحراسة وقد نشأت هذه الربط فى أوائل العصر الإسلامى ثم تحولت الربط بعد ذلك من مباني حربية إلى دينية لايواء الزهاد والمتصوفين المنقطعين للعبادة والعلم .
- المقرئى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ج٢ ، طبعة بولاق ١٢٧٠هـ ، ص ٤٢٨
- المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٣٩م ، ص ١٨٢ ، ( هامش ٤ ) .
- سعاد ماهر محمد : مشهد الإمام على فى النجف وما به من الهدايا والتحف ، دار المعارف ، ١٩٦٨م ، ص ٣٨١
- محمد توفيق بلبع : نشأة الرباط وتطورة وأهمية نظام المراقبة فى تاريخ المسلمين ، جمعية الآثار بالإسكندرية ، ١٩٦٨م .
- سعاد ماهر : العمارة الإسلامية على مر العصور ، ج٣ ، دار البيان العربى ، جدة ١٩٨٥ ، ص ١٦٨ - ١٦٩
- (٣٨) السخاوى : المصدر السابق ، نفس الصفحة .
- ابن الغزى : المصدر السابق ، ج١ ، ص ٢٩٩
- (٣٩) ابن العيدروس : المخطوط السابق ، ورقة ٢٢
- المقدسى : المخطوط السابق ، ورقة ١١٣
- ابن الشحنة ، " البدر الزاهر فى نصر الملك الناصر محمد بن قايتهى " مخطوط بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ( ١٢٧٣٧ ) ، ورقة ٢٥
- ابن العماد المصدر السابق ، ج٨ ، ص ٧

- (٤٠) ابن إياس : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤
- (٤١) كانت الشمعدانات توضع فى المساجد ، وعادة ما كان يوضع اثنان فخمان على جانبي المحراب .
- أرنست كونل ، الفن الإسلامى ، ترجمة د. أحمد موسى ، مطبعة أطلس ، ١٩٦١ ، ص ١٢٠
- (٤٢) محمد لبيب البتنونى : الرحلة الحجازية ، مصر ، ١٣٢٩هـ ، ص ٢٤٨ - ٢٥٠
- ALYBEY BAHGAT, HISTOIRE DE LA HOUDYRA MEDINE OU SAILE FUNERAIRE DE PROPHETE A PROPOS D'UN CHANDLIER OFFERT PAR QAYT BAY LE CAIRE, 1944, P.74.
- (٤٣) رقم السجل : ٤٠٧٢ ارتفاعه : ٤٨ سم  
قطر القاعدة : ٣٨ سم قطر الرقبه : ١١ سم
- WIET. G, CATALOGUE DE GENERAL DU MUSEE ARAB DU CAIRE, OBJETS EN CUIVRE, LE CAIRE, 1932, PP. 107 - 9, PL.XXX III
- ALY BEY BEAHGAT, OP. CIT, PP. 73 - 4 .
- حسين عليوه : المعادن ، القاهرة تاريخها ، فنونها وآثارها ، ص ٣٨٢ - ٣٨٣ ، (شكل ٩٥) .
- عائشة التهامي : التحف الفنية فى عهد السلطان قايتباى فى ضوء مجموعات متحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، مخطوط رسالة ماجستير ، كلية آداب ، جامعة طنطا ، ١٩٩١م ، ص ٢٥٥ - ٢٥٧ ، (صوره ١١٥ - ١١٦) .
- (٤٤) كان لنزول القرآن الكريم على النبى ﷺ ، باللغة العربية تأثير قوى لدفع المسلمين للعناية بالخط العربى فى فنونهم ، فاستطاعوا بجهودهم التى بذلوها فى هذا الشأن مضاف إليها طبيعة الخط العربى وأشكال حروفه ، أن يصلوا بفن الخط إلى اسمى مراحل الازدهار، كما استطاع رجال الفن أن يضعوا لهذا الخط وتلك الكتابة قواعد وأصول روعى فيها أن يودى صور الحروف حسنا فى العين شبيها بحسن مخارج اللفظ العذب عندالسمع . ويعتبر العصر المملوكى العصر الذهبى للخط النسخ وخاصة ما عرف من فروعه باسم الخط الثلث ، وقد أهتم سلاطين المماليك بالخط العربى اهتماماً كبيراً فأنشأوا المدارس لتعليمه وتحسينه . والدليل على ذلك كثرة ما وصلنا من عمائرهم وتحفهم الفنية المختلفة التى ازدانت كلها بالكتابات العربية ذات الخط الثلث .

- أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ، مدخل ، ١٩٦٥م ، ص ٤٦  
- محمد عبد العزيز محمود : تطور الخط العربى فى مصر فى عصرى الأيوبيين والمماليك ،  
مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٧٤م ، ص ٢٣٨ -

٢٤٢

- جروهمان ( أدولف ) : النسخ والثلث ، مقالة بمجلة المورد ، المجلد ١٥ ، العدد ٤ ،  
العراق ، ١٩٨٦م ، ص ١١١ - ١٢٢  
- حسن الباشا : الخط الفن العربى الأصيل ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ،  
القاهرة ، ١٩٦٨م ، ص ٢٣

- حسين عليوه : الخط ، مقالة من القاهرة تاريخها فنونها . آثارها ، ص ٢٧٩  
(٤٥) سلطان الإسلام والمسلمين ، إن إضافة لفظ " السلطان " إلى " الإسلام والمسلمين "  
يعطى الملقب صفة دينية إسلامية ، إذ تجعله المسلم الأول الذى اختير لتأييد الإسلام  
والانتصار للمسلمين . وقد جاء اللقب ومترادفاته كأثر لتخلى الخلفاء عن حماية الدين  
لرجال الدولة من السلاطين . ويعتبر هذا اللقب من أعلى الألقاب المركبة لسلاطين  
المماليك الذين اعتبروا أنفسهم حماة الإسلام بعد القضاء على الخلافة العباسية فى بغداد  
سنة ٦٥٦هـ .

- حسن الباشا : الألقاب الإسلامية فى تاريخ والوثائق والآثار ، ص ٣٣١ - ٣٣٣

(٤٦) محمد عبد العزيز محمود : تطور الخط العربى فى مصر ، ص ٢٤٤  
(٤٧) رنك كتابى : الرنك كلمة فارسية الأصل تنطق ( رنج ) وتعنى اللون ، ولكنها عربت  
وأصبحت بمعنى الشعار الذى يتخذه الأمير لنفسه عند تأمير السلطان له ، وقد لعبت  
الرنوك دوراً مهماً وكبيراً فى العصر المملوكى لم تلعبه من قبل ، لما تميز به هذا العصر من  
رقى ورفاهية وثراء انعكس أثره على أمرائهم وسلاطينهم . وقد كانت الرنوك فى العصر  
المملوكى الأول ( البحرية ) ، أمراً شائعاً ، فكان لكل سلطان رنكاً مميزاً له إما بصورة  
أسد أو زهرة أو غير ذلك ، أما فى العصر المملوكى الثانى ( الجراكسه ) فقد كانت  
الرنوك كتابية وهى خاصة بالسلاطين تسجل أسماءهم وألقابهم مصحوبة ببعض العبارات  
الدعائية لهم ، وقد كان رنك السلطان قايتباى كتابياً ظهر على معظم منشآته المعمارية

وتحفة التطبيقية ، حيث ينقسم الرنك إلى ثلاث مناطق ، المنطقة العليا : أبو النصر قايتباي ، الوسطى : عز لمولانا السلطان الملك الأشرف ، السفلى : عز نصره ، مع وجود بعض الزخارف البنائية ذات الورقة ثلاثية التبلات .

- VAN BERCHEM, METERAUX POUR UN CORPUS INSCRIPTIONUM ARABICARUM, EGYPT, I, PARS, 1903, P. 325.

- القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٦١ - ٦٢

- MAYER, SARCENIC HERALDRY, OXFORD UNIVERSITY PRESS, 1933, P. 37.

- LANE POOLE THE ART OF THE SARACENS OF EGYPT, LONDON, 1866, P. 22.

- ESIN ATIL, ART OF THE MAMULUKS, WASHINGTON, 1981, P. 240.

- جمال محمد محرز : الرنوك المملوكية ، مجلة المقتطف ، العدد الخامس ، المجلد ٩٨ ،

١٩٤١ م ، ص ٤٦٦

- أحمد عبد الرازق أحمد : الرنوك على عصر سلاطين المماليك ، مجلة الجمعية المصرية

للدراستات التاريخية ، المجلد ٢١ ، ١٩٧٤ م ، ص ٦٧ - ٩٣

- مایسة داود الرنوك الإسلامية ، مجلة الدارة ، العدد الثالث ، السنة السابعة ، ١٤٠٢ هـ /

١٩٨٢ م ، ص ٢٩ - ٣٠

(48) FARID SHAFII, SIMPLE CALYX ORNAMENT IN ISLAMIC ART, CAIRO. UNIVERSITY PRESS, 1927, PP. 142 - 144.

(٤٩) العادل المجاهد : العادل هو اسم مشتق من أسماء الله الحسنى ، وقد لقب به الكثير من

الملوك والسلاطين والحكام ونحوهم من ولاية الأمور ، وهو من أعلى الصفات لهم ، لأنه

بالعدل تعمر الممالك ويأمن الناس وتصلح أمور البلاد ، وقد عرف هذا اللقب في العصر

المملوكي ، فأطلق على ملوكهم وسلاطينهم ووجد على الكثير من نقوشهم وفنونهم .

أما لفظ المجاهد ، فقد استمد هذا اللقب من تعاليم الإسلام الأولى كما بينها القرآن

الكريم والأحاديث النبوية ، حيث ذكر الجهاد والمجاهدون في آيات قرآنية كثيرة ، ويعتبر

المجاهد اختصاراً للجهاد في سبيل الله " المجاهد في سبيل الله " وما أشبه ذلك ، وقد أطلق

هذا اللقب على الكثير من سلاطين المماليك وإن إضافة كلاً اللفظين العادل والمجاهد إلى

ألقاب السلطان قايتباي تعني أنه كان عادلاً في حكمه ومجاهداً في سبيل الله .

- حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ، ص ٣٨٨ ، ص ٤٥١ - ٤٥٢

(٥٠) ويذكر السمهوى حرص سلاطين المماليك ورعايتهم واهتمامهم بالحرم النبوى الشريف يتجلى ذلك فى حبس الكثير من أوقاف مصر عليه ، ومنها الشموع التى بلغت مجموعها مائة وستين شمعة بين كبار وصغار ، وذلك بصفة سنوية ، بالإضافة إلى البخور بأنواعه المختلفة - التى كانت تصل منها كل عام علبة ضخمة فيها مائه مثقال منه لتجمير المسجد .

- السمهوى : نفسه ، ج٢ ، ص ٦٧١ - ٦٧٢

(٥١) رقم السجل : ٤٢٩٧ ارتفاعه : ٤٨ سم قطر القاعدة : ٣٩,٥ سم .

- WIET, OBJECTS EN CUIVRE, NO - 4297, PL XXXIV GREAT BRITAN, 1976.

- THE ART OF ISLAM, P. 195, NO-220 .

- ESIN ATIL, ART OF THE MAMLUKS, PP. 100 - 1, PL. 34.

(٥٢) وقد نقش فى الشمعدان كلمة " إسلام " بدلاً من " الإسلام " ، وهناك اختلاف ثانى وهو نقش عبارة " عز نصره " فى النص الكتابى للشمعدان السابق ، ولم تكتب أو تنقش على هذا الشمعدان .

(٥٣) محمد لبيب البتونى : الرحلة الحجازية ، ص ٢٤٨ - ٢٥٠

- سعاد ماهر : مساجد فى السيرة النبوية ، ص ٩٩ - ١٠٠

(٥٤) على السيد على : الحياة الثقافية فى المدينة المنورة عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ، ١٩٩٤ م ، ص ٣٥

(٥٥) السمهوى : نفسه ، ج٢ ، ص ٥٨٦ - ٥٨٨

(٥٦) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الزهور ، ج٣ ، ص ٣٠٤

(٥٧) كانت الزخرفة بطريقة الضغط تتم قبل تركيب الكسوة الجلدية على الكتاب ، وهى نوعان : الضغط بالقوالب الباردة أى أن الفنان أو الصانع كان يضغط بقوالب معدنية - منقوش عليها الرسم الزخرفى المطلوب - على الجلد وهو مبلول . أما الضغط بقوالب ساخنة - وهو السائد فى التجليد الإسلامى عامة والعصر المملوكى خاصة - فهو يعد الأكثر وضوحاً وبروزاً . وقد تطورت وتقدمت زخرفة القوالب فى العصر المملوكى وتنوعت أشكالها وتباينت نقوشها .

- سهام المهدى : تجليد الكتب فى مصر فى العصر المملوكى ، ص ٥٥ - ٥٨



(٥٨) رقم السجل : ١٢٦ أبعاده : ١٠٤,٥ × ٦٨,٥ سم عدد ورقاته : ٣٩٣ ورقة مذهبه وملونه .

(٥٩) لقد ترك التصميم الزخرفي لأغلفة المصاحف أثره في زخرفة كثير من أبواب المساجد المصنوعة من الخشب المصفح بالنحاس ، وترك أثره كذلك في كثير من رسوم الطنافس والأبسطة المحملية PILE CARPETS التي تفرش وتبسط في المساجد والقصور .

- محمد عبد العزيز مرزوق ، المصحف الشريف ، ص ١٢٧ - ١٢٨

(٦٠) إن من أحب الألوان إلى الفنانين المسلمين الذين أبدعوا زخرفة المصاحف وكتابتها هما اللونين الأزرق والذهبي ، فقد لعب هذان اللونان دورًا كبيرًا وتأثيرًا عظيمًا في زخارف الصفحات الأولى والأخيرة من المصاحف الشريفة الأثرية .

- المرجع السابق ، ص ١٠٥ - ١٠٧

(٦١) خط الطومار ، مشتق من خط النسخ الفنى ، وقد تولد منه خط الثلث أى خط الطومار ، ويسمى كذلك لأن العرب كانت تكتب به الدرج وهو الملف المتخذ من الورق أو البردى ، وكان سلس هذا الدرج أو الملف يسمى طومار . - نفسه ، ص ٨٣ .  
- كانت المعارضة قوية في زخرفة الصفحات الأولى التي تسبق النص القرآنى أو التي تحوى الفاتحة وأول سورة البقرة أو التي توجد في الصفحات الأخيرة من المصحف ولكن هذه الزخرفة كان هدفها الجمال الفنى ليس إلا .

- محمد عبد العزيز مرزوق : المصحف الشريف ، ص ١٠١ ، ١٠٢

(٦٣) آية ١١٥ من سورة الأنعام .

(٦٤) يبين زخرفة آخر ورقة من الصحف ، وكذا اسم الخطاط وتاريخ خطة .

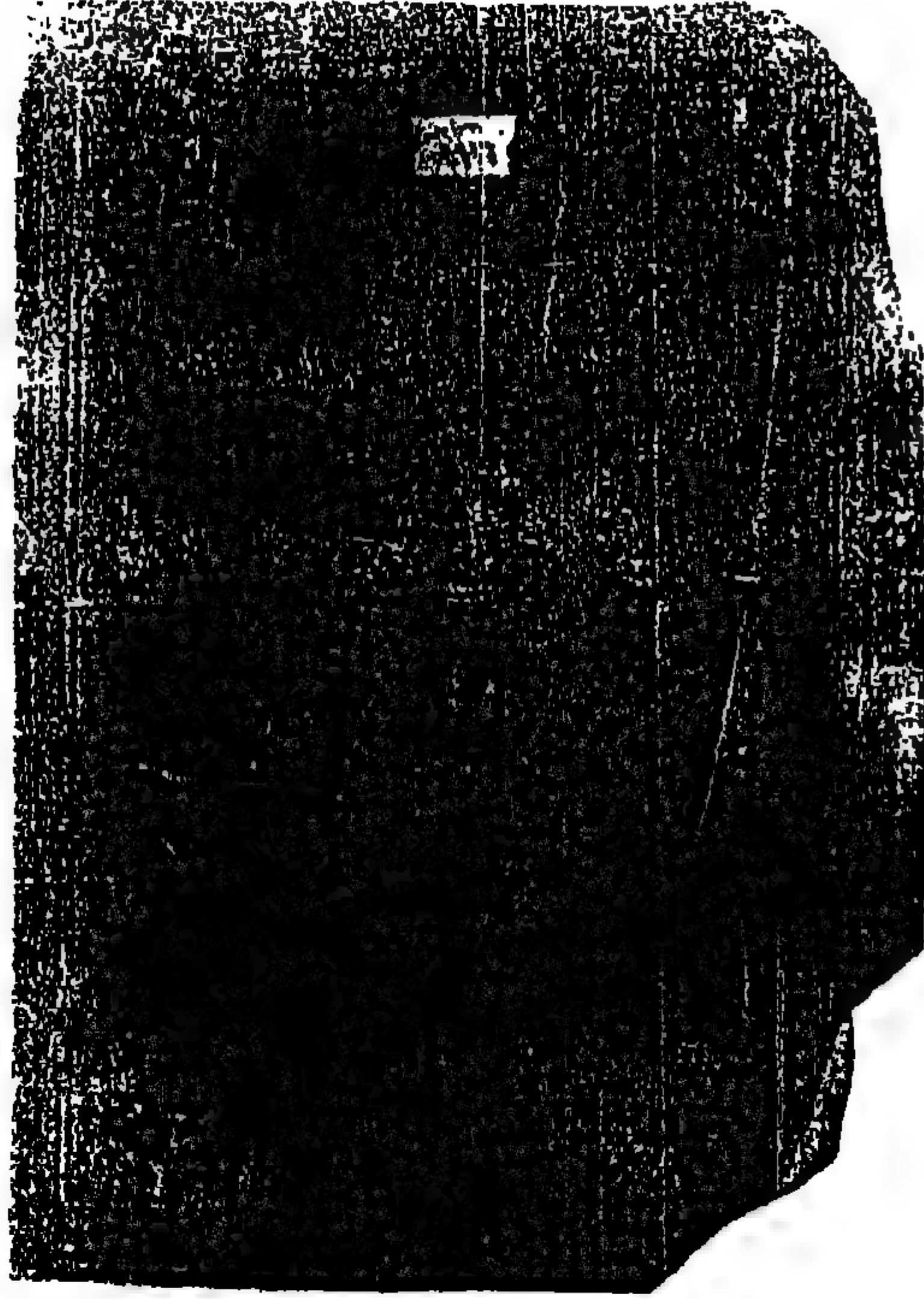
شمعدانان من النحاس الأصفر أوقفهما السلطان قايتباي  
على الحجرة النبوية الشريفة بالمدينة المنورة .



( صورة ١ )

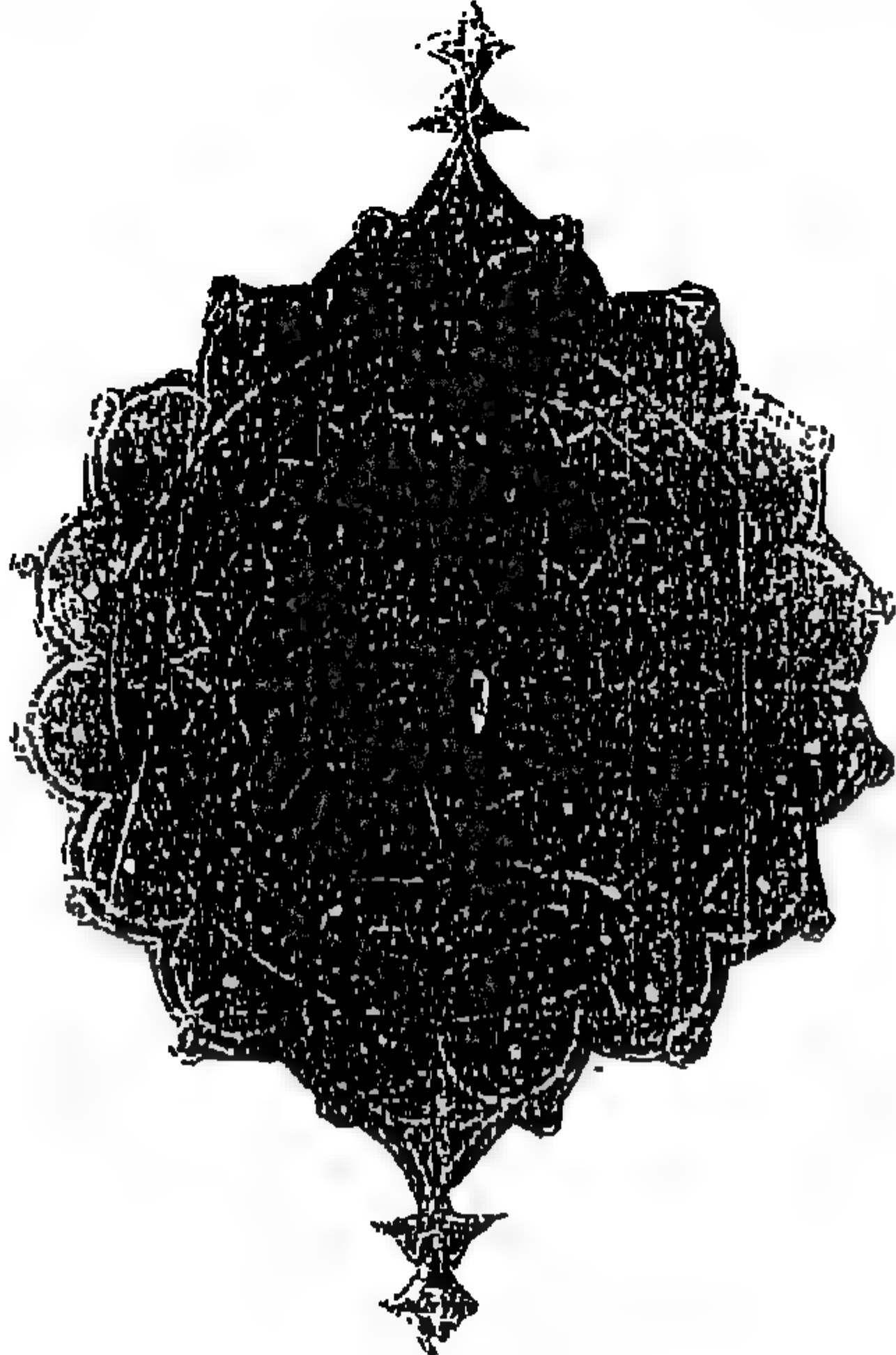


( صورة ٢ )



(صورة ٣)

غلاف مصحف شريف أوقفه السلطان قايتباي على الحجرة النبوية بالمدينة المنورة

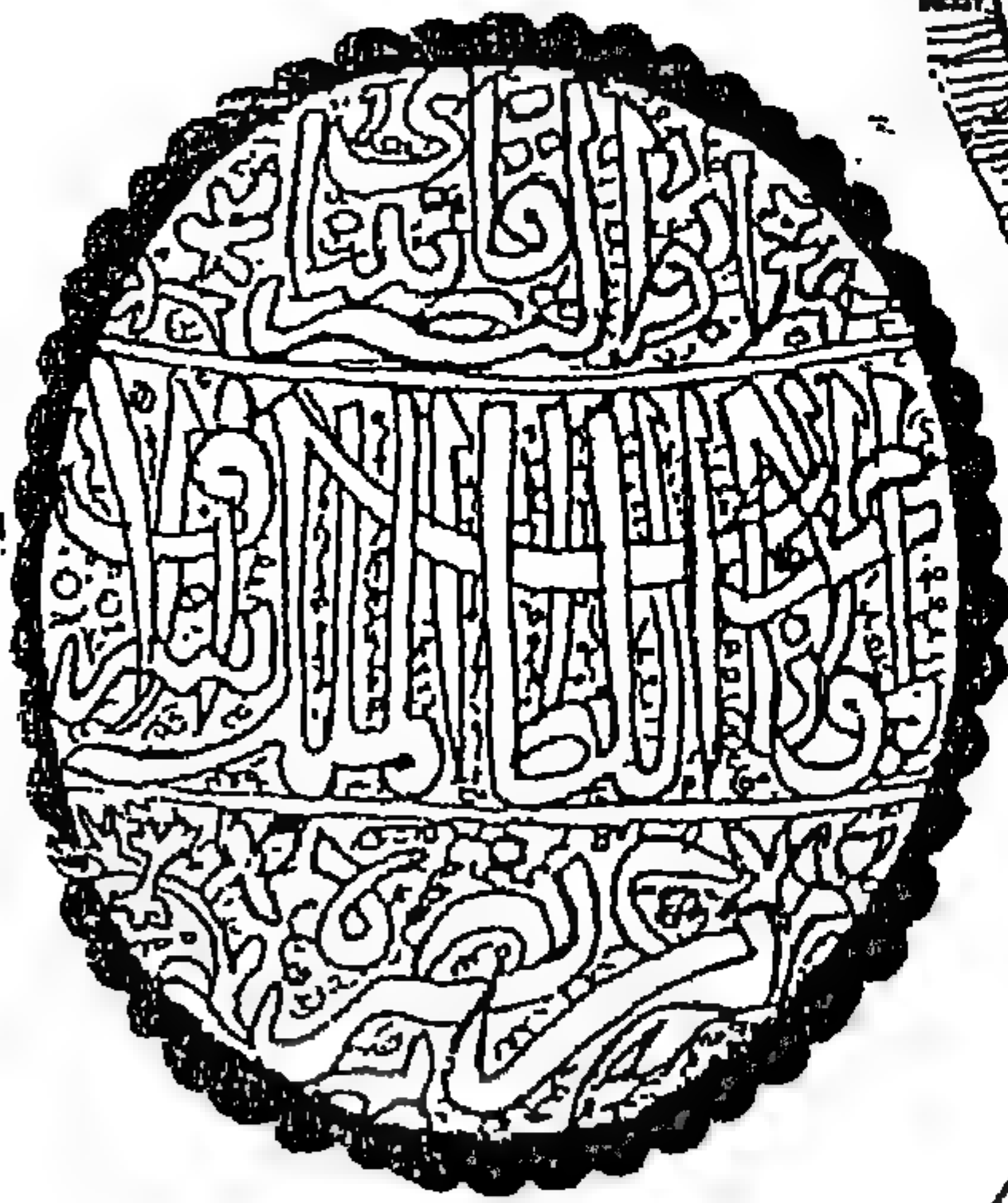


(صورة ٤)

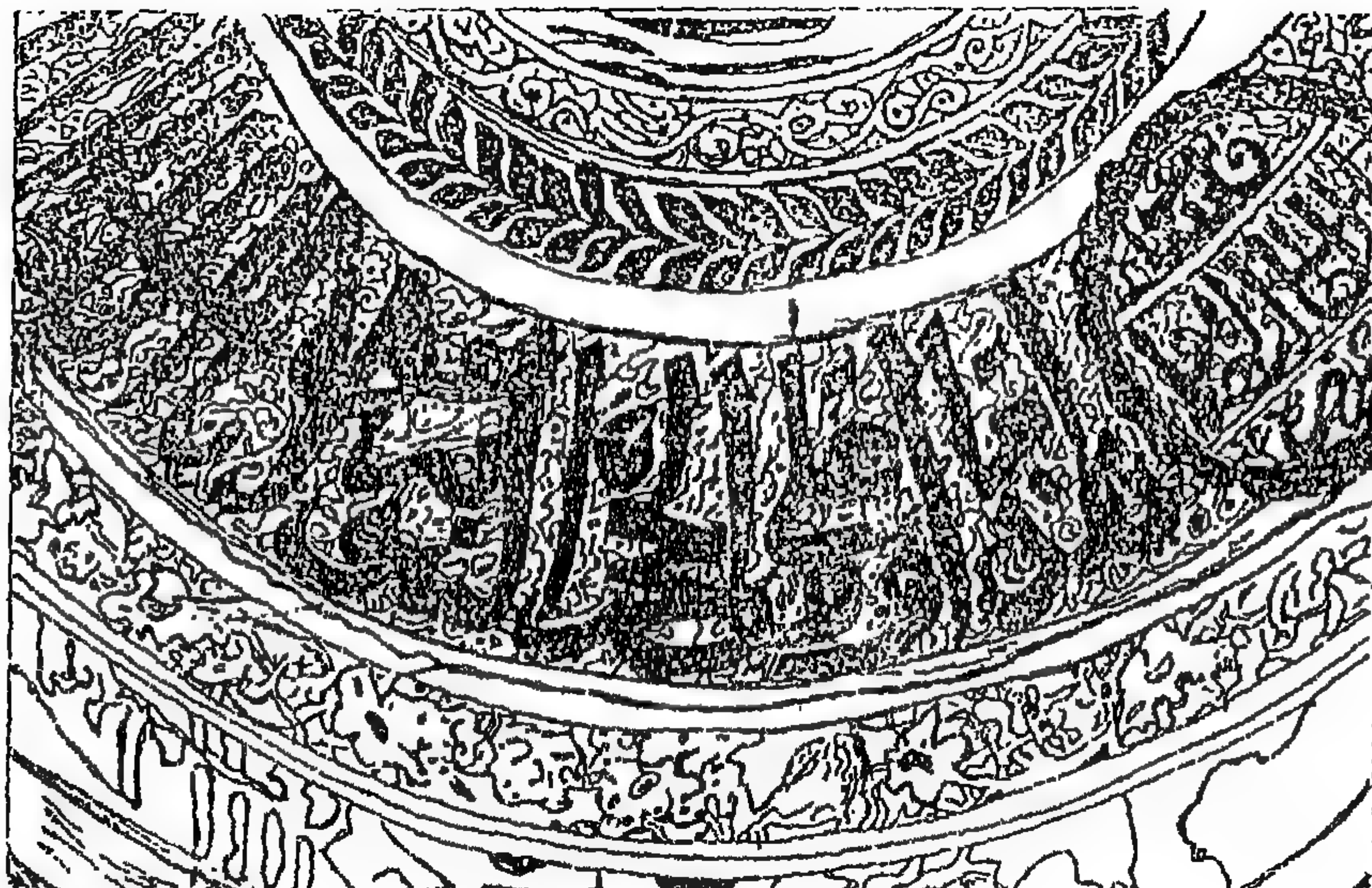
زخرفة الجامة التي تتوسط غلاف المصحف السابق

( شکل ۱ )

أشكال مختلفة للرنك الكتابي السلطان قايتباي







## مصادر ومراجع البحث

### المصادر العربية المخطوطة :

- ١ - ابن الجيعان ( شرف الدين علم . ت ٨٨٥هـ )  
القول المستظرف فى سفر مولانا الأشرف  
نسخة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ( ٢١٠ تاريخ ) ميكروفيلم  
١٣٩٧٥ .
- ٢ - ابن الشحنة ( مؤلف مجهول ) .  
البدر الزاهر فى نصرة الملك الناصر محمد بن قايىباى .  
نسخة محفوظة بدار الطب المصرية تحت رقم ( ح ١٢٧٣٧ ) ميكروفيلم  
١٨٤١٦ .
- ٣ - ابن العيروس ( عبد القادر الهندى . ت ١٠٣٨هـ ) .  
النور السافر فى أخبار القرن العاشر .  
نسخة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ( ح ٩٧٣٣ ) ميكروفيلم ١٠٩٨٩
- ٤ - السيوطى ( جلال الدين عبد الرحمن ت ٩١١هـ ) .  
تاريخ الملك الأشرف قايىباى .  
نسخة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ( ٦١ تاريخ ) ميكروفيلم  
١٦٣٤١
- ٥ - المقدسى ( مرعى بن يوسف ٩٢٧هـ ) .  
نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلطين .  
نسخة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ( ٣٠٣ تاريخ تيمور )  
ميكروفيلم ١٣٣٠٣



## المصادر العربية المطبوعة :

- ١ - ابن إياس ( محمد بن أحمد ت ٩٣هـ / ١٥٢٤م ) .  
بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، حققه وقدم له د. محمد مصطفى ، خمسة أجزاء الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤م .
- ٢ - ابن بطوطة ( عبد الله بن محمد ت ٧٧٧ ) .  
رحلة ابن بطوطة ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٢م .
- ٣ - ابن تغرى بردى ( أبو المحاسن يوسف ت ٧٨٤هـ / ١٤٦٩م ) .  
النجوم الزهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، حققه د. جمال محرز ، أ. فهم محمد شلتوت ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧١م .
- ٤ - ابن جبير ( أبو الحسين محمد بن أحمد ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م ) .  
رحلة ابن جبير ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٤م .
- ٥ - ابن العماد ( عبد الحى بن أحمد ت ١٠٨٩هـ ) .  
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ١٨ أجزاء القاهرة ، ١٣٥٠هـ .
- ٦ - ابن الصيرفى ( على بن داود الجوهري ت ٩٠٠هـ ) .  
أنباء المصر بأبناء العصر ، تحقيق د. حسين حبشى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧٠م .
- ٧ - على باشا مبارك .  
الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٦٩م .
- ٨ - الغزى ( نجم الدين الغزى ) .  
الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، حققه جبرائيل سليمان جبور ، ج ١ ، بيروت ، ١٩٤٥م .
- ٩ - السنخاوى ( شمس الدين محمد ت ٩٠٢هـ ) .  
الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، ج ٦ ، القاهرة ، ١٣٥٣هـ ،

- ١٠ - السمهودى ( نور الدين على بن أحمد ت ٩١١ هـ ) .  
وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، دار  
الباز للنشر ، مكة المكرمة ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .
- ١١ - القلقشندى ( أبو العباس أحمد ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م ) .  
صبح الأعشى فى صناعة الأنشا ، دار الكتب المصرية ، ١٤ جزء ، القاهرة ،  
١٩١٩ - ١٩٢٢ م .
- ١٢ - المقرئى ( تقى الدين أحمد ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م ) .  
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبعة بولاق ، ١٢٧٠ هـ .
- ١٣ - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ج ٢ تحقيق محمد مصطفى زيادة ،  
القاهرة ، ١٩٣٩ م .

### المراجع العربية الحديثة :

- ١ - أحمد تيمور ( باشا ) .  
المهندسون الإسلاميون ؛ من مجلة الهندسة ، العدد الثانى ، فبراير ١٩٢٣ م .
- ٢ - أحمد عبد الرازق أحمد ( دكتور ) .  
الرنوك على عصر سلاطين الممالك ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية  
المجلد ٢١ ، ١٩٧٤ م .
- ٣ - أحمد عبد الغفار عطار .  
الكعبة والكسوة منذ أربعة آلاف سنة حتى اليوم ، بيروت ١٠٧٨ م .
- ٤ - أحمد فكرى ( دكتور ) .  
مساجد القاهرة ومدارسها ، القاهرة ، ١٩٦١ م .
- ٥ - إسماعيل أحمد إسماعيل والنبوى جبر سراج .  
المسجد النبوى الشريف ومزارات أهل البيت ، دار الشعب ، القاهرة ١٩٧٤ م .
- ٦ - جروهمان ( أدولف ) .  
النسخ والثلث ، مجلة المورد ، المجلد ١ ، العدد ٤ ، العراق ، ١٩٨٦ م .

- ٧ - جمال محمد محرز ( دكتور ) .  
الرنوك المملوكية ، مجلة المقتطف ، العدد ٥ ، المجلد ٩٨ ، ١٩٤١ م .
- ٨ - حسن الباشا ( دكتور ) .  
الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، ثلاثة أجزاء ، القاهرة ١٩٦٥ م .
- ٩ - الخط الفن العربى الأصيل ، مجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، القاهرة ، ١٩٦٨ م .
- ١٠ - الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، القاهرة ، ١٩٨٩ م .
- ١١ - حسن عبد الوهاب .  
تاريخ المساجد الأثرية ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٤٦ م .
- ١٢ - كسوة الكعبة الشريفة ، مجلة منبر الإسلام ، العدد ٤ ، ١٣٨٢ هـ .
- ١٣ - حسنى محمد نويصر ( دكتور ) .  
منشآت السلطان قايتباى الدينية بمدينة القاهرة ، مخطوط رسالة دكتوراه ،  
كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥ م .
- ١٤ - حسين عبد الرحيم عليوه ( دكتور ) .  
المعادن ، مقالة فى القاهرة تاريخها فنونها آثارها ، مطابع الأهرام التجارية ،  
١٩٧٠ م .
- ١٥ - الخط ، مقالة فى القاهرة . تاريخها فنونها آثارها مطابع الأهرام ، التجارية ،  
١٩٧٠ م .
- ١٦ - زكى محمد حسن ( دكتور ) .  
فنون الإسلام ، القاهرة ، ١٩٨٤ م .
- ١٧ - سعاد ماهر محمد ( دكتور ) .  
مشهد الإمام على فى النجف ومابه من الهدايا والتحف ، دار المعارف بمصر ،  
١٩٦٨ م .

- ١٨ - مساجد مصر أوليائها الصالحون ، خمسة أجزاء ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٨١ م .
- ١٩ - العمارة الإسلامية على مر العصور ، ج١ ، دار البيان العربى ، جدة ، ١٩٨٥ م .
- ٢٠ - مساجد فى السيرة النبوية ، الهيئة المصرية العامة لكتاب ، ١٩٨٧ م .
- ٢١ - سعيد عبد الفتاح عاشور ( دكتور ) .
- الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٦ م .
- ٢٢ - العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة ، ١٩٩٤ م .
- ٢٣ - سهام محمد المهدي ( دكتور ) .
- تحديد الكتب فى مصر فى العصر المملوكى مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٤ م .
- ٢٤ - عائشة عبد العزيز محمد التهامي ( دكتور ) .
- التحف الفنية فى عهد السلطان قايتباى فى ضوء مجموعات متحف الفن الإسلامى ، بالقاهرة ، مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة طنطا ، ١٩٩٢ م .
- ٢٥ - عبد الرحمن زكى ( دكتور ) .
- موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٩ م .
- ٢٦ - بناء القاهرة فى ألف عام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦ م .
- ٢٧ - عبد اللطيف إبراهيم ( دكتور ) .
- وثيقة السلطان قايتباى ، أوقاف ٨٨٧ ، المؤتمر الثالث للآثار فى البلاد ، القاهرة ، ١٩٦١ م .
- ٢٨ - على حسنى الخربوطلى .
- الكعبة على مر العصور ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .
- ٢٩ - على السيد على ( دكتور ) .

- الحياة الثقافية فى المدينة المنورة عصر سلاطين المماليك معهد الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ١٩٩٤ م .
- ٣٠ - فييت ( جاستون ) .  
القاهرة مدينة الفن والتجارة ، ترجمة د. مصطفى العبادى ، كتاب اليوم ، العدد ٣٠٨ ، ١٩٩٠ م .
- ٣١ - كمال الدين سامح ( دكتور ) .  
العمارة الإسلامية فى مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧ م .
- ٣٢ - لين بول ( ستانلى ) .  
سيرة القاهرة ، ترجمة حسن إبراهيم وآخرين ، القاهرة ، ١٩٥٠ م .
- ٣٣ - مایسة محمود داود ( دكتور ) .  
الرنوك الإسلامية ، مجلة الدارة ، العدد ٣ ، السنة ٧ ، فبراير ١٩٨٤ م .
- ٣٤ - محمد توفيق بلبع .  
نشأة الرباط وتطورة وأهمية نظام المراقبة فى تاريخ المسلمين ، دراسات أثرية وتاريخية ، جمعية الآثار بالإسكندرية ، ١٩٦٨ م .
- ٣٥ - محمد عبد العزيز مرزوق ( دكتور ) .  
المصحف الشريف دراسة تاريخية وفنية ، المكتبة الثقافية ( ٣٢٤ ) ، ١٩٧٥ م .
- ٣٦ - محمد عبد العزيز محمود ( دكتور ) .  
تطور الخط العربى فى عصرى الأيوبيين والمماليك ، مخطوط رسالة ماجستير ، ١٩٧٤ م ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية .
- ٣٧ - محمد لييب البتنونى .  
الرحلة الحجازية ، مصر ، ١٣٢٩ هـ .
- ٣٨ - محمد مصطفى نجيب ( دكتور ) .  
العمارة فى عصر المماليك ، مقالة فى القاهرة . تاريخها . فنونها . آثارها . ١٩٧٠ م .

## المرجع الأجنبية

**1 - Allan, W " James " :**

- Traesures of Islam, Metalwork, Geneva, 1985.

**2 - Aly bey Bahgat :**

- Histoire du la Houdjra du Meine au Saile Funeraire du Prophete a propos d'unchsandelier offert par Qaut - Bay, le Caire, 1944.

**3 - Esin Alil :**

- Art of the Mamluks, Washington, D. C., 1981.

**4 - Encydopede de L'Islam. Tomell, Paris, 1972.**

**5 - Farid Shafii :**

- Simple Calyx Ornament in Islamic Art, Cairo University Press 1927.

**6 - Lane Poole St :**

- The Art of the Saracens in Egypt, London, 1866.

**7 - Mayer, L. A :**

- Saracenic Heraldry, Oxford Unversity Pres, 1933.

**8 - Islamic Metal Workers and their works, Geneva, 1959.**

**9 - The Art of Islam, The Arts Council of Great Britain, 1976.**

**10 - Van Berchem ( max ) :**

- Meteriaux pour un corpus Inscriptionum, Egypte I, Paris, 1903.

**11 - Wiet, G, :**

- Catalogue General du Musee Arabe du Caire, Objects en Cuirre Cairo, 1932.



# آثار درب الهجرة النبوية

فى عصر الدولة العثمانية

دكتور جمال محمود مرسى(\*)

خرج النبى مهاجراً وصديقه      ورمى عيون الكفر بالحصوات  
أغشى الإله عيونهم لم يبصروا      نور النبى مهاجراً بثبات(١)

أسهمت مع الإدارة العامة للآثار والمتاحف السعودية ، فى الكشف ميدانيات عن بعض المناطق الأثرية ببلاد الحجاز(٢) ، مما يسر لى دراسة معالمها ومواقعها الإسلامية الباقية عبر طريق جبل الغاير أو المغاير التى سلكها الرسول ﷺ ، عند هجرته الميمونة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة فى السابع عشر من شهر ربيع الأول ( ٩ سبتمبر عام ٦٢٢ م ) . وهو الطريق الشهير أيضاً بالطريق المدنى، لإيثار أهل المدينة المنورة له عند رحيلهم إلى مكة المكرمة ، لقصر مسافته عن كل من الطريق السلطانى والفرعى والشرقى(٣) . هذا فضلاً عن أن هذا الطريق من ألطف دروب بلاد الحجاز وأكثرها إئتناساً بينابيعه وعيونه وحفائره العذبة الجارية، وآباره المتعددة الغزيرة المتقنة ، وواحاته الكثيرة ومزارعه وبساتينه المونقة(٤) .

وأتناول فى هذا البحث ، مكتشفات المنشآت المعمارية الدينية والمدينة والدفاعية واللقى الفخارية الأثرية(٥) ، المتباينة الأنواع والزخارف والأشكال والوظائف ، التى عرفتھا الحضارة الإسلامية منذ أن توطدت أركانها ، وطوال عصورها المتعاقبة ، وزخرت بها مواضع درب الهجرة النبوية فى العصر العثمانى ، لتوفير الاحتياجات والحماية للمرتهلين بين الرحاب الطاهرة فى مكة المكرمة

---

\* استاذ الآثار الإسلامية المساعد ورئيس قسم الآثار - كلية الآداب - جامعة جنوب الوادى.

والمدينة المنورة (٦) . وقد أمكننى حصرها وتصنيفها وتسجيلها وتوثيقها ، إعتماذاً على رؤيتى الذاتية ، ومصادرها ومراجعها العربية والأوربية المتخصصة ، مستهدفاً التعريف بمواضعها ، ووصفها ، وإبراز خصائصها من حيث التخطيط ونظام البناء ، وعناصرها المعمارية والزخرفية وأساليبها الفنية . وملحق بالبحث بيان بمواضعها ، ومجموعة من مخططاتها المعمارية ، وصورها الفوتوغرافية ، ورسومها التوضيحية ، فضلاً عن خريطة للدرب .

يتجه مسار درب الهجرة النبوية من مكة المكرمة ، ناحية الشمال الغربى ، مروراً بموضع ذى طوى الذى بات فيه النبى محمد ﷺ واغتسل بمائه ، وجنان مكة المكرمة المسماة بالزاهر ، وهو وادى بين جبلين ، يضم قبور لبعض الصحابة ، فالتنعيم أو العمرة ، وفيه مساجد ثلاثة تنسب للسيدة عائشة ﷺ ، ثم موضع سرف ، حيث قبر ميمونة الهلالية ، إحدى زوجات النبى محمد ﷺ ، وموضع مر ، وكان لهما مكانتهما التجارية عبر الدرب (٧) ، فوادى مر الظهران أو وادى بطن مر أو وادى فاطمة أو وادى الشريف ، وهو وادى منخفض فسيح ، يضم عدداً من القرى ، أشهرها قرية الجموم ، وكان يوجد بها سوق تجارى . ثم موضع المحيسنية ، فقرية عسفان ، وكانت تقام بها سوق تجارية أيضاً (٨) ، ثم ثنية عسفان أو عقبة مدرج عثمان ، وهى عبارة عن وادى بين جبلين (٩) ، فوادى غيران .

ثم يتخذ الدرب مساراً ناحية الشمال ، مروراً بقرية خليص أو الدف أو النتوجه ، وكانت بها سوق حافلة (١٠) .

ويواصل الدرب اتجاهه نحو الشمال الغربى ، مروراً بالقضيمة ، وموضع سعير ، فوادى رابغ الذى يعد من أخصب أودية الحجاز ، وتنتهى إليه جداول المياه عقب الأمطار الغزيرة التى تأتية من أماكن بعيدة ، ويصل إلى رابغ التى كان يقام بها سوق عظيمة ، حيث كان يخرج أهلها من أعراب حرب وغيرهم ، لبيع ما يوجد عندهم من ماء وطعام (١١) .

ثم يتجه الدرب نحو الشمال الشرقى ، ويمر بقرية الأبواء (١٢) ، وبها قبر آمنه بنت وهب ، أم النبي ﷺ ، فبئر مبيرك ، ثم رصفة ، وبها حفائر ماء عميقة وعذبة ، وجبل الغاير أو المغاير ، وعنده ماء دائم عذب ، فبئر الماشية ، وقرية أبيار على أو ذى الحليفة ، فعروة ، ثم جبل مفرح الذى ترى من أعلاه قباب المدينة المنورة وأنوراها ( انظر الخريطة ) (١٣) .

وتتمثل مكتشفات المنشآت المعمارية الدينية التى شيدت فى العصر العثمانى على جنبات درب الهجرة النبوية ، فى مسجد الروضة الذى يقع على بعد (٦ كم) شمالى شرق قرية الجموم (١٤) ، بوسط فيضة تحيط بها بعض الأودية الصغيرة التى تصب فى وادى فاطمة ( مخطط - ١ ، صورة - ١ ) ، وهذا المسجد مستطيل الشكل ( ١١,٩٠ × ٧,٥٠ م ) ، مشيد بأحجار الحرة السوداء المتوفرة بالمنطقة ، وملاط من طمى الوادى والجير ( حص ) ، للربط بينها وتغطيتها من الداخل والخارج فى أجزائه العلوية ، فضلاً عن أرضيته ، ويتكون من أربع بلاطات مستطيلة ، مغطاة بأربع قبوات مدببة (١٥) ، متعامدة على جدار القبلة الذى يبلغ سمكه ( ٠,٧٥ م ) ، ويضم محرايين ، يتخذ الواحد منهما مسقطاً نصف دائرى ، قطره ( ١,٠٠ م ) ، وارتفاعه ( ٢,٤٠ م ) ، وتتوجه نصف قبية مدببة . ويبرز عن سمت الجدار للخارج ، متخذاً مسقطاً مستطيلاً ( ١,٣٥ × ٠,٣٥ م ) (١٦) - (صورة - ٢) ، وتفصل البلاطات الأربع هذه ثلاث بائكات ، قوام الواحدة منها ثلاث دعامات ، الوسطى منهن ذات مسقط مستطيل ( ١,٨٠ × ٠,٨٠ م ) ، والأخرتان تبرزان للخارج ، وكل منهما ذات مسقط مربع ( ٠,٧٠ × ٠,٧٠ م ) . ويعلوها عقدان مدبيان (١٧) ، بينما يدعم كل من الجدارين الشمالى الشرقى والجنوبى الغربى ، واللذان يبلغ سمك الواحد منهما ( ٠,٨٥ م ) ، دعامتان ، كل منهما ذات مسقط مستطيل ( ٠,٧٠ × ٠,٦٠ م ) . وترتفع الدعامات العشر هذه لنحو إرتفاع المسجد ( ٦,٠٠ م ) ، وتنتهى بما يشبه نصف عقد مدبب مصمت .

ويدخل للمسجد بواسطة مدخلين مسطحين ومباشرين فى الضلع الشمالى الغربى الذى يبلغ سمكة ( ٧٥,٠ م ) ، وهما مقابلان للمحرابين ، عرض الواحد منهما ( ١٠,٠ م ) ، وارتفاعه ( ٢,٤٠ م ) ، ويعلوه عقد مدبب ( صورة - ١ ) . كما يتخلل كل ضلع من أضلاع المسجد الأربعة شباك كان مجاوران لأركانه ، عرض الواحد منهما ( ٥٥,٠ م ) وارتفاعه ( ٨٠,٠ م ) ، ويعلوه عتب حجرى مستقيم .

وتعتبر بقايا قصر العابدية بمكة المكرمة من مكتشفات المنشآت المعمارية المدنية بدرب الهجرة النبوية (١٨) ، وقد أنشأه أمير مكة المكرمة عبد الكريم بن محمد بن يعلى بن حمزة بن موسى بن بركات بن محمد أبونمى الثانى ، المتوفى فى الخامس من ذى القعدة عام ١١١٦ هـ ( ١ مارس عام ١٧٠٥ م ) ، وعمره أربعة وستون عاماً (١٩) .

وترتفع بعض بقايا هذا القصر الحصين عن مستوى سطح الوادى بنحو ( ٧,٠٠ م ) ، وتحتل مساحة مستطيلة ( ٩٠,٠٠ x ٥٠,٠٠ م ) - ( مخطط - ٢ ) ، ويشاهد بينها الجدار الشرقى ، وجزء من الجدار الغربى ، وأجزاء من أبراجه الركنية المستديرة الأربعة التى يصعب التأثير فيها ( صورة - ٣ ) ، قوام الواحد منها ثلاثة مستويات . ويدخل إلى المستوى الأرضى ، المغطى بقبة ضحلة (٢٠) ، بواسطة باب صغير ، بينما يصل إلى المستوى الثانى بواسطة مدخلين ، يأتى إليهما بواسطة الممر المكشوف الذى يعلو جدران القصر الخارجية ، للمراقبة والدفاع والمناورة والتنقل بين الأبراج ، أما المستوى الثالث ، فيتمثل فى الدروة التى تعلو البرج . ويلاحظ أن جدران القصر الخارجية والأبراج التى يبلغ سمكها ( ٩٠,٠ م ) ، مزودة على مستويين بفتحات للمراقبة والسهام والبنادق ، ويعلو كل منها عتب حجرى مستقيم ، ويرتفع بعضها عن مستوى الأرض بنحو ( ٢,٠٠ م ) ، والبعض الآخر يرتفع لنحو ( ٥,٠٠ م ) ، بينما يبلغ سمك جدران القصر الداخلية ( ٦٠,٠ م ) ، وقد استخدمت الميدات الخشبية لتقوية الجدران والربط بينها فى بعض أجزاء

جدران القصر المرتفعة والممتدة ، والمشيدة من أحجار الحرة السوداء ، وملاط من طمي الوادى والجير ( حص ) ، كذلك غطيت جدران القصر من الداخل بطبقة من الجص ، كنوع من الزخرفة ، ويوجد بالجهة الجنوبية للقصر جدار طوله ( ١٥,٠٠ م ) مزود بقنوات مياه رأسية ، مشابهة للقناة الأفقية التى تقع على بعد ( ١ كم ) إلى الغرب من هذا القصر ، عرضها ( ٠,٥٠ م ) وعمقها ( ٠,٧٠ م ) - ( صورة - ٤ ) ، وربما كانت تستخدم هذه القنوات الرأسية والأفقية فى تزويد القصر بما يلزمه من مياه .

هذا إلى جانب سطح مستطيل الشكل ( ١٠٠,٠٠ × ٥,٠٠ م ) من أحجار الشيست والكوراترز والبازلت التى يتخذ معظمها شكلاً مربعاً ( ٠,٣٠ × ٠,٣٠ م ) ، والمتراص بعضها بعناية فى وادى القحاح بمنطقة رابع ( ٢١ ) ، والتى تعلو عن مستوى سطحه بـ ( ١٠,٠ م ) ، وقد ملئت الفراغات فيما بينها بالحصباء ( صورة - ٥ ) .

كذلك تتمثل مكتشفات المنشآت المعمارية التى حفرت بمواضع درب الهجرة النبوية فى العصر العثمانى ، فى بعض الآبار والأحواض والبرك والقنوات، والمشيدة بالأحجار الجرانيتية الحمراء ، والرملية المائلة للإحمرار ، والجيرية البيضاء، وأحجار الحرة البركانية والبازلتية السوداء ، ويربط بينها ملاط من طمي الوادى والجير ( حص ) ، وتتخذ الآبار شكلاً أسطوانياً ، وتتراوح أقطارها ما بين ( ١,٥٠ م ) ، ( ١٥,٠٠ م ) ، وسمك جدرانها ما بين ( ٠,٣٠ م ) ، ( ١,٥٠ م ) ، وارتفاع حوافها عن مستوى سطح الأرض ما بين ( ٠,٥٠ م ) ، ( ١,٥٠ م ) وأعماقها حتى مستوى سطح الماء ما بين ( ٥,٠٠ م ) ، ( ٢٥,٠٠ م ) . ويهبط إلى بعضها بواسطة قطع حجرية ملاصقة لجدرانها من الداخل ، أو يصعد إليها من الخارج ، إما بمجموعتى درج ، أو مجموعة واحدة ، وتعلو بعضها دعائم تحصر بينها قطعاً خشبية لتثبيت حبال رفع المياه ، كما تضم بعض هذه الآثار أحواضاً صغيرة مستطيلة الشكل أو تتخذ شكلاً شبه منحرف ، بينما تتخذ البرك شكلاً



مربعاً أو مستطيلاً . وكانت تمتلئ إما بمياه الآبار المجاورة لها ، أو بمياه الأمطار والسيول ، كما تتخذ مقاطع القنوات شكلاً مربعاً ( ٠,٥٠ × ٠,٥٠ ) ، كسى من الداخل بطبقة من الجص ، وغطيت بعضها بالأواح حجرية، للمحافظة على المياه من التلوث والتبخر .

ومن ذلك آبار مر الظهران أو وادى فاطمة أو وادى الشريف ( مخطط - ٣ ) ، حيث تضم قرية الجموم ثلاث آبار ، مشيدة بالأحجار الرملية والجيرية المتعددة الألوان (٢٢) ، اتخذ ملاطها من طمي الوادى والجير ( جص ) ، ومازالت مياهها مستغلة حتى الآن ، تعرف البئر الأولى ببئر أبى عروة ( صورة - ٦ ) ، ويبلغ قطرها ( ٢,٥٠ م ) ، وسمك جدارها ( ٠,٧٠ م ) ، وترتفع حافتها عن مستوى سطح الوادى بنحو ( ٠,٩٠ م ) ، ويبلغ عمقها حتى سطح الماء نحو ( ١٠,٠٠ م ) ، وتعلوها دعامتان حديثتا البناء ، مقام بينهما عارضة خشبية لرفع المياه ، وتقع البئر الثانية جنوبى بئر أبى عروة بنحو ( ٣٠٠ م ) ، ويبلغ قطرها ( ٣,٠٠ م ) ، وسمك جدارها ( ٠,٨٠ م ) ، وعمقها حتى سطح الماء نحو ( ١٥,٠٠ م ) ، وترتفع حافتها عن مستوى سطح الوادى بـ ( ٠,٩٠ م ) وتعلوها حافة أخرى مربعة الشكل حديثة البناء ( صورة - ٧ ) ، أما البئر الثالثة فتبعد نحو ( ٤٥٠ م ) ، جنوبى شرقى البئر الثانية ، ويبلغ قطرها ( ١,٥٠ م ) ، وسمك جدارها ( ٠,٦٠ م ) ، وترتفع حافتها عن مستوى سطح الوادى بـ ( ٠,٧٠ م ) ، أما عمق البئر فيصل حتى سطح الماء نحو ( ٨,٠٠ م ) - ( صورة - ٨ ) .

هذا إلى جانب بئر المحيسنية التى لا تزال تنبض بالحياة ، على نحو ( ٢٥ كم ) جنوب شرق قرية عسفان (٢٣) ، وهى مشيدة بالأحجار الرملية والجيرية البيضاء ، وملاط يتكون من طمي الوادى والجير ( جص ) ، وترتفع حافتها عن مستوى سطح الوادى بنحو ( ٠,٥٠ م ) ، ويبلغ قطرها ( ٣,٥٠ م ) ، وسمك جدارها ( ٠,٥٠ م ) ، وعمقها حتى سطح الماء حوالى ( ٦,٠٠ م ) . وتعامد عليها



عارضة خشبية تمتد من الشرق إلى الغرب ، مقامة على جزعى شجر ، لتثبيت الحبال المستخدمة فى رفع المياه من البئر ، كما يلتصق بالبئر فى جهتها الجنوبية حوض صغير للمياه ، يتخذ شكلاً شبه منحرف ، وارتفاع حافته ( ٢٥,٠ م ) وسمكها ( ١٥,٠ م ) - ( صورة - ٩ ) .

كذلك تشتمل قرية عسفان بوادى غوله الذى يصب فى البحر الأحمر على أربع آبار ، أقيمت من الحجر الجيري ، واستخدم فى ملاطها طمى الوادى والبحير ( حص ) بطريقة متقنة ( مخطط - ٤ ) ( ٢٤ ) ، أشهرها يعرف ببئر التفلة ( صورة - ١٠ ) ، ويبلغ قطر فوهتها ( ١٠,٠ م ) ، وعمقها حتى سطح الماء نحو ( ٢٥,٠ م ) ، وسمك جدارها ( ١,٥٠ ) ، وترتفع حافتها عن مستوى سطح الوادى بـ ( ١,٥٠ م ) ، ويصعد إليها بواسطة مجموعتين من الدرج ، بالجهتين الشرقية والغربية ، ويشتمل كل منهما على أربع درجات ، أبعاد الواحدة ( ٣,٠ x ٠,٣٠ x ٢٥,٠ م ) ، تعلو البئر دعامتان حديقتان من الآجر ، تعلوهما عارضة خشبية ، تتدلى منهما بكرتان معدنيتان ، لرفع دلو المياه .

أما البئر الثانية فتعرف ببئر الجنانية ، وتقع إلى الشمال الشرقى من بئر التفلة ، بمسافة ( ٥٠,٠ م ) ، ويبلغ قطرها ( ١٥,٠ م ) وعمقها حتى سطح الماء نحو ( ٢٠,٠ م ) وسمك جدارها ( ١,٥٠ م ) ، وترتفع حافتها عن مستوى سطح الوادى بنحو ( ٢,٠ م ) ويصعد إليها من الجهة الغربية ، عن طريق أربع درجات ، فى حين يمكن الوصول إلى داخل البئر من الجهة الجنوبية ، عن طريق عدد من الدرجات تمتد فى مساحة مستطيلة ( ١٥,٠ x ٢,٠ م ) ، وتنتهى عند باب البئر الذى يبلغ اتساعه ( ١,٥٠ م ) ويعلوه عقد مدبب ( صورة - ١١ ) .

والبئر الثالثة ، يطلق عليها اسم بئر مضحى ، وتقع شمال بئر الجنانية بنحو ( ١٠٠ م ) ، ويبلغ قطرها ( ٣,٠ م ) ، وعمقها حتى مستوى سطح الماء ( ٥,٠ م ) ، وسمك جدارها ( ١,٥٠ م ) ، وتعلو حافتها فوق مستوى سطح

الأرض بـ ( ١,٥٠ م ) ، ويمكن الصعود إليها من الجهة الجنوبية ، عن طريق أربع درجات ، وتتعامد عليها دعامتان من الآجر حديثا للبناء ، تعلوهما عارضة خشبية تتدلى منها بكرة معدنية لجذب دلو المياه ، بالإضافة إلى آلة رفع مياه حديثة ( صورة - ١٢ ) .

أما البئر الرابعة ، فتعرف ببئر الشقمة ، وتقع على بعد ( ٢٠ م ) جنوب شرقي البئر الأولى ( بئر التفلة ) ويبلغ قطرها ( ٣,٥٠ م ) وسمك جدارها ( ١,٥٠ م ) ، وترتفع حافتها عن مستوى سطح الأرض بنحو ( ١,٣٠ م ) ، وتعلوها دعامتان ، إرتفاع الواحدة منهما ( ١,٥٠ م ) ، ويلتصق بجدار البئر من الخارج ثلاثة أحواض صغيرة ( ١,٠٠ × ٠,٨٠ م ) ، وحوض رابع ، مربع الشكل ( ٢,٠٠ × ٢,٠٠ م ) حديث البناء - ( صورة - ١٣ ) .

ومن ذلك أيضاً بئر وقنوات وبركة خليص ، وتقع هذه البئر بقرية خليص ، فى شرق وادى مروانى ، وقد بنيت بالأحجار الجيرية البيضاء والبركانية السوداء ، المختلفة الأحجام والأشكال ، واتخذ ملاطها من طمى الوادى والجير ( حص ) ، ويبلغ قطر البئر ( ٢,٥٠ م ) ، وترتفع فوهتها عن مستوى سطح الوادى بنحو ( ٠,٦٠ م ) ، وسمكها ( ٠,٣٠ م ) ، ويصل عمقها حتى مستوى سطح الماء ( ٥,٠٠ م ) - ( مخطط - ٥ ، صورة - ١٤ ) ، وينساب الماء فى قناة مبنية من الأحجار الجيرية ، ومبطنة من الداخل بطبقة من الجص ، يبلغ إتساعها ( ٠,٥٠ م ) وسمك جدارها ( ٠,٧٠ م ) ، ومتوسط عمقها ( ٠,٥٠ م ) ، وقد غطيت بالأواح حجرية ، وتتجه غرباً لنحو ( ١ كم ) ، ويكشف عن مياهها فى نقاط معلومة للاستفادة منها فى السقاية والوضوء ، إلى أن تصب فى بركة مربعة الشكل ، طول ضلعها ( ٣٥,٠٠ م ) ، سمك جدارها ( ١,٠٠ م ) ، إلا أنها طمرت برواسب مما جرفته السيول من طمى ، وما حملته الرياح من رمال ( ٢٥ ) هذا فضلاً عن قناة أخرى مسقوفة أيضاً بالأواح حجرية ، ملاصقة لسفوح المرتفعات ، فى جنوب

وادی مروانی ، ترتفع قاعدتها الحجرية إلى ( ٢,٠٠ م ) ، ويبلغ عرضها ( ٢,٠٠ م ) ،  
بينما يبلغ إتساع مجراها ( ١٠,٥٠ م ) ، وعمقه ( ١٠,٥٠ م ) - ( صورة - ١٥ ) .

هذا إلى جانب بئر قضيمة الذى يقع على بعد ( ٥٣ كم ) جنوب شرق  
رابع ( ٢٦ ) ، وهى بئر مطوية بأحجار الحرة السوداء ، وملاط من طمى الوادى  
والجير ( جص ) ، تحتوى على سلم ذى درجات ست من الخارج ( صورة - ١٦ ) ،  
ودرجات تسع من الداخل ( صورة - ١٧ ) ، ترتفع حافتها عن مستوى سطح  
الوادى بنحو ( ١,٢٥ م ) ، وسمكها ( ١٠,٦٥ م ) ، وقطرها ( ٣,٥٠ م ) وعمقها  
حتى مستوى سطح الماء نحو ( ٨,٠٠ م ) .

وبئر مبيرك ، تقع عند ملتقى فرع وادى النخيل بوادى القححا ( صورة -  
١٨ ( ٢٧ ) ) ، وهى بئر مشيدة بأحجار الحرة السوداء ، وملاط من طمى الوادى  
والجير ( جص ) ، ترتفع حافتها عن مستوى سطح الوادى بـ ( ٠,٨٠ م ) وسمكها  
( ٠,٦٠ م ) وعمقها حتى مستوى سطح مائها ، ( ٩,٠٠ م ) ، وتعلوها أربع دعائم  
ذات مقاطع مربعة ، ربما كانت تستخدم فى تغطية البئر ، فضلاً عن رفع المياه .

وبئر الماشية ( ٢٨ ) ، وتقع جنوب شرق المسيجيد بنحو ( ٢١ كم ) ، عند  
التقاء وادى الجن بوادى ورجان ( صورة - ١٩ ) ( ٢٩ ) ، وهى مشيدة بأحجار  
الحرة السوداء والجيرية البيضاء والرملية المائلة للاحمرار ، وترتفع حافتها عن  
مستوى سطح الوادى بـ ( ٠,٨٠ م ) ، وقطرها ( ٣,٨٠ م ) ، وسمك جدرانها  
( ٢,١٠ م ) ويصل عمقها لنحو ( ٢٠ م ) ، ويتصل بها من الجهة الشمالية الشرقية ،  
حوض مستطيل الشكل ( ١,٥٠ × ٠,٧٠ م ) ، وعمقه ( ٠,٥٠ م ) ، كما يوجد  
بجبتها الجنوبية الغربية ، حوض صغيرة مستدير الشكل ، قطره ( ٠,٥٠ م ) ،  
وعمقه ( ٠,٢٠ ) ، ويخرج منه مجرى ضيق لتصريف المياه المستخدمة ، ويعلو البئر  
جزعا شجرتين لرفع المياه .

فضلاً عن بئر وحوض وقناة وبركة ، جنوب غرب أبيار على أو ذو الحليفة بنحو ( ٧ كم ) ( ٣٠ ) - ( مخطط - ٦ ، صورة - ٢٠ ) ، وهى مشيدة بالحجار الجرانيتية الحمراء والبازلتية السوداء ، اتخذ ملاطها من طمي الوادى والجير ( جص ) ، ويبلغ قطر البئر ( ٣,٥٠ م ) ، وسمك جدارها ( ٩٠,٠ م ) ، وعمقها نحو ( ١٠,٠ م ) ، ويتصل بها من الناحية الجنوبية بركة مستطيلة الشكل ( ٦,٠٠ x ٤,٠٠ م ) ، مطمورة بالطمي والرمال ، كما يتصل بهذه البئر من الناحية الشمالية ، حوض مستطيل الشكل ( ٣,٠٠ x ٢,٥٠ م ) ، وعمقه ( ١,٠٠ م ) وسمك جداره ( ٠,٦٠ م ) . وتخرج من ركنه الشمالى الغربى قناة ، كسى مجراها بالجص ، يبلغ طولها ( ٣,٠٠ م ) ، واتساعها ( ٠,٣٠ م ) ، وسمك جدارها ( ٠,٦٠ م ) ، ويرتفع الحوض والقناة عن مستوى سطح البئر ب ( ٠,٧٠ م ) .

وتتمثل مكتشفات المنشآت المعمارية الدفاعية الباقية من العصر العثمانى بدرب الهجرة النبوية فى تلك القلاع الحصينة ( ٣١ ) ، المشيدة على تلال وهضاب وجبال يتراوح ارتفاعها عن مستوى سطح ما بين ( ١٥ - ٥٠ م ) أو فى وسط المدن ، بالأحجار الجرانيتية الحمراء والبركانية السوداء والرملية والجيرية البيضاء ، المختلفة الأحجام والأشكال ، والمنظمة فى صفوف . ويربط بينها ملاط شديد الصلابة ، وقوامه طمي الوادى والجير ( جص ) ، مضاف إليهما أحياناً كسر الأحجار الناعم . وقد تكسى بطبقة من الجص ، وذلك وفق مخططات معمارية تلائم وظيفتها ، إما مربعة أو مستطيلة الشكل . وتدعم جدران هذه القلاع التى يتراوح سمكها ، بين ( ٤٥,٠ - ١,٥٠ م ) ، أوتار خشبية لتقويتها والربط بين أحجارها ، كما تتخلل أجزاءها السفلية منافذ طويلة معقودة للسهام ، وفى العلوية طاقات مربعة أو مستطيلة الشكل ، للمراقبة والإضاءة والتهوية ، ويدخل إلى هذا القلاع عبر ممرات منكسرة ، تتقدمها أبواب ذات مصاريع خشبية ( ٣٢ ) ، تؤدى إلى دركاوات ، تكتنف بعضها مصاطب وحنايا وتنتهى بممر . ومن ثم تشكل هذه

الدركاوات والممرات مداخل منكسرة ( باشورة ) غير مباشرة لهذه القلاع (٣٣) ، فضلاً عن إمكانية الدخول المباشر إليها من خلال الأبواب التي تصدر بعض جدران هذه الدركاوات . ويتوسطها عادة صحن مركزي مكشوف ، يدور حوله عدد من الوحدات المعمارية ، تتوزع إما على طابق أو طابقين ، يشتمل الطابق الأرضي على حجرات صغيرة ومخازن ومطابخ ودورات للمياه . ويصعد إلى غرف الطابق الثاني والممرات المكشوفة التي تلتف من الداخل حول الجدران العلوية للمراقبة والدفاع ، بواسطة درج . ويقوم في كل ركن رئيسي من هذه القلاع ، برج يمكن دخوله من الصحن ويتكون إما من طابق واحد أو طابقين . وقد يتخذ شكلاً أسطوانياً أو مربعاً أو مثلثاً ، فضلاً عن الأبراج المتصلة بالأضلاع ، والتي يتخذ بعضها شكلاً نصف دائري . وقد استخدمت في تغطية بعض الوحدات المعمارية بهذه القلاع ، قبوات مدببة وأخرى نصف دائرية ، فضلاً عن جذوع وفروع أشجار الصرر والنخيل ، كما علت بعض فتحاتها عقود مدببة ، ونصف مستديرة (٣٤) ، إلى جانب جذوع وفروع الأشجار والنخيل أيضاً ، كما اشتملت بعض هذه القلاع على ميازيب خشبية لتصريف المياه ، وشرافات نصف دائرية (٣٥) .

ويتضح ذلك في قلعة عسفان المستطيلة الشكل ( ٣٥ × ٢٥ م ) والمستديرة الأبراج ( مخطط - ٧ ، صورة - ٢١ ) والمشيدة بأحجار جرانيتية وبركانية سوداء كبيرة ، تنتظم في صفوف عرضية ، وتضم بينها قطعاً صغيرة . ويربط بين هذه الأحجار المختلفة الأشكال والأحجام ، مونه من طمي الوادي والجير ( حص ) ، والتي ترتفع بقاياها المعمارية لنحو ( ٥ م ) ، فوق هضبة تعلو عن مستوى سطح وادي غولة بنحو ( ١٥ م ) ، شمال غرب قرية عسفان بنحو ( ١,٥ كم ) (٣٦) . ويستشف التصميم المعماري للقلعة من هذه البقايا المعمارية التي تضم أبراجها وبعض أساسات الجدران ، وقوامه فناء مكشوف بأربعة جدران سميكة



( ١ - ١,٥٠ م ) ، تبرز عنها للخارج بنحو ( ٢,٥٠ م ) برجان مستطيلان بكل ضلع ، كما يوجد برج مستدير قطره ( ٢ م ) فى كل ركن من الأركان الأربعة للقلعة ، ويرجح وجود ممر مكشوف يحيط بسور القلعة من الداخل للمراقبة والدفاع ، وأن يكون مدخل القلعة فى ضلعها الشمالى ، وبأرضية القلعة يوجد ممر طوله ( ٣,٠٠ م ) وعرضه ( ١,٥٠ م ) ، كان يغطى بقبو مدبب ، وينتهى بباب يعلوه عقد مدبب ، يؤدى إلى غرفة مستطيلة ( ٤,٠٠ × ٣,٠٠ م ) ، مغطاة بقبة نصف دائرة ، ترتفع لنحو ( ٢,٠٠ م ) ، ربما كانت تستخدم كمنحزن للأسلحة والدخائر أو مستودع للوقود أو سجن للمخالفين .

ومن القلاع أيضاً قلعة بقرية خليص ، مقامة بإرتفاع يتراوح من ( ٥,٠٠ : ٨,٠٠ م ) فوق هضبة بنحو ( ٥٠,٠٠ م ) عن مستوى سطح وادى مروانى ( مخطط - ٨ ، صورة - ٢٢ ) ، تمتد من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى ( ٣٧ ) . وقد شيدت من الأحجار البركانية السوداء ذات الأحجام الكبيرة والمتوسطة ، مع وجود قطع من الأحجار الصغيرة بينها ، وقد ربط بين هذه الأحجار جميعها ، ملاط مكون من طمى الوادى والجير ( جص ) . وقوام تصميمها المعمارى المربع الشكل ( ٤٠,٠٠ × ٤٠,٠٠ م ) ، فناء مكشوف محاط بأربعة أسوار ضخمة ، مزودة فى الأركان بأربعة أبراج مربعة ( ٤,٠٠ × ٤,٠٠ م ) قوية فى الأركان ، يتخلل طابقها العلوى فتحات للسهم ، أبعادها من الخارج ( ١٠,٤٠ × ١٠,١٠ م ) ومن الداخل ( ١٠,٤٠ × ١٠,٣٥ م ) . وأبراج أخرى مستديرة فى الأضلاع ، كانت تستغل فى استخدام نوع من السهم يحتاج إطلاقها من الأقواس إلى مساحة رحبة ، وليس من أعلى الكتف مباشرة كالتى تقذف من فتحات السهم ، إذ يشتمل كل ضلع من أضلاع القلعة ، عدا الضلع الجنوبى الغربى ، على برجين مستديرين ، قطر الواحد منهما ( ٢,٠٠ م ) . ويدخل إلى القلعة من ناحيتها الغربية ، بواسطة مدخل منكسر ( ٥,٠٠ × ٣,٠٠ م ) مغطى



بقبو مستدير . وكان يتقدمة باب خارجى معقود ، إتساعه ( ١٠,٠٠ م ) . ويزر  
أساس القلعة للخارج بنحو ( ٢٠,٠٠ م ) كنوع من التقوية . وتوجد بقايا معمارية  
فى وسط القلعة تضم جدران يتراوح سمك الواحد منها ما بين ( ١,٠٠ - ١,٥٠ م ) ،  
ويبدو أنه كان يراقب ويدافع أيضاً من القلعة بواسطة ممر مكشوف يلتف من  
الداخل حول الأسوار .

كذلك يقع فى وسط مدينة رابغ الحالية ، أحد أبراج قلعتها الأثرية التى  
كانت تشمل على صهاريج للمياه العذبة وعدة عنابر ومخازن ، لحفظ المؤن  
والذخائر ، كما كانت تقيم بها بصفة دائمة فرقة من العسكر ، وعدد كاف من  
المدافع وأطقمها ( ٣٨ ) ( مخطط - ٩ ، صورة - ٢٣ ) . ويتخذ البرج شكلاً مئمن  
الأضلاع ، تبلغ مساحته نحو ( ٢٨٢ م ) ، وسمك جداره ( ٠,٦٠ م ) ، ويتكون  
من طابقين ودروة ، بارتفاع ( ٦,٠٠ م ) ، وهو مشيد بالأحجار الجيرية البيضاء  
المنتظمة فى صفوف أفقية . أما الملاط فمن طمى الوادى والجير ( جص ) ، كما تغطية  
من الداخل والخارج طبقة من الملاط ، وتدعمه من الخارج عوارض خشبية للربط  
والتقوية . ويدخل إلى كل طابق عبر مدخل مربع الشكل ( ١,٠٠ × ١,٠٠ م ) ،  
ينفتح فى الجهة الجنوبية ، ويغلق بصلفة خشبية ، ويعلوه عتب من جذوع أشجار  
الصرر ، وتتخلل جدران البرج تسع عشرة فتحة للمراقبة والدفاع ، متسعة من  
الداخل وضيقة من الخارج ، موزعة على صفين ، وأربع نوافذ يعلو كل منها عقد  
نصف دائرى ، ويعلو كل طابق سقف من جذوع أشجار الصرر أيضاً ، وطبقتان  
من جريد النخيل والطمى والحصير ، ويزر من أعلى البرج ، ميثاب خشبى  
لتصريف مياه الأمطار .

ومن القلاع الباقية أيضاً من العصر العثمانى بدرب الهجرة النبوية ، قلعة  
عروة بالمدينة المنورة ( مخطط - ١٠ ، صورة - ٢٤ ) ( ٣٨ ) ، وهى قلعة مربعة  
الشكل ، طول ضلعها ( ٢٢,٠٠ م ) مشيدة بالأحجار البركانية السوداء والرملية

والملاط المكون من طمى الوادى والجير ( جص ) ، ويتراوح سمك جدرانها من ( ٠,٤٥ - ٠,٥٠ م ) ، وتغطيها من الداخل والخارج طبقة من الجص . ويتوسط ضلعها الشمالى الغربى مدخل يعلوه عقد نصف مستدير ، يؤدى إلى دركاه مستطيلة المساحة ، تلتصق بجدارها الشمالى الشرقى حجرة صغيرة مستطيلة الشكل ، ودرج يصعد به إلى الطابق العلوى ، بينما تلتصق بجدارها الجنوبى الغربى حجرة كبيرة مستطيلة الشكل ، كما تتعامد الدركاه على قاعة كبيرة مستطيلة الشكل أيضاً ، وتغطى الدركاه وما يتصل بها من وحدات مستطيلة المساحة ، قبوات نصف دائرية ، بينما يعلو أبوابها ونوافذها عقود نصف مستديرة . ويحيط بهذا القسم الرئيسى للقلعة ، ممر مكشوف اتساعه ( ٣ م ) ، يحيط به جدار سمك ( ٠,٥٠ م ) ، تتخله نوافذ كبيرة ترتفع عن مستوى سطح الأرض بـ ( ٢,٠٠ م ) ، كالتى تتخلل جدران القسم الرئيسى للقلعة .

أما عن مكتشفات اللقى الفخارية غير المطلية والمطلية ، والتى أسفرت عنها البحوث الأثرية الميدانية بمواقع درب الهجرة النبوية ، وترجع إلى العصر العثمانى ، وتم تحديد العديد من المواقع الأثرية إستناداً عليها (٤٠) ، فتتمثل فى أجزاء من آنية ومباخر ومسارج وغلايين ، عثر عليها بوادى فاطمة وخليص وبئر مبيرك وبئر الماشية وعروة ، وتميزت ببعض الخصائص الفنية والأساليب الزخرفية البسيطة . وتختلف فيما بينها من حيث تشكيلها ومقدار سمكها ، فضلاً عن تعدد منتجاتها واستعمالاتها ، وقوام زخارفها البارزة والغائرة والملونة ، خطوط عريضة وأخرى دقيقة ، متوازية ومتقاطعة ومنكسرة ، وأشكال معينة وآهلة صغيرة ومتابعة .

من ذلك قطعتان من الفخار غير المطلى السميك ( ٨ ملم ) المائل للاحمرار ، عثر عليهما بجوار آبار وادى فاطمة ، تمثل الأولى جزءاً من قاعدة إناء ( رسم - ١ ) ، والثانية جزءاً من حافة إناء ( صورة - ٢٥ ) .

وقطعتان من صنبورين ، اكتشفتا فى بركة خليص ، من الفخار غير المطلى المتوسط السمك ( ٥ ملم ) ، لونهما بنى فاتح ، قطر الأولى من الداخل ( ١١ ملم ) ومن الخارج ( ٧ ملم ) ، أما الثانية فقطرها من الداخل ( ١٠ ملم ) ومن الخارج ( ٨,٥ ملم ) - ( صورة - ٢٦ ) .

هذا إلى جانب بقايا المنتجات الفخارية غير المطلية ، والتي تغطيها طبقة البطانة من الداخل أو الخارج ، أو من الداخل والخارج معاً ، من ذلك كسرة من بدن إناء من الفخار قليل السمك ( ٤,٥ ملم ) ، عشر عليها بوادى فاطمة ، تغطيها من الخارج طبقة من البطانة البيضاء ، تزينها زخارف هندسية بارزة ، قوامها أشكال معينة ( صورة - ٢٧ ) .

بالإضافة إلى صنبور من الفخار متوسط السمك ( ٦,٥ ملم ) ، يميل لونه للاحمرار ، وتغطيه من الخارج بطانة بيضاء ، ويبلغ قطره من الداخل ( ١٢ ملم ) - ( صورة - ٢٨ ) ، وكسرة من الفخار الرقيق ( ٣,٥ ملم ) ذى اللون البنى الفاتح ، والمبطن من الداخل والخارج باللون الأبيض ، يزينها من الخارج شريط عريض بداخله خطوط دقيقة غائرة متوازية ومتقاطعة ، تكون أشكال معينة ( صورة - ٢٩ ) ، وقد عشر عليهما بخليص ، فى شرق وادى مروانى .

هذا إلى جانب اللقى التى عشر عليها بعروة ، ومنها جزء من حافة إناء من الفخار ، قليل السمك ( ٤ ملم ) به ثقبان ، ربما كان يستفاد منهما فى حمل الإناء . وجزء من مقبض إناء من الفخار السميك ( ١٠,٥ ملم ) ذى اللون البنى الفاتح ، والمبطن من الداخل والخارج باللون الأبيض ( صورة - ٣٠ ) ، فضلاً عن جزأين من مبخرتين مربعتي الشكل من الفخار الخشن السمك ( ٤ - ١٣ ملم ) ذى اللون البنى الفاتح ( صورة - ٣١ ، رسم - ٢ ) ، وفوهة آنية شرب ( قلة ) من الفخار المتوسط السمك ( ٦ ملم ) ، ذى اللون البنى الفاتح ، والمبطن من

الداخل والخارج باللون الأبيض ، ويلتف حولها من الخارج خطان عريضان وبارزان ( صورة - ٣٢ ، رسم - ٣ ) ( ٤١ ) .

كما عثر على أمثلة من بقايا الفخار غير المطلق الأملس المصقول الذى يتميز بدقة صناعته ، بموضع بئر مبيرك ، منها كسرتان من فوهتى غليونين ، سمك أحدهما ( ٤ ملم ) ، ويحيط بهما من الخارج خطان غائران ومتوازيان ، يحدان بينهما خطوطاً محزوزة دقيقة متوازية ومتعامدة ، أما الثانية فخالية من الزخارف ، ويبلغ سمكها ( ٣,٥ ملم ) - ( صورة - ٣٣ ) .

فضلاً عن أجزاء من آنية ومسارج وغلايين من الفخار المصقول ، عثر عليها ببئر الماشية . من ذلك فوهة آنية من الفخار الوردى اللون ، جيدة الصنع ، ومتوسط السمك ( سمك الفوهة ٦ ملم والبدن ٤ ملم ) وقطرها من الداخل ( ١٧ ملم ) ، ومضلعة من الخارج ( صورة - ٣٤ ) . بالإضافة إلى جزء من مسرحة مستديرة الشكل ( ٤٢ ) ، قطرها ( ٤٥ ملم ) ، تزينه أهلة صغيرة غائرة ومتتابة ، ويتراوح سمكها ما بين ( ٤ - ١٥ ملم ) ، أما الحافة الخارجية ، فيبلغ سمكها ( ١,٥٠ ملم ) - ( صورة - ٣٥ ) .

أما عن بقايا الفخار المطلق ، فقد عثر فى جنوب وادى مروانى وخليص على خمس كسر من الفخار المطلق من الداخل والخارج ، الأولى عبارة عن جزء من حافة إناء مطلية باللون الفيروزى وثلاثة أجزاء من قواعد آنية من الفخار السميك ( ٧ - ١٦ ملم ) ، مطلية باللونين الأخضر الفاتح والداكن . أما الكسرة الخامسة ، فعبارة عن جزء من بدن إناء من الفخار السميك ( ٨,٥ ملم ) ، والمطلق باللون الأخضر ، يزينه شريط عريض باللون الأخضر الداكن ، قوامه خطوط عريضة منكسرة ومتداخلة ( صورة - ٣٦ ) .

ومما تقدم يتضح مدى أهمية التعرف على المسالك والدروب ذات الدور الحضارى الهام فى إكتشاف معالم مواقع ومناطق أثرية لا تزال مجهولة .

كما يتضح طابع التقشف والبساطة الذى تميزت به المكتشفات الأثرية الثابتة والمنقولة بدرب الهجرة النبوية فى العصر العثمانى (٤٣) ، وقوامها ، مسجد وقصر وأرضية حجرية وبركة وقناتان وأربعة أحواض وثمان آبار وأربع قلاع ، انفردت بمواقع إستراتيجية وزودت بمخصائص وعناصر معمارية تلائم وظيفتها ، كالمحاريب والقباب والقبيبات والقبوات والعقود والأعتاب والدعامات والحنايا والمصاطب والمداخل والمزاغل والنوافذ والأبراج والممرات المكشوفة والدرابى والميدات الخشبية والكسوات الحصية والشرافات ، فضلاً عن اللقى الفخارية غير المطلية والمطلية التى تميزت ببعض الأساليب والعناصر الفنية والزخرفية .

وبعد ، فإننى أرجو أن أكون قد وفقت فى هذا البحث فى إلقاء الأضواء على جانب هام من جوانب التراث الأثرى الإسلامى فى العصر العثمانى .

## الهوامش

(١) عبد الغنى أحمد ناجى : مجلة الوعى الإسلامى ( العدد ٣٠١ ) - فى ذكرى الهجرة النبوية - ص ٣٦ .

(٢) خلال موسمى مشروع المسح الأثرى الشامل لأراضى المملكة العربية السعودية ؛ موسم ( ٩ ربيع الأول - ٤ جمادى الآخر ١٤٠٠هـ / ٢٧ يناير - ٢٠ أبريل ١٩٨٠م ) وموسم ( ١ ربيع الآخر - ٣٠ جمادى الأولى ١٤٠٢هـ / ٢٧ يناير - ٢٦ مارس ١٩٨٢م ) .

(٣) محمد لبيب البتنونى: الرحلة الحجازية - ص ١٧٤-١٧٦ ، ١٨٦ ، ٢٤١-٢٤٣ .

محمد طاهر الكردى : التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم - ج ٢ - ص ٢٤٢-٢٤٣ .

(٤) تعد واحات ومزارع وبساتين درب الهجرة النبوية ، مرتعاً خصباً لأنواع مختلفة من الخضر والفاكهة والنخيل ، وأشجار الدخن والذرة والمقائى الكثيرة والشيخ والحنطيل والخردل والحنا الشهيرة والآئل - فضلاً عن الحبوب الذى يصلح للتداوى والأعشاب الطيبة ، والحشائش الفقيرة والنباتات الصحراوية ( انظر ؛ رينهاات دوزى : تكملة المعاجم العربية - ج ١ - ص ٨٤ ، حلیم إبراهيم جريس ، يوسف خليل ( دكتور ) ، إحلال السباعى : الأطلس العربى - ص ١٢ ) .

(٥) ل ق ی : لُقِىَ ، لِقَاءً ، لُقِياً ، لُقِياً ، لُقِىَ ، لقيانا ( انظر ؛ أبى القاسم محمود بن عمر الزمخشري : أساس البلاغة - ص ٤١٣ ) .

- تدین معظم اللقى والتحف الأثرية بوجودها ، إلى أعمال الحفائر الأثرية التى تلقى أضواء جديدة على الحضارة الإنسانية وتاريخها ( انظر ؛ ليونارد وولى : أعمال المسح الأثرى - ص ٥ ) .

(٦) العياشى : ماء الموائد - ص ٩٣ .

أحمد بن ناصر الدرعى : الرحلة الناصرية - ص ٤٢٥ .

فواد الماوى ( دكتور ) : العلاقات الاقتصادية والمالية بين مصر والحجاز - ص ٣٦ .

Shaw, S. J., The Financial and Administrative Organization, p. 250.

(٧) كانت تتداول السلع والبضائع فى العصر العثمانى - إلا فيما ندر - بمكاييل غير وافية ، قوامها الصاع أو الربعى وأجزاؤه ( الكيلة ) ، وبموازين غير صحيحة ، أساسها الرطل والأقة والقنطار ، وبأسعار غير معلومة ، وبعملات عديدة ( انظر ؛ الجيرتى عجائب الآثار فى



التراجم والأخبار - ج ١ - ص ٤١٦ ، الجزيري : الدرر الفرائد - ج ٢ - ص ٩١١ ، ٩٧٤ ،  
١١٢٩ ، ١١٥٤ ، العياشي : المصدر السابق - ص ٢٥ ، ١٥١ ، ١٦١ ، ١٦٣ - ١٦٤ ،  
أحمد بن ناصر الدرعي : المصدر السابق - ص ١٦١ ، ٤٢٧ ، ٤٣٣ ، ٤٣٦ ، ٤٤١ -  
٤٤٢ ، ٤٤٤ ، عبد الرحمن فهمي ( دكتور ) : النقود المتداولة أيام الجيرتي - ص ٥٧٣ ،  
٥٧٦ ، عبد الرحيم عبد الرحمن ( دكتور ) : وثائق تاريخ مصر الاقتصادية والاجتماعية في  
العصر العثماني - ص ١٥ .

(٨) عسفان ؛ بضم أوله ، وسكون ثانيه ، ثم فاء وآخره نون ، وهي منهلة من مناهل  
الدرب ، بينها وبين مكة تسعة وأربعون ميلاً ، وبينها وبين البحر الأحمر عشرة أميال ، وهي  
حد تهامة ، كثيرة الأهل بها نخيل ومزارع ، وماؤها من الآبار ( انظر ؛ ياقوت الحموي :  
معجم البلدان - ج ٤ - ص ١٢١ - ١٢٢ ، محمد بن عبد المنعم الحميري : الروض المعطار -  
ص ٤٢١ ) .

(٩) كانت تكثر فيه الأوعار من الرمال والأحجار إلى أن مهدت وسويت وعدت ممراً  
ضيّقاً ، وكان بواسطها لوحة من الرخام ، كتبت عليها بالخط الثلث البسملة ، وأنه أنشئ بأمر  
سلطاني . معرفة رضوان بك داود الغفاري في ( جمادى الأولى سنة ١٢٠٠ هـ / مارس ١٧٨٦ م ) ،  
كما كان يوجد بها مسجد صغير ( انظر ؛ عبد الغني النابلسي : الحقيقة والمجاز - ص ٤٤٠ ) .

(١٠) كان يباع بها اللحم المشوي والبطيخ والرطب والتمر والملوخية والقصرع  
والبادنجان ، ( انظر ؛ الجزيري : المصدر السابق - ج ٢ - ص ١٥١٧ ، والنابلسي : المصدر  
السابق - ص ٤٤٠ ، أحمد بن ناصر الدرعي : المصدر السابق - ص ٤٥٦ ) .

(١١) رابغ ؛ بعد ألف باء موحدة وآخره غين معجمة ، واد بين البزواء والجحفة دون  
عزور ، وبين الجحفة وودان ، ورابغ واد من دون الجحفة يقطعه المسافر من دون عزور ، وبطن  
رابغ واد من الجحفة له ذكر في المغازي وفي أيام العرب ، وهو على عشرة أميال من الجحفة  
فيما بين الأبواء والجحفة ، والجحفة جنوب رابغ بنحو عشرة أميال ، وكانت الميقات الذي  
يحرم الناس منه ، ومن المنازل العامرة ، إلا أنها اندثرت ، وصار الناس يحرمون من رابغ ، ويقال  
أربغ فلان إبله ، إذا تركها ترد أي وقت شاءت وهي أبل مدبغة أي جيدة ، والرابغ الذي يقيم  
على أمر ممكن له ( انظر ؛ الأزرقى : أخبار مكة المكرمة - ج ٢ - ص ٣١ ، ابن حوقل :

- صورة الأرض - ص ٤٠ ؛ ياقوت الحموى : المصدر السابق - ج ٣ - ص ١١ ، العياشى :
- المصدر السابق - ص ٤١ ، أحمد بن ناصر الدرعى : المصدر السابق - ص ٤٥٥ ، محمد بن عبد
- السلام الناصرى الدرعى : رحلتنا الدرعى - ص ١١٠ ، النابلسى : المصدر السابق - ص ٤٣٩ ،
- إبراهيم رفعت : مرآة الحرمين - ج ٢ - ص ٢٠٣ ) .
- (١٢) الأبناء ؛ قرية من أعمال الفرع من المدينة ، بينها وبين الجحفة مما يلى المدينة
- ثلاثة وعشرون ميلاً ، وقبل الأبناء جبل على يمين آرة ، ويمين الطريق للمصعد إلى مكة من
- المدينة ، وهناك بلد ينسب إلى هذا الجبل (ياقوت الحموى : المصدر السابق - ج ١ - ص ٧٩) .
- (١٣) الأزرقى : المصدر السابق - ج ١ - ص ١٣٢ - حاشية ٥ ، ج ٢ - ص ٣١٠ .
- القلقشندى : صبح الأعشى - ج ٤ - ص ٢٥٩ ، ج ١٤ - ص ٣٨٦ - ٣٨٨ .
- أحمد الرشيدى : حسن الصفا والابتهاج - ص ٤٥ .
- ياقوت الحموى : المصدر السابق - ج ١ - ص ٧٩ ، ٢٣٩ ، ج ٢ - ص ٢٩٥ .
- الجزيرى : المصدر السابق - ج ٢ - ص ٨٣٧ ، ١٥٥٩ - ١٥٦٠ ، ١٥٦٢ ، ١٥٦٦ ،
- ١٥٦٨ ، ١٥٧١ .
- العبدى : الرحلة المغربية - ص ١٥٧ ، ١٦٥ .
- العياشى : المصدر السابق - ص ٤٣ - ٤٥ ، ١٢٧ .
- النابلسى : المصدر السابق - ص ١١٥ ، ٤٣٩ - ٤٤٠ .
- أبو القاسم الزيانى : الترجمانة الكبرى فى أخبار المعمور برًا وبحرًا - ص ٢٢٩ .
- أحمد بن ناصر الدرعى : المصدر السابق - ص ٤٥١ ، ٤٥٥ - ٤٥٨ .
- المنالى الزبادى : بلوغ المرام - ص ٥٤٣ - ٥٤٤ ، ٥٤٦ .
- محمد بن عبد السلام الناصرى الدرعى : المصدر السابق - ص ١١٥ - ١١٦ ، ١١٩ - ١٢٣ ،
- ١٤٧ ، ١٥٥ - ١٥٦ .
- محمد لبيب البتنونى : المصدر السابق - ص ١٧٤ - ١٧٦ ، ١٨٦ ، ٢٤١ - ٢٤٣ .
- إبراهيم رفعت : المصدر السابق - ج ٢ - ص ١٤٢ - ١٤٣ ، ١٩٩ - ٢٠٣ .
- محمد طاهر الكردى : المرجع السابق - ج ٢ - ص ٢٤٢ - ٢٤٣ ، ٢٤٥ - ٢٤٦ .
- عبد الكريم كريم (دكتور) : المرجع السابق - ص ١٩٠ .

حليم جريس ، يوسف تحليل ( دكتور ) ، إجلال السباعي : المرجع السابق - ص ١٢ .

Burckardt, J. L., Travels in Arabia, pp. 292 - 293.

( ١٤ ) عند دائرة خط عرض (٤٢° - ٢١°) شمالاً ، دائرة خط طول (٤٩° - ٣٩°) شرقاً .  
- قطع المعمارىون فى العصر العثمانى صلتهم بالتصميمات الإسلامية الصميمة للمساجد ،  
والتي كانت تتمثل فى النموذجين الرئيسيين ، وأولهما النموذج النبوى ذو الصحن والظلات ،  
وثانيها النموذج السنى ذو الصحن والأيونات ، وانحصر تصرف هؤلاء المعمارين فى تخطيط  
بيت الصلاة فى توزيع بدانات أو دعامات فى وسطه ( انظر ؛ فريد شافعى - ( دكتور ) :  
العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها - ص ١٤٠ - ١٤١ ) .

( ١٥ ) انتقلت فكرة التغطية بالقبوات من العمائر الساسانية إلى العمارة الإسلامية  
المبكرة فى العراق والشام ، إذ نشاهدها فى قصر المشتى وقصر الطوبة وفى حمام الصرخ ، ثم  
فى قصر الأحيضر ( انظر ؛ فريد شافعى ( دكتور ) : المرجع السابق - ص ١٦٤ ) وقد  
استعملت القبوات نصف الكروية أو المدببة أو المتقاطعة فى تغطية الحجرات والدهاليز فى  
المباني الدينية والمدينة والعسكرية ( انظر ؛ صالح لمعى ( دكتور ) : التراث المعمارى الإسلامى  
فى مصر - ص ١٠٦ ) .

( ١٦ ) يوجد أقدم محراب مجوف فى الجدار الجنوبي الخارجى لمبنى قبة الصخرة فى بيت  
المقدس ( ٧٢٢هـ / ٦٩١م ) ، ( انظر ؛ فريد شافعى ( دكتور ) : المرجع السابق - ص ١٥٢ ، ١٥٤ ) .  
( ١٧ ) لم تترك التقاليد والعناصر التى اقتبسها المعمارىون فى العصر العثمانى من الطرز  
البيزنطية إلا مجالاً ضيقاً للعناصر والتفاصيل الإسلامية ، ( انظر ، فريد شافعى ( دكتور ) : المرجع  
السابق - ص ١٤٣ ، العمارة العربية فى مصر الإسلامية - المجلد الأول - ص ١٧٣ - ١٧٤ ) .

( ١٨ ) أن المنازل والقصور التى ما زالت قائمة بمكة المكرمة والمدينة المنورة وحدة  
والطائف وغيرها ، والتى يعود معظمها إلى أواخر العصر العثمانى ، لتوضح فى جلاء كبير تلك  
المستويات التى إنحدرت إليها العمارة فى الأقطار العربية التى دخلت فى حوزة الدولة العثمانية ،  
وذلك على الرغم مما حدث فى العصر العثمانى من الإسراف والمبالغة فى استخدام المواد الثمينة  
كالرخام والفسيفساء والبلاطات الخزفية والإكثار من استعمال الذهب والتذهيب ، وليس كل  
ذلك بدليل على ارتفاع المستوى الفنى والمعمارى ، بل لعله يعد أحياناً وسيلة لتغطية انخفاضه  
( انظر ؛ فريد شافعى ( دكتور ) : العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها - ص ١٤٦ ) .

(١٩) مساعد بن منصور ( الشريف ) : جداول امراء مكة منذ فتحها إلى الوقت الحاضر - ص ٣٥ - ٣٧ .

(٢٠) القبة من العناصر المعمارية المعروفة منذ آلاف السنين وقد استخدم العثمانيون القبة المنخفضة ( الضحلة ) التي تتميز بالشكل الذي يقل عن نصف الكرة ، وهذه تختلف كثيراً عن القبة الإسلامية العالية في مصر ، أما القباب ذات الأحجام الصغيرة ، فكان الكثير منها يغلب عليه القطاع المدبب ، بل كان بعضها يقرب من الشكل المخروطي ( انظر ؛ فريد شافعي (دكتور): المرجع السابق - ص ١٧٧ ، ١٩٨ ، كمال الدين سامح (دكتور) : العمارة الإسلامية في مصر - ص ٥٢ ) .

(٢١) عند دائرة خط عرض (١٧-٢٣) شمالاً ، دائرة خط طول (٢٤-٣٩) شرقاً .

(٢٢) العياشي : المصدر السابق - ص ٤٤ .

النايلسي : المصدر السابق - ص ٤٤٠ .

أحمد بن ناصر الدرعي : المصدر السابق - ص ٤٥٧ .

المنالي الزبادي : المصدر السابق - ص ٥٤٤ .

(٢٣) عند دائرة خط عرض (٤٥-٢١) شمالاً ، دائرة خط طول (٣١-٣٩) شرقاً .

(٢٤) العياشي : المصدر السابق - ص ٤٣ .

النايلسي : المصدر السابق - ص ٤٤٠ .

أحمد بن ناصر الدرعي : المصدر السابق - ص ٤٥٦ .

(٢٥) الجزيري : المصدر السابق - ج ٢ - ص ٨٣٧ .

العياشي : المصدر السابق - ص ٤٣ .

أحمد بن ناصر الدرعي : المصدر السابق - ص ٤٥٦ .

المنالي الزبادي : المصدر السابق - ص ٥٣٨ .

(٢٦) عند دائرة خط عرض (٢٠-٢٢) شمالاً ، دائرة خط طول (٩-٣٩) شرقاً .

(٢٧) عند دائرة خط عرض (١٠-٢٣) شمالاً ، دائرة خط طول (٩-٣٩) شرقاً .

(٢٨) محمد لييب البتنوني : المرجع السابق - ص ١٧٤ ، ١٨٦ .

محمد طاهر الكردي : المرجع السابق : ص ٢٤٢ .

- (٢٩) عند دائرة خط عرض (٢٣-٥٥) شمالاً ، ودائرة خط طول (٣٩-٠٧) شرقاً .
- (٣٠) الجزيري : المصدر السابق - ج٢ - ص ١٥٦٦ .
- محمد بن عبد السلام الناصري الدرعي : المصدر السابق - ص ١٥٥ - ١٥٦ .
- عند دائرة خط عرض (٢٤-٢٤) شمالاً ، ودائرة خط طول (٣٢ - ٣٩) شرقاً .
- (٣١) كلمة القلعة ( قلاع ) فى الأصل مأخوذة عن الكلمة اللاتينية Castellum وتعنى المكان المحصن ، وقد بدأ الإنسان بإنشاء المباني المحصنة والمراكز الدفاعية لحماية نفسه منذ أقدم العصور التاريخية ، (انظر ؛ حنان الكردى : القلاع الأثرية فى الأردن-ص ٢-٣ ، ٥) .
- (٣٢) الدراكة ؛ وجمعها دركاوات ، لفظ فارسى مركب من كلمتين "در" بمعنى فى ، "كاة" بمعنى محل ، وهى المساحة الصغيرة المربعة أو المستطيلة التى تلى باب الدخول إلى داخل المبنى ( انظر ؛ المقرئى : الخطط - ج١ - ص ٨٥٧ - حاشية ٢٥ ، صالح لمعى مصطفى (دكتور) : المرجع السابق - ص ١١٩ ) وقد وجدت الدراكاوات بالمدخل المباشرة ، والمدخل المنكسرة ، وكانت تسقف بأسقف خشبية مسطحة ، أو بقبوات نصف كروية أو متقاطعة أو بقباب ضحلة أو غير ضحلة .
- (٣٣) استخدمت المداخل المنكسرة فى القلاع والحصون للتخفيف من حدة إندفاع هجوم العدو ( انظر ؛ توفيق أحمد عبد الجواد (دكتور) : تاريخ العمارة والفنون الإسلامية - ج٣ - ص ١٩٠ انظر ؛ فريد شافعى (دكتور) : العمارة العربية فى مصر الإسلامية - المجلد الأول - ص ٤٣٣ ، ٤٣٥ ) .
- (٣٤) عرف العقد نصف الدائرى أيام الرومان ، واستعمل فى العمارة الإسلامية فى قصر الحير الشرقى ( ١١٠هـ / ٧٢٨م ) فى العصر الأموى ، واستعمل فى مصر فى كثير من الفتحات ، وشاع استعماله فى عمارة العصر العثمانى بمصر ( انظر ؛ صالح لمعى مصطفى (دكتور) : المرجع السابق - ص ٩٧ ) .
- (٣٥) الشرافات ؛ قطع حجرية توضع أعلى المبنى فوق الكورنيش ، تتوج بها الواجهات ، وقد تكون مسننة ( تدرج بالجانبين على شكل أسنان ) أو مورقة ( على شكل زهرة ) - ( انظر ؛ صالح لمعى مصطفى (دكتور) : المرجع السابق - ص ١٢١ ) .
- (٣٦) عند دائرة خط عرض (٥٤-٢١) شمالاً ، دائرة خط طول (٢٠ - ٣٩) شرقاً .



(٣٧) عند دائرة خط عرض (١٠-٢٢) شمالاً ، دائرة خط طول (٢١-٣٩) شرقاً .

(٣٨) العياشى : المصدر السابق - ص ٤١ .

أبو القاسم الزياتى : المصدر السابق - ص ٢٢٨ .

أحمد بن ناصر الدرعى : المصدر السابق - ص ٤٥٤ .

المنال الزبادى : المصدر السابق - ٥٤٢ .

محمد بن عبد السلام الناصرى الدرعى : المصدر السابق - ص ١٠٧ - ١٠٩ .

محمد لبيب التبنونى : المصدر السابق - ص ٣٦ ، ٢٠٩ .

أيوب صبرى : مرآة جزيرة العرب - ج ١ - ص ١٩٧ .

(٣٩) عند دائرة خط عرض (٢٦-٢٤) شمالاً ، دائرة خط طول (٢٤-٣٩) شرقاً

(٤٠) عرفت البشرية الفخار منذ القدم ، وهو طفل بنى مائل للاحمرار بعضه خشن

وبعضه أملس ناعم ، وكان يستخدم بصفة خاصة فى صنع الجرار من قلل وأزيار ، حيث

يستفاد من مسامه فى تبريد الماء ، وكانت تصنع تحفة التى تتفاوت فى السمك من الطين

المحروق دون طلاء ، كما كانت تغطى بعض منتجاته من البطانة الملساء ، لونها أبيض أو مائل

للإصفرار وقد يصقل سطحها فتبدو لامعة ، أو تترك بدون بطانة أو صقل ، وقد عرف الصناع

المسلمون طرقاً كثيرة لزخرفة الفخار ، مثل النقش والحفر والتجسيم بطريقة ( الباروتين ) -

أى صب العجينة المضافة من قمع أو قرطاس - والطبع بالأختام ( انظر ؛ زكى محمد حسن

(دكتور) : أطلس الفنون الزخرفية - ص ٤١١ ، م . س . ديماند : الفنون الإسلامية -

ص ١٨٠ - ١٨١ ، ٢٢١ ، حسن الباشا ( دكتور ) : مدخل إلى الآثار الإسلامية - ص ٣٦٣ ،

٣٧٤ ، سعاد ماهر ( دكتورة ) : الزخرف التركى - ص ٣ ، عبد الرؤوف على يوسف :

القاهرة - تاريخها فنونها آثارها - بحث الفخار - ص ٣٢٠ ، G. Retlinger, Unglazed

Relief Pottery from Northern Mesopotamia ( in Ars Islamica, Vols. XV - XVI, p. 11 - 22 ) .

(٤١) القلل الفخارية ؛ من الأواني الشعبية الشائعة لتبريد المياه ، وقد تفنن الفخاريون

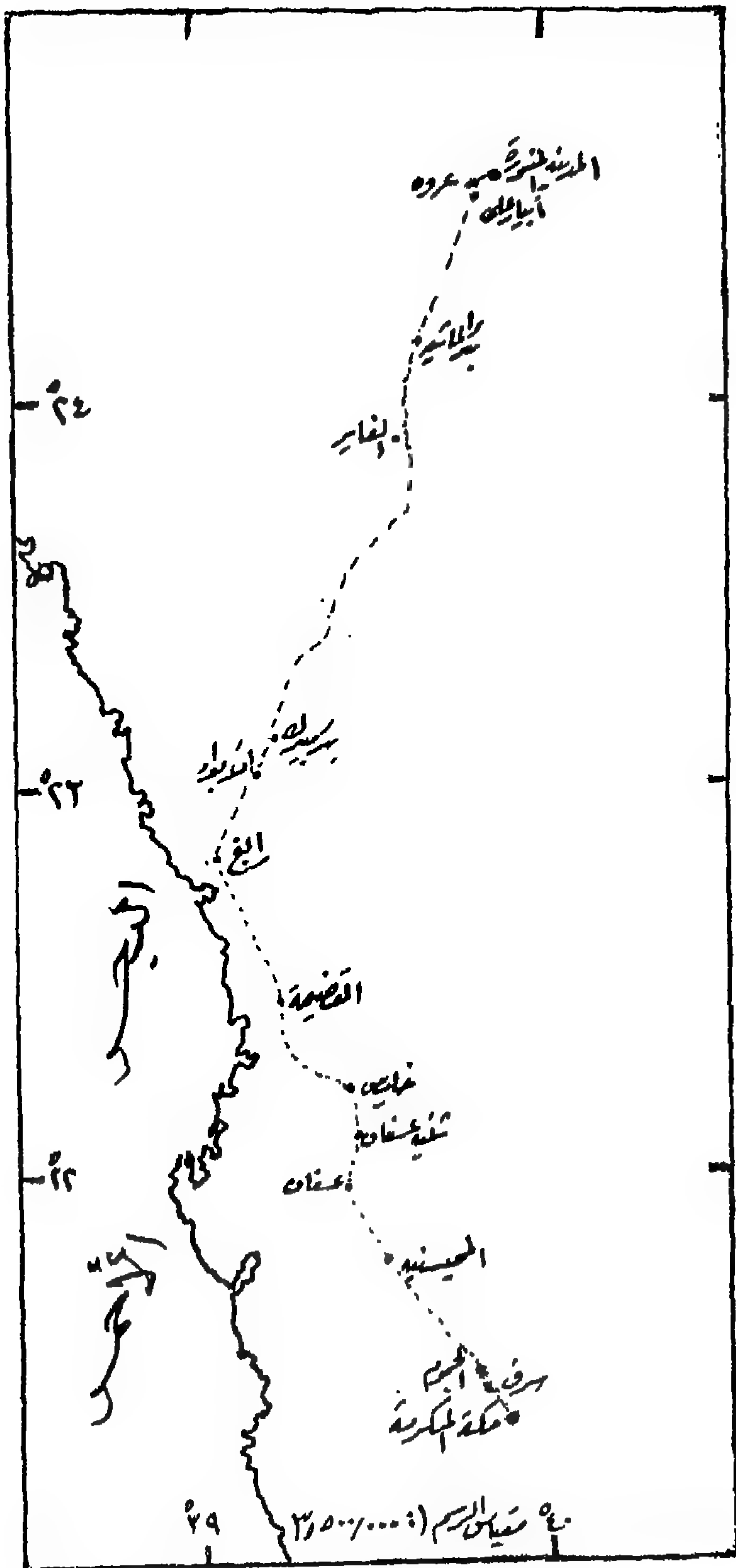
أو القلالون فى إبتكار أشكال لطيفة لهذه القلل ، وفى زخرفتها بأساليب مختلفة وزخارف

متنوعة ، ( انظر ؛ زكى محمد حسن ( دكتور ) : فنون الإسلام - ص ٢٢٧ - ٢٢٨ ،

ص ٣٣١ - ٣٣٢ ، عبد الرؤوف على يوسف : المرجع السابق - ص ٣٢٥ - ٣٢٦ ) .



- (٤٢) تعد المسارج الزيتية بأشكالها المختلفة وزخارفها المتعددة من تحف الفخار الشعبي  
ذى يمتاز بالبساطة وقلة التكليف وحسن الذوق ودقة الصناعة ( انظر ؛ عبد الرعوف على  
يسف : المرجع السابق - ص ٣٢٣ - ٣٢٥ ) .
- (٤٣) أدى إجتذاب كبار المعمارين والفنانين والحرفيين من أقطار الدولة العثمانية ذات  
تاريخ المعمارى الإسلامى العريق إلى قلب الدولة ، سواء كان ذلك بالأمر أو بالإغراء بالمال ،  
، انخفاض كبير فى المستوى المعمارى والفنى فى تلك الأقطار ، ( انظر ، فريد شافعى  
، كتور : العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها - ص ١٤٥ - ١٤٦ ) .



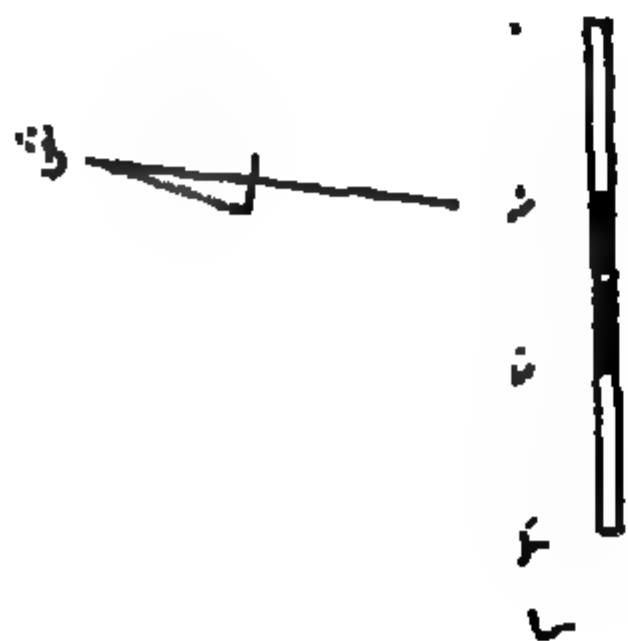
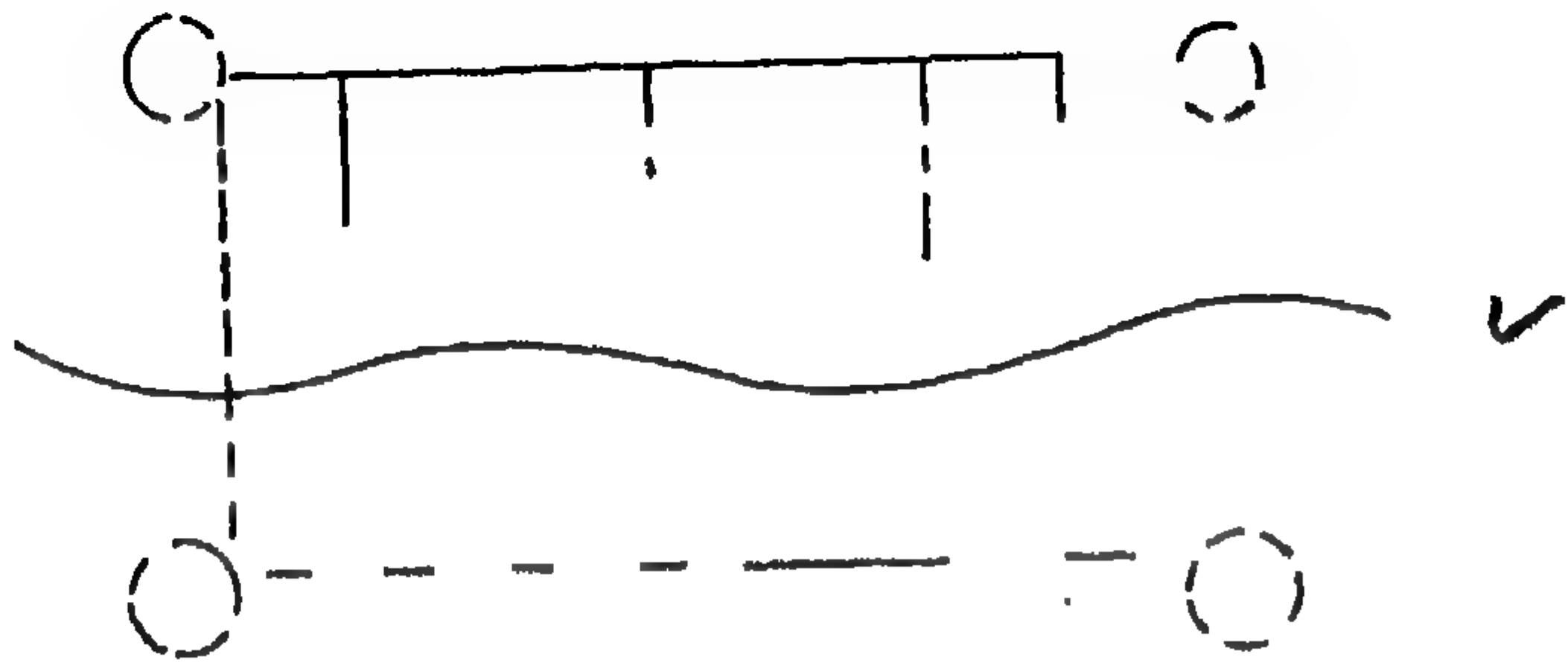
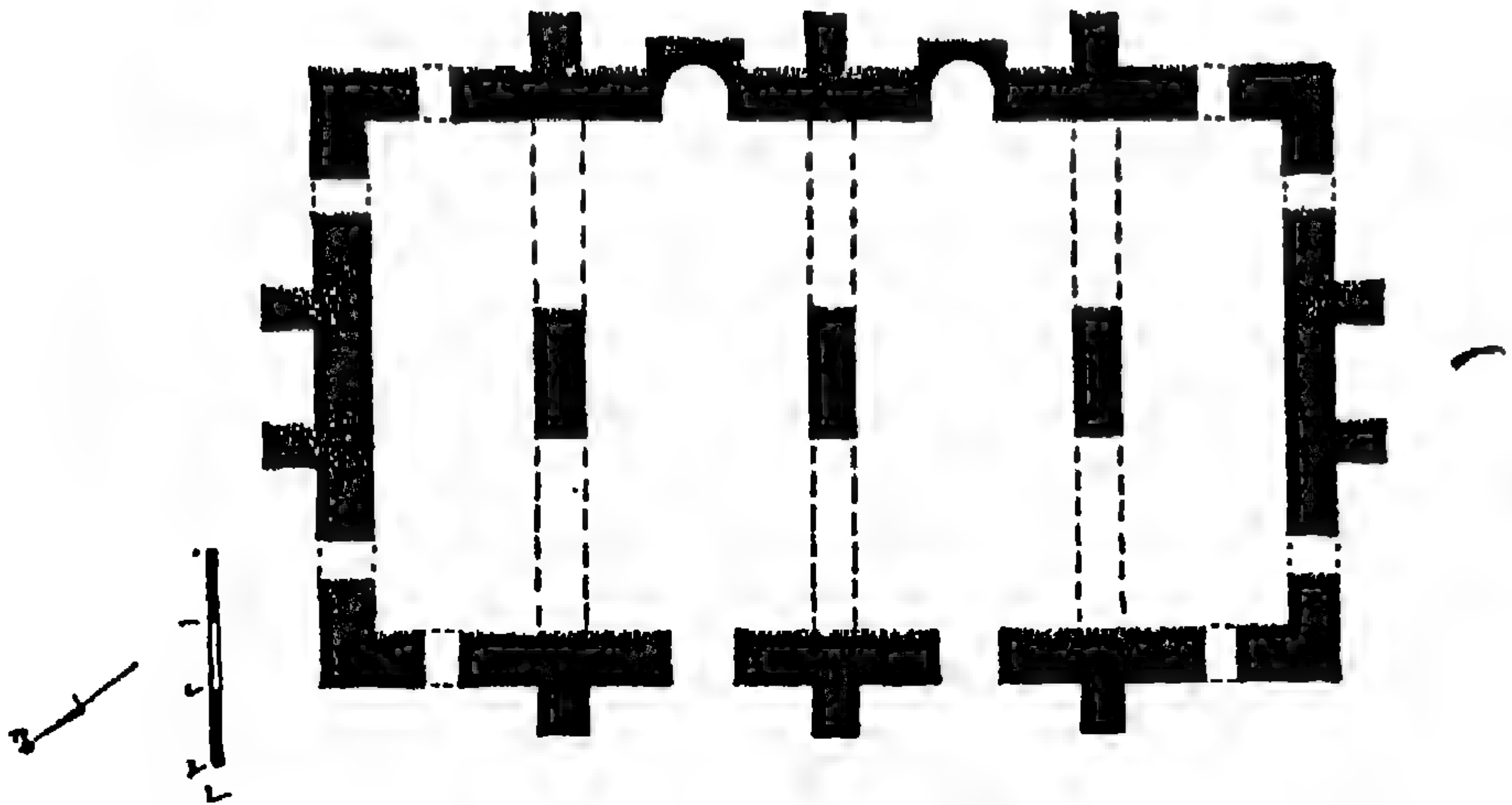
درب الحجرة النبوية

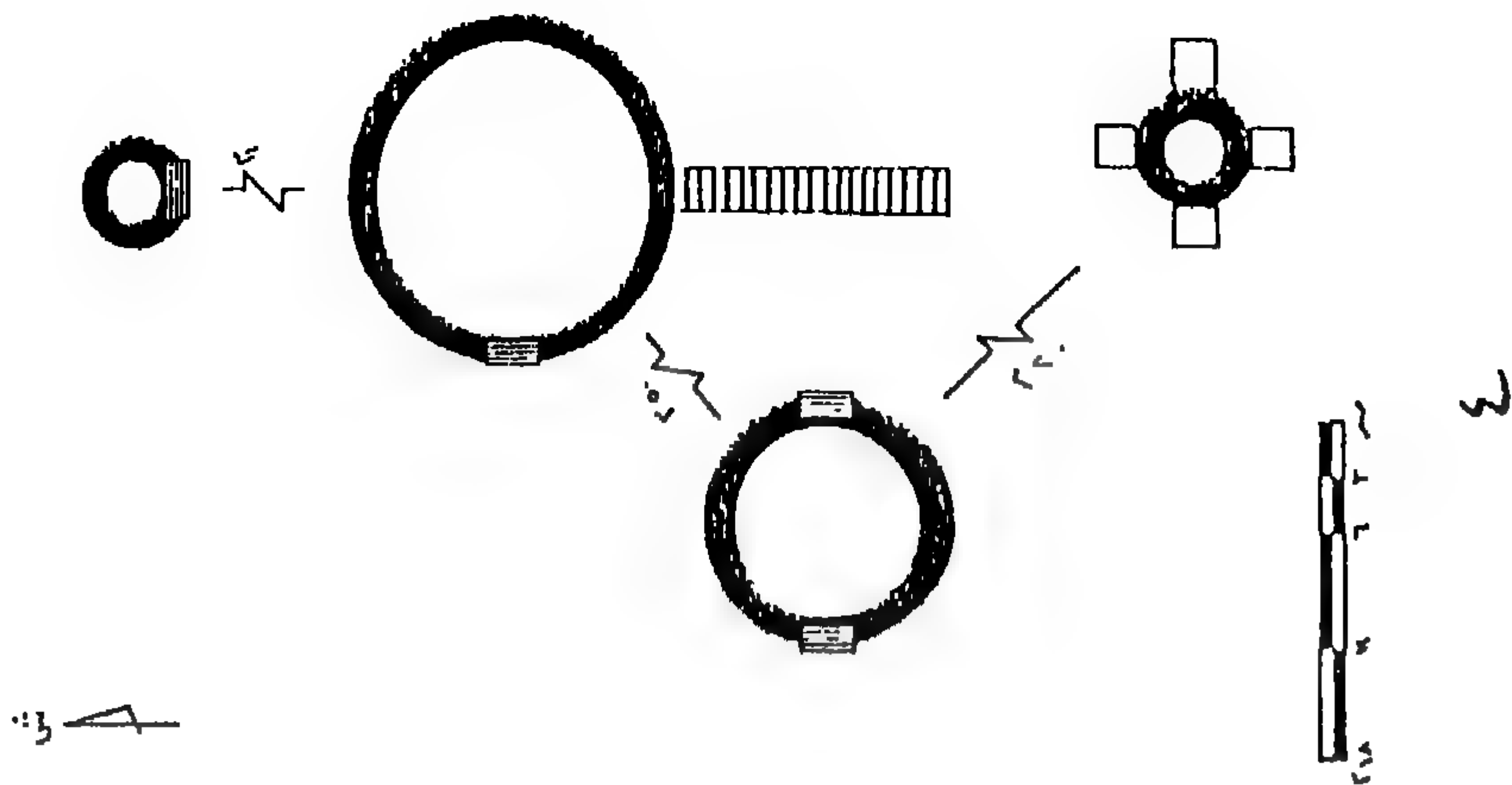
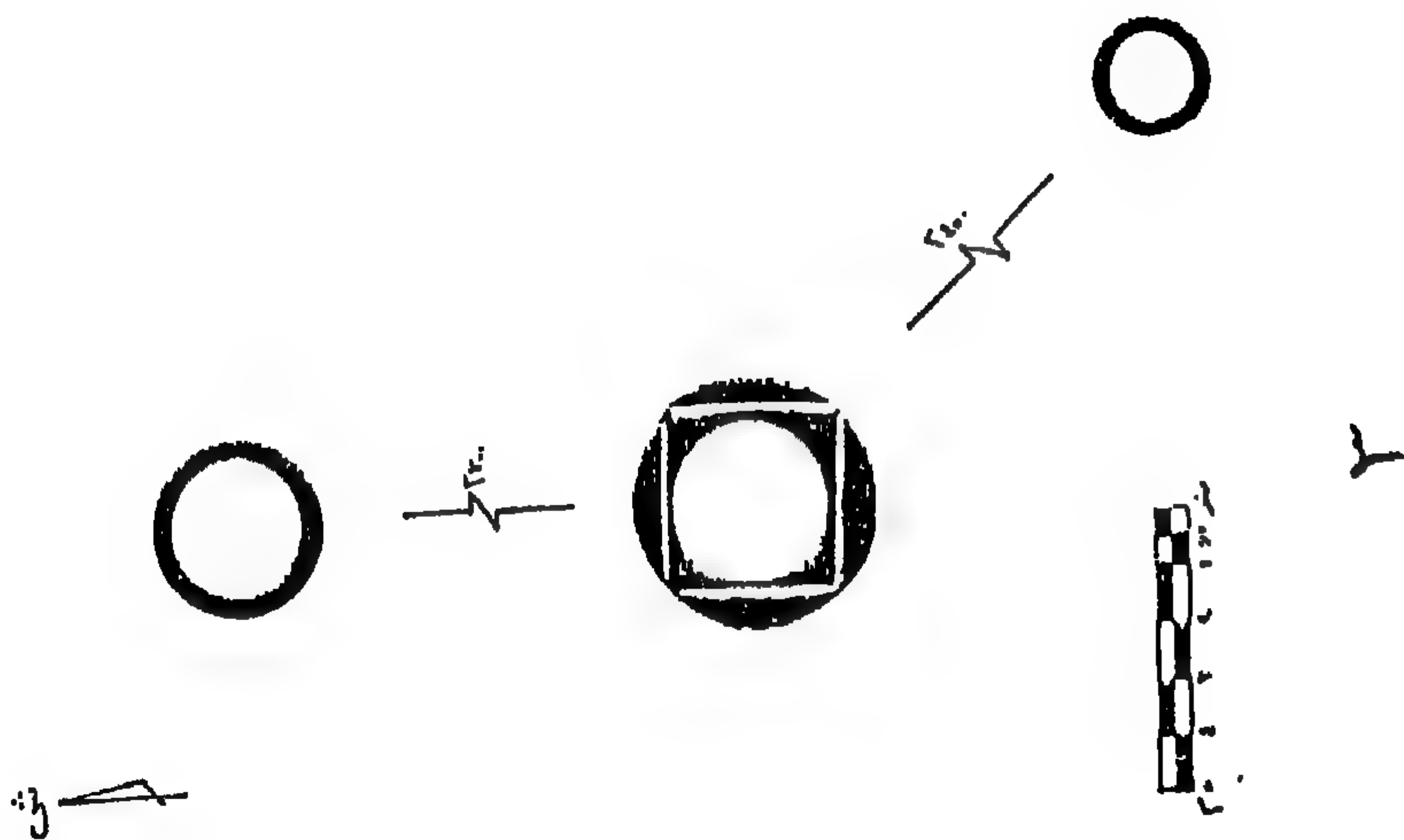
بيان مواضع  
مكتشفات المنشآت المعمارية واللقى الفخارية الأثرية وأنواعها  
بدرج الهجرة النبوية في العصر العثماني

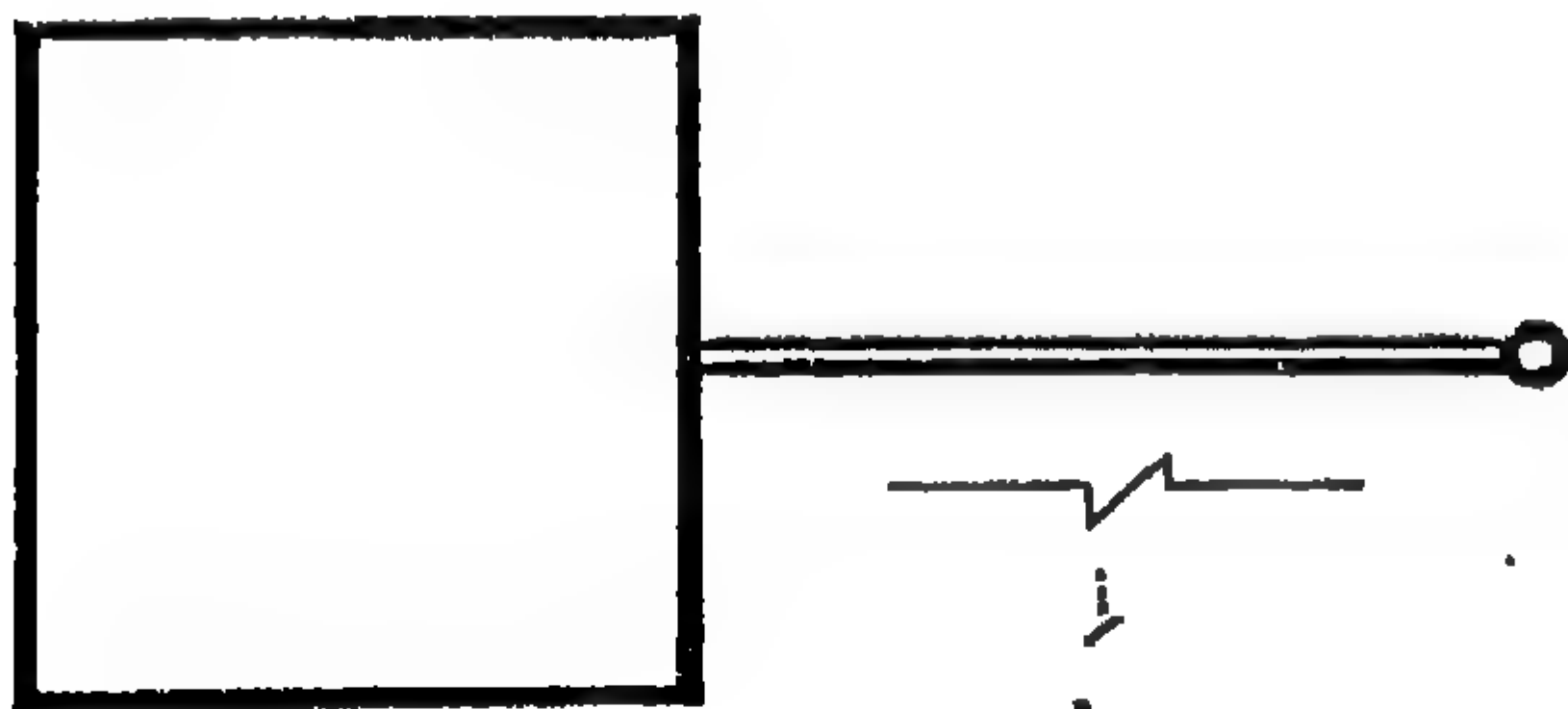
المواضع	الأنواع	المنشآت المعمارية										اللقى الفخارية					
		الدينية	المدنية						الدفاعية	غير المطلية			المطلية				
			قصور	أرضيات	آبار	أحواض	برك	قنوات		غير مبطن	مبطن	مصقول					
مكة المكرمة		*									*	*					
الجموم		*			*	*						*	*				
المحيضية					*	*											
عساف					*	*				*		*	*				
خليص					*	*	*	*	*	*	*	*	*	*	*	*	*
قضية					*		*										
رابغ				*						*		*					
بئر مبيرك				*			*							*			
بئر الماشية				*	*	*	*	*	*	*	*	*	*	*	*	*	*
أبيار على				*	*	*	*	*	*	*	*	*	*	*	*	*	*
عروة / المدينة												*	*	*	*	*	*

# المخططات المعمارية

( ١ - ١ )



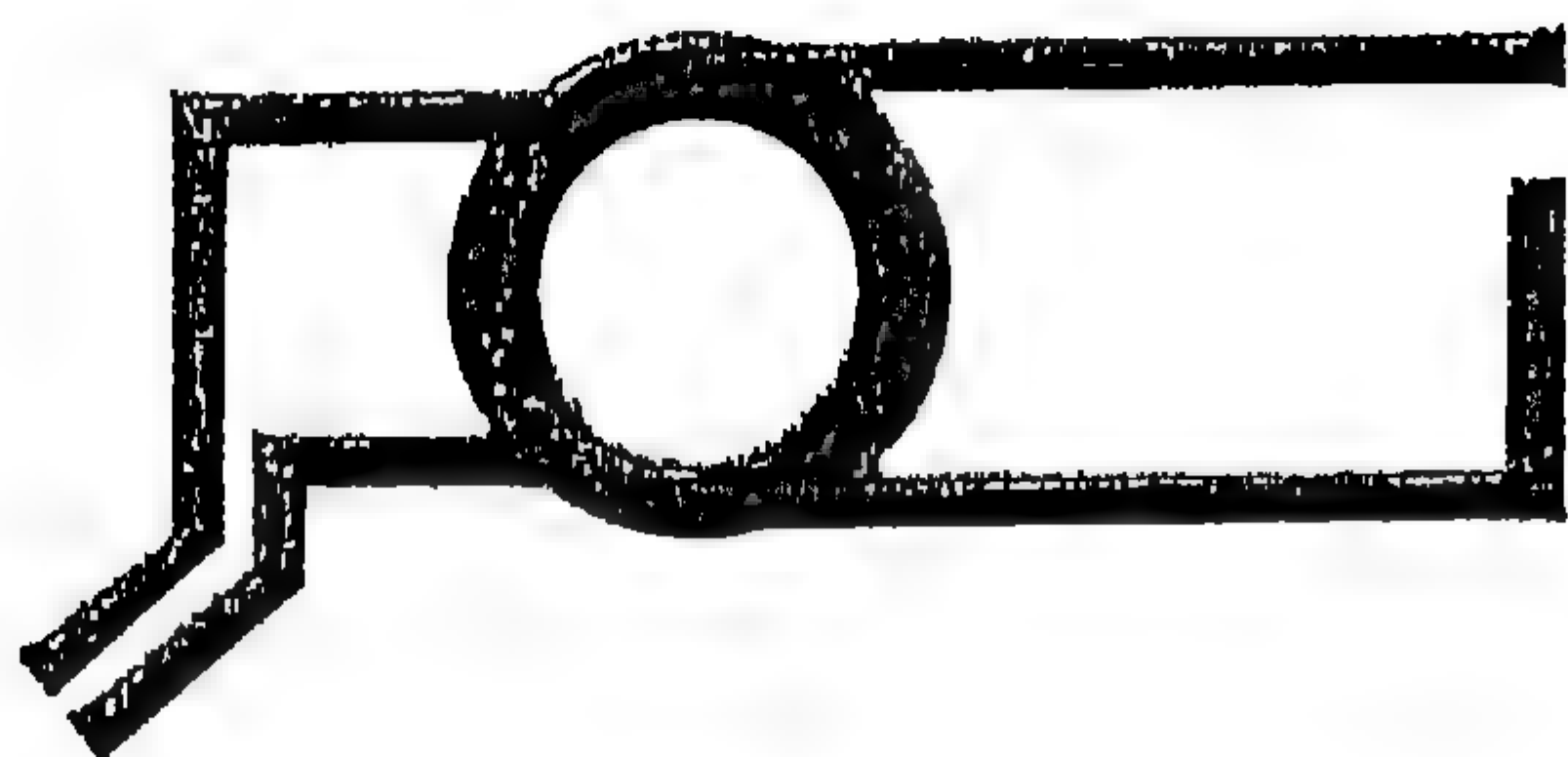




مقیاس ۱:۵۰  
۰ ۱۰ ۲۰

۵

ب

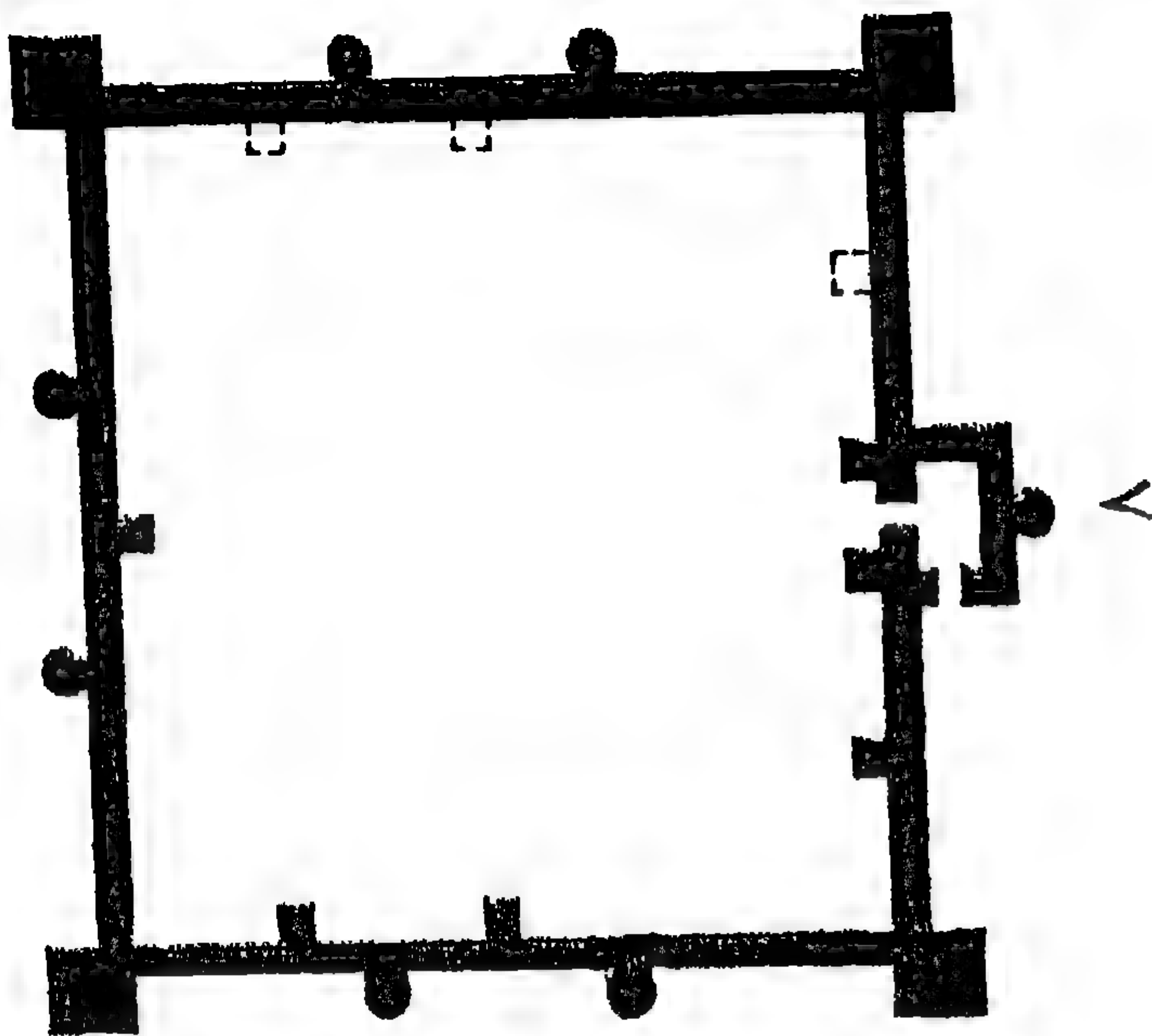
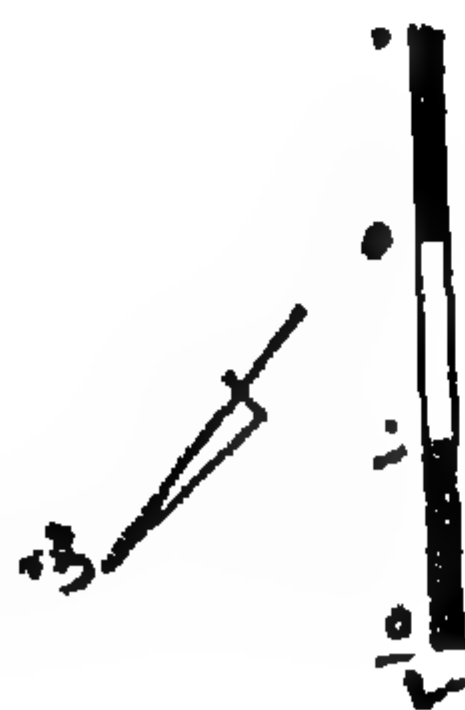
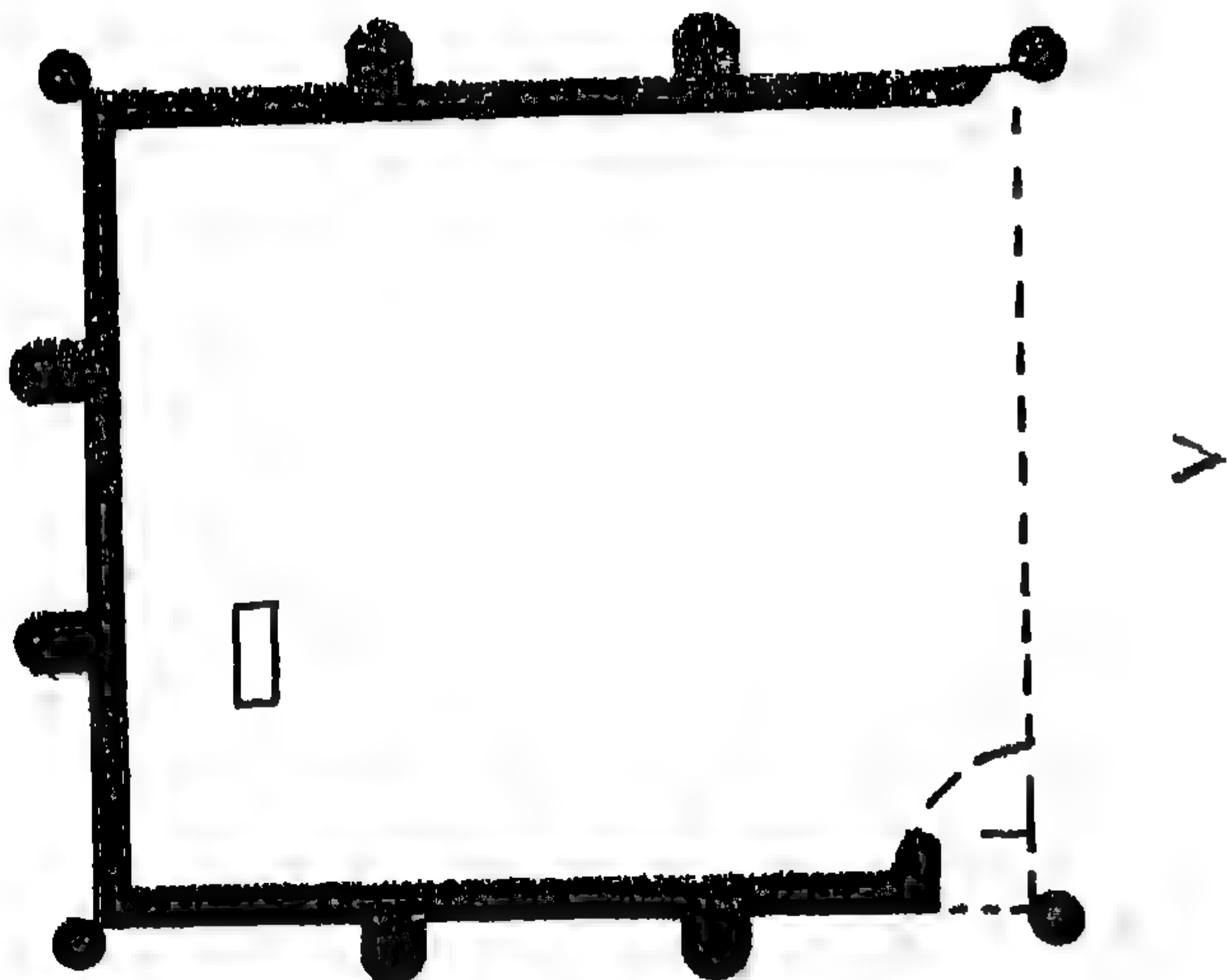
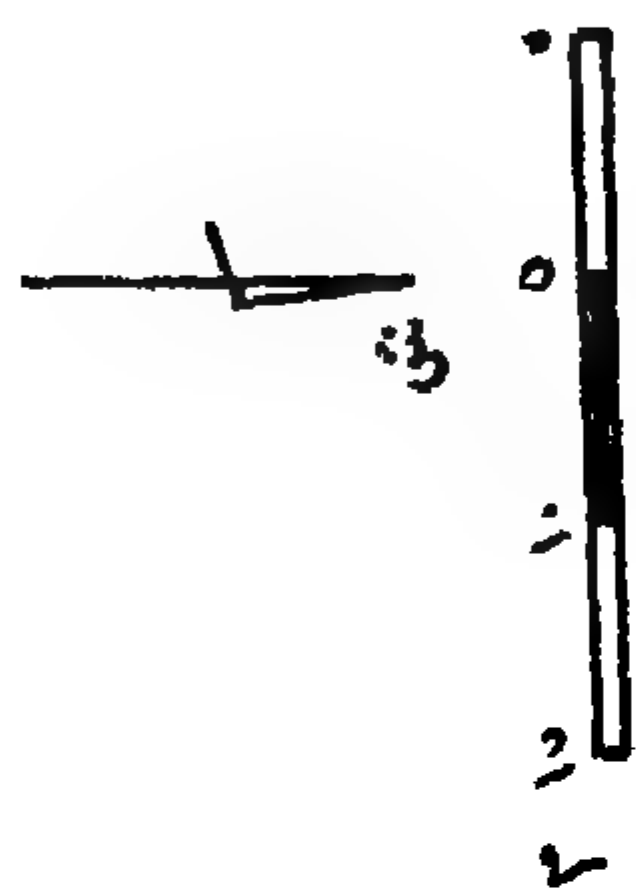


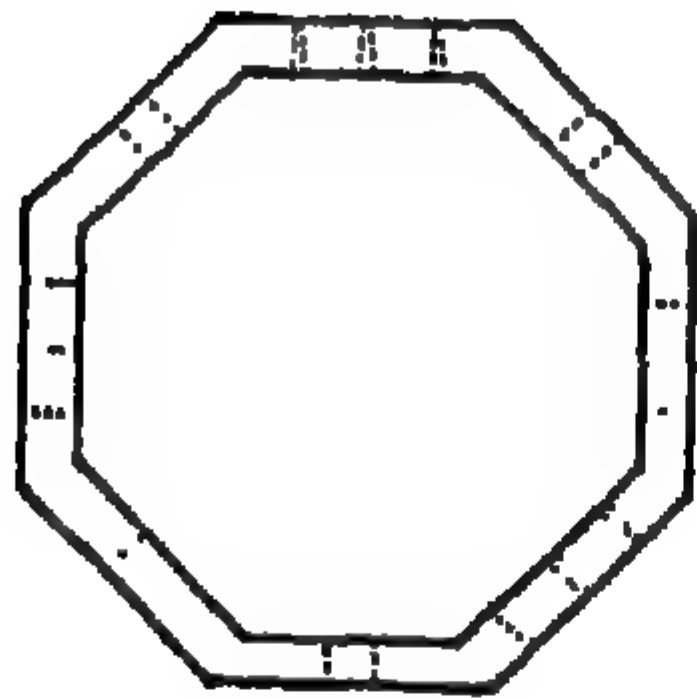
مقیاس ۱:۵۰  
۰ ۱۰ ۲۰

۶

ب

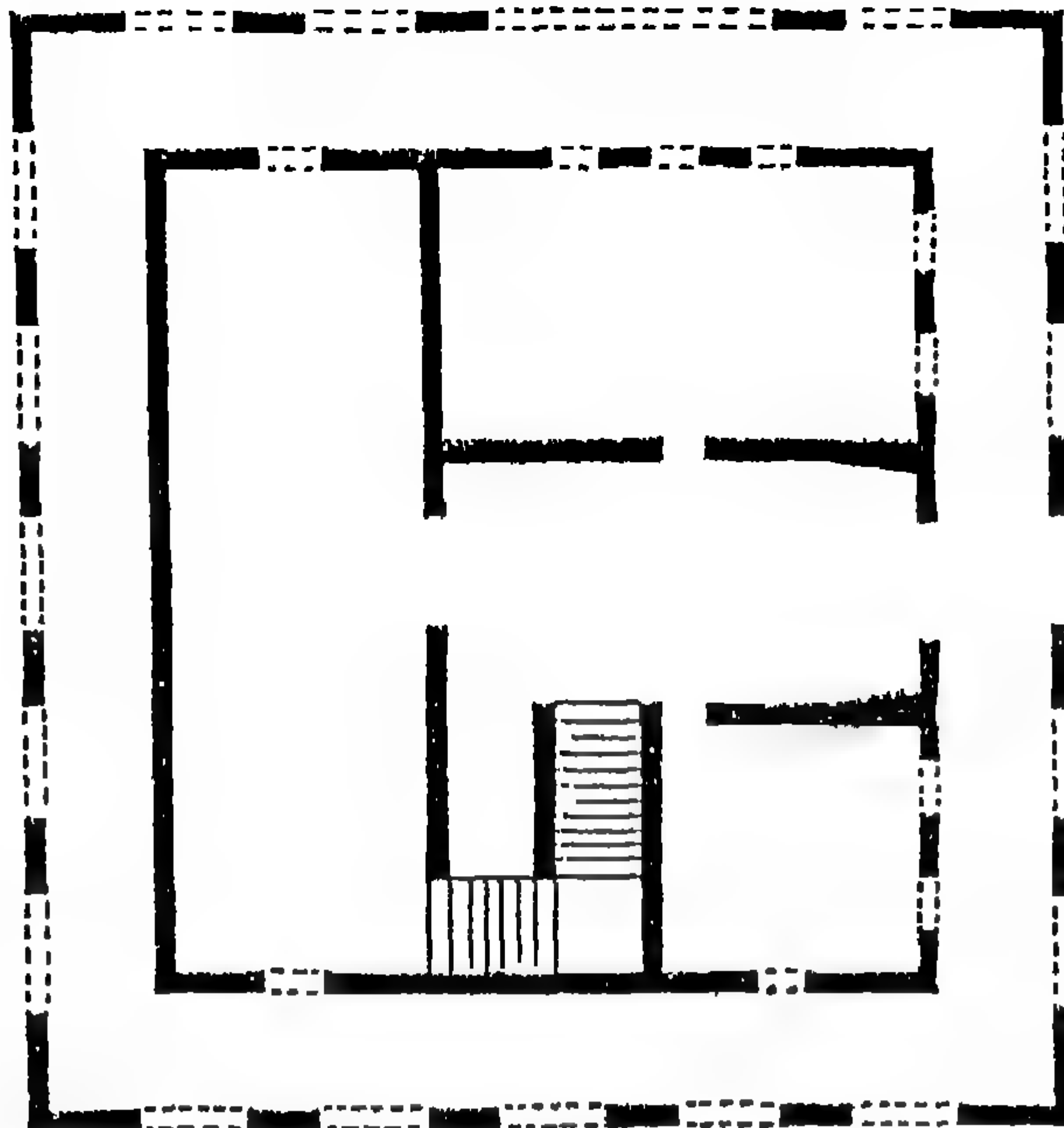






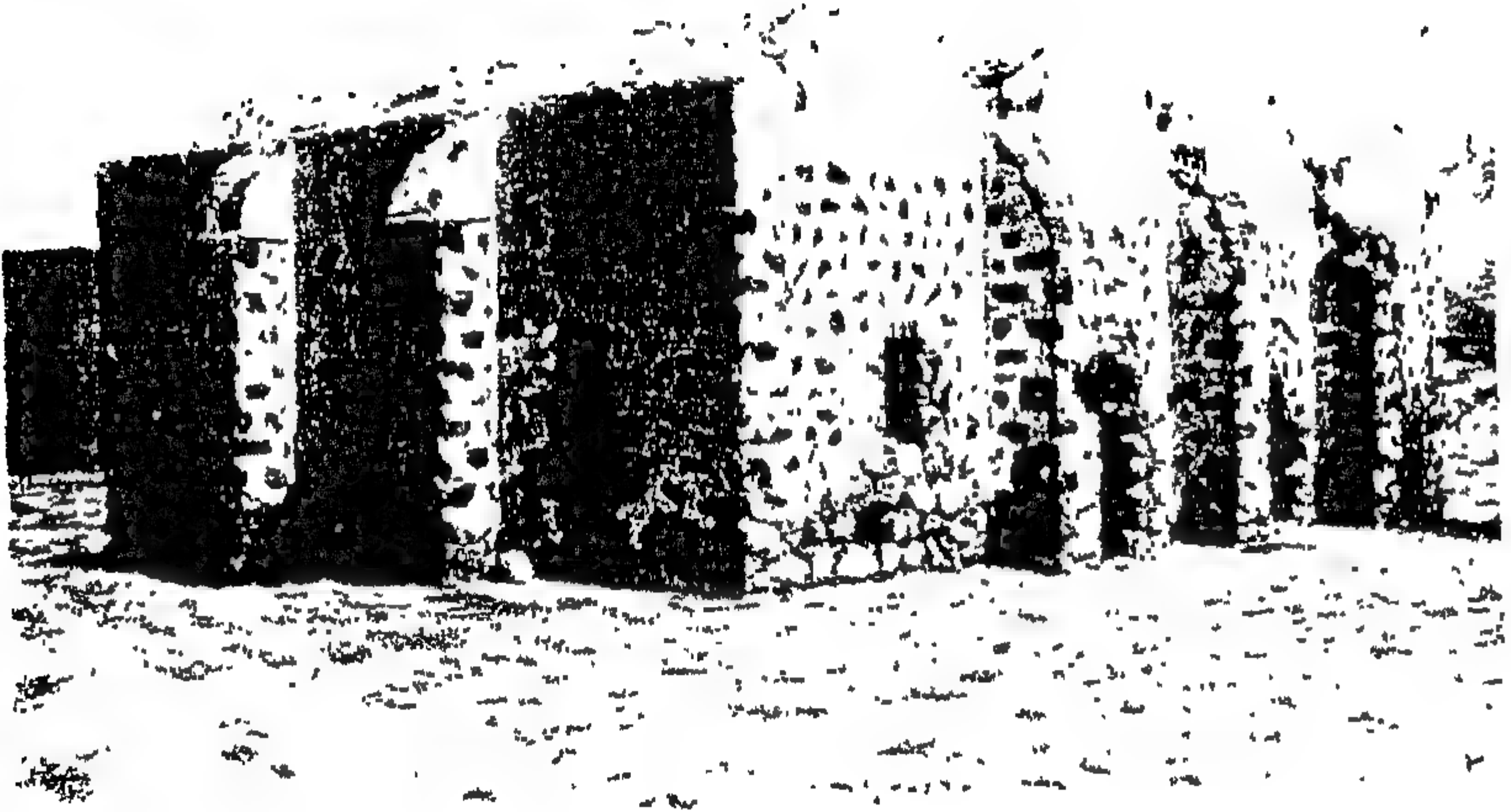
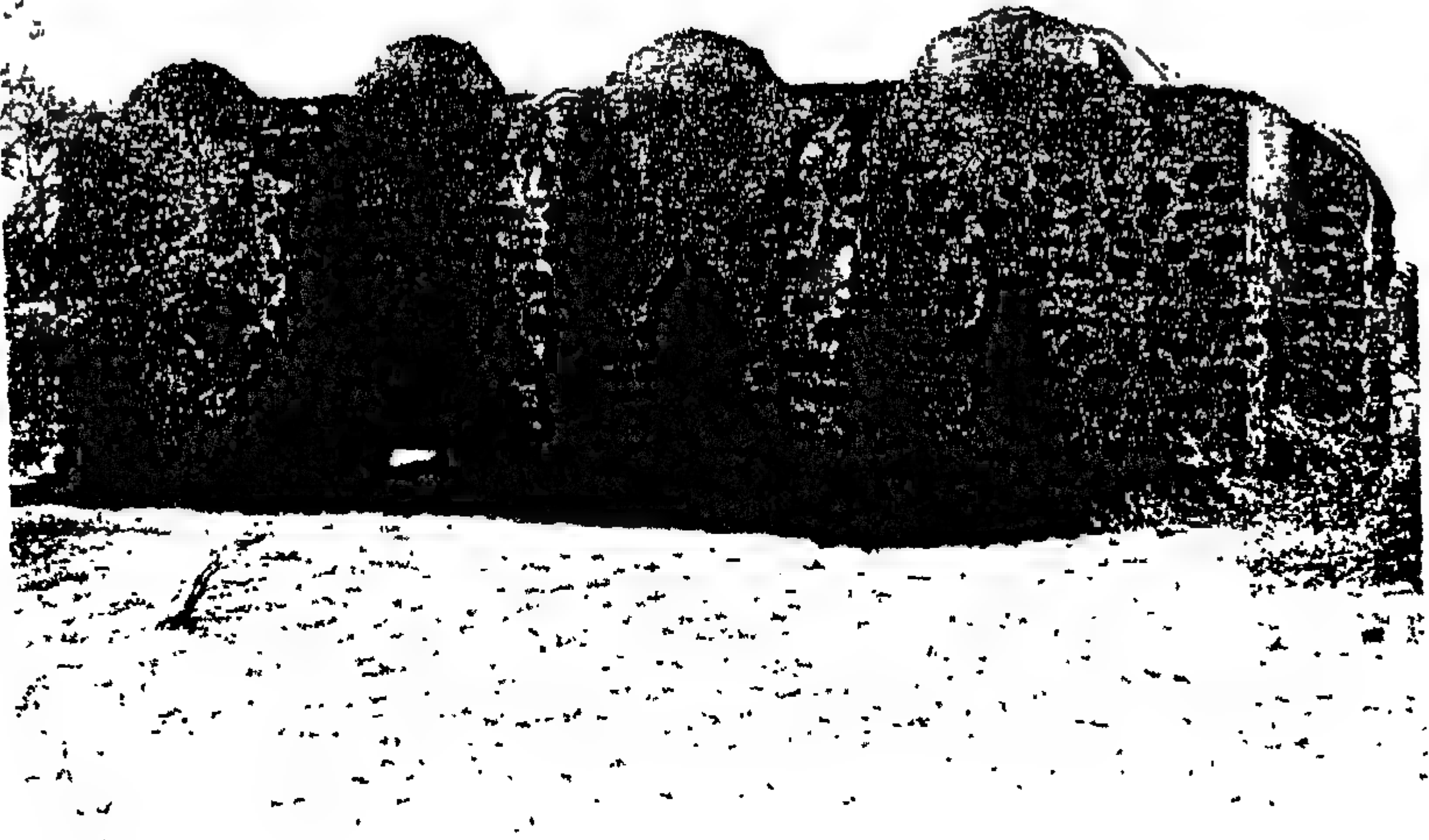
9

3



# الصور الفوتوغرافية

( ٣٦-١ )





۲

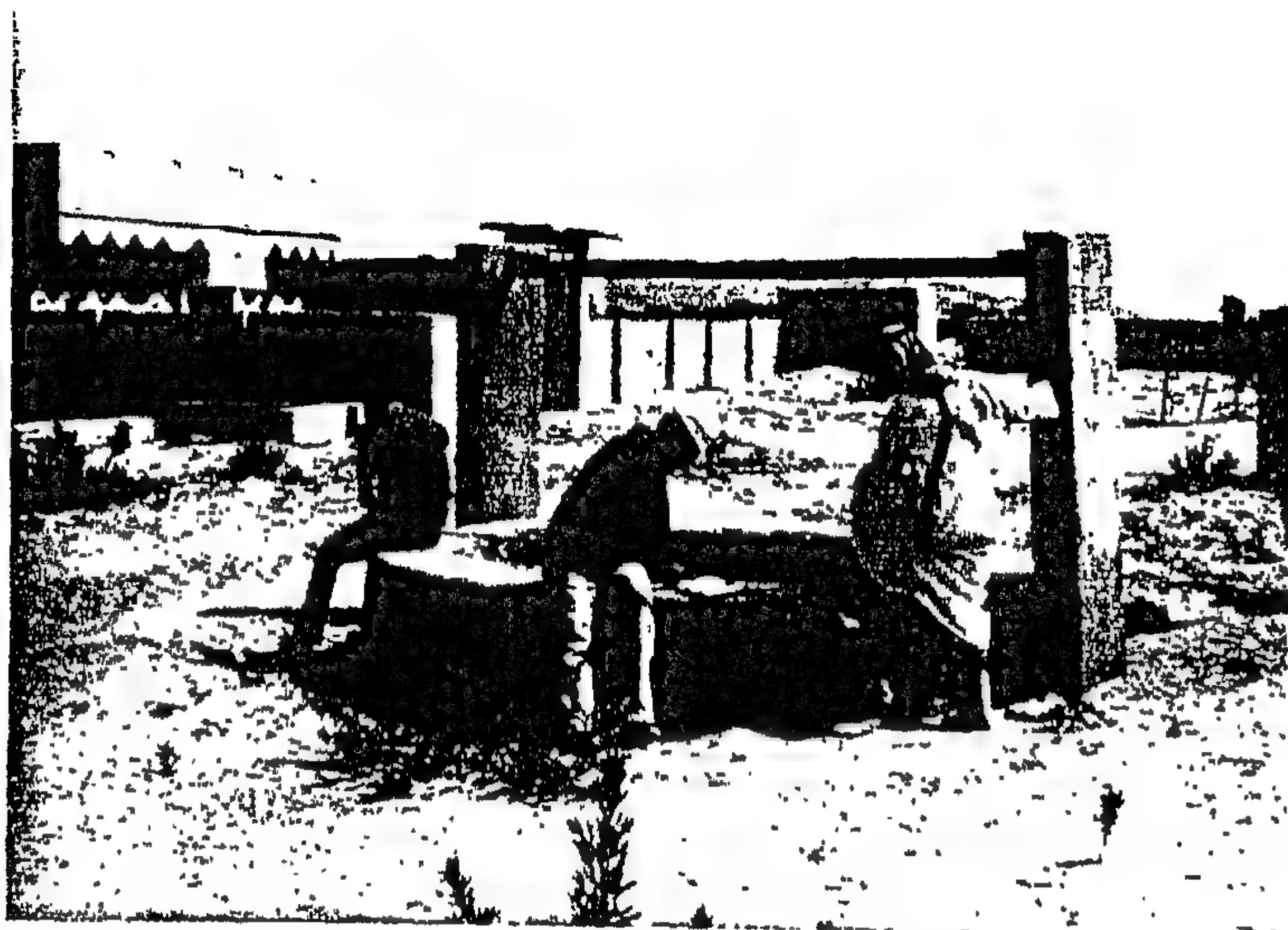


۳



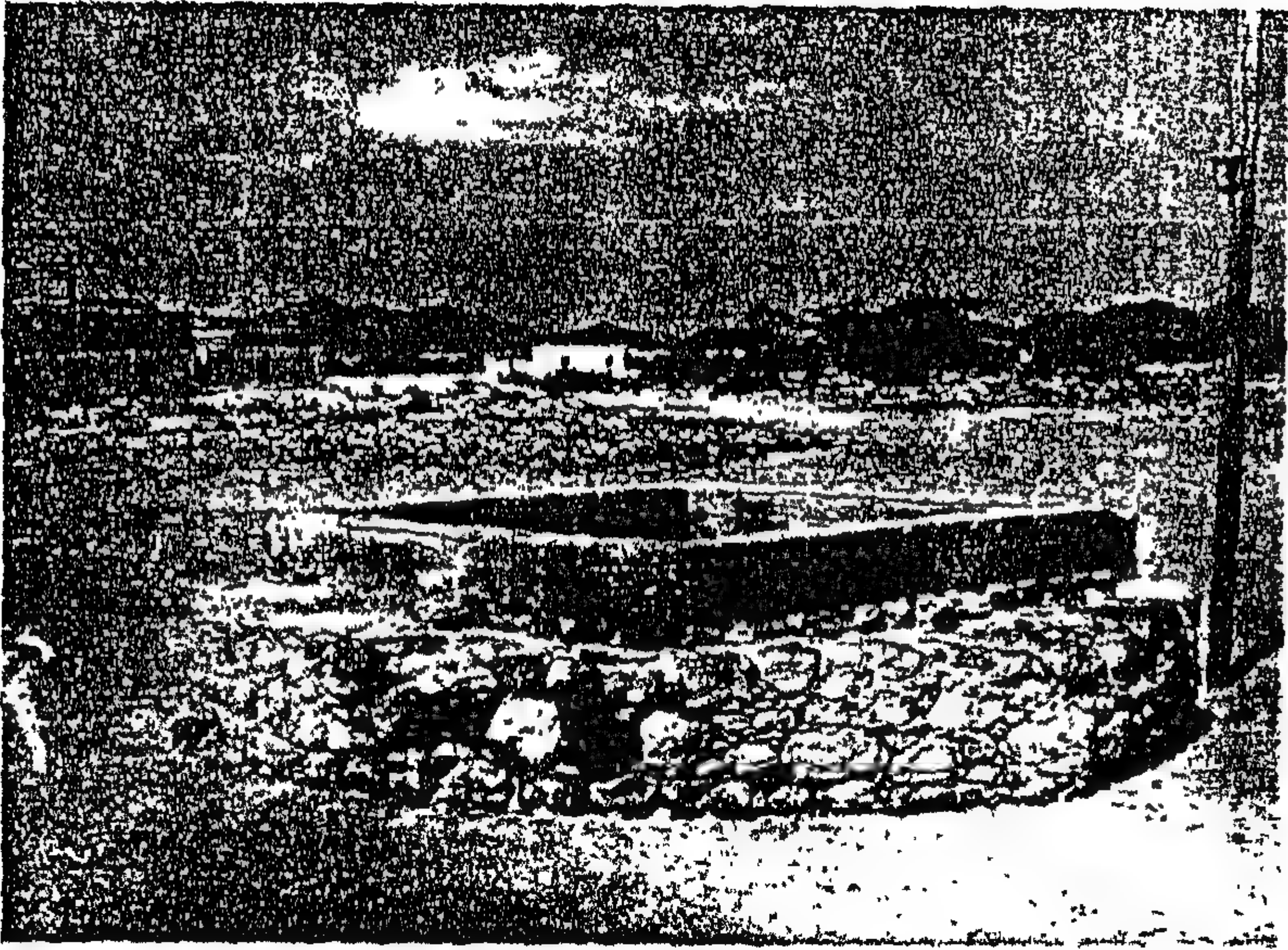


0

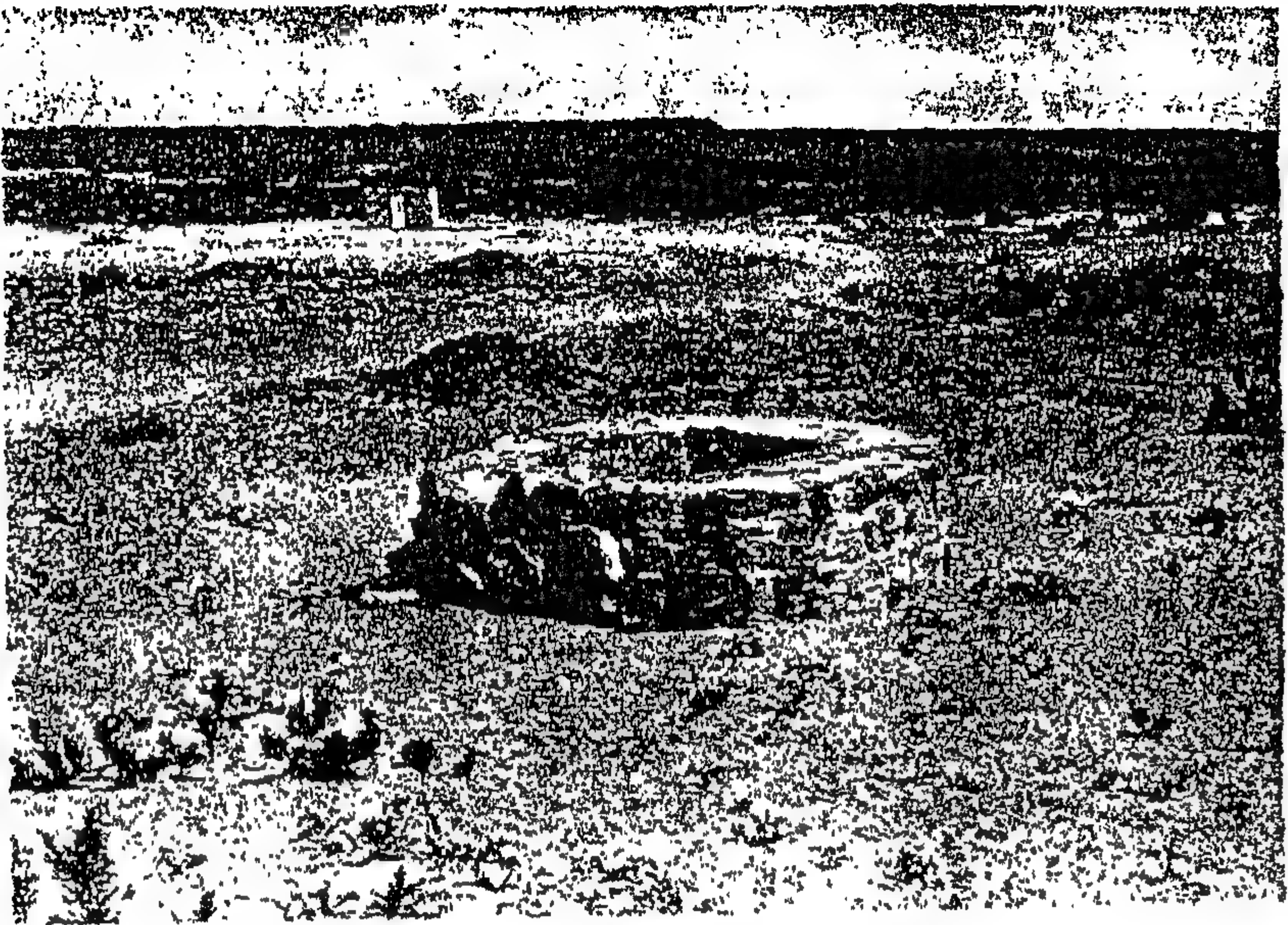


7





V

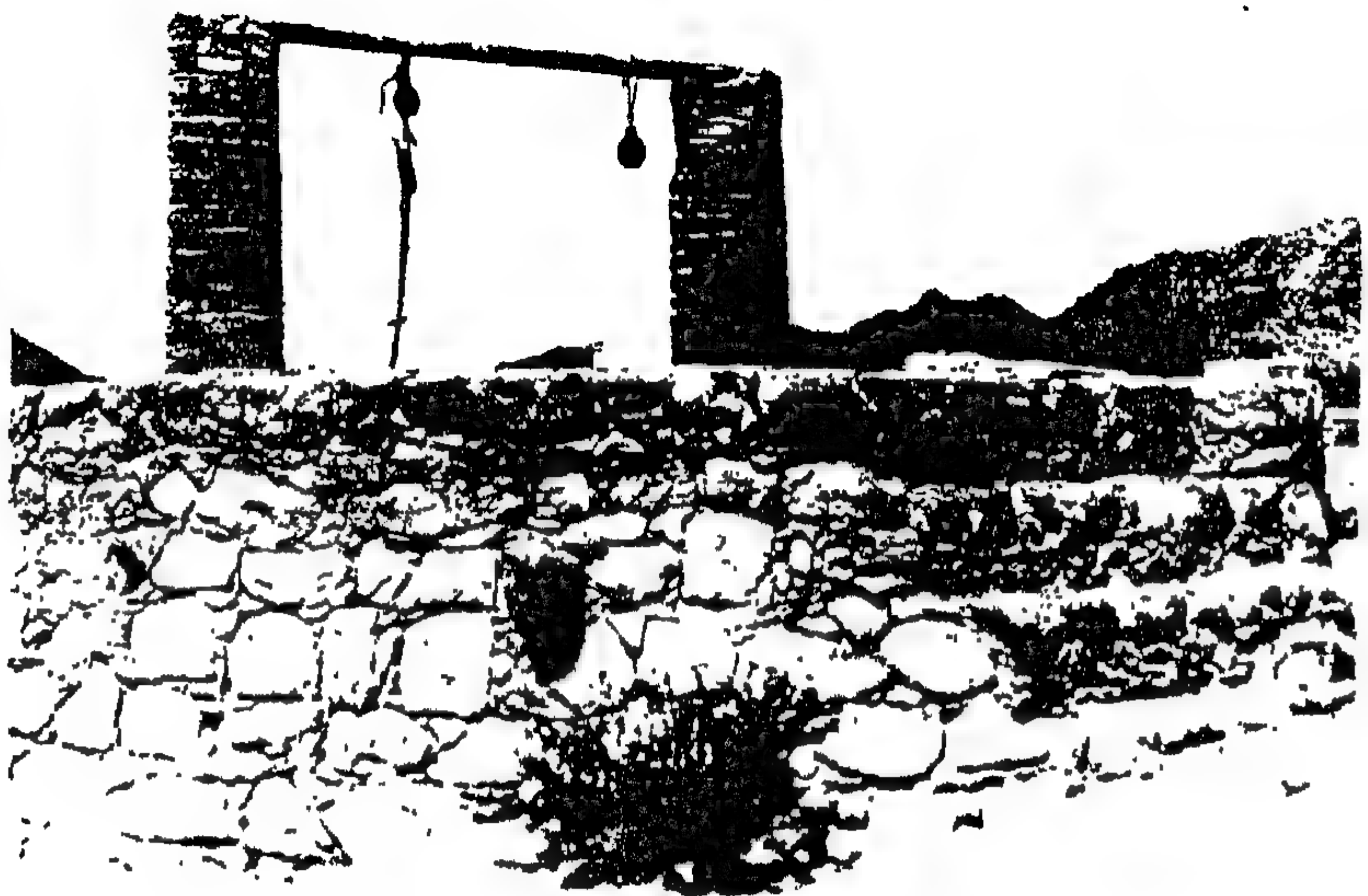


A

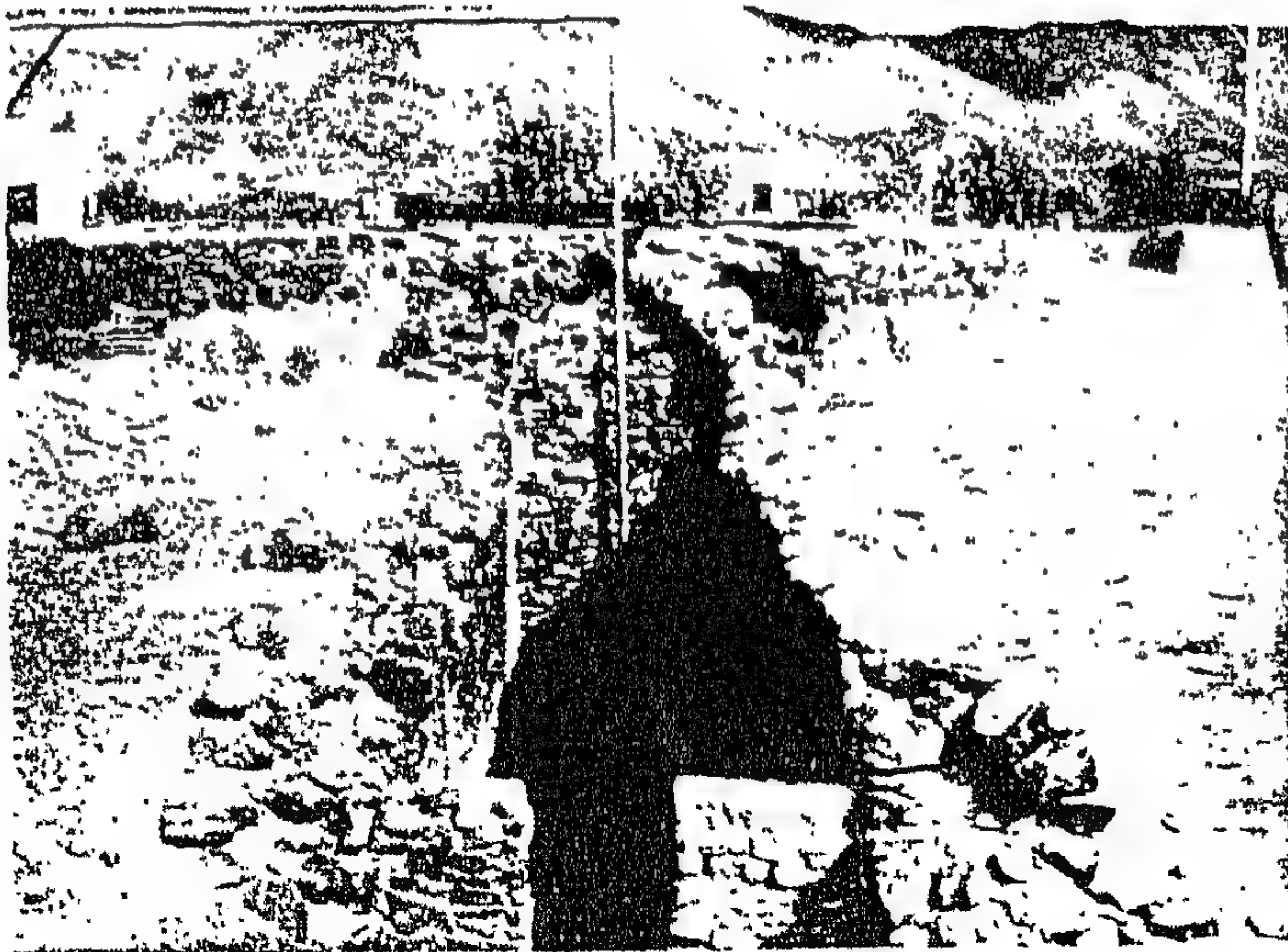




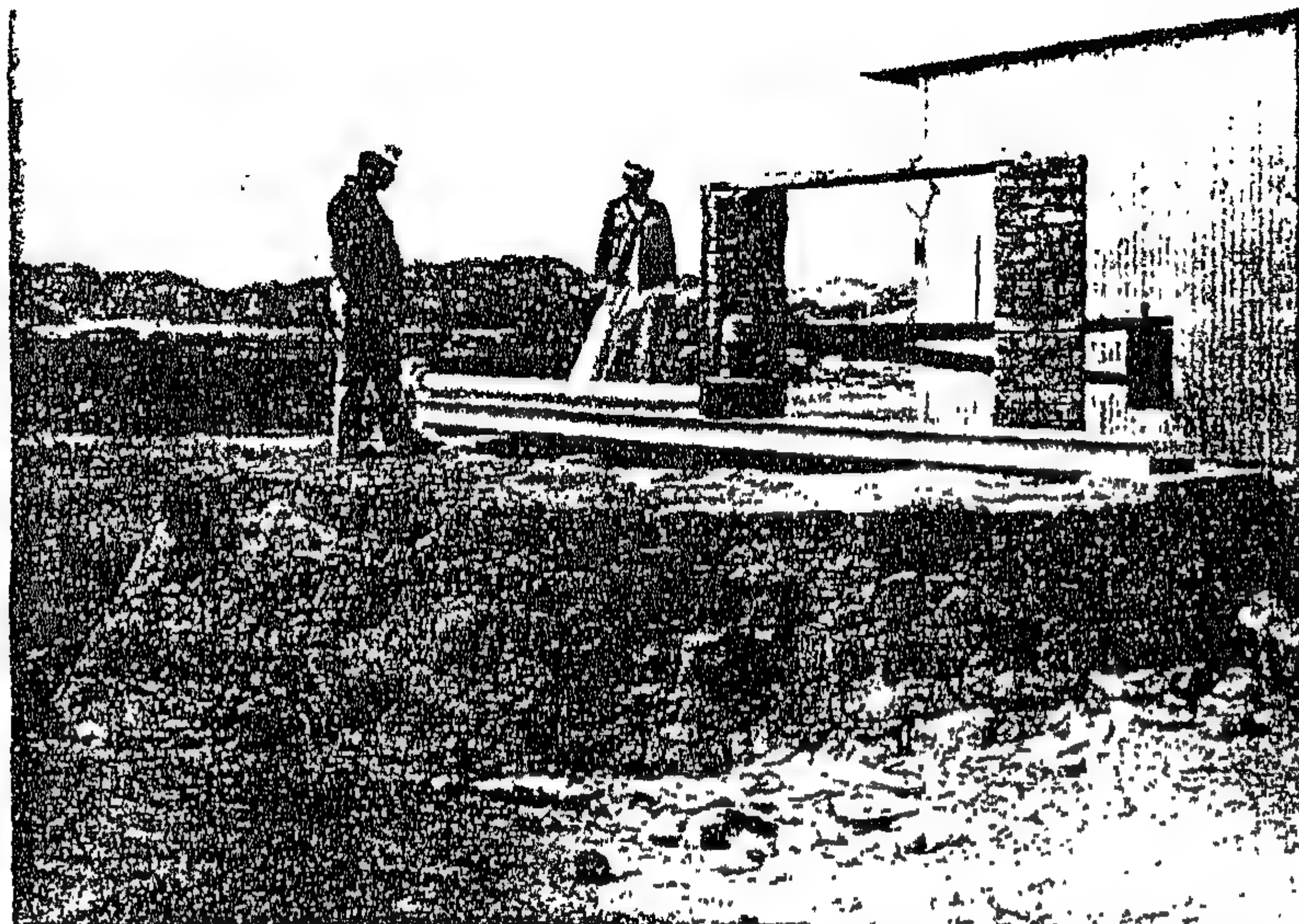
A



1.



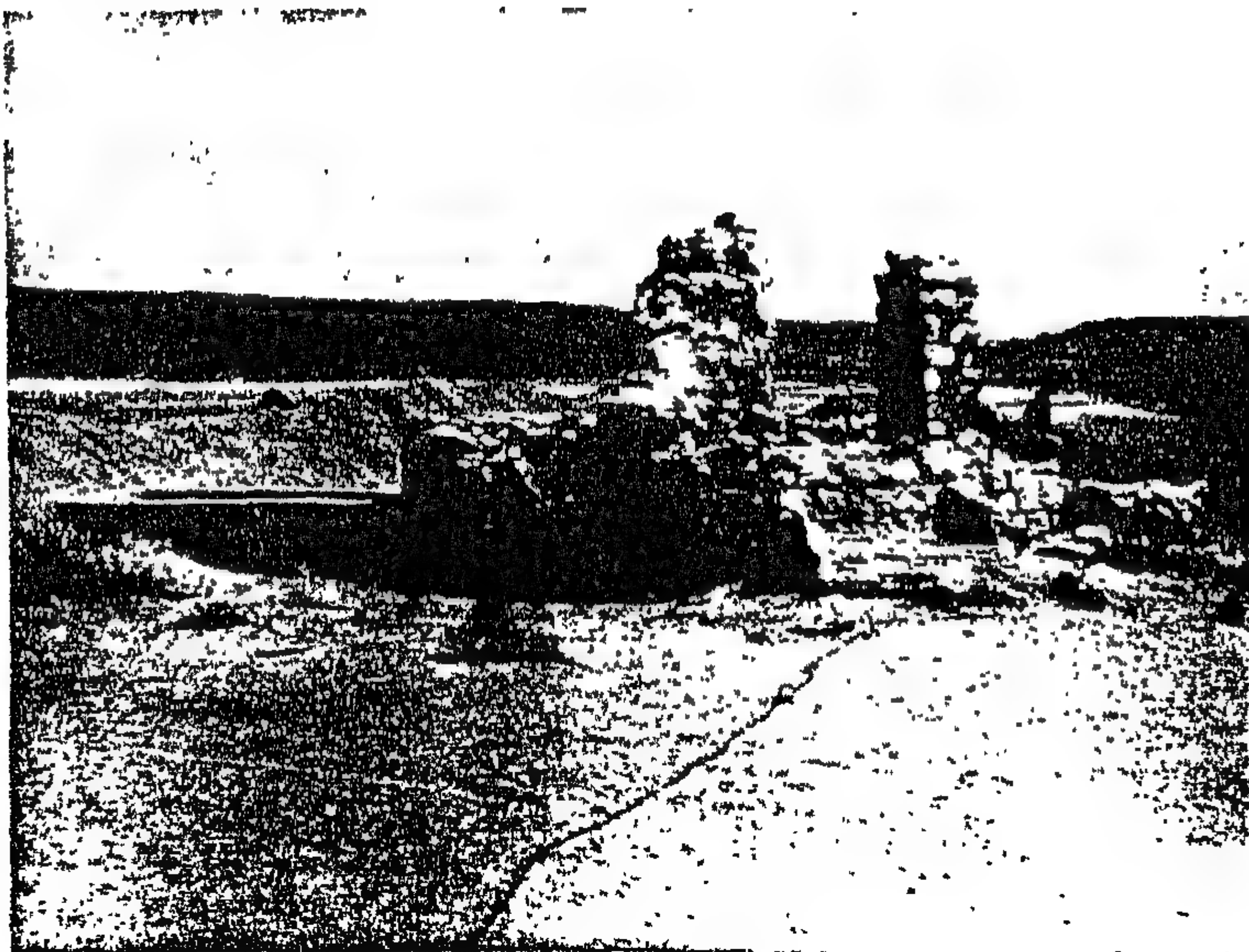
11



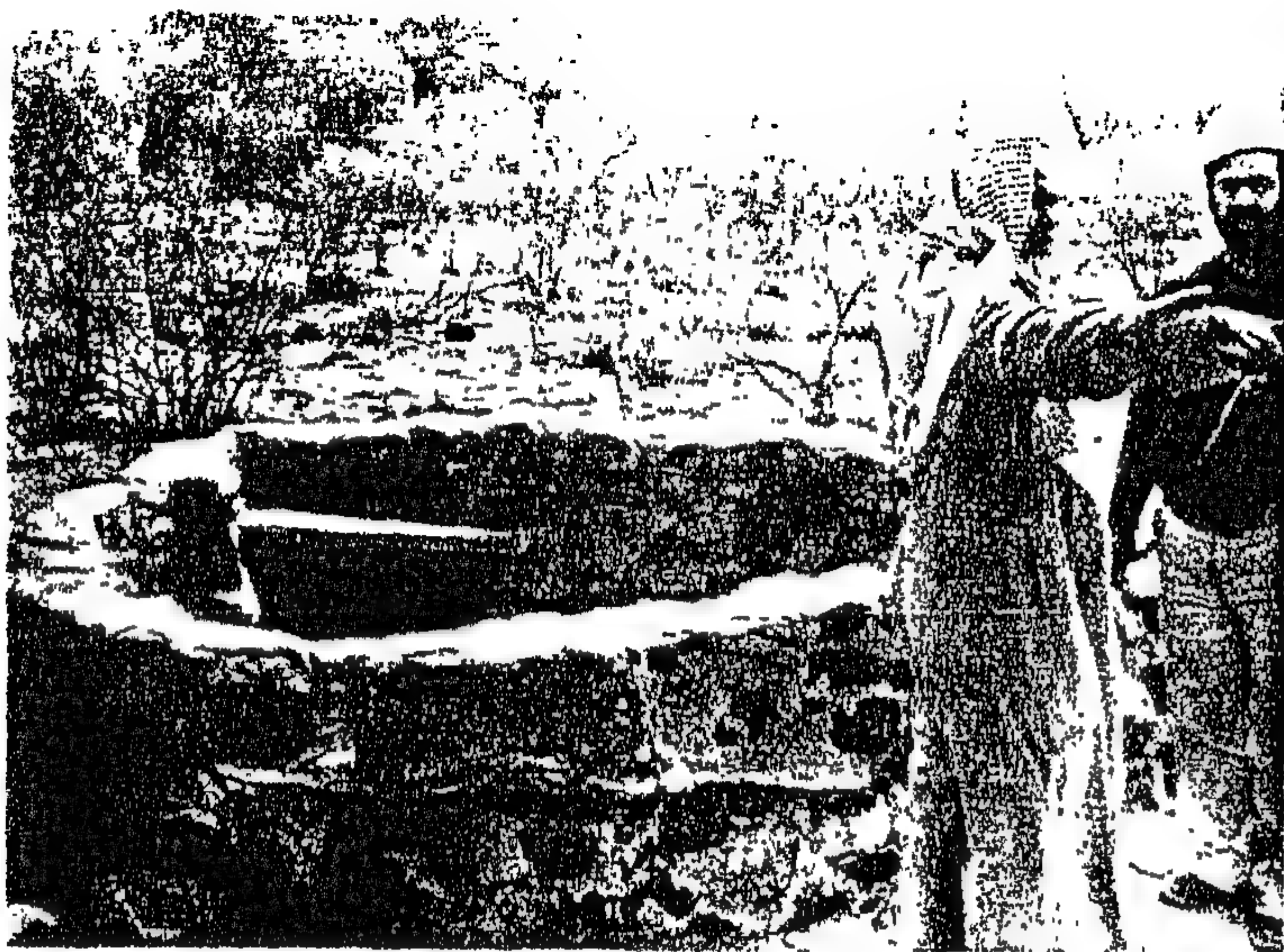
15



17



18





10

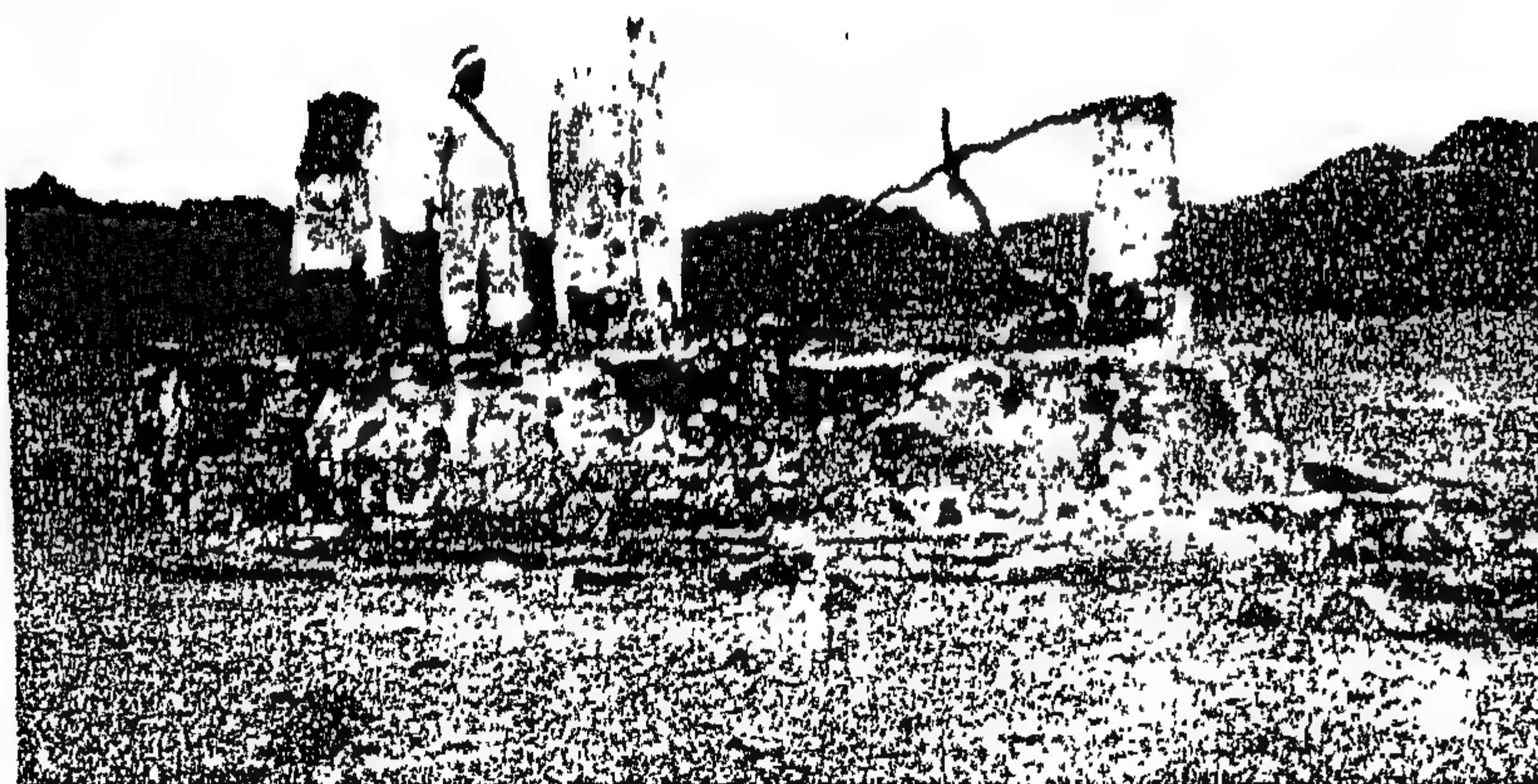


17

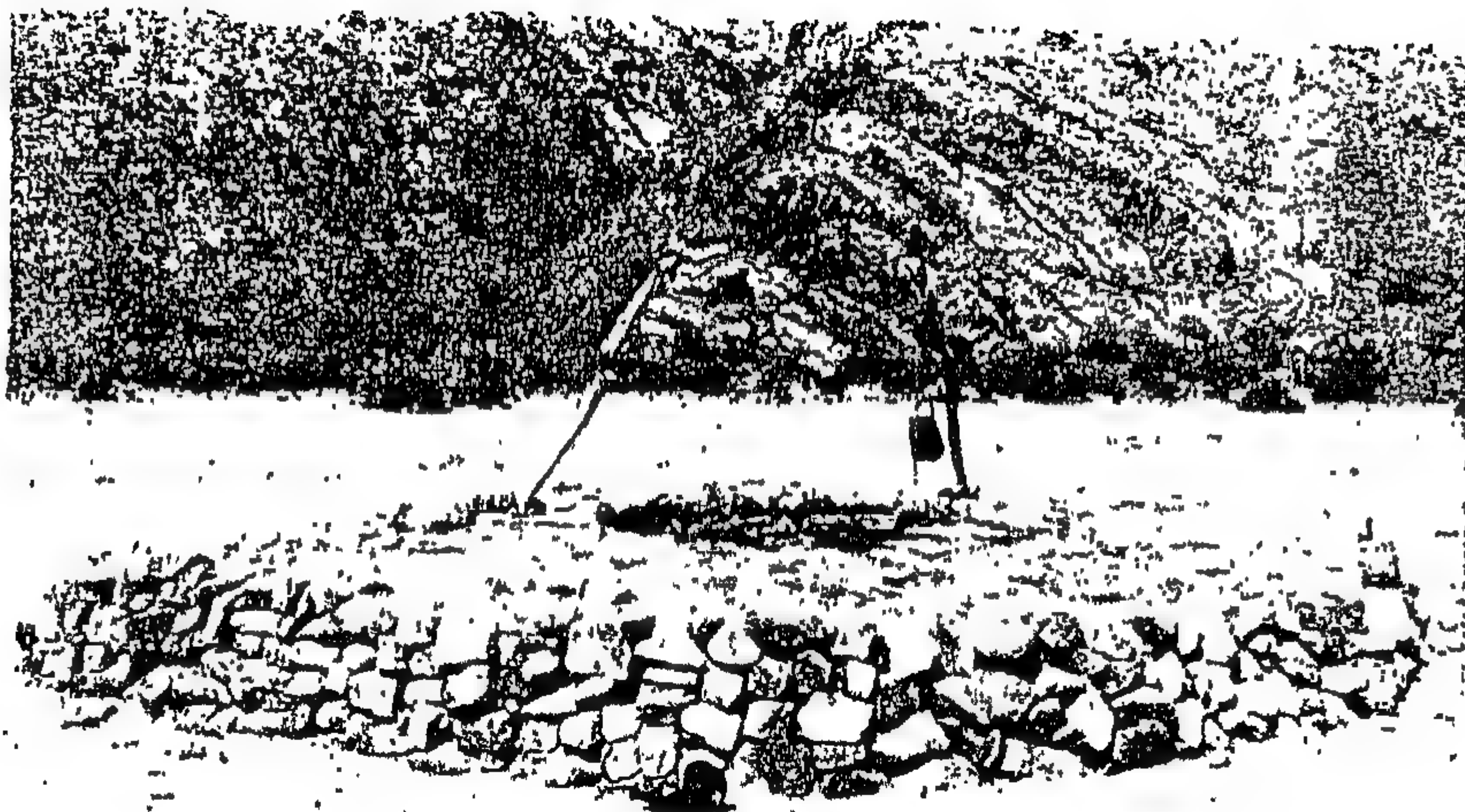




IV



VA



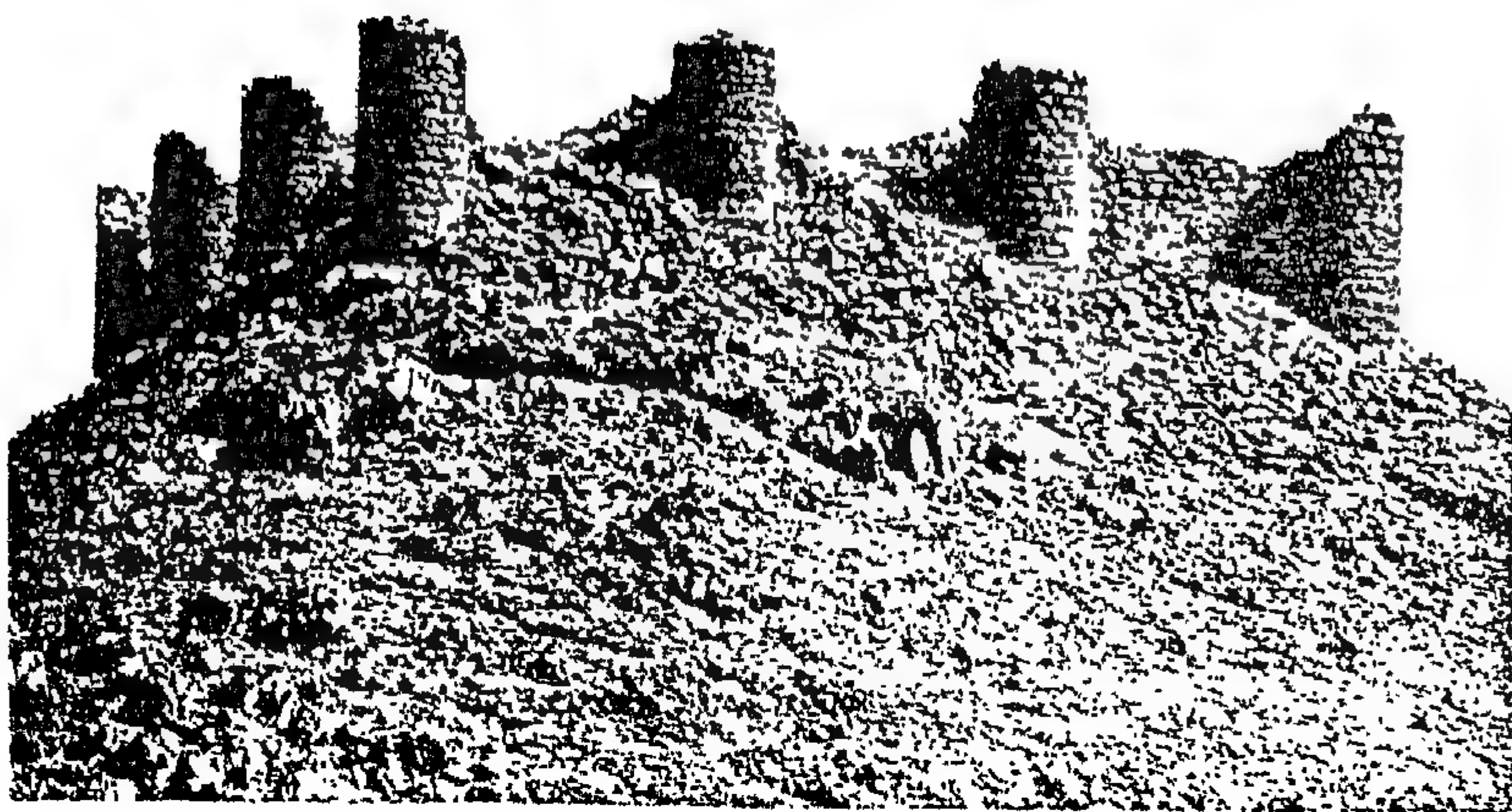
19



20

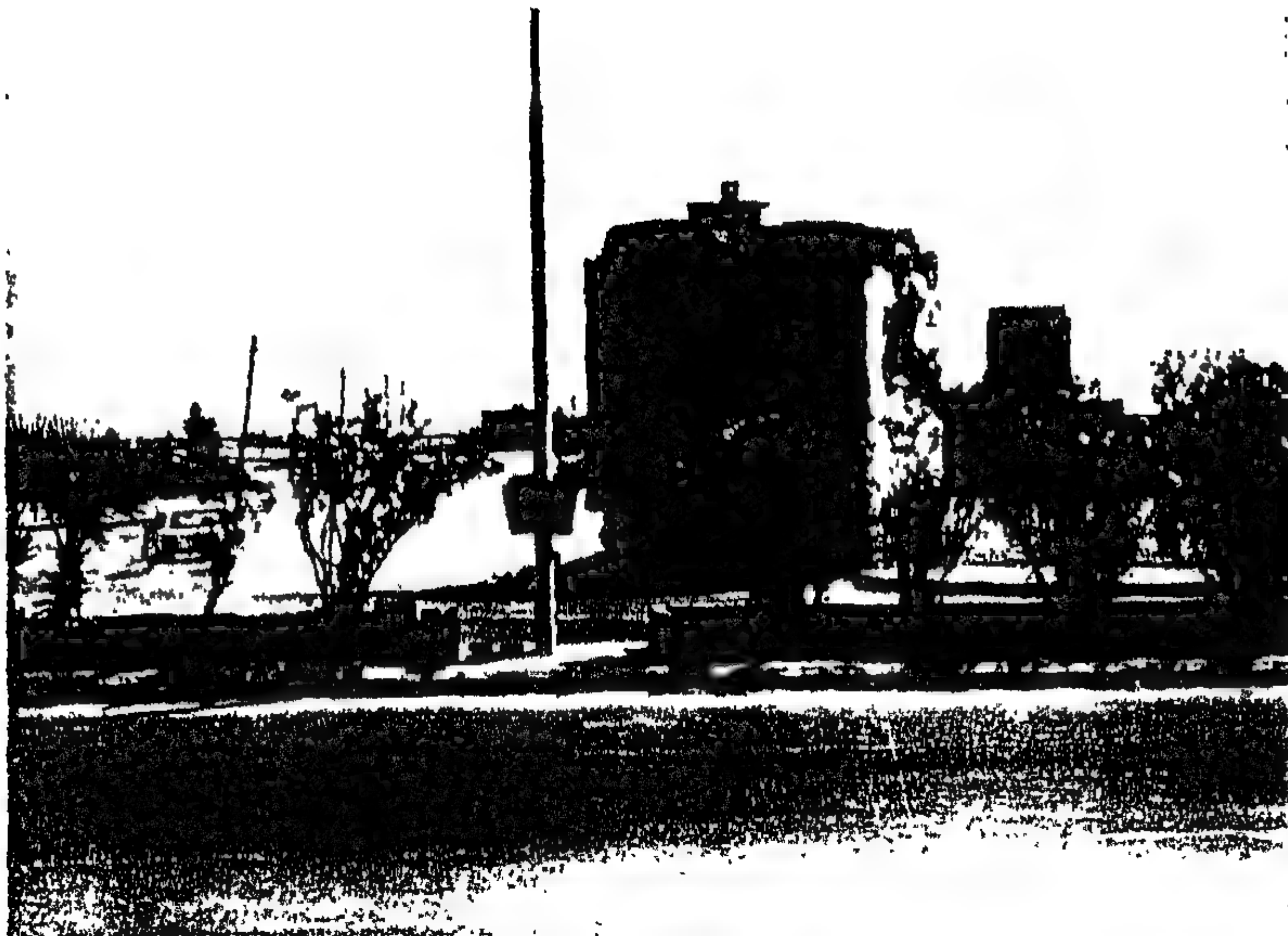


٩١

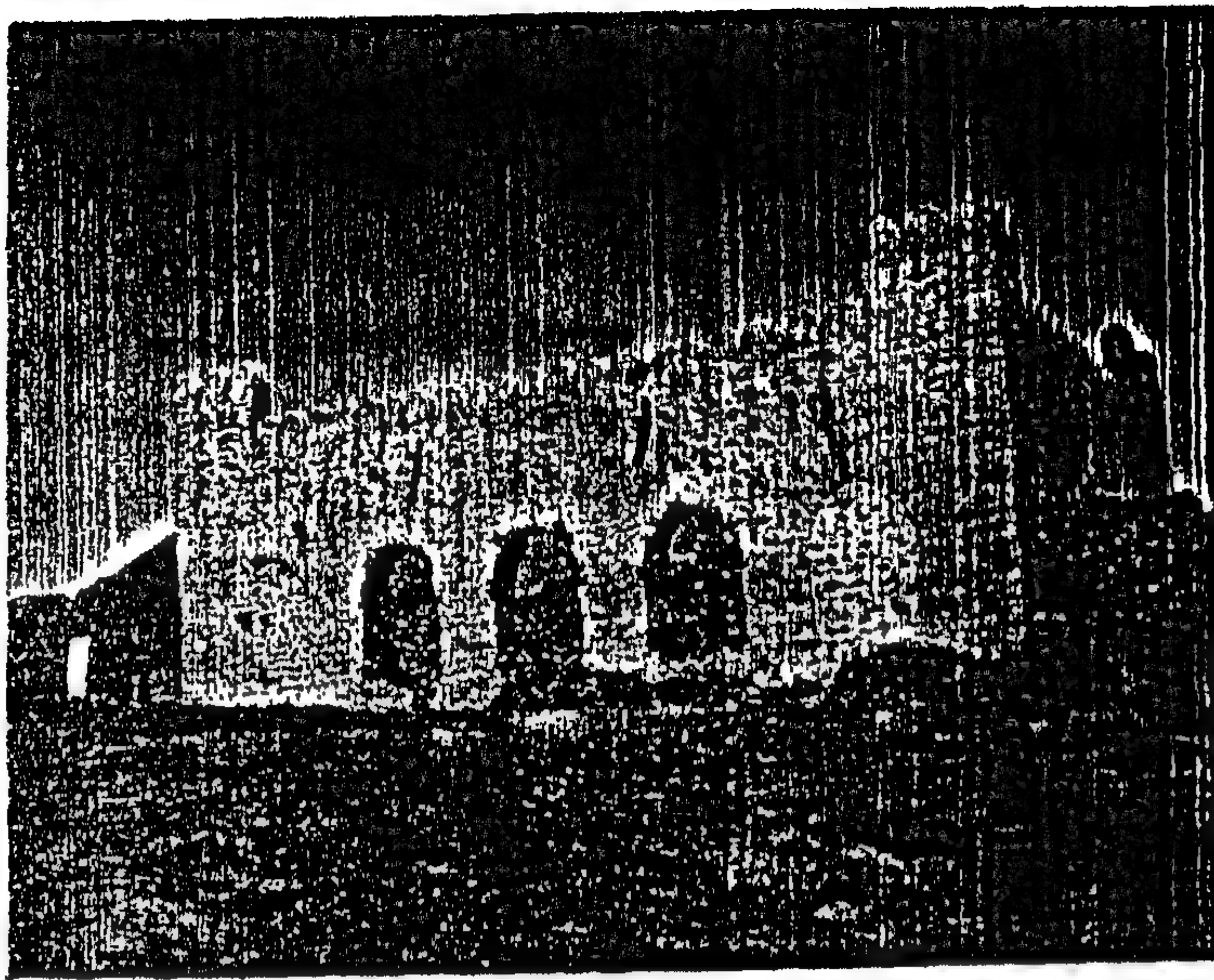


٩٢





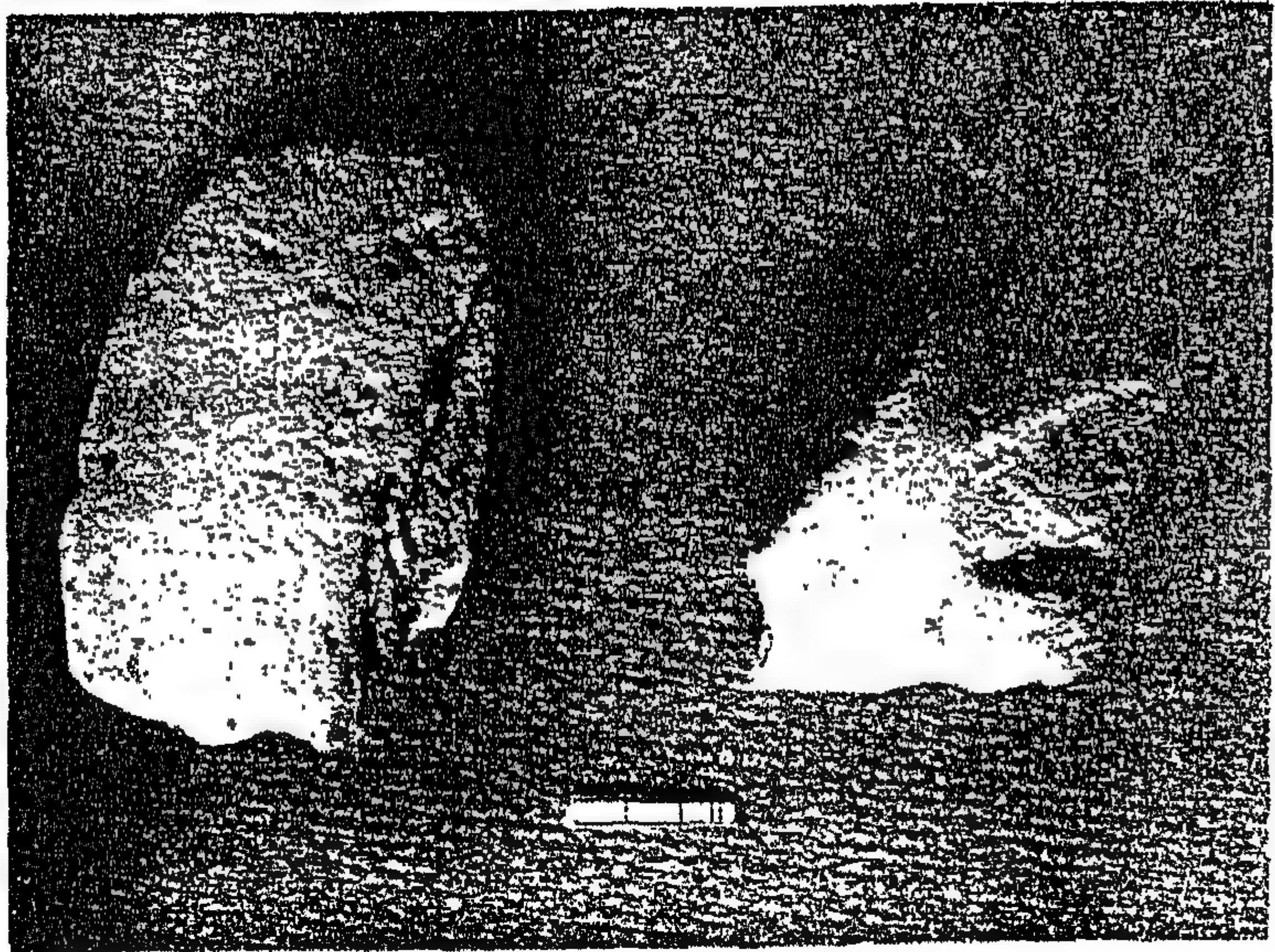
58



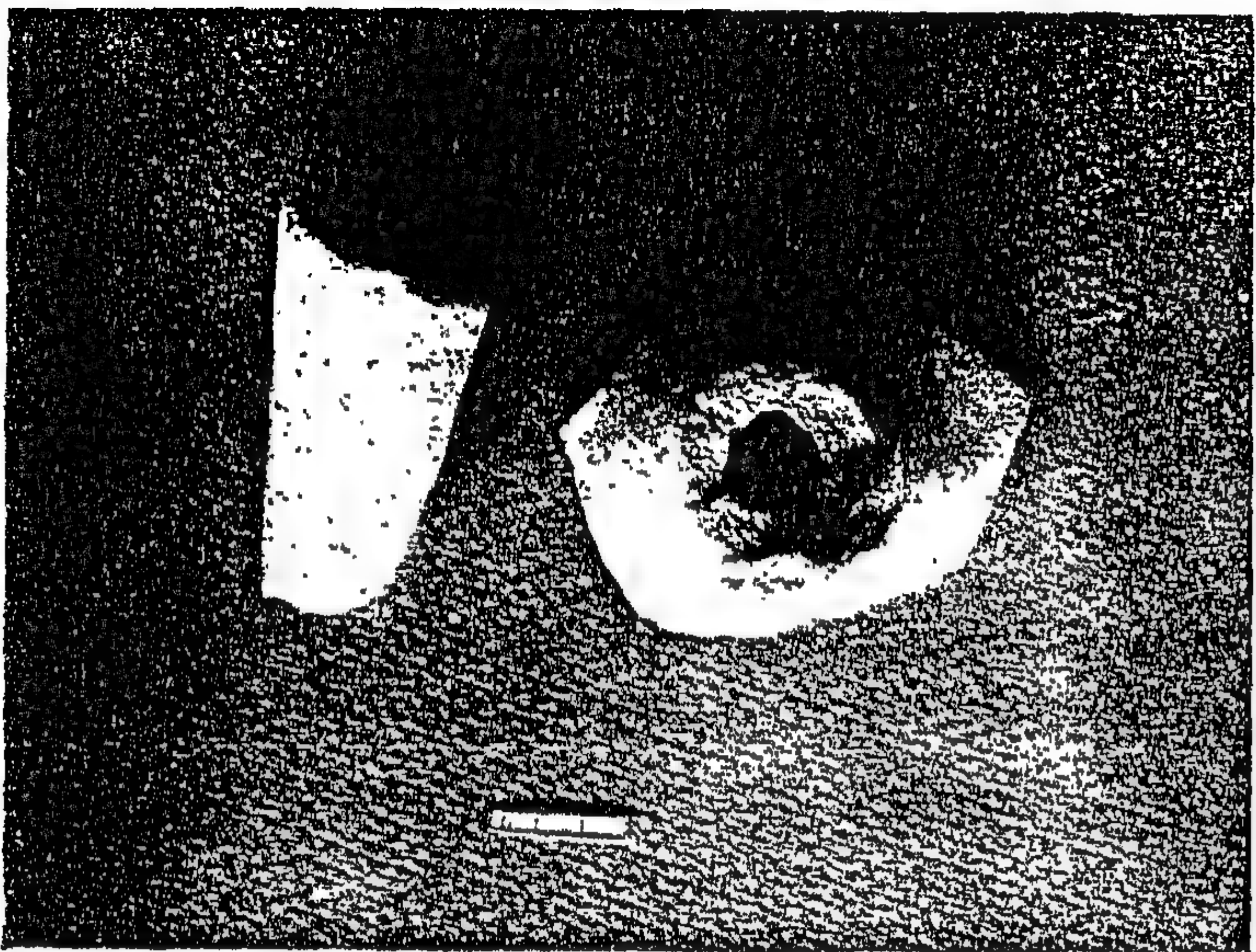
59



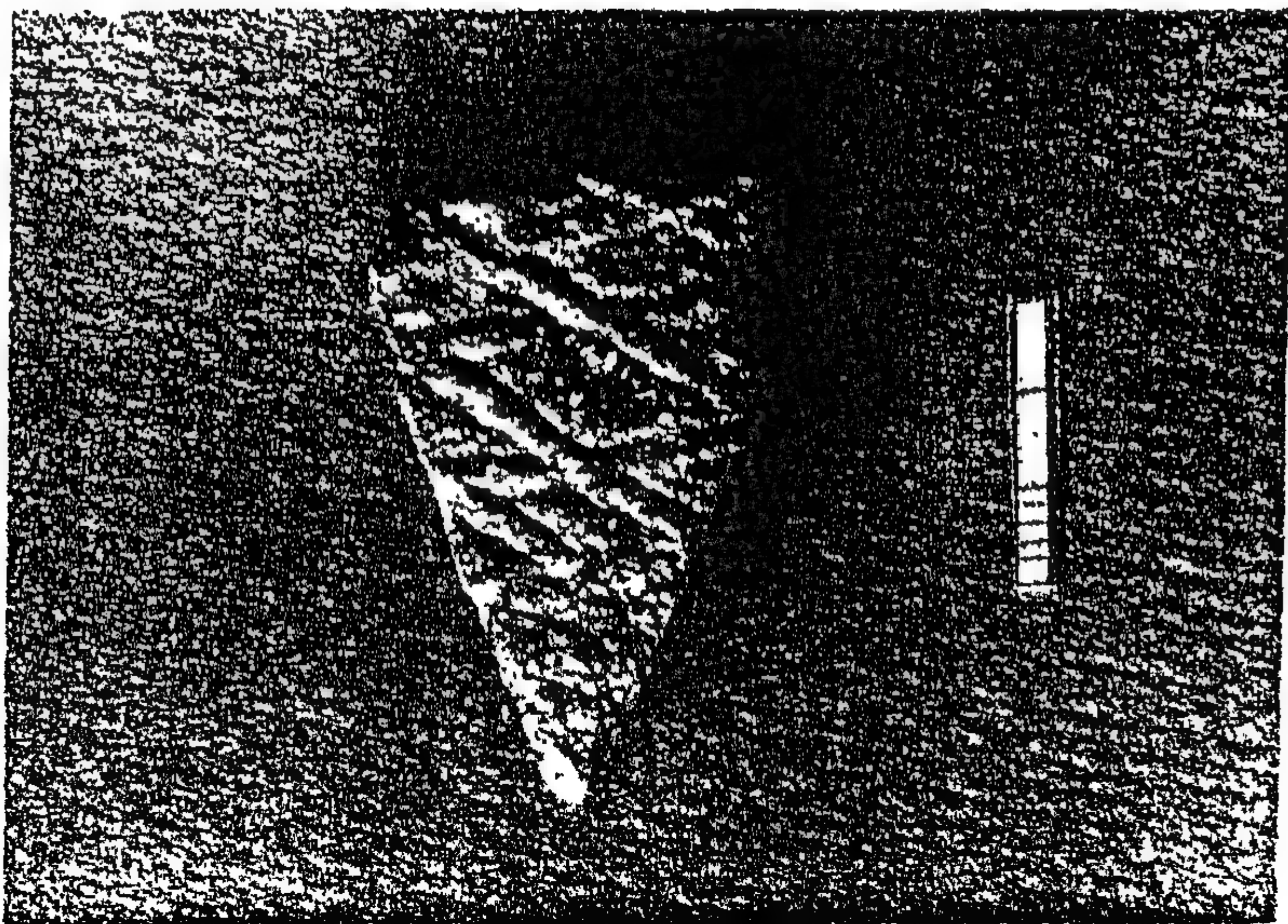
50



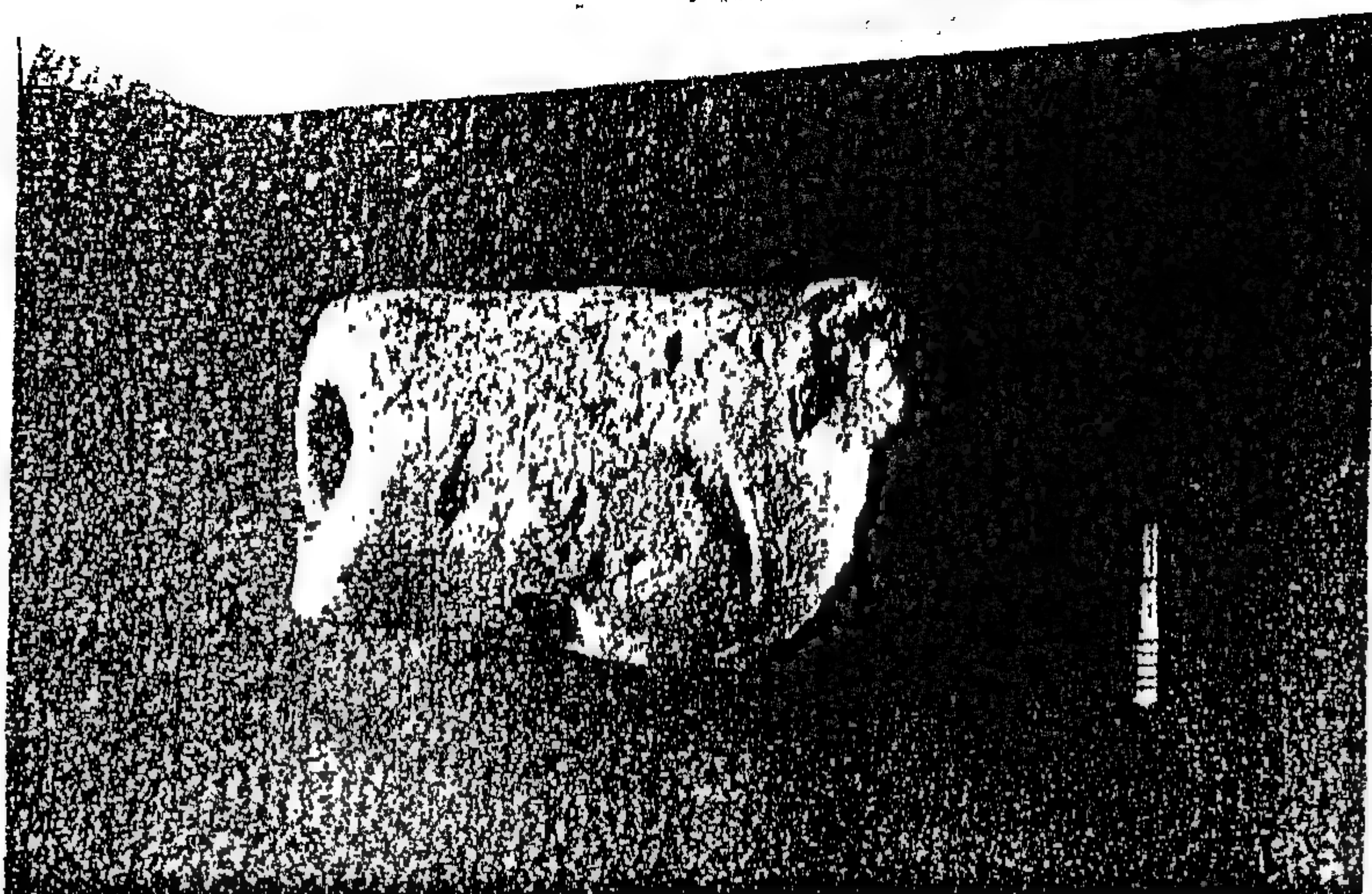
51





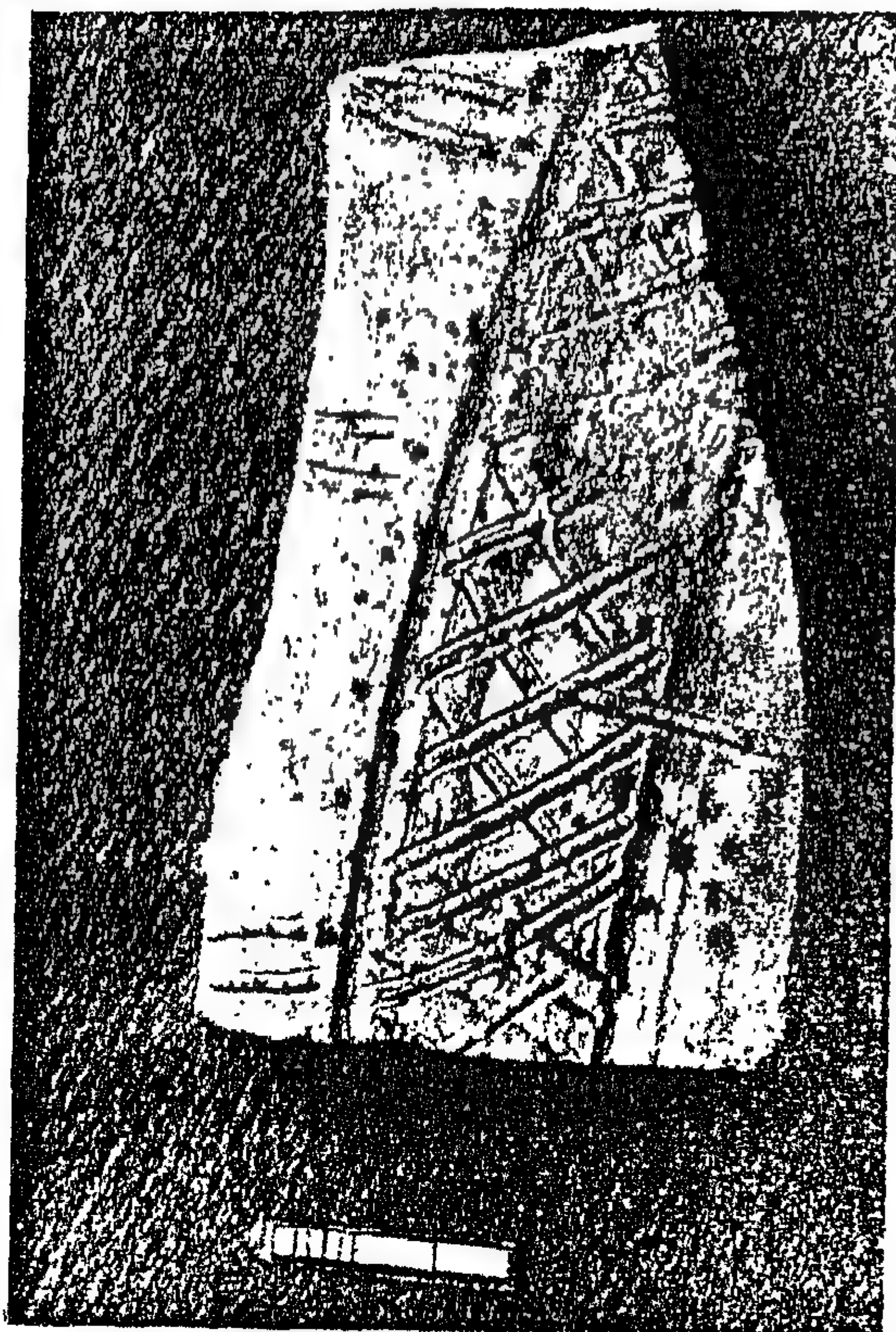


VS

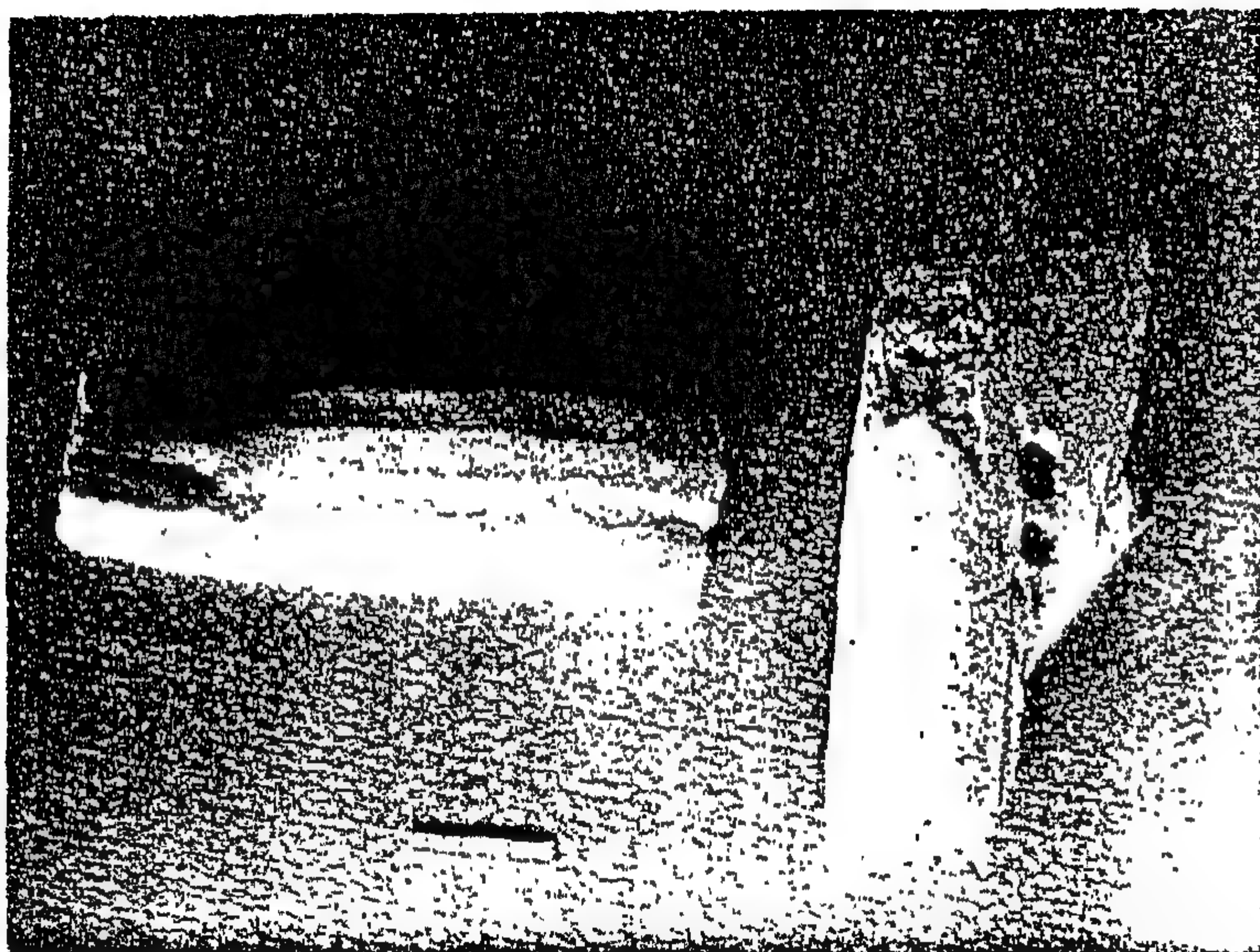


VS





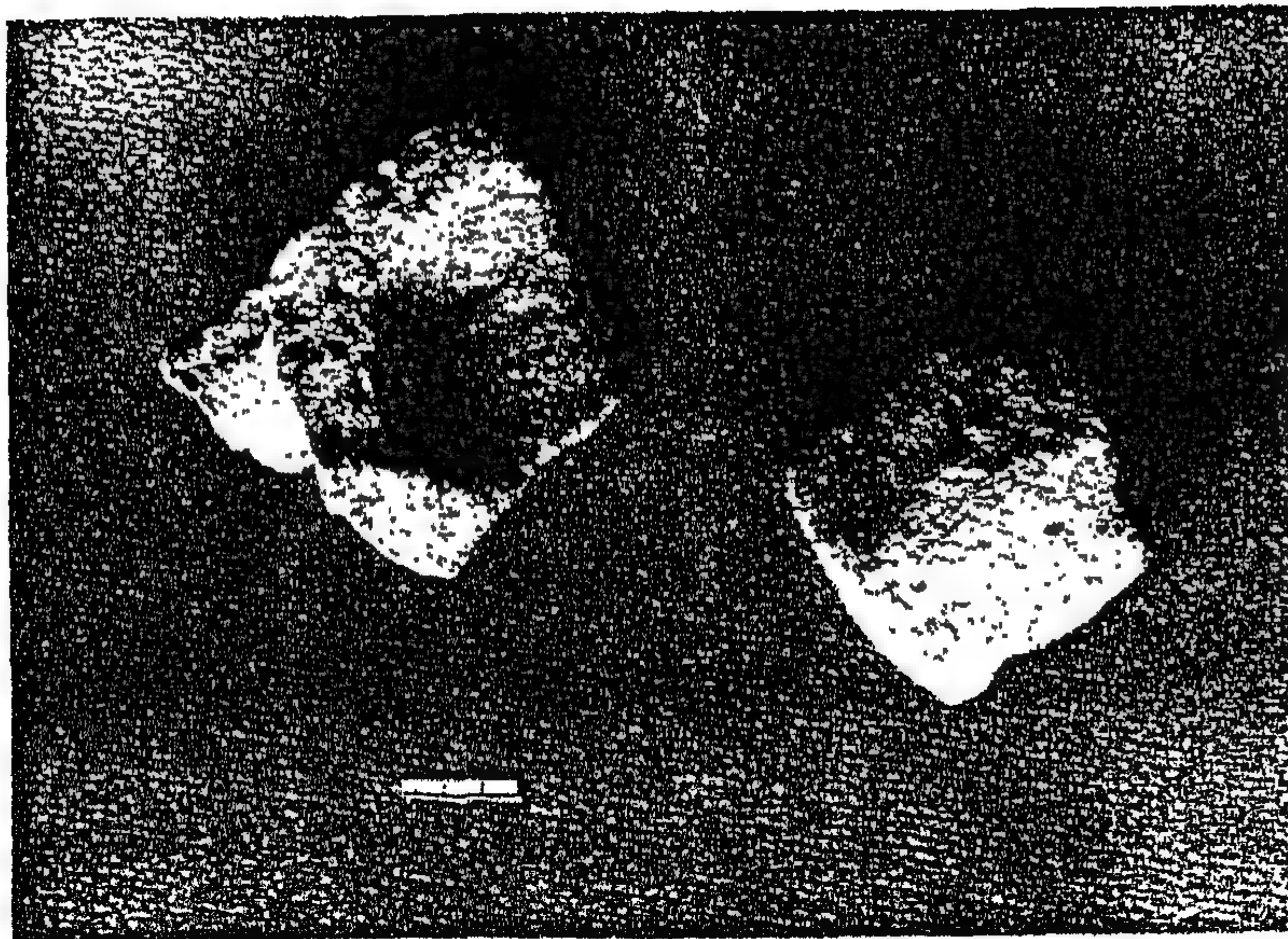
29



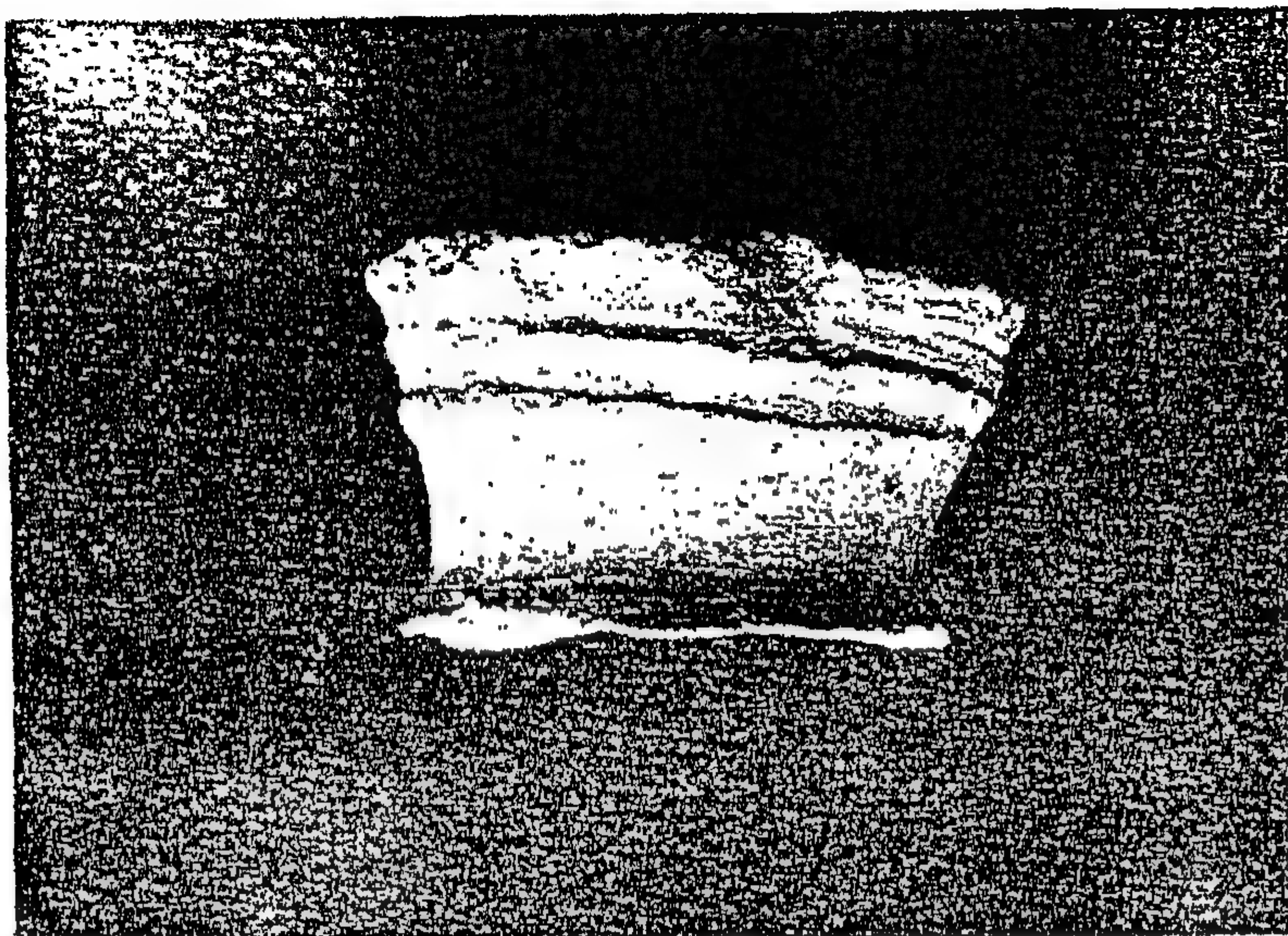
2.



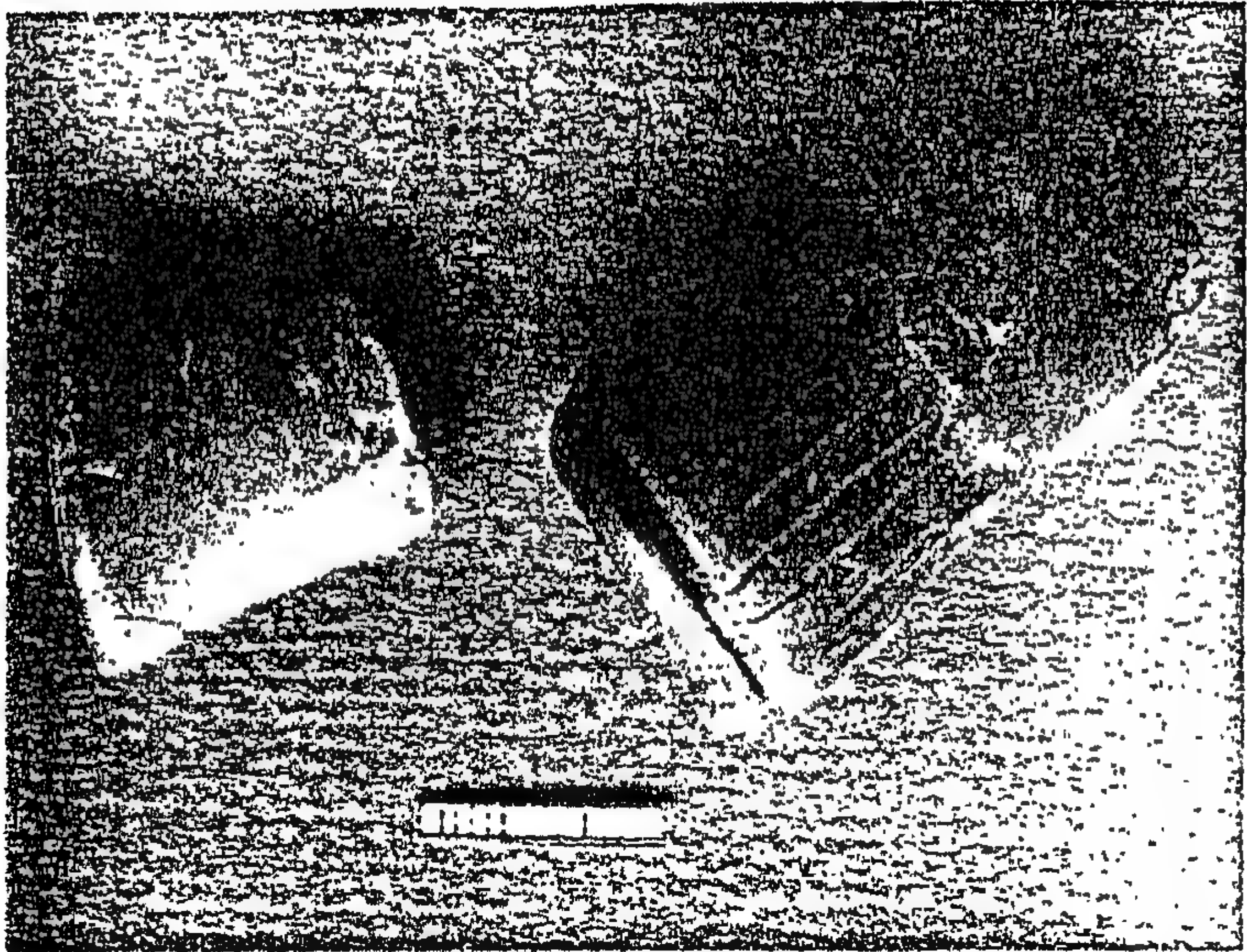
31



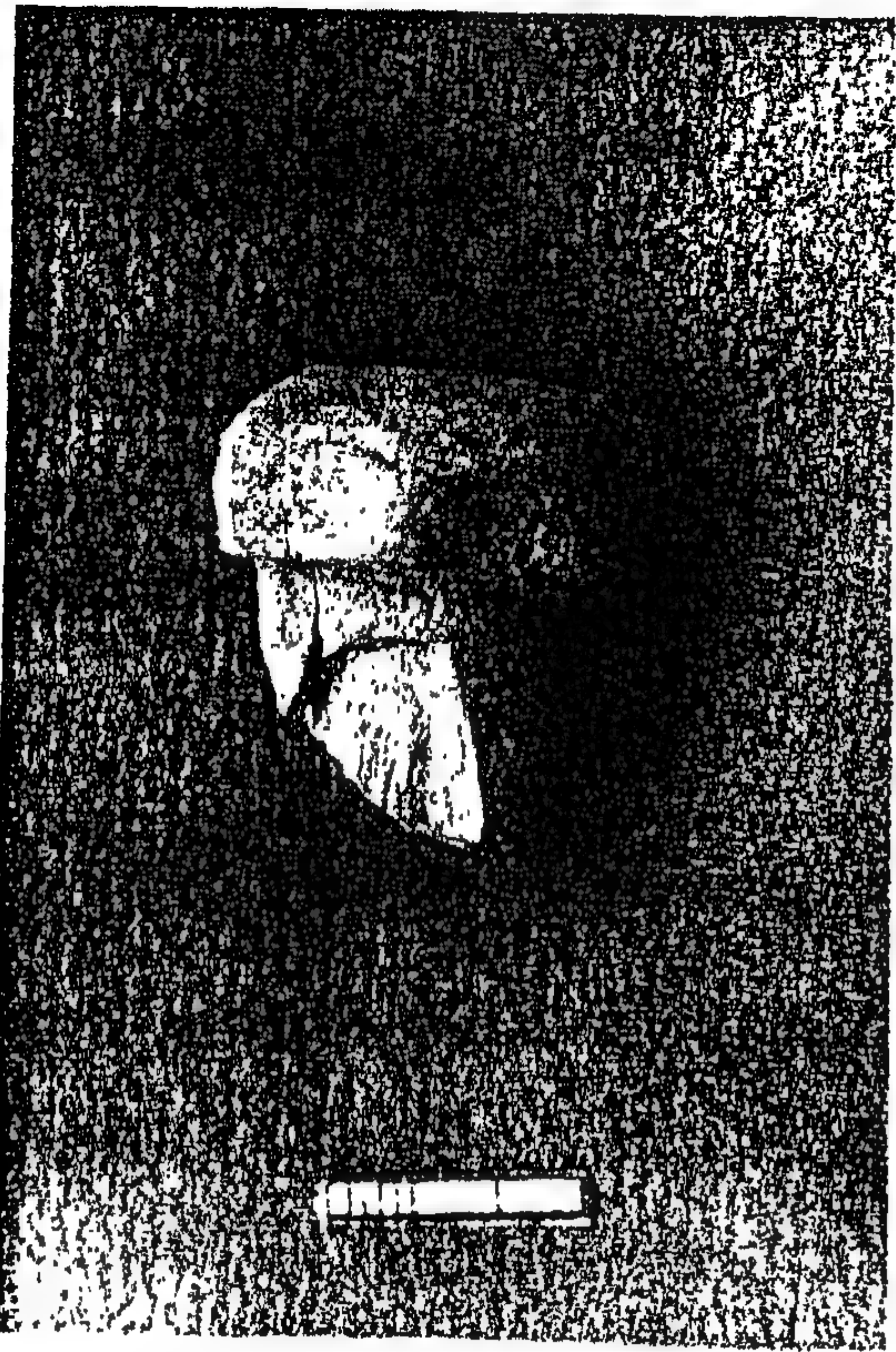
32







۳۳



۳۴

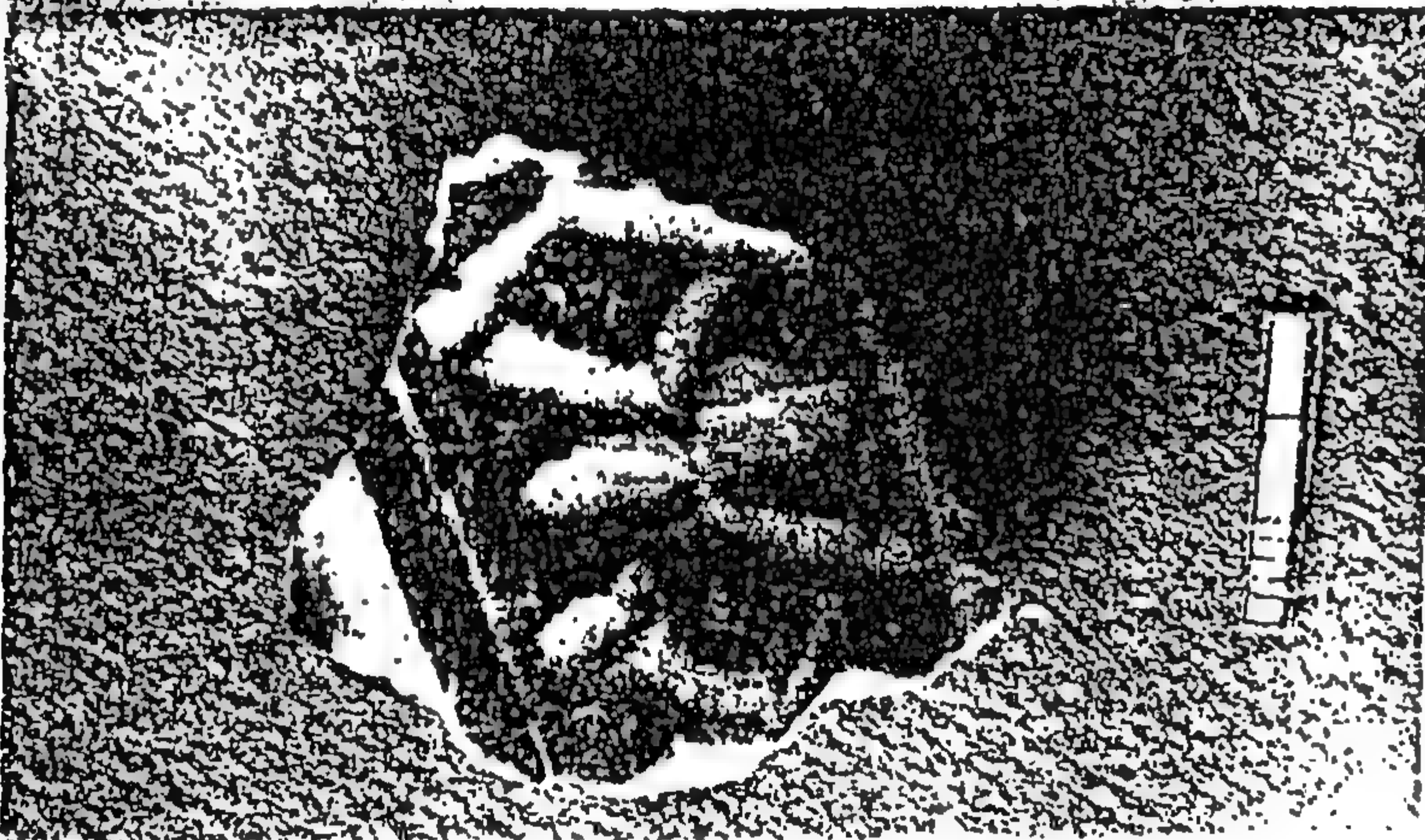




40

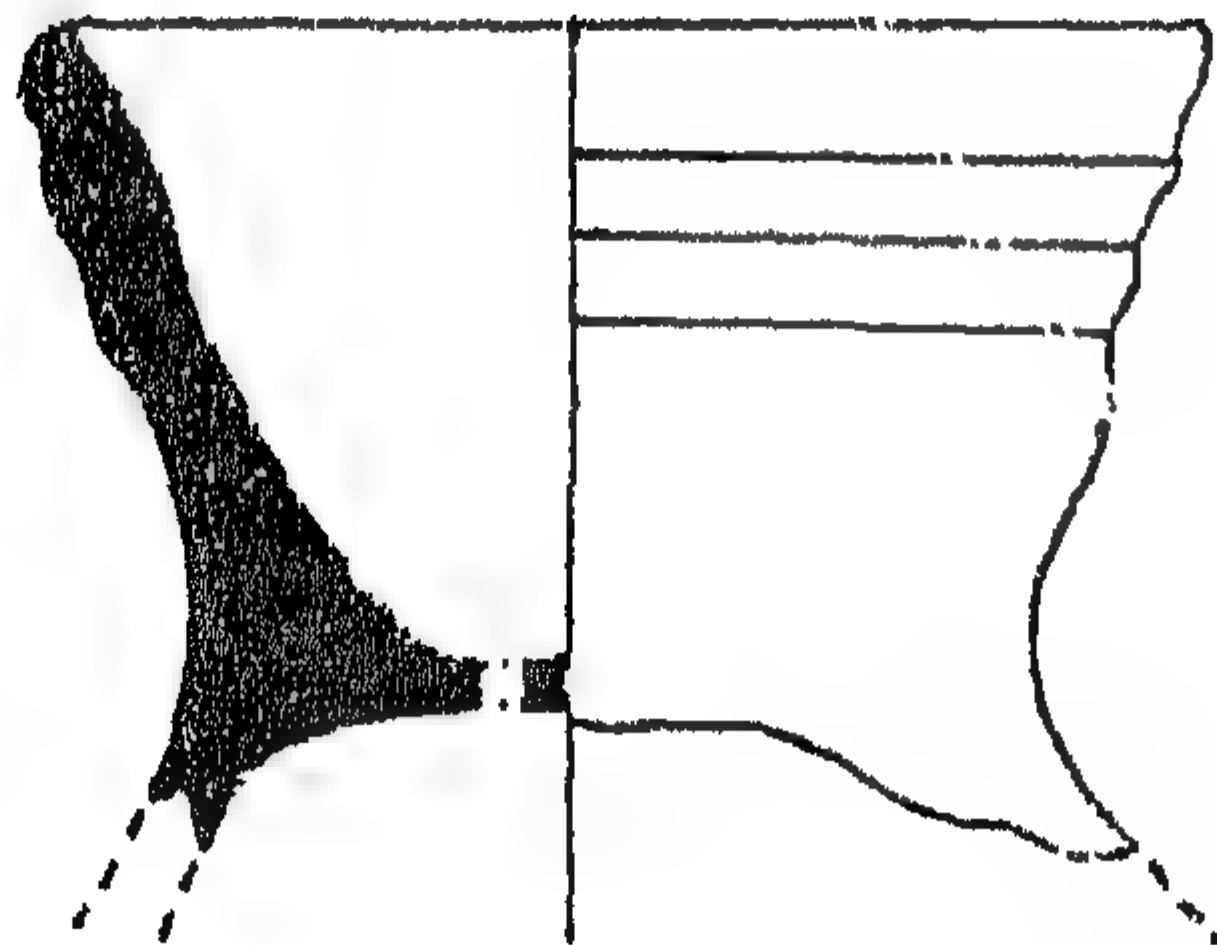
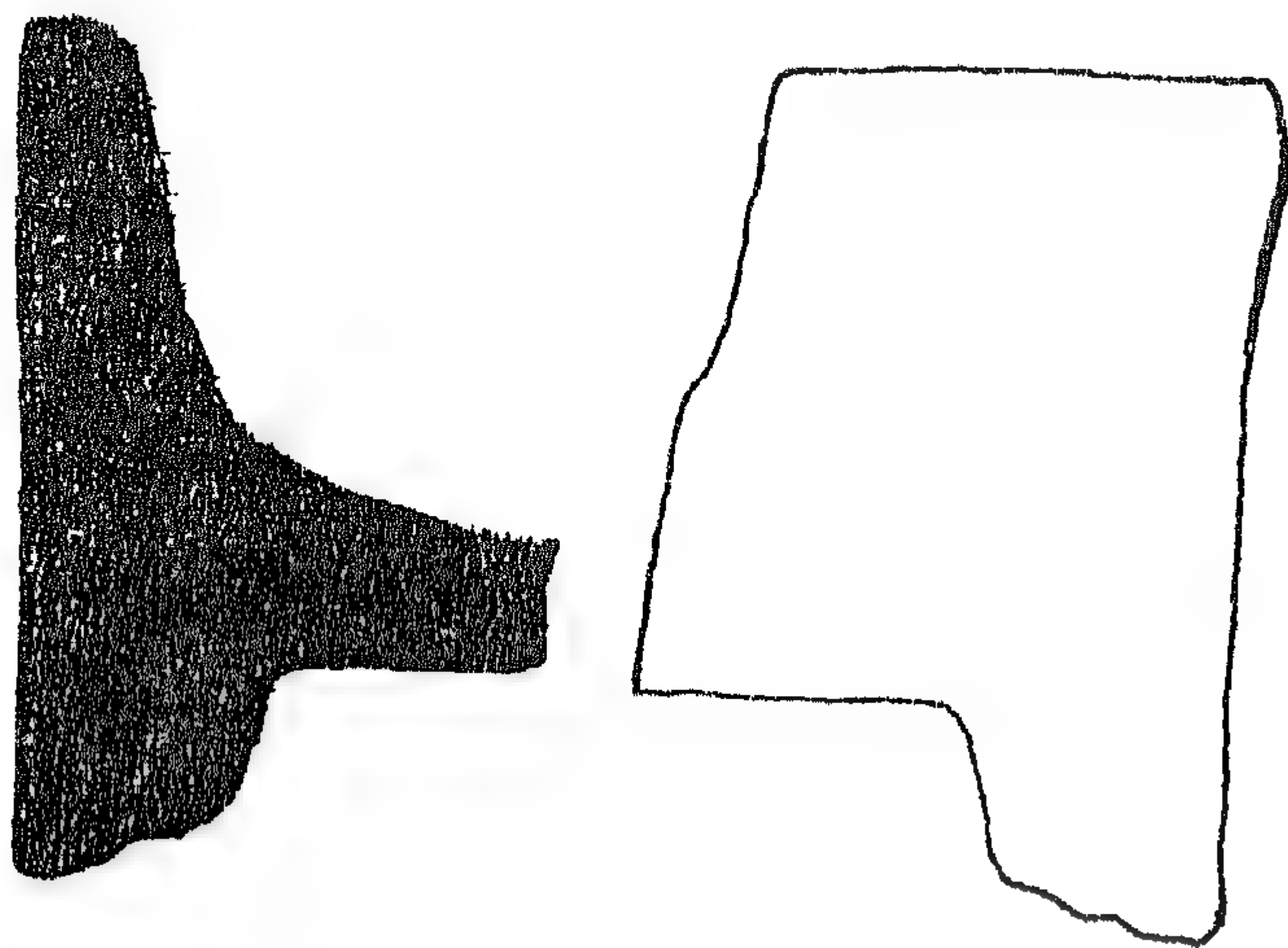
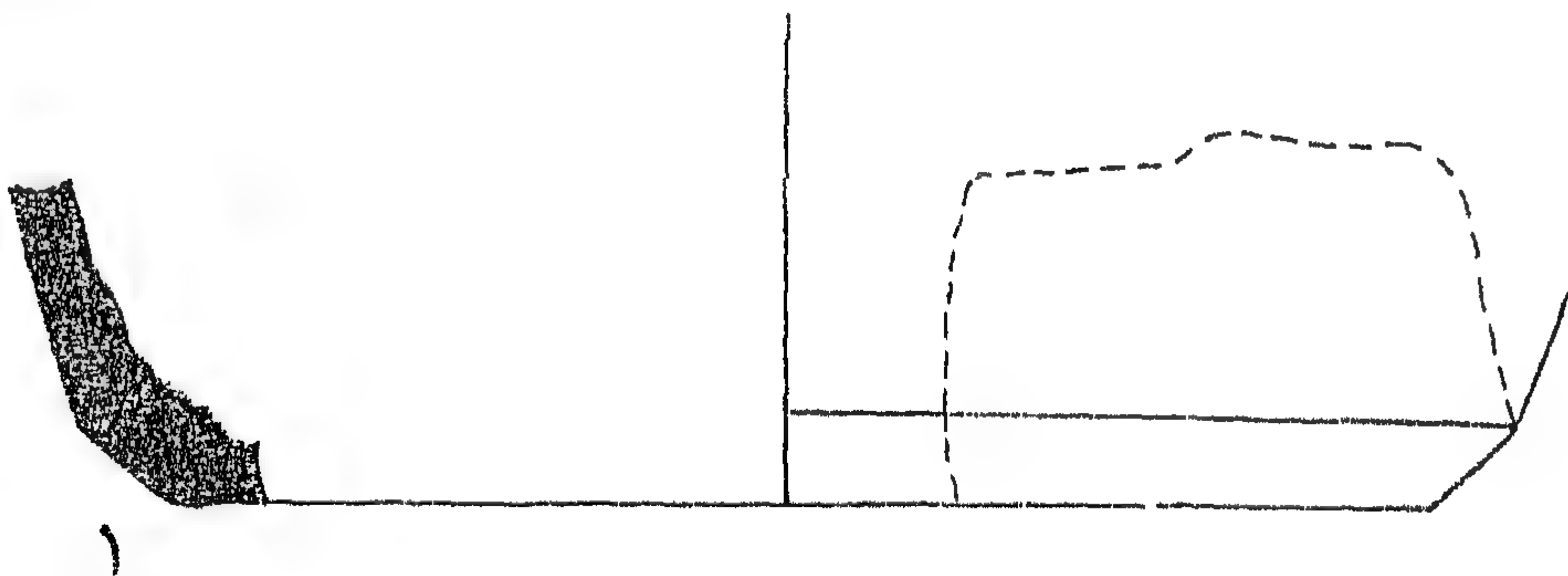


47



# الرسم التوضيحية

( ٣ - ١ )





## ثبت المصادر والمراجع العربية والأوربية

### أولاً : المصادر العربية المنشورة :

\* أحمد بن على القلقشندي : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا - مولود عام (٧٥٦هـ / ١٣٥٥م) - القاهرة (١٣٣٨هـ / ١٩١٩م) .

\* أبو القاسم بن حوقل النصيبى: صورة الأرض - منشورات دار الحياة - بيروت .  
\* أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقى : أخبار مكة المكرمة وما جاء فيها من الآثار - جزءان - تحقيق رشيد الصالح ملحس - مطابع دار الثقافة - مكة المكرمة (١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م) .

\* أحمد الرشيدى : حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولى إمارة الحاج - تحقيق ليلى عبد اللطيف (دكتورة) - القاهرة (١٤٠١هـ / ١٩٨٠م) .

\* أحمد شلبى عبد الغنى الحنفى المصرى : أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات - الملقب بالتاريخ العينى - تقديم وضبط وتصحيح وتحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن .

\* تقى الدين أبو العباس أحمد بن على بن عبد القادر محمد المقرئى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - المعروف بالخطط المقرئية - أربعة أجزاء - القاهرة (١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م) .

\* شهاب الدين أبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى : معجم البلدان - دار صادر ، دار بيروت للطباعة والنشر (١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م) .

\* عبد الرحمن بن حسن الجبترى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار - تحقيق حسن محمد جوهر - أربعة أجزاء - بولاق (١٢٩٧هـ / ١٨٧٩م) .

\* محمد بن عبد المنعم الحميرى : الروض العطار فى خبر الأقطار (معجم جغرافى مع فهرس شاملة) - حققه إحسان عباس (دكتور) - بيروت - الطبعة الأولى (١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م) .



### ثانيًا : القواميس والمعاجم :

\* أبو القاسم محمود بن عمر الزنخشرى ( المتوفى سنة ٥٣٨هـ ) : أساس البلاغة - تحقيق عبد الرحيم محمود - أحياء المعاجم العربية - مصر ( ١٣٧٣هـ / ١٩٥٣م ) .

\* رينهارت دوزى : تكملة المعاجم العربية - تحقيق محمد سليم النعيمى - الجزء الأول - العراق ( ١٣٩٩هـ / ١٩٧٨م ) .

### ثالثًا : كتب الرحلات :

\* إبراهيم رفعت باشا : مرآة الحرمين - جزءان - الطبعة الأولى - مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ( ١٣٤٤هـ / ١٩٢٥م ) .

\* أبو القاسم بن أحمد الزيانى : الترجمانه الكبرى فى أخبار المعمور برًا وبحرًا - حققه وعلق عليه عبد الكريم الفيلالى - نشر وزارة الأنباء المغربية - مطبعة فضالة المحمدية ( ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م ) .

\* أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبى العياشى المغربى المالكى من أهل فاس : ماء الموائد ( المعروفة بالرحلة العياشية ) - تحقيق حمد الجاسر - دار الرفاعى للنشر والطباعة والتوزيع بالرياض - السعودية - الطبعة الأولى ( ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ) .

\* أبو عبد الله بن محمد بن أحمد العبدري : الرحلة المغربية - تحقيق محمد الفاسى - وزارة الشؤون الثقافية والتعليم الأصيل - الرباط - المغرب ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .

\* أحمد بن محمد بن ناصر الدرعى : الرحلة الناصرية " رحلة إلى بيت الله الحرام " إحدى رحلاته الأربع للحج - عام ( ١١٢١هـ / ١٧٠٩م ) - عرض وتلخيص حمد الجاسر - مجلة العرب - ج ٥ ، ٦ ، ١٢ لعام ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م - دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر - الرياض .

\* عبد الغنى بن إسماعيل النابلسى : الحقيقة والمجاز فى الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز - تقديم وإعداد أحمد عبد المجيد هريدى ( دكتور ) - الهيئة المصرية العامة للكتاب ( ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م ) .

\* عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن إبراهيم الأنصارى الجزيرى الحنبلى :  
الدرر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة - ثلاثة أجزاء -  
أعده للنشر حمد الجاسر - منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر  
بالرياض - الطبعة الأولى ( ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ) .

\* عبد المجيد بن على المنالى الزبائدى الحسينى الادريسى : بلوغ المرام بالرحلة إلى  
بيت الله الحرام - تحقيق حمد الجاسر - مجلة العرب - ج ٧ / ٨ س ١٢ عام  
( ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م ) .

\* محمد بن عبد السلام بن عبد الله الناصرى الدرعى المغربى : رحلته الكبرى -  
عام ( ١١٩٦هـ / ١٧٨١م ) ، رحلته الصغرى - عام ( ١٢١١هـ / ١٧٩٦م )  
- عرض وتلخيص حمد الجاسر - منشورات دار الرفاعى للنشر والطباعة  
والتوزيع بالرياض - الطبعة الثانية ( رمضان ١٤٠٣هـ / يونيو ١٩٨٣م ) .  
\* محمد لبيب البتونى : الرحلة الحجازية - الطبعة الثالثة ( ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م )  
- الناشر مكتبة المعارف بالطائف / السعودية .

#### رابعاً : المؤلفات المنشورة :

\* أيوب صبرى باشا : مرآة جزيرة العرب - جزآن - ترجمة أحمد فؤاد متولى  
( دكتور ) ، والصفصافى أحمد المرسى ( دكتور ) - الطبعة الأولى  
( ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ) - دار الرياض للنشر والتوزيع - السعودية .

\* توفيق أحمد عبد الجواد ( دكتور ) : تاريخ العمارة فى الفنون الإسلامية - ج ٣ - القاهرة .  
\* حسن الباشا ( دكتور ) : مدخل إلى الآثار الإسلامية - دار النهضة العربية  
بالقاهرة ( ١٤٠هـ / ١٩٧٩م ) .

\* حسن محمود الشافعى ( دكتور ) : العملة وتاريخها - القاهرة ( ١٤٠١هـ / ١٩٨٠م ) .  
\* حنان الكردى : القلاع الأثرية فى الأردن - مطبعة وزارة السياحة والآثار  
الأردنية ( ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م ) .

\* زكى محمد حسن ( دكتور ) : أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية - القاهرة ( ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م ) .

\* : فنون الإسلام - دار الرائد العربى - بيروت ( ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ) .

\* سعاد ماهر ( دكتورة ) : الخزف التركى - الجهاز المركزى للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية - طبعة ( ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م ) .

\* صالح لمعى مصطفى ( دكتور ) : التراث المعمارى الإسلامى فى مصر - مطبعة جامعة بيروت ( ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م ) .

\* صامويل برنارد : الموازين والنقود - وصف مصر - ترجمة زهير الشايب - ج٦ - ( ١٣٩٨ - ١٣٩٩هـ / ١٩٧٧ - ١٩٧٨م ) .

\* عبد الرؤوف على يوسف : القاهرة تاريخها فنونها آثارها - بحث الفخار .

\* عبد الرحمن فهمى ( دكتور ) : النقود المتداولة أيام الجبرتى - من أبحاث ندوة عبد الرحمن الجبرتى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ( ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م ) .

\* عبد الرحيم عبد الرحمن ( دكتور ) : وثائق تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى - من بحوث ندوة تاريخ العرب الحديث بكلية الآداب / جامعة عين شمس ( ٧ - ١٢ مايو ١٩٧٧م ) .

\* عبد الغنى أحمد ناجى : فى ذكرى الهجرة النبوية - مجلة الوعى الإسلامى - العدد ٣٠١ .

\* عبد الكريم ( دكتور ) : بلاد الحجاز فى المخطوطات المغربية المدونة خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر للهجرة - من أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ الجزيرة العربية - مجلة العرب ج ٣ / ٤ س ١٢ - رمضان / شوال ( ١٣٩٧هـ ) سبتمبر / أكتوبر ( ١٩٧٧م ) .

\* فريد محمود شافعى ( دكتور ) : العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها - عمادة شئون المكتبات - جامعة الملك سعود - الرياض / السعودية - الطبعة الأولى ( ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ) .

- \* فريد محمود شافعى ( دكتور ) : العمارة العربية فى مصر الإسلامية - المجلد الأول - عصر الولاة ( ٢١ - ٣٥٨ هـ / ٦٣٩ - ٩٦٩ م ) - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ( ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م ) .
- \* فؤاد الماوى ( دكتور ) : العلاقات الاقتصادية والمالية بين مصر والحجاز من الفتح العثمانى حتى الاحتلال الفرنسى - الكويت ( ١٤٠١ هـ / ١٩٨٠ هـ ) .
- \* ف . ويستفيلد : جدول السنين الهجرية بلياليها وشهورها بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها وشهورها - ترجمة عبد المنعم ماجد ( دكتور ) ، عبد المحسن رمضان - مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة ( ١٤٠١ هـ / ١٩٨٠ م ) .
- \* كمال الدين سامح ( دكتور ) : العمارة الإسلامية فى مصر - الهيئة العامة للكتب والأجهزة العلمية - مطبعة جامعة القاهرة ( ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م ) .
- \* ليلى عبد اللطيف ( دكتورة ) : دراسات فى تاريخ ومورخى مصر والشام إبان العصر العثمانى - القاهرة ( ١٤٠٠ هـ / ١٩٧٩ م ) .
- \* ليونارد وولى : أعمال المسح الأثرى - ترجمة حسن الباشا ( دكتور ) - دار النهضة العربية - القاهرة ( يوليو ١٩٥٦ م ) .
- \* مساعد بن منصور ( الشريف ) : جدول أمراء مكة وحكامها منذ فتحها إلى الوقت الحاضر ، مطبعة النهضة الحديثة - سوق الليل - مكة المكرمة - الطبعة الأولى ( ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م ) .
- \* م . س . ديماند : الفنون الإسلامية - ترجمة أحمد محمد عيسى ، ومراجعة وتقديم أحمد فكرى ( دكتور ) - دار المعارف بمصر - الطبعة الثانية - يوليو ١٩٥٨ م .
- \* محمد طاهر بن عبد القادر بن محمد الكردى الشافعى الخطاط : التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم - أربعة أجزاء - مكتبة النهضة الحديثة بمكة المكرمة - سوق الليل - الطبعة الأولى - ( ٣٠ ربيع الثانى ١٣٨٥ هـ / ٢٧ أغسطس ١٩٦٥ م ) .

\* محمد فؤاد شكرى ( دكتور ) وآخران : بناء دولة مصر محمد على - دار الفكر العربى - القاهرة ( ١٣٦٨هـ / ١٩٤٨م ) .

\* مطلق بن بادى العتيبي : ملخص التاريخ الإسلامى - الجزء الأول - الطبعة الأولى ( ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م ) - الدمام ( ص . ب ٢٠١ ) .  
خامسًا : الأطالس والخرائط :

\* حسين حمزة بندقجى : أطلس المملكة العربية السعودية - دار جامعة أكسفورد للطباعة والنشر - ( ١٣٩٨هـ / ١٩٧٧م ) .

\* : الخريطة الجغرافية للمملكة العربية السعودية ( مقياس ١ : ٢٢٥٠٠٠٠ )  
- طبعت بدار بلانطير / بريطانيا ( ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ) .

\* حلیم إبراهيم جريس ، يوسف خليل ( دكتور ) ، إجلال السباعى : الأطلس العربى - ج . م . ع - وزارة التربية - الجهاز المركزى للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية - الإصدار الرابع - الطبعة الأولى - ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، رسم وطبع بإدارة المساحة العسكرية بالقاهرة .

\* هارى ، هازارد ، لستركوك ، ج . ماك سمبلى : أطلس التاريخ الإسلامى ، ترجمة وتحقيق إبراهيم خورشيد ، راجعه محمد مصطفى زيادة ، تقديم محمد عوض محمد - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٣٧٤هـ / ١٩٥٤م .

\* يوسف خليل ( دكتور ) ، إجلال السباعى : أطلس الوطن العربى - للناشر مكتبة غريب للطباعة والنشر بالقاهرة .

\* خريطة جزيرة العرب ( مقياس ١ : ٢٠٠٠٠٠٠ ) ، المديرية العامة للزيت والمعادن - وزارة المالية والاقتصاد - السعودية - مصلحة المساحة الجيولوجية الأمريكية ( ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م ) .

\* خريطة جغرافية ( ٢٠٠ / أب ) أبحاث جيولوجية مختلفة ( مقياس ١ : ٥٠٠٠٠٠ ) - المديرية العامة للزيت والمعادن - المملكة العربية السعودية ١٣٨١هـ / ١٩٦١م .



\* خريطة جغرافية ( ٢٠٤ / أب ) أبحاث جيولوجية مختلفة ( مقياس ١ : ٥٠٠٠٠٠ ) - المديرية العامة للزيت والمعادن - المملكة العربية السعودية - ( ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م ) .

\* خريطة طبوغرافية للجزيرة العربية ( مقياس ١ : ٢٠٠٠٠٠٠ ) - وزارة المواصلات بالتعاون مع وزارة البترول والثروة المعدنية بالمملكة العربية السعودية - المطابع الأهلية للأوفست بالرياض .

### سادسًا : المراجع الأوربية :

- \* Abdullah Al - wohailbi, Map of the Northern Hijaz 800- 1150 (scale 1 : 2.000.000) . University of Riyadh.
- \* Burckhardt J. L., Travels in Arabia, London, 1829.
- \* G. Reitlinger, unglazed Relief pottery from Northern Mesopotamia ( In Ars Islamica ), Vols. XV - XVI, 1937.
- \* John Bartholomew and son LTD, Edinburgh, World Travel Map, Arabian peninsula ( Scale 1 : 3.000.000 ).
- \* Pitts, Joseph Voyage de 1685, dans Voyages en Egypte Pendant Les Anne'es 1678 - 1701. Institute Francais D'Arche'ologie Orientale, Le Caire, 1981.
- \* Shaw, S. J., The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517 - 1798, New Jersey 1962.
- \* ———, Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution, Cambridge, 1967.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

---

رقم الإيداع ١٩٩٤/٦٥٤٩

---

---

**المطبعة الإسلامية الحديثة**

٤٢ ش دار السعادة - حلمية الزيتون

القاهرة - ت ٢٤٠٨٥٥٨